سجل القلب

شكر المؤلف وامتنانه على البادرة التشجيعية الكريمة

للصديق الاستاذ **الياس بيطار**، مدير المدرسة الاورثوذكسية في طرابلس القبة،

وللصديق الاستاذ **سمير الخطيب**، رئيس دائرة نفوس بيروت.

مَسعُود الخوَند

القارّات . المناطِق . الدّوَل . البُلدان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

معَالِم . وَثائِق . موضوعَات . زعَمَاء

الجزء الثامن

جورجيا – زائير

مقدمة

قرأت الأجزاء السبعة من «الموسوعة التأريخية-الجغرافية» للاستاذ مسعود الخوند، وكنتُ بإزاء كل جزء كالغائص في بحر، فإذا تعبتُ من جمع اللآلىء التي لا يتعب من جمعها مسعود، أحببتُ أن أستريح في عمق بحْره، لا أن أتنفس على السطح، ولا سيما ان مسعودًا قد أهدى إلى رئة الروح، أطيب أنسام المعرفة، وكفاهُ من شرف الصبر على العلم أنه أمضى سنواتٍ عصيةً، وهو يبحث، وينقّب، لنفيدَ نحن من محصول السنوات في قليل من الساعات، ولتَقَرّ عيوننا، ونحن نقرأ، فنتذكر ما قالته العرب قديمًا: «كلّ ما قرّت به العينُ صالحٌ».

هأنذا أمام الجزء الثامن، أزداد اقتناعًا بأن هذه الموسوعة ستبلغ نهايتها المرسومة لتحتلّ موقعًا متميزًا في مكتبتنا العربية، ولَشَدّ ما نفتقر إلى المؤلفين الموسوعيين في حياتنا الثقافية، وقد يقول لي قائل، ألا يكفيك ما تصدره مراكز الابحاث من موسوعات، فأردّ عليه عندئذ قائلاً: تهمني الموسوعات كثيرًا، وأقدّر قيمة أن يجتمع مئة باحث في مركز واحد ليصدروا موسوعة، ولكن ما يهمني أكثر هو المؤلف الموسوعي، إذ إنه يُمسك بخيط موسوعته من أوله إلى آخره، ويحوك على نول الوحدة في التأليف، ويسكب من عقله وروحه فلا تأتي المعلومات في الموسوعة محتشدةً كآلاف البشر في مكان واحد، تضيع فيها الهويّة، والخصائص، والمميزات، بل تتكامل كما يتكامل النهر من النبع إلى المصب، وأنت في مجرى النهر تسبح في الماء الواحد على رغم تبدل الماء، وترتوي، وتتجدد. ولقد فعل كل هذا الاستاذ مسعود الخوند، حتى لأحسب أنه إبّان غرقه في العمل بهذه الروحية، كان شديد الخوف على عمله، قويّ العزم على قهر النفس، غير أنه لم يكن يدرك أن موسوعته ستحقق هذا القدر الكبير من الاحترام العلمي والثقافي، ولكنها حققت ذلك، وشيمة العلماء دومًا هي أنهم يظلمون أنفسهم كي لا يظلموا الآخرين. ولهذا فهم يبدأون طريقهم بالخوف العلمي الجميل فيزدادون حرصًا ليختموا الطريق بالنجاح، أو على الأصح، يبدأون طريقهم بالقلق الابداعي لينتهوا بعده إلى الاطمئنان.

وبعد، أذكر أنني سألت مرة العلامة الراحل الشيخ عبد الله العلايلي عن رأيه في واقع التأليف الموسوعي في ثقافتنا العربية المعاصرة، فقال: «فرسانُهُ قلائلُ، وأحصنتُهُ صعبةُ القياد».

قلت: وما ميزة الموسوعي؟ فأجاب: «جمعٌ للتأليف، لا تأليفٌ من جمع»، ولقد اختصر

بسام ضو

كاتب وصحافي لبناني

بقوله هذا كل شيء في علم الموسوعات، وأكّد أن الموسوعيّ هو الذي يضيف من روحه وعقله، فلا يكتفي بالنقل والجمع والتبويب، فهل استطاع ذلك مسعود الخوند، وأين أضاف؟

إخالني لا أبالغُ إذا قلت: نعم، لقد استطاع، أما أين، ففي النواحي الآتية:

١- التوازن الدقيق بين القديم والحديث، فهو إذا أوجز لنا مادة تاريخية أو جغرافية، أو أنتروبولوجية، يحرص على أن يغوص في جذورها القديمة، وعلى أن يلاحق آخر تطوراتها المعاصرة حتى وقت تأليف ا لموسوعة.

٢- أدخل إلى التأليف ا لموسوعي ميزة جديدة، فهو يعرض «المعلومة» ثم يُتبعها بنقاش منوّع يستمدّه مما كُتب عن هذه المعلومة في كبريات الصحف العربية والعالمية، وفي الكتب المتخصصة، وكأنه يريد أن يلفت انتباهنا إلى أن «المعلومة» و«الرأي» قيمتان متكاملتان جدليًا، وبهذا استطاع الاستاذ مسعود الخوند أن يخرج على الاسلوب المعجمي أو القاموسي في التأليف الموسوعي.

٣- أظنُّ أن موسوعته هي الأولى في مكتبتنا العربية من حيث إنها أعطت في التاريخ السياسي حيّزًا واسعًا وهامًّا لحركة الشعوب في كفاحها من اجل الحرية والعدالة أكثر مما أعطته أية موسوعة أخرى من الموسوعات التي تشدّد على حركة أهل السلطة وتربط التاريخ بهم، وكأن المؤلف أراد بذلك أن يدافع عن حق الشعوب الذي يُهضم مرتين: مرة حين يستبيحه الظالمون، ومرة حين يُهمّشه المؤرخون.

٤- سهولة الاسلوب، والابتعاد عن التعقيد، وهذا ما يوسّع الميدان المعرفي، إذ تصبح الموسوعة في متناول القارئ العادي، والقارئ المتخصص، فضلاً عن الموضوعية، وإن يكن المؤلف في كثير من المواضع يعبّر خلف السطور عن إنتمائه الصادق إلى حضارة العرب والشرق.

ويبقى أن أعبّر عن تقديري العميق لـ«فردٍ» أنجز عملاً موسوعيًا، يحمل روحًا إنسانية حضارية، ويُغني المكتبة العربية المعاصرة، ويضيف مدماكًا جميلاً رائعًا في بنيان المعرفة، وهل أروع من أن يساهم المرء في إعلاء هذا البنيان!؟.

فهرست

مدن ومعالم

زعماء ورجال دولة

جــورجـيــا

(جيورجيا)

بطاقة تعريف

الاســم: عرفت جورجيا ايضًا، خاصة في الكتابات التاريخية العربية والاسلامية، ببلاد الكرج أو كرجستان (راجع «أبخازيا» في الجزء الاول).

الموقع: تقع جمهورية جورجيا في منطقة القوقاز عند الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا (تقع في الجهة الاوروبية). تتمتع بحدود طبيعية منيعة (جبال عالية) من الشمال والجنوب، وواجهة على البحر الأسود. لكن حدودها الشرقية مفتوحة على الشرق، ومنها تعرّضت البلاد لغزوات متوالية على مرّ القرون. تحيط بها أذربيجان، أرمينيا، تركيا، البحر الاسود وروسيا (داغستان، الشيشان، أوسيتيا الشمالية، بلقاريا وبلاد الشركس).

المساحة: ٦٩٧٠٠كلم م.

العاصمة: تبيليسي Tbilissi، ويقال لها ايضًا تيفليس Tiflis، وتعد نحو ١،٧٥٠ مليون نسمة. وكوتيزي Kutaisi، أهم مدينة بعد العاصمة.

اللغة: الجورجية (راجع مطلع النبذة التاريخية).

السكان: تعد جورجيا نحو ٦،٥ مليون نسمة. نحو ٦٩٪ منهم من اصل جورجي، ٩٪ أرمني، ٨٪ روسي، ٥،١٪ أذري، ٣،٢٪ أوسيتي، ١،٧٪ أبخازي، ١،٩٪ يوناني، ٠،٤٪ يهودي، ٠،٥٪ كردي، ٠،٩٪ أوكراني. وهناك نحو ٤٠٠ ألف كوري، هم أبناء وأحفاد الكوريين الذين أُبعدوا إلى البلاد في ١٩٣٧. ويدين الجورجيون بالمسيحية الأرثوذكسية.

الحكم: نظام الحكم جمهوري. رئيس الجمهورية الحالي (١٩٩٦) إدوارد شيفاردنادزه. البرلمان من ٢٥٠ نائبًا. الاحزاب: كتلة «السلام» (الحزب الشيوعي سابقًا)، وكتلة «الوحدة»، والحزب الوطني الديمقراطي، وحزب الخضر.

مناطق الحكم الذاتي: تضم جمهورية جورجيا جمهوريتين مستقلتين استقلالاً ذاتيًا، هما: أبخازيا (راجع الجزء الاول) وأدجاريا (راجع الجزء الاول)؛ وأضيفت إليهما، قبيل ١٩٩٠، منطقة ذات حكم ذاتي هي أوسيتيا (راجع الجزء الرابع).

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة على القطاعات بالنسب التالية: ٢٥٪ في الزراعة، ١٩٪ في الصناعة، و٥٦٪ في الخدمات والتجارة. زراعة الكرمة تحتل وحدها ٢٧٪ من إجمالي الاراضي المزروعة، تليها زراعة الشاي، وبعدهما تأتي تربية الماشية. الصناعات تقهقرت عما كانت عليه في ايام الاتحاد السوفياتي نتيجة لانعدام المواد الاولية وللاضطرابات السياسية التي تفجرت فور نيل البلاد استقلالها، ولم تهدأ (نسبيًا) إلا في اواسط ١٩٩٥. وقد كانت جورجيا تعتبر إحدى أهم جمهوريات الاتحاد السوفياتي ازدهارًا. أهم صناعة منجمية، المانغانيز. وهناك صناعة الأسمدة والجلود والورق؛ وصناعات ميكانيكية وحديدية في مدينة روستاري؛ وفي باكوني مصافي لتكرير النفط.

حاولت جورجيا، في السنتين الاولين من استقلالها، الالتفات نحو الغرب وربط إقتصادها به.
لكن الحرب الاهلية، وحرب انفصال أبخازيا والضغط الروسي المتزايد عليها (إضافة إلى ظروفها الجيوبوليتيكية) كلها عوامل جعلتها تبقى في منطقة الروبل الروسي. ويعرف الاقتصاد الجورجي بطالة متفاقمة، وتتحكم به (أقله حتى اواسط ١٩٩٥) المافيات بفعل ضعف السلطة أو غيابها، وتستنزفه هجرة متزايدة (خاصة باتجاه روسيا) لليد العاملة الماهرة وللادمغة.
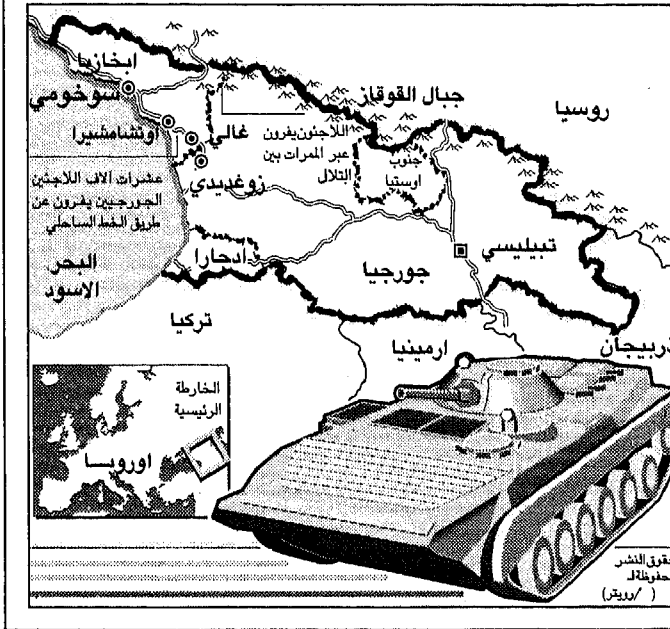
خريطة جورجيا (وتبدو ضمنها، داخل حدود منقطة، جمهوريات الاستقلال الذاتي: أبخازيا، جنوب أوسيتيا وادجاريا) كما كانت تتوزعها، نقلاً عن وكالة «رويتز»، وسائل الاعلام إبان حرب الانفصاليين الابخاز.

نبذة تاريخية

قديمًا: عُرفت جورجيا قديمًا (قبل الميلاد) باسم «إيبيريا»، وهذا الاسم هو إسم للغة آسيوية-قوقازية ما تزال أصولها غير معروفة. بين العامين ٣٠٠ و٢٦٥ق.م. احتل الفرس البلاد في إطار احتلالهم للمنطقة. وأعاد الفرس الساسانيون سيطرتهم عليها (بشكل متقطع) بين القرنين الثالث والثامن.

في القرن الرابع-الخامس، ظهرت الألفباء (الأبجدية) الجورجية التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيبيرية-القوقازية، وتزامن هذا الظهور مع دخول المسيحية إلى البلاد (الشهيدة القديسة «نينو» التي استشهدت في العام ٣٣٠، وما يزال الجورجيون يكرمون ذكراها ويعتبرونها شفيعة البلاد).

في ٧٨٧، استقلت البلاد عن الفرس الساسانيين، وحكمتها أسرة «باغراسيون» Bagration، وأضحت إحدى ممالك الشرق طيلة القرون الوسطى، ومدّت سيطرتها إلى خارج حدودها، وعرفت عصرها الذهبي في عهد الملكة تامار Thamar (١١٨٤-

١٢١٣).

منذ اوائل القرن الثالث عشر، أصبحت جورجيا عرضة لغزوات المغول القادمين من جهة الشرق، وفي ١٣٨٦ سقطت في يد تيمورلنك، ودخلت في مرحلة طويلة من التقهقر، خاصة وان سقوط بيزنطية أفقدها الدرع الحامي لها. فتوالت عليها الغزوات العربية والفارسية، ولكنها استمرت معتنقة، بشكل عام، للمسيحية الأرثوذكسية، رغم ان جماعات عديدة اعتنقت الاسلام في عهود السيطرة التركية خاصة، ورغم ان ملكها اعتنق الاسلام ايضًا في ١٦١٥ مع سيطرة فارسية جديدة (راجع «أبخازيا» في الجزء الاول).

حديثًا: في القرن الثامن عشر، تمكن الملك هرقليوس الثاني من استعادة الاستقلال، ولكن لعقود قليلة. ففي ١٧٨٣، وقعت معاهدة بين جورجيا وروسيا القيصرية جعلت من جورجيا محمية روسية. ورغم هذه المعاهدة، أحجمت روسيا عن التدخل، في ١٧٩٥، لانقاذ العاصمة تبيليسي (تيفليس) التي غزاها الفرس وما انفكوا عنها إلا وقد أتوا عليها دمارًا ونهبًا. وفي ١٧٩٩، فاوض آخر ملك جورجي، جورج الثاني عشر، القيصر الروسي على معاهدة حماية جديدة، وذلك إثر احتلال الانكليز لمدينة باتوم الجورجية. وفي ١٨٠١، ضم القيصر الروسي جورجيا إلى روسيا، وأصبحت الكنيسة الجورجية خاضعة للسينودوس الروسي.

كانت طبقة النبلاء في جورجيا تعد نحو ٨٪ من السكان، وقامت بدور الركيزة الاساسية للسياسة الروسية في منطقة القوقاز. فخلال «حروب القوقاز» التي عرفها القرن التاسع عشر، حارب الكثيرون من الجورجيين إلى جانب الروس ضد مسلمي شمالي القوقاز. لكن، وفي الوقت نفسه، كانت الافكار التحريرية الآتية من الغرب، إضافة إلى العلاقات التجارية التي كان الجورجيون يحرصون عليها مع الغرب، تنمو بشكل حثيث، حتى انها أدت إلى قيام الحزب الاجتماعي الديمقراطي الذي أدرج مشروعه الوطني الاستقلالي على رأس برنامج عمله، وتوصل إلى إعلان استقلال جورجيا في ٢٦ أيار ١٩١٨.

الحقبة السوفياتية: وفيما الحكومة الاجتماعية الديمقراطية الجديدة تجهد النفس في وضع السياسات الآيلة إلى ربط جورجيا بالغرب، أجهض التدخل البولشيفي، المنطلق من أذربيجان، هذه التجربة وهي في المهد، وذلك في شباط ١٩٢١. حاول الجورجيون الصمود في وجه البولشفيك، وقامت انتفاضة في المناطق الغربية من جورجيا في ٢٨ آب ١٩٢٤، لكنها سُحقت في اقل من أسبوع واحد، واستلم الجورجي جوزف ستالين مقدرات البلاد. فتمّ إعلان «جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفياتية»، ثم تمّ على الفور انضمامها إلى الاتحاد السوفياتي. فعادت جورجيا، من جديد إلى أحضان روسيا، ولكن السوفياتية هذه المرة وليست القيصرية.

عقب وفاة ستالين (١٩٥٣)، بدأ

جورجيون يحيون الذكرى الـ٤١ لوفاة الزعيم السوفياتي جوزف ستالين في مسقط رأسه في مدينة غوري الجورجية (٦ آذار ١٩٩٤).

استبعاد الجورجيين عن المسؤوليات والمهمات الرسمية والحزبية العليا في الدولة الاتحادية. وفي ١٩٥٦، أبدى الجورجيون استياءً من الحملات على الستالينية، واختاروا الانطواء على ذواتهم والانكباب على قضاياهم، منها القومية لكن بنسبة مقبولة وبشيء من السماح الذي كانت تبديه موسكو.

المسائل الآتنية: في ١٩٨٨، وفي حين كانت جورجيا معتبرة أكثر الجمهوريات اعتراضًا ومشاكسة داخل الاتحاد السوفياتي، فإنها أبدت تحفظًا، أو حتى إستياءً، من البيريسترويكا التي كان يحمل لواءها ميخائيل غورباتشوف. خاصة وان قادة جمهورية أبخازيا، المستقلة بحكمها الذاتي داخل جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفياتية، كانوا بدأوا، منذ الأشهر الأولى من ١٩٨٨، يزمّون من مساعيهم الاستقلالية. وقد أنعكس هذا الأمر توترًا في العلاقات ما بين الروس والجورجيين والابخاز. وبدا «كره الاجنبي» واضحًا في شعارات، أو حتى في برامج بعض الهيئات والتنظيمات السياسية: حذر من الروس «الامبرياليين»، وكذلك من الأرمن الذين تنازعوا والجورجيين حقوق ملكية بعض

اماكن العبادة، وايضًا من الأذريين (نحو ٣٠٠ ألف في جورجيا) الذين لا يبيت الجورجيون خشيتهم من معدلات الولادة المرتفعة لديهم. كلها أمور لم يكن أحد يتصور قيامها في تبليسي، قبل ١٩٨٨، حيث كان التعايش بين الاتنيات يوصف بالمثالي والنموذجي.

وانصب «كره الاجنبي» أكثر ما انصب على المسلمين (الأوسيتيون، وإلى حد كبير الأبخاز) المطالبين بالاستقلال. فنعتهم الجورجيون بـ«الغزاة الذين أتوا إلى البلاد في القرن السابع عشر»، واعتبرهم الغلاة من الجورجيين «طابورًا خامسًا» تحرّكه موسكو. وفي ٩ نيسان ١٩٨٩، سحقت القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية في موسكو تظاهرة للجورجيين في تبليسي معارضة لبناء جامعة في أبخازيا، فسقط ٢١ قتيلاً ومئات الجرحى.

الاستقلال والحرب الاهلية: تركت هذه المجزرة آثارًا عميقة لدى الجورجيين الذين باتوا يغلّبون فيهم النزعة الراديكالية والقومية، وأصبح مطلب الاستقلال التام والناجز مطلبًا تجمع عليه القوى السياسية في البلاد، بما فيها الحزب الشيوعي، مع آمال بمساعدات سياسية واقتصادية تأتي من الغرب.

في ٣١ تشرين الاول ١٩٩٠، فازت «الكتلة القومية» (الطاولة المستديرة لجورجيا)، بزعامة زفياد غمساخورديا، كاتب منشقّ وشاعر الأمة الجورجية، بالانتخابات العامة (٥٧٪ من الاصوات للكتلة و٣٠٪ للحزب الشيوعي). وفي ٣١ ايار ١٩٩١، انتخب غمساخورديا رئيسًا للجمهورية بـ٨٧٪ من أصوات المقترعين، وذلك بعد نحو ٥٠ يومًا من إعلان استقلال جورجيا (٩ نيسان ١٩٩١). لكن، بعد نحو ٧ أشهر، أي في ٦ كانون الثاني ١٩٩٢، فرّ غمساخورديا من مقره ا لرئاسي ولجأ إلى الشيشان إثر تمرد مسلح اشترك فيه بعض من مناصريه السابقين الذين اتهموه بالتفرد والتسلط. وفي ٧ آذار ١٩٩٢، عاد إدوارد شيفاردنادزه إلى بلاده التي كانت تمزقها حرب أهلية حقيقية، خاصة في منطقة مينغريليا Mingrélie في الجزء الغربي من البلاد حيث تعود عائلة غمساخورديا بأصولها إلى هناك.

كرونولوجيا أهم أحداث السنوات الأخيرة (١٩٨٩-١٩٩٦):

١٩٨٩: في ٩ نيسان، القوات المسلحة (السوفياتية) أطلقت النار على تظاهرة في تبليسي ضد النزعة الانفصالية في أبخازيا (عشرات القتلى). في ٢٦ أيار، احتفل نحو ٢٠٠ ألف شخص، ولأول مرة، بذكرى قيام الجمهورية الجورجية في ١٩١٨. بين ١٦ و٢١ تموز، وقعت صدامات إتنية في العاصمة وبعض أنحاء البلاد (١٤ قتيلا). في ٢٥ تموز، تظاهر الآلاف مطالبين بالاستقلال. في تشرين الاول، توفي ميراب كوستافا، قومي جورجي، بحادث سيارة، وسار في تشييعه نحو نصف مليون شخص. في ٢٠ تشرين الثاني، أعلن رسميًا في العاصمة التمسك

بالسيادة الوطنية. في ٢٣ تشرين الثاني، جرت صدامات مسلحة في أوسيتيا الجنوبية (جمهورية ذات حكم ذاتي في إطار جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفياتية).

١٩٩٠: في شباط، أعيد تأسيس الحزب الاجتماعي الديمقراطي الجورجي؛ ويعود تاريخ تأسيس هذا الحزب إلى العام ١٨٩٣، وجرى حلّه وحظره في ١٩٢١؛ أمينه العام الحالي (١٩٩٦) هو غوران موتشاهيدزه. في ٦ آذار، أُنزل تمثال لينين في العاصمة وحُطّم. في ٩ نيسان، تظاهر نحو مئة ألف شخص في العاصمة إحياء لذكرى حوادث نيسان ١٩٨٩. بين ٢٨ تشرين الاول و١١ تشرين الثاني، جرت انتخابات مجلس السوفيات الأعلى الجورجي، وفاز بها حزب «الطاولة المستديرة-جورجيا الحرة» بـ١٥٤ مقعدًا مقابل ٦٤ للحزب الشيوعي الجورجي، وبعد ثلاثة ايام انتخب البرلمان زفياد غمساخورديا رئيسًا بأغلبية ٢٣٢ صوتًا ضد ٥ أصوات. في ٢١ تشرين الثاني، صدر قانون ينشىء حرسًا وطنيًا ويمنع الدخول في الجيش الأحمر. في ٨ كانون الاول، تخلى الحزب الشيوعي الجورجي عن عضويته داخل الحزب الشيوعي السوفياتي؛ وبعد يومين ألغى البرلمان نظام المنطقة ذات الحكم الذاتي الذي كانت أوسيتيا الجنوبية تتمتع به.

١٩٩١: في ٧ كانون الثاني، أعلن غورباتشوف عن رغبته في جعل جورجيا تتراجع عن مطامحها الاستقلالية. فردّت جورجيا بتنظيم استفتاء في ٣١ آذار شارك فيه ٩٠،٥٪ من المقترعين: ٩٨،٩٣٪ صوّتوا للاستقلال التام. في ٩ نيسان، أعلن البرلمان الجورجي الاستقلال؛ وبعد أقل من اسبوع، عدّل البرلمان الدستور وأوجد منصب رئيس الجمهورية. في ٢٨ نيسان، جرت صدامات مع الأوسيتيين. في ٢٦ ايار، انتخب غمساخورديا رئيسًا للجمهورية بالاقتراع العام ونال ٨٧٪ من الاصوات. في آب، استقال رئيس الوزراء تنغيز سيغوا. في ايلول، أمر غمساخورديا باطلاق النار على معارضين له، وعدد من قادة الحرس الوطني انضم إلى المعارضة. في ٢٢ كانون الاول، جرت صدامات جديدة، والحرس الوطني حاصر البرلمان، وقتل نحو ٣٠ شخصًا. في ٢٩ كانون الاول، أصدرت الحكومة مرسومًا بنقل صلاحيات الرئيس إلى البرلمان.

١٩٩٢: في ٦ كانون الثاني، فرّ الرئيس غمساخورديا إلى خارج البلاد، ومجلس عسكري أمسك بزمام السلطة. بين ١٦ كانون الثاني و٦ شباط، بذل غمساخورديا محاولات عدة لاسترجاع السلطة انطلاقًا من كوتيسي Koutaissi. في ١٠ آذار، أنشىء مجلس الدولة (هيئة عليا مؤقتة) وانتخب شيفاردنادزه (كان قد عاد إلى البلاد قبل ثلاثة ايام) رئيسًا له. في ٢٥ آذار، اعترفت المجموعة الاوروبية بجورجيا المستقلة. في ٢٦ نيسان، فشلت محاولة انقلابية قام بها انصار غمساخورديا. في ٣١ تموز، انضمت جورجيا إلى هيئة الامم المتحدة. في ١١ آب، خطف أنصار غمساخورديا عددًا من الوزراء وكبار الموظفين كرهائن، وذلك في المنطقة الغربية

من البلاد التي يسيطرون عليها. في ايلول، تصاعد التوتر في العلاقات مع روسيا التي اتهمها المسؤولون الجورجيون بمساندة المتمردين الأبخاز. في ١١ تشرين الاول، جرت اجراءات تشريعية، وانتخب بعدها إدوارد شيفاردنادزه رئيسًا للحكومة، وفي ٧ تشرين الثاني انتخب رئيسًا للدولة.

١٩٩٣: تزامنت في هذا العام حرب انفصال أبخازيا (مع غلبة للقوات الأبخازية بمساعدة لوجيستية وغير مباشرة للقوات الروسية المتواجدة في أبخازيا طيلة النصف الاول من هذا العام -١٩٩٣- راجع «أبخازيا» في الجزء الاول، وما يلي من كلام تحت عنوان «أبخازيا في إطار جورجيا») وحرب أهلية تواجه بها أنصار غمساخورديا وأنصار شيفاردنادزه، بدءًا من خريف ١٩٩٣، أي بعد ان نجح شيفاردنادزه في التوصل إلى اتفاق سلام لانهاء عام من الحرب الاهلية الانفصالية في أبخازيا.

في ايلول، سيطر أنصار غمساخورديا على ثلاث مدن في غربي البلاد. ووقع الرئيس شيفاردنادزه مع وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف (٢ ايلول) اتفاقًا في شأن بقاء القوات الروسية في جورجيا ومنح روسيا قواعد عسكرية بحرية وجوية في جورجيا. وفي ١٤ ايلول، قدّم شيفاردنادزه استقالته من رئاسة الدولة، لكن البرلمان رفض قبول الاستقالة في أجواء مصاعب سياسية ومتاعب أمنية (تقدم لقوات غمساخورديا) وانهيار إقتصادي.

في تشرين الاول، عاد غمساخورديا

جانب من احتفال ضم آلاف من انصار غمساخورديا (ايلول ١٩٩٣).

إلى جورجيا (كان في غروزني عاصمة الشيشان)، واستمرت قواته في التقدم في غربي البلاد حيث باتت تسيطر على أكثر مدنه وبلداته، منها مدينة خوني ومدينة بوتي التي تضم ميناء مهمًا على البحر الاسود. في ٣ تشرين الاول، عرضت موسكو استعدادها لارسال قوات لحفظ السلام في جورجيا للاشراف على تنفيذ أي تسوية سلمية بين الاطراف المتحاربة.

في ٨ تشرين الاول، عقدت في موسكو قمة رباعية ضمت الرئيس الروسي بوريس يلتسن وقادة جمهوريات القوقاز الثلاث، أذربيجان وأرمينيا وجورجيا. وكان من أبرز نتائجها انضمام جورجيا إلى «أسرة الدول المستقلة» (الكومنولث). وقد حققت موسكو، في هذه القمة، هدفها القديم بعد طلب جورجيا رسميًا الانضمام إلى هذا الكيان (اسرة الدول المستقلة) الذي نشأ بديلاً من الاتحاد السوفياتي السابق. وكانت أرمينيا انضمت إلى هذه الاسرة منذ اعلانها، وتبعتها أذربيجان، والآن جورجيا. وبعد أقل من اسبوعين، طلب شيفاردنادزه مساعدة موسكو لوقف زحف قوات غمساخورديا، وقال في خطاب إلى الشعب انه يعلق آماله على الكرملين لوقف «الغزو». وبعد ايام قليلة، أخذت بيانات القوات الحكومية تتحدث عن استعادتها لمدن وبلدات ومواقع كانت واقعة في أيدي أنصار غمساخورديا. وفي الاسبوع الاول من تشرين الثاني، تحقق الانتصار النهائي للقوات الحكومية بدخولها مدينة زوغديدي التي جعل منها غمساخورديا «عاصمة» له (راجع «غمساخورديا، زفياد» في باب زعماء ورجال دولة).

١٩٩٤-المعاهدة: في ٣ شباط، وقع الزعيم الروسي، يلتسن، وشيفاردنادزه رئيس البرلمان الجورجي، في تبيليسي، معاهدة صداقة وعددًا من الاتفاقات العسكرية والاقتصادية والثقافية بين البلدين. وتنص المعاهدة على اعتراف كل من الطرفين بوحدة أراضي الطرف الآخر وثبات حدوده، كما تعني تعهد روسيا عدم مساندة التطلعات الانفصالية للأبخازيين والأوسيتيين الجنوبيين. وعلى أثر توقيع المعاهدة، قال وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف إن الاتفاقات المعقودة في تبيليسي ستؤمن إنشاء ثلاث قواعد عسكرية في جورجيا، وإن القادة العسكريين الجورجيين اعترفوا في المفاوضات ان بلادهم «إرتكبت خطأ استراتيجيًا» عندما رفض شيفاردنادزه إدخال قوات روسية إلى أبخازيا للفصل بين الطرفين المتحاربين في ايلول ١٩٩٣، أي قبل استعادة الأبخازيين عاصمتهم سوخومي. وكان شيفاردنادزه، الذي ظل في المدينة حتى اللحظة الاخيرة، قال في حينه ان بلاده «تخوض حربًا ضد روسيا». لكن اليوم، وبعقد معاهدة الصداقة، ستحاول موسكو ان تفرض على حلفائها الأبخازيين والأوسيتيين حلولاً تكفل وحدة جورجيا وتمنع تفكيك هذه الجمهورية الصغيرة، إضافة إلى تزويدها مساعدات اقتصادية لوقف الانهيار الكارثي في الاقتصاد. وقد احتجت المعارضة الجورجية (قوميون) على

هذه المعاهدة.

١٩٩٥-١٩٩٦: تميز هذا العام ببعض الحوادث الامنية، وبانتخاب شيفاردنادزه رئيسًا للجمهورية.

في ٢٦ كانون الثاني، وقع انفجار في العاصمة استهدف مقر قيادة القوات الروسية في جمهوريات ما وراء القوقاز (جورجيا، أرمينيا وأذربيجان)؛ ووقع هذا الانفجار بعد يوم واحد من هجوم شنّه اشخاص في موسكو وتمكنوا خلاله من اصابة وزير الدفاع الجورجي (السابق) غيورغي كاركارا شفيلي، وقتل نائبه باتو داتوا شفيلي؛ وكان الجنرالان يدرسان في الاكاديمية العليا للاركان العامة الروسية.

وفي ٢٩ آب، تعرّض شيفاردنادزه، في العاصمة تبليسي، وهو في طريقه للتوقيع على الدستور الجديد، لمحاولة اغتيال بتفجير سيارة مفخخة كانت ضمن موكبه؛ والدستور الجديد يمنح الرئيس سلطات رئاسية واسعة، وموعد الانتخابات الرئاسية حدد في تشرين الثاني (١٩٩٥)؛ وبعد هذا الحادث أكد شيفاردنادزه ان انقلابًا عسكريًا كان سيلي تصفيته الجسدية. وبدأ بحملة تطهير واسعة في الاجهزة الامنية شملت إصدار أمر بالقاء القبض على رئيس جهاز الامن المحلي الذي لجأ إلى موسكو.

وفي الاسبوع الاول من تشرين الثاني، جرت الانتخابات الرئاسية، وفاز شيفاردنادزه، وحزبه حزب «اتحاد المواطنين» بـ٦٢٪ من المقاعد.

بعد هدوء الوضع وترسيخه، بدأت جورجيا تلتفت ناحية دور خارجي بدأته بانتهاج سياسة تعاون إقليمي. فاستقبلت في اوائل آذار ١٩٩٦ وزير الخارجية الايراني علي أكبر ولايتي الذي كان يقوم بجولة واسعة شملت، إضافة إلى جورجيا، جمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان وانتهت في موسكو. وبحث الوزير الايراني مع شيفاردنادزه في توقيع وثيقة «القوقاز المسالم» التي كان الزعيم الجورجي اقترح ان تكون روسيا وايران وتركيا وجورجيا وأذربيجان ضامنة لها. وفكرة الوثيقة ما زالت في طور التبلور. وهذه الرغبة الجورجية في التعاون الاقليمي كانت على الارجح وراء قرار اليونان وأرمينيا (إبان زيارة وزير الخارجية الأرمني لليونان في حزيران ١٩٩٦) إرساء أسس تعاون اقليمي تنضم إليه في مرحلة أولى ايران وجورجيا.

أبخازيا في إطار جورجيا: (راجع «أبخازيا» في الجزء الاول حيث وصل تأريخ احداثها إلى تموز ١٩٩٣. ويجدر هنا تصويب خطأين مطبعيين في مادة «أبخازيا» وردا في الجزء الاول: في صفحة ١٧، عدد السكان ٥٤٠٠٠٠ نسمة. والسطر الاول من صفحة ٢٣ حيث الصحيح هو: من كتابات الكاتب الروسي الشهير، ليون تولستوي، تأريخه لأحداث...).

في تموز ١٩٩٣، اتسعت المناقشات، داخل البرلمان الجورجي وخارجه، حول وثيقة كان شيفاردنادزه يدافع عنها وتقضي بانسحاب القوات الجورجية من أبخازيا وعودة السلطات الانفصالية الأبخازية إلى

امرأة عجوز من جورجيا تسأل عن اقرباء لها في ابخازيا وتقف على جسر مدمر كان يصل ضفتي نهر الغوري الذي يفصل بين ابخازيا وغربي جورجيا (١٨ شباط ١٩٩٤).

عاصمة أبخازيا سوخومي. وندد النواب بالوثيقة. فرد شيفاردنادزه بقوله: «في حياة أي دولة من الدول يأتي وقت يتعين فيه ان يتحمل أحدهم كامل المسؤولية في اتخاذ القرارات. وهذا ما اقوم به الآن. وأرى ان وقف القتال في بلدي يشكل بحد ذاته انتصارًا مهمًا». وفي ٢٤ تموز (١٩٩٣)، وجّه نداء إلى الشعب الجورجي أعلن فيه عن نيته التوقيع على اتفاق السلام الذي تمّ التوصل إليه بعد سلسلة من الجولات المكوكية التي قام بها الوسيط الروسي بوريس باستوخوف بين تبيليسي ومدينة غوداوتا شمالي أبخازيا حيث التجأت السلطات الانفصالية الأبخازية منذ بداية المعارك في آب ١٩٩٢.

في ايلول ١٩٩٣، استغل الأبخازيون القتال الدائر بين أنصار غمساخورديا وانصار شيفاردنادزه، وانتهكوا اتفاق وقف النار، وصعّدوا من حدة المعارك لاخراج الجورجيين من العاصمة سوخومي التي كان شيفاردنادزه يعتصم فيها ويقود المعارك منها. ومع استمرار القتال العنيف في سوخومي، جمّد البرلمان الروسي قرار موسكو مساعدة الجورجيين، فردّ شيفاردنادزه باتهام روسيا بالخيانة، فدعته هذه بالانسحاب الفوري من سوخومي، في

حين حضّه الرئيس الاميركي كلينتون على إجراء محادثات سلام مع الأبخازيين.

عاش شيفاردنادزه أقسى الايام وأمرّها في الاسبوع الاخير من ايلول ١٩٩٣، حيث المعارك أصبحت تدور في شوارع سوخومي وبالسلاح الابيض، وحيث ان خصمه، غمساخورديا عاد إلى البلاد ويقود أنصاره في حرب أهلية أخرى لانتزاع السلطة من جديد في تبيليسي. وناشد وزير الخارجية الفرنسي، رولان دوما، الغرب للتدخل، وقال إن شيفاردنادزه يمكن ان يواجه مصير الرئيس التشيلي السابق سالفادور ألليندي الذي قتل وهو يدافع عن القصر الرئاسي في سانتياغو قبل ٢٠ عامًا. وتقدمت حكومة تبيليسي بطلب من موسكو لإخراج رئيسها من سوخومي وإعادته في طائرة روسية. وفي ٢٨ ايلول (١٩٩٣)، أرغم شيفاردنادزه على مغادرة سوخومي بعد يومم من سقوطها بيد الأبخازيين، وعاد إلى تبيليسي. وفي آخر ايلول سقط آخر معقل كان بيد الجورجيين، وذلك باحتلال مدينة أوتشامتشيرا.

في اول تشرين الاول ١٩٩٣، وجه شيفاردنادزه رسائل إلى الامين العام للامم المتحدة (معتبرًا ان «تحرك الامم المتحدة لم يكن كافيًا لايجاد تسوية للنزاع الأبخازي»، وطالب بمساعدة الامم المتحدة لانقاذ الجورجيين في أبخازيا)، وإلى حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا واسبانيا وايطاليا وكندا. وفي تبيليسي، قال النائب جابا يوسيلياني الذي يتزعم التنظيمات المسلحة التابعة للحكومة (البعض يقول انه يتزعم ايضًا المافيات العاملة في جورجيا، وانه كان صديقًا لشيفاردنادزه قبل ان يتخلى عنه هذا الأخير في ١٩٩٥): «ليس لدينا الوسائل الكافية لمحاربة روسيا... لن نتمكن من استعادة أبخازيا التي خططت روسيا لاحتلالها... إن هدف جورجيا الوحيد في الوقت الحاضر هو التقرب من الغرب». وبعد نحو اسبوع، قال شيفاردنادزه إن تسوية مشكلة أبخازيا «مستحيلة من دون تقارب مع روسيا»، ذلك ان جميع محاولات التسوية الاخرى بواسطة الامم المتحدة أو منظمات دولية أخرى لم تكن فاعلة. فردت، بعد ايام قليلة، الحكومة الأبخازية (وكذلك البرلمان الأبخازي) ان جمهورية أبخازيا المستقلة «مستعدة لاستئناف المفاوضات مع جورجيا». وبالفعل، بدأت، في آخر تشرين الثاني ١٩٩٣، وفي جنيف، مفاوضات السلام التمهيدية بين الحكومة الجورجية والانفصاليين الأبخاز برئاسة ممثل خاص للامين العام للامم المتحدة، اسفرت، في اليوم التالي، عن توقيع هدنة كمقدمة لمفاوضات التوصل إلى حل.

في ١١ شباط ١٩٩٤، قال رئيس الوزراء الأبخازي سقراط دينديوليا، رئيس الوفد الأبخازي في مفاوضات السلام، إن القيادة الأبخازية موافقة على انتشار قوات حفظ سلام على طول نهر أنغوري الذي يشكل الحدود بين أبخازيا وجورجيا. وفي آذار ١٩٩٤، ظهر استعداد إقليمي ودولي لنشر قوات في أبخازيا. وفي منتصف ايار

١٩٩٤، اتفق الجورجيون والأبخاز على وقف النار ونشر قوة للفصل تتألف من جنود ينتمون إلى أعضاء أسرة الدول المستقلة (الكومنولث) «في منطقة آمنة» في أبخازيا. وقد وقع الاتفاق بوساطة روسية، وينص على ان «تقوم قوة السلام بمنع استئناف العمليات العسكرية وتسهيل عودة اللاجئين (الجورجيين) إلى بيوتهم» في أبخازيا.

في ٢٠ حزيران ١٩٩٤، أشاد شيفاردنادزه بجهود روسيا في اعادة السلام إلى أبخازيا، وقال إن خلاص جورجيا على يد هذه القوة (اي القوة التي سترسلها روسيا والمؤلفة من ٢٥٠٠ جندي). وأغضب قرار نشر القوة الروسية القوميين الجورجيين، وكذلك موافقة شيفاردنادزه على إقامة قواعد عسكرية روسية يرابط فيها نحو ٢٠ ألف جندي هم بقايا الجيش الاحمر السوفياتي الذين ما زالوا في جورجيا. واعتبر شيفاردنادزه ان «الجيش الروسي يساعدنا في إنشاء جيشنا الوطني... لا يمكننا ان نفعل شيئًا من دون مساعدتهم».

وبقيت مشكلة اللاجئين الجورجيين مثار خلاف، ذلك ان الأبخازيين كانوا يخشون تسرب اعداد من «المخربين»، لذا فإنهم اشترطوا ان تمنع عودة أي جورجي كان شارك في القتال. وكلفت قوات حفظ السلام الروسية بالمشاركة في حلها.

وبعد سلسلة من حوادث امنية في جورجيا كما في أبخازيا، وكذلك بعد صدور الاعلان «المنسوب إلى مجلس السوفيات الاعلى لأبخازيا» في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٤، والذي يُشتم منه استمرار في التمسك بالانفصال والاستقلال التام والناجز عن جورجيا، دان مجلس الامن الدولي المنعقد في ٢ كانون الاول ١٩٩٤، «كل عمل من جانب واحد» يهدف إلى إقامة «كيان أبخازي مستقل» في جورجيا. وقد عبّر مجلس الامن عن «اعتقاده الراسخ بأن كل عمل من جانب واحد يُراد من خلاله اقامة كيان أبخازي مستقل مزعوم يشكل خرقًا للالتزامات التي تعهد بها الجانب الأبخازي للبحث عن تسوية سياسية شاملة للنزاع»؛ وأكد المجلس مجددًا «تمسكه بسيادة جمهورية جورجيا وسلامة أراضيها».

مدن ومعالم

* **تبيليسي Tbilissi**: عاصمة جورجيا. تقع على نهر كورا. تعد نحو ١،٧٥٠ مليون نسمة. أهم معالمها خرائب قلعة ناريكارا (القرن الرابع) التي خربّت وأعيد بناؤها مرات عدة. كاتدرائية سيون (القرن السادس). كنيسة متيخي (القرن الثالث عشر). متحف فنون جورجيا التي تضم ايقونات ذهبية تعود إلى القرن السابع-القرن الثالث عشر. والمدينة هي المهد التاريخي والثقافي لجورجيا.

مركز سياسي، علمي وصناعي، وهي المدينة الثانية في الأهمية في منطقة القوقاز (بعد باكو) من حيث عدد السكان والأهمية الصناعية (٤٠٪ من إجمالي الصناعة الجورجية). أهم صناعاتها: الالكترونيات، تجهيزات الطيران، والآلات الزراعية، والنسيج (الحرير)، والصناعات الغذائية (النبيذ، كونياك، شمبانيا). تاريخيًا، تأسست في القرن الرابع، وتنازع عليها البيزنطيون والعرب والفرس. عاصمة مملكة الكرج (جورجيا) ابتداء من ١١٢٢. خربت عدة مرات قبل ان تحتلها روسيا في ١٨٠١. انها مدينة كوسموبوليتية، إذ تتواجد فيها مجموعات أرمنية، أذرية، يهودية وكردية.

نصب «والدة جورجيا» في تبيليسي، أزيح الستار عنه في ١٩٦٣.

زعماء ورجال دولة

* **شيفاردنادزه، إدوارد Chevardnadzé, E.** (١٩٢٨-): شيوعي ووزير خارجية الاتحاد السوفياتي سابقًا. رئيس جمهورية جورجيا حاليًا (١٩٩٦). تقبل سر العماد المسيحي على المذهب الأرثوذكسي متخذًا إسم «جورج» في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٢.

في ١٩٧٢، أصبح شيفاردنادزه سكرتير الحزب الشيوعي الجورجي، وقد خلف في هذا المنصب مجافانادزه Mjavanadzé. وفي ١٩٨٥، أصبح وزير خارجية الاتحاد السوفياتي، أي في العام نفسه الذي تولى فيه ميخائيل غورباتشوف سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وأطلق البيريسترويكا («إعادة البناء») والغلاسنوست («العلنية»).

واستمر شيفاردنادزه وزيرًا للخارجية حتى استقالته في ٢٠ كانون الاول ١٩٩٠، أي قبل عام وخمسة ايام من انتهاء الاتحاد السوفياتي وانزال علمه عن مبنى الكرملين، ورفع علم روسيا مكانه (الساعة صفر من ٢٥ كانون الاول ١٩٩١)، وفي عزّ اندلاع حرب الخليج الثانية (إحتلال العراق لاراضي الكويت). قال، وهو يقدم استقالته في «مؤتمر نواب الشعب»، إنه يفعل ذلك «احتجاجًا على هجمة الدكتاتورية». وأعطي موقفه هذا تفسيرات كثيرة، من أهمها ان الرجل كان يدرك ان التخبط الذي كان يعيش فيه الاتحاد السوفياتي سوف ينتهي إلى واحدة من نتيجتين: إما انقلاب عسكري يأتي بدكتاتور إلى السلطة، أو في احسن الاحوال تحول غورباتشوف نفسه إلى دكتاتور تحت وطأة الضغوط الحزبية والعسكرية، وإما انفراط الاتحاد السوفياتي.

ادوارد شيفارد نادزه.

تعاون، وهو وزير الخارجية السوفياتي، إلى أقصى الحدود مع وزير الخارجية الاميركي جيمس بايكر، وخاصة في موضوع حرب الخليج الثانية. فأصدر الرجلان «البيان الاميركي-السوفياتي المشترك» الذي رعى الحملة الاميركية والدولية على العراق، والذي سجّل نهاية الحرب الباردة. يقول جيمس بايكر في مذكراته («النهار»، ٢٦ ايلول ١٩٩٥، ص ١٠):

«في الثالث من آب ١٩٩٠ لم استطع في منصبي كوزير للخارجية إلا ان أتذكر تلك الكلمات وكلي شعور بحس السخرية. ففي ذلك اليوم وقفت في مطار فنوكوفو الثاني خارج موسكو، استمع إليه (اي إلى وزير الخارجية السوفياتي إدوارد شيفاردنادزه) فيما هو يشرح للمخبرين الصحافيين الاسباب التي جعلت بلاده توافق على التصرف الذي لا سابقة له، وهو الانضمام إلى الولايات المتحدة في إدانة غزو العراق للكويت. قال شيفاردنادزه (والكلام ما يزال

غمساخورديا.

لبايكر): دعوني أخبركم انه كان قرارًا صعبًا بالنسبة إلينا... نظرًا إلى علاقتنا الوطيدة والطويلة الامد مع العراق، ولكن على رغم ذلك فقد اضطررنا إلى اتخاذ هذه الخطوات لأن هذا العدوان يناقض مبادىء التفكير السياسي الجديد ناهيك بمبادىء العلاقات المتمدنة بين الدول».

ويمضي بايكر يسرد قصة اجتماعاته بشيفاردنادزه حتى وضع البيان الاميركي-السوفياتي المشترك المتضمن على ١٣٥ كلمة. وفي السرد، قال بايكر: «قال شيفاردنادزه: كلما كان الضجيج الصادر عن اسرائيل أقل كان ذلك أفضل، إن هذا قمين باثارة العرب وجعل القضية أشد غموضًا. طمأنتُ شيفاردنادزه إلى اننا شرحنا الامر للاسرائيليين».

وينهي بايكر هذا الفصل الخاص بالبيان المشترك الاميركي-السوفياتي في مذكراته بما قاله له أحد مساعديه الذي كان صاحب فكرة البيان المشترك: «السيد الوزير، هذا يوم درامي. انه يوم نهاية الحرب الباردة». ويعلق عليه بايكر: «والحال انه (مساعده) كان على حق. فبعد مرور نصف قرن على بدايتها (الحرب الباردة) في شكل متبادل وعنفوان ايديولوجي، لفظت الحرب الباردة انفاسها على مدرج مطار يقع في ضاحية موسكو، في ليلة من ليالي آب ١٩٩٠».

اما إدوارد شيفاردنادزه فقد آثر الاستقالة قبل سنة من دور الاتحاد السوفياتي في لفظ انفاسه الاخيرة، بعد ان أمضى نحو ست سنوات وزيرًا للخارجية في حكومة صديقه الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف.

وبعد ٧٢ يومًا (اي في ٧ آذار ١٩٩٢) من انهيار الاتحاد السوفياتي، عاد شيفاردنادزه إلى جورجيا، وبعد ثلاثة ايام، انتخب رئيسًا لمجلس الدولة في جورجيا (راجع «النبذة التاريخية»).

*** غمساخورديا، زفياد Gamsakhourdia,Z.** (١٩٤٠-١٩٩٤): أول رئيس لجمهورية جورجيا الذي انتخب في نيسان ١٩٩١، والذي كان قاد مسار هذه الجمهورية السوفياتية السابقة إلى الاستقلال عن موسكو. لكنه أطيح بعد ثمانية أشهر في انقلاب دموي قاده

حلفاؤه الذين انقلبوا عليه بسبب تفرده بالسطة.

ابن الاديب الشهير قسطنطين غمساخورديا. نشط باكرًا في الحقل السياسي، وعُرف بمناوأته للشيوعية، وسجن في السبعينات، وتزعم، في عهد البيريسترويكا، حركة «شوتا روستافيلي» القومية الداعية إلى الانفصال عن الاتحاد السوفياتي، وانتخب في ١٩٩٠ رئيسًا للبرلمان الجورجي، ثم اصبح اول رئيس منتخب للجمهورية بحصوله على أكثر من ٨٠٪ من الاصوات.

في كانون الاول ١٩٩١، نظم عدد من حلفائه السابقين عصيانًا مسلحًا وحاصروا قصر الرئاسة، فاضطر إلى اللجوء إلى غروزني (عاصمة الشيشان). وفي خريف ١٩٩٣، قاد غمساخورديا ميليشيا موالية له في غربي تبيليسي وسيطر على عدد من المناطق واعلن نيته التوجه إلى العاصمة تبيليسي لاسقاط نظام شيفاردنادزه الذي يصفه بأنه «غير شرعي». ولكن حملته باءت بالفشل بعد ان نجح شيفاردنادزه بضمان وقوف الروس إلى جانبه، مما اضطر غمساخورديا إلى الهرب مرة ثانية بعد استسلام عدد من كبار مساعديه (حول مجريات حربه ضد شيفاردنادزه، راجع «النبذة التاريخية»).

في الاسبوع الاول من كانون الاول ١٩٩٤، أكدت الأنباء وفاته ولكنها تضاربت حول طريقة الوفاة. فبعضها نقل عن زوجته انه انتحر ليلة رأس السنة بعدما طوقت القوات الحكومية قواته في غربي البلاد. ولكن بيان الناطق باسم الرئيس شيفاردنادزه شكك في هذه الرواية وقال إن «القوات الحكومية لم تقم بأي نشاطات في المنطقة التي يفترض ان غمساخورديا انتحر فيها». وقال مسؤولون جورجيون انه قتل على يد انصاره إثر شجار بينهم في غروزني.
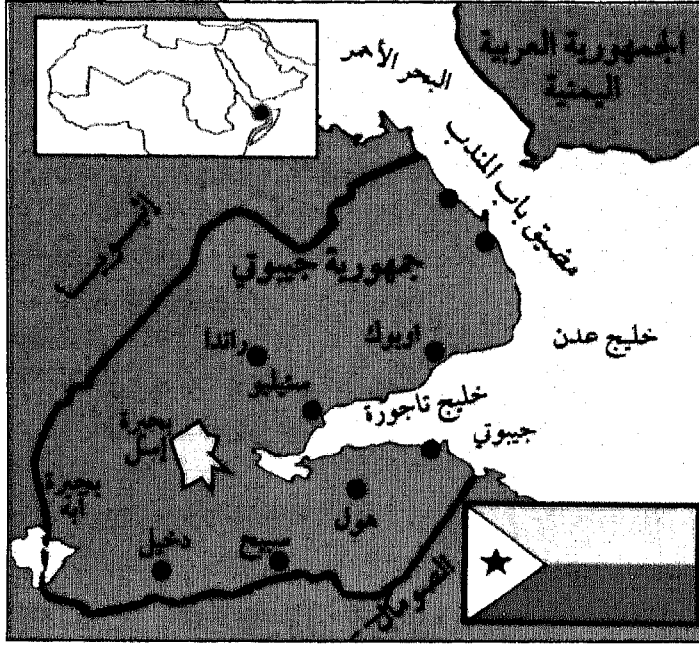
جيبوتي

بطاقة تعريف

الموقع: تقع جيبوتي على رأس القرن الافريقي المطل على خليج عدن وباب المندب والبحر الاحمر. وجيبوتي بلد مهم جغراسيًا بسبب هذا الموقع، وبسبب وجود أكبر قاعدة عسكرية لفرنسا خارج الاراضي الفرنسية فيها، وهي قاعدة تستخدمها باريس لتعزيز نفوذها في القارة السوداء وللتدخل السريع حيث تدعو الحاجة. تحيط بها إثيوبيا (وطول حدودها معها ٤٥٠كلم)، والصومال (٦٥كلم)، وأريتريا، وخليج عدن، وباب المندب والبحر الاحمر. ويبلغ طول شاطئها ٣٧٠كلم.

المساحة: ٢٣ ألفًا و٢٠٠كلم م.

العاصمة: مدينة جيبوتي. تعد نحو ٣٥٠ ألف نسمة (تقديرات ١٩٩٦)، ونحو ٤٧٠ ألفًا مع ضواحيها. نشأت في ١٨٨٨؛ وفي ١٨٩٢، حلّت محل أوبوك كعاصمة للساحل الصومالي الفرنسي، وقامت بدور المنفذ التجاري الأهم لأثيوبيا. أهم المدن: علي صبيه التي تعد نحو ٥٠ ألف نسمة مع قضائها وتبعد ٩٨كلم عن العاصمة؛ تاجورة، نحو ٥٠ ألف نسمة ايضًا مع قضائها وتبعد ٣٤٤كلم عن العاصمة؛ دخيل وتعد نحو ٥٥ ألف نسمة مع قضائها، وتبعد ١١٧كلم؛ أوبوك، نحو ٢٢ ألف نسمة مع قضائها، وتبعد ٤١٩كلم عن العاصمة.

اللغات: العربية والفرنسية (رسميتان)، إضافة إلى العفرية (لغة قبائل العفر)، والصومالية (لغة قبائل العيسى).

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٦٠٠ ألف نسمة (تقديرات ١٩٩٦). وتشير التقديرات إلى انهم سيبلغون نحو ٨٠٠ ألف في العام ٢٠٠٠. يتوزع السكان بين قبيلتين كبيرتين: العفر، أو الدناقل، ويمتون بصلة إلى الاثيوبيين (راجع باب «العفر»)، والعيسى ويتصلون بالصوماليين. وهناك نحو ١٠ آلاف اوروبي يعيشون في العاصمة معظمهم من الفرنسيين، ثم الايطاليين واليونانيين. نحو ٩٦٪ من السكان يدينون

بالاسلام على المذهب الشافعي، و٢٪ كاثوليك، و١٪ أرثوذكس و١٪ بروتستانت.
الحكم: جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ٤ ايلول ١٩٩٢. رئيس الجمهورية ينتخب لولاية ٦ سنوات. مجلس النواب من ٦٥ نائبًا منتخبًا لمدة خمس سنوات. ونظام الحكم يأخذ بمبدأ تعدد الاحزاب (راجع النبذة التاريخية).
الاقتصاد: ٩٠٪ من اراضي جيبوتي صحراوية. لا تتعدى مساحة الاراضي المزروعة ٦٠٠ هكتار. قطاع تربية الماشية قطاع مهم في حياة السكان. ويبقى المرفأ هو القطاع الاقتصادي الأهم للبلاد.
فجيبوتي التي تمتلك موارد طبيعية محدودة جدًا استفادت من اقتصاد خدمات نشط للغاية. فهي بلد عبور وتموين وإعادة تموين للبواخر. ويعد ميناء جيبوتي رئة البلد، وهو المكان الأكثر أهمية في البنى التحتية الموروثة من الاستعمار. وقد خصص له وزارة. يضم منطقة حرة ووسائل مواصلات حديثة (راجع «خط سكة الحديد» في النبذة التاريخية).

نبذة تاريخية

قديمًا: يرتبط تاريخ جيبوتي بمنطقة القرن الافريقي. وكان قدماء المصريين أول من اقام علاقات بهذا الجزء من العالم، إذ كانوا ينقلون منه الذهب والعبيد. وأول بعثة مصرية بحرية إلى هذه المنطقة كانت في الألف الثالث ق.م. خلال حكم فرعون مصر بيبي الاول.

لكن علاقات القرن الافريقي بجنوب غربي شبه الجزيرة العربية أكثر ثباتًا من علاقاته بالمصريين، إذ تجمع المصادر التاريخية على ان قبائل سامية من جنوبي الجزيرة العربية نزحت في موجات متعاقبة عبر البحر الأحمر، وغزت المرتفعات الأثيوبية التي يقطنها الحاميون وانصهرت بهم، ونشأت عن هذا الانصهار حضارة أكسوم.

ولقرب اراضي «عفر وعيسى» (جيبوتي حاليًا) من الشرق، كانت احدى المناطق الافريقية الاولى التي نزل عليها العرب إبان فتوحاتهم الاسلامية، بين القرن الثامن والقرن العاشر، حيث شكلوا سلطنات وممالك اسلامية منها «إمارة عدل» التي يفخر أهالي جيبوتي بها لكونها إمارة اجدادهم. ولم يقتصر انتشار الاسلام على المناطق الساحلية، بل امتد إلى قبائل البدو الرحل التي عاشت وتنقلت بين

سواحل البحر الاحمر والمنحدرات الشرقية. وكانت دولة مسيحية قبطية قد تكونت على المرتفعات فيما اصبح يعرف بـ«الامبراطورية الحبشية».

حديثاً: بقيت تلك المنطقة (القرن الافريقي) شبه معزولة طيلة قرون، إلى ان بدأ التوسع الاستعماري الاوروبي يتجه نحوها. فلم يجد امامه منطقة موحدة بل عدة ممالك متناحرة. أما شواطىء البحر الاحمر فقد كان يسيطر عليها العثمانيون والمصريون، لكنها سرعان ما اصبحت، بعد افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩، ممرًا للتنافس الاستعماري الاوروبي. وكانت بريطانيا منذ سقوط بونابرت في موقعة واترلو (١٨١٥) قد برزت كقوة بحرية عظمى في المحيطات، لا سيما المحيط الهندي، وبدأت في تدعيم نفوذها جنوبي الجزيرة العربية، وخاصة في المواقع والمنافذ التي تتحكم بالبحر الاحمر والطريق إلى الهند. وبعد ان ضغطت على مصر للانسحاب من الجزيرة العربية في ١٨٤٠ أسرعت بشراء جزيرة في مدخل تاجورة في جيبوتي. وفي ١٨٨٤، أي بعد احتلال بريطانيا لمصر بعامين، احتلت ميناءي زيلع وبربرة وألحقتهما بـ«محمية الصومال البريطاني» التي كانت قد نشأت بعد توقيعها اتفاقيات غير متكافئة مع شيوخ الصومال منذ ١٨٢٧.

وفي العام نفسه الذي احتلت فيه بريطانيا عدن (١٨٣٩)، ارسلت فرنسا بارجة من اسطولها بهدف السعي لشراء قطعة ارض على ساحل افريقيا الشرقي. ولكنها ظلت تلاقي الفشل حتى ١٨٦٢ حين تمكنت من اقناع زعماء العفر (الدناقل) في «جيبوتي» حاليًا ببيع ميناء أوبوك على الساحل الشمالي لخليج تاجورة مع ا لاراضي المحيطة به.

كانت مصر، بعد ان ضمت السودان إليها، قد امتد نفوذها إلى الاراضي المجاورة للسودان حتى وصل إلى اريتريا حيث تقطن قبائل بني عامر التي قبلت السيادة المصرية. وفي ١٨٧١، كانت سلطة مصر تمتد من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن، أي من سواكن إلى مصوع مرورًا بعصب فتاجورة فزيلع فبربرة.

الاستعمار الفرنسي: وعلى أثر احتلال بريطانيا لمصر، اقتسمت املاكها في افريقيا كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا وأثيوبيا وبلجيكا. فتوسع الفرنسيون بالاستيلاء على تاجورة وبقية الاراضي التي تشكل جمهورية جيبوتي الآن. واقتطعت ايطاليا جزءًا من السودان وضمته إلى الشريط الساحلي الذي استعمرته والذي عُرف بمستعمرة أريتريا، واقامت على ساحل المحيط مستعمرة الصومال الايطالي. أما بريطانيا فقد اقامت محمية الصومال البريطاني وجعلت عاصمتها هرجيا، وأسست مما اقتطعته من السودان مستعمرة جديدة هي أوغندا. أما بقية «مديرية خط الاستواء» فقد فازت بها بلجيكا وضمتها إلى مستعمرة الكونغو.

في ١٨٩٢، اتخذ الحاكم الفرنسي للمستعمرة قرارًا بالبدء في تشييد مدينة

جيبوتي التي اصبحت مقرًا للادارة الاستعمارية الفرنسية. وفي ١٨٩٦، أصبحت المستعمرة تعرف رسميًا باسم «الصومال الفرنسي» (وكان هناك في المنطقة ايضًا، وكما رأينا، الصومال البريطاني والصومال الايطالي). وبقي هذا الإسم («الصومال الفرنسي») حتى ٣ تموز ١٩٦٧ حين اطلقت الادارة الفرنسية عليه إسم «الاقليم الفرنسي للعفر والعيسى» Territoire Francais des Afars et des Issas.

خط سكة الحديد: أعطى الامبراطور مُنليك (امبراطور أثيوبيا) امتياز بناء خط سكة حديد «جيبوتي-أديس أبابا» لشركة فرنسية يكون لها حق احتكاره لمدة ٩٩ عامًا ابتداء من تاريخ تشغيل الخط، وكذلك احتكار ألف متر على جانبي الخط، مقابل حصول مُنليك على بعض الامتيازات والحصص. وبدأ العمل في تشرين الاول ١٨٩٧. لكن سرعان ما عارضه بعض الاقطاعيين في الاقاليم وقبائل العيسى الذين اكتشفوا ان المشروع سيفقدهم جزءًا كبيرًا من اراضيهم. وكذلك عارضه البريطانيون في بادىء الامر، على اساس ان الخط سيهدد مصالحهم في زيلع، إذ سينقل النشاط التجاري من زيلع إلى جيبوتي. ثم عاد الانكليز واشتروا اسهمًا من الشركة الفرنسية (١٤ ألف سهم من اصل ٣٦ ألفًا) التي تعرضت لمتاعب مالية خطيرة. لكن الدول الثلاث، فرنسا وبريطانيا وايطاليا، فضلت ان تواجه مُنليك، امبراطور أثيوبيا، موحدة خوفًا من وافد استعماري جديد على المنطقة هو ألمانيا التي كانت تحاول النفاذ إلى هناك. فاتفقت الدول الثلاث على تقسيم مناطق النفوذ، وتعهدت باحترام استقلال أثيوبيا، وأصبح من حق فرنسا استغلال الخط الحديدي على ان تتمثل كل من بريطانيا وايطاليا وأثيوبيا بعضو في مجلس الادارة، وحصلت بريطانيا على تأكيد بعدم التدخل من فرنسا أو ايطاليا في مناطق أعالي النيل. وفي ١٩٥٩، تمّ التوقيع على اتفاق جديد بين فرنسا وأثيوبيا، أصبحت الشركة بمقتضاه أثيوبية وأصبح رأسمالها مشتركًا مناصفة في الملكية ورأس المال والادارة والتسيير. وبذلك أصبح لأثيوبيا موظفون في الجمارك وممثلون في مجلس ادارة ميناء جيبوتي. وقد أصبحت جيبوتي تعتمد كليًا على الخط والميناء في اقتصادها، ونشأت فيها طبقة عاملة مرتبطة بهذين المرفقين.

بدايات التحرك الشعبي، محمود حربي: بعد الحرب العالمية الثانية، قويت الحركة العمالية في الصومال الفرنسي (جيبوتي). ساعدها في ذلك ما كان يتنامى إليها من حركة نضال سياسي من اجل الاستقلال التي كانت قد بدأت في الصومال البريطاني والصومال الايطالي من خلال الاحزاب والنوادي والحركات السياسية. فاضطرت الادارة الفرنسية إلى السماح للعمال بتكوين نقابة تضم عمال الميناء والسكة الحديدية. وتزعم النقابة احد قادة جيبوتي البارزين، محمود حربي الذي كان زعيمًا سياسيًا ومؤسسًا لـ«حزب الاتحاد الديمقراطي» في ١٩٤٨.

واجهت فرنسا تنامي المطالب النقابية المتداخلة بالمطالب السياسية الاستقلالية بأن قررت منح «الاقليم» (الصومال الفرنسي) نظامًا نقديًا خاصًا، وصدر الفرنك الجيبوتي في آذار ١٩٤٩، ومُثّل الصومال الفرنسي بنائب واحد في البرلمان الفرنسي. وفي ١٩٥٧، قامت فرنسا بانشاء مجلس وطني، فرشح محمود حربي نفسه في انتخابات ١٩٥٧. فعمدت فرنسا جاهدة في حصر نشاطه ومحاربته، ولجأت في بداية حكم ديغول إلى الاستفتاء الشعبي الذي جاءت نتيجته معربة عن رغبة الجيبوتيين في إبقاء ارتباطهم بفرنسا. فازداد الضغط على محمود حربي ومعاونيه، فلجأ إلى موقاديشو حيث أسس حزبًا جديدًا يهدف إلى تحقيق وحدة الصومال الايطالي والصومال البريطاني والصومال الفرنسي ضمن دولة «الصومال الكبرى»، غير انه قتل في حادث طائرة أثناء رحلة له من جنيف إلى القاهرة في تشرين الاول ١٩٦١، في وقت تصاعدت فيه حركات التحرر الوطني الافريقية، والثورة الجزائرية على وجه الخصوص. وكان من شبه المؤكد ان «عصابة اليد الحمراء» الفرنسية كانت وراء الحادث.

تصاعد التحرك، أحزاب وظروف اقليمية مساعدة: حصل الصومال البريطاني والصومال الايطالي على استقلالهما في ١٩٦٠، وتوحدا في جمهورية الصومال الديمقراطية وعاصمتها موقاديشو. أما في الصومال الفرنسي (جيبوتي) فقد ساد التوتر، واتبعت فرنسا سياسة التفرقة بين قبائل العفر وقبائل العيسى، والتحالف مع نظام هيلاسيلاسي في أثيوبيا، وزادت من قمعها حتى اصبحت مدينة جيبوتي سجنا كبيرًا. ولم يسفر الاستفتاء الذي اجرته الحكومة الفرنسية في النصف الاول من ١٩٦٧، ولا قانون التنظيم الاداري، ولا المجلس الوطني الذي كوّنته، عن اية اصلاحات حقيقية، بل بقيت السلطات كلها في يد المندوب السامي الفرنسي.

وبدأت الاحزاب السياسية تتكون وتتحرك: كان علي عارف قد كوّن حزبه العفري «الاتحاد الوطني للاستقلال». ثم تكوّن حزب «الرابطة الشعبية الافريقية للاستقلال»، وضم حركتين واحدة عفرية وأخرى من العيسى، وكان هذا الحزب الذي قاد البلاد نحو الاستقلال من خلال وحدة قبائل عفر وقبائل العيسى، والعفر والعيسى يشكلون شعب جيبوتي. وبالاضافة إلى هذين الحزبين، فقد كان هناك «جبهة تحرير ساحل الصومال» التي تأسست قبل ذلك منذ ١٩٦٠ بمساعدة موقاديشو واعترفت بها منظمة الوحدة الافريقية والامم المتحدة. لكن فرنسا منعتها من العمل فعمدت إلى العمل السري حتى شهر ايار ١٩٧٧ قبيل الاستقلال. وكذلك كانت هناك جبهتان صغيرتان هما «جبهة تحرير جيبوتي» و«جبهة تحرير الساحل الغربي».

وبعد سقوط نظام هيلاسيلاسي في أثيوبيا في ١٩٧٤، تحركت فرنسا بسرعة لمواجهة التغييرات التي حدثت في القرن الافريقي، فأجرت مباحثات عديدة مع

الاحزاب في جيبوتي شاركت فيها منظمة الوحدة الافريقية، وأسفرت عن قرار باجراء استفتاء وانتخابات في آذار ١٩٧٥.

الاستقلال: بدأ موقف حزب الرابطة الشعبية يتحسن باستمرار في ظل هذا التحرك نحو الاستقلال رغم ان فرنسا ظلت تتبع سياسة التفرقة بين العفر والعيسى، فأخذت تؤيد العيسى الذين يرتبطون بالصومال التي كانت قد بدأت حربها ضد أثيوبيا. وتخلت فرنسا عن علي عارف وحزبه «الاتحاد الوطني»، ومنحت السلطات الفرنسية حق التصويت لآلاف الصوماليين المقيمين في جيبوتي. وفي خلال عام واحد انتقل عدد الناخبين من ٥٢ ألفًا (٥٧،٦٪ منهم من العفر) إلى ٩٣ ألفًا (٤٠٪ منهم عفر و٥٢،٨٪ عيسى). وفي حزيران ١٩٧٦ عقد مؤتمر ضمّ القوى السياسية الاساسية في البلاد أسفر عن رفض الاستعمار وأظهر ضعف العفر وتفككهم، فاستقال زعيمهم علي عارف في الشهر التالي.

وفي ٨ ايار ١٩٧٧، جرى استفتاء أعقبته انتخابات نيابية فاز بها حزب الرابطة الشعبية (عيسى) بـ٨٥٪ من المقاعد، فتولى السلطة بعد الاستقلال الذي اعلن في ٢٧ حزيران ١٩٧٧، وانتخب زعيمه، حسن غوليد رئيسًا للجمهورية، ووقعت الجمهورية الوليدة معاهدة دفاع عسكري مع فرنسا للاحتفاظ بالوجود العسكري الفرنسي على اراضيها إلى جانب سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية والعسكرية.

أهم أحداث السنوات الاولى من الاستقلال: أهم ما نجم عن الحياة السياسية في السنتين الأوليين من استقلال جيبوتي هو الصراع بين الصومال وأثيوبيا حول أوغادين. وقد كادت التناقضات القومية والقبلية ان تبلغ حد الانفجار مرارًا عندما اهتز اقتصاد جيبوتي الضعيف بفعل اغلاق خط الحديد وتقلص نشاط الميناء. وقد طرأ تعديل على التوازن الديمغرافي عندما لجأت قبائل صومالية إلى جيبوتي بعد استعادة أثيوبيا لأوغادين.

وفي الأشهر الستة الاولى من الاستقلال بدأ النظام الجديد يعمد إلى إبعاد العفر من المراكز الحساسة في الدولة. وفي نهاية ١٩٧٧، استقال أحمد ديني، رئيس الوزراء وأربعة وزراء من العفر احتجاجًا على هذه السياسة. وقد تصاعدت الخلافات بين العفر والعيسى، وبلغت قمتها في انفجار قنبلة وضعت في بار يرتاده المستوطنون القدماء (الاجانب). وقد تبع ذلك، اعتقال العديد من الشبان العفر ذوي الاتجاهات الماركسية المؤيدة للدرغ (المجلس العسكري الثوري الحاكم في أثيوبيا بزعامة منغستو هايلي مريام). وبعد نجاح الهجوم الاثيوبي المضاد في أوغادين، بدا وكأن الرئيس الجيبوتي حسن غوليد قد وجد نفسه مضطرًا لايجاد حل وسط. فشكل لجنة خاصة من العفر برئاسة رئيس الوزراء الاسبق عبد الله كميل، وكلفت هذه اللجنة اقتراح الاجراءات التي من شأنها ان تلبي مطالب العفر. وقد وافقت الحكومة على اطلاق سراح أغلبية العفر المسجونين،

واعادة العفر إلى مناصبهم العليا في الدولة (خاصة في القوات المسلحة). وقد تشكلت حكومة جديدة ضمت ستة وزراء من العفر وستة من العيسى وإثنين من اصول صومالية، وواحدًا عربيًا، وكانت برئاسة عبد الله كميل. ورغم هذا الحل الوسط، فقد أبقت «حركة التحرير الشعبية» (من الشباب العفر) على علاقاتها واتصالاتها بالمنظمات العفرية في اثيوبيا التي تسعى لاقناع «الدرغ» بمنح العفر منطقة حكم ذاتي في أثيوبيا. وقد وقعت عدة حوادث على الحدود بين جيبوتي وأثيوبيا ذهب ضحيتها العديد من الخبراء الفرنسيين الفنيين.

لكن سرعان ما توترت العلاقة بين رئيس الجمهورية حسن غوليد (من قبائل العيسى) ورئيس وزرائه عبد الله كميل (من العفر). وكان مأخذ رئيس الجمهورية على رئيس الوزراء مسايرة هذا الاخير للسياسة الاثيوبية والسوفياتية في المنطقة (القرن الافريقي). فقرّر غوليد، في ٢١ ايلول ١٩٧٨، حلّ حكومته، وكلّف عفري آخر هو بركات حمادو تشكيل حكومة جديدة. لكن مخاوف قبائل عفر من هيمنة قبائل عيسى على الجيش والادارة، فضلاً عن الاعتقالات التي حصلت في صفوفهم في مدينة تاجورة (١٩٧٨) استمرت وتفاقمت، ما حدا بزعيم المعارضة العفرية احمد ديني (كان يعيش في فرنسا) لأن يصدر بيانًا يدين «محاولات السيطرة العنصرية» التي ينتهجها الرئيس غوليد. وبدت جيبوتي مهددة بوحدتها ومصيرها بفعل الخلاف بين قبائل عفر الذين تدعمهم أثيوبيا، وقبائل عيسى الذين يأخذون جانب الصوماليين أنسبائهم.

في خضم أحداث القرن الافريقي (نزاع الصومال-أثيوبيا)، عمل غوليد على زيادة أواصر العلاقات مع البلدان العربية (المحافظة على وجه الخصوص-وجيبوتي كانت قد اصبحت عضوًا في الجامعة العربية) حتى بات يقال ان جيبوتي أصبحت «محمية بترودولارية». اما بالنسبة إلى الدولتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق)، فكان يحاول ان يقيم توازنًا ظاهريًا. ففي حين فتحت سفارة سوفياتية في جيبوتي (٢٠ كانون الاول ١٩٧٨)، وبوشرت العلاقات الدبلوماسية مع الصين (٨ كانون الثاني ١٩٧٩)، بقيت العلاقات وطيدة وحميمة مع الولايات المتحدة التي بدا انها كانت على استعداد لدفع الثمن الضروري الذي يحول دون توسيع دائرة النفوذ السوفياتي في منطقة استراتيجية في مثل هذه الاهمية.

في ١٢ حزيران ١٩٨١، أعيد انتخاب حسن غوليد رئيسًا للجمهورية (كان المرشح الوحيد)، واستمرت معارضة العفريين له، وبقي بركات حمادو رئيسًا للحكومة. وبعد نحو ثلاثة أشهر، اقترعت الجمعية الوطنية بالاجماع على حظر الاحزاب مؤقتًا باستثناء حزب التجمع الشعبي (أو الرابطة الشعبية) من اجل التقدم الذي يتزعمه رئيس الجمهورية. وفي ٢٥ ايار ١٩٨٢، جرت اول انتخابات تشريعية في البلاد.

أهم أحداث العقد الاخير: في ١٨ آذار ١٩٨٧، وقـع حـادث تفجـير في العاصمة جيبوتي أدّى إلى مقتل ١٢ شخصًا منهـم ٥ فرنسيين. في ٢٢-٢٣ كـانون الاول، زار الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران جيبوتي، وكـانت الزيـارة الاولى لرئيس فرنسـي منـذ الاستقلال في ١٩٧٧. وفي حزيران ١٩٨٩، زار غوليد فرنسا.

١٩٩٠-١٩٩١: في ٢٧ ايلـول ١٩٩٠، حـادث تفجـير آخـر في مقهـى ومقتـل فرنسـي واحـد، اعلنـت «حركـة الشبيبة الجيبوتية» مسؤوليتها عنـه. وفي اول كانون الثاني ١٩٩١، وقع هجوم على ثكنة عسكرية (قتيل واحد)، وبعـد نحـو اسبوع، اعتقل علي عـارف و٢٠ مـن العفـر بتهمـة التـآمر ضـد النظـام. وفي ٢٤ آذار ١٩٩١، اتهـم عدواني حموده بـن حسّـان (وهـو تونسـي قريـب مـن منظمـة التحريـر الفلسطينية) بارتكاب حـادث آذار ١٩٨٧، وحكم عليه بالاعدام. خلال ايار وحزيران ١٩٩١، قـامت السلطات بعمليـات دهـم وتضييق وتفتيش عن سلاح طالت نحـو ٤٠ ألـف لاجـيء أثيوبـي في منطقـتي توتيـم وغودوريـا. وبـين ١٠ و١٥ تموز، وقعـت صدامات مسلحة بين قبـائل عيسـى وقبـائل أومـورو (في ديـر داوا) اسفرت عـن مقتـل ٢٠ شخصًا. وفي تشرين الثاني (١٩٩١)، أصدرت منظمة العفو الدوليـة تقريـرًا بينـت فيه ان ٣٠٠ شـخص تعرضـوا للتعذيـب في جيبوتـي خـلال عـام واحـد، منهـم ٢٠٠ صومـالي كـان قـد تمّ اعتقـالهم بعـد حادثـة تفجير ٢٧ ايلـول ١٩٩٠، و٥٠ مـن العفـر منهـم علي برهـان. وفي ١٢ و١٣ تشـرين الثاني، قام العفر بعمليات عسكرية واسعة النطاق، فهاجموا تاجورا حيـث قضـي علـى ٢٨ عسكريًا، وسيطروا علـى بلـدات في الشـمال بعـد سـقوط عشـرات القتلـى؛ واستمرت عملياتهم العسكرية، بصـورة متقطعـة، وكذلـك سقوط العشـرات مـن القتلـى. وفي ١٨ كـانون الاول، ارتكبـت القـوات الحكوميـة «مذبحـة رحيتـا» في العاصمـة وذهبـت بحياة ٥٤ شـخصًا. وفي آخر يوم مـن العـام ١٩٩١، قـدّم ١٤ نائبًا من حزب التجمع الشعبي للتقـدم (الحـاكم) استقالتهم.

١٩٩٢: في كـانون الثـاني، هـاجم متمردون (عفر) مدينة تـاجورة، وسـقط في الهجوم أكثر مـن ٢٠٠ قتيـل. وفي محاولـة لتهدئة الاوضاع، أصدر الرئيس غوليد عفوًا عامًـا (٩ تموز)؛ لكـن بعـد ٥ ايـام، صـدر حكم بسجن علـي عـارف عشر سنوات. وفي ٤ ايلول، جرى استفتاء علـى الدستور الجديـد الـذي ينـص علـى التعدديـة الحزبيـة (علـى ان لا يتجـاوز عـدد الاحـزاب ٤ احزاب)، وجاءت الموافقة بأكثرية ٩٧٪ من المستفتين. وقد قاطعت المعارضة الاستفتاء.

في ١٨ كـانون الاول، اسـفرت اول انتخابـات اشـتراعية بعـد اعتمـاد الدسـتور الجديد والتعددية السياسية عن فوز «التجمع الشـعبي للتقـدم» (الحـزب الحـاكم) بكـل مقـاعد البرلمـان وعددهـا ٦٥. ولم يفـز «حـزب التجديـد والديمقراطيـة»، وهـو

الحزب المعارض الوحيد الذي شارك في الانتخابات بأي مقعد على رغم تفوقه في عدد الاصوات في مقاطعتين جنوبي البلاد. أما الاحزاب الأخرى المعارضة، وفي طليعتها «جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» التي يتزعمها أحمد ديني، فقد قاطعت هذه الانتخابات، واعتبرها أحمد ديني انها «مسرحية هزيلة وهزلية، يحاول الحزب الحاكم من خلالها إضفاء صورة ديمقراطية على سياسته المعروفة لدى الشعب الجيبوتي». وكان مراقبون من فرنسا والولايات المتحدة قد أشرفوا على الانتخابات.

١٩٩٣: في شباط، أعلن رئيس الجمهورية حسن غوليد (حسن غوليد أبتيدون) تعديلات اساسية على حكومته بادخال ستة وزراء جدد ينتمون إلى قبائل العفر (التي تشكل الطرف المعارض الاقوى والأهم والمسلح في البلاد)، وإعادة تكليف رئيس الوزراء بركات حمادو رئاسة الحكومة الجديدة.

في آذار، استولى الجيش على مرفأ حيوي كانت تسيطر عليه قوات المعارضة العفرية (جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية)، وهو مرفأ خور أنفار الذي يبعد ٤٠ كلم من الحدود الاريترية-الجيبوتية، الذي يعد أهم مراكز اتصال المعارضة الجيبوتية المسلحة مع العالم الخارجي، خصوصًا اليمن، منذ سيطرتها عليه بداية ١٩٩٢. ولذلك، فان استيلاء الجيش على هذا الموقع القريب من مضيق باب المندب اعتبر خطوة متقدمة في حملة الجيش التي هدفت إلى تقليص وجود المعارضة المسلحة ونفوذها في المناطق الشمالية من البلاد. وفي اواخر هذا الشهر (آذار)، كلفت الحكومة الفرنسية سكرتير الدولة السابق للشؤون السياسية في وزارة الخارجية الفرنسية آلان فيفيان القيام بوساطة فرنسية بين الحكم والمعارضة في جيبوتي؛ واعتبر فيفيان ان لا مصلحة لفرنسا في الانحياز إلى الحكم، وان الحرب الاهلية في جيبوتي تنذر بانهيار الدولة.

وفي اواخر آذار، اعلن أحمد ديني (أحمد ديني أحمد) ان جبهته «جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» (معارضة مسلحة) اعتمدت استراتيجية عسكرية جديدة في حربها ضد القوات الحكومية، وقال «إن كل الوسائل التي كانت متاحة لاجراء مفاوضات مع الحكومة استنفدت»، وطالب بالغاء البرلمان والدستور الجديد وقانون الاحزاب شرطًا للتفاوض مع الحكومة. وأكد ان قبائل العفر، الذين يشكلون الغالبية في الجبهة، لا تسعى الآن إلى دولة منفصلة، لكنه لوّح باللجوء إلى هذه الخطوة «إذا تغيرت الاوضاع السياسية في المنطقة».

في نيسان، أبدى رئيس الجمهورية حسن غوليد ارتياحه لفوز اليمين الفرنسي في الانتخابات الاشتراعية في فرنسا، ذلك ان علاقاته بالحكومة الفرنسية الاشتراكية كانت في حالة مدّ وجزر بسبب استياء اليسار الفرنسي من استئثار حزب غوليد (التجمع الشعبي للتقدم) بالسلطة منذ استقلال جيبوتي في ١٩٧٧. والحكومة الاشتراكية في فرنسا كانت ايضًا موضوع

انتقاد زعيم المعارضة الجيبوتية المسلحة، أحمد ديني أحمد الذي كان يعتبر ان باريس تقف إلى جانب الحزب الحاكم، وتدعم قبيلة واحدة (عيسى)، واتهم القوات الفرنسية المرابطة في جيبوتي بتزويد الجيش الحكومي خرائط عسكرية دقيقة تظهر مواقع جبهته العسكرية في شمالي البلاد وجنوبيها الغربي. وفي ٢٤ نيسان، زار غوليد باريس واجتمع بالرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، وجاءت زيارته هذه قبيل الانتخابات الرئاسية في جيبوتي المقررة في ايار، وفي إطار الازمة الصومالية وما ترتب عليها من تدفق اللاجئين الصوماليين على اراضي جيبوتي.

في ٧ ايار، انتخب حسن غوليد أبتيدون لولاية رابعة رئيسًا لجيبوتي في اول انتخابات رئاسية تجري في البلاد في ظل التعددية. وفاز بغالبية ٦٠،٧١٪ من الاصوات في الدورة الاولى التي قاطعتها «جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» (معارضة عفرية مسلحة). وحضر الانتخابات مراقبون يمثلون حكومات كل من فرنسا وبريطانيا واوستراليا وايطاليا إضافة إلى ممثلين للامم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية. وحصل رئيس حزب التجديد الديمقراطي محمد جامع علايي، المنافس الرئيسي لغوليد على ٢٢،٠٣٪ من الاصوات. وتبعه رئيس الحزب الوطني الديمقراطي عدن روبليه عواليه الذي نال ١٢،٢٩٪، ثم المرشح المستقل محمد موسى تورتور، وحصل على ٢،٤٩٪، ثم المرشح المستقل الثاني احمد ابراهيم عيدي الذي نال ١،٩٧٪.

في الاسبوع الاخير من حزيران، جرى اول لقاء مباشر بين «التجمع الشعبي للتقدم» (الحزب الحاكم) و«جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» بزعامة أحمد ديني أحمد في العاصمة الاثيوبية أديس أبابا. وذلك على أثر توجيه الرئيس غوليد دعوة حوار مفتوحة مع المعارضة. وقد تمّ اللقاء في سرية تامة بين وفدي الطرفين. وكانت تطورات العمليات العسكرية في شتى انحاء البلاد تميل لمصلحة الجيش الحكومي. وفي ١٠ تموز، أكد وزير الدفاع ان الجيش الوطني وقوات الامن الوطنية «سيطرت على جميع المواقع التي كان يحتلها المتمردون العفر». وما ساعد هذه القوات وكان في مصلحتها ان الرئيس الصومالي الموقت علي مهدي محمد نقل الجزء الاكبر من قواته ومعداته الحربية إلى جيبوتي بعدما اتخذت الامم المتحدة قرار تجريد الفصائل الصومالية من أسلحتها. وقد حاربت قوات علي مهدي في جيبوتي إلى جانب قوات الحكومة.

في ايلول، تجددت المعارك بين الجيش النظامي وقوات المعارضة العفرية المسلحة في المناطق الشمالية. في ٢ ايلول، جاء في بيان الجيش «ان القوات الوطنية التي بسطت سيطرتها على كل شبر من تراب الوطن في العاشر من تموز (١٩٩٣) تقوم بحملة تنظيف المناطق الشمالية من المعارضة المسلحة...». وبعد نحو اسبوعين، طلبت المعارضة، بعد لقاءات عقدتها مع سفراء الولايات المتحدة وفرنسا واثيوبيا واريتريا

والسودان، تدخل هذه الدول «لوضع حد للاعتداءات التي ترتكبها القوات الحكومية الجيبوتية بحق المواطنين العفر في الشمال». واعتقلت السلطات رئيس رابطة حقوق الانسان، محمد حوماد سولي، وهو من العفر. واعاد زعيم المعارضة أحمد ديني أحمد التأكيد على استمرار المقاومة وعدم إلقاء السلاح قبل الوصول إلى حل سياسي. وفي اواخر الشهر، أصدر الرئيس غوليد مرسومًا بالعفو عن سجناء سياسيين، وتلقت جيبوتي مساعدة اميركية بقيمة مليوني دولار لدعم موازنة ١٩٩٣.

في تشرين الثاني، جرت احاديث كثيرة، بعضها على لسان مسؤولين حكوميين وقريبين من الرئيس غوليد (على شكل إقرار واعتراف)، عن مجازر ارتكبها الجيش في حق سكان الاقاليم العفرية شمالي البلاد. وكان قد قفز عديد الجيش، وبمدة قصيرة جدًا، من ٤٥٠٠ عنصر إلى ١٦ ألفًا، ومنهم من أتى من الصومال.

في كانون الاول، بدأ الحديث، على لسان المعارضة، عن تهجير جماعي للعفر من البلاد. فردت السلطات باطلاق سراح رئيس الحكومة الجيبوتية السابق علي عارف برهان و١٣ شخصًا اعتقلوا معه في تموز ١٩٩٢. ومنذ ١٧ كانون الاول، بدأت تدور معارك بين القوات الحكومية ومقاتلي المعارضة على خمس جبهات في شمالي البلاد. ونشر وزير خارجية فرنسا آلان جوبيه رسالة-وثيقة عن الاحداث العسكرية والسياسية الدائرة في جيبوتي يقول فيها: «إن فرنسا لا تريد زجّ نفسها في الصراع الجاري في جيبوتي بين العفر والعيسى، ولكنها حريصة على إيجاد حل سياسي لأزمة هذا البلد».

مع نهاية سنة ١٩٩٣، تكون الحرب الأهلية الجيبوتية قد دخلت عامها الثالث، وليس هناك أي مؤشر لجلوس طرفي النزاع الرئيسيين «التجمع الشعبي للتقدم» (الحزب الحاكم) بقيادة الرئيس حسن غوليد أبتيدون و«جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» (معارضة مسلحة، أساسها قبائل العفر) بزعامة أحمد ديني أحمد إلى طاولة المفاوضات. وكانت كل من فرنسا واثيوبيا واريتريا والسودان واليمن ومصر بذلت مساعي دبلوماسية مكثفة، خصوصًا في ١٩٩٢، لانهاء الحرب في هذا البلد، وباءت جميعها بالفشل. وكانت اسلحة متطورة تدفقت على جيبوتي من اطراف اقليمية ودولية في شكل ساعد على إطالة عمر الحرب. والوجود العسكري الاجنبي في جيبوتي، منذ قبيل اندلاع الحرب الاهلية فيها، لم يعد قاصرًا على فرنسا كما كان الحال سابقًا. فالولايات المتحدة اقامت مركزًا عسكريًا هناك اعتبر بمثابة جسر عبور لوحداتها المقاتلة في الصومال سواء كان ذلك إبان عملية «إعادة الأمل»، أو تحت مظلة الامم المتحدة. وفي هذا السياق، برز في الفريق الحاكم في جيبوتي إسم اسماعيل عمر غيلي كمرشح أول لخلافة رئيس الجمهورية، وهو معروف بسياسته التي راهنت على حلول واشنطن محل باريس في جيبوتي. وهو ابن عم الرئيس حسن غوليد أبتيدون.

١٩٩٤: مع مطلع هذا العام، عادت المعارك واندلعت في شمالي جيبوتي بين الطرفين؛ وإحدى جبهات هذه المعارك تطل على الشريط الساحلي الشمالي على مشارف مضيق باب المندب. وحاول سفير فرنسا في جيبوتي، من دون جدوى، اقناع السلطات الجيبوتية باقتناص فرصة مناخ الثقة المتبادلة بين الحكومة والمعارضة، لا سيما بعد تبادل الاسرى بين الطرفين قبل نحو شهر، وفتح باب الحوار مع كل اقطاب المعارضة بلا استثناء لحقن الدماء وتوظيف المساعدات الاجنبية لاغراض مدنية بدلاً من الاهداف العسكرية. وفي اواسط الشهر، قررت الحكومة الفرنسية تقديم مساعدات مالية إلى جيبوتي، وربطت ذلك بأن يعمد الرئيس الجيبوتي غوليد بفتح الحوار المباشر مع «جبهة إعادة الوحدة والديمقراطية» التي يتزعمها أحمد ديني. ودعت تنظيمات المعارضة الجيبوتية في ختام مؤتمرها الثاني الذي عقد في أديس أبابا بين ١٩ و٢٣ كانون الثاني، إلى قلب نظام الرئيس حسن غوليد باعتباره «العائق الرئيسي امام احلال السلام والمصالحة الوطنية والديمقراطية في البلاد». وفي ٢٩ كانون الثاني، اعتقلت السلطات الجيبوتية اربعة من قادة المعارضة فور عودتهم من أثيوبيا بعد مشاركتهم في المؤتمر المذكور.

ووفق نظام حرب العصابات الذي بدأته المعارضة مع مطلع ١٩٩٤، استعادت المعارضة، في اواسط آذار، زمام المبادرة وبدأت شن هجمات مركزة على مناطق تمركز الجيش الجيبوتي. وفي ١٧ آذار، عقدت لجنة التعاون الفرنسية-الجيبوتية في جيبوتي العاصمة اول اجتماع لها منذ اربع سنوات بهدف احياء الالتزامات المالية الفرنسية إزاء جيبوتي. وكانت فرنسا أجّلت أكثر من مرة تسديد مساهمتها في الموازنة الجيبوتية بهدف الضغط على السلطات وحملها على السعي إلى إيجاد تسوية سياسية للازمة بينها وبين المعارضة. وقد تزامن استئناف اجتماعات هذه اللجنة (آخر اجتماع لها كان في تشرين الثاني ١٩٨٩) مع اعلان الرئيس حسن غوليد أبتيدون استعداده لفتح حوار مع المعارضة وخفض عدد القوات الحكومية تدريجًا.

في ايار، أكد سلطان قبائل العفر في القرن الافريقي (مقيم في أثيوبيا) علي مرح حنفري انه سيرعى اجتماعًا يضم اعيان قبيلتي العفر والعيسى المتنازعتين في جيبوتي. وسلطان العفر مقيم في اثيوبيا في مدينة أساحيتا (٥٠٠كلم شمالي شرقي أديس ابابا). وهدف الاجتماع انهاء الحرب الاهلية المندلعة في جيبوتي منذ تشرين الثاني ١٩٩١.

في مطلع حزيران، بدأت مفاوضات السلام بين الحكومة الجيبوتية واطراف من المعارضة المسلحة. وفي ٩ تموز صدر بيان مشترك حدّد عقد الجولة الاخيرة من مفاوضات السلام في الاسبوع الاول من ايلول المقبل (١٩٩٤)، على ان تجري في مدينة جيبوتي العاصمة بحضور مراقبين من البعثات الدبلوماسية والهيئات الدولية في جيبوتي.

في هذه الاجواء، شهد تشرين الاول

زيارة قام بها الرئيس الاثيوبي ملس زينـاوي لجيبوتي واسفرت عن توقيع ٢٠ اتفاقًا تتعلق بالامن والدفاع والسياسة الخارجية والعـدل والصحة والسياحة والثقافة وعودة اللاجئين الاثيوبيين وعودة اللاجئين الجيبوتيين وسبل إنعاش طريق سكة حديد جيبوتي-أديس أبابا.

أما الشهر الاخير من ١٩٩٤، كانون الاول، فقد شهد حديثًا عن العلاقات الجيبوتية-الاسرائيلية إثر اعلان رئيس البعثة الاسرائيلية لدى الامم المتحدة ان اسرائيل وجيبوتي قررتا تطبيع العلاقات بينهما. كما شهد تعاظمًا بارزًا لخلافات وانشقاقات داخل صفوف المعارضة الجيبوتية، خاصة داخل «جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية». فرئيس هذه الجبهة أحمد ديني أصبح رئيس «الجناح الرئيسي فيها»، وقد وصف الاتفاق الموقع مع الحكومة بأنه «اتفاق وقعه منشقون عن الجبهة يستجيب لشروط الحكومة»، وقال إن قواته ستواصل القتال حتى تحقيق مطالبها في الاصلاحات الادارية والسياسية والدستورية في جيبوتي. وكان الامين العام للجناح المنشق عن الجبهة، أوجوري كفلي وقّع، في ٢٦ كانون الاول ١٩٩٤، مع وزير الداخلية الجيبوتي ادريس حربي فرح «اتفاق سلام» نص على مشاركة الجبهة قريبًا في ادارة شؤون البلاد.

١٩٩٥-١٩٩٦: حاولت الحكومة الجيبوتية، بعد عقدها إتفاق السلام مع الجناح المنشق عن المعارضة المسلحة، إقناع الرأي العام المحلي والاقليمي والدولي بنهاية التمرد في البلاد، وسعت إلى طرق ابواب الهيئات الدولية للحصول على دعم مادي لاعادة بناء ما دمّرته الحرب الاهلية. لكن منطق الحكومة ظلّ ضعيفًا، خاصة وان الأنباء كانت تتحدث وتقدم البراهين عن ضعف المنشقين مقارنة بالمعارضين الذين كانوا ما يزالون يتمسكون بالسلاح. وجاء حادث ١٨ آذار ١٩٩٥ حيث اسقطت قوات «جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» طائرة مروحية عسكرية حكومية في مرتفعات مابلا بين مدينتي تاجورة وأنج شمالي البلاد، وتحديدًا على المدخل الشمالي لمضيق باب المندب، ليؤكد ان السلام في جيبوتي لا يزال بعيدًا، خصوصًا مع توجه أرتال من الدبابات والمدرعات الحكومية إلى شمالي البلاد حيث ترابط قوات المعارضة المسلحة في الجبال الحصينة.

ومما زاد وضع جيبوتي حراجة، خلال ١٩٩٥، اشتعال حرب خلافة رئيس الدولة حسن غوليد بين تيارين رئيسيين: التيار الاول يتزعمه اسماعيل عمر غيلي، ابن أخ الرئيس، والأمين العام الثاني للحزب الحاكم، ورئيس مكتب الرئيس ورئيس جهاز الأمن الداخلي والخارجي. والتيار الثاني يقوده مؤمن بهدون فارح، الأمين العام للحزب الحاكم، وزير العدل والشؤون الاسلامية.

وفي نيسان ١٩٩٦، وقعت اشتباكات بين القوات الاريترية والجيبوتية على امتداد منطقة رأس ذميرة الاستراتيجية على حدود البلدين. ويقع رأس ذميرة على البحر الاحمر، ويعتبر من المواقع الاستراتيجية

المهمة في المنطقة. وكانت أسمرا (عاصمة اريتريا) أصدرت خريطة جديدة ضمت بموجبها ١٨كلم من اراضي جيبوتي إلى اريتريا. وتوقفت الاشتباكات على أساس «الوصول إلى تفاهم مشترك حول هذه المسألة في المستقبل القريب» على حد قول وزير الخارجية الجيبوتية محمود موسى شحيم.

وفي ١٢ ايلول ١٩٩٦، وقعت الحكومتان، الجيبوتية والأثيوبية اتفاقًا أمنيًا ودفاعيًا اعتبرته التعليقات والتحليلات الصحافية انه يهدف إلى الحد من نشاط بعض المنظمات الصومالية خصوصًا «الاتحاد الاسلامي» الصومالي الذي كانت القوات الأثيوبية قد طاردت عناصره عبر الحدود إلى الاراضي الصومالية قبل وقت قصير من الاتفاق. كما وقع الجانبان، في الوقت نفسه، اتفاقات عدة لتنشيط التبادل التجاري بينهما.

في اواسط تشرين الثاني ١٩٩٦، عقدت محكمة جيبوتية للنظر في طلب استئناف حكم في قضية غير عادية، المتهمون فيها خمسة سياسيين بينهم نواب ووزراء سابقون، والتهمة كانت انتقادهم حكم الرئيس حسن غوليد أبتيدون واتهامه بالفساد. وهؤلاء السياسيون هم رفاق درب الرئيس غوليد لنحو ٢٢ سنة وأبرز مؤسسي دولة جيبوتي. وطالب رئيس حزب «التجديد والتقدم» المعارض محمد جامع علابي باطلاق جميع المعتقلين السياسيين في جيبوتي.

العفر

الموطن والتسمية: تقطن قبائل العفر (المعروفة ايضًا بالدناقل) شرقي هضبة الحبشة وفي جيبوتي. وتقطن قبائل ساهو القريبة الصلة بها جنوبي أريتريا وفي جزء من مقاطعة تيغري Tigrai شمالي أثيوبيا. وهي في معظمها قبائل رحل تزاول الرعي في منطقة صحراوية شبه قاحلة وشديدة الحرارة. وينتسب معظمها إلى اصول عربية قدمت من جنوبي الجزيرة العربية ومن الحجاز.

وهذه المنطقة التي تقيم عليها العفر مثلثة الشكل ومتصلة جغرافيًا، تمتد من ساحل البحر الاحمر إلى هضبة الحبشة، ومن خط حديد جيبوتي-ديري داوا في الجنوب إلى شبه جزيرة بوري في الشمال. وهي بلاد صحراوية فيها بحيرات مالحة باستثناء سلطنة أوسا Aussa الخصبة نسبيًا بفضل نهر حواش الذي يشق اراضيها. وهم يسمون أنفسهم «عفر» ويسميهم الصوماليون «أدالي»، والاحباش يسمونهم تلتال Teltal.

أما تسمية «دناقل» (مفرد: دنقلي) فقد وردت للمرة الاولى عند الجغرافي العربي الاندلسي

ابن سعيد (توفي ١٢٨٥). ويرى بعض الباحثين ان «عفر» محرّفة من أُفير» Ophir، بلاد الطيب والبخور التي ورد ذكرها في التوراة.

يقدر عدد العفر حاليًا (في البلدان الثلاثة: أثيوبيا، جيبوتي واريتريا، ومعظمهم في أثيوبيا) بنحو ربع مليون نسمة.

قبائلهم: تقسم العفر إلى مجموعتين رئيسيتين كلاهما ينتمي إلى اصول عربية: أسايمرة Asa Mara، أي الحُمر وهم الاشراف، وأدويمرة Ado Mara أي البيض وهم العامة. ويُرجع الأسايمرة نسبهم إلى جد عربي من اليمن إسمه حر الماس، نزل إلى البر بالقرب من تاجورة، ثم تغلبت ذريته على قبيلة أنقلة وغيرها من القبائل، وسيطرت على الساحل الشرقي، والأسايمرة هم ذرية التزاوج مع السكان المحليين. والرؤساء من «الحُمر» يمتلكون الارض، ويمتلك «البيض» قطعان الماشية، ولهم حقوق الرعي في اراضي الحمر.

أما الحضارم Hadermo فيعتبرون انفسهم متحدرين من عربي قدم من حضرموت، وهم منتشرون على طول الساحل وفي الدواخل، وكلهم رعاة، ويلتزمون بالاعراف القبلية في احكامهم. وتقول قبيلة «دونا» Dunna إنها جاءت اصلاً من الجديدة في اليمن. ومن بين القبائل بيت شيخة وافرادها من الصلحاء، وينتسبون إلى قريش، وهم موضع إجلال كبير من قبائل العفر التي تقدّم لهم الهبات في المواسم.

تاريخهم: إن شعورًا بالوحدة يجمع العفر ويقوم على عوامل مشتركة بينهم، وهي اللغة والدين ونمط الحياة. ومنذ منتصف القرن السادس عشر قامت للعفر سلطنة في أوسا في الحبشة، ويحظى سلطان أوسا إلى اليوم بزعامة العفر. وبفضل الصحاري المقفرة التي تحيط بالسلطنة وتحميها من الغارات من مرتفعات الحبشة، احتفظت السلطنة باستقلالها التام حتى ١٨٩٥ فيما جهّز ملك الحبشة الثاني حملة على أوسا ارغمت سلطانها على التبعية لملك الحبشة وأداء الجزية له. ولا تزال أوسا سلطنة شبه مستقلة تابعة للحبشة (من دراسة كتبها أمين توفيق الطيبي، استاذ جامعي فلسطيني في أوكسفورد، «الحياة»، العدد ١٢١٥٧، تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٦، ص ٢١).

أوسا العفرية حاليًا: في ايار ١٩٩٤، افتتح سلطان أوسا العفرية، علي مرح حنفري الذي ورث الحكم عن اسرته التي تقود العفر منذ ٣٠٠ سنة، مؤتمرًا لقبائل العفر ضمّ نحو ألفي شخص من أعيان القبائل، وشارك فيه نحو ٣٠ من الدبلوماسيين الاجانب المعتمدين في أديس أبابا. وأعلن علي مرح في هذا المؤتمر تحويل «جبهة تحرير العفر» في أثيوبيا إلى حزب سياسي، وقال: «لم يعد هناك شيء للتحرير... وإذا كان يوجد أي مبرر للمواجهة مع السلطات الأثيوبية، فستكون مواجهة سياسية لا عسكرية». وقال للمشاركين من عفر أثيوبيا في المؤتمر: «إذا كانت دولتكم أثيوبيا تتعرض لخطر ما، فإن واجبكم الدفاع عنها كما كان يفعل آباؤكم منذ قرون عدة».

وبذلك، يكون سلطان أوسا العفر اعترف للمرة الاولى بسيادة أثيوبيا على العفر المقيمين فيها، والتخلي عن فكرة إقامة الدولة الكبرى التي تشمل العفر الموجودين في أجزاء من كل من اثيوبيا واريتريا وجيبوتي.

وكان علي مرح، خلال ١٩٩٣-١٩٩٤، على اتصال مع جميع اطراف النزاع في جيبوتي، خصوصًا الحكومة و«جبهة اعادة الوحدة والديمقراطية» (المعارضة العفرية المسلحة) والمعارضة الحزبية وسلطان قبيلة العيسى التي ينتمي إليها الرئيس الجيبوتي حسن غوليد أبتيدون، وذلك بهدف حل الازمة الجيبوتية من خلال الوسائل

القبلية التقليدية.

وفي آخر ما نقل عن سلطان أوسا العفرية، علي مرح، قوله إن هناك «احتمالاً لقيام اتحاد فدرالي أو كونفدرالي مع جيبوتي. ولعل ذلك يتم في المستقبل القريب... إننا نشترك في اشياء كثيرة، وحكومتا أسمرا وجيبوتي تتفهمان وضع الشعب العفري الذي هو في طبيعته شعب رحل، ومنتشر في أكثر من دولة... إننا شعب واحد هو الأوسا الذي ينتمي إلى قبيلة واحدة تعمل لمصلحة الشعب العفري لدعم الاستقرار في المنطقة بأسرها. لم تستطع فرنسا بعدما احتلتنا ان تغيّر هوية شعبنا، وحتى الآن لا توجد كنيسة عندنا. استطاع المحتلون في ١٧ عامًا ان يدمروا إقتصادنا لكنهم لم يسيطروا علينا و لم ينالوا من عقيدتنا... بايعنا الشعب ثلاث مرات كان آخرها هذه السنة عندما جاءت جماهير شعبنا كلها وبايعتنا على كتاب الله والسنة. وعندنا حاليًا برلمان ورئيس للوزراء (الحبيب يغلي)... إن بلادنا غنية بثرواتها ونحتاج إلى سنتين لاعادة البناء. لكن هذا سيكلف أموالاً طائلة... إن أثيوبيا كانت تنقسم إلى ١٤ مقاطعة وكان العفر يعيشون في ست منها من ضمنها اريتريا. وفي عصر هيلاسيلاسي كنا نعيش في مناطق لو وشغر وهرر واريتريا. وبعد تحرير البلاد من المحتلين انضمت المناطق الثلاث الاولى إلى بعضها. وتبقى مشكلة العفر في جزء من جيبوتي واريتريا. وهاتان المشكلتان ناجمتان عن الاستعمار الفرنسي والايطالي الذي قسّم المنطقة. ونرى ان التقسيمات جائرة، ونحاول حاليًا ان نغير هذا التقسيم واستبدال الحساسيات والعداوة بترابط أكثر قوة... إننا لم نحاول حتى الآن التدخل عسكريًا في تصفية المشاكل بين العفر وجيبوتي. العيسى والعفر مسلمون وطريقتهم في الحياة قريبة جدًا. لذلك حرصنا على القيام بزيارتين لجيبوتي هذه السنة، وحاولنا القيام بوساطة وما زلنا نحاول».

أما في آخر ما تناقلته الأنباء عن تطورات الوضع العفري عامة، إضافة طبعًا لعفر جيبوتي ومعارضتهم المسلحة لنظام الرئيس حسن غوليد، تحذير «جبهة الاتحاد الديمقراطي الثوري العفري» بانها ستضرب مرافق حيوية في اثيوبيا «إذا لم تتوقف الحملة العسكرية التي تقودها الحكومة المركزية في أديس أبابا ضد العفر عبر قوات التيغراي التي ينتمي إليها رئيس الوزراء الاثيوبي ملس زيناوي» (٣٠ أيار ١٩٩٦). والهدف الرئيسي في اطار هذا التحذير هو تنفيذ عمليات عسكرية على الطريق الحيوي الذي يربط مدينة عصب الاريترية بالعاصمة الاثيوبية أديس ابابا. وتوجد في عصب مصفاة للنفط كان يديرها الاثيوبيون وتحولت ملكيتها إلى الاريتريين بعد استقلالهم عن أثيوبيا التي تستفيد من المصفاة في اطار اتفاق وقعته مع الحكومة الاريترية. وكانت الأنباء تنقل عن مسؤولين عفريين (ايار ١٩٩٦) ان معارك ضارية ما زالت مستمرة منذ كانون الثاني (١٩٩٦) وإن في شكل متقطع بين قوات الجبهة العفرية وقوات «الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي» داخل ولاية العفر في شرقي اثيوبيا، وان هذه المعارك أدّت إلى مقتل مئات من قوات الطرفين. وسبق للجبهة العفرية ان رفضت الاعتراف بالحدود الدولية لاريتريا التي استقلت رسميًا في ١٩٩٣ وفصلت العفريين بين البلدين (اثيوبيا واريتريا). وكانت بداية التوتر، الذي تحول إلى معارك، عندما خطفت قوات الجبهة العفرية تسعة سياح ايطاليين عبروا الحدود من اريتريا إلى ولاية العفر في آذار ١٩٩٥.

زعماء ورجال دولة

* **أحمد ديني أحمد** (١٩٣٢-): سياسي جيبوتي. ولد في أوبوك من اصل عفري. انخرط في الحياة السياسية في ١٩٥٨ بعد ان كان يعمل موظفًا في مختبر مستشفى جيبوتي. فشل في الانتخابات الاقليمية، إلا انه عين نائبًا لرئيس الحكومة ووزيرًا للاشغال العامة والمرفأ في ١٦ ايار ١٩٥٩ خلفًا لحسن غوليد. وفي السنة اللاحقة انتخب نائبًا في المجلس الاقليمي على لائحة علي عارف الذي تميزت علاقته معه بالتأرجح بين التأييد والمعارضة لمدة ١٥ عامًا انتهت بالطلاق النهائي بين الرجلين. في ١٩٧٢، أصبح احد أهم زعماء «الرابطة الشعبية الافريقية للاستقلال» ودخل في صراع مباشر مع السلطات الفرنسية الاستعمارية. في ١٢ تموز ١٩٧٧، عين رئيسًا لحكومة جديدة، وفي ١٧ كانون الاول من السنة نفسها، قدّم هو واربعة من وزرائه العفريين استقالتهم احتجاجًا على ما أسموه «القمع القبلي» بعد حادثة إلقاء متفجرة تسببت في مقتل عدة اشخاص في جيبوتي. منذ ١٩٩١-١٩٩٢، وإسم أحمد ديني أحمد على رأس قائمة الزعماء العفريين الذين يقودون المعارضة المسلحة في البلاد (راجع النبذة التاريخية).

* **حسن غوليد أبتيدون** (١٩١٦-): سياسي ورجل دولة جيبوتي. ولد في العاصمة جيبوتي من عائلة صومالية تنتمي إلى قبائل العيسى. بدأ حياته السياسية، منذ ١٩٥٠، بالدعوة إلى إبقاء بلاده تحت السيطرة الفرنسية. انضم إلى الحزب الديغولي ودعا انصاره، في ١٩٥٨، إلى التصويت إلى جانب البقاء مع فرنسا وذلك في الوقت الذي كان فيه خصمه محمود حربي، رئيس مجلس الادارة المحلية آنذاك، يدعو إلى الاستقلال.

أحمد ديني أحمد.

وقد كافأته السلطات الفرنسية على ذلك، خاصة بعد نجاح الاستفتاء حول إبقاء جيبوتي فرنسية، بأن عينته رئيسًا لمجلس الادارة المحلية مكان الحربي في كانون الاول ١٩٥٨. ولكنه استقال بعد ٤ أشهر مفضلاً الاقامة في فرنسا حيث انتخب في ١٩٥٩ نائبًا عن جيبوتي في الجمعية الوطنية الفرنسية، بعد ان كان في السنوات الست الماضية يمثل بلاده في مجلس الشيوخ. وقد أنشأ حسن غوليد، في ١٩٦٣، «الاتحاد الديمقراطي للعيسى»، وهو تنظيم جيبوتي قَبَلي مرتبط تنظيميًا بالحزب الديغولي. وفي كانون الثاني ١٩٦٧، أصبح سكرتيرًا سياسيًا لحزب الحركة الشعبية الذي ما لبث ان مُنع في تموز من العام نفسه. وفي آذار ١٩٧٢، أسس حسن غوليد «الرابطة الشعبية الافريقية» التي اصبحت تعرف، في ١٩٧٥، بعد انضمام العديد من القوى السياسية إليها بـ«الرابطة الشعبية الافريقية من اجل الاستقلال». وكان علي عارف قد عيّنه في ١٩٦٣ وزيرًا للتعليم في حكومته، ولكنه استقال في ١٩٦٧ احتجاجًا على

سياسة رئيس الحكومة المحلية القبلية المنحازة باستمرار للعفر. وفي العام نفسه، خطا خطوة استقلالية كبرى حين دعا إلى التصويت مع استقلال جيبوتي في الاستفتاء الذي نظمته السلطات الفرنسية. إلا انه رغم ذلك ظل يفضل الحكم الذاتي على الاستقلال الكامل إذ اعلن في ١٩٧١: «إننا لا نرفض فرنسا بل ما نرفضه هو حكم علي عارف». ثم اضاف في ١٩٧٥: «إن هذا الاستقلال الذي سنحصل عليه نريده مع فرنسا لا ضدها». وكانت هذه المواقف المرنة مقدمة لاعادة العلاقات مع السلطات الفرنسية التي لم تعد تعترض على وصول غوليد إلى قمة السلطة بعد رحيلها. وبالفعل فقد انتخب في ١٩٧٧ رئيسًا لجمهورية جيبوتي وعمل على إقامة توازن دقيق بين العيسى والعفر في توزيع الحقائب الوزارية خوفًا من ان تستغل اثيوبيا اية اضطرابات داخلية لزعزعة استقرار الجمهورية الناشئة وضمها إليها بحجة حماية العفر ذوي الاصول الحبشية. أما خارجيًا، فقد انتهج الرئيس حسن غوليد سياسة موالية لفرنسا، والتزم الحياد في النزاع الصومالي الاثيوبي، وادخل بلاده إلى جامعة الدول العربية، بعد ان منع المؤسسات الصهيونية من العمل داخل جيبوتي (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨١، ج ٢، ص ٥٣٨). وفي الفقرة التي اعقبت الاستقلال حتى اليوم (صيف ١٩٩٦)، فقد انتخب غوليد لأكثر من ولاية (راجع النبذة التاريخية).

في كانون الاول ١٩٩٥، أصيب غوليد بانهيار صحي (أثناء اجتماع قمة للدول الناطقة بالفرنسية في دولة بنين) بسبب اصابته بمرض في الرئة. فقضى فترة علاج لثلاثة أشهر في فرنسا قبل عودته إلى البلاد في ٤ آذار ١٩٩٦.

*** عبد الله محمد كميل (١٩٣٦-):**
سياسي جيبوتي من أصل عفري. ولد في أوبوك، وهي بلدة واقعة في القسم الذي تقطنه أغلبية عفرية من سكان جيبوتي. أتم دراسته العليا في معهد الدراسات السياسية في باريس. انضم من ١٩٦٥-١٩٦٦ إلى حزب «الاتحاد الديمقراطي العفري» المعارض لسياسة علي عارف، رئيس الوزراء الموالي للفرنسيين، ولكنه سرعان ما تحالف في ١٩٦٧ مع خصمه وشكلا جبهة مشتركة لمعارضة نيل جيبوتي استقلالها عن فرنسا في الاستفتاء الذي جرى في ذلك العام. عُين امينًا عامًا لحكومة اقليم جيبوتي في ١٩٧٤، وظل في هذا المنصب حتى ١٩٧٦ حين عُين رئيسًا للوزراء خلفًا لعلي عارف. وبعد نيل جيبوتي استقلالها عين في ١٥ تموز ١٩٧٧ وزيرًا للخارجية. وفي شباط ١٩٧٨، كلفه رئيس الجمهورية حسن غوليد تشكيل وزارة جديدة قادرة على حماية الوحدة الوطنية والقبلية في البلاد. إلا ان الخلافات سرعان ما انفجرت بين رئيس الجمهورية وبين رئيس وزرائه الجديد؛ فما كان من الاول إلا ان اقال كميل في ايلول من العام نفسه، وعين مكانه رئيسًا جديدًا للوزراء هو بركات غورات العفري ايضًا (راجع النبذة التاريخية).

*** علي عارف برهان (١٩٣٤-):**
سياسي جيبوتي من ابرز المتعاونين مع سلطات الاستعمار الفرنسي ينتمي إلى احدى الاسر العريقة في جيبوتي، فأحد اجداده كان أبا بكر باشا وهو من أشد انصار الوجود الفرنسي داخل افريقيا في اواسط القرن الماضي. انتخب علي عارف في ١٩٥٧ عضوًا في المجلس الاقليمي واعيد انتخابه في العام التالي. أبدى حماسًا ملحوظًا للدستور الديغولي الجديد في فرنسا ونادى بالحفاظ على جيبوتي في إطار الجمهورية الفرنسية. في ١٩٦٠، صار نائب رئيس الحكومة المحلية. وفي انتخابات ١٩٦٣، اعيد انتخابه عضوًا في المجلس الاقليمي وحافظ على منصبه في الحكومة المحلية. لكنه تخلى

عن هذه المهام في ١٩٦٦، اثر الاضطرابات التي رافقت زيارة الجنرال ديغول إلى المستعمرة. وكان علي عارف يقيم علاقات وثيقة مع مساعدي ديغول، لا سيما جاك فوكار المسؤول عن علاقات فرنسا الافريقية (الذي كان بمثابة مفوض سام غير رسمي في أكثر من دولة افريقية). في ١٩٦٧، دعا علي عارف الناخبين إلى التصويت إلى جانب بقاء جيبوتي مستعمرة فرنسية في الاستفتاء حول مستقبل جيبوتي. وبعد فوز مناصريه، تولى رئاسة مجلس الحكم الذاتي. وبقي في هذا المنصب حتى ١٩٧٦، إذ أجبر على الاستقالة تحت ضغط المعارضة المطالبة بالاستقلال، رغم انه كان قد تبنى فكرة الاستقلال ولكن بعد اعتراف الحكومة الفرنسية بحتميته (راجع النبذة التاريخية).

* **محمـــود حربـــي** (١٩٢١-١٩٦٠):
سياسي جيبوتي. ولد في «علي صبية» جنوبي الصومال الفرنسي الذي بات يعرف بـ«جيبوتي». كان والداه من اصل صومالي ومن قبائل العيسى. في البداية كان حانوتيًا. وقد اهتم بالسياسة الوطنية مبكرًا، ما جعله عضوًا في قيادة منظمة الشباب الصومالية والدنقالية (الدناقلة هم العفر). ثم صار قائدًا راديكالي النزعة، ونال شعبية كبيرة خاصة وانه كان خطيبًا بارعًا في معاداته للاستعمار. تمّ ترشيحه لمجلس الشيوخ الفرنسي من قبل «الدالول»، بينما تمّ ترشيح حسن غوليد (من قبائل العيسى ايضًا) من قبل «الأبغال»، فأخفق حربي في منافسة غوليد الذي صار بعد ذلك أول رئيس لجيبوتي. دخل حربي في حركة الشباب العمالية، وقاد إضراب مرفأ جيبوتي، فتوقفت الحركة في المرفأ اربعة ايام، ثم وافقت الحكومة على مطالب المضربين الامر الذي زاد من شعبية حربي. انتخب عضوًا في المجلس النيابي الفرنسي في ١٩٥٦. وكان مدعومًا من قبل كثير من الجاليات غير الاوروبية في جيبوتي. وفي السنوات اللاحقة أجريت انتخابات المجلس النيابي الجديد، فأسس حربي «الاتحاد الجمهوري» لمعارضة هذه الانتخابات، وذلك انطلاقًا من المطالبة باستقلال الصومال الفرنسي وتوحيده لاحقًا مع الصومال. وقد نال حزبه ٣٠ مقعدًا في المجلس، وصار حربي نائبًا لرئيس مجلس الوزراء الجديد برئاسة الحاكم الفرنسي، كما أسند إليه منصب رئيس الوزراء، ووزير المرفأ والاشغال العامة. في استفتاء ١٩٥٨ للاستقلال عن فرنسا، دعم حربي فكرة الاستقلال والاتحاد مع الصومال، غير ان نتيجة الاستفتاء كانت ضد رغبته. وهذا ما جعل فرنسا تعتبر ان حكومته لا تمثل الشعب، فتم حل المجلس الوطني المحلي، وجرت انتخابات جديدة في تشرين الثاني ١٩٥٨. وتتابعت حوادث العنف في جيبوتي التي على أثرها مُنع حزب «الاتحاد الجمهوري» من متابعة نشاطه. وأسس حربي حزبًا جديدًا باسم «الحزب الديمقراطي الصومالي»، لكنه لم يفز إلا بسبعة مقاعد في المجلس الجديد. وسافر بعدها إلى باريس، بينما اعتقل عدد من اتباعه في المستعمرة (جيبوتي)، وحكم عليه غيابيًا بالسجن عشر سنوات. ولم يعد إلى بلده، بل هاجر إلى القاهرة، وتابع نشاطه من اجل وحدة اراضي الصومال. في ١٩٥٩، انتقل إلى موقاديشو، وصار عضوًا مؤسسًا في الحركة الصومالية العامة الوطنية. ثم زار الصين الشعبية واوروبا الشرقية. قتل في طريق عودته إلى موقاديشو في حادث طائرة، وذلك في ٢٩ ايلول ١٩٦٠.

حوض البحر الأحمر

التسمية: ترجع التسمية، «البحر الأحمر»، إلى المتغيرات اللونية حيث تتكاثر في مياهه الزرقاء «المخضرة» كثير من الطحالب التي تكسبه لونًا محمرًا بعد موتها (د. نبيل أحمد حلمي، ملف عن البحر الأحمر، مجلة «السياسة الدولية»، عدد ٥، تشرين الاول ١٩٧٨، ص ٨٠-٨١).

الموقع: البحر الأحمر مسطح مائي يتغلغل في اليابسة فيفصل آسيا عن افريقيا ويتصل بالبحر العربي والمحيط الهندي في الجنوب عبر باب المندب. بينما في الشمال، حيث يتفرع إلى فرعين: الشرقي وهو خليج العقبة، والغربي وهو خليج السويس الذي عبره ومن خلال ممر صناعي (قناة السويس)،

فيتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط. الصخور والشعاب المرجانية تنتشر وتعوق الملاحة فيه، ولا يبقى فيه إلا قناة في وسطه صالحة للملاحة وتسير متوازية مع شاطئيه. وفي الشمال فإن شكل سواحله لم توفر له إلا قليلاً من الموانىء الطبيعية، أما في الجنوب فنجد ان ضيق المجرى الملاحي قد جعل من الصعب الحصول على تسهيلات مرفئية. ومعظم سواحل البحر الأحمر منخفضة رملية تظاهرها هضاب مرتفعة كثيرًا ما تزحف إلى الساحل لتغسل اقدامها من مياه البحر الأحمر.

والبحر الأحمر في موقعه يعتبر حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية، ونقطة التقاء القارات الثلاث وطريقًا مهمًا للتجارة العالمية بين الشرق والغرب.

المساحة: يبلغ متوسط عرضه ٢٨٠كلم. يغطي بامتداده من الشمال إلى الجنوب ١٨ درجة من خطوط العرض. فطوله الكلي يبلغ ١٩٣٢كلم شاملاً مناطق استوائية من جنوبه إلى خطوط العرض المتوسط من شماله. ولا تزيد مساحة الرقعة التي تشغلها مياهه عن ٤٤٠ ألف كلم م.. وإذا كان متوسط اتساعه يتراوح بين ٢٤٠ و٢٨٠كلم فإنه يصل إلى أقصى اتساعه بالقرب من وسطه. ومهما كان اتساعه فهو لا يزيد عن ٣٥٠كلم.

ثرواته: إضافة إلى «ثروة» موقعه، أثبتت الاكتشافات الحديثة وجود معادن مهمة في هذه المياه كالنحاس، واليورانيوم... الخ علاوة على النفط الذي لم يُستغل منه حتى اليوم سوى الثلث تقريبًا، بينما هناك كميات كبيرة بالقرب من السواحل، والثروة السمكية الهائلة، وبعض الانواع الجيدة من الاسفنج والمرجان. إلى هذه الثروات الذاتية، تضاف طبعًا الأهمية الاقتصادية التي تتعدد وتتشعب حيث يوجد عدد لا بأس به من الموانىء، كالقصير في مصر، وبورسودان في السودان، ومصوع في ايريتريا، وجدة (كميناء مهم للحجاج من انحاء العالم كافة في السعودية) وينبع في السعودية، وضحلا والمخا في اليمن. كذلك وجود عدد من المدن الكبرى مثل بورسعيد، السويس، الاسماعيلية في مصر؛ ولا تخفى طبعًا أهمية قناة السويس.

جزر البحر الأحمر والدول المتشاطئة:
تنتشر في البحر الأحمر ٣٧٩ جزيرة، معظمها من الحجم الصغير، يقع بعضها عند مدخل خليج العقبة مثل تيران وصنافير، وبعضها على مدخل خليج السويس مثل الأشرفي وزنيم وشدوان. وتوجد بعض الجزر البركانية التي تحيط بها الشعاب المرجانية كجزيرتي الأخوان والزبرجد، وعدد كبير من الجزر غير المسكونة التي تستخدم، أو يمكن استخدامها للاغراض العسكرية.

توجد حوالي ٤١ جزيرة في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. منها حوالي ٢٣ جزيرة كانت خاضعة للمجال الاثيوبي (قبل استقلال أريتريا) أهمها حالب، ودهلك، وفاطمة. إلا ان معظم الجزر المهمة في تلك المنطقة تخضع للمجال اليمني وأهمها:

- جزيرة بريم، وتقع عند مضيق باب المندب، وتبعد عن الاراضي اليمنية نحو ٤،٨كلم، وهي أهم الجزر في المنطقة، إذ انها تشطر المجرى المائي إلى قناتين، شرقية عرضها نحو ٣،٢كلم وعمقها أقل من ألف قدم، وغالبًا ما تسير الملاحة عبرها.

- مجموعة جزر حنيش التي تسمى أحيانًا «أرخبيل حنيش» وتقع عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، في مواجهة باب المندب، وتخضع للسيادة اليمنية، وهي الجزر، خصوصًا حنيش الكبرى، التي تفجّر بشأنها النزاع الأخير (١٩٩٥).

تتألف مجموعة جزر حنيش من ٩-١٢ جزيرة. معظمها صغير للغاية. إلا ان السائد بهذا

الشأن هي انها تتكون من ثلاث جزر، هي: حنيش الكبرى وحنيش الصغرى، وجبل زقر. وهي مجموعة تحتل جزءًا من العتبة القارية لليمن (وهي قليلة العمق، دون ١٠٠م)، ولا تقع في منطقة المياه العميقة في البحر الأحمر. وتتفاوت تلك الجزر من حيث المساحة، أو من حيث اقترابها أو ابتعادها من اليمن شرقًا أو أريتريا غربًا. وهي قريبة من خط الملاحة البحري في البحر الأحمر المار غربيها وشرقيها، وأهميتها الاقتصادية متصاعدة.

وتعد جزيرة حنيش الكبرى مركز الثقل في الارخبيل، وتقع تلك الجزيرة على بعد ١٢٠كلم شمالي مضيق باب المندب، كما تبتعد ٣٥-٤٥كلم غربي الساحل اليمني المقابل. وتبلغ مساحة حنيش الكبرى ٧٠ كلم م.. وسطحها جبلي شديد التضرس. ويبلغ أقصى ارتفاع في الجزيرة ٤٠٧م فوق مستوى سطح البحر. وجزيرة حنيش الكبرى أقرب إلى الساحل اليمني منها إلى الساحل الاريتري (٣٥كلم للاول و٣٦كلم للثاني). ومعيار المسافة، هنا، يبقى أقل أهمية من معيار آخر وهو وقوع الجزيرة على العتبة القارية لليمن، وكانت خاضعة دومًا للسيادة اليمنية.

- ١٤٤ جزيرة أهمها «فرسان» في مجال المملكة العربية السعودية.
- ١٢٦ جزيرة أهمها «دهلك» و«حالب» في مجال أريتريا.
- ٤١ جزيرة أهمها «قمران» و«بريم» و«حنيش» في مجال اليمن.
- ٣٦ جزيرة أهمها «سواكن» في مجال السودان.
- ٢٦ جزيرة أهمها «شدوان» و«تيران» و«صنافير» في مجال مصر.
- ٦ جزر أهمها «موليلة» في مجال جيبوتي.

أما الدول المتشاطئة للبحر الأحمر، فهي (مع طول ساحلها على البحر الأحمر): المملكة العربية السعودية (١٦٤١كلم)، مصر (١٤٠٨كلم)، أريتريا (٨٠٨٥كلم)، السودان (٦٢٧كلم)، اليمن (٤١٠كلم)، جيبوتي (٣٢كلم)، الاردن (٢١كلم)، اسرائيل (٨كلم)، وكانت اسرائيل قد أخذت منفذًا على البحر الأحمر بعد استيلائها على ميناء أم رشراش وتحويله إلى ميناء ايلات.

تطل على مياه البحر الأحمر، إذًا، ثماني دول بسواحل متفاوتة الاطوال. ويمكن إضافة خليج عدن للبحر الأحمر الجغرافي على اعتبار انه المدخل الطبيعي للبحر الأحمر، كما انه يحمل الخصائص الطبيعية لحوض البحر الأحمر. وتطل على مياه خليج عدن اليمن شمالاً والصومال جنوبًا.

معبر الديانات: لقد أجمع المؤرخون العرب وعدد غير قليل من المؤرخين والمستشرقين وعلماء الأنتروبولوجيا ان التأثير الحامي والسامي انتقل من شبه الجزيرة عبر بوغاز باب المندب إلى القارة الافريقية. جاء في الانسيكلوبيديا البريطانية (الجزء ١٤، ص ٦١٦): «إن التقارب في المميزات الجنسية بين اليمنيين والاحباش أمر طبيعي لأن الاحباش ليسوا إلا خليطًا من العناصر اليمنية بالاجناس الاخرى و لم تكن الحبشة بلدًا منفصلاً ولكن كان سكانها من مهاجري الغرب وذلك يفسر لنا السبب في ان المؤرخين الاقدمين لم ينظروا إلى اليمن والحبشة على انهما قطرين منفصلين ولكن قسمين لقطر واحد أطلقوا عليه اثيوبيا».

وقد لعب هذا البحر دورًا كبيرًا في التجارة العالمية في التاريخين القديم والوسيط وما زال يلعبه في التاريخ الحديث والمعاصر. ومع التجارة، كان هذا البحر معبرًا للاديان والعقائد الروحية. فقد هاجر يهود في خيبر ويثرب ووادي القرى وغيرها، مع من هاجر قبل الميلاد إلى الحبشة عبر البحر

الأحمر، ثم كوّنوا بعد وصولهم جالية مستقلة وبدأ أثرهم يظهر في ثقافة البلاد وحضارتها بصورة مستقلة. وقد أدّى ذلك إلى اعتناق بعض الاجناس للديانة اليهودية، وفي الفترة نفسها كان احفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجاري في البحر الأحمر بحثًا عن الذهب، وقد عزّز ذلك استقرار الديانة اليهودية في بلاد الحبشة.

أما المسيحية فبدأت تتسرب إلى شرقي افريقيا، وخاصة الحبشة، على يد تجار المدن الشرقية للبحر المتوسط وفي مقدمتها مدينة صور. وتذكر الروايات المسيحية ان الاحباش أسروا ركاب إحدى سفن مدينة صور في أحد الموانيء الحبشية على البحر الأحمر وكان من بينهم إثنان من القساوسة: فرومنتيوس وأوديسيوس. وأعجب أزانيا ملك الحبشة بالرجلين فقربهما إليه، واستطاع هذان القسيسان ان يقنعا الملك باعتناق المسيحية وسمح لهما بالدعوة لها، فتعاونا مع التجار اليونانيين المقيمين هناك على بناء الكنائس وإقامة الشعائر المسيحية. ولم تمض فترة حتى كانت المسيحية هي الديانة الرسمية في الحبشة والبلاد المحيطة بها، ما جعل كنيسة الاسكندرية تعين المطارنة لرئاسة الكنيسة الحبشية.

أما الدعوة الاسلامية عبر البحر الأحمر إلى افريقيا فقد كانت أقصر طريقًا وأيسر منالاً منها إلى كثير من بلدان شبه الجزيرة العربية ومنها يثرب مدينة الهجرة نفسها. فعندما اشتد الإذاء على السابقين إلى الاسلام من صحابة الرسول، أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة قائلاً: «لو خرجتم إلى ارض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه» (ابن هشام، «سيرة النبي» ج ١، ص ٣٤٣). فكانت الهجرة الاسلامية الاولى إلى البلاد الوثيقة الصلة ببلاد العرب منذ أقدم العصور.

واستمرت الهجرات عبر البحر الأحمر، ولم يأت المسلمون بعمليات عسكرية فيه إلا مع اشتداد عمليات القرصنة، فجرّدت حملة بحرية في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان احتلت مجموع جزر دهلك المجاورة لمدينة مصوع (في اريتريا) ما اتاح للمسلمين بعد ذلك فرض السيطرة على باقي المراكز البحرية على الشاطىء الافريقي وعلى الانتشار التدريجي للاسلام في الشرق الافريقي. وكان للتجار المسلمين الدور الابرز في نشر الدعوة، إضافة إل اضطراب الاحوال الداخلية آنذاك في شرقي افريقيا وكثرة الحروب بين ملك أكسوم (الحبشة) وجيرانه بل اتباعه من حكام المناطق؛ وإضافة كذلك إلى ضعف سلطان الكنيسة هناك والخلاف المستمر بين السلطتين الزمنية والدينية وخلو منصب المطرانية في كثير من الاوقات بسبب الظروف التي كانت تمر بها كنيسة بيزنطية، ما ساعد على تغلغل الاسلام.

ولم يمض وقت طويل حتى ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي لافريقيا من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة ما كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليه «ارض الزنج». وبدأت تتكون إمارات وممالك اسلامية بمعزل عن التدخل السياسي للدولة الاسلامية من دمشق أو بغداد. ومن أهم هذه الامارات الاسلامية التي نشأت نتيجة لعبور البحر الأحمر إمارات شوا، وأوفات، وذوارد، وارابيني، وهادية، وشرخا، وبالي، ودارة؛ بالاضافة إلى بعض الامارات والسلطنات الاسلامية في الحبشة والصومال.

نبذة تاريخية: عندما اكتشف البرتغاليون، في نهاية القرن الخامس عشر، طريق رأس الرجاء الصالح الذي استقطب الجزء الأكبر من التجارة الدولية آنذاك، لم يفقد البحر الأحمر أهميته كلية، إذ حافظ على مكانته كطريق ملاحي يربط بين الكيانات المطلة عليه التي كانت حتى القرن الثالث عشر تحت السيادة الفعلية، أو الإسمية للخلافة

العباسية، ثم في بدايات عهد الدولة العثمانية التي استطاعت ان تحد من نفوذ البرتغال ومحاولاتها المتعددة اغلاق البحر الأحمر ومنع الملاحة الدولية فيه. واستمر هذا الوضع حتى نهاية القرن السادس عشر.

ومع تصاعد المنافسة الاوروبية لا سيما بين كل من بريطانيا وفرنسا وهولندا وايطاليا على طرق الملاحة المتجهة إلى الهند طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان البحر الأحمر مسرحًا لجزء كبير من هذا التنافس، الذي اغرى بريطانيا وفرنسا وايطاليا على محاولة احتلال أجزاء من شواطىء أو جزر في البحر الأحمر خصوصًا القريبة من مدخله الجنوبي، أو على الاقل إقامة علاقات تجارية مع الاهالي المحليين في المرافىء الاساسية فيه، مثل المخا وعدن وبدرجة أقل زيلع ومصوع. وعندما احتلت بريطانيا عدن في ١٨٣٩، سيطرت على باب المندب وعلى الجزر المسيطرة على مدخل البحر الأحمر بما في ذلك حنيش الكبرى والصغرى وجبل زقر حتى قمران.

بعد افتتاح قناة السويس (١٨٦٩)، الحدث الذي يشكل التطور الاهم من الناحية التجارية والملاحية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ عاد الاعتبار مرة أخرى للبحر الأحمر كممر ملاحي حيوي يخدم أهدافًا ومصالح أبعد كثيرًا من تلك المحدودة والمرتبطة بدوله المتشاطئة له. كما انه اشعل الصراع بين القوى البحرية الكبرى في العالم آنذاك، واصبح الوجود الدائم في احد المواقع الاستراتيجية في البحر الأحمر سواء شمالاً أو جنوبًا هدفًا حيويًا تسعى كل قوة دولية على حدة، وفي الوقت نفسه، العمل على منع القوى المنافسة من الوجود أو على الأقل حصر وجودها في مواقع هامشية لا تؤثر على حركة الملاحة أو النشاط التجاري عبر البحر. وهنا تسارعت عمليات الاحتلال العسكري البريطاني لمصر، وترسيخ وجودها العسكري في عدن (كان بدأ في ١٨٣٩) والمناطق المحيطة بها. كما عملت فرنسا على تسريع وتيرة اتفاقاتها التجارية مع عدد من زعماء القبائل الذين كانوا يسيطرون على الساحل الافريقي في جنوبي البحر الأحمر بالقرب من باب المندب، الأمر الذي مهّد لاحتلال جيبوتي لاحقًا. وبالمثل قامت ايطاليا باحتلال منطقة عصب في الصومال وما حولها، ثم امتدت إلى المنطقة التي تعرف حاليًا باريتريا، وخرجت من المنطقة في ١٩٤١ في غمار الحرب العالمية الثانية.

أمن واستراتيجية دولية وإقليمية معاصرة حول البحر الأحمر: منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتبلور المعسكرين المتصارعين (الاميركي والسوفياتي)، عرف أمن البحر الأحمر صياغات عدة تراوحت بين الأهمية الاستراتيجية القصوى وبين التجاهل.

«في لحظات الاستقطاب الدولي بين المعسكرين الشرقي والغربي، كانت فكرة الأمن في البحر الأحمر ذات شقين، أولهما شق دولي ارتبط اساسًا بقدرة أي من القوتين-سواء بقدراتها المباشرة أو عبر وكلائها وأصدقائها المحليين في المنطقة- على وقف زحف القوة الاخرى من جانب، والحصول على مواقع جديدة في المنطقة من جانب آخر. والشق الثاني هو المرتبط (والمتداخل بالاول) بتطورات الصراع العربي-الاسرائيلي، إذ بدا الامن من وجهة النظر العربية مرادفًا لفكرة محاصرة التهديدات الاسرائيلية ومنعها من الحصول على مزايا استراتيجية معينة تحد من حرية الملاحة للسفن العربية، أو تمثل تهديدًا لأية دولة عربية تقع على البحر. وجاء التداخل بين البعدين القومي العربي والاستقطاب الدولي على نحو فريد. غير ان الحفاظ على حرية الملاحة الدولية في البحر الأحمر ظلّ مكوّنًا اساسيًا غير قابل للنقاش، حتى في اللحظات التي تمّ فيها تهديد الملاحة الدولية في البحر الأحمر، لم يكن ذلك إلا على سبيل لفت

الانظار لضرورات معينة لم تستمر طويلاً» (حسن ابو طالب، رئيس تحرير ملف «الاهرام الاستراتيجي»، «الحياة»، العدد ١٢٠٠٥، تاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٩٦، ص ١٨).

الصراع الدولي على البحر الأحمر كان دائمًا ينحصر بين العمالقة. والذي أبرز هذا الصراع بشكل حاد هو الدور الذي لعبته قناة السويس في تدعيم الثورة الصناعية في اوروبا ودول البحر المتوسط، وذلك بعد ان اصبحت هذه الدول قريبة من مصادر المواد الخام واسواق التصدير في آسيا وافريقيا حيث يمكن نقل هذه المواد الخام أو المنتجات المصنعة في وقت قياسي. بل إن ظهور النفط أضفى أهمية جديدة على قناة السويس والبحر الأحمر.

ذروة التدخل الدولي المعادي لمصالح الدول العربية ولمفهوم البحر الأحمر كـ«بحيرة عربية» جاء في ١٩٥٠ من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا واسرائيل لفرض الاتحاد الفدرالي على اريتريا مع أثيوبيا، ومنع الاولى من الحصول على استقلالها الوطني حتى لا تنضم إلى المحيط العربي فيصبح البحر الأحمر فعلاً «بحيرة عربية». ويكفي تصريح وزير الخارجية الاميركي آنذاك (١٩٥٠) حين قال: «إن الشعب الاريتري يستحق الحرية والاستقلال الوطني كبقية المستعمرات، لكن المصالح الحيوية للدول الكبرى تجعلنا نوافق على اتحاد اريتريا مع أثيوبيا» (للتفصيل، راجع «اريتريا»، ج ١، ص ٢٦١-٢٦٢).

بهذا الوضوح الاستراتيجي تعامل الغرب مع موقع اريتريا في البحر الأحمر وركّز كل جهوده لدعم وتعزيز الاقلية في اريتريا وأثيوبيا باعتبارها الاداة التي تؤمن مصالحه وتحفظ دوره. لكن الاريتريين اعلنوا ثورتهم المسلحة في ١٩٦١ بقيادة «جبهة التحرير الاريترية» من منطلق انتمائهم العربي الاسلامي واستيعاب قياداتهم لطبيعة النشاط الصهيوني المبكر في اريتريا الذي كان يستهدف السيطرة على بوابة باب المندب لخنق التجارة والمصالح العربية الحيوية. وصحيح ان الدعم العربي كان حاضرًا إلا انه كان يتأثر في كثير من الاحوال بالضغوط الدولية، وكل ذلك في إطار غياب استراتيجية عربية موحدة في البحر الأحمر.

إجتماع روما (١٩٧٥): «دعت اسرائيل إلى اجتماع مهم مع الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض المؤسسات الدولية في ١٩٧٥ في روما لمواجهة ما سمّي بالنفوذ العربي المقبل في البحر الأحمر. واوضحت اسرائيل ان السيطرة على البحر الأحمر الحيوية وبناء قواعد عسكرية وأمنية فيها قد حان لنسف الاستراتيجية العربية واتخذت القرارات الآتية:

١- إقامة تنظيم طائفي مدعوم بقوة عسكرية واقتصادية وخبراء في الساحة الاريترية بقيادة اسياس أفورقي. وفعلاً انشق أفورقي عن قوات التحرير الشعبية التي كان يتزعمها عثمان صالح سبي في ١٩٧٥ لتنفيذ هذه المهمة.

٢- تحريك نظام جعفر النميري في السودان لتحجيم دور جبهة التحرير الاريترية ومنع دخول المساعدات العسكرية والاقتصادية لها، مقابل تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية للجبهة الشعبية المنشقة. وبالفعل نفذ هذا الاتجاه بشكل مبالغ فيه وصرّح الرئيس السوداني في مؤتمر العمال العربي عام ١٩٨٢ انه لم يسمع بدولة اسمها اريتريا وانه لا يعترف بوجود الفصائل الاريترية وانسحب من المؤتمر. وكان هذا بمثابة انقلاب على ثوابت السياسة السودانية الداعمة لقضية اريتريا.

٣- صاحب بروز تنظيم «الجبهة الشعبية» وتلقيه تلك الامكانات الضخمة تراجع الدعم العربي للفصائل العربية الاريترية.

٤- كانت تصريحات أفورقي ومواقفه المعادية للعرب واضحة ولا تحتاج إلى مبررات».

(محمد عثمان علي خير، كاتب وصحافي اريتري، «الحياة»، العدد ١١٩٩٨، تاريخ ٢٩ كانون الاول ١٩٩٥، ص ٧).

اسرائيل في البحر الأحمر: «يلاحظ ان تكثيف النشاط الملاحي الاسرائيلي في عمق البحر الأحمر باتجاه الجنوب يستند إلى مجموعة من المزاعم ويحقق لاسرائيل عدة مآرب، لعل أهمها ان العبريين القدامى كان لهم قديم صلة بالبحر الأحمر، وان البحر الأحمر ليس بحيرة عربية وإنما هو بحر مشترك يضم عدة قوميات، كل ذلك بهدف نفي الطابع العربي عن البحر الأحمر. ويزعم الاسرائيليون- شأنهم في ذلك شأن دعاويهم التاريخية في فلسطين والمناطق المحيطة بها- ان لهم صلة قديمة بالبحر الأحمر وذلك منذ قيام المملكة الاولى التي أسسها الملك سليمان في حوالي القرن العاشر ق.م. ففي تلك الآونة يحكى ان مملكة سليمان قد اتسعت حتى شملت البحر الأحمر فتزوج من بلقيس ملكة سبأ في اليمن، وهذا هو السر في نظر بعض المؤرخين في انتساب الاسرة المالكة في الحبشة، اسرة هيلاسيلاسي سبط يهوذا- والتي اطاحها انقلاب ١٩٧٤- إلى ذرية هذين الملكين. ولعل هذا يفسّر لنا اصرار الاسرائيليين على التسميات العبرية القديمة لمعالم الخرائط الجغرافية للمنطقة، فيتحدثون عن خليج «إيلات» بدلاً من العقبة، وخليج «سليمان» بدلاً من السويس... (د. السيد عليوه، استاذ العلوم السياسية في كلية التجارة وإدارة الاعمال في جامعة حلوان، مجلة «قضايا عربية»، عدد ٤، نيسان ١٩٨٠، ص ١٧٣).

ولأن كل الدول المطلة على البحر الأحمر ذات ثقافة واصول عربية، وقفت اسرائيل إلى جانب أثيوبيا لقمع حركة تحرير اريتريا، كما وقفت إلى جانبها في حرب أوغادين ضد الصومال. ثم عادت وتحمست لاستقلال اريتريا الذي قبيل تحقيقه (في ١٩٩٣) وبعيده بدا ان كل شيء مرتب لأن تكون هناك أوثق العلاقات بين اسرائيل واريتريا (راجع «اريتريا» في الجزء الاول)، فسرى الحديث، وبعضه يؤكد، عن وجود عسكري اسرائيلي في جزر دهلك. إذ كانت اسرائيل تسعى دائمًا إلى التواجد-بالاتفاق مع اثيوبيا-في بعض الجزر الصغيرة الموجودة في ارخبيل دهلك (التابع لاريتريا بعد استقلالها). ولا يخفى عن البال ان أهمية باب المندب بالنسبة إلى اسرائيل تتضاعف إذا ما اغلقت قناة السويس، حيث يصبح المدخل الجنوبي للبحر الأحمر هو الطريق الوحيد لاتصال ميناء إيلات باعالي البحار. وكان قد ازداد قلق اسرائيل بهذا الخصوص عقب حادثة السفينة «كورال سي» في ١١ حزيران ١٩٧١ حين هاجم زورق تابع للفدائيين الفلسطينيين ناقلة البترول الاسرائيلية تلك والتي كانت متوجهة إلى ميناء إيلات. ولقد ازدادت أهمية باب المندب في الجنوب (والجزر المتناثرة عنده) في نظر اسرائيل عندما ثبت لديها عدم جدوى سيطرتها على شرم الشيخ.

شمالاً، هناك خليجان رئيسيان يمثلان الذراعين الشماليين للبحر الأحمر، وهما خليج العقبة وخليج السويس. الخليج الاول، اسرائيل على تماس مباشر معه وتطل من خلاله على البحر الأحمر. وهو يقع شمالي البحر الأحمر بين الساحل الشرقي للعربية السعودية والساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء. ولا يمكن الدخول إلى هذا الخليج إلا بالمرور من مضائق تيران. والدول المشرفة على هذا الخليج فهي الاردن ومصر والسعودية، وقد تمكنت اسرائيل، في ١٠ آذار ١٩٤٩، ان تحتل جزءًا من ساحله بطول ٨كلم بعد ان طردت مراقبي الامم المتحدة منه، وتمكنت من بناء مرفأ أسمته ميناء إيلات يتيح لها الاتصال بافريقيا. إلا ان الدول العربية بقيت تمنع السفن الاسرائيلية من الدخول إلى هذا الخليج. وبعد حرب ١٩٥٦، احتلت

الرؤساء المشاركون في قمة شرم الشيخ: ياسر عرفات (السلطة الوطنية الفلسطينية)، بوريس يلتسن (روسيا)، حسني مبارك (مصر)، بيل كلينتون (الولايات المتحدة)، شيمون بيريز (اسرائيل)، الملك حسين (الاردن) وسليمان ديميريل (تركيا).

اسرائيل مضائق تيران وشرم الشيخ ولم تنسحب منها إلا بعد ان رابطت قوات الامم المتحدة فيها. وهكذا استطاعت ان تؤمن لها منفذًا على البحر الأحمر. وفي ايار ١٩٦٧، عندما بدأت بوادر الحرب تلوح من جديد امر يوثانت الامين العام للامم المتحدة، بناء على طلب مصر، سحب قوات الامم المتحدة من سيناء، ما أدّى بطبيعة الحال إلى حلول القوات المصرية محلها، وبالتالي منع السفن التي تحمل العلم الاسرائيلي أو التي تنقل البضائع الاستراتيجية إلى اسرائيل من التوجه إلى هذا الميناء. واندلعت الحرب وهزمت فيها القوات المصرية. لكن إبان تشرين الاول ١٩٧٣، تمكن العرب من سد الطريق امام الملاحة الاسرائيلية في خليج العقبة عن طريق اغلاق البوابة الجنوبية، أي باب المندب، في وجه السفن المتوجهة إلى إيلات.

أما شرم الشيخ فهو موقع مصري استراتيجي يقوم على الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء ويسيطر على المدخل الغربي والرئيسي لخليج العقبة تقابله جزيرة تيران. احتلته اسرائيل إبان العدوان الثلاثي (اسرائيل، فرنسا، بريطانيا) على سيناء والسويس في ١٩٥٦، وانسحبت منه في ٧ آذار ١٩٥٧ بعد تدمير المنشآت العسكرية المصرية. وتمركزت فيه قوات الطوارىء الدولية حتى ٢١ ايار ١٩٦٧ عندما انسحبت بناء على طلب مصر لكي تعود إليه القوات المصرية وتفرض الحصار على خليج العقبة. استولت عليه قوات المظليين الاسرائيلية في حرب حزيران ١٩٦٧ واقامت فيه منشآت سياسية وعسكرية. وعاد هذا الموقع إلى السيادة المدنية المصرية في مطلع ١٩٨٢ بموجب اتفاقيات كمب ديفيد. وقبل انسحابهم من شرم الشيخ، كان الاسرائيليون يعتبرونها «خطًا أحمر» لا يمس، وكان موشي دايان (وزير الدفاع الاسرائيلي) يردد ان «الاحتفاظ بمنطقة شرم الشيخ دون سلام أفضل من سلام من دون شرم الشيخ». لكن بعد انسحاب اسرائيلي كامل من سيناء، بما في ذلك شرم الشيخ مع تأمين حرية الملاحة في خليج العقبة، فسّر دايان تراجعه بقوله: «كنت مصرًا على الاحتفاظ بشرم الشيخ عندما كان عبد الناصر رئيسًا لمصر. لكن مضت ثماني سنوات، واختلف الوضع والنظام في مصر...». وعادت شرم الشيخ لتتصدر واجهة الاحداث العالمية-لأيام طويلة-أثناء انعقاد القمة الدولية فيها (آذار ١٩٩٦) التي جاءت بعد سلسلة عمليات انتحارية نفذها اسلاميون في داخل اسرائيل وأودت بحياة العشرات من الاسرائيليين (عن قمة شرم الشيخ، راجع «الشرق الاوسط» في جزء لاحق).

النزاع الاريتري-اليمني على حنيش

العملية العسكرية الاريترية: ليل ١٥ كانون الاول ١٩٩٥، شنت قوات اريترية هجومًا على جزيرة حنيش الكبرى، واندلعت اشتباكات بينها وبين القوات اليمنية استمرت اياما، فيما أكّدت صنعاء اشتراك زورق حربي اسرائيلي (وضابط اسرائيلي) في قيادة الهجوم. وخلال الايام العشرة الاولى من الهجوم الاريتري، والاستنكار العربي له، والصمت الدولي، كانت المواجهة تهدّد بالاتساع وصنعاء تلوّح بالخيار العسكري إذا لم تنسحب اريتريا من حنيش الكبرى وإعادة الامور إلى ما كانت عليه قبل ١٥ كانون الاول «ثم الشروع في التفاوض السلمي على الحدود البحرية بين اليمن واريتريا على أساس المواثيق والقوانين الدولية»، في حين كانت اريتريا تصر على «الانسحاب المتبادل». وفي ٢٨ كانون الاول (١٩٩٥)، زار صنعاء رئيس وزراء أثيوبيا ملس زيناوي الذي عرض وساطة أثيوبية لحل النزاع اليمني-الاريتري، وزارها ايضًا مبعوث روسي أعلن ان موسكو مستعدة للتوسط بين اليمن واريتريا، كما اعلن بطرس غالي أمين عام الامم

المتحدة ان المنظمة الدولية مستعدة لإنشاء آلية لحل النزاع.

في كانون الثاني ١٩٩٦، تمسكت اليمن برفض التفاوض قبل انسحاب اريتريا من جزيرة حنيش، واريتريا رفضت الانسحاب قبل التفاوض. وفي اول تصريح أميركي (على مستوى مساعد وزير الخارجية الاميركي، ٦ كانون الثاني) رفضت الولايات المتحدة إدانة الهجوم الاريتري وركزت على ضرورة إجراء محادثات مباشرة بين الطرفين. وانتهى النصف الاول من كانون الثاني على تصاعد الجهود الدبلوماسية لاحتواء الازمة خاصة من جانب الامين العام للامم المتحدة ومن وزير الخارجية الاثيوبي، وعلى بدء تحرك فرنسي استطلاعي بلقاء المبعوث الفرنسي لوزير الخارجية السعودي سعود الفيصل ووزير الخارجية المصري عمرو موسى. وانتهى كانون الثاني على قبول الطرفين الدخول في مرحلة تفاوضية وحل النزاع بالطرق السلمية، وعلى حماس واضح تبديه صنعاء بشكلٍ خاص في اتجاه الحل السلمي لأنها «مدركة ان فخًا كبيرًا نصب لها وان اريتريا هي الطعم الذي استخدم في الفخ».

في ١٥ شباط ١٩٩٦، أصدرت لجنة اريترية حكومية مكلفة ملف المفاوضات مع اليمن ان اريتريا لا تطالب بجزيرة حنيش الكبرى فحسب بل تصر على ان جزيرة جبل زقر في البحر الأحمر هي ارض اريترية ايضًا تحتلها اليمن. وبعد ثلاثة ايام، رفضت اريتريا مشروع اتفاق عرضته اليمن، واصرت على ضرورة الاتفاق على «تحديد طبيعة الخلاف» قبل الدخول في تفاصيل أي اتفاقات. وكانت اليمن أعلنت، قبل يوم واحد، عدولها عن المطالبة بانسحاب القوات الاريترية من حنيش الكبرى كشرط مسبق لأي مفاوضات مع اريتريا، وأكدت موافقتها على اللجوء إلى التحكيم لتسوية النزاع. وتزامن ذلك مع اتهامات متبادلة بين الطرفين بالاستعداد للحرب. وفي ٢٢ شباط، أعلنت اليمن عن نيتها اللجوء إلى مجلس الامن «بعد رفض الجانب الاريتري كل الحلول والمقترحات اليمنية والوساطات الأثيوبية والمصرية والفرنسية».

في آذار ١٩٩٦، كررت اليمن قبولها الوساطات الخارجية وفي مقدمها الوساطة الفرنسية من اجل النزاع سلميًا. وفي آخر يوم من هذا الشهر (آذار ١٩٩٦)، زار الرئيس اليمني علي عبد الله صالح قصر حيث أبدى استعداده للقاء الرئيس الاريتري اسياس أفورقي شرط ان يوقع الاخير على اتفاق للمبادىء في شأن جزيرة حنيش الكبرى المتنازع عليها بين اليمن واريتريا. واتفق الجانبان، المصري واليمني، على اعطاء المبادرة الفرنسية فترة زمنية كافية، وعلى استمرار الاتصالات المصرية لدى الاريتريين لتقريب وجهات النظر تمهيدًا لعقد قمة يمنية–اريترية وفقًا لاقتراح الرئيس المصري حسني مبارك.

في نيسان ١٩٩٦، نشرت جريدة «الحياة» (العدد ١٢١٠٦، تاريخ ١٧ نيسان ١٩٩٦، ص ١) قولاً لمدير «معهد موشي دايان في تل أبيب» (المعتبر أحد أهم المعاهد الأكاديمية التي تعد دراسات في اسرائيل عن العالم العربي وإيران وتركيا. وتؤثر الدراسات التي يعدها المعهد في طريقة صناعة القرار السياسي في اسرائيل) جاء فيه: «إن نشر طائرات اسرائيلية شرقي تركيا وانتزاع جزيرة حنيش الكبرى من القوات اليمنية (بواسطة اريتريا) يندرجان في إطار استراتيجية إقليمية وقائية تنفذها اسرائيل تحسبًا لتهديدات سودانية محتملة تعرض للخطر الخطوط الملاحية في المياه الدولية في البحر الأحمر ولمواجهة أي تهديد يمكن ان يصدر عن ايران».

في اول ايار ١٩٩٦، أعلن عن اتفاق الطرفين (اليمن واريتريا) على التحكيم لتسوية النزاع على جزيرة حنيش وعلى نجاح الوساطة

من «الوسط»، العدد ٢٠٤، تاريخ ٢٥ كانون الاول ١٩٩٥، ص ٢١؛
والخريطة الاعلى من «لوموندديبلوماتيك» (١٩٩٦).

الفرنسية في هـذا الصـدد. وفي ٢١ ايـار ١٩٩٦، انهى اتفـاق وقعتـه اليمـن واريتريـا، في بـاريس، احتمال اللجوء إلى القوة لحل النزاع بـين البلديـن، وقررا التوصـل إلى «تسـوية سـلمية للمسـائل الـتي تخص السيادة الاقليمية ورسم الحدود البحريـة» في ارخبيـل حنيـش. وقـرر البلـدان في الاتفـاق الـذي وقعـه وزيـرا الخارجيـة في البلدين انشـاء محكمـة للفصـل في النـزاع «طبقًـا للقـانون الـدولي». ولم تحدد في الاتفاق المبدئي الذي جـاء بعـد نحـو ستة أشهر من النزاع، طبيعة هذا النزاع، ولم يذكر إسم أي من جزر حنيش في البحر الأحمر، وتركت هذه المسائل للمحكمة التي اتفق على إنشائها.

في ١٢ آب ١٩٩٦، وقعـت اشـتباكات مسلحة بـين قـوات يمنيـة موجـودة في جزيـرة زقـر ودوريات وسفن عسكرية اريترية حـاولت التسـلل إلى جزيرة حنيش الصغرى والاعتداء على دوريات يمنية في عمق المياه الاقليمية لليمن في البحر الأحمر. وأسفرت الاشتباكات عن احتـلال اريتريـا جزيـرة حنيش الصغرى مخترقة اتفاق المبادىء بـين البلديـن الذي تمّ التوقيـع عليـه في ٢١ ايـار ١٩٩٦ برعايـة فرنسية. فحضـت اليمـن فرنسـا لتطويـق الازمـة وطـالبت اريتريـا بسـحب قواتهـا مـن حنيـش الصغـرى. وفي ١٦ آب ١٩٩٦، نفـذت اليمـن عمليـة عسـكرية في الجزيـرة اسـتخدمت خلالهـا الطيران والمدفعيـة الثقيلـة وتمكنـت مـن اخـراج القوات الاريترية في حنيش الصغرى. وحض مجلس الامـن، وفرنسـا، اريتريـا علـى الـتزام مبـادىء التحكيم.

السيادة على حنيش من وجهة نظر

اريتريا: تحت عنوان «رؤية اريترية للنزاع حـول جزيـرة حنيـش» لمحمـد نـور أحمـد، رئيـس قسـم الدراسـات-وزارة الخارجيـة الاريتريـة، نشـرت «السياسـة الدوليـة» (عـدد ١٢٥-تمـوز/يوليـو ١٩٩٦، ص ١٨٧-١٨٩) مقالاً دراسيًا يـرد فيـه على مقال للكاتب علاء سـالم- وتاليًـا علـى كـل وجهة نظر يمنية وعربية- وهذه أهم النقاط الـواردة في مقال محمد نور أحمد:

- إننا نـرى ان النـزاع اولاً وأخيرًا يمـني- اريتري، في رقعـة مـن الارض محـددة هـي ارخبيـل حنيش-زقر ولا يمكن ان يتجاوز هذه الحدود.

- تعود جذور هذه المسألة (مسـألة ملكيـة جزر حنيش) إلى حقبة وصول الاستعمار الايطـالي في نهاية القرن التاسع عشـر وترسيخ اقدامـه علـى الشاطىء الاريتري الجنوبي ووضع يده تدريجيًا على ارخبيل حنيـش-زقـر منـذ ١٨٩٩ بعـد ان كـانت تحـت سيطرة الحكـم العثمـاني، وبـات منـذ تلـك الفترة جزءًا من محافظة دنكاليا ويـدار مباشـرة مـن ميناء عصب. أما بريطانيا، وكانت القوة الاوروبية الثانيـة الموجـودة في جنوبـي البحـر الأحمـر، فقـد اكتفت بالسيطرة على كـل مـن فراسـاي وقمـران بعد عام من بدء الحـرب العالميـة الاولى. وبريطانيـا مثلها مثل ايطاليا شريك في اتفاقية لوزان المبرمة في ١٩٢٣، والتي بموجبها تنازلت الدولة العثمانية عن ممتلكاتهـا للحلفـاء الذيـن هزموهـا للتصـرف فيهـا بالكيفية التي يروها مستقبلاً وكانت اليمـن، وقـت هذا الاجراء الايطالي، دولة مسـتقلة، ذات سـيادة، وطرفًـا في اتفاقيـة للصداقـة والتجـارة مـع ايطاليـا مدتها عشر سنوات، وقعتهـا في ١٩٢٦ وجددتهـا في ١٩٣٦. تنـص هـذه الاتفاقيـة علـى الاعـتراف باستقلال اليمن وسيادته على اراضيـه. ولا يتطـرق الشك إلى اعتقادنا (أي اعتقـاد الكـاتب الاريـتري محمد نور أحمد) بأن اليمن كـان سيسـمح بانتهـاك حرمـة سـيادته ووحـدة وسـلامة اراضيـه لـو كـان الارخبيل جزءًا من ترابه. لهذا لم يسمع عـن اليمـن أي صوت احتجاج على افتراض انـه كـان عـاجزًا عـن حمايـة اراضيـه عسـكريًا بسـبب التفـوق العسكري الايطالي.

- أما عن واقعة تقسـيم الجـزر بـين اثيوبيـا واليمن في ١٩٦٢ بنسبة ٣ إلى واحد تبعًـا لمسـاحة

الرئيس اليمني علي عبد الله صالح.

الرئيس الاريتري أسياس أفورقي.

الامتداد الساحلي لكلا البلدين، فإننا لم نهتدِ إلى أي مصدر لها.

- وعن ترسيم الحدود بين البلدين في ذاك العام (١٩٦٢) وتكرر في ١٩٧٧ وتجدد عقب استقلال اريتريا (١٩٩٣)، فنحن لا نجادل في ان تكون الحكومة اليمنية قد عرضت على الحكومة الاريترية الوليدة بعد استقلال البلاد امر مناقشة مسألة ترسيم الحدود البحرية، لكن هذه المسألة لم تكن ملحة من منظور الحكومة الاريترية بدرجة تستوجب وضعها ضمن اولوياتها، خاصة وان العلاقة بين البلدين كانت نموذجية.

- ليس هناك ما يسند الادعاءات اليمنية بالسيادة على هذه الجزر (حنيش) تاريخيًا. فهذه الجزر وقعت منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر تحت سيطرة الحكم العثماني حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر، ثم وقعت تحت السيطرة المتبادلة والمشتركة احيانًا إلى ان استقرت تحت السيطرة الايطالية كما سبق ذكره. وحتى بعض الكتابات اليمنية لا تختلف من حيث الجوهر مع هذا الرأي وإن اختلفت في رواياتها. فالدكتور قصي كامل صالح شبيب يقول في كتابه (مضيق باب المندب في التاريخ المعاصر) صادر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني في صنعاء في ١٩٧٩، في صفحتي ١٨ و١٩: «مجموعة جزر حنيش تقع في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر تجاه جزيرة بريم إلى اليمن وهي غير مأهولة بالسكان وسطحها جبلي وهي تشمل حنيش الكبرى وتبعد ٥٥كلم عن ا لشواطيء اليمنية، وحنيش الصغرى تبعد ٤٠كلم عن نفس الشاطيء... وكانت هذه الجزر تتبع عدن إداريًا ولكن بريطانيا سلمتها إلى الحبشة قبل استقلال اليمن الجنوبي بحجة انها جزر تابعة لاريتريا قامت الحبشة بتأجيرها إلى الولايات المتحدة التي سلمتها بدورها إلى الصهاينة بعد حرب ١٩٦٧».

- أما بالنسبة إلى سماح اليمنيين للثوار الاريتريين باستخدام هذه الجزر، فهي حجة مردود عليها لأن الثورة الاريترية استخدمت بالفعل هذه الجزر في نضالها من اجل تحرير اريتريا دون ان تستأذن من احد وما كان لها ان تستأذن لأن الجزر اريترية.

وأما في ما يختص بادارة المنارات من الموانيء اليمنية منذ ١٩٨١، فإن هذه لا تصلح لأن تكون دليلاً وحجة كافية لتثبيت سيادة اليمن على الجزر. لأن هذه المنارات كانت منذ ١٩٦٧ تدار من الموانيء الاثيوبية (الاريترية حاليًا). فاثيوبيا أسبق في ادارة المنارات من اراضيها ولفترة امتدت إلى ١٤ سنة، وقبل ذلك كانت بريطانيا تدير هذه المنارات من عدن، و لم تسلمها بعد رحيلها من عدن إلى الادارة الجديدة لجمهورية اليمن وانما انتقلت الادارة من عدن إلى مصوع وعصب. ومسألة المسافة بين الادارة والسيادة مسألة قانونية وعلى محكمة العدل الدولية ان تعطي حكمًا واضحًا يقول للجميع اين تنتهي الادارة واين تبدأ السيادة كما قال الدكتور عبد الملك عودة في ندوة الاهرام التي عقدت بتاريخ ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٦.

– وعن الدور الاسرائيلي في العملية العسكرية الاريترية، فجواب الرئيس اليمني علي عبد صالح نفسه ردًا على سؤال مراسل الـMBC كفيل بنفي هذا الامر. إذ قال الرئيس علي عبد الله صالح انه يتهم اريتريا التي احتلت الجزيرة، وأضاف «ربما يريدوننا (الاريتريون) ان نتهم اسرائيل ليستفيدوا من وراء ذلك الاتهام، لكننا لا نتهم أحدًا إلا اريتريا».

السيادة على حنيش من وجهة نظر اليمن: من دراسات عديدة نشرتها الصحافة العربية، يمكن تبيان النقاط التالية:

– كانت السيادة على تلك الجزر لليمن منذ الألف الثاني ق.م. إذ كان الحميريون يسيطرون على البحر الأحمر.

– إن أي سيطرة أخرى على تلك الجزر من أي جهة كانت إنما قامت بفعل غزو طارىء أو ضعف طرأ على الدولة اليمنية لأسباب داخلية، أو بفعل السيطرة على اليمن من قوى خارجية: عثمانيون، أحباش، بريطانيون... الخ وهذا النوع من السيطرة لا يلغي سيادة الاصل.

– عادت السيادة على تلك الجزر وغيرها إلى اليمن في كل مرة تنتهي فيها السيطرة الطارئة. وكان آخرها عند انتهاء استعمار بريطانيا للجنوب.

– جميع الخرائط تؤكد سيادة اليمن على تلك الجزر. ومن ضمنها كل الخرائط الاميركية: «لا توجد خريطة اميركية واحدة إلا وتظهر ان تلك الجزر يمنية».

– وورثت اريتريا ما كانت الحبشة مسيطرة عليه من ا راضيها وجزرها وليس من بينها جزر حنيش، وورث الجنوب ما كانت بريطانيا مسيطرة عليه من اراضيه وجزره ومن بينها تلك الجزر.

– وورثت اريتريا كل التزامات وحقوق الحبشة القانونية والدولية والمتعلقة باراضي وجزر وحدود اريتريا، وورث الجنوب (جنوب اليمن أو اليمن الجنوبية) ومن ثم الجمهورية اليمنية كل الالتزامات والحقوق القانونية والدولية المتعلقة بالحدود والاراضي والجزر. ومن ذلك ما ورثته الجمهورية اليمنية من الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية اللتين ورثتا من المملكة المتوكلية اليمنية ومن بريطانيا حدودًا برية وبحرية وجزرًا من بينها جزيرة حنيش الكبرى. وورثت جمهورية اريتريا من اثيوبيا ما هو معلن من قبلها عند استقلالها من ان حدودها هي الحدود التي ورثتها اثيوبيا من ايطاليا والتي ليس من بينها تلك الجزر. كما ان ميثاق منظمة الوحدة الافريقية أقرّ مبدأ المحافظة على قدسية الحدود السياسية المعروفة منذ عهد الاستعمار واريتريا ملتزمة هذا المبدأ، وبالتالي ليس لها الحق في تلك الجزر لأنها لا تدخل في حدودها السياسية المعروفة منذ عهد الاستعمار الايطالي أو الحبشي.

– كانت تلك الجزر موضع نزاع بين

اليمن واثيوبيا قبل استقلال اريتريا، وشهدت بعض الفترات موجات من الخلافات الحادة بشأنها كما حدث في ١٩٧٤ بين اليمن واثيوبيا، حيث اعترفت (بحسب المصادر اليمنية) اثيوبيا بتبعية تلك الجزر لليمن.

– على رغم ذلك، استمر النزاع على تبعية تلك الجزر بين اريتريا واليمن، خصوصًا وانه لا توجد اتفاقات أو معاهدات سابقة لتسوية قضية ملكية الجزر. فتبعًا لتصريح وزير الخارجية اليمني في كانون الاول ١٩٩٥، لم يتفق اليمن في الماضي مع الحكومات الاريترية لوضع اسلوب تحديد الحدود البحرية بين البلدين، واشار السفير الاريتري في اليمن (ايضًا في كانون الاول ١٩٩٥) إلى انه «لا يوجد أي اتفاق بين اليمن واريتريا حول السيادة على المياه الاقليمية في البحر الأحمر».

– الخرائط الاريترية الرسمية نفسها لم تكن تتضمن أي أثر للجزر. فقد جاء على لسان مسؤول يمني قوله: «وعندما فاوضناهم في أسمرا وسألناهم عن سبب الاعتداء على حنيش قالوا لنا انتم اعتديتم علينا. قلنا كيف نعتدي عليكم وخرائطكم تقول إن الجزر يمنية. قالوا سنغير الخرائط. وبالفعل طبعوا خرائط جديدة منذ شهرين في سويسرا تتضمن الجزر المذكورة» («الوسط»، العدد ٢٠٨، تاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٦، ص ٢٦). ويمكن القول في هذا الصدد ان الخلاف، في التحكيم، سيدور على الوثائق والخرائط الاجنبية والمحلية، ويتضح من تصريحات الطرفين ان اليمن يستند في تأكيد سيادته على الجزر إلى وثائق متعددة الجهات، في حين تستند أسمرا إلى ا لوثائق الايطالية وحدها (راجع العنوان الفرعي السابق: «السيادة على حنيش من وجهة نظر اريتريا»).

– فالخرائط الحديثة اليمنية والاريترية والاميركية والبريطانية والايطالية كلها توكد يمنية الجزر، سواء مباشرة أو بصورة غير مباشرة، بمعنى تأكيدها سيادة الاستعمار البريطاني على الجزر، واليمن وريث بريطانيا في السيادة على اراضيه. وعندما لا تتحدث الخرائط عن ا لسيادة اليمنية أو البريطانية فإنها تعتبر الجزر منطقة غير محددة السيادة.

– ثمة خريطة اميركية اصدرتها وكالة الاستخبارات المركزية، في ١٩٩١، تعتبر فيها الجزر يمنية. وهذا الأمر يفسر سبب الحياد الاميركي الظاهر حتى الآن منذ العملية العسكرية الاريترية في حنيش الكبرى في كانون الاول ١٩٩٥ «حيث لا يمكن لواشنطن ان تكذب خرائطها» وهي تشعر بـ«حرج كبير».

– يستند الجانب الاريتري إلى الوثائق الايطالية وحدها، ويتضح من مضمون هذه الوثائق ان لا شيء فيها يشير إلى السيادة الايطالية الصريحة عليها، وهذا ما يسقط الحجج الاريترية.

– تقع حنيش الكبرى وحنيش الصغرى وجبل زقر في نطاق المياه الاقليمية اليمنية بالاستناد إلى قانون البحار الدولي واتفاقات السيادة البحرية التي وقعتها اليمن و لم توقعها اريتريا، ما يعني ان اوراق اليمن في النزاع أهم بكثير من الاوراق الاريترية، وان صنعاء لا تخشى التحكيم الدولي لعلمها انها قادرة على تثبيت حقها بالسيادة على الجزر.

حوض البحر المتوسط

التسمية: «المتوسط»، من عبارة لاتينية Méditerranée التي تعني البحر الذي يتوسط اليابس. واليابس هو قارات العالم القديم الثلاث: آسيا، اوروبا وافريقيا.

الموقع: بحر شبه داخلي. تحيط به من الغرب اسبانيا؛ ومن الشمال فرنسا وايطاليا ويوغوسلافيا (السابقة) وألبانيا (من خلال بحر الادرياتيك الفرعي) واليونان؛ ومن الشرق تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين (اسرائيل)؛ ومن الجنوب مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب (مراكش).

يتصل البحر المتوسط بالبحار والمحيطات الاخرى عن طريق مضيق جبل طارق (بالمحيط الاطلسي) وقناة السويس (بخليج السويس وتاليًا بالبحر الأحمر). أما مضيق البوسفور والدردنيل فهما يربطان البحر المتوسط من خلال بحر مرمره بالبحر الاسود المقفل. وتعتبر هذه المضائق ذات أهمية استراتيجية بالغة إذ تسمّى في عرف رجال الاستراتيجية البحرية «نقاط الخناق» حيث تسهل عملية المراقبة أو الهجوم أو الدفاع (راجع «تركيا» في الجزء السادس).

المساحة: البحر المتوسط أكبر البحار الداخلية، إذ تبلغ مساحته (مع ملحقه البحر الاسود) نحو ٢ مليون و٩٦٩ ألف كلم م.. يمتد طوليًا من مضيق جبل طارق في الغرب إلى بحر أزوف في الشمال الشرقي نحو ٣٨٠٠كلم، ومتوسط عرضه نحو ٥٥٠كلم أما متوسط عمقه فهو نحو ١٤٥٨م.

جزر المتوسط واقسامه: **أهمها:** جزر الحوض الغربي: كورسيكا، سردينيا، زفارينا، باليار. جزر الحوض الشرقي: بانتيليريا، لامبيدوزا، كركنه، جربة، مالطا، كريت، قبرص، جزر البحر الإيوني، جزر سبوراد وسيكلاد. وأهم خلجانه: خليج جنوى وخليج الاسد في الحوض الغربي، وخليج تارنت وقابس وسيرتا والاسكندرون وأرغوس في الحوض الشرقي.

يقسم الجغرافيون عادة البحر المتوسط إلى قسمين كبيرين: المتوسط الغربي والمتوسط الشرقي اللذان تفصل بينهما عتبة ممتدة من صقلية إلى تونس ومسافتها نحو ١٤٠كلم، ومتوسط عمقها لا يتعدى ٤٠٠م. ومنه يتفرع البحر التيراني. والمتوسط الشرقي الذي يتشكل من حوض البحر الإيوني وإليه تضاف المنطقة القبرصية–السورية؛ ومن المتوسط الشرقي يمتد البحر الادرياتيكي وبحر إيجه.

ثرواته: ملوحة مياهه مرتفعة جدًا، إذ تبلغ ٣٧-٣٩ في الألف، في حين انها في الأطلسي ٣٥ في الألف. ويشكل الملح المستخرج من المتوسط ثروة لا يستهان بها. فهناك ممالح كبرى تقع على شواطىء ليدو وقرب مصبات الأنهر الاوروبية في المتوسط («الدلتا»)، ويبلغ متوسط الانتاج السنوي

من الملح نحو ٥ ملايين طن. وهناك المرجان في الحوض الغربي من المتوسط عند سواحل الجزائر وصقلية وسردينيا. الاسفنج متوافر بكثرة، وأكثر المستفيدين من إنتاجه اليونانيون والسوريون. أما السياحة، فحوض المتوسط، بمجمله تقريبًا، يشكل إطارًا طبيعيًا مشجعًا لها؛ وأهم مناطقه السياحية: كوستا برافا وكوستا دل سول في اسبانيا، وكوت فرماي وكوت دازور ولانغ دوك روسيون في فرنسا، وريفيرا في ايطاليا؛ والسياحة تشكل اليوم أحد أهم الثروات في اسبانيا والمغرب وتونس واليونان وتركيا ولبنان (قبل الحرب اللبنانية). أما الثروة السمكية فهي على قدر متوسط الأهمية، وأهم انواع السمك هو «التونة». وأهم مراكز صيد السمك موجودة في ايطاليا (خليج تارنت وعلى ساحل نابولي)، ومعدل الانتاج السنوي من السمك في البحر المتوسط نحو ١،٥ مليون طن.

أهمية المتوسط في المواصلات والتجارة الدولية: يعتبر البحر المتوسط طريقًا للمواصلات البحرية بين مختلف أنحاء العالم. فهو طريق السفن المتجهة من موانئه واليها من شمال غربي اوروبا والمملكة المتحدة وموانىء بحر البلطيق وشرقي وجنوب شرقي البحر المتوسط والبحر الأسود وغربي الأطلسي حيث الاميركيتين. وطريق السفن من الشمال والغرب إلى آسيا واوستراليا. وتمر به حاملات المواد النفطية والخامات المعدنية والنباتات الزيتية والحيوانات وخامات النسيج والمعادن المصنوعة والآلات والأسلحة وغيرها. والمتوسط طريق حيوي للمجموعة الاوروبية تتوقف أهميته جزئيًا باغلاق قناة السويس، التي يؤدي إغلاقها إلى ارتفاع تكاليف الشحن. ففي الفترة التي أعقبت حرب ١٩٦٧، ارتفعت تكاليف الشحن بما يزيد على ٥٠٠ مليون جنيه، كما بلغت خسائر التبادل التجاري عشرات ملايين الدولارات. كما لا يمكن إغفال أهمية البحر المتوسط لتجارة الدول العربية سواء المصدرة للنفط والغاز أو المعادن أو المستوردة لاحتياجاتها من الغذاء أو المعادن المصنوعة أو الآلات أو الأسلحة، أو لممارسة نشاطات إقتصادية فيه كصيد السمك وغيرها.

ومع ذلك، فإن المواصلات البحرية ومختلف النشاطات المرفئية في البحر المتوسط تبقى أقل أهمية من النشاطات التي تعرفها سواحل بحر الشمال والسواحل الشمالية الشرقية للأطلسي الموصلة إلى القارتين الاميركيتين. ذلك انه ترتب على اكتشاف اميركا وطريق رأس الرجاء الصالح وفتح العثمانيين القسطنطينية في نهاية القرن الخامس عشر تحول النشاط التجاري من البحر المتوسط إلى بحر الشمال والمحيط الأطلسي، فازدهرت موانىء انكلترا وفرنسا واسبانيا والبرتغال، وتزايدت قوة السلطة المركزية في اوروبا بأسرها بعد قيام الانظمة الملكية فيها.

نبذة تاريخية: البحر المتوسط واقع جغرافي وواقع تاريخي عرف الازمات والصراعات أكثر مما عرف عهود السلام المديدة. وهو ايضًا واقع اقتصادي يتسم بتبادلات غير متوازنة. ويشكل واقعًا ثقافيًا، فهو منتج حضارات ومقرًا لنزاعات لم تنته حتى اليوم. لكن على رغم هذه النزاعات هناك من يعتقد ان بين حضارات المتوسط قاسمًا مشتركًا يتجسد في الفلسفات والديانات التي كان البحر المتوسط مهدًا لها وشكلت أسس الحضارة المعاصرة. وهناك ايضًا من يعتقد بأن هذا التقارب بين الاخلاقيات وعادات شعوبه وثقافاتها كفيل بان يكون أساسًا لكتلة اقتصادية أو سياسية واحدة (راجع «المناقشة» تاليًا).

تاريخيًا، يمكن الكلام على مراحل كبرى عديدة. فهناك المرحلة ما قبل الرومانية حيث قامت دول بحرية وتجارية، مثل دولة قرطاجة، ودولة الاغريق القديمة ومختلف الدول الفينيقية التي توصلت إلى نشر لغتها على طول الساحل الشرقي

خريطة الامبراطورية الرومانية في ذروة مجدها، العام ١١٧ ايام الامبراطور تراجان: البحر المتوسط بحيرة رومانية.
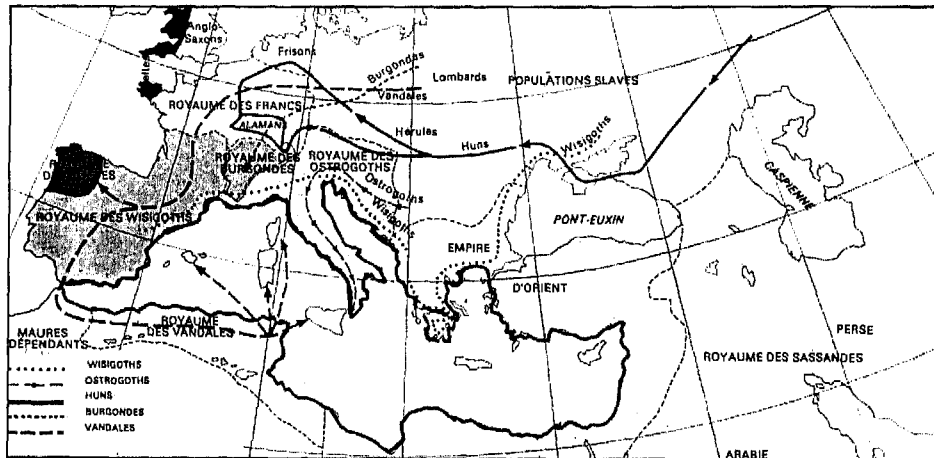
خريطة تظهر غزوات البربر في القرن الخامس، وقد تركزت في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط، خاصة الشمالي منه.

الامبراطورية العربية ووضع البحر المتوسط منها (القرن ٧-القرن ١٠): المنطقة المزيحة، شبه الجزيرة العربية، في العامين ٦٢٢-٦٢٣؛ المنطقة الرمادية الغامقة، في ايام الخلفاء الراشدين الاربعة من ٦٢٣ الى ٦٦١؛ المنطقة الرمادية الفاتحة في ايام الامويين ثم العباسيين من ٦٦١ الى ٩٤٥.

للمتوسط وامتدت إلى اطراف مـن جنـوب شـرقي آسيا الصغرى وإلى قبرص (منذ بداية الالـف الاول ق.م.) والجـزر اليونانيـة مثـل رودس وحتـى إلى اليابسة اليونانيـة، وذلـك خـلال القـرون الثـالث- الاول ق.م. وكان التوسع الفينيقي الحقيقي حدث في شمالي افريقيا بعد بناء قرطاجـة (قـرت حدشـت أي المدينـة الجديـدة) العـام ٨٤٢ق.م. وبنـاء المستوطنات الفينيقيـة علـى سـواحل وجـزر البحـر المتوسـط. فقـد اسـتوطنوا جـزر مالطـا وصقليـة وسـردينيا (اسـتعملت اللغـة الفينيقيـة لغايـة القـرن الثاني في سردينيا)، وساحل شمالي افريقيا واسبانيا، وعبروا أعمدة ملقرت (التي اسماها الرومـان أعمـدة هرقل وهي مضيق جبـل طـارق) وسـكنوا سـاحل المحيط الاطلسـي ايضًـا. وملقـرت هـو أحـد كبـار الآلهة الفينيقيين، ومعناه مختصر مـن «ملـك قـرت» أي ملك القرية أو المدينة. وعرفت لغة المستوطنات الفينيقيـة (وعلـى رأسـها قرطاجـة) باللغـة البونيـة. وبعـد سـقوط قرطاجـة العـام ١٤٦ق.م. اصطلـح على تسميتها باللغة البونية الحديثة. واستمر تأثيرها لقرن بعد ذلك، فقد تحدثت شعوب شمـالي افريقيـا (المملكتان النوميدية والموريتانيـة) هـذه اللغـة لغايـة القرن الثاني الميلادي.

في المرحلة الرومانية التي بـدأت مـن القـرن الاول بتوسـع رومـا واسـتمرت إلى القـرن الرابـع، تمكن الرومان من إجبار سكان المدن على الحديـث باللاتينيـة، غـير انهـم فشـلوا في التأثـير في سـكان الارياف الذين بقوا أوفياء للغتهم القديمة خاصـة في مناطق ليبيـا والجزائـر الحاليـة. وتمكنـت رومـا مـن توحيـد اقتصـادي وسياسـي للبلـدان المتشـاطئة واعتبارها في إطار الامبراطورية الرومانية.

المرحلة الثالثة (القرن الرابع-القرن الحـادي عشر) شهدت، منذ بداياتها، القضاء على الوحـدة الرومانيـة بـالغزو الجرمـاني والسـلافي القـادم مـن الشـمال، ثـم بـالفتح العربـي الآتـي مـن الشـرق (افريقيـا الشـمالية، اسـبانيا-الاندلـس-وصقليـة).

وكان لقراصنة البحر باع طـولى في السـيطرة علـى الملاحة في البحر وفي عرقلة المنشـآت المرفئيـة علـى السواحل.

مع المرحلة الرابعة (تبـدأ في القـرن الحـادي عشر) بدأت مرحلة من النشـاط الملاحـي المتزايد، وتزامن ذلك مع تفسخ في الامبراطوريـة (الخلافـة) العربيـة، ومـع مسـاهمة الصليبيـين في إعـادة فتـح موانيء الشرق. فاعـادت القسـطنطينية، واسـبانيا، والمـدن الايطاليـة مراكزهـا في التجـارة الدوليـة وقـامت بـدور الوسـيط التجـاري بـين الشـرق والغرب.

المرحلـة الخامسـة (القـرن الخـامس عشـر)، مرحلـة صعـود الاتـراك العثمـانيين الـتي أدت إلى تراجع أهمية المتوسط مرة جديدة بفعـل النزاعـات السياسية. فالفتوحـات الـتي حققهـا العثمـانيون في الشرق، والبلقان وافريقيا الشمالية صاحبها بصورة عامة تقهقر في النشاط التجاري عبر المتوسط إضافة إلى القرصنة التي عادت وعرقلت طرق الملاحة فيه. ثـم جـاء اكتشـاف طريـق الهنـد عـبر رأس الرجـاء الصالح (١٤٨٧)، ثم اكتشاف اميركا عبر الطريـق الأطلسـي المباشـر (١٤٩٢) لينـتزع مـن المتوسـط جزءًا كبيرًا من أهميته الملاحيـة والتجاريـة. فكـان المتوسـط، لمـدة نحـو ثلاثـة قـرون، مجـرّد ملحـق بالتجارة الدولية.

المرحلة السادسة (القرن التاسع عشر) هـي المرحلة التي جعلت من المتوسط مـن جديـد طريقًـا ملاحيًا وتجاريًا نشطًا بفضل التصنيـع الـذي عرفتـه دول شمـالي وغربـي ووسـط اوروبـا، إضافـة إلى اسـتعمار فرنسـا بلـدان افريقيـا الشـمالية. وكـان لافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) التي ربطت البحـر المتوسط بالبحر الأحمر الموصـل إلى المحيط الهنـدي والمحيـط الهـادىء ان يحـوّل تمامًـا خريطـة الطـرق البحرية لمصلحة البحر المتوسط. ومع ذلك ثمة عائق استمر يعـوق بلـوغ المتوسـط الـذروة، ويتمثـل بمستوى التطور الصناعي المتدني للبلدان المتوسـطية

التي استمر اقتصادها إقتصادًا زراعيًا وحرفيًا، الامر الذي خفّف من قدرتها الشرائية، وتاليًا، من حركتها التجارية.

سيطرت بريطانيا على البحر المتوسط من القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال سيطرتها على النقاط الاستراتيجية المهمة فيه: جبل طارق (١٧٠٤)، مالطا (١٨٠٠)، قبرص (١٨٧٨)، مصر (١٨٨٢).

بعد الحرب العالمية ا لثانية، استقلت قبرص ومالطا في إطار الكومنولث البريطاني، واصبحت عدن (كموقع استراتيجي مهم في البحر الأحمر ومؤثر جدًا على البحر المتوسط) عاصمة لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، وأثارت اسبانيا مسألة وضع جبل طارق، وأخذت فرنسا وايطاليا تقومان بدور متزايد الأهمية في المتوسط. وشهدت الحرب العالمية الثانية دخول الولايات المتحدة إلى مسرح الاحداث المتوسطية عبر نزولها في افريقيا الشمالية (١٩٤٢). وبعد هذه الحرب، قاومت الولايات المتحدة محاولات الاتحاد السوفياتي النفاذ إلى المتوسط: مشروع مارشال، منظمة معاهدة شمالي الأطلسي (ناتو)، مبدأ ايزنهاور حول الشرق الاوسط، الحرب الباردة، الصراع على المنطقة، النزاع العربي-الاسرائيلي (إقفال قناة السويس في ١٩٦٧، ووجود السفن الحربية السوفياتية حتى ١٩٦٩...) كلها عوامل كانت تهدد بجعل البحر المتوسط منطقة نزاع دولي من جديد.

مع انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ حوض البحر المتوسط قد تكون «مرحلة المتوسطيين أنفسهم» (راجع «مؤتمر برشلونة» بعد العنوان الفرعي التالي «مناقشة»).

مناقشة: فكرة «الانتماء المتوسطي»:

«حوض البحر المتوسط» ليس موجودًا كواقع سياسي. لكن البعض (خاصة من المفكرين) يتمنى انجاز هذا الواقع. وإذا كان من غير المعقول تصور قيام وحدة متوسطية وارثة لجماعة واحدة، فإنه من المعقول، لا بل أصبح من الواقع، أو شبه الواقع، بعد قيام المجموعة الاوروبية، قيام غيرها بعدها، ثم قيام ربط بين المجموعات بحيث تؤلف كيانًا سياسيًا. من المفكرين المتوسطيين المعاصرين: بروديل، ألبير كامو، رينيه حبشي الأشقر وطه حسين. ومنهم جاك بيرك الذي نشرت له «الحياة» (في ملفها «آفاق»، تاريخ أول آب ١٩٩٣) المقال التالي:

المتوسط هو الفضاء المظلوم في التاريخ والحاضر. مظلوم من الجانبين لماذا؟ لأن الشاطىء الجنوبي قُسّم إلى اوطان مختلفة، وكذلك الشمالي. نلاحظ، اليوم، ان اوروبا تعمل على غلق نفسها من خلال «كونسورتيوم» (اتحاد شركات) اناني يعرف بـ«اتفاقية ماستريخت».

وشهدنا في السنوات الخمسين الاخيرة-يا للمفارقة- قيام مسارين: واحد في الجنوب وآخر في الشمال من المتوسط. العرب شرعوا في هذا المسار في منتصف الاربعينات عندما سعت جامعة الدول العربية إلى تأسيس وحدة إيديولوجية لجنوب المتوسط، وحدة اخلاقية وثقافية ما بلغت يومًا الوحدة السياسية الفعالة. واوروبا تسعى بعد أربعين عامًا إلى بناء وحدة اقتصادية ومالية طامحة إلى أداء دور سياسي فعال، إلا انها لم تتوصل بعد إلى الاضطلاع بهذا الدور السياسي، بل انساقت وخضعت، وحتى باتت تابعة للسياسة الاميركية.

إنهما، إذن، فشلان متوازيان على شاطئي المتوسط. أما ضحية هذا كله فهي طبيعة الاشياء، طبيعة هذه البلدان الواقعة على ضفتي المتوسط، وما بينهما: إنه المتوسط، الفضاء المظلوم. أهمل المتوسط تمامًا في عهد جامعة الدول العربية ونسي العرب انهم متوسطيون ايضًا، مثلما نسي الاوروبيون بعدهم مع اتفاقية ماستريخت أو تغاضوا

المؤتمر الاورو–المتوسطي في برشلونة ١٩٩٥. في الوسط رئيس الوزراء الاسباني فيليبي غونزاليس.

عن انتسابهم وتحدرهم من الفضاء المتوسطي.

أسوق هذا الكلام، وقد جعلت من الاسم هذا، «عابر الضفتين»، عنوانًا لسيرتي الشخصية بعد ان كرست حياتي لاقامة صلات بين الضفتين. وهو عمل أدى، رمزيًا على الاقل، إلى اعتبار المتوسط حقيقة تاريخية واقعة. القيام بهذا العمل وغيره، عندي كما عند الآخرين، يفترض ان للمتوسط حياة ما عرفها في التاريخ. بلى، المتوسط أمل لأنه مندرج في وقائع التاريخ الماضية.

نتبين المتوسط كواقع تاريخي في ماضي روما وبيزنطة والامبراطوريات العربية– الاسلامية لا سيما الاموية والعباسية، ومع الصليبيين ايضًا، وما لبثت ان توقفت هذه الوحدة المتوسطية وتفرقت في أجزاء، وهي ما نعرفه اليوم في المتوسط. تناثر المتوسط لا بل أصبح تابعًا، تجوب فيه، حاكمة متنفذة، الاساطيل الاميركية، والسوفياتية بالامس...

لا نحتاج إلى واقع لبراهين عدة لتبيان كون المتوسط يمثل وحدة جيو–سياسية أكيدة، وهو ما يؤكده أي جغرافي. كما ان أي دارس للشعوب وعقلياتها وأنماطها قادر على تبيان التشابه والقربى في الملامح والتصرفات بين سكان كالابري (الايطاليين) وسكان الجزائر... هذا ما نلاحظه في الملامح كما في السلوكات، ذلك ان المتوسط شهد منذ أبعد العصور التاريخية المعروفة ولاحقًا في ملاحم هوميروس أو في التاريخ الاسلامي منذ معاوية بن أبي سفيان، حركة تنقل واختلاط وتبادل وتلاقح بين الشعوب الواقعة على شواطئه وهو ما نلقاه جليًا في الاندلس كما في صقلية.

طبعًا عرف هذا التاريخ المتوسطي حروبًا ضارية، ودماء القتلى اختلطت بمياهه البيضاء إلا أننا نعرف، اليوم، بفضل أدوات التحليل التاريخي، أن ما يعنينا في عهد تاريخي ما لا يقوم في التقابل الذي نشأ فيه بين الحرب والسلم بل في تأسيس «حقل دلالي» نافع ومعبر، أي فضاء حواري تندرج فيه اطراف كثيرة وفق قيم واحدة، ولو أنهم يحملونها دلالات متعارضة.

تحدثت في إحدى دراساتي الاخيرة عن

المعارك التي حصلت بين الفرنسيين والعرب في عهد الامير عبد القادر الجزائري، ولاحظت فيها مقادير التشابه في القيم بين المجموعتين: فكرة الوطن، الشجاعة العسكرية، حب النساء، حب الفروسية، الديانة... كانوا يتقاسمون القيم نفسها، ولكن وفق حمولات مختلفة.

هناك إذن وحدة جيو-سياسية وتاريخية وسلوكية واعتقادية للمتوسط، إلا أننا نفتقدها منذ منتصف القرن السابع عشر، بعد ان نزح التاريخ، حسب المؤرخين، أو غامر بعيدًا عن هذه المياه البيضاء، صوب نقاط ارتكاز أخرى، هي شمال اوروبا أو المحيط الاطلسي. لم يعد المتوسط بعد هذا التاريخ مركز العالم بل محل نزاع وموضوع سيطرة.

علينا إذن ان نعمل على ردم هذه الهوة الفاصلة بيننا وبين تاريخ المتوسط العريق. ونحن نتجه من دون شك صوب هذا الهدف، إذ يؤكد لنا علماء الاقتصاد ان البلدان المتوسطية تعرف منذ عشرين عامًا على الاقل انتعاشة بيّنة ودينامية أكيدة. الحيوية تسري من جديد في هذه الربوع: ايطاليا حققت قفزة جبارة والتحقت بركب الدول السبع الاكثر غنى في العالم، التصنيع الجزائري، النهضة الاسبانية، والتطور البالغ الذي عرفته الدول العربية بين ما هي عليه اليوم وحالها قبل ٢٠ عامًا.

إلا ان هذه المؤشرات الايجابية لا تغيب عن ذهني الامر الآتي: إن المتوسط لا يمثل اليوم همًّا ولا شاغلاً أو قضية، وما يقلقني هو قلة الاكتراث لا بل الاهمال اللاحق بمسألة المتوسط في بلداننا. هذا ما تحققت منه بنفسي في مؤتمر شاركت فيه في برشلونة، حين تبين قلة الاكتراث الاوروبية بموضوع المتوسط. هذا يشمل العرب ايضًا على رغم علمي بمصدر تخوفهم القديم من المتوسط. فغزاة الامس القريب الاستعماريون أتوا من شمالي المتوسط للسيطرة على جنوبيه. إلا ان المتوسط براء من هذا كله، ذلك ان سفنًا استعمارية أخرى أتت من الاطلسي ايضًا، أي ان المتوسط لم يكن في حد ذاته موضوع النزاع أو السيطرة ولا ذريعة في أي حال.

أنا اتفهم مع ذلك تخوفات العرب حين خشوا الدعوة المتوسطية. غير أنني اتساءل: هل نجحوا في دعواهم الافرو-آسيوية، التي طالما عملوا من اجلها منذ خمسين عامًا؟ هل يمكننا ذكر انجاز واحد في تحقيق هذه الدعوة؟ أنا لا أنكر طبعًا وجود سمات أفرو_آسيوية في الشخصية العربية، إلا انني أدعو العرب إلى الالتفات إلى المتوسط بدل التنكر له والتخوف منه.

وما يقلقني في هذا السياق ان اوروبيي المتوسط يبادلون المتوسط قلة الاكتراث عينها. ان التفاتة العرب والاوروبيين من جديد إلى المتوسط لا تحقق نصاب التاريخ وتحل قدرًا كبيرًا من مشاكلهما وحسب، بل تجنبهما أعدادًا من التناقضات: فإذا قبل العرب الدعوة المتوسطية يتخلصون تمامًا من تناقضهم مع «التفرنج» ذلك انه يصبح سمة طبيعية لا مفروضة عليهم. كذلك فإن مشاكل الاقليات تتناقص حتى لا نقول تنعدم مع تصور فضاء متوسطي واحد. هذا يصح في اوروبا ايضًا. أي ان على العرب ان يتصالحوا ويتعاونوا مع الشعوب الواقعة شمالهم، وعلى الاوروبيين مع سكان الجنوب.

أقول هذا وانا أدرك ان دعوة المتوسط لا تشحذ الهمم في ايامنا هذه، وإنها اثارت حماسة قلة قليلة فقط في السنوات العشر الاخيرة، وانها تتراجع تمامًا في فرنسا وتعرف قدرًا من الذيوع في ايطاليا واسبانيا والمغرب العربي. وما الاحظه اليوم هو ان دعواي هذه قد تلقى اصداء ايجابية في البلدان العربية أكثر منها في فرنسا على سبيل المثال. فما يثير حفيظتي ونقدي في فرنسا هو انها تغفل تمامًا مسألة المتوسط لاهثة وراء وهم الوحدة الاوروبية الذي لا يعدو كونه وحدة مالية ليس إلا، أي لا اقتصادية ولا اجتماعية ولا ثقافية.

ومع ذلك فانا اتمنى لا بل أعمل من اجل ذيوع دعوة المتوسط من اجل قيامها ككتلة مناهضة للنزعة الاوروبية من جهة، وللتجزئة العربية من جهة أخرى، ككتلة معارضة لوحدانية السيطرة التي ينتهي إليها عالمنا اليوم، ككتلة أمل وتعاون لشعوب المتوسط.

مؤتمر برشلونة (٢٧-٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٥)

الاطار السياسي والمشاركون: ما إن تطرح مسألة حوض البحر المتوسط على المحلل السياسي والخبير الاستراتيجي في الوقت الراهن حتى تبدأ التمايزات بالظهور، إذ تبدو السياسات الفعلية للدول المحيطة بالبحر متخذة منحى قد يكون على طرفي نقيض بين بعضها البعض كما حدث في فترة الحرب الباردة وانقسام العالم إلى معسكرين إيديولوجيين، حيث كان البحر المتوسط عبارة عن ساحة تنافس بين الولايات المتحدة الاميركية وبين الاتحاد السوفياتي بالرغم من كونهما في الواقع بلدين غير متوسطيين، إلاّ ان منطق سياسة الاستقطاب الذي كان سائدًا قد أدّى إلى خلق هذه الحقيقة الاستراتيجية.

ولعل التحول الكبير الذي حدث خلال السنوات الخمس الاخيرة التي اعقبت انهيار النظام الدولي الثنائي القطبية هو وراء هذه الرغبة الواضحة والمحاولات المتعددة للعمل من اجل إقامة علاقات متميزة بين مكونات حوض المتوسط، والتي تندرج في سياقها قمة برشلونة (٢٧ و٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٥) والتي حضرها زعماء ٢٧ دولة: دول الاتحاد الاوروبي الـ١٥، بالاضافة إلى كل من الجزائر والمغرب وتونس ومصر وسورية واسرائيل والاردن وفلسطين وتركيا وقبرص ومالطا ولبنان. وقد أدّت الازمة بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة مع ليبيا (بسبب قضية لوكربي-راجع «ليبيا» في جزء لاحق) إلى استبعاد طرابلس من قمة برشلونة. وهذا الاستبعاد دلّ بوضوح على ان الابعاد السياسية للشراكة الاوروبية المتوسطية ستظل تتحكم في مختلف الخطوات التي يتم قطعها في كل المجالات مهما بدت بعيدة عن المشاكل السياسية الصريحة.

وقد ظهر جليًا حرص الاتحاد الاوروبي ودول المتوسط على لعب دور مستقل في المجالات التي يمكن لهما ذلك. فاستطاعت هذه الدول ان تحسم موقفها حول موقع الولايات المتحدة تجاه هذه القمة المتوسطية، وهو موقف يقضي بعدم دعوتها إلى الاشتراك في لقاء برشلونة باعتباره مقتصرًا فقط على بلدان البحر المتوسط إضافة إلى دول الاتحاد الاوروبي. غير ان هذا لا يعني استبعاد واشنطن وبصورة نهائية عن البحر المتوسط. فهذا من قبيل المستحيل نظرًا للتواجد الاستراتيجي للولايات المتحدة في المنطقة والذي لا يتوقف استمراره على الرغبة الاوروبية. ثم انه بعد قمة برشلونة وبعد التداول في بعض المشاكل وخاصة منها تلك المتعلقة بالامن والاستقرار في المنطقة، فإنه سينبغي على دول الشراكة الاوروبية المتوسطية توسيع نطاق التداول إلى شركاء آخرين الذين لا ينتمون بالضرورة جغرافيًا إلى المنطقة ولكنهم يلعبون دورًا استراتيجيًا على المستوى العالمي في مجال حفظ السلام. وتعتبر الولايات المتحدة نموذجًا حيًا لهذا النوع من الدول.

الشراكة المتوسطية: بدا مؤتمر برشلونة، من خلال ما طرحه من موضوعات، طموحًا وشاملاً، كون هذه الموضوعات نابعة من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والامنية والدينية والايديولوجية المختلفة التي تعيشها دول الحوض بنسب مختلفة تنتقل بين الارباكات الداخلية المحدودة بنشاطات النقابات وصولاً إلى الصدامات المسلحة (كما في الجزائر)، مرورًا بالعمليات

الارهابية التي طالت بلدانًا اوروبية وخاصة فرنسا.

انطلاقًا من هذه الاوضاع المتشابكة، فإن الحديث عن الشراكة تجاوز في المؤتمر (ويتجاوز في كل طرح متوسطي) الجانب الاقتصادي ليتناول باقي الميادين. ويمكن تقسيم هذه الشراكة المطروحة على النحو الآتي:

– شراكة سياسية وأمنية من خلال تحويل المنطقة إلى منطقة سلام واستقرار. وهذا يعني معالجة قضايا النزاعات والامن والهجرة و«الارهاب» وعدم انتشار الاسلحة النووية. وفي هذا الاطار تدرك اوروبا ان مؤتمر برشلونة لن يتدخل في حل النزاعات التي يجري حلها مثل النزاع العربي–الاسرائيلي (لعدم إغضاب الولايات المتحدة، عرّاب حلّ هذا النزاع)، إنما يريد التأكيد في ميثاقه على عدم لجوء الدول الشريكة إلى القوة لحل نزاعاتها، وتفادي التوتر واحترام سيادة الاراضي. ولا شك ان نقطتين في هذا الجانب أثارتا (وتثيران) خلافات كبيرة وهي: مفهوم الارهاب والانضمام إلى معاهدة حظر السلاح النووي. وإذا كانت مختلف الدول قد اتفقت على إدانة «الارهاب» فإن سورية ولبنان عارضا المزج بين الارهاب وحق المقاومة ضد الاحتلال. أما في ما تعلق (ويتعلق) بنزع السلاح النووي فالكرة كانت قبل المؤتمر وأثناءه (وهي دائمًا) في ملعب اسرائيل وحلفائها من الدول. فذلك يعني التمهيد فعلاً لاقامة سلام نهائي في حوض المتوسط وفي المنطقة بأسرها.

– شراكة إجتماعية وإنسانية حيث بدت اوروبا معنية مباشرة بما تعانيه دول جنوبي حوض المتوسط من مشكلة الهجرة المشروعة وغير المشروعة المتزايدة نتيجة للبطالة والفقر والتخلف. وهذه الهجرة ترتبط ايضًا بشكل أو بآخر بارتفاع نسبة البطالة. والأخطر من ذلك ان هذه الازمة تتحول إلى خزّان هائل احتياطي للعنف. من هنا، يبدو الترابط الشديد بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية.

– شراكة إقتصادية أساسها ليس مجرد فتح اسواق مقفلة أو محدودة سابقًا، إنما العمل على تحديث هذه الاسواق. فقد أكدت تجربة الربع القرن الاخير ان ازدياد فقر الجنوب يؤدي إلى تراجع ازدهار الشمال وليس إلى تقدمه. ذلك ان اقتصاد الشمال مهما كان متقدمًا وجيدًا لا يعني سوى كميات معروضة في حال انتفاء الطلب. وفي هذا الاتجاه، يعود تلقائيًا الحديث عن «الحوار الاوروبي–العربي»، و«حوار الشمال–الجنوب»... وكيفية تطوير الجنوب لاقامة توازن موضوعي في العرض والطلب، وليس الاكتفاء بالحصول على المواد الأولية بأرخص الاسعار.

«شراكيو» أو «شركاء» حوض البحر المتوسط اتفقوا على ان هذا المؤتمر الاول من نوعه لن يكون إلا حلقة في سلسلة طويلة من المؤتمرات، وحدّدوا أحد البلدان المطلة على الضفة الجنوبية للمتوسط مكانًا للمؤتمر القادم، وزمانًا له في النصف الاول من ١٩٩٧، وأقروا برنامج عمل من اجل إبقاء الاتصال والتشاور عبر «لجنة اوروبية–متوسطية» وتأليف مجموعات عمل.

إعلان برشلونة: أقرّ المؤتمر الاوروبي–المتوسطي في اليوم الثاني والأخير من إنعقاده البيان الختامي (إعلان برشلونة) الذي استمر إعداده، على مستوى الخبراء، أكثر من خمسة أشهر. وجاء الاقرار بالاجماع لكن بعد إدخال تعديلات عليه بفعل التباين في وجهات النظر لدى بعض الدول وخصوصًا بين الموقفين العربي والاسرائيلي.

يقع «إعلان برشلونة» في ٣٠ صفحة فولسكاب. يشير في مقدمته إلى «ان هذه المبادرة الاوروبية–المتوسطية لا تهدف إلى ان تحل محل المبادرات الاخرى التي بوشرت من اجل السلام والاستقرار والتنمية في المنطقة، لكنها ستساهم في دفعها إلى الامام. والمشاركون يدعمون تحقيق

تسوية سلمية عادلة وشاملة ودائمة في الشرق الاوسط ترتكز على القرارات الملائمة وذات الصلة بمجلس الامن للامم المتحدة وعلى المبادىء المذكورة في الدعوة إلى مؤتمر مدريد عن السلام في الشرق الاوسط، بما في ذلك مبدأ الارض في مقابل السلام مع ما يترتب على ذلك». والعبارة الأخيرة (مبدأ الارض في مقابل السلام) أضيفت إلى نص الاعلان بناء على طلب الجانب العربي.

وبعد تأكيد «الهدف العام وهو يقضي بجعل البحر الابيض المتوسط منطقة حوار وتبادل وتعاون من شأنها تأمين السلام والاستقرار والازدهار» والاتفاق على إقامة «شركة اوروبية-متوسطية عبر تعزيز الحوار السياسي وتنمية التعاون الاقتصادي والمالي وإيلاء البعد الانساني والثقافي ما يستحق من إهتمام» وضع الاعلان عناوين كبيرة لم تأت في الحقيقة بجديد، إذ إنها كررت مبادىء «الديمقراطية»، «حقوق الانسان»، «التعاون»، «احترام سلامة الاراضي»، «تسوية الخلافات بالوسائل السلمية»... إلى ما هنالك من مبادىء وعبارات يكاد يستنسخها مؤتمر دولي أو إقليمي عن سابقه... (المناقشة التالية تبرز أهم نقاط اعلان برشلونة وتعطي تقويمًا له).

مناقشة: تحت عنوان «المتوسطية يجب ان تكون مطلبًا لشعوب الجنوب بالاساس»، كتب صالح بشير («الحياة»، العدد ١١٩٧٣، تاريخ ٣ كانون الاول ١٩٩٥، الصفحة الاولى من ملف «تيارات»):

إذا كان البعض قد عقد امالاً في ان يكون اللقاء «الاوروبي-المتوسطي» الذي التأم في برشلونة يومي ٢٧ و٢٨ تشرين الثاني الماضي، ايذانًا بانبعاث الفضاء المتوسطي من جديد، فعلى ذلك البعض ان يطوي آماله أو ان يؤجلها إلى حين قد يتأخر موعده كثيرًا.

إذ إن ذلك اللقاء قد أخفق في ان يكون لحظة التأسيس التي أريد له ان يكونها. فهو قد زعم لنفسه في البداية هدفًا كبيرًا وطموحًا يتمثل في التقدم بمقاربة شاملة كاملة لمنطقة تتعدد دولها (٢٦ دولة إضافة إلى السلطة الوطنية الفلسطينية) ومشاكلها ووتائر ومستويات نموها الاقتصادي وتباين ثقافاتها وانظمتها السياسية، ليخلص في نهاية المطاف إلى اعلان ختامي متواضع يكتفي بالحد الادنى الذي لا يلزم أحدًا أو لا يكاد يلزم أحدًا. فبعد ان كان من بين اهداف اللقاء المذكور إنشاء «منطقة أمن واستقرار»،من خلال إقرار «ميثاق اوروبي متوسطي»، أصبح ذلك الهدف بمجرد أمنية أو «احتمال مؤجل»، تضمنته الفقرة الاخيرة من الوثيقة الختامية ربما إرضاءً لخاطر فرنسا التي كانت صاحبة المبادرة في هذا الصدد.

أما عن تحويل منطقة حوض المتوسط إلى «منطقة تبادل حر» بواسطة مساعدة بلدان الجنوب على الانتقال إلى اقتصاد السوق أو استكمال ذلك الاكتمال، وهو ما كان بيت قصيد المؤتمر ورهانه الابرز، أقله بالنسبة إلى الطرف الشمالي، فقد بقي بدوره في مرتبة المبدأ العام، فقد تظاهر المشاركون بالجدية في إنجازه، بل حددوا له سنة ٢٠١٠ موعدًا لا يمكن الاخلال به، لكن لقاء برشلونة لم يشهد وضع آليات أو تحديد استحقاقات مرحلية ملموسة تفضي إليه تدريجًا. أما «الشراكة الشاملة»، والتي قيل بأنها ستكون من هنا فصاعدًا عنوان العلاقة بين ضفتي المتوسط، فلم ير أحد لـ«شمولها أثرًا»، وإذا ما صير يومًا، في مستقبل قريب أو بعيد، إلى إقامة أواصر الشراكة تلك مع هذا ا لبلد المتوسطي الجنوبي أو ذاك، فإنه يستبعد ان تكون تلك الشراكة مندرجة ضمن رؤية متوسطية شاملة، هي اصلاً ليست قائمة، بل ستكون في افضل حالاتها بمجرد استلهام لحالات عينية، كتجربة الاتحاد الاوروبي في هذا الصدد مع اسرائيل أو تونس.

ويمكن للمرء ان يستمر في إيراد عديد

الأمثلة الأخرى عن إخفاق لقاء برشلونة في تحقيق ما انعقد من اجله. لقد وضعت إحدى الصحف الفرنسية في معرض تقييمها لنتائج ذلك المؤتمر عنوانًا يقول: «المحور الاوروبي المتوسطي بخطى صغيرة». وهو كلام يبدو انه يريد ان يداور فشل التجربة وضآلة نتائجها من خلال اعتماد نبرة تنضح بالتفاؤل. إذ لا وجود لشيء اسمه «محور اوروبي متوسطي». أما عن «الخطوات» فهي أصغر من صغيرة.

ولكن ما اسباب هذا الاخفاق؟

ربما أمكن القول إن السبب الرئيسي يتمثل في ان الاطراف ا لمشاركة قد اقبلت على هدف كبير، إقامة الفضاء المتوسطي العتيد، بمطامح وبهواجس صغيرة وذاتية. وذلك ما يلاحظ لدى بلدان الاتحاد الاوروبي ولدى دول جنوب المتوسط سواءً بسواء.

فالاولى تريد فضاءً متوسطيًا يراعي مخاوفها ومصالحها الآنية دون ان يكلفها ذلك شيئًا سوى تقديم القروض والمساعدات المالية. فهي ترغب في فضاء متوسطي مفتوح ولكن بشكل انتقائي. بحيث يضمن حرية انتقال البضائع، ويبقى مغلقًا في وجه البشر، وذلك لفرط خوف بلدان الشمال من الهجرة. وحتى في ما يتعلق بحرية انتقال البضائع فإنه لا يبدو ان البضائع وحرية انتقالها متساوية بالنسبة إلى الجميع. فالجانب الشمالي يطالب شريكه الجنوبي باستقبال منتوجاته الصناعية ولكنه يريد ان يحمي اسواقه الداخلية من غزو المنتوجات الزراعية الآتية من الجنوب.

وهذه الاعتبارات التجارية والاقتصادية ليست الهواجس الذاتية الوحيدة لدى الاتحاد الاوروبي وبلدانه، بل هناك ايضًا الخوف من صعود الاصولية الاسلامية وما إلى ذلك من مخاوف من هذا القبيل.

أما من الجانب الجنوبي، وهو عربي واسلامي في معظمه، فهناك ما أشار إليه العديدون من أنه قد جاء إلى هذا اللقاء مشتت الصفوف والمطالب، عاجزًا عن أدنى مظاهر التنسيق والتضامن، ولكن هناك ما هو أنكى من ذلك. فحسب اعتراف أحد الدبلوماسيين من بلد من بلدان الضفة الجنوبية انه لم يكن لديه أو لدى أي من زملائه أدنى تصور متوسطي متكامل، وقد جاءت غالبية الوفود إلى برشلونة وفي الذهن كلمة اساسية واحدة: خوض معركة من اجل الحصول على أكبر قدر ممكن من ذلك المبلغ الذي رصده الاتحاد الاوروبي لمساعدة بلدان الجنوب والذي يصل إلى ٤،٧ بليون وحدة حسابية اوروبية (٣٠ بليون فرنك فرنسي).

غير ان فشل اللقاء الاوروبي المتوسطي الاخير ربما عاد إلى اسباب أعمق وأكثر جوهرية من كل تلك التي سبقت الاشارة إليها، وربما كان اول هذه الاسباب ان بلدان الاتحاد الاوروبي ليست في وارد انجاز مبادرة دولية بهذا الحجم.

فبلدان الاتحاد الاوروبي لم تبرهن منذ نهاية الحرب الباردة وحتى يومنا هذا إلا على شيئ واحد، وهي انها إن كانت نجحت في ارساء سوق ضخمة مترامية الاطراف تمتد من تخوم القطب الشمالي إلى ضفاف المتوسط، وإن تمكنت تبعًا لذلك من إقامة عملاق اقتصادي، إلا انها بقيت حتى الآن قزمًا سياسيًا أعجز من ان يكون قادرًا على الاضطلاع بمبادرة دبلوماسية كبرى.

وفي صدد كهذا، كيف يمكن للاتحاد الاوروبي ان يطمح في تولي دور محرك داخل فضاء متوسطي محتمل، إذا كان تأثيره هامشيًا أو منعدمًا إلى تلك الدرجة المعلومة في معالجة نزاعات المنطقة ونقاط احتكاكها، وهي التي يمكنها ان تفشل كل مسعى تكتلي. وقد قدم لقاء برشلونة الاخير أفضل مثال على ذلك. فقد تخلله سجال سوري-اسرائيلي حول تعريف «الارهاب» و«المقاومة»، وجد المشاركون صعوبة بالغة في التوفيق بين طرفيه وفي احتيازه.

وعجز اوروبا في صدد نزاعات المتوسط جلي قد لا يحتاج إلى تذكير، سواء تعلق الامر بملف الشرق الاوسط أو بقضية البوسنة، وكلاهما في يد الدبلوماسية الاميركية بالكامل. أو بالازمة الجزائرية، ومشكلة لوكربي وما نتج عنها من حصار مضروب على ليبيا. ناهيك بالخلاف التركي-اليوناني وتجزئة جزيرة قبرص.

وإذا كانت الدبلوماسية الاوروبية غير فاعلة اصلاً فإن مصاعبها تكون أكبر في ما يخص المتوسط، وذلك بسبب من توازن القوى داخل الاتحاد الاوروبي ذاته. فالملف المتوسطي يعني بشكل خاص بلدان الجنوب الاوروبي، تلك المسماة بـ«القوس اللاتيني» (فرنسا واسبانيا وايطاليا)، وهذه، على افتراض انها تشكل تكتلاً، أبعد من ان تكون مركز ثقل المجموعة الاوروبية. فهذا الاخير يقع في الشمال الاوروبي وبلدانه، سواء في ذلك المانيا وجوارها، أو حتى بريطانيا، أكثر انشغالاً بالجوار الاوروبي الشرقي. لذلك فإن بلدان القوس اللاتيني أضعف من ان تكون قادرة على ادراج الملف المتوسطي محوريًا على الاتحاد الاوروبي برمته.

لكل ذلك، فإنه إذا ما اريد للمشروع المتوسطي ان يصبح فاعلاً ومستقبليًا يجب ان تتولاه بلدان الجنوب وهي صاحبة المصلحة الاساسية في ارسائه والحاجة إليه. فإذا كان الفضاء المتوسطي مجرد سوق في نظر اوروبا، أو مجرد بعد من ابعادها، فهو بالنسبة إلى بلدان الجنوب منقذها الوحيد نحو الحداثة وطريقها إليها. فهو الذي يفتح في وجهها آفاق المستقبل والدخول إلى العصر. ذلك الذي ما انفك يتأجل منذ مئتي سنة.

لذلك، فإن المتوسطية يجب ان تصبح مطلبًا جنوبيًا، فرديًا أو جماعيًا. وهو ما يتطلب وعيًا متوسطيًا من ناحية، وقدرة على اجتراح هوية متوسطية غير هوية الانكفاء تلك التي درجنا عليها حتى الآن، من ناحية أخرى.

غير ان هذه المهمة قد تكون فوق طاقة نخبنا السياسية والثقافية في وضعها الراهن واستعداداتها وكفاءاتها المالية.

حوض نهر الاردن

المجرى: ينبع نهر الاردن من اسفل جبل الشيخ (حرمون) الغربي والجنوبي من ارتفاع ٩١٠م. وهو يفيض في الربيع عندما تذوب الثلوج في جبال حرمون. ونهر الاردن يبدأ بعد التقاء مياه نهر بانياس (الذي ينبع في سورية) بنهري الدان والحاصباني (الذي ينبع من السفوح الجنوبية الغربية لجبل حرمون في لبنان) حيث يسير بعد ذلك في مجرى واحد رئيسي متجهًا إلى بحيرة الحولة يرفده نهر البريقيت قبل بلوغها بالاضافة إلى ينابيع الحولة. يواصل نهر الاردن جنوبًا مخترقًا بحيرة طبريا. ويرفده بعد طبريا نهر اليرموك وهو أهم روافد نهر الاردن، كما يتلقى مياهه من مجاري مائية في الضفة الشرقية والضفة الغربية قبل وصوله إلى البحر الميت. وعمومًا يمكن تقسيم مجرى نهر الاردن في «وادي الاردن» إلى ثلاثة أقسام: «الاردن الاعلى» ويمتد من المنبع حتى سهل الحولة، ثم «الاردن الاوسط» الذي يشمل بحيرة طبريا والجزء الجنوبي حيث يسير النهر حتى التقائه باليرموك، ثم «الاردن الأدنى» بين بحيرة طبريا والبحر الميت. وبعد احتساب ما يفقد نهر الاردن من المياه اثناء التبخر ومراعاة التذبذب في كمية المياه على مدار السنة فإن متوسط تصريفه يبلغ ٨ مليار متر مكعب (رياض توفيق ماضي: «سياسة الصهاينة المائية في الاراضي العربية المحتلة»، منشورات وزارة الثقافة السورية، دراسات اجتماعية (٢)، دمشق ١٩٩٠، ص ١٧-٢٠.

وسامر مخيمر وخالد حجازي، «أزمة المياه في المنطقة العربية-الحقائق والبدائل المكنة»، منشورات عالم المعرفة الكويتية (٢٠٩)، ١٩٩٦، ص ٣٣، ٢٤١).

العلاقات الدولية في إطار حوض نهر الاردن: يضم حوض نهر الاردن دول الاردن وسورية ولبنان واسرائيل. وتجري التفاعلات الدولية في إطار الحوض على أسس صدامية، لوقوع الحوض في إحدى البور المشتعلة للصراع العربي-الاسرائيلي (راجع مادة «الاردن» في الجزء الاول من هذه الموسوعة: «الاردن، نهر ومسألة مياه»، ص ١٨١-١٨٢، و«مناطق حدودية متنازع عليها بين الاردن واسرائيل» ص ١٩٠-١٩٢». واستكمالاً للموضوع نعرض أهم ما جاء في دراسة سامر مخيمر وخالد حجازي-المرجع المذكور سابقًا- التي استندت بدورها إلى ١٥ مرجعًا لدارسين من العرب وآخرين أجانب واسرائيليين).

الدبلوماسية الصهيونية المائية قبل قيام اسرائيل: تجسّد الرسالة التي وجهها حاييم وايزمان إلى دافيد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٩، وتلك التي وجهها دافيد بن غوريون باسم اتحاد العمال الصهيوني إلى حزب العمال البريطاني في ١٩٢٠، وقرار الحركة الصهيونية في تشرين الثاني ١٩٢٠، طابع وملامح

الدبلوماسية الصهيونية الموجهة للاستحواذ على مياه نهر الاردن وروافده بغية تأمين الموارد المائية اللازمة لأعمال الاستيطان والتوسع وخطوة رئيسية في بناء اسرائيل. تضمنت الرسائل والقرار الآتي:

– ضرورة شمول حدود فلسطين منحدرات جبل الشيخ ومنابع الاردن والليطاني، وذلك لان خط سايكس–بيكو يقطع منابع المياه ويحرم «الوطن القومي اليهودي» الموعود من الحقوق الاستيطانية الخصبة في الجولان وحوران.

– تأكيد ان انهار «ارض اسرائيل» هي الاردن والليطاني واليرموك.

– ان هذه المطالب لازمة وضرورية لتأمين زراعة ناجحة من جهة، وتوليد طاقة كهربائية من جهة ثانية.

مع تمسك فرنسا بخطوط سايكس–بيكو التي تضمنت وقوع حوض الليطاني بالكامل وكذلك منحدرات جبل الشيخ (حرمون) داخل مناطق انتدابها في سورية ولبنان، بدأت تأويلات صهيونية لنصوص لم تكن في مصلحة المشروع الصهيوني. وأبرز هذه التأويلات ما كتبه البروفسور الاسرائيلي جدعون فيشلزون في التوطئة المطولة التي كتبها لمشروع أليشع كيلي المستقبلي، حيث أورد البند الخاص بالمياه في اتفاق موقع بين الانتداب الفرنسي والانتداب البريطاني في ١٩٢٤ على الشكل التالي:

«يقوم خبراء تعينهم سلطات سورية وسلطات ارض اسرائيل بوضع دراسة مشتركة لامكانات استغلال مياه الاردن الاعلى، واليرموك،

حوض نهر الاردن

وروافدهما من اجل الري وتوليد الطاقة ولتلبية حاجات المناطق الواقعة في ظل الانتداب الفرنسي (في سورية) وفي اثناء الدراسة تعطي حكومة فرنسا ممثليها تعليمات متساهلة بشأن استخدام فوائض هذه المياه لمصلحة ارض اسرائيل».

في حين ان النص الاصلي لم يورد لفظ «ارض اسرائيل» فأحله الكاتب محل لفظ «فلسطين». كما أحلّ عبارة «...لتلبية حاجات المناطق الواقعة في ظل الانتداب الفرنسي» محل عبارة «... وذلك بعد ان تكون الاراضي الزراعية في لبنان وسورية قد رويت تمامًا».

إضافة إلى ذلك، أغفل الكاتب (جدعون فيشلزون) المعاهدات الاخرى مثل معاهدة ١٩٢٢ التي نصت في مادتها الرابعة على ان «الحقوق المكتسبة لسكان سورية ولبنان على مياه الاردن تبقى محفوظة»، ومعاهدة حسن الجوار بين حكومتي فرنسا وبريطانيا، في ١٩٢٦، والتي نصّت في مادتها التاسعة على «ان كل الحقوق والعادات التي كرستها النصوص والعادات المحلية في استعمال مياه الانهار والقنوات والبحيرات للري والاستعمال تبقى سارية المفعول ضمن الشروط الحاضرة».

ومن المشروعات المائية الخاصة بنهر الاردن والموضوعة لمصلحة الصهيونية (واسرائيل مستقبلاً):

– في ١٩٣٨، كلفت الحكومة الاميركية البروفسور لودر ميلك تحري وسائل صيانة التربة في الشرق الادنى؛ وفي ١٩٣٩، ابتكر لودر ميلك فكرة محاكاة «سلطة وادي تنسي» وتنفيذها باسم «سلطة وادي الاردن». وقدّم لودر ميلك تقريره في ١٩٣٩ ووسعه في كتابه اللاحق «فلسطين– ارض الميعاد» في ١٩٤٤، ويعتمد هذا التقرير على: (أ)– الاستيلاء على مياه نهر الاردن ومصادرها في تل القاضي ونهري الحاصباني وبانياس، وكذلك الاستيلاء على نهر الليطاني لسحبه لري اراضي النقب، وتجفيف بحيرة الحولة وإمرار نهر الاردن إلى بيسان ثم إلى النقب. والفرضية التي بنى عليها لودر ميلك مشروعه هي ان مياه نهر الاردن تشكل فائضًا عمّا تحتاج إليه اراضي وادي الاردن للزراعة مما يوفر كميات من المياه لري الاراضي خارج وادي الاردن. وهذه الفرضية لم يجر تأييدها من قبل أي تقرير آخر. (ب)– شق قناة بطول ٧ أميال لنقل الكميات اللازمة لتعويض مياه نهر الاردن التي يفقدها بحر الميت وذلك من البحر المتوسط، واستغلال مساقط المياه النهرية ومسقط مياه البحر للحصول على الطاقة الكهربائية. وهذه الفكرة بمنزلة إحدى الافكار الاسرائيلية التي تبرز باستمرار وضمن أي مشروعات مائية منذ مؤسس الحركة الصهيونية هرتزل.

– قدم هايز–سافيج، بتكليف من الوكالة الصهيونية، مشروعًا مكملاً لمشروع لودر ميلك، ويهدف إلى تطبيقه عمليًا على عشر مراحل تستغرق كل منها سنة. وكلا المشروعين (لودر ميلك وهايز–سافيج) يتجاهل اوضاع الحدود الدولية.

– ومن المشروعات السابقة على قيام دولة اسرائيل ايضًا «مشروع أيوفيدس»، ويعد أول دراسة هيدروغرافية لوادي الاردن. وقد جاء بتكليف من الحكومة البريطانية بعد اقتراح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، بغرض تطوير الاراضي وجعل بعضها ملائمًا لتوطين العرب الذين سيصبحون بلا مأوى.

قيام دولة اسرائيل والشروع في ترتيبات للاستحواذ على مياه الاردن: يمكن تقسيم ترتيبات اسرائيل المائية إلى ثلاث مراحل:

– المرحلة الاولى وتمتد من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٨، حيث شرعت اسرائيل في اعمال خطة زراعية–مائية تركز على ثلاثة اهداف: إمكانية استيعاب المهاجرين الجدد، إقامة المستوطنات

الزراعية، وإنتاج الغذاء. وقد تطلب تحقيق هذه الاهداف تنفيذ مشروعات مائية تتمثل في: إنشاء شبكات مياه في مختلف المناطق لحصر الموارد الجوفية؛ إقامة جملة من خطوط الأنابيب المحلية تمتد من الشمال إلى الجنوب؛ وإنشاء قناة لسحب المياه من نهر الاردن باتجاه الصحراء الفلسطينية.

وقد بدأت اسرائيل بين ١٩٤٨ و١٩٥٣ بحفر عدة آلاف من الآبار لتزويد المستوطنات بالمياه لدرجة استنزفت الطبقة المائية الجوفية للشريط الساحلي. ثم شرعت بعد ذلك في تنفيذ ما عرف بـ«خطتي السنوات السبع والسنوات العشر»، وبدأ تنفيذ الاولى فعلاً في ١٩٥٣ ثم عدلت إلى الخطة الثانية في ١٩٥٦. وتضمنت الخطتان استيلاء اسرائيل على ٥٠٪ من مياه نهر الاردن، مع العلم ان كمية المياه التي تنبع من الاراضي التي تحتلها لا تتجاوز ٢٣٪ من المجموع الكلي لكميات المياه التي يحتويها نهر الاردن وروافده.

ويتوازى مع المشروع السابق مشروع العوجا-النقب الذي تمّ إقراره في ١٩٥٤ والذي يشكل حلقة متكاملة مع قناة نقل مياه الاردن، وهو يتألف من خطين: شرقي وقد نفذ في ١٩٥٥، وغربي ونفذ في ١٩٦٠، ويهدف إلى تأمين نقل المياه الواردة من مشروع تحويل نهر الاردن والضخ من بحيرة طبريا إلى اراضي النقب، ويلاحظ ان منطقة النقب قد حظيت باهتمام كبير من اسرائيل. وأخيرًا، يأتي خلال هذه المرحلة مشروع تجفيف بحيرة الحولة واستصلاحها.

- المرحلة الثانية، وتمتد من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨، حيث انصب الاهتمام على تطوير زراعة الموالح والزهور وكذلك المحاصيل مثل القطن. وقد نفذت اسرائيل خلال هذه الفترة اضخم وأكبر مشروعاتها المائية، مشروع طبريا-النقب لنقل ٣٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويًا إلى النقب الشمالي وإلى الجنوب.

- المرحلة الثالثة، وتمتد من ١٩٦٨ إلى اليوم، وهي مرحلة تطوير الانتاج والتكنولوجيا الزراعية. ولم تواكب هذه المرحلة مشروعات مائية كبرى.

خطة جونستون: أعد جوردون كلاب، رئيس هيئة تنمية وادي تنسي في الولايات المتحدة، خطة لاستغلال مياه نهر الاردن، وذلك في ١٩٥٣ وبناء على طلب الحكومة الاميركية التي كان دافعها هو رغبتها في إيجاد أرضية مبدئية للتعامل المباشر بين العرب واسرائيل. وقد حمل هذه الخطة إلى المنطقة مبعوث شخصي للرئيس الاميركي ايزنهاور، وهو إريك جونستون الذي ارتبطت الخطة باسمه. وتمّ تطوير هذه الخطة على مدى ٢٤ شهرًا من المفاوضات بين جونستون والدول العربية واسرائيل، وجرت تلك المفاوضات بشكل منفصل. وقد قررت الجامعة العربية، التي تحفظت مبدئيًا على المشروع، تشكيل لجنة من الخبراء العرب لوضع مشروع يعبّر عن وجهة النظر العربية، ويتفرع عن هذه اللجنة لجان فنية من خبراء كل دولة عربية من دول حوض الاردن مع وضع مصالح الشعب الفلسطيني في الاعتبار. وكان دافع الجامعة العربية لتشكيل هذه اللجان ما ظهر لديها من تجاهل المشروع للحدود الدولية وخطوط الهدنة، بالاضافة إلى تخزين المياه في بحيرة طبريا التي تقع بالكامل تحت السيطرة الاسرائيلية، ومن ثم فإن الخطة تهيء لاسرائيل فرصة تدمير الزراعة العربية.

تتمثل العناصر الرئيسية لخطة جونستون بالتالي:

- التخزين: إنشاء سدّ على نهر اليرموك بسعة تخزينية تبلغ ٣٠٠ مليون متر مكعب لاغراض الري وتوليد الطاقة الكهربائية. وتخزين فائض تدفق نهر اليرموك في بحر الجليل (بحيرة طبريا).

- التوزيع: إقامة سد تنظيمي على نهر اليرموك لتسهيل تحويل المياه لقناة الغور والمياه الفائضة إلى بحيرة طبريا، وإقامة قناة تغذية من بحيرة طبريا إلى قناة الغور الشرقية، وكذلك إقامة المنشآت اللازمة عبر الاردن لنقل المياه من قناة الغور الشرقية إلى الغرب.

- تقسيم المياه: للاردن: الباقي من نهر اليرموك (تقديرًا ٣٧٧ مليون متر مكعب) بعد توزيع ٢٥ مليون متر مكعب لاسرائيل، و٩٠ لسورية. و٢٤٣ مليون متر مكعب من مياه نهر الاودية والآبار. و١٠٠ مليون متر مكعب يتم سحبها من بحيرة طبريا.

لسورية: ٩٠ مليون متر مكعب من أعالي اليرموك. و٢٠ مليون متر مكعب من رافد بانياس. و٢٢ مليون متر مكعب من اعالي الاردن.

للبنان: ٣٥ مليون متر مكعب من الحاصباني.

لاسرائيل: ٢٥ مليون متر مكعب من اليرموك. الباقي من نهر الاردن. و٣٦١ مليون متر مكعب (بعد التوزيع على سورية والاردن) من اجمالي تصرف نهر الاردن.

وقد اعترضت لجنة الخبراء العربية على مشروع جونستون للاسباب التالية: أ- رفض مبدأ استخدام مياه نهر الاردن خارج حوضه، وذلك بموجب ما تقضي به قواعد القانون الدولي في شأن الانهار الدولية، وبناء عليه فليس لاسرائيل الحق في تحويل مياه نهر الاردن خارج الحوض لري النقب. ب- رفض فكرة تخزين المياه داخل بحيرة طبريا لوجود ينابيع مالحة في قاع البحيرة، ما يترتب عليه زيادة ملوحة المياه المخزنة، إضافة إلى وجود البحيرة بالكامل داخل اسرائيل. ج- إمكان تأثر الاماكن المسيحية المقدسة في حالة حدوث ارتفاع في منسوب المياه في البحيرة.

واعترضت اسرائيل ايضًا على المشروع، وذلك لرغبتها في إدماج الليطاني في نظام نهر الاردن. ويندرج هذا المطلب الاسرائيلي في سياق المشروعات التي تبنتها الحركة الصهيونية منذ البداية، والتي وجدت سبيلها للتنفيذ بعد حرب لبنان في ١٩٨٢ (راجع «لبنان» في جزء لاحق).

خطة بونجر وخطة إنشاء سدّ المقارن: تمثل خطة بونجر التي أعدّها الاميركي ماكس بونجر مقترحًا لتنمية الري والطاقة الكهربائية عند المقارن على نهر اليرموك، وقد حظيت بموافقة المستفيدين الأساسيين (الاردن وسورية). وقد وافقت الامم المتحدة والوكالة الاميركية للتعاون الفني (USTCA) على تمويل المشروع، كما وافقت الحكومة الاردنية على المشاركة في التمويل.

كان ينظر لمشروع تنمية اليرموك من الوجهة السياسية كحل عملي لمشكلة اللاجئين. ولكن اسرائيل اعترضت على المشروع بدعوة ان لها حقوقًا في اليرموك، ما دفع الخبراء الاميركيين إلى اعلان ان الخطة غير عملية وغير اقتصادية، كما تمّ سحب التمويل الاميركي للمشروع. وضغطت الولايات المتحدة على الامم المتحدة لتحذو حذوها في سحب التمويل. وأدّى هذا في النهاية إلى إغلاق ملف المشروع.

أما عن خطة إنشاء سدّ المقارن فهي على الوجه التالي:

أعلنت الحكومة الاردنية عن المشروع في ١٩٧٤، ثم طلبت في بداية ١٩٧٥ دعمًا ماليًا من وكالة التنمية الدولية الاميركية للبدء في اعداد التصميمات والدراسات التمهيدية. وقد وافقت الوكالة وقامت باقراض الحكومة الاردنية ١٥ مليون دولار. وقد تمّ تصميم السدّ بغرض إتاحة إمكان أكبر للري في وادي الاردن، وقام بتصميمه الاردنيون تحت إسم «مشروع ري وادي الاردن- المرحلة الثانية». وعلى الرغم من موافقة اطراف عديدة على دعم المشروع ماليًا ومنها الولايات المتحدة التي أدرجته ضمن موازنتها لعام ١٩٧٩-

١٩٨٠ (١٥٠ مليون دولار) فإن الشرط الاساسي للشروع في التمويل يتمثل في ضرورة اتفاق الاردن مع كل من سورية من جهة، واسرائيل من جهة أخرى. وهذا ما لم يحدث حتى الآن (١٩٩٦).

أزمة تحويل مياه نهر الاردن: شرعت اسرائيل في تحويل مياه نهر الاردن في ١٩٥٩، وقد استنفر هذا العمل الاهتمام العربي، فطالب البعض (على رأسهم الرئيس المصري جمال عبد الناصر) بمنع اسرائيل بالقوة المسلحة من تنفيذ المرحلة الاخيرة من خطتها والتي كانت تجري بالقرب من المنطقة المجردة من السلاح على الناحية الاسرائيلية من خطوط الهدنة. بينما ذهب بعض آخر إلى ضرورة البدء في مشروعات على نهر الاردن قبل وصول مياهه إلى اسرائيل، وذلك لإلغاء أي قيمة لمشروعات التحويل الاسرائيلية من ناحية، وتجنب الهجوم المسلح على اسرائيل بحيث انه اذا اندفعت اسرائيل للحرب فإنه يمكن الصمود في حرب دفاعية تتيح إمكان المساندة الدولية.

وقد عقد مؤتمر القمة العربي الاول في كانون الثاني ١٩٦٤ لبحث هذا الموضوع. وقد أقر المؤتمر فكرة «اختيار موقع الدفاع بدلاً من موقف الهجوم»، وذلك عن طريق وضع الخطوط العامة لمشروع عربي لتحويل مياه الاردن داخل البلاد العربية دون التعرض للمشروع الاسرائيلي حتى لا تتذرع اسرائيل بدعوى الدفاع عن النفس. كما تقرر تشكيل قيادة عربية موحدة للانذار عن أي تدخل مسلح تقوم به اسرائيل بهدف تعطيل المشروع العربي لاستغلال مياه الاردن. وقد ردّت اسرائيل على مؤتمر القاهرة بما اعلنه رئيس وزرائها آنذاك في اجتماع الكنيست بأن «حجز المياه سوف يتم، وان اسرائيل ستتخذ أجراءاتها إذا ما حاول العرب تحويل منابع الاردن».

تعثرت محاولات وخطوات تحويل مياه نهر الاردن إلى داخل الاراضي العربية لعدة اسباب مالية وعسكرية. حيث لم تنفذ بعض الدول الالتزامات المالية، كما تحفظ الاردن ولبنان على دخول قوات دعم أو مساندة حتى لا يؤدي ذلك إلى استفزاز اسرائيل في الوقت الذي لم تكتمل فيه القوات العربية الموحدة.

وقد ظهر تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل في هذه الازمة، وهذا يتضح من المذكرة التي قدمها السفير لونيوس باتل والموجهة من الرئيس ليندون جونسون إلى الرئيس جمال عبد الناصر حيث اعتبر «المشروع العربي» بمنزلة «أكبر خطر يهدد السلام»، وأكدت الولايات المتحدة أهمية مشروع جونستون كأفضل حل للتنمية من وجهة نظرها.

وعلى وجه العموم، فقد انتهى الامر إلى ان اصبحت مياه الاردن وروافده في يدي اسرائيل، و لم توضع موضع التنفيذ المشروعات العربية.

حديث المياه في اسرائيل في السنوات الاخيرة: أعلن دان سلازفسكي، مفوض المياه في اسرائيل وأحد أعضاء الوفد الاسرائيلي في المحادثات متعددة الاطراف بشأن المياه (جولة فيينا ١٩٩٢) بقوله: «إن البعض يرى مناسبة اسرائيل أكثر للصناعة، غير ان كثيرًا من الاسرائيليين لا يحبذون هذا الرأي على أساس انه من المهم التمسك بالارض». ويرى البعض ان تغيير انماط استعمال المياه في الشرق الاوسط بتخفيض التركيز على الزراعة ينطوي على «تضحيات» من الاسرائيليين لوجود أكبر برنامج زراعي لديهم. بينما يرى البعض الآخر ان الاقتصاد الاسرائيلي كان بالامكان ان يحصل على فوائد أكبر لو انه تخلى عن الزراعة المكلفة ذات الدعم العالي بدلاً من الاستيلاء على مزيد من المياه العربية يوسّع بها من إنتاجه الزراعي الذي يفتقر إلى الكفاءة. لقد ترتب على ذلك ان اسرائيل قد استنزفت المصادر المائية الواقعة تحت سيطرتها في إطار سياستها للاستثمار الزراعي الاستيطاني، ما دفع يوري

دافيد إلى القول بأن التخطيط المائي في اسرائيل إما انه يستند إلى اوهام ومبالغات مآلها إلى التحطيم على صخرة الواقع، وإما ان الاسرائيليين «لا يثقون حقيقة بديمومة اسرائيل كدولة يهودية».

وقد برز امام اسرائيل بوضوح خلال فترة الجفاف (١٩٨٧-١٩٩١) خيار التخلي عن مخططها الزراعي. ويتطلب ذلك بالطبع ترتيبات سلام حتى يتسنى لها إعادة تخصيص المياه بزيادة حصص الاستخدامات الصناعية والمنزلية في مقابل تلك الموجهة للقطاع الزراعي، حيث لم يعد ممكنًا ان تستمر اسرائيل في تصدير المياه في صورة منتجات زراعية قائمة على الري. لذا فقد أعلنت في ايار ١٩٩١ انها سوف تخفض حصة المياه المخصصة للزراعة المروية بنسبة ٥٪ تدريجيًا. والملاحظ ان هذا الاعلان الاسرائيلي يتزامن مع بداية ترتيبات السلام في المنطقة على أساس صيغة مدريد.

المشروع المائي الاسرائيلي: (كما ورد في مؤلف د. سامر مخيمر وخالد حجازي، «أزمة المياه في المنطقة العربية»، سلسلة عالم المعرفة، (٢٠٩)-١٩٩٦، ص ١٩٤-١٩٦، اعتمادًا على مرجعين رئيسيين: الاول، أليشع كالي، «المياه والسلام، وجهة نظر اسرائيلية»، ترجمة رنده حيدر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، بيروت، ١٩٩١. الثاني، كامل زهري، «النيل في خطر»).

يرتكز هذا المشروع على ادعاء اسرائيلي صاغه البروفسور الاسرائيلي جدعون فيشلزون على النحو التالي: «إن البنية المائية السطحي منها والجوفي في الشرق الاوسط غير متواصلة، وهذا ما يقيم ارتباطًا مائيًا بين مناطق جغرافية مختلفة، وتشير خريطة مصادر المياه في الشرق الاوسط إلى المصادفات الجغرافية. وهذه الظاهرة تقوض مفهوم حقوق الملكية وشرعية الاستخدام محليًا فقط وتفرض الحاجة إلى اتفاق لنقل المياه إلى مناطق لم تشأ المصادفات ان تمنحها إياها. لكن التقويم السياسي الذي يزيد بحكم طبيعته في الحواجز وينشيء الفواصل، ألحق ويلحق الضرر بتحقيق هذا الاعتماد المتبادل».

ويميل الاسرائيليون إلى الربط بين تحقيق السلام وانهاء حالة الحرب بينهم وبين الاطراف العربية من جهة، واقرار مشروعهم المائي من جهة أخرى. وفي هذا الصدد يشير البروفسور دان سلازفسكي مفوض المياه في اسرائيل وأحد أعضاء الوفد الاسرائيلي في لجنة المياه بالمباحثات متعددة الاطراف في فيينا عام ١٩٩٢ إلى انه:

«إذا كان احد يقصد السلام فينبغي ألا يجادل بشأن المياه، وعليه ان يجلس لمحاولة البحث عن حلول فنية. فإذا كانوا يقولون (يقصد العرب) إنه لا يمكننا التحدث اليكم عن المياه لأننا لا نزال اعداء فإنهم لا يقصدون السلام».

ودعا يوسي بيلين رئيس الوفد الاسرائيلي في الجولة الخامسة من المحادثات متعددة الاطراف بشأن المياه إلى نبذ الحديث عما أسماه «حقوق الماضي» والتي تتمثل في المياه التي اغتصبتها اسرائيل والانطلاق من «الامر الواقع الحالي» وهو من منظوره: «وجود نقص في المياه لدى الدول العربية واسرائيل معًا مما يطرح ضرورة تعاونهما لزيادة الموارد بدلاً من التركيز على حقوق الفلسطينيين والسوريين وغيرهم في مصادر المياه الموجودة».

وتتمثل اركان المشروع الاسرائيلي في الآتي:

١- تزويد الضفة الغربية وقطاع غزة بالمياه من مصادر خارجية. ويطرح المشروع الاسرائيلي النيل أو اليرموك أو الليطاني أو جميعها كمصدر رئيسي خارجي. ويصف هذه الخطوة بانها الخطوة الاولى الواعدة التي تتوافر لها إمكانات تقنية فضلاً عن ضرورتها السياسية لتجاوز الصراع المائي المرتقب في هذه المنطقة والذي قد يشكل خطرًا على السلام.

٢- نقل مياه النيل إلى شمالي النقب، حيث يزعم المشروع ان كميات ضئيلة من المياه بالمقياس المصري لا تشكل عنصرًا مهمًا في الميزان المائي المصري. كما ان هناك مشروعًا مصريًا حاليًا لتزويد سيناء بالمياه يمكن مده. كما يستكمل المشروع مزاعمه بالقول ان لدى مصر فوائض متوقعة من المياه.

٣- مشروع اردني-اسرائيلي مشترك لاستغلال مياه نهر اليرموك. وذلك بتخزين مياه السيول الشتوية لنهر اليرموك في بحيرة طبريا الواقعة داخل حدود اسرائيل.

٤- مشروعات مع لبنان تتضمن الاستغلال الكهربائي لنهر الحاصباني، ونقل مياه الليطاني إلى اسرائيل واستغلاله كهربائيًا.

٥- هيئة مائية مشتركة اردنية-اسرائيلية للتنمية المشتركة واقتسام موارد المياه.

ويحتوي المشروع الاسرائيلي المطروح على كم كبير من المزاعم التي لا تؤيدها حقائق الاوضاع المائية في المنطقة، حيث إنه:

١- يلقي بعبء المشكلة المائية للضفة الغربية وقطاع غزة على عاتق الدول العربية المجاورة، ويتغاضى عمدًا عن استنزاف اسرائيل القائم والمستمر لموارد الضفة الغربية وغزة. ويتضمن التصور المطروح تهديدًا بحدوث صراع إذا لم تحل المشكلة عبر الطريق الوحيد الذي حدّده.

٢- يزعم ان مصر لديها فوائض مائية مرتقبة (لأن هناك مياهًا تضيع من وجهة نظر المشروع في البحر المتوسط) وهذا زعم غير صحيح حيث ان المياه التي تضحي بها مصر لتذهب إلى البحر ترجع لثلاثة اسباب رئيسية: أ- الحاجة إلى المحافظة على التوازن الملحي في الدلتا وذلك بالتخلص من الاملاح في شكل ملح مذاب في المياه. ب- ان هناك اتصالاً بين مياه البحر المالحة والمياه الجوفية الموجودة تحت الدلتا، فمياه البحر المالحة إما ان تدخل أو تقف أو تطرد للخارج، وتقوم مياه الخزان الجوفي بالاتجاه شمالاً لاعاقة مياه البحر المالحة (نحو ٥،٠ مليار متر مكعب سنويًا). ج- لو لم يترك جزء من مياه فرع رشيد ليذهب إلى البحر فهذا من شأنه ان يدفعها للارتداد للدلتا وإحداث آثار تدميرية.

ويضاف إلى ما سبق تجاوز المشروع الاسرائيلي عن كون مصر دولة من دول حوض النيل، وهي تلتزم بناء على ذلك بألا تأتي بأي تصرفات تؤدي إلى الاضرار بسائر دول الحوض. كما ان مصر تلتزم بقواعد القانون الدولي التي لا تسمح بهذا التصرف؛ إلا إذا كان غرض المشروع الاسرائيلي إثارة مخاوف دول الحوض واستثمار هذه المخاوف لتهديد أمن مصر القومي.

٣- يدعو المشروع إلى استغلال اردني-اسرائيلي مشترك لنهر اليرموك (الملاحظ تجاوز سورية) على ان يتم التخزين في بحيرة طبريا الواقعة بالكامل تحت السيطرة الاسرائيلية. ويمثل هذا إحياء للمشروعات الاسرائيلية القديمة في هذا الصدد.

٤- يرمي المشروع إلى تغطية اغتصاب اسرائيل للمياه اللبنانية بجعل ما تمّ بالفعل عملاً شرعيًا .

حوض نهر النيل

(راجع الجزء الثاني من هذه الموسوعة، مادة «افريقيا»، «النيل (نهر وحوض) ومسألة مياه»، ص ١٦٧-١٧١).

(مراجع المبحث التالي: سامر مخيمر وخالد حجازي، «أزمة المياه في المنطقة العربية-الحقائق والبدائل الممكنة» (٢٠٩)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦، ص من ٤٦ إلى ٥٤، ومن ٩٤ إلى ١١٠، و٢٢٧. وجون واتربري (بروفسور ومدير مركز الدراسات الدولية في جامعة برنستون الاميركية)، «ملف المياه في الشرق الاوسط»، «الحياة»، الاعداد ١٢١٧٦ و١٢١٧٧ و١٢١٧٨، تاريخ ٢٧ و٢٨ و٢٩ حزيران ١٩٩٦، ص ١٨. وعبد الملك عودة (استاذ العلوم السياسية، العميد السابق لكلية الاعلام في جامعة القاهرة)، «هل بدأت المواجهة في أعالي النيل»، «الحياة»، العدد ١٢٢١١، تاريخ اول آب ١٩٩٦، ص ٧. وإدريس القاضي (صحافي سوداني) «نافورة المياه الافريقية تعاني من العطش»، «الحياة»، العدد ١٢٢٤٦، تاريخ ٥ ايلول ١٩٩٦، ص ٧. و«تقرير رسمي حول الحقائق التاريخية والطبيعية المصرية في مياه النيل»، «الحياة»، عدد ٢٧ تموز ١٩٩٥. وحسين شعلان ومحمد علام، «أثيوبيا تشعل حرب مياه في حوض النيل»، «الوسط»، العدد ٢٣٤، ص ١٩-٢١. ومحمد حجازي، «نحو استراتيجية مائية مصرية في حوض النيل»، «السياسة الدولية»، عدد ١٢٥، تموز يوليو ١٩٩٦، ص ١٣٠-١٣٣).

المشروعات المقامة على النيل: يجري نهر النيل، وروافده، في تسع دول: مصر، السودان، اثيوبيا، كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندي وزائير. لكن أكثر المستفيدين من مياهه، مصر والسودان، إذ يستخدمان أكثر من ٨٠٪ من هذه المياه. أما أكبر المساهمين والمنتجين بلا جدال فهي اثيوبيا التي يطلق عليها «نافورة الماء الافريقي»، إذ ينطلق من الهضبة الاثيوبية ١١ نهرًا يذهب بعضها للصومال وتصب البقية في الاراضي السودانية وتشكل ٨٠٪ من مياه النيل.

وأما المشروعات المقامة والمنفذة حتى الآن على النيل فهي:

١- خزان أوين: بني على مخرج بحيرة فكتوريا (على بعد نحو ٣،٢كلم منها). أنشىء في ١٩٥٤ وسبقته إتفاقية بين مصر وانكلترا. اشتركت مصر في بنائه بدفع مبلغ ٤،٥ مليون جنيه لحكومة أوغندا تمثل نصيبها من تكاليف إنشاء السد وهو الجزء الوحيد الذي تمّ بناؤه من خطة التخزين المستمر التي تبنتها الحكومة المصرية، حيث لم يكن للحكومة المصرية أي فائدة من الاشتراك في هذا المشروع إلا كجزء من خطة عامة كان المسؤولون المصريون في ذلك الوقت يسعون

لتحقيقها وهي بناء خزان بحيرة ألبرت وقناة جونقلي.

٢- سد سنار: وقد أنشأته حكومة السودان في ١٩٢٥ على النيل الازرق بغرض زراعة القطن في اراضي الجزيرة في السودان. وقد تضمنت اتفاقية ١٩٢٩ هذا السد.

٣- سد جبل الأولياء: أنشىء في ١٩٣٧ على النيل الابيض بغرض تخزين سنوي يقدر بـ٢ مليار متر مكعب لتكملة الري الصيفي لمصر حيث يحجز ما يزيد على ٣ مليارات متر مكعب ويتبخر منها مليار متر مكعب، وبعد إنشاء السد العالي وملئه في ١٩٧٥ سلمت الحكومة المصرية إدارة خزان الأولياء لحكومة السودان وذلك في ١٩٧٧ وأصبح منذ ذلك الحين تابعًا لها.

٤- سد الروصيرص: أنشأته حكومة السودان على النيل الازرق في ١٩٦٤ لتخزين ٣ مليارات متر مكعب على ان يتم السماح بتعليته لاستيعاب ٧ مليارات متر مكعب وذلك تنفيذًا لاتفاقية ١٩٥٩ المنظمة لمياه النيل. وقد موّل البنك الدولي للانشاء والتعمير وكذلك حكومة المانيا الغربية إنشاءه بمبلغ ١٨ مليون جنيه.

٥- سد خشم القربة: أنشأته حكومة السودان على نهر عطبره في ١٩٦٤ لتخزين ١،٢ مليار متر مكعب لري اراضي حلفا الجديدة التي هاجر إليها سكانها من حلفا القديمة بالاضافة إلى توليد طاقة كهربائية تقدر بحوالي ٧ آلاف كيلووات-ساعة.

٦- خزان أسوان: يعد هذا الخزان (صممه مهندس الري الانكليزي وليم ولكوكس) اعظم التوسعات في عمليات الري المستديم (الموسمي). تمّ بناؤه في ١٩٠٢ بسعة مليار متر مكعب. ولما زاد التوسع في المحاصيل الصيفية صارت الحاجة ماسة إلى زيادة المخزون فتقرر تعلية السد مرتين: الاولى تمت في ١٩١٢ والثانية في ١٩٣٣، فأصبح يسع ٥،٢ مليار متر مكعب. وقد بنيت في اعقاب بناء خزان أسوان سلسلة من القناطر على النيل للاستفادة من مياه الخزان، ووراء كل واحدة من هذه القناطر شقت قنوات لنقل الماء المخزون وراءها. وقد سمحت كمية المياه التي تحققت لمصر من هذا المشروع بالتوسع الرأسي (ويعني زيادة عدد المحاصيل التي تزرع في السنة، وذلك على خلاف التوسع الافقي الذي يعني زيادة مساحة الاراضي المزروعة) في الزراعة بمعدات لم تعرفها مصر في تاريخها.

٧- السد العالي: بدأ العمل به في كانون الثاني ١٩٦٠ بعد اتخاذ قرار بنائه بعدة سنوات، وقد انجز في ١٩٧٠، وافتتح رسميًا في كانون الثاني ١٩٧١. تم البناء على مرحلتين: الاولى، تم فيها تحويل مجرى النهر وبناء سدين بعرض المجرى لكشف قاع النهر؛ والثانية، تمّ فيها بناء السد نفسه، وهو صرح يبلغ عرضه عند قاعدته ٩٨٠م. وارتفاعه ١٩٦م. والمياه المحجوزة امام السد تشكل بحيرة صناعية كبيرة (بحيرة ناصر) طولها ٥٠٠كلم ومتوسط عرضها ١٢كلم. وتبلغ سعة حوض التخزين ١٦٢ مليار متر مكعب. وتقسم المياه المخزنة في بحيرة ناصر، وفقًا لاتفاقية ١٩٥٩ بين مصر والسودان. كما تنتج محطة توليد الكهرباء طاقة كهربائية تقدر بنحو ١٠ مليارات كيلووات-ساعة (راجع، تاليًا، «السياسات النيلية لدول الحوض وتفاعلاتها الخارجية»).

مشروعات التخزين المستمر في أعالي النيل: مرت هذه المشروعات بمرحلتين: الاولى شغلت النصف الاول من القرن العشرين حيث كان مشروع تأمين مياه التخزين المستمر مرتبطًا بضبط المياه في منابع النيل لتنظيم انسيابها للمستفيدين الرئيسيين آنذاك (مصر والسودان). وكان المشروع الاول الذي أعده السير وليم غارستين في ١٩٠٤ يرتكز على إقامة سد عند مخرج بحيرة ألبرت واستخدام البحيرة للتخزين

هيكل تخطيطي لمشروعات ضبط النيل

المستمر، وتطهير مجاري بحر الزراف وتوسيعه للتقليل من المفقود في منطقة السد حتى يمكن للمياه التي ستدخر في البحيرة الوصول لأدنى النهر.

والمشروع الثاني في هذه المرحلة (الاولى) هو مشروع ماكدونالد (١٩٢٠) الذي يتضمن بناء خزانين للتخزين الموسمي في سنار (على النيل الازرق) وفي جبل الاولياء على النيل الابيض جنوبي الخرطوم، وقناطر لضبط المياه عند نجع حمادي وقناة تحويل في منطقة السد جنوبي السودان، وتحويل بحيرتي تانا وألبرت إلى خزانين للتخزين المستمر.

أما المشروع الأهم فهو مشروع «هرست وبلاك وسميكه» بعنوان «المحافظة على مياه النيل في المستقبل». وكان عصب المشروع هو استخدام البحيرات الاستوائية للتخزين المستمر للماء حيث تقل كمية التبخر وتعوض الامطار ما يتبخر ولا تتعرض للاطماء. وتمتاز بحيرة ألبرت بشواطئها شديدة الانحدار وسطحها الصغير بالنسبة إلى سعتها. لذا فهي أصلح البحيرات للتخزين لأن

المفقود منها صغير بالنسبة إلى وحدة السعة. ويرتبط بتخزين الماء في البحيرات الاستوائية ضرورة نقله عبر احراش منطقة السد وذلك عن طريق قناة يحول إليها الماء ويكون مخرجها عند قرية جونقلي (قناة جونقلي) لكي تصل بالمياه إلى قرب ملكال. وقد اتفقت مصر والسودان، في ١٩٧٤، على البدء بتنفيذ هذا الجزء في ١٩٧٨. ولكن العمل توقف في ١٩٨٤ نتيجة للحرب الأهلية في جنوبي السودان، وكان قد تم الاتفاق على تقسيم المياه مناصفة بين مصر والسودان (١،٩ مليار متر مكعب لكل منهما)، وتزيد الكمية إلى ٧ مليارات متر مكعب (٣،٥ مليار متر مكعب لكل منهما) في حالة إتمام المرحلة الثانية للمشروع.

ويعد خزان بحيرة تانا من اهم مشروعات التخزين المستمر. وقد تم التخطيط لبناء مشروع السد عند مخرج بحيرة تانا بحيث يرفع منسوبها لمتر واحد في المرحلة الاولى، ومترين في المرحلة الثانية، والاستفادة من هذا المنسوب لمصر والسودان، بينما تستفيد اثيوبيا زراعيًا وفي مجال توليد الكهرباء. وثمة مرحلة ثانية لمشروع «هرست وبلاك وسميكه» تشتمل على عدد من المشروعات التي تستهدف الحد من مفقود المياه في حوض السوباط وبحر الغزال. ولكن هذه المشروعات لم تدرس كفاية حتى الآن.

أما المرحلة الثانية التي مرت بها مشروعات التخزين فقد بدأت بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وقد تركزت مشروعات التخزين المستمر على بناء الخزانات وقنوات التحويل في داخل حدود مصر والسودان وصرف النظر مؤقتًا عن مشروعات أعالي النيل.

إتفاقيات حدودية متضمنة بنودًا مائية لدول حوض النيل: تنظم العلاقة بين دول حوض النيل مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات يرجع أغلبها إلى وقت سيطرة بريطانيا على مصر وسائر دول حوض النيل. كما ان أغلبها أبرم بين بريطانيا والدول المستعمرة المجاورة بغية تعيين حدودها، وهذه الاتفاقيات:

١- البروتوكول الموقع بين بريطانيا وايطاليا بشأن تعيين مناطق نفوذ كل منهما في شرقي افريقيا. وقد وقع هذا البروتوكول في روما في ١٥ نيسان ١٨٩١، وتنص مادته الثالثة على تعهد ايطاليا بعدم إقامة أي اعمال متعلقة بالري على نهر عطبره يكون من شأنها تعديل تدفق مياه النيل.

٢- المعاهدة الموقعة بين بريطانيا واثيوبيا، وبريطانيا وايطاليا واثيوبيا بخصوص الحدود بين السودان (البريطاني-المصري) واثيوبيا واريتريا، وقد تم التوقيع عليه في أديس ابابا في ١٥ ايار ١٩٠٢، ونصت المادة الثالثة من الجزء الاول (الذي يحدد الحدود بين اثيوبيا والسودان) على تعهد الامبراطور منليك (امبراطور اثيوبيا) بالا يسمح بأي اعمال على النيل الازرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط تعوق تدفق مياه أي منهما إلى النيل إلا في حالة موافقة الحكومة البريطانية وحكومة السودان.

٣- الاتفاق الموقع بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا في ١٣ كانون الاول ١٩٠٦ في لندن، والذي ينص في مادته الرابعة على الحفاظ على مصالح مصر وبريطانيا في حوض النيل وبشكل خاص التحكم في مياه النيل وروافده مع الأخذ في الاعتبار المصالح المحلية للدول التي يمر فيها النهر.

٤- الاتفاق بين الملك ليوبولد (بلجيكا) راعي دولة الكونغو والملك ادوارد ملك بريطانيا وايرلندا والمستعمرات البريطانية عبر البحار موقع في ١٩ ايار ١٩٠٦، وينص في مادته الثالثة على التزام دولة الكونغو المستقلة بألا تنشىء أو تسمح بانشاء أي منشآت على نهر السليمكه أو الأسانغو من شأنها ان تقلل حجم المياه الداخلية إلى بحيرة ألبرت إلا بموافقة الحكومة السودانية.

وتحظى الاتفاقيات والبروتوكولات المائية باعتراف منظمة الوحدة الافريقية وذلك إعمالاً لمبدأ احترام الحدود السياسية القائمة.

إتفاقية ٧ ايار ١٩٢٩: أبرمت بين مصر وبريطانيا (بالنيابة عن السودان وأوغندا وكينيا وتنجانيقا)، وتقضي بانه بغير الاتفاق مع الحكومة المصرية لا يمكن القيام بأي عمل من أعمال الري أو توليد طاقة هيدروكهربائية سواء على النيل أو على روافده، أو على البحيرات التي ينبع منها النيل ويكون من شأنها إنقاص كمية المياه التي تصل إلى مصر أو تعديل تواريخ وصولها أو تخفيض منسوبها. كما تضمن الاتفاق نظم تشغيل خزان سنار وتثبيت الحقوق المكتسبة لمصر والسودان.

إتفاقية إنشاء سد أوين في أوغندا: بدأت مفاوضاتها في آذار ١٩٤٨، وانتهت في كانون الثاني ١٩٥٣، وتتعلق بانشاء سد شلالات أوين عند مخرج بحيرة فكتوريا بغرض توليد الطاقة الكهربائية، وكذلك لأغراض التخزين في بحيرة فكتوريا لصالح كل من مصر والسودان. وتتضمن الاتفاقية موافقة الحكومة المصرية على إقامة السد واضطلاع ثلاثة مهندسين مصريين بمراقبة تنفيذ اعمال الخزانات.

إتفاقية ٨ تشرين الثاني ١٩٥٩: عقدت بين حكومتي مصر والسودان. وتضمنت تنظيم: - الحقوق المكتسبة. - مشروعات ضبط مياه النهر وتوزيع فوائدها. - مشروعات استغلال المياه الضائعة في حوض النيل. - التعاون الفني بين مصر والسودان.

وقد حددت الاتفاقية ما قدره ٤٨ مليار متر مكعب مقدرة عند أسوان كحق مصر المكتسب (قبل الحصول على الفوائد التي ستحققها مشروعات ضبط النهر)، كما حددت ٤ مليارات متر مكعب مقدرة عند اسوان كحق السودان المكتسب (قبل الحصول على الفوائد التي ستحققها مشروعات ضبط النهر). وتضمنت الاتفاقية ايضًا الموافقة على إنشاء مصر للسد العالي عند أسوان على ان توزع صافي فوائده بين مصر والسودان (٢٢ مليار متر مكعب) بحيث يكون نصيب السودان ١٤،٥ مليار متر مكعب ونصيب مصر ٧،٥ مليار متر مكعب. وعلى ذلك فإن النصيب الاجمالي لمصر يصبح ٥٥،٥ مليار متر مكعب، والنصيب الاجمالي للسودان ١٨،٥ مليار متر مكعب، مع توزيع أي زيادة في صافي الفائدة الناتجة عن زيادة الايراد مناصفة بينهما. كما تضمن الاتفاق الموافقة على إنشاء السودان لسد الروصيرص على النيل الازرق، وأي أعمال أخرى يراها السودان لازمة لاستغلال نصيبه. وقضت الاتفاقية بان تدفع الحكومة المصرية تعويضًا يقدر بـ١٥ مليون جنيه مصري كتعويض شامل عن الاضرار التي تلحق بالممتلكات السودانية نتيجة التخزين في السد العالي لمنسوب ١٨٢ مترًا. وتتعهد حكومة السودان بأن تتخذ إجراءات ترحيل سكان حلفا وغيرهم من السودانيين الذين تغمر اراضيهم مياه التخزين.

أما في ما يتعلق بمشروعات استغلال المياه الضائعة في حوض النيل، فقد قضت الاتفاقية بأن يتولى السودان، بالاتفاق مع مصر، إنشاء مشروعات زيادة ايراد النيل بمنع الضائع في مستنقعات بحر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال وبحر السوباط وروافدها ومجرى النيل الابيض، على ان يكون صافي فائدة هذه المشروعات لكل من مصر والسودان مناصفة كما يسهم كل منهما في تكاليف هذه المشروعات مناصفة.

... وقد نصت الاتفاقية على إنشاء لجنة فنية دائمة مشتركة (عدد الاعضاء متساو) تختص برسم الخطط الرئيسية للمشروعات التي تهدف إلى زيادة ايراد النهر وكذلك الاشراف على تنفيذها.

وتهتم اللجنة بتوحيد رأي كل من مصر والسودان في مقابل أي بلد آخر من بلدان الحوض، وذلك في ما يتعلق بأي شأن من شؤون مياه النيل. وإذا اسفرت أي مفاوضات عن قبول تخصيص أي كمية من مياه النهر لبلد أو آخر من بلدان حوض النيل فإن هذا القدر محسوبًا عند اسوان ويكون مناصفة بينهما.

«أندوغو»: (تعني «الإخاء» باللغة السواحلية) منظمة إقليمية حوض نيلية. أنشئت بناء على اقتراح مصر وتأييد من السودان في تشرين الثاني ١٩٨٣، وحددت أهدافها في التعاون والتنسيق والتشاور انطلاقًا من خطة عمل لاغوس ١٩٨٠ التي أكدت ان الانهار الافريقية تعد بمنزلة جزء من البنية الأساسية الضرورية للتعاون الاقليمي. وعلى ذلك فإن الهدف الاساسي للمجموعة يتمثل في الاسهام كمنتدى لتبادل وجهات النظر والمعلومات. كما يكمن خلف إنشاء المجموعة فكرة ضمنية مؤداها ان مصر والسودان تحتاجان إلى المياه، أما أوغندا أو إثيوبيا (مثلاً) فلا تحتاجان إلى المياه بمثل حاجتهما. لذلك فإن «المقابل الذي تقدمه مصر لدول أعلى النيل هو طاقة نظيفة باسعار زهيدة في مقابل المياه». ويشارك في أعمال المجموعة كل دول الحوض وإن كانت كينيا وإثيوبيا تشاركان بوصفهما مراقبين.

والأندوغو أداة مهمة للتحرك المصري في حوض النيل الذي يعد مجالاً ثابتًا من مجالات الامن القومي المصري. وهناك نية ورغبة في تزخيم هذه المنظمة وجعلها منظمة ذات سلطة اقليمية تقريرية. وقد اقترحت بعثة تقصي الحقائق التي تكونت من خبراء برنامج الامم المتحدة للتنمية (١٩٨٩) والتي قامت بزيارة ميدانية لدول حوض النيل اطارًا للتعاون الاقليمي بين دول حوض النيل مع تقييم للموارد المتاحة واحتياجات السكان في الاجلين المتوسط والطويل. فلجميع دول حوض النيل مشروعاتها في التنمية، وهي وإن لم تكن نجحت حتى الآن لصعوبات تمويلية أو إدارية فإنها لا بد ان تعيد التفكير فيها. وسيتسبب تنفيذها دون تنسيق مع بقية دول الحوض في احداث خلخلة اقتصادية وعدم استقرار سياسي بل حروب ومنازعات. فليس هناك من حل دون العمل الدبلوماسي الجاد لبناء مؤسسات نيلية مشتركة للتنمية لصالح جميع الاطراف.

السياسات النيلية لدول الحوض وتفاعلاتها الخارجية: نعرض لهذه السياسات وتفاعلاتها خصوصًا بين دولة المصب (مصر)، ودولة المجرى (السودان) ودول المنبع وأهمها اثيوبيا:

١- مصر: تنطلق مصر، في سياستها النيلية، من ثوابت اساسية هي: - حقوقها المكتسبة في مياه النيل. - حقها في الحصول على نصيب معقول من أي ايرادات اضافية تنجم عن تقليل المفقود عند المنابع. - وجوب التشاور معها من قبل أي من دول حوض النيل قبل الشروع في أي ترتيبات من شأنها ان تؤثر في الموارد الحالية والمستقبلية.

وتعتمد مصر أداتين للتحرك الدبلوماسي والفني في كل ما يتعلق بالشؤون النيلية. الاداة الاولى تتمثل في «الهيئة الفنية الدائمة المشتركة لمياه النيل» المنشأة طبقًا لاتفاقية ١٩٥٩ بين مصر والسودان. وقد نجحت الهيئة في اقرار مشروع مشترك مع تنزانيا وأوغندا وكينيا في ١٩٦٧ يدعى مشروع «الدراسات الهيدرومترولوجية لحوض البحيرات الاستوائية»، ويحظى المشروع الذي انتهت مرحلته الاولى في ١٩٧٢، وبدأت مرحلته الثانية في ١٩٧٦ بدعم كل من برنامج الامم المتحدة للتنمية (UNDP) ومنظمة الارصاد العالمية (OMM). وتتمثل الاداة الثانية في منظمة «الأندوغو» (راجع «اندوغو» أعلاه).

ثمة فترتان، في التاريخ الراهن، حفلتا بالتفاعلات الكاشفة لطبيعة العلاقات في حوض النيل في ما بين دوله وفي ما بينها وبين دول أخرى، والتي كانت مصر طرفًا اساسيًا فيها: الفترة الاولى هي التي اعقبت قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي شهدت البدء في التفكير في إنشاء السد العالي حتى الشروع في بنائه؛ والفترة الثانية هي التي واكبت الاعلان عن مبادرة مصرية صرّح بها الرئيس المصري أنور السادات في ١٦ كانون الاول ١٩٧٩ باعتزامه مد مياه النيل إلى القدس. نكتفي هنا بالكلام على الفترة الاولى ونترك الثانية إلى العنوان الفرعي الأخير «٦-اهتمام اسرائيل...» الذي يلي العناوين الفرعية من ١ إلى ٥.

كان مشروع السد العالي قد وضع على اول سلم الاولويات امام «مجلس الانتاج» بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وبدا ظاهرًا منذ البداية ان مشكلة التمويل ستكون المشكلة المحورية للسد الذي كان من شأنه ان يجنب مصر اعتمادها التاريخي على دول اعالي النيل بالتخزين عند اسوان. وقد ابدت الولايات المتحدة الاميركية استعدادًا لتقبل المشروع حيث وصفه وزير خارجيتها، دالاس، بأنه مشروع «مثير للخيال». ولجأت الحكومة المصرية إلى البنك الدولي في كانون الثاني ١٩٥٣، وابلغته بانها بصدد إجراء دراسات تمهيدية خاصة بمشروع السد العالي، فكان رد البنك ايجابيًا حيث أبدى في حزيران ١٩٥٤ اهتمامه ورغبته في المساعدة والتحضير، وارسل في ايلول ١٩٥٤ بعثة لدراسة المشروع بناء على طلب الحكومة المصرية، وذلك لدراسة مشاركة البنك التمويلية والتنظيمية. وقد افاد تقرير البعثة بان المشروع «أساس لرفاهية مصر حيث يترتب على عدم تنفيذه زيادة ضغط السكان على الاراضي الزراعية المحدودة وانخفاض مستوى المعيشة الذي هو منخفض اصلاً». وقد أبدت الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا بالاضافة إلى البنك الدولي موافقتها على تمويل السد في تشرين الثاني ١٩٥٥ على ان يتولى البنك إدارة القرض من خلال اجهزته. وكان دافع الولايات المتحدة في المشاركة يرجع إلى سببين: إغراء مصر بمشروع السد العالي وامكان مساعدة الولايات المتحدة لها على تنفيذه في حين كانت مصر تعكف على إتمامها لصفقة الاسلحة التشيكية، واستثمار طموح مصر في دفعها لقبول شروط وضمانات تجعلها خاضعة للسيطرة الغربية وقبولها «الصلح مع اسرائيل». أما بريطانيا فقد كان هدفها من المشاركة هو تثبيت الموقف المصري وإطالة زمن المفاوضات ريثما تجد الوقت الكافي لاعمال خططها المستقبلية للمنطقة والتي لم تكن قد تبلورت بعد.

ولقد انعكست تلك التصورات الاميركية والبريطانية على ما اقترحه البنك الدولي من اجراءات واساليب تضمنتها رسالته إلى الحكومة المصرية في كانون الاول ١٩٥٩ حيث الشروط المجحفة التي من شأنها الاخلال بالسيادة المصرية. وقد اعترف بذلك يوجين بلاك، رئيس البنك الدولي آنذاك بقوله: «ذهبت إلى القاهرة في شباط ١٩٥٦ للحصول على موافقة مصر على شروط تمويل السد العالي، وكان أهم تلك التعهدات المطلوبة من مصر عدم الارتباط بأي قروض اجنبية اخرى طوال فترة تنفيذ المشروع. وكان هذا الشرط لم يسبق له مثيل في كل تعاقدات البنك الدولي، ولكني وجدت الحكومة الاميركية تزداد إصرارًا يومًا بعد يوم». فنجم عن كل ذلك سحب البنك الدولي لعرضه، وذلك بعد سحب الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا عروضهما في ١٩ تموز ١٩٥٦؛ وتلا ذلك اعلان مصر على لسان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس التي كانت تدر ايرادًا في ذلك الوقت يبلغ ١٠٠ مليون دولار. وقد أعقب التأميم العدوان الثلاثي (١٩٥٦)، أي

ان مشروع السد العالي كان احد دوافع الحرب. وقد تمّ الاتفاق بين الحكومة المصرية والحكومة السوفياتية على ان يساهم الاتحاد السوفياتي في تمويل مشروع السد العالي بقرض قدره ٤٠٠ مليون روبل سوفياتي، وذلك في تشرين الاول ١٩٥٨.

وبغض النظر عما ثبت لاحقًا من أهمية مشروع السد العالي والتي أكدتها اللجنة الدولية للسدود في الندوة الدولية التي عقدت في القاهرة (١٩٩٤) حيث افادت بأن «السد العالي كان هو العنصر الاساسي وحجر الزاوية في إنقاذ مصر من الجفاف والموت جوعًا خلال فترة الجفاف الرهيبة (من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٧)، وحمى مصر من الفياضانات العالية اعوام ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٨٨، وضمن الامداد الثابت والمستمر خلال العام بالمياه اللازمة لري الاراضي والتوسع الكبير في الاراضي الجديدة»، بغض النظر عن هذا فإن عملية بناء السد العالي كانت بؤرة تجمعت فيها كثير من الخيوط التي تكشف عن طبيعة العلاقات الدولية في فترة بنائه فنلاحظ:

– الموقف الاميركي الذي بدأ أقرب إلى التعاون ثم تحول إلى فرض شروطه من منطلق مصالحه الاستراتيجية: مواجهة الاتحاد السوفياتي وإيقاف نفوذه، دعم اسرائيل وتوفير سبل اندماجها في الشرق الاوسط.

– الموقف البريطاني الباحث عن استمرار دوره، وخصوصًا ان بريطانيا بحكم استعمارها لدول حوض النيل كانت على علم كاف بالخطط المتعلقة بالادارة الهيدرولوكية للنهر، ومن ثم فقد كانت تدرك ان مشروع السد العالي يكفل لمصر تقليل اعتمادها على دول أعالي النيل ومشروعات التخزين التي كان هناك تفكير باتمامها. كما ان من شأنه تقوية مركز مصر في محيطها مما قد يحبط آمال بريطانيا في لعب دور مهيمن في المنطقة. لذا سعت إلى عرقلته حتى وصلت إلى المشاركة في الحرب العدوانية (١٩٥٦).

– الاتحاد السوفياتي تمكن من بناء جسر يتيح له وجودًا ايجابيًا في المنطقة عبر اتفاقه مع مصر على تمويل السد العالي متجاوزًا في ذلك اعتبارات ايديولوجية كانت تحكم حركته.

– الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي توسلت دول حوض النيل الأخرى للضغط على مصر. فقد طالب السودان بضرورة الاتفاق مع مصر على حصته في مياه النيل قبل البدء في أي اعمال تتعلق بالسد العالي مع ضرورة قيام مصر بتغطية النفقات اللازمة لاعادة توطين سكان وادي حلفا. وقد أيّد البنك الدولي مطالب السودان في مذكرته في نيسان ١٩٥٥ على الرغم من ان السودان لم يكن عضوًا في البنك آنذاك. وقد كان هذا نتيجة لمسعى بريطاني كما افادت بذلك رسالة السفارة المصرية في واشنطن في ٢١ تشرين الاول ١٩٥٥.

٢– السودان: يعد السودان الطرف الثاني في الاتفاقيات النيلية الرئيسية (١٩٢٩ و١٩٥٩ كما مرّ معنا سابقًا). وهو يشارك مصر عضوية الهيئة الفنية المشتركة لمياه النيل، وكذلك منظمة الأندوغو. ويلتزم السودان وفقًا لاتفاقية ١٩٥٩ بتوحيد الرأي مع مصر لدى أي مفاوضات مع الاطراف الاخرى لحوض النيل.

وتعتبر اتفاقية ١٩٥٩ الاتفاقية السارية الآن والمنظمة للعلاقات النيلية المصرية–السودانية. وتلقى هذه الاتفاقية قدرًا من القبول على الرغم من ان هناك بعض الآراء السودانية تشكك في قانونية وشرعية الاتفاقية على اساس انها ابرمت في عهد الحكم العسكري المفتقر للتفويض الشعبي. غير ان نجاح الاتفاق في الحد من التناقضات التي ابرزها اتفاق ١٩٢٩ من المنظور السوداني كان الدافع للقبول العام للاتفاقية وخصوصًا ان الموارد الاضافية الناجمة عن مشروع السد العالي قد اسهمت في مقابلة الحاجات المتزايدة للجانبين

المصــري والســوداني. وكــانت الاعتراضــات السودانية على اتفاقية ١٩٢٩ قد تركزت على:

– حـدّت مـن إمكـان التوسـع في زراعـة القطن طويل التيلة.

– الاتفاقية عقدت بين الحكومـة البريطانيـة ومصر، لذا فإن السودان المستقل ليس ملزمًا بها.

– رفعت مصر حقوقهـا المكتسبة مـن ٤٠ مليـار مـتر مكعـب في ١٩٢٠ إلى ٤٨ مليـارًا في ١٩٢٩ على حساب حقوق السودان المكتسبة.

وقد ألغى السودان من جانب واحد اتفاقية ١٩٢٩. ومشكلة جنوبي السودان والحرب الاهلية هناك أدت إلى وقف العمـل في شـق قنـاة جونقلـي الـتي كـان العمـل قـد بـدأ بهـا في ١٩٧٨. وقـد توقفـت الاعمـال حينمـا تعرض خـبراء الشـركة الفرنسية المنفذة للاخطار الـتي دفعتهـم للفـرار، مـا نجم عن توقف العمل، وذلك في ١٩٨٤.

٣– اثيوبيا: في ٢٦ شباط ١٩٥٦، اعلنت اثيوبيا في جريدتها الرسمية «اثيوبيـان هـيرالد» انهـا سوف تحتفظ لاستعمالها الخـاص مستقبلاً بمـوارد النيل وتصرفاته في الاقليم الاثيوبي، أي لـ٨٦٪ من ايراد النهر بأكمله. وقد وزعت مذكرة رسمية علـى جميـع البعثـات الدبلوماسية في القـاهرة تضمنـت احتفاظهـا بحقهـا في استعمال مـوارد المياه النيليـة لصـالح شـعب اثيوبيـا بغـض النظـر عـن درجـة استعمال الدول المستفيدة الأخرى من هذه المياه أو مدى سعيها وراءها.

وقـد قـام مكتـب اسـتصلاح الاراضـي الزراعيـة الامـيركي بدراسـة لصـالح اثيوبيـا لتنميـة الاراضي الزراعية، وتوليد الكهربـاء، وذلـك علـى طول ٢٢٠٠كلم من الحدود مع السـودان، وذلـك بـين عـامي ١٩٥٨ و١٩٦٤. وكـانت الولايـات المتحدة، في تلك الاثناء، تسـتخدم اثيوبيا لتحذيـر مصر من إمكان استخدام منابع النيـل في التأثير في مسـتقبلها التنمـوي. ووجهـت اثيوبيـا نقـدًا مريـرًا للسودان على توقيعه اتفاقية ١٩٥٩ مع مصر علـى اساس ان السـودان تنــازل لمصـر عــن مصالحـه وحقوقه في مياه النيل.

تجددت تلك المقولات الاثيوبية مرة أخـرى في اواخـر السـبعينات مـع اطـراد الحديـث عـن مشروعات مد مياه النيل إلى اسرائيل، حيث اشـار ممثل اثيوبيا في قمـة لاغـوس (١٩٨٠) إلى انـه «لا توجـد اتفاقيـات دوليـة حتـى الآن بشـأن توزيـع حصـص ميـاه النيـل». وقـد وضعـت اثيوبيـا في ١٩٨١ قائمة بـ٤٠ مشروعًا للري يقع بعضها على حوض النيل الازرق وحوض السوباط امام مؤتمر الامم المتحدة للبلدان الاقـل نمـوًا. واعلنـت انـه في حالة عدم توافر اتفاق مـع جيرانهـا في ارض النيـل فإنها تحتفظ بحقها في تنفيذ مشروعاتها مـن جـانب واحد.

وفي تصريـح حديـث (١٩٩١) للدكتـور زويدي أباتي المدير العـام لتنميـة الاودية الاثيوبيـة دعا إلى توزيع مياه نهر النيـل بالتسـاوي بـين دول الحـوض التسـع، وانـه اذا ارادت دولـة الاسـتئثار (مصـر) بنصيـب أكـبر فانهـا يجـب ان تدفـع تعويضات مناسبة لـدول الحـوض الاخـرى، والـتي ستتأثر الكمية التي ستحصل عليها من جراء ذلـك. كمـا طـالب بتوقيـع اتفاقيـات جديـدة بـين دول الحـوض تقـوم علـى اسـاس المسـاواة والعدالـة في التوزيع.

العلاقات النيليـة بـين اثيوبيـا ومصـر طغـى عليها التوتر. وأحد نماذجهـا الأكـثر حـدة وقـع في ١٩٧٨ عندما هدد الرئيس المصري انور السـادات اثيوبيا بشن الحـرب، وقـال: «إن مصـر ستخوض الحرب إذا اعـتزمت اثيوبيا اقامـة سـدّ على بحيرة تانا»، وتبعه وزير الري المصري آنذاك عبد العظيم ابو العطا الذي أكد «ان مصـر لـن تسـمح مطلقًـا لاثيوبيا ان تقيـم سـدودًا علـى منـابع النيـل». ورد الجنرال منغيستو (رئيس الدرغ–المجلس العسكري–الاثيوبي) ببيان قال فيه: «ما من أحد عـاقل يمكـن ان يشـكك في حـق اثيوبيـا الـذي لا ينـازع في

كروكي يمثل منابع النيل المختلفة.

الاستفادة من مواردها الطبيعية لمصلحة جماهيرها المناضلة. وتود اثيوبيا الثورية ان توضح بجلاء لا يقبل اللبس ان لها مطلق الحرية في استخدام مواردها الطبيعية من اجل تقدم شعبها».

المسؤولون الاثيوبيون، حاليًا (١٩٩٦)، يقدمون تصورًا لاحتمالات مزيد من التوتر قد يصل إلى حد المجابهة بين اثيوبيا ومصر. ويرون ان مصر فوتت فرصة للاتفاق مع اثيوبيا في ١٩٩١، إذ كانت القاهرة وقتها، بعد مشاركتها مع الجانب المنتصر في حرب الخليج واعفائها من نصف ديونها الخارجية، في وضع قوي إزاء نظام جديد تنقصه الخبرة في أديس ابابا. والواقع ان مصر واثيوبيا وقعتا بالحروف الاولى في ١٩٩٣ على تفاهم على التعاون في حوض النيل، والتفاهم لم يذكر اتفاق ١٩٥٩، لكنه في الوقت نفسه لم يتحدث عن مبدأ الانصاف في تقاسم المياه. واقتصر التفاهم على تبادل المعلومات واجتماعات دورية للخبراء.

وفي تموز ١٩٩٦، اعلنت اثيوبيا عن عزمها بناء سدين على النيل الازرق ونهر أتبرة وهما من أهم روافد النيل. وقد فاجأ هذا الاعلان القاهرة، إذ لم تسبقه مفاتحة ثنائية مفترضة. وأعلن البنك الدولي موافقته على تمويل السدين اللذين ستنفذهما شركة ايطالية، كما ان وزير المال الاثيوبي أعلن ان بلاده غير ملزمة بالحصول على موافقة دول حوض مصب النيل. والجدير ذكره ان هذا التطور النيلي جاء متزامنًا مع تفاعل مشكلة مياه الفرات التي اثارتها تركيا مع سورية والعراق، ما اعاد قضية المياه لتحتل مكانًا في صدارة

الاهتمامات العربية.

٤- كينيا وتنزانيا وأوغندا: يتمثل موقف الدول الثلاث في عدم اعترافها باتفاقية ١٩٢٩ والتي وقعتها بريطانيا ممثلة لها، وما تلا ذلك من تعهدات قدمتها حكومات المستعمرات. وذلك استنادًا إلى مبدأ «نيريري» (رئيس تنزانيا) الذي ينكر الاتفاقيات والمعاهدات السابقة على الاستقلال. وقد بدأت تنزانيا اولاً في مذكرة وزعتها في ٤ تموز ١٩٦٢ تفيد ان اتفاقية ١٩٢٩ لم تعد سارية المفعول بالنسبة إلى تنزانيا مع فترة سماح سنتين. وتبعتها أوغندا وكينيا. ولم تعترف هذه الدول بأي اتفاقيات تتعلق بمياه النيل يتم توقيعها دون مشاركتها.

٥- زائير، رواندا وبورندي: تشارك الدول الثلاث في عضوية منظمة الأندوغو. وتشترك زائير مع مصر في اعداد دراسات تتعلق بالربط الكهربائي بينهما تمهيدًا لمد الشبكة إلى اوروبا. وليس للدول الثلاث مواقف مناوئة للحقوق المصرية والسودانية في المياه. كما لم تنكر أي منها الاتفاقيات السابقة على الاستقلال. وربما تلعب حالة عدم الاستقرار السياسي في هذه الدول دورها في الحد من اكتراث هذه الدول بالموضوعات المشتركة لسائر دول حوض النيل.

ويطرأ تساؤل مهم في ما يتعلق بالعلاقة بين دول المنبع باستثناء اثيوبيا وكل من دولتي المجرى والمصب (مصر والسودان): لماذا تحجم تنزانيا، رواندا، بوروندي، أوغندا، زائير وكينيا المشتركة في المنابع الاستوائية للنيل عن خوض مفاوضات رسمية في شأن النيل مع مصر والسودان؟

يورد البعض ثلاثة اسباب لهذا الإحجام: الاول ان هذه الدول لا تعتمد على مياه النيل كمصدر رئيسي للمياه. الثاني ان هذه الدول تعوزها الخبرات في المجال الهيدروليكي وما يترتب على ذلك من مخاوف تتعلق بعدم قدرتها على خوض مفاوضات ناجحة في مواجهة مصر والسودان اللتين تتمتعان بمعرفة فنية عالية وخبرات متميزة في مجال ادارة النيل. الثالث، عدم رغبة هذه الدول في احداث أي مشكلات مع مصر وذلك حرصًا على الحصول على مصر في مختلف المحافل والمجالات الدبلوماسية للاستفادة من ثقلها الاقليمي والدولي. وقد شاركت هذه الدول مع مصر والسودان في ورشة العمل التي نظمها برنامج الامم المتحدة (UNDP) في بانكوك في ١٩٨٦ والتي انتهت إلى توصيات تعاونية إيجابية.

٦- اهتمام اسرائيل: أكثر اهتمام بمياه النيل من خارج دول حوض النيل تبديه وتخطط له اسرائيل. وكان الاعلان عن مبادرة مصرية صرّح بها الرئيس المصري انور السادات في ١٦ كانون الاول ١٩٧٩ باعتزامه مد مياه النيل إلى القدس وما تلا ذلك من رسائل متبادلة بينه وبين رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيغن في آب ١٩٨٠ بمثابة الكاشف عن مطامع اسرائيلية عميقة في استغلال مياه النيل عبر مشروعات سابقة وحالية.

في ١٩٠٣، تقدم تيودور هرتزل بمشروع اتفاقية إلى الحكومة المصرية بمنح الصهاينة امتياز التوطن في سيناء يتضمن استغلال مياه النيل من خلال سحبها بأنفاق تمر تحت قناة السويس. وقد رفض السير ويليام أ. غارستين وكيل نظارة الاشغال العامة آنذاك هذا المشروع من منطلقات فنية. وقد حاول هرتزل الضغط على الحكومة المصرية لقبول المشروع عبر رسالته إلى الخارجية البريطانية إلا انه لم ينجح. ويأتي بعد ذلك مشروع اليشع كالي، المعروف بمشروع «مياه السلام» الذي يقضي باستخدام قدر من مياه النيل لري النقب الشمالي عبر انابيب تمر تحت قناة السويس بجانب الاسماعيلية حيث تصب المياه في الجانب الآخر في قناة مبطنة تصل حتى خان يونس حيث تتفرع في اتجاهين: غزة، أوفاكيم وبئر السبع. ويُنسب مشروع ثالث لعالم اسرائيلي يدعى شاوول أرلوزوروف ويقضي بحفر ثلاث

قنوات تحت قناة السويس لتوصيل مياه النيل إلى نقطة ضخ في سيناء بالقرب من مدينة بالوظة وتدفع في قناة مفتوحة تسير بمحاذاة ساحل سيناء الشمالي وتنتهي عند بداية جهاز الري الاسرائيلي في النقب.

لاقت النية المتجهة لتنفيذ هذه المشروعات (عقب الحديث الذي أطلقه السادات) معارضة شديدة، خصوصًا من القوى الوطنية المصرية. ونجم عن ذلك ان تولد اتفاق عام على رفض مناقشة الفكرة من الاساس ومن المبدأ. وأفاد السفير فوزي الإبراشي ممثل مصر في المباحثات متعددة الاطراف (لجنة المياه) بأنه قد تمّ الاتفاق بين الجانبين المصري والاميركي في اليوم الاول للجولة الاولى في فيينا على إبعاد موضوع النيل من المفاوضات والقضايا التي ستناقشها مجموعة العمل الخاصة بالمياه. كما تمّ الاتفاق على ان لا يمس الموضوع حتى في المؤتمرات الصحافية على اساس ان التعاون بخصوص المياه يكون بين دول حوض النيل وفي إطار الاتفاقيات الدولية مع هذه الدول. وعندما أثير الموضوع تلميحًا من الجانب الاسرائيلي اعترض الوفد المصري على اساس ان النيل خارج اعمال اللجنة وأيده الاميركيون في ذلك.

وكانت اسرائيل، على صعيد علاقاتها الافريقية، قد وصلت إلى منابع النيل منذ ستينات هذا القرن وبنت لها علاقات دبلوماسية وأمنية في افريقيا، خصوصًا مع دول المنابع النيلية وتحديدًا أوغندا. وأعلنت أكثر من مرة انها ستساعد الحكومة الاثيوبية في بناء سد كبير على بحيرة تانا لتوفير مياه الري والطاقة الهيدروكهربائية لها. وقد تردد في منتصف السبعينات ان اسرائيل تدعم اثيوبيا وتحثها على تحديد حصة مائية في اتفاقية توزيع مياه النيل على ان تقوم اسرائيل بشراء هذه الحصة من اثيوبيا ويتم التسليم عن طريق مصر (راجع «حوض نهر الاردن»، «المشروع المائي الاسرائيلي»)

حوض نهري دجلة والفرات

نهرا دجلة والفرات

(راجع الجزء ٢ من هذه الموسوعة، ص ٢٦-٢٧؛ والجزء ٦، ص ٢٣٤ و٢٧٧).

نهر دجلة: ينبع من هضبة الأناضول جنوب شرقي تركيا، ومن جبال طوروس الشرقية وجبال زاغروس في ايران. ويدخل إلى العراق بعد مروره مسافة قصيرة في سورية. وترفده في العراق عدة انهار هي الزاب الكبير والزاب الصغير والعظيم وديالي والكرخة والطيب والدويرج. ويبلغ الوارد السنوي للنهر (متوسط التصرف) ١٨،٤٤ مليار متر مكعب، ونحو ٣٥ مليار متر مكعب من الروافد الأخرى المذكورة. ويوجد على نهر دجلة عدة خزانات للسيطرة على مياهه (عند سامراء لتوجيه مياهه إلى منخفض وادي الثرثار وقت الفيضان خصوصًا في الربيع). ويمكن ان تصل إمكانات إيرادات نهر دجلة في حالة استكمال منشآت تنظيمه إلى ٣٧ مليار متر مكعب توجه لاغراض الري والملاحة (مجلة معهد الانماء العربي، بيروت، العدد ١٧-١٨، تموز ١٩٨٩، ص ٨ و١١).

نهر الفرات: يبلغ طوله الكلي من نقطة منابع اطول روافده (مراد صو) وحتى التقائه بنهر دجلة في القرنة ٢٩٤٠كلم. وتبلغ مساحة حوضه

٣٨٨ ألف كلم م.. والفرات ينبع من جبال تركيا عند ارتفاع يزيد على ٣ آلاف م فوق مستوى البحر في المنطقة الواقعة بين البحر الاسود وبحيرة فان. يتكون من رافدين (مراد-صو وقره-صو) اللذين يلتقيان بالقرب من قرية كيبان حيث يعرف النهر بعد ذلك باسم الفرات. ثم يجري النهر في الاراضي التركية، ثم الاراضي السورية، وبعدها يدخل الاراضي العراقية ليلتقي بنهر دجلة حيث يكوّن النهران شط العرب الذي يصب في الخليج العربي. وتصب في نهر الفرات داخل الاراضي السورية ثلاثة روافد: الساجور عند الضفة اليمنى للنهر ومعدل ايراده السنوي ١٨٠ مليون متر مكعب؛ البليخ على الضفة اليسرى جنوبي مدينة الرقة؛ الخابور الذي يصب في النهر جنوبي مدينة الزور عند البصيرة، ومعدل ايراده السنوي ١،٥ مليار متر مكعب. كما تصب في النهر عدة مجاري وديانية موسمية غير دائمة الجريان. ويدخل الفرات الاراضي العراقية عند منطقة حصيبة، ولا يوجد داخل الاراضي العراقية روافد تذكر لنهر الفرات، إلا ان قنوات عدة للري تتفرع منه. ويلتقي الفرات بنهر دجلة في منطقة القرنة (شط العرب وطوله، من ملتقى النهرين إلى المصب في الخليج، ١٦٠ كلم).

الامطار والثلوج المتساقطة في الاطراف العليا هي المصدر الرئيسي لمياه الفرات. ويبلغ المتوسط السنوي لايراد نهر الفرات عند نقطة الهيث داخل الحدود العراقية ٣٠ مليار متر مكعب (قياسات الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٧٢)، ٦٥٪ منها تحدث خلال الفيضان، وقد وصل إلى أعلى معدل له في ١٩٦٨ حيث بلغ ٥٢ مليار متر مكعب، بينما كان أدنى معدل له في ١٩٣٠ حيث وصل إلى ١٠ مليارات متر مكعب.

المشروعات المقامة على الفرات: لم تكن هناك منشآت رئيسية على مجرى النهر الرئيسي في تركيا وسورية حتى ١٩٧٣، بينما كان العراق قد أنشأ بعض المشروعات على النهر. أما عن المشروعات المقامة على الفرات بغرض ضبط مياهه والاستفادة منها فهي على النحو التالي:

- في تركيا: ١- سد كيبان، وهو أول السدود التركية وأنجز في ١٩٧٤ وسعته التخزينية ٣٠،٧ مليون متر مكعب والهدف الاساسي منه توليد الكهرباء ويقع عند التقاء رافدي الفرات الرئيسيين مراد صو وقره صو؛ ٢- سد قره ايه، اكتمل في ١٩٨٦ وهو ثاني السدود الكبيرة التي نفذتها تركيا بغرض توليد الكهرباء وسعته التخزينية ٩،٥٤ مليار متر مكعب؛ ٣- سد أتاتورك، أكبر السدود التركية ويعتبر رابع أكبر سد في العالم من حيث الحجم وسعته التخزينية ٤٨،٧ مليار متر مكعب، ويهدف إلى انتاج الطاقة الكهربائية وإرواء مساحات واسعة من الاراضي تقدر بنحو ٨٧٠ ألف هكتار؛ ٤- نفق أورفه، يأخذ مياهه من سد أتاتورك ويبلغ طوله ٢٦،٤كلم وقطره ٧،٥م وهو عبارة عن نفقين كبيرين يبلغ تصريفهما ٣٢٨ مترًا مكعبًا في الثانية، والغرض منه نقل مياه الفرات إلى سهول أورفه وحران.

- في سورية: ١- سد الطبقة، أكبر المشروعات التخزينية السورية على نهر الفرات ويهدف إلى ري مساحات واسعة وتوليد الكهرباء والسيطرة على فيضان النهر، وقد تم انجازه في ١٩٧٤ وتمت تعلية منسوبه في ١٩٨٨؛ ٢- سد البعث، الغرض منه اعادة تنظيم اطلاق التصاريف المطلقة من خزان الطبقة وتوليد الطاقة الكهربائية؛ ٣- سد الحسكة الغربي والشرقي، على أحد روافد نهر الخابور والغرض منهما ري مساحات زراعية في المنطقة.

- في العراق: ١- سد القادسية، انجز في ١٩٨٦ بغرض توليد الكهرباء؛ ٢- خزان الحبانية، بعد إنشاء سد الرمادي وناظم الورار وقناة الورار

النظامية امكن الاستفادة من المياه المخزونة في اوقات الفيضان في المنخفض الطبيعي (الحبانية) خلال اعادة المياه إلى الفرات في موسم انخفاض مياه النهر وقت الصيف؛ ٣- سد الرمادي وناظم الورار اللذان تم إنشاؤهما في ١٩٥١ لتحسين الاستفادة من مياه الفرات وتنظيم توزيعها إلى القنوات الاروائية الفرعية؛ ٤- سد الفلوجة الذي انجز في ١٩٨٦ لرفع منسوب المياه في نهر الفرات وتنظيم توزيعها إلى القنوات الاروائية المتفرعة من السد؛ ٥- سد الهندية الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى ١٩١٣ في اواسط نهر الفرات، وتم تجديده في ١٩٨٨؛ ٦- النواظم القاطعة الكبيرة لتحسين الاستفادة من مياه الفرات خصوصًا في اوقات انخفاض مناسيب النهر.

العلاقات المائية لدول حوض دجلة والفرات (كما ورد في «أزمة المياه في المنطقة العربية-الحقائق والبدائل الممكنة»، عالم المعرفة (٢٠٩)، ١٩٩٦، ص ١١٠-١١٨):

كان الفرات ودجلة واقعين بالكامل داخل الامبراطورية العثمانية حتى ١٩٢٣ حيث تم تقسيم اقاليم الامبراطورية بموجب معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي تضمنت في المادة ١٠٩ وجوب عقد اتفاقية بين الدول نتيجة الحدود الجديدة المترتبة على المعاهدة لضمان المصالح والحقوق المكتسبة لكل دولة.

كما تضمنت المادة ٣ في المعاهدة الموقعة بين بريطانيا وفرنسا (الدولة المنتدبة) في كانون الاول ١٩٢٣ إلزام سورية بعدم البدء بأي مشروع يؤثر في كمية مياه نهر الفرات التي ترد للعراق. كما تم عقد معاهدة صداقة بيت تركيا والعراق تضمنت المادة ٥ منها موافقة تركيا على اطلاع العراق على أي مشروعات تقوم بها على أي من نهري دجلة والفرات، وذلك في ٢٦ آذار ١٩٤٦.

كما نظمت معاهدة حلب التي عقدت في ٣ ايار ١٩٣٠ حقوق سورية في نهر دجلة. وفي ٦ تموز ١٩٨٧، تم توقيع بروتوكول للتعاون الاقتصادي بين سورية وتركيا، ويتضمن البروتوكول ان تضمن تركيا معدل تدفق للفرات يبلغ ٥٠٠ متر مكعب في الثانية لسورية، على ان تتعاون سورية في مجال تأمين الحدود بينهما. كما وقعت كل من سورية والعراق اتفاقًا في ١٦ نيسان ١٩٩٠ يقضي بتقسيم الوارد المائي السنوي بينهما بحيث تحصل سورية على ٤٢٪ من الوارد السنوي ويحصل العراق على ٥٨٪ من هذا الوارد.

وقد مرت العلاقات الثلاثية، التركية-العراقية-السورية بمراحل متعددة. فعندما شرعت تركيا في إنشاء سد كيبان (١٩٦٤)، استطاع وفد تركي إقناع نظيره العراقي بفائدة سد كيبان في تنظيم جريان نهر الفرات من جهة درء الفيضان وتنظيم تصريف النهر. كما نفى الوفد التركي نية تركيا في استخدام السد في الاغراض الزراعية لتركيا في حوض الفرات، بالاضافة إلى ذلك فقد تعهد بضمان تصرف قدره ٣٥٠ متر مكعب في الثانية أثناء فترة امتلاء الخزان. وقد بني على ذلك اعتراف مبدئي من العراق باهمية السد ولكن علق اعترافه النهائي على ضرورة اعتراف تركيا بتصرف قدره ٨٠٠ متر مكعب في الثانية كحق مكتسب للعراق في مياه نهر الفرات.

وكانت سورية قد شرعت في بناء سد الفرات (الثورة) وتم الانتهاء من تنفيذه في ١٩٧٦، وذلك بدعم سوفياتي مالي وتكنولوجي. وقد نجم عن ذلك الازمة الاولى بين العراق وسورية. بدأت الازمة في ١٩٧٤ وبلغت ذروتها في ١٩٧٥ حيث انخفض تدفق الفرات للعراق بنحو ٢٥٪ من التدفق المعتاد. ولقد تمثلت مظاهر الازمة في تهديد العراق بتدمير سد الثورة بالقنابل، وحشد القوات العراقية على طول الحدود العراقية-السورية، وكان العراق قد اعلن ان خفض التدفق قد أضر ٣ ملايين فلاح عراقي. وقد وافقت سورية على

اطلاق كميات اضافية مما أحبط تصاعد الازمة.

بدأت تركيا (١٩٨٠) في وضع مخطط عام شامل يربط عددًا من المشروعات المائية على نهر الفرات، وذلك مقدمة لمشروعها الاساسي، «مشروع جنوب شرقي الاناضول الكبير» (GAP راجع «المشروع المائي التركي» في ما يلي)، وإن لم تعلن عنه آنذاك. وقد تكونت إثر الاعلان عن هذا المخطط التركي الشامل لجنة فنية مشتركة في ١٩٨٢ بين العراق وتركيا ثم انضمت سورية لعضوية هذه اللجنة في ١٩٨٣. وقد عقدت هذه اللجنة ١٦ اجتماعًا حتى الآن (اواخر ١٩٩٥). ولم يتم التوصل إلى أي اتفاقيات ثلاثية حول استخدام نهر الفرات. وذلك لمعارضة تركيا لأي ترتيبات متعددة الاطراف على اساس انها لا تملك تحديد مقدار المياه التي تجري من سورية إلى العراق وارتباط هذا المقدار بالمياه التي تجري من تركيا إلى سورية.

وقد أقدمت تركيا في ١٣ كانون الثاني ١٩٩٠ على منع مياه نهر الفرات وحبسها عن العراق وسورية بغرض تخزين المياه خلف سد أتاتورك، وذلك لمدة شهر. وقد أشارت المذكرة التفصيلية التي قدمها الممثل التركي في الطاولة المستديرة التي عقدت للنقاش حول هذا الموضوع إلى الاعتبارات الفنية التي تقضي بحجز المياه والمتعلقة بالمواصفات الهندسية لسد اتاتورك من جهة، وإلى مراعاة تركيا لاحتياجات سورية والعراق من جهة ثانية. كما اشارت إلى ان تركيا نفذت برنامجًا تعويضيًا في الفترة اعتبارًا من ٢٣ تشرين ا لثاني ١٩٨٩ وحتى تاريخ الاغلاق بغرض توفير فائض مائي لاستخدامه خلال مرحلة انخفاض المنسوب.

وقد بينت المذكرة السورية المقدمة في الطاولة المستديرة نفسها الاعتراضات السورية التي ترجع إلى عدم مناقشة الموضوع على مستوى اللجنة الفنية الثلاثية، واقتصار الامر على مجرد ذكر الموضوع في دورة اللجنة التي عقدت في دمشق في تشرين الاول ١٩٨٩ دون شرح الاسباب والحصول على موافقة سورية والعراق، ثم مضت تركيا في تنفيذ خطتها دون العبء بالاجتماعات السورية-العراقية. ثم بينت المذكرة كيف ان هبوط تصريف النهر إلى ٤٥ مترًا مكعبًا في الثانية وما يترتب عليه من انخفاض منسوبه إلى ٣ امتار بالزراعة المروية المعتمدة على النهر، وكذلك بالاستعمالات المنزلية نتيجة للتلوث الكثيف.

وتوضح المناقشات التي دارت في إطار الطاولة المستديرة موقف الاطراف الثلاثة بخصوص مسألة الاغلاق، وذلك على النحو التالي:

موقف الاطراف الثلاثة في إطار الطاولة المستديرة: ١- الموقف التركي: أ- إن تركيا قد نظمت جولة من الاتصالات مع الاقطار العربية «الصديقة» (البحرين، الكويت، الامارات، مصر، الاردن وليبيا) اوضحت فيها الوقائع والارقام المتعلقة بعملية التشغيل خلال فترة ملء الخزان خلف سد أتاتورك، كما انها احاطت سورية والعراق علمًا بكل خطوات بناء السد، كما دعتها لزيارته، وعلى حد قول الممثل (المندوب) التركي: «لا أحد يقيم سدًا مائيًا ليستخدمه كمتحف للجميع». ب- إن المياه تتدفق إلى المجرى الرئيسي للفرات بعد فترة الحبس وحتى الآن بمعدل ٦٠٠ متر مكعب في الثانية. ج- إن تركيا تستخدم ما قدره ٨ امتار مكعبة في الثانية من تدفق النهر، وعلى ذلك فإن معدل ٥٩ مترًا مكعبًا في الثانية ولفترة اضطرارية مؤقتة يفي بحاجات سورية والعراق. د- إن تركيا عندما تعهدت في ١٩٧٦ لدى شروعها في بناء خزان كاركايابان بالا يقل التدفق إلى ريلاجيك عن ٥٠٠ متر مكعب في الثانية كانت تستجيب في ذلك لطلب المؤسسات الدولية التي اسهمت في بناء هذا الخزان ومنها البنك الدولي للانشاء والتعمير، ولما كان سد

أتاتورك ممولاً بالكامل من قبل تركيا فإن هذا التعهد لا يسري عليه حتى يتم التوصل لتسوية نهائية.

٢- الموقف السوري: أ- إن سورية تتمسك بنص البروتوكول الموقع في تموز ١٩٨٧ والذي ينص على: «إن الجانب التركي يتعهد بامداد النهر عبر الحدود السورية التركية بأكثر من ٥٠٠ متر مكعب في الثانية، كمعدل سنوي، وفي حالة انخفاض معدل الامداد الشهري عن ٥٠٠ متر مكعب ثانية فإن تركيا توافق على زيادة المعدل خلال الشهر التالي». ب- إن قرار إغلاق النهر يرجع إلى اخطاء التصميم الهندسي (ما يسميه الجانب التركي الضرورات الفنية) وهي معلومة لدى الجانب التركي قبل ١٩٨٣، ولم يجر طرحها على اللجنة الفنية الثلاثية خلال ١٣ اجتماعًا عقدت قبل قرار الاغلاق، كما ان الاجتماع الرابع عشر للجنة لم يسجل عنه محضر، لعدم اقتناع سورية والعراق بالمبررات التي قدمتها تركيا لقرار الاغلاق. ج- إن معدل التدفق للنهر في فترة الاغلاق تراوح بين ٤٥ إلى ٥٠ مترًا مكعبًا في الثانية وليس ٥٩ مترًا مكعبًا في الثانية كما يزعم الجانب التركي.

٣- الموقف العراقي: أ- إن الحقوق المكتسبة تاريخيًا لسورية وبالتالي العراق تبلغ ٢٨ مليار متر مكعب سنويًا (متوسط حسابي مبني على قياس التدفق تاريخيًا) أي بمعدل تدفق يبلغ ٨٠٠ متر مكعب في الثانية عند الحدود السورية التركية. وبناء على ذلك فإن الـ٥٠٠ متر مكعب في الثانية التزام تركي كحد أدنى خلال فترة إنشاء سد أتاتورك، وتسترد بعده سورية معدلاً يتراوح بين ٦٠٠ و٧٠٠ متر مكعب ثانية وذلك إلى حين توصل الاطراف إلى اتفاق بشأن النهر. ب- إن تدفق المياه خلال فترة الاغلاق بمعدلات منخفضة أدّى إلى ظهور الملوحة في المياه لدى العراق، كما زادت نسبة مكونات الاجسام الصلبة في المياه ووصلت إلى ٦٧٪ مع زيادة نسبة الكبريت مما يؤثر في صلاحية المياه في العراق ليس فقط خلال فترة التدفق المنخفض ولكن في المستقبل عمومًا. ج- إن العراق مضار من البروتوكول الموقع بين سورية وتركيا عام ١٩٨٧، حيث لن تتجاوز حصته ٩ مليارات متر مكعب سنويًا، وهذا المقدار يمثل نصف الحد الادنى للاحتياجات العراقية، ما يترتب عليه عدم صلاحية ١٦٥ ألف هكتار للزراعة، كما ان استنزاف المياه خلف سد القادسية العراقي سيقلل من كفاءة وانتاجية مشروع الطاقة الكهرومائية للسد، فضلاً عن توقف السدّ عن العمل كليًا خلال شتاء ١٩٩١.

ولقد شكلت «أزمة الاغلاق» المذكورة مختبرًا حقيقيًا للشكوك والنوايا لدى اطراف الحوض الثلاثة، كما كانت بمنزلة ازمة كاشفة لطابع العلاقات بينهم، ويمكن رصد عدة نقاط في هذا الصدد:

- ان الازمة المائية بين تركيا وسورية تتقاطع مع نقاط اخرى للتوتر بين الطرفين: المشكلة الكردية، حيث هدد تورغوت أوزال، في ايلول ١٩٨٩ بقطع المياه عن سورية إذا لم تلتزم بالاتفاقيات الامنية التي تقضي بمنع النشاط الكردي. مشكلة لواء الاسكندرون المقتطع اساسًا من سورية والمتقاطع مع مشكلة مائية متمثلة بمياه نهر العاصي الذي تتهم تركيا سورية بالتلاعب بها، في حين لا تعتبر سورية نهر العاصي نهرًا دوليًا على اساس عدم اعترافها بانضواء لواء الاسكندرون (مصب العاصي) تحت السيادة التركية. ومع بروز شواهد لوجود البترول في سورية، اخذت تتزايد لدى تركيا نية قوية لمقايضة البترول بالمياه، وقد ظهر ذلك من تصريح سليمان ديميريل لدى افتتاح سد أتاتورك في تموز ١٩٩٢ حيث قال: «إن منابع المياه ملك لتركيا كما ان النفط ملك العرب، وبما اننا لا نقول للعرب إن لنا الحق في نصف نفطكم فلا يجوز لهم ان يطالبوا بما

هو لنا».

- بخروج العراق من معادلة التوازن الاقليمي للقوى (جرّاء نتائج حرب الخليج الثانية) فقد أفسح المجال امام تركيا للمضي في مخططاتها المائية حتى آخر مدى، واصبح النزال الفراتي نزالاً سوريًا-تركيًا بالدرجة الاولى.

المشروع المائي التركي: تجدر الاشارة اولاً إلى الصدى الاميركي-الاسرائيلي الايجابي لهذا المشروع. ويتمثل هذا الصدى الداعم أكثر ما يتمثل في كلام للرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون: «علينا ان نشجع تركيا لاستغلال مميزاتها التاريخية والحضارية، لكي تلعب دورًا أكبر سياسيًا واقتصاديًا في الشرق الاوسط، وإذا امكن حل مشكلة الصراع العربي-الاسرائيلي فإن مشكلة المياه سوف تكون اهم مشكلة في المنطقة. ونظرًا لأن تركيا دولة لديها مصادر غنية بالمياه فإنه يمكنها الاسهام في حل مشكلة المياه عن طريق امداد اسرائيل وسورية والدول الاخرى المحتاجة إلى المياه في المنطقة بمصادر المياه عن طريق مواسير ضخمة وتساعدها الولايات المتحدة الاميركية في هذا الشأن» («أزمة المياه في المنطقة العربية»، مرجع سبق ذكره، نقلاً عن: ريتشارد نيكسون، «الفرصة السانحة»، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٤٣).

كما ورد في حديث لشمعون بيريز، وزير الخارجية الاسرائيلي في ١٩٩١: «إن المعادلة التي سوف تحكم الشرق الاوسط الجديد سوف تكون عناصرها كما يلي: النفط السعودي+الايدي العاملة المصرية+المياه التركية+العقول الاسرائيلية.» (المرجع المذكور اعلاه نقلاً عن د. محمود عبد الفضيل، «مشاريع الترتيبات الاقتصادية الشرق اوسطية-التصورات، المحاذير، اشكال المواجهة»، المستقبل العربي، العدد ١٧٩، كانون الثاني ١٩٩٤، ص ٩١).

ينطوي المشروع المائي التركي الشامل على مشروعين رئيسيين: الاول: وقد شرعت تركيا في تنفيذه فعلاً وهو مشروع جنوب شرقي الاناضول الكبير (GAP)، ويمكن اعتباره المشروع الجاري. الثاني، هو مشروع «أنابيب السلام التركية» وهو مشروع المستقبل لتركيا بوجه خاص، وللنظام الاقتصادي الشرق أوسطي تحت التشكيل بشكل عام.

- الاول: مشروع غاب: بدأت تركيا عام ١٩٨٠ في وضع مخطط عام شامل يربط عددًا من المشروعات المائية على نهر الفرات، وذلك كمقدمة لمشروعها الاساسي مشروع جنوب شرقي الاناضول الكبير (GAP) الذي شرعت في تنفيذه في ١٩٨١، والذي يضم ١٣ مشروعًا لأغراض الري وتوليد الطاقة الكهربائية. وتهدف تركيا من تنفيذ هذا المشروع إلى: ١- تنمية المناطق التي يعيش فيها الارمن والاكراد وعرب لواء الاسكندرون بغرض تحقيق الاستقرار السياسي في هذه المناطق؛ ٢- إقامة بنية تحتية اقتصادية قوية تدعم وجود تركيا الاقليمي وتزيد من ثقلها في معادلات التوازن الاقليمية؛ ٣- مقايضة مياه دجلة والفرات والطاقة الكهربائية المتولدة عن المشروع بالنفط العربي.

وقد نجم عن الاعمال التنفيذية لمشروع غاب توترات مع كل من سورية والعراق _دولتي المجرى والمصب العربيتين) بلغت ذروتها في ما يسمى بازمة «الاغلاق»، حينما اقدمت تركيا في ١٣ كانون الثاني ١٩٩٠ على منع مياه الفرات وحبسها عن العراق وسورية بغرض تخزين المياه خلف سد أتاتورك لمدة شهر.

- الثاني: و لتركيا مشروعها المستقبلي الذي تسعى لجعله مشروعًا رئيسيًا في إطار النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل وهو مشروع «انابيب السلام التركي»: قدمت الفكرة للمرة الاولى في شباط ١٩٨٧ اثناء الزيارة الرسمية لرئيس

الـوزراء الـتركي تورغـوت أوزال إلى الولايـات المتحـدة الاميركيـة. وتتمثـل الفكـرة في اسـتخدام فائض مياه نهري سيحون وجيحون اللذيـن ينبعـان ويصبان بالكامل داخل الاراضي التركية بضخه إلى بلدان الشرق الاوسـط الفقـيرة مائيًـا، حيـث يبلـغ متوسط التصرف اليومي للنهرين ٣٩،٧ مليون متر مكعب من المياه، وتسـتخدم تركيـا منهـا ٢٣،٠٧ مليون متر مكعب والباقي يصب في البحر الابيـض المتوسط.

وتشير بيانات دراسة الجدوى المبدئيـة الـتي أعدهـا خـبراء اميركيون إلى اتجاهـات توزيـع هـذا الفـائض، وذلـك عـبر مسـارين: مسـار الانبـوب الغربي الذي يصل إلى سورية، الاردن، السعودية وتركيا؛ ومسار الانبوب الخليجي الـذي يصـل إلى الكويـت، السـعودية، البحريـن، قطـر، الامـارات وعمان. ويبلغ طول الانبـوب الغربـي ٢٧٠٠كلـم بقطر يتراوح ٣-٤ أمتـار، وتقـدر تكلفتـه بـ٨،٥ مليـار دولار (باسـعار ١٩٨٧). ويبلـغ طـول الانبوب الخليجـي ٣٩٠٠كلـم، وتقـدر تكلفتـه بـ١٢،٥ مليار دولار.

ويقترح الاتراك ان يكـون تمويـل المشـروع من المؤسسات الدولية مثل البنـك الـدولي للانشـاء والتعمـير، وبنـك التنميـة الاسلامي، والمؤسسـات الخاصة. على ان تساهم الدول المستفيدة في تكلفـة الانشاء، ويؤخذ في الاعتبـار ان تتحمـل الاطـراف المنتفعة تكاليف الصيانـة وذلـك في إطـار حدودهـا الاقليميـة. والملاحـظ ان ثمة تـأييدًا اميركيًـا لهـذا المشـروع: اولاً، لكبـح جمـاح العـراق وايـران عـن طريـق تقويـة موقـف تركيـا في الترتيبـات الشـرق أوسطية. ثانيًا، لاتاحة فرصة للشـركات الاميركيـة للاضطلاع بدور اساسي في كل المراحل الانشـائية للمشروع.

مـن جهـة أخـرى، هنـاك مخـاوف عربيـة واضحة من إتمام هذا المشروع لما يعطيه لتركيا مـن ميزة استراتيجية في مواجهة الاقطار المستفيدة مـن المشروع.

وتذهب دراسة عربية حديثة («أزمـة الميـاه في المنطقة العربية»، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٣، نقلاً عن: مجدي صبحي، «مشكلة المياه في المنطقـة والمفاوضات متعددة الاطراف»، سلسلة كراسـات اسـتراتيجية رقـم ٧، مركـز الدراسـات السياسـية والاستراتيجية، مؤسسة الاهـرام، القـاهرة، كـانون الثاني ١٩٩٢، ص ٢٥) إلى إمكان قبول المشـروع على نحو جزئي، وذلك باجراء تعديـل عليـه بحيـث يكتفي بالخط الغربي من الانابيب علـى ان تذهـب مياهه إلى كل مـن اسـرائيل والاردن. وعلـى ذلـك يصبـح لكـل مـن الاردن وسـورية مـيزة في مقـابل اسـرائيل حيـث يكونـان في اعلـى الانبـوب. مـع تشـكيل لجنة مشـتركة عربيـة-اسـرائيلية-تركيـة لادارة الخط منعًا لاحتكار أي طرف إدارتـه، علـى ان يسـبق ذلـك تصفيـة المشـكلات التركيـة-السورية-العراقية حول الفرات، وذلك مـن خـلال ابرام اتفاق متوازن بين هذه الاطراف. بينمـا يـرى البعض الآخر ان هذا المشـروع خيـالي وغـير قـابل للتحقيق، وإذا تحقق فلن يحل المشكلات المائية لأنـه لن يلبي سوى احتياجات مياه الشرب فقط.

وقـد تـردد في الآونـة الاخيرة ان حكومـة الرئيـس الـتركي سـليمان ديمـيريل قـد بـدأت في التخلي عن فكرة «مشروع انابيب السلام» لصالح المضي في مشروعات دجلة والفرات لتوليـد الطاقـة الكهربائية التي يتزايد الطلب عليها سواء في تركيـا أو البلدان العربية (المرجع المذكور سابقًا، نقلاً عن: د. طارق المجـذوب، «التعـاون العربـي-الـتركي في مشاريع البنية التحتية: المياه والطاقـة الكهرمائيـة»، المسـتقبل العربـي، العـدد ١٨٨، تشـرين الاول ١٩٩٤، ص ٧٥).

الـخليـج العربـي

الاسم: «الخليج العربـي» عربيًـا، «الخليـج الفارسي» ايرانيًا وفي الخرائط والكتابـات الاجنبيـة (الفرنسية والانكليزية وغيرها)، «الخليـج العربـي- الفارسي» الذي كثر استعماله، خاصة من الجـانب الشرقي السوفياتي إبـان الحـرب البـاردة، وكذلـك مـن جـانب بعـض المراكـز والمؤسسـات الدراسـية الغربية.

المسـاحة: يبلـغ طـول الخليـج العربـي بـين أقصى نقطتيـه طوليًـا (شـط العـرب العراقـي في الشـمال، وجزيـرة ابـو ظبـي في الامـارات العربيـة المتحدة في الجنوب) نحو ألف كلم، ويتراوح عرضه بـين ١٠٠-٢٠٠كلـم. ويغطـي منطقـة تبلـغ مساحتها نحو ٢٢٦ ألف كلـم م.. ويبلـغ متوسـط عمق الخليج ٣٥م. أما أقصى عمق لـه فـلا يتعـدى ١٠٠م حول مدخله في الجنوب.

الموقع: يقع الخليج عند اقصى امتداد العـالم العربي لجهة الشـرق، بـين السـاحل الشـرقي لشـبه الجزيـرة العربيـة والسـاحل الغربـي لهضبـة ايـران. ويعتبر امتـدادًا بحريًـا المحيـط الهنـدي مـن خـلال مضيـق هرمـز في الجنـوب الـذي يربـط بينـه وبـين خليج عمان المتصل بالمحيط الهندي. ومضيـق هرمـز هو عنق الزجاجة في مدخل الخليـج، ويبلـغ عـرض المضيـق نحـو ٦٠كلـم، فيـه جزيـرة مسـندم، وهـي النتـوء الصخـري لجنـوب شـرقي الجزيـرة العربيـة. ويحتضـن هـذا النتـوء في المقـابل السـاحل الايرانـي الذي تقع على مقربـة منـه جزيـرة قشـم الايرانيـة. وتكثر حول سواحل الخليج الأخوار، وهـي ألسـنة مائية داخلة في الارض وتستخدم كموانىء طبيعية، ومـن أشـهرها: خـور دبـي، خـور الدوحـة، خـور فكان وخور سلوى. ومعظم التجمعات السكانية- خاصة في الساحل الغربي-قد تواجدت على أخوار حيث ارتبط عمل السكان بالمصدر الرئيسي للرزق وهو البحر.

دول الخليـج: يعتبر السـاحل الغربـي هـو السـاحل العربـي مـن الخليـج، والسـاحل الشـرقي ايراني مع وجود قبائل على هـذا السـاحل تـترابط برباط الدم والقربى مع القبائل العربية في غربيه.

تقـع دولـة الكويـت علـى رأس الخليـج الشمالي مع حدود مشتركة بينها وبـين الجمهوريـة العراقيـة الـتي تطـل اراضيهـا علـى الخليـج، ويتبـع الكويت جنوبًـا السـاحل الشـرقي للملكـة العربيـة السعودية (ساحل الاحساء أو ما يعرف بالشرقية). ويمتد هذا الساحل حتى حـدود شبه جزيـرة قطـر (دولـة قطـر) وخليـج سـلوى الـذي يحتضـن جـزر البحرين، ويحصرها بين شبه جزيـرة قطـر وسـاحل الاحساء. ثم تبـدأ حـدود دولـة الامـارات العربيـة المتحدة. وقد جرى هناك عرف على إطلاق تسمية «إمارات الخليج العربي» على كـل مـن الكويـت، البحرين، قطر والامارات العربية المتحدة لتحديدها

عن بقية الاقطار العربية المطلة على الخليج (الجمهورية العراقية، المملكة العربية السعودية وعمان). وتنتشر في الخليج العديد من الجزر التي أكبرها البحرين، ومن أهمها استراتيجيًا تلك التي تقع عند مدخل الخليج. وقد احتلت ايران ثلاث جزر مهمة، هي ابو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى (راجع «الامارات العربية المتحدة»، ج ٣، ص ١٦١-١٧١).

السكان والهجرة: يتميز سكان الخليج العربي بظاهرة الازدواجية السكانية بسبب ارتفاع عدد السكان غير الوطنيين، ونسبة هؤلاء تفوق في بعض الاقطار نسبة السكان الوطنيين. ففي الكويت وصلت نسبة غير الوطنيين إلى نحو ٥٣٪ من مجموع السكان، أي ان الأكثرية غير كويتية؛ وفي البحرين نحو ٢٠٪ من الاجانب، وفي قطر نحو ٦٥٪، وفي السعودية نحو ٢٦٪، وفي الامارات نحو ٥٥٪، وفي عمان نحو ٧٥٪. وهذه ظاهرة ديمغرافية فريدة في العالم.

شكلت الهجرة الفارسية (حتى قيام الثورة الاسلامية في ايران) إلى اقطار الخليج العربي أعلى نسبة بين الهجرات الاجنبية. وهناك هجرات أخرى من الهنود والباكستانيين والافغان والملايو والسري لانكيين والاثيوبيين وسواهم.

وتصل تلك الهجرات الاجنبية إلى الاقطار الخليجية إما بصورة منظمة وشرعية من قبل حكوماتها. أو عن طريق التسلل وخاصة عبر ساحل عمان الذي هو أقرب منطقة في الخليج إلى ايران. وكان البريطانيون يشجعون الهجرة الاجنبية، خاصة الفارسية منها، إلى الخليج في محاولة لاضعاف العنصر العربي في الخليج. كما ان الشركات الاجنبية النفطية في الخليج فتحت ابوابها لاستقبال العمال الاجانب لرخص يدهم العمالية وتوافرها باعداد كبيرة. واليد العاملة لا تكون عادة رخيصة إلا عندما تكون غير شرعية، مما يدل على مدى تشجيع الشركات الاجنبية للتسلل الاجنبي غير الشرعي للخليج.

وصل عدد سكان دول الخليج العربي (الست الاعضاء في مجلس التعاون الخليجي) في العام ١٩٩٥ إلى حوالي ٢٣ مليون نسمة، ومن المتوقع ان يصل إلى ٢٧ مليونًا في العام ٢٠٠٠. وحسب تقديرات مصادر دراسية خليجية، يمثل السعوديون نصف سكان دول المجلس، والكويتيون ١٠٪، ويأتي بعد ذلك في العدد الامارات العربية المتحدة، فسلطنة عمان، وتعتبر دولة قطر ودولة البحرين أقل دول الخليج سكانًا. ولأن الغلبة في المساحة للصحاري، فإن متوسط الكثافة السكانية ضئيل بشكل عام ويتراوح بين اربعة افراد لكل كلم م. في سلطنة عمان، وخمسة في السعودية و١٨ في الامارات العربية المتحدة و٣٢ في قطر و١٠٥ في الكويت و٦١٢ في البحرين.

الحضارة القديمة: لم يهتم علماء الآثار بمنطقة الخليج والجزيرة العربية، ولم يبدأوا ابحاثهم في الحفر والتنقيب إلا في وقت متأخر على رغم ان المنطقة كانت مهد الحضارات القديمة. وكان اول من اهتم بالتنقيب عن آثار المنطقة بريطاني يدعى الكابتن دوراند الذي بدأ البحث عن آثار البحرين القديمة في ١٨٧٨، واقترن اسمه بالعثور على صخرة نقشت عليها كتابات ورموز سومرية يرجعها الكاتب إلى السكان القدامى «الدلمون» (راجع «البحرين»، باب مدن ومعالم، ج ٥، ص ٩٣-٩٩). وعثر علماء البعثات الدانماركية، في الخمسينات والستينات من هذا القرن (العشرين) على معابد من العهد السومري وسجلوا اثار مدن يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ق.م. وآخر التنقيبات الأثرية، مثل تلك التي جرت في أعسمة (تبعد ١٥كلم إلى الشمال من مسافي، منطقة اثرية داخلية في جبال رأس الخيمة)، في ١٩٨٧ و١٩٨٨، أظهرت وجود اواني فخارية ذات جودة

عالية وتعود إلى الألف الثالث ق.م.، ووجود نصوص مكتوبة على علاقة أعسمة التجارية مع سومر ودلمون ومجان وملوحة.

وذكر هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٥ق.م.) ان الفينيقيين قدموا إلى شواطىء البحر الابيض المتوسط من الخليج، وكانت سفنهم تمخر عباب البحر فلم يخلُ ثغر من تجارتهم. وأكد ذلك الجغرافي الروماني سترابو والرحالة الانكليزي جون فلبي.

وكان الاسكندر اول من اكتشف الخليج. فقد وجه قائده البحري تياركوس إلى استطلاع الجانب الشرقي للخليج اثناء عودته من الهند. وسار تياركوس (٣٢٥ق.م.) من مصب نهر الهندوس حتى بلغ شط العرب بعد رحلة استغرقت نحو ١٣٠ يومًا. واستطلع الجانب الشرقي من الخليج ووضع تقريرًا عن أهمية التجارة بين بلاد البحر الابيض المتوسط والخليج وطريق الفرات في التجارة مع الهند.

بعد الميلاد، العصر الاسلامي: غزت الامبراطورية الفارسية الساسانية، في العام ٢٢٠، الشاطىء الغربي للخليج وأقصت حكامه العرب، وعينت ابن الملك الساساني واليًا على المنطقة، واضطر السكان العرب النزوح إلى داخل الجزيرة العربية، ثم عادوا بعد ان سنحت الفرصة في اوائل القرن الرابع. وعاد الفرس، في ٧٥٠، فغزوا الخليج بحملة بحرية وأخرج الكثير من العرب قسرًا من المنطقة وحلّ محلهم الفرس، وهكذا دخلت المنطقة الساحلية تحت سيطرة الفرس.

وإبان الفتح العربي الاسلامي، تمكن العرب من فتح العراق واسترجاع البحرين وبقية ساحل الخليج من السيطرة الفارسية، فواصلت الجيوش العربية الاسلامية الزحف شرقًا فحررت المنطقة الشرقية من الخليج، ولم يمض القرن الهجري الاول حتى تحول الخليج من اقصى الشمال إلى أقصى الجنوب إلى بحيرة عربية اسلامية بسط العرب سيادتهم عليها حتى قدوم البرتغاليين. وكانت البصرة نقطة تقاطع لأهم شبكة طرق عامة تتحكم بشكل خاص بالوصول إلى العراق ومنطقة الخليج.

«يروي الامام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ) في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات عن بحر الخليج ما يأتي: «هو شعبة من بحر الهند الاعظم... وهو بحر مبارك كثير الخير... خصّ الله تعالى هذا البحر (الخليج) بمزيد من الخيرات والفوائد والعجائب... فإن الماء فيه من سبعين ذراعًا إلى ثمانين وفيه مقاصي اللؤلؤ الجيد الذي لا يوجد مثله في شيء من البحار وفي جزائره معدن العقيق وانواع اليواقيت والسنبادج ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس وانواع الطيب والأفاويه وفيه «الدردور» ايضًا... وفيه ماء شبيه بالزئبق...» (مجلة العربي»، العدد ٤٢٧، تموز ١٩٩٤، ص ٦٤-٦٥).

البرتغاليون: بعد رحلة فاسكو دي غاما إلى كالكوتا في الهند (١٤٩٧-١٤٩٩) بقي البرتغاليون في منطقة الهند لعدة قرون. واخضعوا هرمز ومسقط ومدنًا اخرى. وبقوا يحكمون هرمز حتى ١٦٢٢، واستمروا في مسقط حتى ١٦٥٠، واقاموا في الكونج بصفة تجار حتى بداية القرن الثامن عشر. وخلال هذه الفترة اكتشفوا المنطقة، وتنقلوا في جميع الاتجاهات، وجمعوا معلومات، وحكموا عدة شعوب، وكانوا يكتبون عن رحلاتهم. فالوثائق البرتغالية هي الاقدم في تاريخ المنطقة الحديث.

لكن كتاباتهم اغفلت الجانب الديني من وجودهم (البرتغاليين) الذي يمثل حلقة من حلقات تكوين الامبراطورية البرتغالية التي ابتدأت من المغرب وانطلقت إلى افريقيا فالخليج العربي فآسيا، فضلاً عن العالم الجديد خصوصًا البرازيل.

مع انتهاء الهيمنة البرتغالية على المحيط الهندي وبلدان الخليج العربي في منتصف القرن السابع عشر، أصبح الخليج مثار إهتمام الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين وتنافسهم من اجل الوصول إلى الاسواق الفارسية والعربية والسيطرة عليها. وظهرت هذه المنافسة من خلال الصبغة الدولية للرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة وتركوا شروحًا للحال الاقتصادية والاجتماعية التي واجهتهم، بينما كانت التجارة الدولية والنشاطات الاقتصادية هي نقطة الارتكاز في شروحات الرحالة الاوروبيين: صيد اللؤلؤ، المكانة الاقتصادية المتنامية لنشط العرب. كما اعير إهتمام خاص للاوضاع الاجتماعية لسكان الخليج، خاصة منها التجمعات الدينية المسيحية واليهودية والهندوسية، بالاضافة طبعًا للأغلبية المسلمة وتنوع جماعاتها.

وتمثلت خريطة التنافس الاوروبي على المنطقة باتسام العمل البرتغالي بالطابع العسكري والتركيز على الصراع مع عمان، بينما تمحورت الحركة الفرنسية إلى درجة كبيرة حول المحاولات الفرنسية لطرد البريطانيين أو الهولنديين بمساعدة القوى المحلية.

بدأ الغزو البرتغالي للخليج في ١٥٠٧، وكان منصبًا على احتلال قواعد ممتازة في البحار على طريق الهند؛ فاحتل ألفونس بيدرو ألبوكيرك Al-Buquerque اولاً جزيرة سومطرة المواجهة للخليج والبحر الاحمر ثم باب المندب، وجزيرة هرمز في رأس الخليج. ومن ثم قام البرتغاليون باحتلال الموانىء الرئيسية للساحل الغربي من الخليج كما احتلوا جزيرة البحرين ومسقط في ١٥١٤، وكان البرتغاليون يخططون لتحقيق اهداف تجارية وعسكرية وخدمة الكنيسة الكاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية التي بنيت لها الكنائس بجانب القلاع البرتغالية في هرمز ومسقط والبحرين. وقد استخدم البرتغاليون اعنف اساليب القسوة لاخضاع المنطقة؛ ورغم ذلك، قامت انتفاضات عربية ضدهم، ومنعت توغلاتهم في المنطقة، خاصة من عرب هرمز بقيادة حاكمها الشيخ سيف الدين، وعرب عمان والبحرين. فاستعاد العرب القواعد كافة وكان آخرها قلعة مسقط في ١٦٥٠، وقد ساعدت الهجمات العثمانية على طرد البرتغاليين من هذه المواقع، كما كان لتغيير وضع البرتغال في اوروبا وضمها إلى اسبانيا، في ١٥٨٠، دورًا مهمًا في اضمحلال النفوذ البرتغالي في الخليج.

الهولنديون: ظهر الهولنديون في الخليج بعد تمركز قواتهم في الهند خلال فترة الوحدة البرتغالية-الاسبانية (١٥٨٠-١٦٢٠)، فأسسوا شركة الهند الشرقية الهولندية، ثم فتحوا لها وكالات تجارية في جزيرة قشيم وهرمز في الجانب الشرقي في الخليج، وفي البحرين ومسقط من الجانب الغربي. وهكذا بدأت المنافسة الشديدة بينهم وبين التجار البريطانيين في الخليج وسرعان ما تغلبت المصالح التجارية على الأخوة البروتستانتية التي كانت تربط الطرفين وازداد التوتر بينهما نتيجة المنافسة التجارية. وأدّى ذلك إلى وقوع اشتباكات دامية بينهما في ١٦٦٦، واضطر الهولنديون إلى نقل نشاطهم التجاري إلى القسم الشمالي في الخليج. ويظهر ان ذلك كان اتجاهًا عامًا للدول التي كان لها نشاط تجاري في الخليج، ربما لنقل البضائع عن طريق العراق وسورية إلى شواطىء البحر الابيض المتوسط.

وقد احتل الهولنديون البصرة في ١٧٥٣، وبوشهر في ١٧٥٣، واصبحت جزيرة الخرج تحت حكمهم في ١٧٦٥. ورغم القلاع والحصون التي بناها الهولنديون في جزيرة الخرج، فقد تمكن القائد العربي مهنا من انهاء النفوذ الهولندي في الخليج باحتلال قاعدتهم في الخرج، إضافة إلى المنافسة البريطانية وظهور فرنسا كمنافس آخر قوي للهولنديين، مما اضطرهم للجلاء عن الخليج نهائيًا.

البريطانيون: كانت بداية دخولهم إلى الخليج عندما وافقت الملكة اليزابت الاولى، في ١٦٠٠، على ترخيص لشركة الهند الشرقية بتأسيس مشروعات تجارية في عدن والبحر الاحمر، وقد قابلها العرب بمعارضة شديدة في المنطقة. وتمكنت بريطانيا من تأسيس وكالة تجارية، في ١٦١٩، في الجانب الايراني وفتح بندر عباس لتلك التجارة في ١٦٢٥ وتعاون الاسطول الايراني مع البريطاني التابع لشركة الهند الشرقية بالقضاء على منافسة البرتغاليين في الخليج. وفي الوقت نفسه استمر الصراع بين الانكليز والهولنديين عندما ظهر الهولنديون كمنافسين لهم في الخليج. وبالتحالف مع شاه ايران الذي كره اساليب الهولنديين الدبلوماسية والعسكرية بدأ النفوذ البريطاني ينمو على حساب الهولنديين.

وقد ظهرت شركة فرنسية على المسرح في ١٦٦٤ وبدأت كمنافسة للشركة البريطانية في التجارة وأسست مركزًا لها في بندر عباس ولكنها لم تصادف نجاحًا فعالاً منذ البداية. ثم انتقلت شركة الهند الشرقية الانكليزية من بندر عباس إلى البصرة لسوء الاحوال السياسية في ايران ونتيجة هجوم سفن فرنسية على ميناء بندر عباس اتلفوا بمدافعهم الوكالة الانكليزية.

وقد تزامن هذا التنافس على نهوض حققه العرب من جديد، سواء كانوا عرب مسقط وعمان بزعامة سعيد بن سلطان أو عرب القواسم في ساحل عمان أو ا لعتوب في البحرين وقطر والكويت. وفي بداية القرن التاسع عشر كان الوهابيون قد سيطروا على ساحل عمان قادمين من الدرعية في قلب الجزيرة العربية. وفي ١٨٠٣، كان السلطان بن صقر زعيم القواسم قد اشتهر في جميع انحاء الخليج بشجاعته وقسوته في مقاتلة سفن شركة الهند الشرقية الانكليزية. ولهذا ساءت احوال الشركة، ما اضطرها إلى طلب المعونة العسكرية من حكومة الهند واصطدمت بالاسطول العربي بزعامة السلطان بن صقر القاسمي بالقرب من جزيرة قشيم، واجبر السلطان على توقيع اتفاقية عدم التعرض للسفن التي ترفع العلم الانكليزي. ومع ذلك عاد هذا السلطان وطلب (١٨٠٨) إلى حكومة بومباي دفع الضرائب لرأس الخيمة، ووافقت الشركة على ذلك الطلب مقابل إحلال السلام في الخليج. ولكن الانكليز ظلوا يتعرضون لنشاط العرب العسكري باستمرار وحتى ١٨٥٣ حيث وقعت اتفاقية سلام بينهما.

ورغم كل ذلك، فإن السيادة البريطانية على الخليج لم تحقق إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد ان تمكنت بريطانيا من قهر نابوليون في اوروبا، وبعد القضاء على منافسيها في الخليج حيث كونت علاقات مع ايران ليستتب لها الامر وتستأثر بكل صغيرة وكبيرة، وتقيد عرب الخليج بمواثيق سياسية وعقود ثنائية تجعل من بريطانيا الآمر الناهي في الخليج. وقد ساعدت النهضة الصناعية بريطانيا لتركيز اوضاعها وتنظيمها في الخليج. فارتبطت الامارات برباط قانوني سمي «الحماية البريطانية» خلال القرن ونصف القرن الماضيين. فمنذ توقيع معاهدة ١٨٢٠ بين بريطانيا المتحالفة مع سلطان مسقط، وبين امراء الساحل العماني ثم انضمام بقية الامراء في الساحل الغربي لهذه الاتفاقية (البحرين ١٨٢٠) والنفوذ البريطاني يتعاظم خلال القرن التاسع عشر. وقبل نهايته انضم امير الكويت مبارك ايضًا إلى شكل من اشكال المعاهدة-الحماية (١٨٩٩). ثم التحقت قطر بعد انفصالها عن حكم آل خليفة (حكام البحرين) في ١٩١٦.

ولقد قامت بريطانيا خلال هذه الحقبة (١٨٢٠-١٩٧٠) تارة بالتدخل بالقوة، واخرى بالتهديد بها، لتفرض على شعب هذه المنطقة وحكامها انواعًا من التبعية وألحقتها قسرًا بسوقها المتنامية في امبراطوريتها الهندية، كما جعلتها مصدرًا من مصادر الخامات (اللؤلؤ في البداية، ثم

البترول).

ولقد كان لاكتشاف البترول في مسجد سليمان (في ايران) العام ١٩٠٨، واحتمال تواجده في اراضي الامارات العربية الخليجية، الأثر في تشديد قبضة بريطانيا. فوقعت معاهدات إضافية مع شيوخ الكويت (١٩١٣)، والبحرين (١٩١٤)، والساحل العماني (١٩٣٧)، اعطت فيها هذه الامارات حقوق استغلال ثرواتها المعدنية للسلطات البريطانية. وهكذا تطور الوضع حتى غدت مصادر البترول الخام تحت سلطة الشركات البريطانية.

وإذا كانت بريطانيا قد تمكنت من ان تحول دون وصول كل منافسيها إلى الخليج من فرنسيين واتراك وألمان وسوفيات، غير انه لم تتمكن ان تفعل شيئًا مع حليفتها الكبرى الولايات المتحدة الاميركية التي بدأت منذ الحرب العالمية الثانية العمل لاحتلال موقعها. فقد اتاحت هذه الحرب الفرصة للولايات المتحدة لكي تضع قدمها في المنطقة وتثبت مركزها على حساب بريطانيا.

من جهة أخرى، ومن جراء استخراج النفط وتسويقه وصرف بعض ما جاء به على البنى الاقتصادية التحتية لهذه المناطق (الخليج)، تعاظم الوعي الوطني والعربي واخذ يضغط باتجاه الاستقلال. فشعرت بريطانيا بعجزها عن إبقاء الامور في الخليج كما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية. فأعلنت عن تخفيض قوتها الموجودة شرقي السويس مراعاة لظروفها الاقتصادية كما ادعت ذلك، ولكن الحقيقة ان ذلك كان لاعتبارات دولية وسياسية. ثم اعلن استقلال الكويت بمقتضى رسالتين متبادلتين بين المقيم السياسي لبريطانيا في الخليج والشيخ عبد الله السالم الصباح في ١٩ حزيران ١٩٦١. وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٦٨ اعلنت بريطانيا قرارها بالانسحاب من الخليج والشرق الاقصى قبل نهاية ١٩٧١. وفي كانون الاول ١٩٧٢، احرزت بقية الامارات الاستقلال عن بريطانيا.

الاميركيون: دخلت الولايات المتحدة الخليج، اول ما دخلت، بشكل بعثات تبشيرية في اوائل القرن العشرين. بعد الحرب العالمية الاولى، ومع تبني بريطانيا لسياسة الباب المفتوح في الشؤون الاقتصادية، تمكنت الشركات النفطية الحصول على نسبة كبيرة من امتيازات استغلال النفط في الخليج. ورغم تمسك الولايات المتحدة بمبدأ مونرو في السياسة الخارجية الذي يقرر عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى وحصرت مطامعها في اميركا اللاتينية، لكن ذلك لم يمنعها من الاتجاه نحو الخليج بعد اطلاعها على غنى المنطقة بالنفط.

ففي ١٩٢٨، حصلت شركة تطوير الشرق الادنى الاميركية على نسبة ٢٣،٧٥٪ من اسهم شركة نفط الموصل، ثم حصلت شركة ستاندر أويل أوف كاليفورنيا مع شركة تكساس على امتياز للتنقيب عن النفط في منطقة البحرين، واستطاعت شركة أرامكو الاميركية ان تلعب دورًا كبيرًا في تثبيت نفوذ الولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية وكانت سياستها ترى ان «كل ما هو صالح للشركة يجب ان يكون صالحًا للولايات المتحدة».

وكانت الحرب العالمية الثانية فرصة سانحة للولايات المتحدة لتمد يدها لمساعدة حلفائها الانكليز والسوفيات ضد ألمانيا النازية عن طريق الخليج العربي عبر ايران، وكان اقتصادها المتين قد اتاح لها تزعم العالم الغربي مكان بريطانيا. وقد تمكنت الولايات المتحدة في عهد روزفلت من إنشاء قاعدة اميركية في الظهران وتوسيع مناطق التنقيب عن النفط للشركات الاميركية لتصل إلى مليون ونصف مليون كلم م. مقابل زيادة عائدات المملكة العربية السعودية من النفط المستخرج وحدها بالمساعدات العسكرية وعدم الاقدام على

أي سياسة تضر بالمصالح العربية الفلسطينية. لكن الرئيس الاميركي، بخصوص هذا البند الفلسطيني، لم يف بوعده إذ كان يحث الصهيونية للاسراع بتنفيذ مشاريعها في الاراضي الفلسطينية وخاصة لجهة الاستيطان الصهيوني في فلسطين. ومن جانب آخر، تمكنت الولايات المتحدة من التغلغل في ايران بعد الضغوط التي مارستها ضد الاتحاد السوفياتي لابعاده عن ايران حتى إصدار قرار مجلس الامن في ١٩٤٧ الذي طالب بانسحاب السوفيات من شمالي ايران.

وقد رسمت الولايات المتحدة استراتيجيتها لغزو العالم اقتصاديًا إثر زوال خطر اليابان عن هذا المعترك وانشغال اوروبا الغربية بمشاكل ما بعد الحرب الثانية. فلم يبق امامها إلا مواجهة العملاق الصاعد: الاتحاد السوفياتي. فقامت بتشكيل احلاف عسكرية لمواجهته، فأقامت الحلف الاطلسي، وحلف بغداد، وحلف جنوب شرقي آسيا وحلف القارة الاميركية. وكانت السيطرة على مواد الطاقة وفي مقدمتها النفط هي مآلها الاول. ولما كانت اقطار الخليج هي موطن النفط الاول في العالم، لهذا ركزت الادارة الاميركية على بسط نفوذها على هذه المنطقة حتى أصبحت في ذلك غير آبهة بموافقة حليفتها بريطانيا متخذة قراراتها بشأن الخليج العربي مستقلة عن المواقف البريطانية، واعتبرت قضية النفط ذات علاقة مباشرة بأمنها القومي. وهي ترى ان الخليج يقع قريبًا من السوفيات، فحرصت على توطيد مركزها في منطقته بادئة بأولى عمليتها الاستراتيجية الكبرى، ألا وهي ضمان عدم سقوط الحكم الايراني بيد عناصر مؤيدة للاتحاد السوفياتي، ثم توفير أقصى درجات الدعم لنظام الشاه حتى سقوطه.

السوفيات: بدأ الروس بالبحث عن موانيء في المياه الدافئة منذ عهد بطرس الأكبر، وكان اهتمامهم يتركز اولاً على البحر الاسود المنفذ للوصول إلى المياه الدافئة ثم المرور من خلال المضائق التركية. وقد تمّ لهم ذلك خلال معاهدات عديدة كان آخرها معاهدة مونترو Montreux في ١٩٣٦ حيث سمح بمرور البواخر التجارية والحربية للاتحاد السوفياتي ولبقية سفن المجموعة الدولية. وفي ١٩٣٩، وقعت اتفاقية بين الاتحاد السوفياتي والمانيا (مولوتوف وزير الخارجية السوفياتي وريبنتروب وزير الخارجية الالماني)، وقد عبر فيها السوفيات عن الرغبة في الحصول على مجال نفوذ جنوبي باطوخ وباكو «في الاشراف العام على الخليج».

وفي ايلول ١٩٤١، تم الاتفاق بين الجانبين، السوفياتي والالماني، على تقسيم النفوذ في الشرق الادنى، وتناول منطقة الخليج العربي. وجاء في الاتفاق بان المناطق الواقعة إلى شمالي بغداد وإلى البحر المتوسط تصبح مناطق نفوذ المانية، بينما اعتبرت المناطق الواقعة إلى الجنوب من بغداد باتجاه الخليج مناطق نفوذ سوفياتية. ولكن الاتفاقات ظلت حبرًا على ورق و لم يكن لها أي أثر بعد ان انقلب الطرفان على الاتفاق وخاضا حربًا طاحنة وبعد ان خسرت المانيا الحرب. ولذلك ظل الاتحاد السوفياتي بعيدًا عن الخليج، وكانت الدول، اثناءها، تعترف بالهيمنة البريطانية على الخليج؛ كما ظل، رغم خروجه أحد أقوى دولتين من الحرب الثانية، مجتمعًا مغلقًا ذو علاقات دولية محدودة معتمدًا على مصادره النفطية في صناعاته حتى وفاة ستالين (١٩٥٣).

بعد ستالين، اخذ الاتحاد السوفياتي ينشغل في برامج المساعدة الاقتصادية والعسكرية والزيارات والانتشار في الخارج والعلاقات المستندة إلى المعاهدات مع الحكومات. فطور العلاقات الاقتصادية والسياسية مع العراق خاصة بعد تأميم شركات النفط الاحتكارية الاجنبية، كما وثق علاقاته مع ايران، واجرى اتصالات مع اقطار

الخليج وأقام مع الكويت علاقات دبلوماسية. وهكذا اصبح الاتحاد السوفياتي، بحلول السبعينات، له المكانة الدولية وله من القوة العسكرية والاقتصادية ما تؤهله لمتابعة سياسته في المناطق الاكثر اهمية في العالم مثل منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي. وتتركز مصالحه في الخليج في الاعتبارات الامنية والسياسة الاقتصادية.

ومظهر التدخل السوفياتي (في الستينات والسبعينات ونصف العقد الاول من الثمانينات) بدا أكثر ما بدا عن طريق مساعدة المجموعات والاحزاب الشيوعية في اقطار المنطقة لتغيير النظم فيها، وضم بعض المناطق الغنية بالنفط في الاقطار المنحازة للسوفيات. وجنبًا مع جنب مع هذه المساعدات بذل العسكريون السوفيات قصارى جهدهم لتوسيع دائرة وجودهم العسكرية في الخليج والمحيط الهندي من خلال زيادة عدد القطع العسكرية البحرية في المنطقة وكذلك زيادة القواعد البحرية والبرية فيها.

فقد اقام السوفيات عدة قواعد بحرية: في عدن (اليمن الجنوبية) القاعدة الرئيسية للاسطول السوفياتي على مقربة من الخليج، وكذلك قاعدة «بين الجبلين» الجوية وقاعدة «التوامي» البحرية في اليمن الجنوبية ايضًا، وعدد من المطارات الحربية في جزيرة سوقطرة. وجاء احتلال الاتحاد السوفياتي لأفغانستان ليظهره كمنافس قوي للولايات المتحدة في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر.

أما على صعيد علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول الخليجية فقد تميزت بتوقيع معاهدة صداقة وتعاون مع العراق (٩ نيسان ١٩٧٢) بمبادرة من العراق، وكانت اتفاقية اقتصادية قد وقعت في ١٩٦٧ بين الجانبين لتطور مصادر النفط العراقية وبناء السدود واعمال الري وعدد من المشاريع الصناعية. واشترك الاتحاد السوفياتي خلال السبعينات اشتراكًا فعالاً في الصناعة النفطية العراقية لا سيما في تطوير حقل الرميلة الشمالي وايصال خط الانابيب إلى منطقة الفاو بالاضافة إلى تسهيلات التخزين والاحواض لناقلات النفط. وكان الاتحاد السوفياتي المصدر الرئيسي والوحيد لاسلحة الجيش العراقي منذ اواخر الستينات. ومنذ ١٩٦٨، قامت السفن بزيارات ودية إلى ميناء البصرة ودورية. وفي السبعينات انشأ العراق قاعدة بحرية في أم قصر بمساعدة تقنية سوفياتية.

ومع ايران، لم يسمح الاتحاد السوفياتي لروابطه السياسية القوية مع العراق ان تؤثر سلبًا على روابطه الاقتصادية مع ايران. ومنذ ان وقع الاتحاد السوفياتي مع ايران معاهدة ١٩٦٥ (الغى الامام الخميني هذه المعاهدة في ١٩٨٠) استمر في تقوية روابطه الاقتصادية مع ذلك البلد المجاور، وقد نصت هذه المعاهدة على مد خط انابيب من خوزستان إلى مدينة استارة على حدود قزوين لتزويد الاتحاد السوفياتي بالغاز الايراني. وكانت موسكو تتجنب التدخل في نزاعات الحدود العراقية الايرانية والخلافات العربية الايرانية الاقليمية في الخليج لا سيما شط العرب، ثم جزر ابو موسى والطنب... حتى الحرب الايرانية العراقية (حرب الخليج الاولى)، وذلك حرصًا على الثبات في سياسة استراتيجية تهدف في مجملها إلى ابعاد الجارة الجنوبية (ايران) عن موقفها المعادي تاريخيًا إلى موقف اكثر حيادًا في ميزان القوى الاقليمي.

بالنسبة إلى الدول الخليجية الاخرى، فإن الدولة الوحيدة التي ارتبطت بعلاقات دبلوماسية واقتصادية عادية مع الاتحاد السوفياتي هي الكويت. أما العلاقات السوفياتية-السعودية فقد تميزت بعداء سعودي تقليدي للشيوعية وللاتحاد السوفياتي. لكن في اواخر ١٩٧٨، وجه الزعيم السوفياتي بريجنيف رسائل إلى الحكومة السعودية يقترح عليها اقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين ويعرب فيها عن رغبة بلاده في شراء نفط من السعودية. ورحّبت المملكة العربية السعودية، وفي آذار ١٩٧٩ سمحت للخطوط الجوية الروسية

(ايروفلوت) بتسيير طائراتها عبر الاجواء السعودية في طريقها إلى صنعاء، وتوالت تصريحات المسؤولين السعوديين التي تنم عن طي صفحات العداء التقليدي. لكن العلاقات الدبلوماسية لم تتم إلا قبيل انهيار الاتحاد السوفياتي.

كان هذا المشهد العام للعلاقات السوفياتية-الخليجية إبان الحرب الباردة وحتى اواسط الثمانينات، أي حتى بداية ولاية الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف والبيريسترويكا التي أطلقها. ومع هذا التطور التاريخي الجذري (بل البنيوي) داخل الاتحاد السوفياتي أخذ النفوذ السوفياتي في العالم يتقهقر بسرعة حتى انتهى بصورة تامة مع انهيار الاتحاد السوفياتي. وتزامنت الأشهر الأخيرة من عمر الاتحاد السوفياتي مع حرب الخليج الثانية، فكان فيها تابعًا للسياسة الاميركية فاقدًا كل حول وقوة.

أمن الخليج
رؤى الاطراف الفاعلة

موضوع الخليج، بموقعه والصراع الدولي عليه وأمنه، من أكثر الموضوعات العالمية إثارة للتفكير السياسي والاستراتيجي، وتاليًا للكتابات التأريخية والسياسية والتحليلية والجيوبوليتيكية والاستراتيجية. وآخر ما وقعنا عليه هو في الحقيقة عصارة جهد استجمع الدراسات السابقة واضاف إليها تحليلاً لما كشفت عند الاحداث والنتائج التي جاءت بها حقائق التغيير الدولي في السنوات الأخيرة وفي طليعتها انهيار الاتحاد السوفياتي وحرب الخليج وزوال الثنائية القطبية. انه دراسة بعنوان «الخليج العربي في عالم متغير-دراسة في معضلة الامن الخارجي وترتيباته» كتبها د. سعد ناجي جواد، استاذ في كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد، ود. منعم صاحي العمار رئيس وحدة الدراسات الاستراتيجية في كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد («السياسة الدولية»، العدد ١٢٥، تموز يوليو ١٩٩٦، ص ٢٦-٤٨)، ومنها نقتطع، وبتصرف، «الرؤية المحلية»، و«الرؤية العراقية»، و«الرؤية الايرانية»، و«الرؤية الاميركية»، و«مناقشة (١) ما هو مطلوب». أما «قاعدة دييغو غارسيا» فمرجعها «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج ٢، ط ١، ص ٧٦٣، و«النشرة الاستراتيجية» الصادرة عن مركز العالم الثالث للدراسات والنشر في لندن، ١٠ نيسان ١٩٨٠، ص ٦ و«حرب الخليج أول حرب معلومات» من «الحياة» عدد ١٢٢٧٣، تاريخ ٢ تشرين الاول ١٩٩٦، ص ١٦. وأما العنوان الأخير في هذا الباب، أي «مناقشة (٢) النزاعات في المستقبل» فهو خاتمة دراسة شهرام شوبين، مدير الابحاث في معهد دراسات السياسات الامنية، جنيف، الذي

نشرته مجلة «الدراسات الفلسطينية»، عدد ٢٧، صيف ١٩٩٦، ص ٤٨-٤٩.

الرؤية المحلية (رؤية دول الخليج العربي):
منذ الانسحاب البريطاني والدول الخليجية تبحث عن امنها بين تياري المقاربة والاعتماد على الذات. إلا ان ضعف المناعة الامنية لها اضاف ثقلاً جديدًا لكاهلها. فإذا كان النفط دالة لأطماع القوى الكبرى فإن ضعف المناعة الامنية قفزت لتكون دالة جديدة لأطماع القوى الاقليمية. وقد شكل عام ١٩٧٩ علاقة بارزة في تاريخ الادراك للحال حيث تحولت الانظار باتجاه ترصين فعل محلي بالامن. فالفواعل الاقليمية بعد سقوط الشاه بدأت تثير الافعال والنوايا على نحو الاهتمام الذاتي للامن. كما ان القوى الدولية أخذت تنأى نوعًا ما عن التورط في نزاع او خلاف محلي خشية التهاب المنطقة التي انشغلت بقضايا التوازن من جهة وانشغال العراق وايران بالحرب من جهة اخرى والتي اعطت بدورها دول الخليج قوة دفع باتجاه بناء فعل جماعي فظهر مجلس التعاون الخليجي الذي كان الهدف الاساسي منه بناء إدراك أو حلف أمني للقوى الضعيفة من خلال تأسيس شبكة دفاع مشترك ضد أي تهديد خارجي. لكن المحاولة وإن كتب لها النجاح في مسقط في ١٩٧٦، إلا انها لم ترَ النور إلا في ١٩٨٠ بفعل تهديدات جدية استدعت بروزه وبظرف عربي ودولي ملائم. وهكذا بدأ الفعل المحلي يأخذ شكله المؤسسي مستبعدًا العراق لأن وجوده يعني فتح الباب امام الدخول الأيديولوجي. وبهذ أصبح مجلس التعاون الخليجي معلمًا أمنيًا، بدلالة:

- توأمة مدركات الأمن الخاصة ببناء جهد أمني مشترك قائم على اساس الحماية الجماعية بالتساوي مع ما توسسه الروابط الدولية من دعم.
- ضرورة تحقيق اندماج اقليمي في المجالات المختلفة والتي تتطلب تعاونًا امنيًا.
- معالجة التهديدات الداخلية والاقليمية بجهد جماعي عبر ما ينشأ من مؤسسات حيث مجالس وزراء الداخلية، الخارجية والدفاع.

إلا ان التجربة المتحققة عبر الزمن اللاحق لولادة المجلس في ١٩٨٠ كشف عن:

- تعدد الرؤى الامنية للاطراف المكونة للمجلس.
- ارتباط المصالح الخليجية بالمصالح الاقليمية والدولية لا سيما الغربية منها.
- استمرار (واحيانًا ظهور مستجد) الخلافات الثنائية وخاصة ما يتعلق منها بالحدود بين الدول الخليجية (البحرين-قطر على سبيل المثال الابرز).

بالمقابل، حددت احداث أزمة الخليج الحاجة إلى:

- بناء قوة عسكرية ذاتية محلية موحدة، تحقق ردعًا عاليًا لحماية أمن الخليج من الاخطار القادمة.
- حل جميع الخلافات الخليجية بالطرق الدبلوماسية لا سيما الحدودية منها.

الرؤية العراقية: من يتتبع تاريخ التوجه العراقي نحو ا لخليج بعد الانسحاب البريطاني منه يلاحظ ان الرؤية العراقية للأمن في الخليج تنطلق من منظور سياسي-أيديولوجي. فالعراق يرى ان الامن الخليجي جزء لا ينفصل في تحقيقه عن الامن القومي العربي. لذا فهو يدعو إلى:

- الحفاظ على عروبة الخليج عبر طرح ايديولوجي قومي. وقد بدأت ملامح هذه الدعوة بالظهور منذ احتلال ايران للجزر الثلاث. وتداعت عبر مشاريع شاملة خلال السبعينات إلا انها توضحت بشكل أكبر في ١٩٨٠ مع اعلانه للاعلان القومي الذي جاءت مفرد‌ا ته شاملة لتعزيز عروبة الخليج من خلال دعوته إلى انسحاب جميع الاساطيل الاجنبية منه. كما جاء ليشيع الثقة بين

اطرافه من خلال رفض اللجوء إلى القوة لحل المنازعات العربية (لكن العراق انقلب على هذا الاعلان في هجومه على الكويت الذي أدّى إلى حرب الخليج الثانية).

– العمل على صيانة الامن في الخليج اقليميًا. ونرى ذلك واضحًا في سبق العراق بدعوته للاقطار الخليجية لتأسيس مجلس التعاون الخليجي أو بدعوته لانشاء قواعد منظمة للحال والعلاقة لا سيما في تنظيم حرية الملاحة، استخدام النفط كثروة قومية، تكملة حلقات الانسجام الامني بين مفردات الامن القومي من حيث مقومات قوته وبما يعزز الوجود العربي في الخليج.

– العمل على التحذير من رهن مستقبل الامن في الخليج بالامن الدولي.

بذلك، وضع العراق نفسه في نقطة تصادم مع حلقات الأمن الاقليمي والعالمي؛ وقد انتبه مؤخرًا (إثر حرب الخليج) واخذ يحث الخطى لمراجعة مفاهيم الامن السائدة في المنطقة لتخرج قيادته بضرورة إتباع الاسلوب الانفتاحي كقناة وحيدة لممارسة الدور في الخليج كجزء من جهده في إعادة التكيف اللازم مع الحالة الجديدة لا سيما وان العامل الجيوبوليتيكي يعمل لصالحه. وذلك يتطلب نبذ التطرف الايديولوجي لصالح بناء تدابير ثقة مع النظم الخليجية عبر ترتيبات ثنائية أو جماعية. فأصبح التصور العراقي للأمن في الخليج يقوم على ضرورة:

– تنقية الوجود الاجتماعي عبر فسح المجال امام العمالة العربية للعمل في الخليج بدلاً من العمالة الاجنبية التي يجب ان تخضع لاجراءات صارمة في الهجرة والتجنس. وهكذا لوح العراق بحقيقة مهمة مفادها ان الامن في الخليج هو أمن شعوب مثلما هو أمن منطقة بالكامل.

– رفض التحالفات العسكرية والتكتلات الاقليمية الداعية لربط اقطار الخليج باستراتيجيات القوى الكبرى على حساب الارتباط بالأمن القومي العربي.

– وضع ضوابط تؤمن حرية الملاحة في الخليج لا على اساس قواعد المرور البريء.

– إقامة علاقات ثقة واحترام متبادل تقوم على اساس احترام السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

– التخلي عما يسمّى تصدير الامن أو استعارته، كما هو الحال مع المسعى الايراني في «تصدير الثورة».

– تشجيع المنهج الوظيفي كاسلوب للتعامل الاقليمي لا سيما في المجال الاقتصادي والثقافي.

الرؤية الايرانية: لقد شكل الاهتمام الايراني بمنطقة الخليج جزءًا من الحياة الاقليمية البحرية الايرانية، ولأسباب نفطية واستراتيجية وتوسعية اهتمت ايران بكل تفاصيل الحياة اليومية للخليج العربي. وتبعًا لذلك تميزت سياسة الشاه بالتدخل العلني بالشؤون الداخلية للاقطار الخليجية تمهيدًا لفرض السيطرة على الاقليم تبعًا لنظرية المجال الحيوي التي حكمت التوجه الايراني والذي طبق بصيغة احتلال عسكري وتهديدات مستمرة وتأدية لدور شرطي الخليج تغاضى الغرب عن الكثير من افعال الشاه التوسعية. ولم تتبدل مسلمات التوجه الايراني نحو الخليج بعد رحيل الشاه. فما زالت حمى السيطرة وتصدير الثورة ذات فاعلية كبيرة. وقد تمحورت الرؤية الايرانية للأمن في الخليج حول: «إقامة منظمة دفاع اقليمي، حزام أمني خليجي، وإخلاء المنطقة من الوجود الاجنبي» على ان يؤخذ بالاعتبار جعل خليج عمان خارج نطاق أي ترتيب خليجي، وذلك للاستئثار بالسيطرة عليه بصورة قوية.

ولكن هذه الرؤية اصيبت بالتذبذب تبعًا لما تفرضه الاوضاع الاقليمية وطبيعة السياسة الايرانية التي تدنت فعاليتها بعد انتهاء الحرب

العراقية-الايرانية حيث حجمت الاداة المنفذة (القوة العسكرية). ولكن هذه الرؤية عادت مؤثرة من جديد بعد ان استفادت ايران من نتائج ازمة الخليج وحربها، فوجدت ايران فرصة التكيف من جديد في اقليمها بعد عزلة سنين طويلة مع احتفاظها بفعلها باثارة مشاكل (ابو موسى، المرور الحر، الجرف القاري). كما وفرت لها ازمة الخليج فرصة التمسك بزمام المبادرة حيث اقامت علاقات مع دول الخليج.

إلا ان الوجود الاجنبي في الخليج فرض على ايران الانكفاء، لما شكله هذا الوجود من كابح لها، وليبعدها عن أي مشاركة في الترتيبات الامنية في المنطقة. الامر الذي جعلها تسعى إلى:

- إعادة بناء ملامح هويتها الاقليمية كخطوة مقصودة لتجديد الدعوة لدور امني في الخليج.
- إعادة الاندفاع نحو التسلح تبعًا لما يتطلبه الدور من قوة تأثير. فايران لا يمكن لها ان تتنازل عن كونها قوة عاملة وفاعلة في الخليج والمحيط الهندي.

وإزاء ذلك دأبت ايران على تحديد رؤيتها الامنية في الخليج بعد ١٩٩٠ والتي تتلخص في ان:

- امن الخليج يجب ان يكون من مسؤولية دوله.
- تنمية العلاقات الثنائية مع دول الخليج.
- تأكيد نيتها في إظهار نفسها كقوة اقليمية.
- فرض نفسها كداعية لسيادة التيار الاسلامي ونموه، متوسلة وسائل عديدة، منها تشجيع الهجرة إلى دول الخليج أو بث الدعاية فيها، وربما التدخل بشؤونها الداخلية وفرض رؤيتها بهذا الصدد.

الرؤية الاميركية: للأهمية الكبيرة التي يحتلها الخليج، سعت الولايات المتحدة إلى جعله منطقة لنفوذها واحتواء أي فعل مضاد لمصالحها. وهذا التوجه أصبح من ثوابت السياسة الاميركية على الرغم من تعاقب اداراتها. ويمكن رصد اربع مراحل للرؤية الاميركية:

١- المرحلة الاولى ١٩٤٧-١٩٦٨:

في هذه المرحلة وجدت الولايات المتحدة ان عليها إبعاد النفوذ السوفياتي من الوصول إلى المياه الدافئة (الخليج العربي) متوسلة العديد من الخطوات، منها:

- إقامة منطقة عازلة بين الاتحاد السوفياتي والخليج العربي.
- تشجيع الاطراف الخليجية على إقامة جسور معها لاحتواء محطات الفعل السوفياتي الاقليمية.
- الاصرار على ان تكون مهمة العبء الدفاعي الاساسي ضد الاتحاد السوفياتي من نصيبها، وتترك لبريطانيا وفرنسا مهمة تدبير أمر النزاعات في الشرق الاوسط.

٢- المرحلة الثانية ١٩٦٨-١٩٧٩:

بدأت ملامح هذه المرحلة بالتبلور مع الاعلان البريطاني بالانسحاب من الخليج العربي. فبدأت الولايات المتحدة تسعى لاتخاذ الاجراءات اللازمة والتي من شأنها تقوية نفوذها وتقليل تكاليف الحفاظ عليه. فعمدت إلى اتباع اساليب متعددة منها «مبدأ نيكسون» الذي جاء بسياسة المشاركة الاقليمية التي لم تجد نفعًا بعد حين، فحلّت محلها سياسة التدخل المباشر في الخليج. وللولايات المتحدة في ذلك اسباب مختلفة ومتنوعة وهي:

- رغبتها في جعل الخليج بحيرة مغلقة لنفوذها.
- احتواء المنطقة على احتياطي كبير من النفط ينبغي حيازته وتأمين الحماية له عن طريق تقوية وجودها العسكري. فمنطقة الخليج العربي «هي ثالث منطقة رئيسية في العالم بالنسبة إلى

مصالحنا الامنية الحيوية. فهي إلى جانب اوروبا الغربية والشرق الاقصى تشكل بناءً امنيًا متكاملاً ولنا مصلحة اساسية في ضمان أمن هذه المنطقة والذود عن استقرارها».

وقد ظلت الولايات المتحدة مصرة على تطبيق رؤيتها الداعية لضرورة توسيع وتدعيم علاقاتها مع دول الخليج والتي وصلت إلى مرحلة الارتباط الامني الكامل بما يتناسب مع مهمات امنها (الولايات المتحدة) القومي.

٣- المرحلة الثالثة ١٩٧٩-١٩٩٠:

إزاء سقوط الشاه وخروج ايران من الحظيرة الاميركية وما فرضته تجليات الغزو السوفياتي لأفغانستان وللحسابات الاميركية الداعية إلى ضبط النفس إزاء انحسار النفوذ الاميركي في ايران، تبدلت صيغة التعامل لصالح الارتباط الكلي. فقد عبر بيان كارتر (١٩٨٠) عن هذه الصيغة مؤكدًا مزاوجة مبدأ الاحتواء مع المشاركة الاقليمية، حيث نص على ان المصالح الاميركية في الخليج لا تقل أهمية عن المصالح الاميركية في اوروبا الغربية. لذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديدًا للولايات المتحدة. وهكذا أصبح الخليج العربي سلاحًا مسددًا بوجه الاتحاد السوفياتي والقوى الاقليمية المقلقة للولايات المتحدة. وزاد الرئيس الاميركي ريغان إلى بيان كارتر بقوله: «إذا نجحنا في جعل الخليج منطقة مغلقة فإن السوفيات يسعون إلينا، لا نحن الذين نسعى إليهم». فسعى ريغان إلى تكثيف الوجود العسكري وبشكل لافت للنظر كاستجابة سريعة لتزايد التهديدات التي تتعرض لها المنطقة؛ ودعا إلى إنشاء قيادة مركزية مهمتها تطبيق مبدأ كارتر والتحسب لأي تهديد خارجي اقليميًا كان ام دوليًا. وذلك عن طريق استخدام قوات الانتشار السريع التي أوكلت لها مهمة تحقيق ذلك.

٤- المرحلة الرابعة بدءًا من ١٩٩٠:

تكونت الملامح البدائية لهذه المرحلة بفعل دواع عديدة يمكن إجمالها بـ:

- التشدد الذي اصاب نظرة الولايات المتحدة للخليج العربي. حيث أصبح الخليج أعقد مهمة في أمن الولايات المتحدة: «إن الدائرة التي تضم قلب المصالح الحيوية الاميركية تقع في منطقة الخليج ذات الطابع الاستراتيجي-النفطي. فهي إذن دائرة القلب ومن يسيطر على نفطها يسيطر على العالم» (من دراسة اصدرها معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية تحت عنوان «البناء من اجل السلام»، ١٩٩٢).

وقد كان لهذا التشدد اثر في تهميش قضية الصراع العربي-الاسرائيلي على عكس ما كان الوضع في الثمانينات وقبلها. ولأجل الحفاظ على ذلك طرحت الولايات المتحدة تصوراتها في جعل المنطقة آمنة. ولن يكون ذلك، وكما ذكر بريجنسكي، إلا باقامة ترتيب اقليمي أمني تحت المراقبة، واعادة عملية توزيع الثروة الاقليمية من خلال تشجيع بوادر التعاون الاقتصادي بين جميع دول المنطقة والتحرك الجاد نحو سلام عربي-اسرائيلي... و«على الولايات المتحدة مهمة تحقيق تلك الاهداف الثلاثة معًا» (بريجنسكي، مستشار الامن القومي للرئيس الاميركي، وكان طرح ذلك في ١٩٧٩).

- ما تمر به المنطقة من اضطرابات اقليمية ناتجة اساسًا عن التهديدات الايرانية واختلال موازين الامن المتوازن لصالح العراق، والتوجس الكبير إزاءه ترافق مع التصور المتحقق لدى الولايات المتحدة عن ضعف المناعة الامنية لدول الخليج العربية (قياسًا على العراق). لذا سعت الولايات المتحدة إلى الاعلان عن استعدادها لاستخدام القوة العسكرية لتأمين مصالحها من أي تهديد.

- انحسار النفوذ السوفياتي (ثم تقوقعه داخليًا)، الامر الذي فرض على الولايات المتحدة التوجه لملء الفراغ العالمي تبعًا لمنهجها الداعي

لضرورة التمسك بنظرية الدومينو لمد وبسط هيمنتها على العالم أجمع لا سيما الخليج العربي.

من هنا بدت النظرة الاميركية للامن في الخليج مستندة على قاعدة مهمة مفادها مواءمة المصالح الاميركية في الخليج مع مقومات امنها القومي حيث الاقتضاء بتعميق السيطرة الكاملة على الخليج من خلال:

– تركيز التواجد العسكري الدائم والمؤقت في الخليج ردعًا للتهديدات المحتملة وتأمينًا لتدفق امدادات النفط وتدعيمًا لحرية الملاحة.

– ضرورة تحمل العبء الامني في الدفاع عن الخليج لتثبت (الولايات المتحدة) انفراديتها ولجعل الخليج منطقة نفوذ مغلقة، على الرغم مما تظهره (الولايات المتحدة) وتبديه من حاجتها لاجماع اوروبي لمساندتها في مهمتها. وهذا ما تحقق ابان ازمة الخليج.

– ضرورة التأكيد على أهمية الاطراف الاقليمية: «إن أهمية السعودية بالنسبة إلينا ازدادت إلى درجة يمكن مقارنتها بأهمية العلاقة مع بريطانيا وألمانيا... لقد أصبح السعوديون شريكًا رئيسيًا لنا... فالسعودية تمدنا بعشر استهلاكنا النفطي يوميًا» (إدوارد سعيد وآخرون، «حرب العالمين الاولى»، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، شركة الارض للنشر، عمان، ١٩٩١، ص ٧-٢٧). ولم تسقط اميركا ايران من حسابها تحسبًا للمستقبل. فقد دعا هنري ماكبس من لجنة الطاقة في الكونغرس إلى «عدم اسقاط دور ايران... وفسح المجال امامها للتسلح شرط ان تبدي اعتدالاً محسوبًا» (من صحيفة الشعب الاردنية، عدد ٣ تموز ١٩٩٣).

– السعي لانهاك القوى البازغة اقليميًا والتي لم تحسب كدول صديقة أو مساندة اقليميًا، كالعراق وايران، وبدرجات متفاوتة.

– زيادة ربط الامن في الخليج بالامن الاميركي. وقد وضح ذلك من خلال الاتفاقيات الثنائية التي عقدتها مع الكويت والبحرين وقطر.

– ضرورة الاهتمام بنظم المنطقة حماية لها من تغيير اجتماعي ومضاعفاته.

قاعدة دييغو غارسيا: قاعدة عسكرية استراتيجية اميركية-بريطانية تقع في جزيرة دييغو غارسيا على بعد حوالي ١٦٠٠كلم جنوبي الهند ونحو ٣٧٠٠كلم من مدخلي الخليج العربي والبحر الاحمر الجنوبيين. وتؤلف الجزيرة جزءًا من «منطقة المحيط الهندي البريطانية» وارخبيل شاغوس التابع للحكم البريطاني المباشر. تبلغ مساحة الجزيرة ٢٨كلم م.، ولا يتجاوز عدد سكانها ٥٠٠ نسمة، في حين يبلغ إجمالي سكان ارخبيل شاغوس نحو ١٢٠٠ نسمة، معظمهم من صيادي الاسماك.

منذ ١٩٦٥، أصبحت الجزيرة نقطة حساسة في الاستراتيجية الدولية، إذ اتفقت بريطانيا والولايات المتحدة في ذلك العام على إنشاء قاعدة مشتركة فيها. وفي كانون الاول ١٩٧٠، اعلنت لندن ان البدء بانشاء القاعدة سيباشر في ١٩٧١، واعتبر ذلك بمثابة رد على القنبلة النووية الصينية (١٩٦٥) وتنامي الوجود السوفياتي في المحيط الهندي الذي تصاعد بشكل خاص بعد الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة (١٩٦٧). وقد تمّ تركيز محطة رصد الكترونية اميركية في الجزيرة في ١٩٧١. وفي ١٩٧٦، وافق الكونغرس على مشروع عام لتطوير وتوسيع المنشآت والتسهيلات في الجزيرة. وبالرغم من ان كلا من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة قد أقر مبدئيًا اعتبار المحيط الهندي منطقة منزوعة من السلاح في ١٩٧٧، فقد استمرت الولايات المتحدة في تطوير القاعدة التي سمحت لها بالتخلي عن قاعدتها الكبيرة في اريتريا (كانيوستيشن). ولقد زادت أهمية القاعدة بالنسبة إلى الولايات المتحدة بعد إعادة فتح قناة السويس للملاحة في ١٩٧٥، نظرًا لأن فتح القناة جعل من السهل على

الاسطول السوفياتي الانتقال بسرعة كبيرة من البحرين الأسود والمتوسط إلى المحيط الهندي. وبعد ان اتخذت وجهة الاهتمامات الاميركية في المنطقة (خاصة في الخليج، رأس الاولويات الاميركية) منعطفاً جديداً خلال ١٩٧٩، تحول موقع دييغو غارسيا من مجرد محطة اسناد وتجميع مرحلية Staging-area إلى قاعدة اساسية يمكن الارتكاز عليها من اجل دعم قوات التدخل السريع التي كان يتم تحضيرها والتي جرى كلام واضح أن على رأس اهدافها الخليج العربي.

حرب الخليج الثانية اول حرب معلومات: يعتبر الخبراء الاستراتيجيون هذه الحرب «اول حرب معلومات في التاريخ». فالمعلومات في هذه الحرب المستمرة منذ أكثر من ٦ سنوات «كانت كل شيء... هي السياسة والحرب والقتل والقتال والصدق والكذب والحق والباطل والنصر والهزيمة»، وفق تعبير الدكتور كرم شلبي مستشار اللجنة العليا للاعلام الحربي للقوات المشتركة وادارة شؤون العمليات في حرب الخليج. وقد قدم شلبي جداول إحصائية كثيرة تكشف ان الاعلام الاميركي كان هو مصدر أكثر من ٨٠٪ من التغطية الاعلامية العربية.

وتبدو القوة المباشرة لحرب المعلومات (في الخليج) في عملية «حاضنات الاطفال» التي نظمتها شركة «هيل أند نولتن» (Hill and Knowlton) وهي من أكبر شركات العلاقات العامة الغربية. نالت هذه الشركة عن هذه العملية التي ادعت فيها ان الجنود العراقيين انتزعوا المواليد من «حاضنات الاطفال» في مستشفى الكويت ١٠٠ مليون دولار. ويعرض ماكارثي، وهو ناشر مجلة «هاربرز» في فصل خاص بهذه العملية عنوانه «بيع الاطفال» كيف أفلحت اساليب حرب المعلومات في فتح ابواب مجلس الامن الدولي لأول مرة في تاريخه لشركة علاقات عامة، وكيف تواطأت منظمة العفو الدولية Amnesty International في تحويل هذه القضية المزيفة إلى أقوى حجة لشن حرب الخليج.

هدف حرب المعلومات هو «تشكيل العقل العام» وفق تعبير رئيس قسم ا لاعلام في جامعة الازهر الدكتور شلبي الذي توفرت له فرصة نادرة في العمل مستشاراً للجنة العليا للاعلام الحربي للقوات المشتركة وإدارة شؤون العمليات في حرب الخليج. يقارن شلبي، في كتابه «الاعلام والدعاية في حرب الخليج» تداخل المعلومات والدعاية. ويذكر: «إذا قيل بأن الفارق بين الاعلام والدعاية هو ان الاعلام يسعى إلى تقديم الحقيقة مجردة بينما تسعى الدعاية إلى التأثير في رأي الجماعة وسلوكها فان الانتقاء المتعمد للاخبار وتوظيفها على نحو معين بصياغة أشكالها أو محتواها، يجعلها تحقق نفس الاهداف التي يسعى إليها رجل الدعاية، ومن ثم تصبح اعلامًا لخدمة اهداف مقصودة واعلامًا لتشكيل العقل العام لخلق رأي عام مؤيد أو معارض لقضية ما أو لموضوع ما أو لشخص ما أو لفكرة ما. ومن ثم تختلط وظيفته في هذه الحال بوظيفة الدعاية ويتشابه معها تشابهًا كليًا».

وفي تقويم الدور الاميركي في حرب المعلومات في الخليج يتوصل الدكتور شلبي وهو يتابع حرب المعلومات من مكاتب ادارة شؤون العمليات، إلى استنتاجات مماثلة للاستنتاجات التي اوردها في مقدمة كتاب «الجبهة الثانية» الدكتور بين باغديكيان، استاذ وعميد كلية الصحافة في جامعة بيركلي في كاليفورنيا وواحد من ألمع خبراء الاعلام الاميركيين. يذكر شلبي: «وعندما نتحدث عن اعلام اميركي في هذا المجال فإننا نتحدث في حقيقة الامر عن «سياسة» اميركية، ذلك لأنه إذا كانت السياسة قد وظفت لخدمة الحرب فإن الاعلام قد وظف لخدمة السياسة وخدمة الحرب في آن واحد، ومن ثم كان بمثابة ترجمة للسياسة واداة من ادواتها... وكان المخطط السياسي هو

المخطط الاعلامي في اهدافه ومنطلقاته وإن كان قد اختلف في اساليبه وفنونه ووسائله وادواته بطبيعة الحال».

مناقشة (١) ما هو المطلوب؟: بعد الانكفاء النسبي لمواجهة التهديدات الخارجية والتي املتها الظروف عادت دول الخليج العربية تقلب همومها ا لامنية لتجد نفسها امام محنة جديدة تستوجب منها بداءة ان تمتلك تصورًا لما سيكون عليه الحال في الخليج لكي تحدد بعد ذلك الخطوات اللازمة للعمل الجماعي. وإزاء مهمة كهذه يجب على دول الخليج ان تبتلع الكثير من الجرعات المرة حتى تصل إلى حقيقة أمنها ومنها:

أولاً: ان تحدد إدراكًا أمنيًا مشتركًا لما يمر به الخليج العربي من ظروف وتداعيات. وهذا الادراك ينبغي ان يُبنى على:

– تحقيق درجة مقبولة من كفالة مشتركة للامن.

– السماح للقوى الاقليمية الكبرى بالاندماج لخلق تصور امني موحد.

– تدعيم الفعل الجماعي الخليجي لأنه الطريق الوحيد لاتمام شروط المنعة الامنية. فمجلس التعاون الخليجي، وعلى الرغم مما ناله من قصور، يمثل مفتاح الفعل المستقبلي لدول الخليج بشرط بناء علاقات ثقة بين اطرافه وتحديد مراكز القوى الفاعلة وتطبيع صيغة اتخاذ القرار الجماعي حيث المرونة الكافية والحركة المقبولة للاطراف تلافيًا لأي فعل غير مقبول. علاوة على أهمية تعزيز الجهد العسكري من خلال إقامة المشاريع المشتركة فضلاً عن تعزيز شروط الدبلوماسية الشعبية لا سيما بين البرلمانات الوليدة ليكون المجلس بحق مجلسًا للأمن والتعاون.

– تعزيز الارتباط الامني بالنظام العربي وذلك من خلال الحاجة إلى إعادة التضامن العربي على أسس جديدة ونسيان مخلفات وإرهاصات الماضي.

ثانيًا: إقرار سياسات منفتحة للهجرة والجنسية: لقد كشفت حرب الخليج عن حالة مهمة وهي ان معظم العمالة في الخليج كانت عمالة اجنبية، وبسبب السياسات المتزمتة نقلت هذه العمالة بوصفها لصالح الاقطار الخليجية، ثم تبين انها تحولت إلى أداة للابتزاز. لذا وجب اتخاذ التدابير لتقليص عدد العمالة الاجنبية لصالح العمالة العربية وتعزيز مصالح هؤلاء العمال (بعض الدراسات تتحدث عن وجود نحو ٧ ملايين عامل أجنبي، اكثريتهم من الآسيويين، في اقطار الخليج العربية).

ثالثًا: تعميق المناعة الأمنية: إن تحقيق هذه المناعة يتم عبر الاهتمام الكبير بالجانب العسكري. فدول الخليج تمتلك فائضًا في العتاد العسكري لكنها تواجه نقصًا في العديد وفي اليد العاملة، مما يتطلب منها:

– توحيد خطوات مشتركة لتحقيق امن قائم على التفهم الصحيح للحالة المقبلة، الامن الاجتماعي.

– فرض الخدمة العسكرية الاجبارية إلى جانب الخدمة الطوعية.

– إعطاء إهتمام وافر للمشاريع الصناعية العسكرية المشتركة.

– تأسيس جيش مشترك تحت قيادة مشتركة واحدة.

رابعًا: قيام إصلاحات سياسية جذرية: لكي تتفادى دول الخليج اختلالاً امنيًا داخليًا عليها ان تهيء نفسها لاستغلال الطريق الديمقراطي على الأقل كحل للمدى المتوسط الذي سوف يشجع على التحرك من انظمة ملكية إلى دستورية. فاتباع اسلوب الشورى كبديل والمشاركة كجزء من تغيير ميكانيكية الفعل سيؤدي إلى وأد الاستقرار الداخلي في مرور الزمن. لذا ينبغي خلق تعزيز المؤسسات الاجتماعية وبما يحقق انتقالة هادئة

لآليات المجتمع المدني ولخلق استجابة معقولة لمسايرة التغييرات الدولية وافرازاتها حيث تطوير مؤسسات الحكم القائمة وتحقيق المشاركة السياسية واحترام حقوق الانسان والعمل على إيجاد حلول للمشكلات الحياتية منها.

خامسًا: صياغة سياسية نفطية جديدة: آن الاوان لدول الخليج لأن تدرك ان ضمانها الأمني يقتضي منها تقليل ضغطها على الجانب الاقتصادي في تحقيق الأمن. فالنفط بقدر ما يوفر لها أمنها بالتبعية، فهو داع للتهديد. لذا لا ينبغي الارتكان إليه. إلا انه من الممكن ان يكون عامل ضغط ومساومة بما يجعلها تتمتع بهيبة كبيرة. ومن هنا لا بد لها من تقنين تعاملها ثنائيًا وجماعيًا من خلال الاوابك والأوبك. كما ينبغي على دول الخليج ان تدرك ان ربط أمنها بالنفط سيعطي الفرصة عاجلاً أم آجلاً لتغييب فعلها وعزله عن الامن القومي العربي وبما يؤدي إلى تهميش الصراع العربي-الصهيوني.

سادسًا: إتباع سياسات واستراتيجيات لمعالجة الخلل الاجتماعي (مهاجرون أكثر من وطنيين)، وهذا يتطلب:

- اتخاذ قرارات حاسمة بشأن الهجرة الأجنبية والحد منها.
- تشجيع الخليجيين على الانخراط في مواقع العمل. فالتجربة التي تخوضها عُمان في هذا الميدان يمكن ان تكون دليل عملٍ جيد في هذا الاتجاه.
- تشجيع الاتصال مع العالم الخارجي بما يعزّز من انتقال التكنولوجيا لها (لأقطار الخليج العربي).

مناقشة (٢) نزاعات في المستقبل: على الرغم من وقوع حربين مؤخرًا (الحرب العراقية-الايرانية، حرب الخليج الاولى، وحرب التحالف الدولي على العراق بسبب غزوه الكويت، حرب الخليج الثانية)، فإن حدوث نزاعات في المستقبل أمر ممكن. فالحربان انتهتا بصورة غامضة وبنتائج بعيدة عن كونها حاسمة ومحددة. ففي كلتا الحالين، تورطت تحالفات خارجية واطراف ثالثة، الامر الذي أدّى إلى تأجيل تصفية الحساب الاقليمي. كذلك، فإن هاتين الحربين لم تقدما أية عِبَر واضحة المغزى. فبالنسبة إلى العراق، قد تكون العبرة ان يعمل بسرعة أكبر في المرة المقبلة بقدر ان تكون ان يتفادى استعداء القوى الخارجية. وبالنسبة إلى ايران، قد تكون العبرة في التركيز على الجهوزية العسكرية بما يجعلها تتفادى المفاجأة الاستراتيجية. فلا العراق ولا ايران يتقبلان النظام الاقليمي الراهن الذي بنته الولايات المتحدة لخدمة مصالحها وتقوية حلفائها على حسابهما. وكلتا الدولتين تتملكها مشاعر السخط، ولربما الثأر ايضًا.

إن الحربين الاخيرتين لم تنجحا في تحقيق الاتفاق بشأن توزيع القوة، ولم توضحا تراتبية القوة ولا المكانة النسبية لدول الخليج الكبيرة الثلاث (ايران، العراق، السعودية). إن غياب الوضوح أو المكانة الثابتة يشجع «الاختبار». لذا، فإن مستقبل الخليج سيكون على الارجح المزيد من الاختبار لميزان القوى وما يتبع ذلك من الازمات، مع تفادي الحروب الشاملة.

إن الفوارق الجغرافية-السياسية بين دول الخليج الثلاث تجعل التعاون امرًا صعبًا في افضل الاحوال. غير ان هذه الفوارق توجهها اختلافات عقائدية. وفي الوقت ذاته، فإن ما بقي من مطالب للالتفاف حول راية «القومية العربية» الممزقة يوسع رقعة النزاعات الثنائية (كالتي بين ايران ودولة الامارات بشأن الجزر)، فيضفي عليها صفة رمزية، ويوسع النزاع ليصبح نزاعًا عربيًا-ايرانيًا فيجعل تسويته معقدة.

إن دول الخليج ما زالت حديثة في ميدان الممارسة الدبلوماسية، وما تتطلبه هذه الممارسة من

المساواة والاخذ والعطاء والتحالفات المتغيرة باستمرار، والحاجة إلى التفاوض والمرونة. ولم تبن هذه الدول بعد منبرًا للتفاعل يضم جميع الدول المطلة على الشاطىء. إن الحذر المفرط قد عرقل إنشاء مؤسسة تتفاعل فيها دول الخليج كافة، وتقيم في ما بينها حوارًا سياسيًا على الاقل.

إن دول المجلس بحاجة إلى عدو مشترك لتبقى موحدة. والواقع ان جميع الانظمة في الخليج تستفيد من وجود قلاقل وشكوك اقليمية في ما يتعلق بسيطرتها السياسية على الداخل.

إن الاعتماد على قوة خارجية لتوفير الامن لا يمكن له ان يكون إلا قصير المدى في افضل الاحوال. ولهذا الاعتماد ثمن ليس بالزهيد في ما يختص بأهداف الوصي. وقد تتنامى الاخطار الكامنة في الاعتماد المفرط على قوة خارجية في ما يختص بالاصداء السياسية الداخلية لهذا الاعتماد. والحماية التي توفّر له قد لا تغطي الحالات الطارئة الأكثر احتمالاً.

إن التوقعات للمستقبل هي حدوث المزيد من الازمات، لكن ليس الحروب بالضرورة. فالدول الكبيرة الثلاث (ايران، العراق، السعودية) لا تتفق في ما بينها بشأن الوضع الراهن على الارض ولا بشأن ميزان القوى الاقليمي. ولهذه الدول تصورات متضاربة بشأن النظام الاقليمي. وتفترض اية قاعدة للتصرف الاتفاق بشأن المكانة النسبية لكل دولة من هذه الدول الكبرى، والاهتمام بالابقاء على الوضع الراهن.

هل عبثية الحرب تجعل الحرب أقل احتمالاً؟ نعم، إذا كان هذا الامر مقنعًا. هل تجعل هذه العبثية الوضع الراهن امرًا مقبولاً؟ نعم، إذا كانت البدائل أسوأ كثيرًا. هذا ما حدث مع مرور الزمن في النزاع العربي-الاسرائيلي، وهو لا ينطبق حتى الآن على الخليج، الذي يبقى لذلك في مرحلة سابقة لمرحلة الحد من التسلح.

مجلس التعاون الخليجي

الدوافع، إطار الاحداث الاقليمية: شهد الإطار الاقليمي لدول الخليج العربي (التي شكلت مجلسًا في ما بينها) خلال عقدين من الزمان عدة حروب طاحنة، كحرب تشرين الاول ١٩٧٣، ثم الحرب العراقية-الايرانية، ثم الحرب الاهلية اليمنية. كما شهدت الفترة الزمنية القصيرة السابقة على إنشائه الثورة الاسلامية في ايران وما نجم عنها من قلق بالغ في دول الخليج نظرًا للدعوة الايرانية لتصدير النموذج الايراني إلى الدول المجاورة. فإذا ما أضفنا البعد الدولي حيث تمثل المنطقة المصدر الاساسي للنفط، الأمر الذي اعطاها أهمية استراتيجية دولية عالية، ما يترتب على ذلك من ازدياد حجم مصالح القوى الكبرى في المنطقة، فإنه يمكن القول ان دول الخليج واجهت ضغوطًا شديدة نتيجة هذه الاحداث الاقليمية الكبرى، وهو ما كان حافزًا لها للتوصل إلى صيغة معينة للعمل الجماعي المشترك، تمثلت في مجلس التعاون الخليجي، من اجل الحفاظ على مصالحها أو تحقيق أكبر قدر من هذه المصالح. في هذا الاطار يمكن ان نفهم الكثير من دوافع إقامة هذا المجلس، وتاليًا من جوانب نشاطه بعد إقامته.

قيام المجلس وبنيته: «لقد اقترح الخبراء الغربيون، وخاصة الاميركيون منهم على السلطات المسؤولة عن التخطيط، قيام اقتصاد متكامل بين المملكة العربية السعودية ودول الامارات، يرتكز ليس على تنوع المصادر الطبيعية بل على تقسيم دولي للانتاج نابع عن ارادة اندماج سياسي للاقتصاديات الستة المعنية» («أمن الخليج»، عن مؤسسة الدراسات والمشاريع الانمائية ECOGROUP-France، بالتعاون مع المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية، ١٩٨٥، ص ٧٧).

مجلس التعاون الخليجي منظمة اقليمية أعلن عن تأسيسها في شباط ١٩٨١، وضمت في عضويتها كلاً من المملكة العربية السعودية، والكويت، وعمان، والامارات العربية المتحدة، وقطر والبحرين. وتدارست الدول الست، قبيل انعقاد قمتها التأسيسية الاولى مشاريع ثلاثة كانت قد طرحت عليها للتداول بصددها: مشروع كويتي ارتأى ان يجعل من هذا المجلس هيئة مشتركة للتعاون الاقتصادي في المقام الاول، وآخر سعودي ركّز على قضايا الأمن، وثالث عُماني لحظ إنشاء قوة خليجية مشتركة لحماية مضيق هرمز تحظى بالدعم اللوجيستي للقوات الأنكلو-اميركية.

كان المشروع النهائي الذي تمّ تبنيه في قمة أبو ظبي التأسيسية التي عقدت في ٢٥ و٢٦ ايار ١٩٨١ اقرب إلى المشروع الكويتي منه إلى المشروعين الآخرين، مع إدراجه قضايا الأمن ضمن صلاحيات المجلس. وقد أدان البيان الصادر عن هذه القمة وجود قوات وقواعد اجنبية في المنطقة.

تبنى الرؤساء الستة، في اجتماع القمة التأسيسية، بنية بسيطة للمجلس. فهناك على رأس المجلس «مجلس أعلى» يتألف من ملوك الدول الاعضاء وأمرائها الذين يؤمنون الرئاسة بالتناوب. وينفذ قراراتهم «مجلس وزراء الخارجية». وهناك ايضًا امين عام مركزه الرياض، ومعه معاونوه، موكول إليهم امر الاهتمام بالشؤون السياسية والاقتصادية وتنظيم نشاط المنظمة (المجلس)، مع تنظيم اعمال العديد من اللجان الموزعة في القطاعات الوزارية. ويجري التصويت بالاجماع على المسائل الجوهرية، كالامن والدفاع.

وقد انبثقت عن هذا المجلس ست لجان اقتصادية، لعل أهمها على الاطلاق لجنة النفط المكلفة رسم سياسة مشتركة في ما يتعلق باستثمار النفط وبتوزيعه وتحديد اسعاره. فالدول الخليجية الست الاعضاء في هذا المجلس تنتج ما يقارب من ٦٠٪ من مجمل ما تنتجه سائر الدول الاعضاء في منظمة الاوبيك. وقد نص النظام الداخلي لهذه الهيئة على ضرورة التقاء قادة الدول الاعضاء مرتين كل عام، على ان يجتمع وزراء خارجيتهم ثلاث مرات في العام الواحد. وقد اختيرت الرياض مقرًا لهذا المجلس، كما أسند منصب الامانة العامة، الولاية الاولى، إلى شخصية كويتية. اخيرًا، تم إنشاء لجنة للنزاعات مهمتها ايجاد حل للخلافات العديدة على الحدود القائمة بين الدول الاعضاء في مجلس التعاون الخليجي.

وقد استبعد العراق من عضوية هذا المجلس رغم انه دولة خليجية. والتفسير العميق لهذا الاستبعاد تمحور حول اسباب ايديولوجية، أما التفسير السياسي فقد دار حول رغبة الدول الخليجية المؤسسة عدم التورط في الحرب العراقية-الايرانية. وكان هذا المجلس قد ادان مرارًا هذه الحرب واتخذ مواقف مؤيدة للعراق.

أهداف المجلس: أعلن ميثاق مجلس التعاون الخليجي ان اعضاءه يشكلون «عناصر» الامة العربية، ويشدّدون مؤكدين على ان المجلس «يقوم على الايمان بوحدة المصير والاهداف لخدمة لاغراض الامة العربية السامية». وقد حدّد النظام الاساسي أهداف المجلس على النحو التالي:

- تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الاعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها.
- وضع أنظمة متماثلة في المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية والجمارك والمواصلات والشؤون التعليمية والثقافية والاجتماعية والصحية والاعلامية.
- دفع عملية التقدم العلمي والتقني وإنشاء مراكز بحوث علمية واقامة مشاريع مشتركة وتشجيع تعاون القطاع الخاص.

بداية مسيرة المجلس، قمة ما بعد التأسيس أو القمة الثانية: إن من بين الاجراءات التي تبناها زعماء القمة الثانية التي عقدت في تشرين الثاني ١٩٨٢، الاتفاق الاقتصادي الذي ينص على مجموعة متماسكة من التدابير منها، بنوع خاص:

- حرية العمل لجميع رعايا دول مجلس التعاون الخليجي، والعمل في أي دولة من هذه الدول، مع مراعاة الكفاءات المحدّدة (المحامون والاطباء والمهندسون، الخ...)، وذلك بدءًا من اول كانون الثاني ١٩٨٤.
- حرية تبادل جميع البضائع المصنعة والمنتجات المحلية، أو المواد الاولية المستوردة، في حال تعدّت كلفة الانتاج ٤٠٪ من اسعار المبيع، منذ أول آذار ١٩٨٣. ويطبّق القرار نفسه على المواد الغذائية التي تصنع من المواد الطبيعية والتي يكون قد تمّ انتاجها في دولة من دول الخليج الست.

وعلى صعيد الاقتصاد (الجمارك والنقد والتخطيط):

- توحيد التعرفات الجمركية بين السلع المستوردة من الخارج، وذلك خلال فترة خمسة اعوام بين حد أدنى نسبته ٤٠٪ وحد أقصى نسبته ٢٠٪ من الرسم القيمي.
- توحيد تعرفات الخدمات العامة (لقد تمّ إنشاء لجنة خاصة لهذا الغرض في ايار ١٩٨٣).
- تنسيق السياسات النقدية.
- تبني سياسة نفطية موحدة.
- التشاور لدى إنشاء صناعات مشتقة من المحروقات ضمن إطار استراتيجية تطوير مشترك.

وقد شكل وزراء التخطيط في نيسان ١٩٨٢ لجنة من الخبراء مهمتها وضع الاتجاهات الكبيرة. وبعد اجتماعات عديدة، قدمت لوزراء التخطيط وثيقة تمت الموافقة المبدئية عليها.

ودارت الخطوط الرئيسية لاستراتيجية التنمية لمجلس التعاون الخليجي حول الافكار التالية:

- تخطيط (وتحديد) مستويات الهيمنة النفطية على اقتصاديات هذه الدول، والعمل على التطوير الصناعي.
- تخفيض الايدي العاملة الاجنبية وتحسين اوضاعها.
- ارتباط هذين الحقلين ارتباطًا وثيقًا بسياسة اعضاء مجلس التعاون الخليجي المناهضة، عقائديًا، التطرف الاسلامي الايراني، على قدر ما تناهض الشيوعية الملحدة. والكويت وحدها كانت تقيم علاقات دبلوماسية مع موسكو ودول اوروبا الشرقية والصين الشعبية.

وكان الامن الداخلي (الوقاية وقمع الاضطرابات التي تغذيها دولة اجنبية كايران)، منذ تأسيس مجلس التعاون الخليجي، موضوع العديد من اجتماعات الوزراء المعنيين. وكانت الغاية من وراء ذلك تبني «اتفاق عام للامن الداخلي» يكون نوعًا من «الانتربول» الاقليمي، لتنظيم الهجرة وشروط العمل واصدار جواز سفر مشترك بين الدول الست. (كما تمّ توقيع اتفاقية اخرى للتعاون وتبادل المعلومات في مجال الامن الداخلي في ١٩٨٦).

تقويم مسار العقد الاول من عمر

المجلس: ثمة ما يعكس اقترابًا من اهداف المجلس، وآخر ما يعكس نوعًا من الابتعاد عنهـا بدرجة أو بأخرى. وكادت التحليلات ان تجمع على التقويم التالي:

نجح المجلس إلى حد كبير في تحقيق التنسيق والترابط بين الدول الاعضاء كما هي الحال خلال ازمة الخليج الثانية (أي بعد نحو عشر سنوات من تأسيس المجلس). كذلك، وقبلها، في ما يتعلق بأزمة جزر ابو موسى والطنب، وفي مجال التفاوض الجماعي مع المجموعة الاوروبية بشأن القضايا المتعلقة بالتبادل التجاري، كما تحقق هذا النجاح (نسبيًا وبدرجة معينة) في وضع تصور للمشاريع المطروحة لترتيب الاوضاع في المنطقة بعد التوصل إلى تسوية سلمية للنزاع العربي-الاسرائيلي. وتوصل المجلس إلى الترابط والتنسيق الكامل بين اعضائه بالنسبة إلى وضع تصور محدد للعلاقة مع كل من ايران والعراق (راجع تاليًا)، أو لاساليب التوصل إلى تحقيق المصالحة العربية وإعادة بناء العلاقات العربية-العربية (راجع تاليًا، «اعلان دمشق»).

وبالنسبة إلى الهدف الثاني المتمثل في وضع انظمة متماثلة في المجالات المختلفة، فإن المجلس قد حقق خطوات ملموسة في هذا الاتجاه، خصوصًا في المجال الاقتصادي والتجاري. فقد أبرمت الدول الست الاتفاقية الاقتصادية الموحدة لدول المجلس التي تنظم مسيرة التعاون الاقتصادي لهذه الدول، وتتركز على السعي لزيادة التبادل التجاري بينها، وحرية انتقال رؤوس الاموال والافراد وممارسة النشاط الاقتصادي والتنسيق الانمائي والتعاون الفني وتقوية خطوط المواصلات والنقل والتعاون المالي والنقدي. وقد ابرمت هذه الدول العديد من الاتفاقيات في هذا المجال التي بدأت تدخل حيز التنفيذ بالتدرج، بحيث يمكن القول إن دول المجلس قد قطعت شوطًا كبيرًا في السعي إلى التكامل الاقتصادي من دون الوصول إلى مراحله العليا بسبب:

- محدودية حجم التبادل التجاري بين دول المجلس. وقد ارجعت الدراسة الصادرة عن منظمة الخليج للاستشارات الصناعية هذا إلى تشابه الهياكل الاقتصادية بين الدول الاعضاء الامر الذي يؤدي إلى جعل اقتصادياتها متنافسة اكثر مما هي متكاملة.
- عدم التوصل إلى اتفاق حول الاتحاد الجمركي بين الدول الاعضاء الذي يتم بموجبه توحيد الرسوم الجمركية على السلع الاجنبية.
- عدم التوصل إلى حل نهائي بشأن إطلاق حرية تملك العقارات لكل الاغراض لمواطني دول المجلس في اراضي هذه الدول.
- عدم التوصل إلى توحيد القوانين المالية والتجارية والنظم المحاسبية.

أما الهدف الثالث المتمثل في دفع عملية التقدم العلمي والتقني، اتجهت دول المجلس إلى تحقيقه من خلال عقد ما يُسمّى ببرامج التوازن الاقتصادي مع الدول الغربية التي تحقق الارتباط بين الخبرات التكنولوجية المتطورة لهذه الدول ورؤوس الاموال والاسواق الخليجية.

ويمكن القول، بصورة إجمالية، ان الاقتراب أو الابتعاد من تحقيق الاهداف المحددة في النظام الاساسي لمجلس التعاون الخليجي، قد اختلف تبعًا لنوعية الموضوعات ومدى ارتباطه بالسيادة الوطنية.

إعلان دمشق: بسبب استمرار إغفال دعوة العراق الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي رغم خشية هذه الدول من دعوة ايران إلى ضرورة قيام امن اسلامي في الخليج تقوم ايران فيه بدور

رئيسي، ويشمل معاهدة عدم اعتداء بين الدول الاسلامية في الخليج والشرق الاوسط، وإنشاء محكمة اسلامية، واعلان المنطقة خالية من الجيوش الاجنبية واسلحة الدمار الشامل، شرعت دول المجلس (بعد انتهاء حرب الخليج في ١٩٩١) للبحث عن كل ما يعوّض ضعف مناعتها الامنية لا سيما في الاطار العربي. فتمّ في دمشق، في ٦ آذار ١٩٩١، اجتماع دول الخليج مع مصر وسورية ليخرج المجتمعون باعلان ذي بعدين احدهما سياسي والآخر اقتصادي يوضحون فيه رؤاهم المستقبلية للامن في الخليج ودواعي ضمانه. فعلاوة على فوائد الاعلان للخليجيين فقد جاء بخطوة نحو تمتين الربط المطلوب بين الامن العربي والامن الخليجي: «إن الاعلان سيكون مقدمة لنظام عربي جديد يقوم على مبدأ احترام سيادة الدول واستقلالها وسلامة اراضيها». كما جاء اعلان دمشق ليقدم اقتراحًا بشأن نمط مختلف (عن الانماط السابقة) من توازن القوى في الخليج، نمط أو تصور يسدّ ضعف مناعة دول مجلس التعاون الخليجي الامنية بأداة قومية (مصر-سورية) على شكل ترتيب «٦+٢» حيث يمكن لدول المجلس ان تستدعي دولتين اقليميتين (عربيتين) لتعزيز الميزان المحلي في الخليج.

القمم الأخيرة (١٩٩٢-١٩٩٦): القمة الخليجية الثالثة عشرة عقدت في ابو ظبي في ٢١-٢٢ كانون الاول ١٩٩٢؛ وعلى رغم ان قضية امن الخليج كانت مدرجة في جداول اعمال القمم الخليجية السابقة، إلا انها اكتسبت في هذه القمة اهمية خاصة لاسباب ليس أقلها شأنًا البعد الايراني، و«اعلان دمشق» والتوجه الخليجي إلى تعزيز قوات «درع الجزيرة» نواة للقوة الخليجية المشتركة وتعزيز القدرات الدفاعية الذاتية لكل دولة من دول المجلس الست.

القمة الرابعة عشرة (الرياض، ٢٠-٢٢ كانون الاول ١٩٩٣) شدّدت على ادانة النظام العراقي «لممارسته سياسة الانتقاء في تنفيذ قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة، ولا سيما منها عند تنفيذه قرار مجلس الامن الرقم ٨٣٣ الذي أقر ترسيم الحدود بين دولة الكويت والعراق ولمسلكه العدواني ضد دولة الكويت...». ولجهة العلاقات مع ايران وقضية الجزر الثلاث (ابو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى)، دعت القمة الجمهورية الاسلامية الايرانية إلى «اجراء حوار مباشر في ما يتعلق باحتلالها الجزر». واحتلت قضية الشرق الاوسط (النزاع العربي-الاسرائيلي ومسيرة السلام) الموقع الثالث في بيان القمة، فخلافًا لما كانت توقعته دوائر كثيرة قبيل انعقاد هذه القمة، لم يشر البيان إلى موضوع المقاطعة العربية لاسرائيل على رغم ان ثمة من كان يدعو في الخليج (خاصة الصحف الكويتية) إلى «رفعها فورًا»، فاكتفى البيان بتكرار الترحيب باتفاق اعلان المبادىء بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل «على اساس انه خطوة اولى على طريق السلام». وركّزت باقي نقاط البيان على التكامل الخليجي الداخلي خاصة لجهة المواضيع الاقتصادية التي تتلخص في اربعة: استكمال الدراسات عن توحيد التعرفة الجمركية، تحسين قواعد تملك العقار، السماح لشركات الطيران بأن تكون موجودة من دون الحاجة إلى وكيل محلي واقامة مركز التحكيم التجاري واقرار النظام الاساسي له.

خلال ١٩٩٤، وقبل موعد انعقاد القمة الخامسة عشرة (البحرين، كانون الاول ١٩٩٤)، جرى اهتمام فائق (محليًا وعربيًا ودوليًا، خاصة من جانب الولايات المتحدة الاميركية) بالقرار الجماعي الذي اتخذته دول مجلس التعاون الخليجي برفع المقاطعة من الدرجتين الثانية والثالثة لاسرائيل. فكان قرارًا سياسيًا املته اعتبارات دولية ومفاهيم سياسية وخليجية وعربية تتعلق بالرغبة في

المساهمة في صياغة النظام الاقليمي المتوقعة للمنطقة بعد اكتمال عملية السلام (هذا إذا اكتملت) بين اسرائيل وبلدان الطوق العربي. وجرى الحديث (بعضه على لسان مسؤولين خليجيين) عن ضغوطات اميركية هائلة تعرضت له دول الخليج لاتخاذ هذا القرار.

تميزت القمة الخامسة عشرة بالتقرير الذي قدمه اليها ملك السعودية فهد بن عبد العزيز الذي يستعرض فيه المتغيرات السياسية والاقتصادية في العالم «وظهور عهد جديد من العلاقات الدولية يتسم بالتكتلات الاقتصادية والترتيبات الدفاعية الاقليمية والدولية الجديدة». وفي إشارة إلى الخلافات الحدودية بين دول الخليج (راجع بشأن هذه الخلافات دول الخليج، كلاً في موقعها من الموسوعة وبحسب الترتيب الهجائي المعتمد)، اعترف تقرير العاهل السعودي بوجود «مشكلات ثنائية عالقة، ومهما بدت شائكة ومعقدة فهي لن تستعصي على الحل بمجرد ان تصفو النوايا وتسود روح الاخاء»، وطالب بمضاعفة الجهود لانهاء هذه المشكلات خلال العام المقبل (١٩٩٥) وقبل انعقاد القمة الخليجية المقبلة في مسقط في كانون الاول ١٩٩٥.

وإذا كانت اجهزة الاعلام الخليجية وصفت القمة الخليجية الخامسة عشرة (البحرين، كانون الاول ١٩٩٤) بأنها «قمة الانجاز» من دون ان تذكر ما هي الانجازات التي حققتها سوى الكلام المعاد عن «تأكيد التضامن ووحدة المصير... الخ»، فالواقع ان الانجاز الأهم الذي حققته هذه القمة كان خطة الملك السعودي فهد بن عبد العزيز لتفعيل مجلس التعاون. لكن هذا التفعيل يبقى بحاجة إلى ترجمة الخطة إلى خطوات عملية في مقدمها حل المسائل الحدودية العالقة، والعمل على ان يكون لمجلس التعاون الخليجي مزيد

جميل ابراهيم الحجيلان (دبلوماسي سعودي) الامين العام الحالي (١٩٩٦) لمجلس التعاون الخليجي.

من الفاعلية في عالمه العربي.

في ٤ كانون الاول ١٩٩٥، افتتحت، في مسقط (عمان)، القمة الخليجية السادسة عشرة. وكانت القمة الأكثر إثارة من تأسيس مجلس التعاون الخليجي، وذلك بسبب انسحاب امير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني من الجلسة الختامية احتجاجًا على تعيين السفير جميل الحجيلان (السفير السابق للسعودية في باريس) امينًا عامًا للمجلس خلفًا للشيخ فاهم القاسمي). واعتبر المجلس هذه الخطوة القطرية مسألة «خطيرة» وتدهور مثير للقلق والخوف بالنسبة إلى مستقبل هذا الكيان الاقليمي، خاصة وان التصريحات القطرية الاولى بعد ختام القمة تركت الباب مفتوحًا حتى لاحتمال الانسحاب من المجلس نفسه، هذا المجلس الذي يتهيأ ليدخل القرن المقبل ككيان اقليمي دفاعي ودبلوماسي له سوق مشتركة ويبحث لنفسه عن مكان مناسب وسط التكتلات الاقليمية الأخرى.

وأهم الاحداث المتعلقة بمجلس التعاون الخليجي جرت بعد قمة مسقط (القمة السادسة

عشرة) حتى اوائل كانون الاول ١٩٩٦:

– في ١٧ آذار ١٩٩٦، نجح اجتماع وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي في تجاوز العقبات التي اعترضت مسيرة المجلس بعد عقد قمة مسقط وما تبعها من تطورات في علاقة قطر بالمجلس. وقد ساهمت الجهود العُمانية والاعتدال في الموقف القطري في اعلان وزير خارجية قطر موافقة بلاده على قرار قمة مسقط تعيين جميل الحجيلان امينًا عامًا لمجلس التعاون، وذلك بعدما وضعت عمان مشروعًا لقواعد اجراءات تعيين الامين العام للمجلس بالتناوب وطبقًا لقاعدة الترتيب الهجائي لاسماء الدول.

– بدأ، في حزيران ١٩٩٦، اول تحرك خليجي على المستوى الشعبي لمقاومة التطبيع مع اسرائيل. وقد قام بهذا التحرك عدد من البرلمانيين والشخصيات الشعبية في الكويت يتقدمهم الدكتور عبد الله النفيسي (مفكر وكاتب صحافي معارض لمفاوضات التسوية مع اسرائيل وللنفوذ الاميركي في الخليج) الذي قدم ورقة فيها مبادىء عامة وخطة تحرك لمواجهة خطط اسرائيلية للامتداد والهيمنة في الخليج. وبحثت الورقة لجنة تحضيرية (من ٤ نواب كويتيين) وأجرت تعديلات عليها قبل ان تطرح للنقاش والاقرار في اجتماع موسع، ثم في ما يزمع إقامته وهو «المؤتمر الشعبي لمواجهة التطبيع مع الكيان الصهيوني في منطقة الخليج» الذي سيكون هيئة خليجية غير رسمية تضم عددًا أوسع من السياسيين والشخصيات الشعبية في الخليج.

– في أجواء التحضير للقمة السابعة عشرة التي تعقد في ٧ كانون الاول ١٩٩٦ في الدوحة، قال الرئيس اليمني علي عبد الله صالح أن اليمن تجري اتصالات للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي: «لأن ذلك هو الوضع الطبيعي الذي يفرضه منطق التاريخ والجغرافيا...». كذلك استمرت المساعي الخليجية لاقناع البحرين بحضور هذه القمة. وكانت دولة البحرين اعتذرت عن عدم المشاركة فيها (خلافات بحرينية–قطرية).

دانمارك

بطاقة تعريف

الموقع: تقع مملكة الدانمارك في اوروبا، على الساحل الشرقي لبحر الشمال. وحدودها البرية الوحيدة هي مع ألمانيا من الجنوب وبطول ٦٧،٧كلم، في حين يبلغ إجمالي طول شواطئها نحو ٧٣١٤كلم. كما تطل على بحر البلطيق من الجنوب الشرقي. فهي بذلك شبه جزيرة، وأبعد نقطة فيها تقع على مسافة ٥٢كلم من البحر.

المساحة: تبلغ مساحة الدانمارك الاجمالية ٤٣٠٩٣كلم م. ما عدا المناطق ا لتابعة لها، وهي بلاد مسطحة ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها ٢٠٠م. المساحة المذكورة تضم شبه جزيرة جوتلاند Jutland (٢٩٧٧٦كلم م.) و٤٠٦ جزر، منها ٩٧ فقط مأهولة، ومجمل مساحتها ١٣٣١٧كلم م.، أكبرها جزيرة سيلاند Seeland، فيوني Fionie، لولاند Lolland، بورنهولم Bornholm وفالستر Falster.

المناطق التابعة: وتتبع الدانمارك جزر فيرو Feroe في شمالي اسكوتلندا وجزيرة غرونلاند Groenland.

جزر فيرو: في اللغة المحلية «فرويار» Foroyar وتعني «جزر النعاج». تقع في الاطلسي على بعد ٤٥٠كلم جنوب شرقي جزيرة أيسلندا. تتكون من ١٨ جزيرة (١٧ مأهولة)، إجمالي مساحتها ١٣٩٩كلم م.، نحو ٥٪ مزروعة. أكبرها جزيرة ستريمو. يبلغ عدد سكان فيرو نحو ٤٨ ألف نسمة، يدينون بالبروتستانتية اللوثرية. قاعدتها مدينة ثورشافن وتعد نحو ١٧ ألف نسمة.

كانت تابعة للنروج، ثم الدانمارك بدءًا من ١٣٨٠. وأصبحت تتمتع باستقلال ذاتي بدءًا من ١٩٤٨: حكومة محلية من أربعة وزراء، نائبان يمثلانها في المجلس الدانماركي، وحاكم عام أعلى يمثل ملك الدانمارك، ومجلس للنواب من ٣٢ عضوًا. ثرواتها: صيد السمك، تربية الاغنام، وبترول لم يبدأ بعد استغلاله.

غرونلاند: يعني الاسم «البلاد الخضراء». تقع في الاطلسي على بعد ٣٠٠كلم من جزيرة آيسلندا. مساحتها ٢ مليون و١٧٥ ألفًا و٦٠٠كلم م. (اكبر جزيرة في العالم بعد اوستراليا). يسكنها نحو ٥٦ ألف نسمة خاصة في المناطق الجنوبية الغربية، منهم نحو ٨ آلاف فقط من الاوروبيين، والباقون من الاسكيمو. التجمعات السكانية تنقسم إلى نحو ١٨ بلدة يفوق عدد سكان الواحدة منها الألف نسمة، و٧٠ قرية أو مخيم.

دلت الآثار على وجود الاسكيمو في البلاد منذ العام ٤٠٠٠ق.م. وحوالي العام ٩٨٢، توصل إريك الأحمر إلى استعمارها. في القرن الثاني عشر، وصل إليها نحو ١٢ ألف مستوطن نروجي. في ١٣٩٧، أصبحت مستعمرة دانماركية. في ١٩٥٣، أصبحت مقاطعة دانماركية يمثلها نائبان في المجلس التشريعي الدانماركي (فولكيتنغ). وفي ١٧ كانون الثاني ١٩٧٩، جرى استفتاء حول الاستقلال الذاتي اشترك فيه ٦٣،٢٪ من المقترعين وصوّت ٧٠،١٪ لصالح النظام (الاستقلال الذاتي) الذي دخل حيز التنفيذ بدءًا من اول ايار ١٩٧٩.

نظامها الداخلي: دولة ذات استقلال داخلي: السلطة التنفيذية (لاند ستاير) بيد حكومة من ٧ وزراء، يرأسهم (منذ آذار ١٩٩١) لارس اميل جوهانسن. البرلمان (لاند ستينغ) من ٢٥ نائبًا. الثروات: صيد الفقمة لجلودها، وصيد السمك، تربية الخراف (في الجنوب)، الفحم، القصدير، الزنك، الكروم، النحاس، الاورانيوم، النفط.

المستعمرات الدانماركية السابقة: – في اوروبا: آيسلندا منذ العام ٩٣٠ وحتى استقلالها في ١٩٤٤. غرونلاند وفيرو (راجع اعلاه).

– في اميركا: جزر الانتيل الدانماركية وعددها ٥٠ جزيرة بمساحة ٣٤٤كلم م.، أهمها: جزيرة سان توماس (٨٣كلم م.، عاصمتها شارلوت إميلي) التي أصبحت مستعمرة دانماركية منذ ١٦٧٢. وجزيرة سان كروا (٢٠٧كلم م.) وكانت مستعمرة فرنسية منذ ١٦٥٠، وتخلى عنها لويس الخامس عشر لملك الدانمارك كريستيان السادس لشكره على المساعدة التي قدمها لسفيره الكونت دو بليلو وللجنرال دو لا موت دولا بيروس قائد الحملة الفرنسية على دانتزيغ. وجزيرة سان جان (٥٢كلم م.)، دانماركية منذ ١٧١٨، واشترتها الولايات المتحدة بمبلغ ٢٥ مليون دولار في ١٩١٧.

– في آسيا: البنغال الغربية (الهند) من ١٦١٨ إلى ١٨٤٥. وجزر نيكوبار (١٦٤٥كلم م.) التي ضمت إلى الدانمارك في ١٧٥٦ تحت إسم ني دانمارك، ثم سميت «جزر فريدريك»؛ احتلها الانكليز من ١٧٨٩ إلى ١٧٩٦ حيث اعاد الدانماركيون احتلالها، ثم عادوا وتخلوا عنها للانكليز في ١٨٥٨. ومستعمرة كانتون (في الصين) من القرن الثامن عشر إلى اوائل التاسع عشر.

– في افريقيا: قلعة كريستيانبورغ في أكرا (غانا) من ١٦٩٩. وفي شرقي البلاد، مراكز تجارية في تيما ونيمبو؛ وعلى طريق بينن قلعة فريدنسبورغ وقلعة لينيغستين وقلعة بيزنستين، وجميعها تخلت عنها الدانمارك للانكليز في ١٨٥٠.

العاصمة وأهم المدن: كوبنهاغن، وهي عاصمة الدانمارك الادارية والسياسية والاقتصادية، ويسكنها نحو ٣٥٪ من مجمل السكان. أهم المدن: هيورنغ، أكبورغ، راندرز، أودنس، فيجل، فريدريكا، إيسبيرغ، سوندربورغ، آرهوس، فيبورغ، آبرنا.

اللغة: اللغة الدانماركية ذات أصل جرماني، وتمت بقرابة قوية للالمانية. إلا ان التأثير التاريخي للغتين الالمانية والانكليزية قد جعل الدانماركية أقرب في بعض مصطلحاتها إلى الانكليزية. ولا زالت كل من اللغتين تعتبر لغة ثانية تدرس في المراحل الثانوية.

السكان: في ١٧٦٩ كان تعدادهم ٨٠٠ ألف نسمة؛ في ١٩٠١ أصبح ٢،٤٥ مليون نسمة، وفي ١٩٣٠ نحو ٣،٥٥ مليون نسمة، وأصبح في ١٩٩٢ نحو ٥،١٦ مليون نسمة. والتقديرات تشير إلى بلوغهم ٥،٢٤ مليون نسمة في العام ٢٠٠٠. يشكل الدانماركيون ٩٧،٢٪ من المجموع، والالمان ٠،٢٪، والسويديون ٠،٢٪ ايضًا. سكان المدن ٨٤،٤٪، وأعلى كثافة سكانية في جوتلاند وفي العاصمة كوبنهاغن وضواحيها. يعتنق ٩٧٪ من السكان في الدانمارك المذهب اللوثري (البروتستانتية). وكان الاسقف غروندتفيغ Grundtvig الأب الروحي للوثريين الدانماركيين، وكان قد أعطى للوثرية «طابع الفرح» الديني. لم تشهد الدانمارك في تاريخها اية مواجهة دينية. هذا بالاضافة إلى الديمقراطية التاريخية التي تتسم بالتسامح في ممارسة الشعائر.

الحكم: نظام الحكم ملكي دستوري. الملك (الملكة) يملك ولا يحكم، ويعتبر رمزًا لتاريخ

ملكي كان من اقدم الملكيات الاوروبية رسوخًا. الدستور المعمول بـه صـادر في ٥ تموز ١٨٤٩، المعدّل في ٥ حزيـران ١٩٥٣ لجهـة السـماح بوصول امرأة إلى العرش. البرلمان (فولكيتنغ) من ١٧٩ عضـوًا (منهـم عضـوان لجزيـرة فـيرو، وعضوان لجزيرة غرونلاند). يعطي هـذا المجلس ثقته للحكومة، والملك (الملكة) هـو الـذي يعين رئيس الـوزراء الـذي يشكل حكومته مراعيًـا الأغلبية المسيطرة في البرلمان. وتجدر الاشـارة إلى ان علم البـلاد هـو الأعـرق والاقـدم في العـالم، ويعود وضعه إلى ١٢١٩.

الاحـزاب: الحـزب الاشـتراكي الديمقراطـي، تأسس في ١٨٧١، رئيسـه الحـالي بـول نـيروب رسموسن (مولود ١٩٤٣)، ويضم نحو مئـة ألـف عضـو. الحـزب الليـبرالي، تأسـس في ١٨٧٠، رئيسـه الحـالي أوف إلمـان-جنسـن (مولـود ١٩٤١)، ويضم نحـو ٨٧ ألـف عضـو. الحـزب المحافظ، تأسس في ١٩١٦، رئيسـه بـول شـلوتر (مولود ١٩٢٩)، ويضـم نحـو ٣٥ ألـف عضـو. الحزب الاشتراكي الشعبي، تأسس في ١٩٥٩، ورئيسه هولغر نيلسـن (مولـود ١٩٥٠)، ويضـم نحو ٩ آلاف عضو. الحزب الليبرالي-الراديكالي، تأسـس في ١٩٠٥، رئيسـه غريـت إريكسـن، ويضم نحو ١٠ آلاف عضو. الحزب الجورجـي، تأسس في ١٩١٩، رئيسه بـول غرهـارد كـرون كريستيانسن (مولود ١٩٥٣)، ويضم نحو ألفـي عضـو. الحـزب الشيوعي، تأسـس في ١٩١٩، رئيسه الحالي أول سوهن، ويضم نحـو ١٠ آلاف عضـو. حـزب اليسـار الاشـتراكي، تأسـس في ١٩٦٧، ويضم نحو ٦٠٠ عضو. حزب الوسـط الديمقراطي، تأسـس في ١٩٧٣، رئيسـه الحـالي ميمـي حاكوبسـن، ويضـم نحـو ٢٥٠٠ عضـو. حـزب الشـعب المسـيحي تأسـس في ١٩٧٠، رئيسه الحالي جان سيورسن (مولود ١٩٦٣)، ويضم نحو ٩ آلاف عضو. حزب التقدم، تأسس في ١٩٧٢، رئيسه الحالي بيا كيارسغارد، ويضـم نحو ١٠ آلاف عضو.

أعلى نسبة من أصوات المقـترعين وأدناهـا نالتهـا هـذه الاحـزاب منـذ ١٩٤٣ حتـى ١٩٩٠ وفي الانتخابات التشريعية هي:

- الاشـتراكي الديمقراطـي: ٤٤،٥٪ (١٩٤٣)، و٢٥،٦٪ (١٩٧٣).
- الليـبرالي الاشـتراكي: ١٥،٧٪ (١٩٨٤)، و٣،٥٪ (١٩٩٠).
- المحافظ الشـعبي: ٢٣،٤٪ (١٩٨٤)، و٥،٥٪ (١٩٧٥).
- الاشـتراكي الشـعبي: ١٤،٦٪ (١٩٨٧)، و٣،٩٪ (١٩٧٧).
- الليـبرالي: ٢٧،٦٪ (١٩٤٧)، و١٠،٥٪ (١٩٨٧).
- الشـيوعي: ١٢،٥٪ (١٩٤٥)، و٠،٧٪ (١٩٨٤).

الاقتصاد: على الرغم من ان تطور الصناعة هـو المظهر الأكثر ديناميـة في الاقتصـاد الدانمـاركي، فإن الزراعة تكتسب قدرًا كبيرًا من الأهمية مـن حيث حاجيات الاستهلاك الداخلي ومن حيـث انها تشكل أهم مصدر لادخـال العملـة الصعبـة إلى البلاد. وتحتل المساحة المزروعة في البلاد نحـو ٦٩٪ مـن المسـاحة الاجماليـة، ويعيـل القطـاع الزراعي نحو ١٠٪ من السكان. ويسجل الانتاج الزراعي مردودًا عاليًا يفوق المعـدلات الاوروبيـة والعالميـة. وأهـم المنتوجـات الزراعيـة: الشـعير، القمـح، البطاطـا... هـذا بالاضافـة إلى الـثروة الحيوانية التي تمتلكها الدانمـارك، إذ يعـرف عنهـا حداثة المزارع التي تعنـى بتربيـة الماشـية وخاصـة الخنازير والبقر، وكذلك تربية الدواجن.

ليس في الدانمـارك ثـروة معدنيـة تذكـر. وعلـى الرغم من ذلك تعتبر بلدًا غنيًا، إذ تحتل المراتب

الاولى في العالم من حيث الدخل القومي للفرد الواحد.
وهي دولة صناعية، وصناعتها متطورة يساعدها على ذلك اهتمامها باليد العاملة المتخصصة. ففيها الصناعة التعدينية الخفيفة (الآلات المحركة وخاصة محركات المازوت، والنسيج، والادوات المعدنية الاخرى)، والصناعة الغذائية التي تفيد مباشرة من وفرة الثروة الحيوانية.
وتعويضًا عن فقدانها المواد الاولية، تستفيد الدانمارك من المنافذ والطرق البحرية الكثيرة. لذلك نجد ان الصناعة الدانماركية هي صناعة تحويلية بالدرجة الاولى.
ويستخدم القطاع الصناعي فيها نسبة نحو ٤٠٪ من اليد العاملة.

نبذة تاريخية

قديمًا: قطن ارض الدانمارك اناس عاشوا على الصيد من نحو ١٠ آلاف سنة ق.م.، ولا يعرف عنهم اشياء كثيرة. لكن الذين أتوا بعدهم في العصور النيولينية، والبرونزية، والحديدية، تركوا بعض الآثار، منها ثياب موضوعة في تجويفات من خشب السنديان هي أقدم ثياب موجودة في المتاحف الاوروبية، وآثار أداة موسيقية خاصة بالدانماركيين وتسمّى «اللور».

الفايكنغ: من المتعارف عليه في كتب التاريخ ان تكتب بدايات تاريخ الدانمارك بدءًا من القرن التاسع، عندما بدأت جماعات الفايكنغ، وهم سكان البلاد الاصليين، بغزواتها وفتوحاتها وهجراتها. وكانت هذه الغزوات بدأت اولاً بشكل عمليات قرصنة قبل ان تتطور وتأخذ شكل غزوات وفتوحات عسكرية على نطاق واسع. وامتد عهد الفايكنغ بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر، وشهد نمو التجارة وحركة هجرة دفعت بآلاف الفلاحين الدانماركيين للاقامة في انكلترا، والنورماندي وشمالي المانيا. ويعود البيت الملكي (الأسرة المالكة)، الاقدم في اوروبا، إلى تلك الفترة من تاريخ الدانمارك. وقد أسسه غورم القديم الذي مات في ٩٤٠. ورزق غورم وزوجته الملكة تيرا دانبور إبنًا هو هارالد الملقب «صاحب الضرس الحربي» الذي أصبح اول عاهل كاثوليكي للبلاد.

طوال القرن التاسع، كان الدانماركيون (الفايكنغ)، بغاراتهم على كل الساحل الانكليزي والاسكوتلندي وسواحل فرنسا الشمالية والمانيا حتى وصلوا إلى المغرب والبرتغال واسبانيا وجنوبي فرنسا صعودًا على ضفاف نهر الرون حتى مدينة فالنس، قد أسروا الملك إدمون ملك انكلترا وقتلوه (٨٦٥). ولكن

الملك الانكلوساكسوني ألفرد الاول هزمهم في معركة دامية، ولكنه لم يستطع تحقيق السلام إلا بعد تنازله لهم عن القسم الشرقي من انكلترا الذي اصبح يعرف باسم دانلاغ Danelag أي «الارض التي تحكمها الشريعة الدانماركية».

وكان أنسغار Ansgar قد أدخل المسيحية إلى الدانمارك بين عامي ٨٢٦ و٨٦٥، وما لبث ان شمل الدين المسيحي المنطقة الاسكندينافية بكاملها. وفي ٩١١، انتصر روللو Rollo على الفرنسيين وانتزع منطقة النورماندي منهم بعد ان كانت فرنسا قد جهزت نفسها بنظام إقطاعي كرد فعل دفاعي ضد خطر الفايكنغ. وقد استمر ملوك الدانمارك بغاراتهم على انكلترا حتى ١٠١٦ حيث أكمل الملك كنود الكبير سيطرته على كامل انكلترا، بحيث أصبح، قبيل موته، ملكًا على الدانمارك وانكلترا وجزر من النروج. ثم حدثت، بعده، اضطرابات وحروب داخلية زعزعت اركان الامبراطورية الدانماركية «الاولى» وقضت عليها. لكن بعد نحو ثلاثة قرون قامت امبراطورية دانماركية جديدة في عهد الملكة مارغريت.

الملكة مارغريت والاتحاد: في ١٢١٩ قام الملك فالدمار الملقب بـ«المنتصر» بحملة ضد إستونيا وانتصر فيها وألحقها بالدانمارك. وفي ١٣٨٠، ورثت الملكة مارغريت الاولى جزر فيرو وغرونلاند عن النروج. وفي ١٣٩٧، توصلت هذه الملكة إلى ضم النروج والسويد تحت سلطتها تنفيذًا لمقررات اجتماع عقد في مدينة كالمار في السويد. وقد استمرت اجتماعات كالمار في الانعقاد رسميًا حتى ١٥٢٣ حيث تقرر حل الاتحاد بين البلدان الثلاثة. وفي الحقيقة، كان هذا الاتحاد قد بدأ في التراخي والانحلال بعد موت الملكة مارغريت المعروفة بفطنتها ودبلوماسيتها. ففي ١٥٢٣، استرجعت السويد استقلالها، لكن النروج بقيت منضمة إلى الدانمارك حتى ١٨١٤، وكانت قد حملت معها إلى الاتحاد (منذ بدء اجتماعات كالمار في ١٣٩٧) مناطق جزر فيرو وغرونلاند وآيسلندا.

وفي السنوات التي اعقبت الانقسام في الكنيسة البروتستانتية (١٥٣٤-١٥٣٦)، أدخلت الملكية الدانماركية بعض الاصلاحات الجذرية في الدانمارك-النروج. وفي ١٥٨٨، نصب كريستيان الرابع ملكًا على الدانمارك واستمر في توليه العرش حتى ١٦٤٨. وفي ١٦٦٠، بدأت الدانمارك بخسارة بعض مقاطعاتها الملحقة، ثم ما لبث الملك فريدريك الثالث ان اقام حكم الملكية المطلقة.

تراجع: عرفت الدانمارك حالة من الحرب المستمرة. وكانت السويد (في ما عدا فترة الاتحاد) خصمها الأساسي. وفي اواسط القرن السابع عشر، جاءت نتائج النزاعات لمصلحة السويد، حيث اضطرت الدانمارك لأن تتخلى لها عن مناطق غنية بثرواتها، مثل هالاند وبليكنغ؛ ثم بعد سنوات، تخلت لها ايضًا عن النروج على اثر

الحروب النابوليونية ونتائجها. وفي بداية النزاعات المعروفة بين انكلترا وفرنسا، اختارت الدانمارك البقاء على الحياد، ورفضت ان تضع اسطولها البحري في تصرف الانكليز. فما كان من بعض الوحدات البريطانية البحرية إلا ان قصفت مدينة كوبنهاغن (١٨٠١)، ودمرت جزءًا كبيرًا منها. فاضطر الدانماركيون في نهاية المطاف ان يتخلوا عن اسطولهم للبحرية البريطانية، وأسرعوا بعقد حلف مع نابوليون بونابرت ليثأروا من الانكليز. لكن هذا الحلف عاد عليهم بالويل، إذ أجبروا على التخلي عن النروج في مؤتمر السلام الذي عقد في مدينة كييل (في المانيا) في ١٨١٤.

خسارة هولشتاين وشلزفيك: وخلال النصف الاول من القرن التاسع عشر، زاد التوتر بين المجموعات الدانماركية والالمانية القاطنة في مناطق شلزفيك وهولشتاين الواقعتين جنوبي غيلاند. وشلزفيك دوقية دانماركية قديمة، في حين ان هولشتاين مقاطعة المانية في الاصل وضعت تحت السيطرة الدانماركية في القرن الخامس عشر. وقد استمر التوتر في المقاطعتين، وكذلك نزاعهما مع الحكومة الدانماركية المركزية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

انتصرت الدانمارك في معاركها الاولى (١٨٤٨-١٨٤٩) ضد المتمردين في هولشتاين. لكن، في ١٨٦٤، عندما حاولت الحكومة الدانماركية تطبيق القوانين الوطنية على الدوقيتين (شلزفيك وهولشتاين)، تدخلت النمسا وبروسيا عسكريًا في كل مناطق جوتلاند، وكانت خسائر الدانماركيين كبيرة جدًا، وكان يوم ٣٠ تشرين الاول ١٨٦٤ الأكثر شؤمًا في تاريخ الدانمارك الحديث، إذ أجبرت على توقيع معاهدة السلام في فيينا، وعلى التخلي، بموجبها، ليس فقط عن مقاطعة هولشتاين وعن جنوبي شلزفيك، بل ايضًا عن شمالي شلزفيك الدانماركية الاصل، فخسرت الدانمارك ثلث اراضيها وخمسي سكانها.

إصلاحات: ومع ذلك، كانت الدانمارك تعرف كيف تحول خسائرها الخارجية إلى مكاسب داخلية. وكانت تتبع بذلك نصيحة احد قادتها الوطنيين: «إن ما نخسره في الخارج، يجب ان نربحه في الداخل». وبالفعل ومباشرة بعد الحروب النابوليونية وخسائرها في ١٨١٤، بدأت الدانمارك تضع موضع التنفيذ سلسلة من الاصلاحات تناولت مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما عرفت نهضة قلّ مثيلها في عالم الفن والادب. فطبق التعليم الاجباري، وأعيد تنظيم الاقتصاد وعلى أسس جديدة، واستبدل نظام الملكية المطلقة بنظام الملكية البرلمانية إثر صدور دستور ليبرالي حديث. كذلك، بعد خسارتها المقاطعتين المذكورتين، في ١٨٦٤، عمدت الدانمارك، وقد احتاجت إلى اراض جديدة، إلى استصلاح اراض في مناطق جوتلاند **Jutland**، وطبقت عليها ثورة زراعية حقيقية تناولت آلاف الهكتارات الصالحة للزراعة،

كما نشرت المدارس الشعبية في طول البلاد وعرضها.

في التاريخ المعاصر: التزمت الدانمارك الحياد في الحرب العالمية الاولى، واعادت مناطق شمالي شلزفيك على اثر هزيمة المانيا وبعد استفتاء سكان شمالي شلزفيك.

حاولت الدانمارك الحياد مرة جديدة في الحرب العالمية الثانية. لكن المانيا النازية ما كانت لتعير الامر أهمية، فغزت البلاد في ٩ نيسان ١٩٤٠. ونظم الدانماركيون، في وجه الاحتلال، مقاومة اتسمت خاصة بصحافتها السرية والكثيفة التي كانت تصدر نحو ١٨٠ صحيفة بمجموع نحو مليون نسخة يوميًا.

خرجت الدانمارك من الحرب منهكة، وكان للمساعدة الاميركية، عبر مشروع مارشال، ان ساهمت إلى حد كبير في اعادة الاقتصاد الدانماركي وبنائه على أسس صلبة وخلال وقت قصير نسبيًا. ودخلت الدانمارك عضوية الامم المتحدة، وانضمت إلى معاهدة حلف شمالي الاطلسي متخلية بذلك عن سياسة الحياد. وفي ١٩٥٣، عدل الدستور لجهة إتاحة الفرصة امام المرأة لاعتلاء العرش، فأصبحت مارغريت الثانية، في ١٩٧٢، ملكة الدانمارك بعد وفاة الملك فريدريك التاسع. وعلى اثر استفتاء جرى في ١٩٧٣، انضمت الدانمارك إلى السوق الاوروبية المشتركة.

وعلى صعيد دول الشمال الاوروبي، فمن المعروف انها ترتبط (وهذا الارتباط آخذ بالوثوق يومًا بعد يوم) في ما بينها باطار سياسي تنظيمي. فيعقد رؤساء الحكومات والوزراء اجتماعات دورية في ما بينهم لتوثيق عرى التعاون والتكامل في جميع المجالات التي تهم الاسرة الشمالية، والتي تلعب فيها السويد دور «الشقيقة الكبرى» وتحتل موقعًا قياديًا ورئيسيًا.

كرونولوجيا أهم الاحداث

(١٩٧٥-١٩٩٦): تستفيد التيارات السياسية في الدانمارك من تقليد ديمقراطي عريق في الحياة السياسية الدانماركية. وقد تنظمت أغلب هذه التيارات في احزاب ممثلة في المجلس النيابي الذي يطلق عليه الدانماركيون إسم «فولكيتنغ» Folketung. وكانت نتائج الانتخابات التشريعية التي اجريت في كانون الثاني ١٩٧٥ لصالح اليسار الذي عرف في ذلك الوقت مدًا شعبيًا في كامل اوروبا الغربية والذي اطلق عليه، نتيجة لطروحاته المتقاربة في هذه البلدان، تسمية «اليسار الاوروبي الغربي»، ما اتاح الفرصة للاشتراكي الديمقراطي أنكر جورغنسن ان يصبح رئيسًا للوزراء في الدانمارك. وفي انتخابات ١٩٧٧، استمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بزعامة جورغنسن في الحكم ولكن بالائتلاف مع الحزب الليبرالي الذي عمد في ١٩٧٩ إلى الانسحاب من الائتلاف الوزاري، ما أدّى إلى إجراء انتخابات نيابية جديدة في العام نفسه كرّست من جديد وجود جورغنسن على رأس الحكومة.

في ١٢ تشرين الثاني ١٩٨١، قدم جورغنسن استقالته بعد رفض البرلمان

لمشروع قانونه حول خطته لاطلاق الصناعة. لكن الانتخابات العامة التي جرت بعد نحو شهر واحد أعطت حزبه (الاشتراكي الديمقراطي) المرتبة الاولى في عدد المقاعد. فعاد وشكل حكومة جديدة.

في شباط ١٩٨٢، اقترع سكان غرونلاند (وكانت قد حصلت على استقلالها الداخلي منذ ١٩٧٩) لانسحاب الجزيرة من السوق الاوروبية المشتركة؛ وقد فسّر هذا الخيار برغبة سكان الجزيرة عدم إدخال تعديلات على اقتصاد الجزيرة المرتكز اساسًا على الصيد من خلال ربطه باقتصادات اوروبية متشابكة.

وفي ايلول ١٩٨٢، قدم جورغنسن استقالته (بعد حكم نحو عشر سنوات) تحت ضغط المعارضة والنقابات التي رفضت إجراءاته الاقتصادية؛ وشكل زعيم المحافظين، بول شلوتر، حكومة جديدة.

في ١٩٨٤، اعادت الدانمارك إثارة موضوع جزيرة هانس (٣كلم م.) المكتشفة منذ ١٨٧٣، وتأكيد حقوقها بها؛ وكانت كندا قد أجرت فيها أبحاثًا وتنقيبات وطالبت بحقوق ملكيتها.

في ٢١ كانون الثاني ١٩٨٥، رفض البرلمان مشروع الاصلاحات التي تقدمت به المجموعة الاوروبية بأغلبية ٨٠ نائبًا (الاشتراكيون الديمقراطيون، الراديكاليون، الاشتراكيون الشعبيون والاشتراكيون اليساريون) في مقابل ٧٥ نائبًا (المحافظون، الليبراليون، الديمقراطيون الوسط والمسيحيون الشعبيون).

في ٢٣ آذار ١٩٩١، وقع اتفاق مع السويد (جرى تصديقه في ١٤ آب ١٩٩١) لبناء جسر بين البلدين بطول ١٨كلم.

في ٢ حزيران ١٩٩٢، جرى استفتاء شعبي حول اتفاقيات ماستريخت (المجموعة الاوروبية)، فعارضها ٥٠،٧٪ من المقترعين.

في ١٤ كانون الثاني ١٩٩٣، قدّم رئيس الوزراء، بول شلوتر استقالته (بسبب تورطه بفضيحة «تامول غيت» التي تعود إلى ١٩٨٧). وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٣، شكل بول ينروب رسموسن (مولود ١٩٤٣) حكومة جديدة، وهو ينتمي إلى الاشتراكيين الديمقراطيين. وفي ٣٠ آذار ١٩٩٣، أقر البرلمان معاهدة ماستريخت بعد إجراء تعديلات عليها (١٥٤ صوتًا ضد ١٦)، وبعد نحو خمسة اسابيع طرحت على الاستفتاء الشعبي ونالت الموافقة بأكثرية ٦٥،٨٪ من اصوات المقترعين.

في نيسان ١٩٩٦، قررت الدانمارك تعزيز ما أطلق عليه إسم «المبادرة الاسلامية» التي كانت السويد قد أطلقتها في ١٩٩٥. وذلك بتنظيمها لمؤتمر سياسي-فكري في العاصمة كوبنهاغن، يناقش عددًا من التحديات والاشكاليات التي تخص الاسلام والعالم الاسلامي وتؤثر على البلدان الأخرى كافة، ويركز بصفة خاصة على الفرص المتوافرة منذ نهاية الحرب الباردة (بانهيار الاتحاد السوفياتي) لقيام شراكة اوروبية-متوسطية واسعة. وفي هذا السياق، أقيمت تظاهرة ثقافية هي الاولى من نوعها

رئيس الوزراء الدانماركي، بول شلوتر (الى يسار الصورة) مع جاك ديلور.

في الدانمارك تحت عنوان «ايام الثقافة المصرية-الدانماركية». والنقطة المشتركة بين هذه المبادرات في دول الشمال الاوروبي (خاصة السويد والدانمارك) هي حداثة عهد هذه الدول بها وقلة خبراتها بالاسلام، في حين انها تحولت خلال النصف الثاني من هذا القرن إلى دول تستضيف جاليات مسلمة كبيرة نسبيًا استقرت فيها و«وطّنت الاسلام وجعلته عنصرًا رئيسيًا من عناصر ثقافتها وحياتها الاجتماعية اليومية» حسبما جاء في مذكرة لاحدى المؤسسات الثقافية الدانماركية صدرت في ١٩٩٦ (راجع «كوبنهاغن» في باب مدن ومعالم).

الدانمارك جغراسيًا: تتمتع الدانمارك بموقع جغراسي واستراتيجي مهم عند منفذ البلطيق على بحر الشمال. فشبه جزيرة جوتلاند (Jutland أو Jylland) والارخبيل الدانماركي، المتصلان بعمق اوروبا الوسطى المواجهة لاوروبا الشرقية، يمسكان بالمضائق التي كان الاشراف عليها من قبل الحلف الاطلسي طيلة الحرب الباردة يشكل ورقة مهمة في يد هذا الحلف في مراقبته لتحركات الاسطول السوفياتي في البلطيق.

وجاء اقتراع الدانماركيين في الاستفتاء على تصديق معاهدة ماستريخت في ٢ حزيران ١٩٩٢ ليحمل دلالات مهمة. فباقتراعهم بنسبة ٥٠،٧٪ ضد هذه المعاهدة كانوا أول الاوروبيين الذين أظهروا ان فكرة الاستقلال الوطني لا تزال غالبة على فكرة الوحدة الاوروبية؛ ولم تخفّف من هذا الامر عودتهم إلى الاقتراع لمصلحة هذه المعاهدة معدلة، بناء على طلبهم، في استفتاء ايار ١٩٩٣ (٦٠٪). والدانماركيون، بفرملتهم اندفاعة رؤساء المجموعة الاوروبية نحو الوحدة الاوروبية، كأنهم ارادوا الثأر من تاريخ كانوا في فترة طويلة منه دولة كبرى: اقتطاع مقاطعات كانت خاضعة

للدانمارك في جنوبي السويد في ١٦٦٠، خسارة النروج في ١٨١٤، خسارة نحو ثلث من اراضيها المتبقية على اثر حرب الدوقيات في ١٨٦٤ (ثم استعيض لها عنها باستعادة شلزفيك في ١٩٢٠)، واخيرًا خسارة آيسلندا في ١٩٤٤.

والدانمارك، حاليًا، تعيش أزمة هوية. فهي من جهة الدولة الاسكندينافية الأكثر ارتباطًا جغرافيًا بعمق القارة الاوروبية والتي تحتفظ في الوقت نفسه بهويتها الاسكندينافية وتزيد يومًا بعد يوم من تعاونها مع الدول الاسكندينافية الأخرى (السويد والنروج وفنلندا)، وتجد من جهة ثانية ان مصيرها مرتبط تاريخيًا بمصير المانيا (شريك تجاري اساسي اليوم) التي كانت تشكل دائمًا تهديدًا لسيادتها الاقليمية ووحدة اراضيها. وبعد وحدة المانيا ازدادت هذه المخاوف لدى الدانماركيين.

وعلى الرغم من كل ذلك راجع الدانماركيون حساباتهم جيدًا، ووجدوا ان الازدهار الكبير الذي حققته الدانمارك في عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية كان متعلقًا إلى حد كبير بتجارتها الخارجية حيث ان نسبة نحو ٥٠٪ منها شكلتها المبادلات مع اوروبا. لذلك، كان إقبالهم الشديد على القبول بمعاهدة ماستريخت في استفتاء ١٨ ايار ١٩٩٣، كذلك كانت (ولا تزال) الدراسات الاستقصائية التي تشير إلى ان نحو ٨٠٪ من الدانماركيين يؤيدون إطار التعاون الاوروبي الحالي ولا يرغبون في الانسحاب من السوق الاوروبية المشتركة.

المسألة الأمنية التي كانت وراء تحفظ الدانماركيين من معاهدة ماستريخت هي نفسها التي تسببت في بعض التوتر مع الحلف الاطلسي التي كانت اوساطه تصف الدانمارك بالعضو الضروري في الحلف لكنه أكثر «التلاميذ شغبًا في الصف». فإذا كانت الدانمارك قد اضطرت للتخلي عن حيادها التقليدي بعد الحرب العالمية الاولى (احتلال المانيا لها) فإنها لم تقرر الدخول في الحلف الاطلسي إلا بعد فشل المساعي لتشكيل اتحاد دفاعي اسكندينافي في ١٩٤٨. وداخل هذا الحلف، تبدو دائمًا حريصة على تنبيه الآخرين على كل ما من شأنه ان يمس حساسياتها الاستقلالية. ففي ١٩٨٨، اقترع النواب الاشتراكيون الديمقراطيون والراديكاليون على ٢٣ توصية في مجلس النواب (فولكيتنغ) ضد السياسة الامنية للحكومة، فنجحوا في إجبارها على حمل تحفظات على ما يدور من مناقشات داخل الحلف الاطلسي. وفي العام نفسه، صدرت توصية نيابية تهدف إلى مراقبة السفن التي تعبر المرافىء الدانماركية والتي يشك في حمولتها من حيث تضمنها لأسلحة نووية. وقد كان من حق هذه التوصية ان تسمم اجواء العلاقات بين كوبنهاغن وبين كل من واشنطن ولندن. فسارع رئيس الوزراء، بول شلوتر، في محاولة لتخفيف التوتر، ودعا إلى إجراء انتخابات «يكون من حقها استشارة الدانماركيين حول وقوفهم إلى جانب الحلف الاطلسي أو ضده». وجاءت نتيجة الانتخابات غير واضحة المعالم تمامًا، لكنها أسست لـ«مسار أطلسي» كان من نتيجته ترشيح وزير

خارجية الدانمارك، أوفي يليمان بنسون، لمنصب امين عام الحلف الاطلسي في خريف ١٩٩٥.

ألغت نهاية الحرب الباردة اسبابًا كثيرة للخلاف كانت قائمة بين بلدان بحر البلطيق. ويبدو ان الدانمارك فقدت الكثير من هامش المناورة التي كانت متاحة امامها بسبب موقعها الاستراتيجي في نظام الدفاع الغربي. لكن ثمة مبادرات يمكن ان تفتح عصرًا جديدًا من التعاون بين دول البلطيق، وتعيرها الدانمارك اهتمامًا كبيرًا. فبمبادرة مشتركة بين الدانمارك والمانيا أنشىء «مجلس دول البلطيق» في ١٩٩٢ (راجع «البلطيق»، ج ٥، ص ٢٦٥-٢٦٨).

مدن ومعالم

* **آرهوس Arhus**: مدينة ومرفأ، قاعدة مقاطعة جوتلاند Jutland، تقع على الشاطىء الشرقي من البلاد، على مسافة ٢٨٢كلم من العاصمة كوبنهاغن. تعد نحو ٢٩٠ ألف نسمة. كرسي أسقفي (منذ القرن العاشر). جامعة مهمة. كاتدرائية تعود إلى القرن الثاني عشر. صناعة تعدينية وكيميائية. ميناؤها يؤمن الشحن باتجاه السويد والنروج على وجه الخصوص.

* **ألبورغ Alborg**: مدينة ومرفأ، شمالي مقاطعة جوتلاند، على نهر ليمفيورد وعلى مسافة ٣٨٥كلم من العاصمة كوبنهاغن. تعد نحو ١٧٥ ألف نسمة. كرسي أسقفي. أبنية تجارية تعود إلى القرن السابع عشر. كنيسة تعود إلى القرن الرابع عشر. مركز ثقافي واسع أنشىء في ١٩٥٥. متحف للرسم الحديث. صناعة الاسمنت والمنتوجات الكيميائية والتبغ. مرفأ تجاري مهم. احواض لبناء السفن. مسقط رأس الملك جان الدانماركي.

* **أودنس Odense**: الإسم من إسم الإله «أودن» Odin، من اللغة الاسكندينافية القديمة، ويعني «الغضب العظيم»، وكان إله الحرب.

وأودنس مدينة ومرفأ، وقاعدة مقاطعة فيوني Fionie الدانماركية. واقعة على نهر أودنس وعلى مسافة ١٤١كلم عن العاصمة. تعد نحو ١٩٠ ألف نسمة. كرسي اسقفي. جامعة، الثالثة في الاهمية في الدانمارك. عقدة مواصلات نهرية. في المدينة القديمة: كاتدرائية سان كنود (القرن الثالث عشر)، كنيسة السيدة العذراء (القرن الثالث عشر)، قصر (١٧٢٠)، فندق المدينة (١٨٨٠-١٨٨٣)، متحف أندرسن. صناعات كهربائية وميكانيكية وغذائية. مرفأ لتصدير المنتوجات الزراعية. احواض لبناء السفن. مسقط رأس الكاتب الدانماركي هانس كريستيان أندرسن (أودنس ١٨٠٥-كوبنهاغن ١٨٧٥). كان الملك كنود قد لقي مصرعه في كنيسة سان ألبان (في أودنس) في ١٠٨٦، وجُعل في مصاف القديسين في ١١٠١، فأصبحت المدينة مكانًا للحج.

* **إيسبيرغ Esbjaerg**: مدينة ومرفأ على الساحل الغربي من جوتلاند مقابل جزيرة فان وعلى بعد ٢٧٨كلم من العاصمة. تعد نحو ٨٥ ألف نسمة. أهم ميناء لصيد السمك في الدانمارك. تصدير اللحوم ومنتوجات الحليب، خاصة باتجاه بريطانيا. مجمّع حراري.

* **سوندربورغ Soenderborg**: مدينة دانماركية صغيرة (نحو ٣٠ ألف نسمة) تقع على بعد نحو ١٠كلم من الحدود مع المانيا، قاعدة مقاطعة جوتلاند الجنوبية، على مفترق طرق تربط بين المجموعة الاوروبية والبلدان الاسكندينافية. فهي بجغرافيتها هذه تحتل موقع «الخفير الاوروبي»

في المعركة التي جرت على الهضاب المحيطة والمشرفة على سوندربورغ انهزم الدانماركيون امام جيوش بيسمارك، وخسرت الدانمارك على أثرها دوقيتين هولشتاين وشلزفيك اللتين كانتا من ممتلكات الدانمارك منذ القرون الوسطى ولكن غالبية سكانهما من الالمان، وخسرت كذلك منطقة لاونبورغ. وفي سوندربورغ متحف يعرض، من جملة ما يعرض، قبعات حديدية لجنود بروسيين وتذكارات من الحرب العالمية الثانية. في المدينة عدد من معاهد التعليم التقني والتعليم الاكاديمي. يعيش فيها نحو ٦٠٠ لاجيء سياسي (١٩٩٦).

* **كوبنهاغن Copenhague**: في اللغة الدانماركية Kobenhavn. عاصمة الدانمارك ومرفأ مهم على الساحل الشرقي من جزيرة سيلاند Sjaelland. تعد نحو ١،٥ مليون نسمة (مع الضواحي). كرسي أسقفي. جامعة مهمة تأسست منذ ١٤٧٨. آثارها التي تعود إلى ما قبل القرن السابع عشر قليلة قياسًا على العواصم الاوروبية الأخرى. في المدينة عدد من المتاحف والمكتبات العامة (المكتبة الملكية هي إحدى أهم المكتبات في اوروبا). تعتبر مركزًا صناعيًا كبيرًا: بناء السفن،

صناعات ميكانيكية (محركات ديزل)، كهربائية، مصانع كبرى للجعة (كارلسبرغ، توبورغ)، البورسلين، الفضية... وتشكل كوبنهاغن جسر عبور بين اسكندينافيا واوروبا الوسطى والغربية. مسقط رأس الرسام والمهندس الدانماركي أبيلدغارد Abildgaard (١٧٤٣-١٨٠٩) الذي لعب دورًا مهمًا في إنماء التيار النيوكلاسيكي، وملوك الدانمارك فريدريك الاول والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، وملك اليونان جورج الاول.

المكان الذي تقوم عليه كوبنهاغن حاليًا كان قرية صغيرة للصيادين في القرن الحادي عشر. الأسقف أبسالون بنى عليها، في ١١٦٧، قلعة لحماية المرفأ. وفي القرن الخامس عشر، أصبحت مقرًا لاقامة الملك. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر أقيمت فيها القلاع والمنشآت الدفاعية حتى تمكنت من الصمود في وجه الحصار الذي ضربه عليها ملك السويد شارل العاشر (١٦٥٨-١٦٥٩)؛ كما صمدت، في ١٧٠٠، امام اساطيل انكلترا وهولندا والسويد. ضربها مرض الطاعون في ١٧١١-١٧١٢، واشتعلت فيها الحرائق في ١٧٢٨ و١٧٢٩، وتعرضت لقصف عنيف من الاسطول الانكليزي أتى على جزء كبير منها في ١٨٠٧. عادت لتسلك طريق التقدم والازدهار في القرن التاسع عشر حتى اصبحت مركزًا صناعيًا وتجاريًا وعقدة مواصلات

«جنيّة البحر الصغيرة»، أهم اعمال اندرسن وصورته المحفوظة في متحف أودنس.

مهمة في اوروبا الشمالية. احتلها النازيون دون مقاومة تذكر في ٩ نيسان ١٩٤٠.

مع مطلع ١٩٩٦، اختيرت كوبنهاغن لتكون العاصمة الثقافية لاوروبا في إطار التقليد الذي استنته المجموعة الاوروبية منذ ١٩٨٥ وشاركت فيه حتى الآن ١١ مدينة قبل كوبنهاغن وفي هذا الاطار تميزت الفعاليات الفنية والادبية والثقافية التي قامت بها المدينة باشتمالها على اهتمام متميز بالحضارة الاسلامية والثقافة العربية قديمًا وحديثًا، لا باعتبارهما عنصرين اجنبيين من المعارف الانسانية والعالمية، بل لأنهما جزء من التاريخ الاوروبي وثقافته، خصوصًا المعاصرة منها.

في هذا الاطار، عاشت كوبنهاغن، ومعها الدانمارك بأسرها وإلى حد كبير الدول الاسكندينافية، حالة ثقافية وديمقراطية قلّ نظيرها في العالم، بدأت في أول تشرين الثاني ١٩٩٦، ودفعت إليها واقعة «اعتذار الشرطة» الدانماركية عن عدم تمكنها توفير الحماية للكاتب الهندي-الانكليزي سلمان رشدي في حال مجيئه إلى كوبنهاغن.

ففي أول تشرين الثاني ١٩٩٦، عرف الدانماركيون من خلال وسائل الاعلام ان الكاتب المذكور لن يتمكن من الحضور إلى بلادهم ليتسلم جائزة الأدب للاتحاد الاوروبي التي منحتها له كوبنهاغن باعتبارها عاصمة اوروبا الثقافية لعام ١٩٩٦، وذلك بسبب اعتذار الشرطة عن عدم قدرتها على توفير الأمن والحماية له خلال زيارته بسبب التهديدات التي قد يتعرض لها من جراء فتوى الإمام الخميني بإهدار دمه منذ صدور روايته «آيات شيطانية» عام ١٩٨٨ (راجع «إيران»، ج ٤، ص ١٨٥).

فأحدث الخبر ردود فعل غاضبة وواسعة وسريعة بدأها الأدباء والكتاب والفنانون واعتبروا القرار تعديًا على مكانة الفكر والثقافة وخرقًا للديمقراطية؛ وما لبث ان انتقل إلى الدانماركيين بمختلف مناطقهم وفئاتهم واحزابهم وجمعياتهم ونقاباتهم وأنديتهم، الذين وقفوا صفًا واحدا وراء مثقفيهم؛ وتضامن معهم مثقفو النروج والسويد والرأي العام فيهما. وهذه الوقفة في الدانمارك والدول الاسكندينافية لم تكن خاصة بسلمان رشدي أو بحالته الموصوفة إلا بشكل ثانوي (وقد عادت الشرطة، وكذلك السلطة بشخص وزير الثقافة يتي هيلدن عن الاعتذار عن استقبال رشدي)، بل كانت دفاعًا عن مطلق الثقافة والمثقفين كمبدأ وقيمة ومكانة في المجتمع، ودفاعًا عن الديمقراطية. فواصل المثقفون والرأي العام في الدانمارك ضغوطهم على السلطة، وقد اتهموها بترجيح العوامل التجارية والمادية على العوامل الديمقراطية والحضارية (تستورد إيران من الجبنة الدانماركية فقط بما يزيد على ٣٠٠ مليون كراون

سنويًا، وهذا مجرد مثال على حجم التجارة بين البلدين)، وحمّلوا رئيس الحكومة، زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بول نيروب راسموسن، وأعضاء حكومته كامل المسؤولية. واعترف رئيس الحكومة بأن القرار كان خطأ ووعد بمعالجته. وانتقلت المناقشات إلى البرلمان الذي عقد جلسة استثنائية.

حول هذه الوقفة الثقافية أجمع كتّاب الأبواب الثقافية في الصحافة العالمية (خاصة الاوروبية) تقريبًا على نقاط، أبرزها أثنتان:

– أبرزت عراقة النظام الديمقراطي في الدانمارك ورسوخ الأسس والجذور التي يقوم عليها المجتمع المدني.

– حدثت هذه القضية (والوقفة الثقافية-الديمقراطية) في وقت بدأ يتزايد فيه النقاش حول ظاهرة تراجع مكانة الثقافة والمثقفين وأهل الفكر والعقل ودور القوى الحية أمام تضخم قوة الطبقات والفئات الاقتصادية الطفيلية وقيمها النفعية.

زعماء ورجال دولة

*** أندرسن، كنود Andersen, Knud**
(١٩١٤-): سياسي دانماركي. عمل في الاذاعة والتدريس. أصبح نائبًا عن الحزب الديمقراطي الاشتراكي، ثم وزيرًا للتعليم ١٩٦٤-١٩٦٨. انتخب سكرتيرًا عامًا للحزب في ١٩٧٠. أصبح وزيرًا للخارجية ١٩٧١-١٩٧٣، و١٩٧٥-١٩٧٨.

*** كراغ، جنز أوتو Krag,J.O.**
(١٩١٤-١٩٧٨): سياسي ومؤلف ورجل دولة دانماركي، تولى مناصب دبلوماسية ووزارية متعددة. أصبح زعيمًا للحزب الديمقراطي الاشتراكي منذ ١٩٦٢، ورئيس الوزراء (١٩٦٢-١٩٦٩-١٩٧١). اعتزل السياسة في ١٩٧٢ بعد ان نجح في إدخال الدانمارك في السوق الاوروبية المشتركة. وضع عدة كتب في حقل الاقتصاد والحركة التعاونية. لعله أهم شخصية دانماركية في الربع القرن الأخير.

*** مالينوفسكي، إيفان Malinovsky,I.** (١٩٢٦-١٩٨٩): شاعر وناشط سياسي والأكثر شعبية في الدانمارك وباقي الدول الاسكندينافية. أطلق عليه «عقل الشمال اللامع». فبجانب موهبته الشعرية كان يمتلك حنكة السياسي، فقد كانت كلمته كلمة الفصل في كل الخلافات السياسية التي تنشأ بين الدول الاسكندينافية.

ولد إيفان مالينوفسكي في كوبنهاغن، وحين بلغ سن الرشد انضم إلى حركة المقاومة ضد النازية. واضطر إلى الفرار من الدانمارك في ١٩٤٢ إلى منفاه الاختياري في السويد حيث عاش ودرس في المدرسة الدانماركية التي تخرج منها في ١٩٤٥، ثم في جامعة أورهوس ليدرس الآداب السلافية ويتخرج منها في ١٩٥٢.

لم يرض مالينوفسكي بأن يكون موظفًا، أو يحترف أي عمل آخر، سوى حرفة الفكر والثقافة والشعر فعاش كاتبًا متفرغًا طيلة عمره يخوض معارك قومه السياسية، الداخلية والخارجية، ويقسم ايام اعوامه بين الدانمارك والسويد. وعندما بلغ الخامسة والاربعين، وكان قد توّج اميرًا على شعراء الشمال، ومكانته جعلت من قوله القول الفصل في أكثر من خلاف، منحته الدولة الدانماركية منحتها الكبرى المعروفة باسم «منحة مدى العمر».

كل أفكاره تنطلق من احلاقية وسلوكية تنحصر في احترامه لانسانية كل إنسان ومعارضته الشديدة لأي أحد يحاول إلغاء سواه من الناس؛ وكل الافكار مطروحة للنقد والمناقشة، فلا يُسلّم بأي فكرة مهما كان عدد المسلّمين بها. على الشاعر، في رأيه، ان يحث نفسه دائمًا على ألا يكتب سطرًا واحدًا يمكن ان تستفيد منه الحاشية أو أي قوة شريرة أخرى. ودستور المجتمع الجيد

إيفان مالينوفسكي.

عنده هو «قيم الحب»، مثل التعاون والمساعدة المتبادلة بين الافراد والمجتمعات، فالانسان حيوان اجتماعي، له ميول اجتماعية. وهذه الميول يجري تدميرها بالبرامج الاقتصادية السياسية في اميركا وانكلترا وسواهما، وهذا هو ما عبّر عنه الاقتصادي الرأسمالي ميلتون فرايدمان الحائز على جائزة نوبل. والنزعة الاجتماعية يمكن اقتلاعها من الانسان مثلما تقتلع السن بالبرامج السياسية الاقتصادية، بل انها تموت تمامًا عند تجاوزها الحدود الاقتصادية. والنزعة الوطنية هي نزعة اجتماعية ويمكن قتلها ببرامج السياسة الاقتصادية وما إليها.

ترجمت أعمال مالينوفسكي إلى أكثر من عشرين لغة في العالم. وقصيدته الاخيرة عن الموت هزت الدانماركيين والاسكنديناف إذ أعطت انطباعًا عن يأس شديد عاشه الشاعر-السياسي.

*** هانسن، هانز كريستيان Hanson,H.C.** (١٩٠٧-١٩٦٠): سياسي دانماركي. ابن صانع احذية. ترأس منظمة الشباب

الدانماركية الاجتماعية الديمقراطية. ثم تزعم الاتحاد الدانماركي الاجتماعي الديمقراطي. بعد وفاة ستوننج (أحد زعماء الاتحاد) اثناء الاحتلال الالماني اشترك هانسن وهدتفوت في زعامة الاتحاد. شغل هانسن عدة مناصب حكومية بعد الحرب العالمية الثانية. رئيس الوزراء من ١٩٥٥ حتى وفاته في ١٩٦٠.

* **يليمان-ينسن، أوفي Ellemen-Jensen, Uffe** (١٩٤١-): سياسي ورجل دولة دانماركي. ولد في هاربي في جزيرة فونين. كان والده محللاً سياسيًا وكاتبًا صحافيًا. أكمل أوفي الماجستير في الاقتصاد من جامعة كوبنهاغن في ١٩٦٩، وكان في الوقت نفسه يعمل صحافيًا في جريدة «برلينغسكا أفتنافيس». انتقل بعدها ليعمل كمعلق سياسي في محطة التلفزيون الدانماركية حتى نهاية ١٩٧٥، حيث أصبح بعدها رئيسًا لتحرير صحيفة «بورسن» كبرى الصحف في البلاد، كما ألّف عددًا من الكتب في مجال الاقتصاد السياسي. انتخب عضوًا في البرلمان عن الحزب الليبرالي (١٩٧٧)، وأصبح، ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، ناطقًا رسميًا باسم الحزب قبل ان يصبح رئيسًا له بعد عامين على ذلك. شغل منصب وزير الخارجية بين ١٩٨٢ و١٩٩٣ حيث انتقل حزبه إلى المعارضة السياسية. رشحته كوبنهاغن لمنصب الامانة العامة لحلف شمالي الاطلسي (ناتو) في ١٩٩٥.

الدول المستقلة، أسرة

نبذة عامة

الجمهوريات الاعضاء في أسرة الدول المستقلة: أسرة (أو مجموعة) الدول المستقلة هي اتحاد حر لدول مستقلة تضم ١٠ دول من أصل ١٥ دولة كانت تشكل الاتحاد السوفياتي سابقًا. ودول الأسرة العشر هي: روسيا الاتحادية، أرمينيا، بيلوروسيا، كازاخستان، قيرغيزستان، مولدافيا، تركمانستان، أوزبكستان، طاجيكستان وأوكرانيا (راجع كلاً من هذه الجمهوريات في موقعها من الموسوعة).

إجمالي عدد سكانها: نحو ٢٨١ مليون نسمة.

نبذة تاريخية: في ٨ كانون الاول ١٩٩١، نشأت هذه الاسرة بموجب إعلان مشترك أذيع عقب اجتماع قمة في مينسك (عاصمة بيلوروسيا) ضم بيلوروسيا وروسيا وأوكرانيا وأكد على نهاية الاتحاد السوفياتي كواقع سياسي. وبعد خمسة أيام انضمت جمهوريات آسيا الوسطى الخمس (كازاخستان، قيرغيزستان، أوزبكستان، طاجيكستان وتركمانستان). وفي ٢٣ كانون الاول ١٩٩١، وفي مؤتمر عقدته دول الأسرة في ألما أتا (عاصمة كازاخستان) انضمت الجمهوريتين الأخريين. وفي هذا تمنت بعض دول الأسرة الاحتفاظ ببنى فدرالية لموازنة الهيمنة الروسية. واتخذ قرار بانشاء مجلس يضم رؤساء دول الاسرة يجتمع مرتين في السنة (رئاسة المجلس دورية)، ومجلس يضم رؤساء الحكومات يجتمع مرتين في السنة ايضًا، ومجالس وزارية (الخارجية، الدفاع، الاقتصاد والمال، المواصلات والاتصالات، الحماية الاجتماعية، الشؤون الداخلية). وقبلت كل من بيلوروسيا وكازاخستان وروسيا وأوكرانيا بقيادة نووية موحدة مؤقتًا تستلمها روسيا. وبعد يومين من مؤتمر ألما أتا، أي في ٢٣ كانون الاول ١٩٩١، اعترفت المجموعة الاوروبية بروسيا كدولة تخلف الاتحاد السوفياتي السابق، واعلنت عن استعدادها للاعتراف بباقي الدول الاعضاء في اسرة الدول المستقلة في حدود تطبيق هذه الدول للمعاهدات والاتفاقيات الموقعة من الاتحاد السوفياتي السابق. وفي ٣١ كانون الاول ١٩٩١ عقد اجتماع قمة لدول الاسرة في مينسك. وفي ٣٠ آذار ١٩٩٢، عقد اجتماع آخر في كييف (أوكرانيا)، وانتهى إلى خلاف شديد أوكراني- روسي.

مشكلات أساسية: العسكرية منها: الاشراف على الاسلحة النووية الاستراتيجية حيث تبدي أوكرانيا معارضة شديدة للاشراف الروسي، مصير الصواريخ النووية التكتيكية، تحديد السلطات العسكرية في ما بين دول الأسرة، إنشاء قوة التدخل لحل النزاعات الداخلية في ما بين اعضاء الأسرة (وقد تقرر إنشاء هذه القوة في ١٨ تموز ١٩٩٢). المشكلات السياسية: معارضة بعض جمهوريات الاسرة (وفي طليعتها أوكرانيا) لانشاء منظمات مركزية وبنى للتعاون السياسي في مجال السياسة الخارجية. المشكلات الاقتصادية والنقدية: خلافات على تقاسم الدين السوفياتي والثروات والصلاحيات الاقتصادية (تتارستان، على سبيل المثال، تريد الاحتفاظ بثرواتها النفطية)، تعريف السياسة النقدية المشتركة ومنطقة الروبل، البنك

المركزي الروسي في ما إذا كان الجهة الوحيدة التي تصدر الروبل، والكوتا الممنوحة للبنوك المركزية الأخرى في الدول الاعضاء في منطقة الروبل...

النزاعات الاتنية: بين ١٩١٨ و١٩٢٢ اقام ستالين، وكان مفوض الشؤون القومية، كيانات وطنية مصطنعة (١٩١٩ بشكيريا، ١٩٢٠ تتاريا أو تتارستان، ومنح نحو ٢٠ شعبًا كان ذائبًا في القيصرية الروسية نظام حكم ذاتي)؛ وفي ١٩٢١، ضمّ قسمًا من أبخازيا إلى جورجيا وبقي القسم الآخر تابعًا لروسيا. في ١٩٣٦، قسمت مناطق القوقاز إلى ٣ جمهوريات، وضمت ناغورني-قره باخ (كراباخ) التي كانت مأهولة من الارمن إلى أذربيجان. في ١٩٤٤، أكثر من مليون و٢٠٠ ألف شخص تمّ تهجيرهم إلى آسيا الوسطى، وهم شعوب صغيرة من القوقاز، من الشمال، من الشيشان، والإنغوش، والبلقار والاتراك الجورجيين، وتتر شبه جزيرة القرم، وألمان الفولغا. كما تمّ تقسيم أوسيتيا إلى أوسيتيا الشمالية (روسيا) وأوسيتيا الجنوبية (جورجيا)، وكذلك تقسيم بساربيا إلى بساربيا الشمالية (مولدافيا) وبساربيا الجنوبية (أوكرانيا). في ١٩٥٦، تمّ ضم شبه جزيرة القرم الروسية إلى أوكرانيا.

ابتداء من ١٩٩٠، بدأت المنازعات والمواجهات العسكرية: الناطقون بالروسية (روسوفون) والمولداف في مولدافيا، الارمن والاذريون في قره باخ، الشيشان والإنغوش في شيشانيا، القيرغيز والأوزبيك في قيرغيزستان. هذا بالاضافة إلى نحو ٨٠ نزاعًا اتنيًا معلنًا أو كامنًا، وإضافة كذلك إلى نزاعات إتنية حتى داخل روسيا الاتحادية، والمثل الابرز على ذلك حرب استقلال الشيشان.

في ١٩٩٤، قدم رئيس كازاخستان نور سلطان نازاربابيف اقتراح تكوين اتحاد جديد سمّاه «الاتحاد الأوروأسيوي» منطلقًا من اقتناعه بهشاشة الشكل التعاوني القائم من خلال «أسرة الدول المستقلة» (راجع «كازاخستان» في جزء لاحق).

مناقشة: تجربة «مجموعة الدول المستقلة» هل تستعيد هيمنتها؟

محمد دياب، استاذ في الجامعة اللبنانية، نشرت له مجلة «شؤون الاوسط» المتخصصة بالاستراتيجيات الاقليمية (العدد ٥٥، ايلول ١٩٩٦، ص ٨١-٨٧، العناوين الفرعية من وضع المؤلف) المقال التالي:

النشأة: بدأت العلاقات بين الجمهوريات السوفياتية تأخذ تدريجًا طابع علاقات بين دول مستقلة منذ كانون الاول ١٩٩١. فخلال عام ١٩٩٢ وحتى النصف الاول من عام ١٩٩٣، نشأ وتكون إلى هذا الحد أو ذاك، النظام الجمركي بين معظم هذه الجمهوريات. وفي ١٩٩٢-١٩٩٣ اعتمدت في غالبية هذه الجمهوريات العملة الوطنية أو بدأ الاعداد لإصدارها. وفي الفترة نفسها تكونت موازين المدفوعات والموازين التجارية، وجرى تقسيم الدين الداخلي والخارجي، وبدأ حساب الديون المتبادلة بين الجمهوريات. وفي تلك الفترة ايضًا تكونت الجيوش المحلية، أو على الاقل قيادات هذه الجيوش التي انفصلت عن الجيش المركزي السوفياتي السابق.

وفي الفترة ١٩٩٣-١٩٩٥ تواصلت عملية تكريس استقلالية الجمهوريات وتعميقها. فأصبحت هذه الجمهوريات جزءًا من نظام العلاقات الدولية، حيث أقام بعضها علاقات طبيعية مع عدد من دول المنطقة والدول الأخرى، ووقع بعضها اتفاقات اقتصادية مع دول وشركات عالمية (للمثال أذربيجان التي أبرمت ما سمي «صفقة القرن» مع كونسورتيوم غربي لاستثمار نفط بحر قزوين). ولكن لوحظ في الوقت نفسه قيام عمليات تكاملية بين عدد من الجمهوريات نفسها، وكانت روسيا محور معظمها: الاتحاد الجمركي بين روسيا وبيلوروسيا وكازاخستان، والتعاون العسكري بين روسيا وكل من أرمينيا وجورجيا وطاجيكستان... الخ.

وهكذا، كانت فترة ١٩٩٢-١٩٩٥ إجمالاً، فترة انجاز تفكيك الكيان السوفياتي إلى مجموعة من ا لكيانات الطامحة إلى الاستقلال الكامل.

وإن عملية التفكك المشار إليها، والتي انطلقت رسميًا عقب اتفاقية بيلوفيجسكي عام ١٩٩١، كانت قد بدأت عمليًا أواخر الثمانينات عندما برز مع بداية ضعف سلطة المركز بصورة حادة، التمايز الفعلي بين جمهوريات الاتحاد السوفياتي وفقًا لمجموعة من المؤشرات والعوامل، منها اختلاف انماط الثقافة السياسية والانماط الاقتصادية والتوجهات الجيوسياسية ومصالح النخب السياسية الحاكمة وارتباطاتها... الخ. وكشف هذا الامر حقيقة «الاتحاد» الذي كان قائمًا بين الجمهوريات الخمس عشرة، إذ خلف واجهة الاخوة والمساواة والوحدة الثقافية والاقتصادية وما كان يوصف بأنه تقارب مستويات التطور وما شابه، تبين وجود نظام معقد من العلاقات التراتبية مفصول بصورة مصطنعة عن المحيط الجيوسياسي. وكانت أبرز سمات هذا النظام ضعف العلاقات المباشرة بين الجمهوريات، مع توجه كل واحدة منه نحو المركز وارتباطها الوثيق به؛ والمركز هو روسيا بالطبع، أي يمكن تشبيه العلاقات التي كانت قائمة داخل الاتحاد بشبكة اوتوسترادات مغلقة ينطلق كل واحد منها من المركز ليصل إلى الجمهورية المعنية وبالعكس، دون ان تكون له «تحويلات» أو طرق فرعية مساعدة تصله بالجمهوريات الاخرى التي يمر عبرها أو قربها.

هذا الواقع يفسر طبيعة العلاقات القائمة اليوم داخل «مجموعة الدول المستقلة» إذ تغيب رغبة الجمهوريات السابقة في التعامل مع «المجموعة» بصفتها تكتلاً أو بنيانًا كونفيدراليًا أو كيانًا جامعًا أو ما شابه، بل إن كل واحدة منها تتوجه في علاقاتها أساسًا نحو روسيا أو نحو جار إقليمي تربطها به علاقات تاريخية أو قومية أو دينية أو ثقافية (أوكرانيا نحو بولونيا، ومولدافيا نحو رومانيا، وأذربيجان نحو تركيا، وجمهوريات آسيا الوسطى نحو تركيا أو إيران...الخ). ويفسر هذا الواقع ايضًا عدم فاعلية «مجموعة الدول المستقلة» وعجزها عن التحول إلى تجمع اقتصادي-سياسي فاعل، على رغم مئات الاتفاقات الموقعة في مختلف الميادين. فالمجموعة أشبه اليوم بنادٍ سياسي بالدرجة الاولى، وعسكري واقتصادي بدرجة أقل.

عوامل التوجه نحو روسيا: ولكن، كيف يمكن في ضوء ما تقدم، تفسير الميل إلى تعزيز الاتجاهات التكاملية داخل «المجموعة»؟

إن هذه الظاهرة لا تعبر عن توطد «المجموعة» في ذاتها، بقدر ما تعكس العلاقات الفعلية، الثنائية والثلاثية، وأحيانًا الرباعية، بين أعضائها. وهذه الظاهرة ناجمة عن مجموعة من الاسباب أبرزها الآتي:

١- هناك في معظم الجمهوريات السابقة نوع من «الاحباط» إزاء الايديولوجيا القومية البدائية التي سادت في المرحلة الاولى بأشكالها

الأكثر حدة وتشردًا.

٢- ثمة عجز في بعض الجمهوريات عن تأمين متطلبات الكيان المستقل وكلفته الباهظة: القوات المسلحة والممثليات الديبلوماسية في الخارج وحماية الحدود الخارجية... الخ.

٣- النخب السياسية الحاكمة في هذه الجمهوريات تشعر بالخيبة إزاء وعود الدول الغربية بتقديم المساعدات المالية والاقتصادية الكافية والسريعة. وبينما تدرك الجمهوريات الواقعة في الجزء الغربي من الاتحاد السوفياتي سابقًا، أكثر فأكثر استحالة تكاملها الاقتصادي والسياسي والعسكري في البنى الاوروبية الموحدة، يتأكد لجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز عجز دول إقليمية مثل تركيا وإيران، عن تلبية كل حاجاتها من المساعدات المختلفة بصرف النظر عن رغبتها في ذلك.

٤- تتجلى أكثر فأكثر محدودية امكانات التنمية المستقلة في الجمهوريات المذكورة، وعجزها عن الانفصال الكامل عن المدى الاقتصادي الموحد الذي تكوّن خلال عقود من التطور المشترك والمرتبط بالمركز، حتى بالنسبة لجمهورية كبيرة كأوكرانيا تتمتع بطاقات وثروات ضخمة. كذلك تنمو سريعًا مديونية الدول المستقلة حديثًا لروسيا، وهي مضطرة إلى الاستعانة بها لتأمين حاجاتها من الكوادر الماهرة والخبرات العلمية والصناعية. فعلى رغم المشكلات الهائلة التي تعانيها روسيا، فإنها بفضل ثرواتها الهائلة وامكاناتها، تبدو أفضل حالاً من شريكاتها الصغرى، ولا تزال بالنسبة لها تمثل «المركز» الذي لا بد من اللجوء إليه والتطلع إلى دعمه ومساعدته.

٥- بالنسبة للجمهوريات التي تمزقها النزاعات المسلحة (الداخلية أو الحدودية) كطاجيكستان وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا ومولدافيا، أو تلك التي يتهددها خطر التفكك بسبب بنيتها الديموغرافية ككازاخستان، يبدو التوجه إلى روسيا خطوة اضطرارية لا بد منها لحماية الوحدة الداخلية أو الحدود.

٦- توجد في بعض الجمهوريات السوفياتية السابقة اعداد كبيرة من الروس الذين يشكلون في حالات معينة أكثرية (كازاخستان)، أو نسبة كبيرة لا يستهان بها (أوكرانيا وبيلوروسيا). ومن الطبيعي ان تصبو هذه الجماعات إلى إقامة علاقات متينة مع «الوطن الأم». فضلاً عن ذلك ظهرت في الجمهوريات التي لها حدود مشتركة مع روسيا وبمساعدة روسية بالطبع، قوى سياسية ذات نفوذ تدعو إلى التقارب والتكامل مع روسيا. والنخب السياسية التي وصلت إلى الحكم على موجة الاستقلال عقب تفكك الاتحاد السوفياتي، تجد نفسها مضطرة ان تأخذ تطلعات الأقليات الروسية ومواقف القوى السياسية المذكورة في الحسبان.

«الاتحاد السلافي»: إلى ذلك، تلوح في الوعي الاجتماعي الروسي اليوم مواقف متناقضة من مسألة التكامل مع الجمهوريات السابقة إزاء موقع روسيا داخل «مجموعة الدول المستقلة»، أو أي تجمع ينشأ على أساسها: هناك قدر من الحنين إلى الدولة العظمى السابقة، مثلما ان قطاعًا لا يستهان به من المواطنين الروس يعتبر انهيار الاتحاد السوفياتي مأساة وطنية، وسببًا رئيسيًا لتقهقر مواقع روسيا على الصعيد الدولي، ولتردي الاوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية والأمنية في البلاد، علمًا ان قيام «مجموعة الدول المستقلة» قلل من حدة الصدمة الناجمة عن انهيار الدولة الاتحادية، ذلك انه على رغم الاستقلال السياسي للجمهوريات الاتحادية السابقة، ظلت الحدود داخل «المجموعة» مفتوحة إلى حد كبير، وبقيت العلاقات بين سكانها على حالها تقريبًا.

وفي المقابل، يتعزز لدى المواطنين الروس الشعور بالانتماء إلى روسيا الاتحادية بالذات،

وليس إلى أي اتحاد أو كيان آخر. فالشعور القومي لديهم اليوم أقوى من أي وقت مضى. وهم لا يرغبون في التضحية بمصالحهم الاقتصادية من اجل تكامل متسرع وغير مدروس مع الآخرين، لا سيما مع من هم أضعف من روسيا. وهذا النوع من التكامل يعني بالنسبة إليهم أن على روسيا ان تعطي من ثرواتها وطاقاتها الكثير لقاء وحدة مشكوك في فاعليتها وفائدتها وقدرتها على الاستمرار. وإذ تدرك غالبية الروس اليوم عدم التجانس الثقافي والاقتصادي على امتداد المجال السوفياتي سابقًا، فإنها تميل أكثر فأكثر إلى نوع من الاتحاد بين الجمهوريات السلافية الثلاث: روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا، وليس إلى وحدة كاملة ومتكافئة في إطار الاتحاد السوفياتي السابق. أما الجمهوريات الأخرى فيمكن في رأيهم، إقامة علاقات ثنائية ومتفاوتة معها.

هذا الواقع يدفع النخب السياسية الروسية الحاكمة، بصرف النظر عن انتمائها الايديولوجي وعن احتمالات التغير على رأس السلطة، إلى بناء منظومات مختلفة من العلاقات مع جيران روسيا الأقرب والأبعد. ويُرجح ان تتوزع هذه العلاقات على مسارات ثلاثة: غربي، وشرقي (آسيا الوسطى)، وثالث جنوبي (قوقازي).

– على المسار الغربي (الاوروبي) تفرض العوامل الاقتصادية والثقافية والنفسية والجيوستراتيجية قيام تكامل عميق بين روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا. ولا يتردد البعض في إطلاق اسم «الاتحاد السلافي» عليه. وتولى أهمية كبيرة في هذا الشأن لجمهورية بيلوروسيا، الشقيقة الأقرب لروسيا. فمن الناحية الجيوسياسية تشكل هذه الجمهورية «جسرًا» بين روميا والغرب. ولذا فإن الابتعاد سياسيًا وعسكريًا عن هذه الجمهورية ينطوي في رأي السياسيين والاستراتيجيين الروس، على احتمال اضعاف مواقع روسيا عمومًا، وفي إطار «مجموعة الدول المستقلة» خصوصًا. وهذا يفسر الجهود المتزايدة التي تبذلها موسكو لتحقيق نوع من الاتحاد الكونفدرالي كخطوة أولى مع بيلوروسيا، وذلك في ضوء احتمالات تمدد حلف شمال الاطلسي شرقًا إلى التخوم الغربية لروسيا.

أما أوكرانيا، فإن العلاقة بها تتسم بخصوصية تحتم في رأي الروس، قيام اتحاد معها، وذلك بحكم القرابة التاريخية والحضارية–الثقافية والروابط الاقتصادية والموقع الجيوسياسي المهم بالنسبة لروسيا. ويرى بعض السياسيين والمحللين الروس ان المشكلة الاساسية معها تنحصر في الجانب السياسي الخارجي، أي في محاولات الولايات المتحدة منع إعادة توحيد روسيا وأوكرانيا للحيلولة دون قيام دولة كبرى في أوراسيا، تعادل قريبًا من حيث الحجم والقوة العسكرية والقدرات والطاقات الاقتصادية والعلمية، الاتحاد السوفياتي السابق، أي تؤول في الواقع، إلى إحياء هذا الاتحاد باسم آخر. وتجمع غالبية القوى السياسية في روسيا اليوم على رأي القائل إن الافتراق الروسي–الاوكراني شكل خسارة استراتيجية لروسيا، ولأوكرانيا بالطبع.

على المسار غير السلافي: وعلى المسار الشرقي (آسيا الوسطى) يتوقع ان تتركز الجهود الروسية على إقامة سلسلة اتفاقات–التزامات متبادلة تضمن لروسيا أمنها ومصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في هذه المنطقة مقابل تقديم المساعدة لجمهورياتها في ميادين الاقتصاد والأمن وبناء القوات المسلحة. ويمكن ان تشكل كازاخستان، الجمهورية الكبيرة ذات الأكثرية الروسية (٦٠ في المئة من سكانها) الجناح الشرقي لاتحاد محتمل مع بيلوروسيا وأوكرانيا. أما الجمهوريات الأخرى في آسيا الوسطى، فإنها تحظى باهتمام متزايد لدى الاستراتيجيين الروس، ذلك أنه عقب مرحلة الانكفاء الروسي الموقت الذي شجع دولاً كتركيا وايران على محاولة تحقيق

مكاسب جيوسياسية في هذه المنطقة على حساب روسيا، ظهر نشاط روسي متعاظم لاستعادة دور الدولة العظمى هناك (الدور الروسي في احداث طاجيكستان على سبيل المثال). وتنصب الجهود الروسية الاساسية على تحييد واستيعاب المحاولات التوسعية التركية هناك، مع عدم الدخول في مواجهة مفتوحة معها، وكذلك على مواجهة المد الأصولي الاسلامي من طريق افغانستان-طاجيكستان، لمنع وصوله إلى المناطق الاسلامية في روسيا نفسها.

أما على المسار الجنوبي (القوقازي) فإن جورجيا وأرمينيا تشكلان بالنسبة لروسيا رأس جسر جيوسياسيًا على حدودها الجنوبية. ويعتقد الاستراتيجيون الروس أنه إذا تأخرت روسيا في تعزيز مواقعها في هاتين الجمهوريتين ومن خلالها في الجمهوريات الأخرى في المنطقة، فإن دولاً كبرى أو إقليمية، مثل الولايات المتحدة وألمانيا في الغرب، وتركيا وإيران في الجنوب، ستسارع حتمًا إلى ملء الفراغ الناشىء هناك، ومن ثم تزيح روسيا من القوقاز وتحل مكانها. وإن هذه العوامل تجعل العمل على إقامة اتحاد عسكري بين روسيا وكل من جورجيا وأرمينيا امرًا ملحًا في نظرهم، لا سيما انهما عاجزتان عن الحفاظ على سلامة اراضيهما وأمنهما وحل مشكلاتهما الاقتصادية بمفردهما.

وعلى المسار الجنوبي ايضًا يمكن ان تتعارض مصالح روسيا الحيوية، بما في ذلك أمنها الداخلي ووحدتها، مع مصالح تركيا التي تسعى إلى القيام بدور فاعل هناك من خلال تقديم المساعدة للشعوب الاسلامية والناطقة بالتركية في هذه المنطقة. ويرى عدد من المحللين الروس ان هناك تحديدًا، على الجناح الجنوبي لروسيا، يمكن ان تنبعث مجددًا الصورة الجيوسياسية التقليدية التي ميزت تلك المنطقة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أي صورة الصراع التركي-الروسي والحروب القوقازية المتتالية بين الامبراطوريتين العثمانية والروسية.

أيًا يكن شكل الإطار الذي سيجمع بين روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة، سواء كان ذلك في إطار «مجموعة الدول المستقلة» أو الاتحاد الأورو-آسيوي أو أي شكل فيدرالي أو كونفدرالي آخر، فإننا نعتقد انه ستتكون في الواقع منظومة من العلاقات تكون فيها روسيا في موقع «المركز» بحيث تمارس هيمنة على جزء كبير من المنطقة الجيوسياسية السوفياتية السابقة، وسوف تختلف طبيعة هذه الهيمنة ودرجتها بين مسار وآخر من المسارات التي أشرنا إليها.

وثمة عوامل ستحد بالطبع، من هذه الهيمنة الروسية؛ بعضها يرتبط بالقوى الدولية والإقليمية الساعية إلى الحلول مكان روسيا ومنعها من إعادة بسط هيمنتها على مناطق نفوذها السابقة، وبعضها الآخر يرتبط بوجود قوى داخل الجمهوريات المذكورة تعارض هذه الهيمنة وتقف في وجهها. بيد ان العنصر الأهم الذي يمكن ان يعيق هذه الهيمنة يكمن في ضعف روسيا نفسها الناجم عن عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي فيها، وفي محدودية امكاناتها الاقتصادية اولاً، ومن ثم السياسية والعسكرية، الأمر الذي سيعرقل سعيها إلى القيام بدور القوة الرئيسة المؤهلة لتحويل «مجموعة الدول المستقلة» بشكلها الفضفاض الراهن، إلى تكتل اقتصادي-سياسي-عسكري محوره موسكو، على ان يصون المدى الجيوسياسي والاستراتيجي الذي يحفظ مصالحها الحيوية، وتجبه من خلاله التكتلات الأخرى القائمة أو التي يجري العمل لإقامتها في مناطق مختلفة من العالم.

الدومينيك

نبذة عامة

الموقع: جزيرة في شرقي جزر الانتيل الصغرى، وتعد الدومينيك واحدة من هذه الجزر.

المساحة: ٧٥١كلم م.. يبلغ طولها ١٥٢كلم وعرضها ٤٧كلم. جبالها بركانية، وأعلى قمة فيها ١٦٤٠م.

العاصمة: روزو (نحو ٢١ ألف نسمة)، وتأتي بلدة بورتسموث (٣ آلاف نسمة) ثاني العاصمة أهمية.

اللغات: الانكليزية (رسمية)، وتنتشر الفرنسية بشكل واسع. و٧٥٪ من السكان يتكلمون لغة الكريول المحلية.

السكان: يعدون نحو ٨٢ ألف نسمة. أغلبيتهم من اصل افريقي، وأفرو-أوروبي. نحو ٨٠٪ كاثوليك، والباقون بروتستانت أنغليكان وميثوديون.

الحكم: نظام الحكم جمهوري برلماني. عضو في الكومنولث. الرئيس الحالي (منذ ٢٠ كانون الاول ١٩٨٣) كلارنس سنيوري. رئيس الوزراء ماري أوجينيا تشارلز (منذ ٢٣ تموز ١٩٨٠). البرلمان من ٣١ عضواً، يعين منهم ٩ أعضاء، وينتخب الباقون. اسفرت انتخابات اول تموز ١٩٩٠ عن فوز حزب الحرية (بزعامة أوجينيا تشارلز) بـ١١ مقعدًا، وحزب العمال الموحد بـ٦ مقاعد، وحزب العمال المعارض (بزعامة مايكل دوغلاس) بـ٤ مقاعد.

الاقتصاد: الاعتماد الأساسي على الزراعة. وأهم المنتوجات الزراعية: عصير الليم (نوع من الليمون الحامض)، الكوبرا، الألبسة والخمور. تستعمل احجار الخف المستخرجة من التربة في بناء البيوت. تشجع الحكومة تربية الماشية، والسياحة (نحو ٦٠ ألف سائح سنويًا).

نبذة تاريخية: في ٣ تشرين الثاني ١٤٩٣، اكتشف كريستوف كولومبوس جزيرة الدومينيك، لكنه لم ينزل على ارضها واكتفى بملاحظتها والتكلم عنها. اقام الفرنسيون مراكز لهم على شواطئها في اواسط القرن الثامن عشر. في ١٧٥٩، سيطرت عليها انكلترا، ثم استرجعتها فرنسا بين ١٧٧٢ و١٧٨٣، وبين ١٨٠٢ و١٨١٤، لتعود إلى الانكليز. ادخلت الدومينيك ضمن نظام المستعمرات البريطانية في الأنتيل في ١٨٧١. وعدّل هذا النظام في ١٩٤٠، وحصلت الدومينيك على حكمها الذاتي في ١٩٦٧ في إطار «رابطة دول الأنتيل». وفي ١٩٧٨، أعلن عن قيام جمهورية الدومينيك المستقلة. وكان باتريك جون اول رئيس للوزراء منتخب في بداية عهد الاستقلال. وفي ١٩٧٩، حل محله أوليفر سيرافين (الاثنان من حزب العمال). لكن الانتخابات العامة التي جرت في تموز ١٩٨٠ (أول انتخابات) اسفرت عن فوز حزب الحرية (حزب محافظ) بزعامة أوجينيا تشارلز (راجع «الحكم» أعلاه).

الدومينيكان

بطاقة تعريف

الموقع: تحتل جمهورية الدومينيكان ثلثي جزيرة هيسبانولا Hispanola أو اسبانولا Espanola (ويطلق على الجزيرة ايضًا إسم سان دومنغ St Domingue) في حين تحتل هايتي الثلث الآخر. وتقع الجزيرة بين كوبا وبورتوريكو في بحر الكاريبي.

المساحة: مساحة الدومينيكان ٤٨ ألف و٧٣٤كلم م.. يبلغ طول حدودها مع هايتي ٣٠٨كلم. وطول شواطئها ١٦٠٠كلم.

العاصمة: سانتو دومينغو دو غوزمان (وكانت، بين ١٩٣٦ و١٩٦١، تسمّى سيتوداد-مدينة-تروخيللو). وأهم المدن: سانتياغو دولوس كابالروس، سان بدرو دو ماكوريس، سان فرنسيسكو دو ماكوريس، باراهونا، لا رومانا، سان فيليبي دو بورتو بلاتا، سان خوان، كونسبيون دولا فيغا.

اللغة: الاسبانية (رسمية).

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٨ ملايين نسمة (تقديرات ١٩٩٦). نحو ٧٥٪ منهم من الخلاسيين (الخلاسي مولود من أبوين ابيض واسود)، نحو ١٠٪ من السود و١٥٪ من البيض. نحو ٩٥٪ كاثوليك، و٣٪ بروتستانت. وهناك أقلية صغيرة من اليهود.

الحكم والاحزاب: الدستور المعمول به صادر في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٦. مجلس الشيوخ من ٣٠ عضوًا منتخبًا لمدة ٤ اعوام، مجلس النواب من ١٢٠ عضوًا منتخبًا لمدة ٤ اعوام. رئيس الجمهورية ينتخب بالاقتراع العام والشامل لولاية ٤ اعوام قابلة للتحديد.

أهم الاحزاب: الحزب الاصلاحي، أسسه جواكان بالاغر (مولود ١٩٠٧) في ١٩٦٣؛ حركة الشبيبة القومية، وأسسها الرئيس بالاغر قبيل انتخابات ١٩٧٤؛ الحزب الدومينيكاني الثوري، أسسه خوان بوش في ١٩٣٩، وهو يرفض الشيوعية والكاستروية (نسبة إلى الرئيس

الكوبي فيدل كاسترو) وينتقد في الوقت نفسه «الامبريالية الاميركية والاستعمار الجديد»؛ حزب تحرير الدومينيكان الذي انفصل عن الحزب الدومينيكاني الثوري إبان حملة ١٩٧٤ الانتخابية ويرئسه خوان بوش نفسه؛ الحزب الديمقراطي الوطني، أسسه الجنرال الياس واسن قبيل لجوئه إلى الولايات المتحدة على أثر الحرب الاهلية في ١٩٦٥؛ الحزب المسيحي الاجتماعي الثوري، يتزعمه روخيليو بلغادو، وهو يرفض الشيوعية والرأسمالية مثل باقي الاحزاب المسيحية في اميركا اللاتينية؛ حركة المصالحة الوطنية التي تشكلت لدعم ترشيح هكتور غارسيا غودوا، الرئيس المؤقت لجمهورية الدومينيكان بعد ثورة ١٩٦٥، وقد كان قبل ذلك سفيرًا لبلاده في الولايات المتحدة؛ الحركة الشعبية الدومينيكانية التي عرفت، في السابق، باتجاهاتها اليسارية المتطرفة، ثم اتخذت اتجاهًا معتدلاً وجذبت إليها عددًا كبيرًا من اعضاء الحزب الشيوعي الدومينيكاني الذي منع من العمل ابتداء من ١٩٦٤، ويتزعمها خوليو دوبينا فلديز.

الاقتصاد: تمثل الزراعة الثروة الاولى في البلاد إذ تؤمن ربع الانتاج القومي العام، ويعمل فيها أكثر من نصف اليد العاملة. وأهم ثلاث زراعات: الكاكاو، قصب السكر والبن. نحو ١٦١ من كبار الملاكين يملكون نحو ٢٢،٥٪ من إجمالي مساحة الاراضي المزروعة. وهناك نحو ٢٠٠ ألف فلاح يعملون في اراض تشكل اقل من ١١،٥٪ من إجمالي مساحة الاراضي. أما الثروات المنجمية فتتلخص بوجود ثلاثة معادن، هي النيكل والذهب والبوكسيت (صخر يستخرج من الألومينيوم). ويمثل النيكل الثروة الثانية (بعد الزراعة) للبلاد التي تأتي في الدرجة السابعة في العالم من حيث إنتاجه. أما الذهب فقد بدأ إنتاجه حديثًا، أي منذ ١٩٧٥، وهو يضع البلاد في المرتبة العاشرة من حيث إنتاجه، ثم البوكسيت (المرتبة الثامنة عشرة). السياحة قطاع مهم في الدومينيكان (نحو ١،٥ مليون سائح سنويًا)، وأهم الاماكن السياحية: في سانتو دومينغو (حيث ضريح كريستوف كولومبوس)، في بلايا غرانـدي، بيرتو بلاتا، كازا دو كامبو، وغيرها.

نبذة تاريخية

الاكتشاف: أطلق كريستوف كولومبوس على الجزيرة، باسم العرش الاسباني، إسم «هيسبانيولا» في ٥ كانون الاول ١٤٩٢. وعلى الرغم من انه نزل في القسم الذي يشكل اليوم دولة هايتي، إلا ان الاسبان بدأوا استعمارهم للجزيرة في القسم الآخر الذي يشكل اليوم جمهورية الدومينيكان، والذي كان الهنود (سكان البلاد الاصليين) يطلقون عليه إسم «كيسكايا». وهذا الإسم هو عنوان النشيد الوطني للجمهورية الحالية. فأسرع الاسبان ببناء مراكز لهم، أهمها مدينة سانتو دومينغو التي أسست في ١٤٩٦ وأصبحت مركز حكم المستعمرة. وكان برتولومي، شقيق كريستوف كولومبوس، يشرف على إنشائها.

الاستعمار الاسباني: أهتم الاسبان، في بادىء الامر، بمناجم الذهب. أما الهنود الاصليون (وينتمون بمعظمهم إلى قبائل تانيوس المسالمة) فقد اقتيدوا إما إلى الموت أو إلى الاستعباد دون إبداء اية مقاومة. وما إن

حلّ عام ١٥٥٠ حتى تمّ إفناؤهم من الجزيرة، في حين كان الاسبان يستقدمون الرقيق الاسود من افريقيا. فالاسبان والسود الافريقيون هم في أصل سكان الدومينيكان الحاليين.

قام نزاع استعماري بين فرنسا واسبانيا، كان من نتائجه ان قسمت الجزيرة بينهما في معاهدة ديسوتيك (١٦٩٧)، فكان الجزء الغربي من نصيب فرنسا. إلا ان الحدود لم تعيّن بشكل دقيق إلا في معاهدة أرانجوز في ١٧٧٧.

في ١٧٩٥، أي بعد أربع سنوات من اول ثورة للعبيد في هايتي، تخلت اسبانيا (بعد هزيمتها امام الفرنسيين في اوروبا) عن مستعمرة سانتو دومينغو لفرنسا. وكان يقطن المستعمرة في تلك الاثناء بين ١٠٠ ألف و١٥٠ ألف نسمة، نحو نصفهم من البيض والخلاسيين والنصف الآخر من السود، في حين كانت هايتي تعد نحو ٥٠-٦٠ ألف من البيض والخلاسيين ونحو ٥٠٠ ألف من السود.

عندما أعلنت الجمهورية، في ١٨٠٤، في هايتي، استمرت سانتو دومينغو (أي الجزء الذي كان مستعمرة اسبانية) تحت السيطرة الاسبانية. لكن هذا الوضع لم يدم أكثر من خمس سنوات، إذ عادت اسبانيا واسترجعت سيطرتها على المنطقة في ١٨٠٩. ويصف المؤرخون الدومينيكانيون هذه الفترة الجديدة من الاستعمار الاسباني بعبارة «حكم اسبانيا المجنونة» للدلالة على عدم كفاءة الحكام الذين ارسلهم المتروبول الاسباني وعلى قسوتهم وشراستهم.

ثورات واستقلال: في ١٨٢١، انتفض سكان الدومينيكان بثورة عارمة، وطردوا حاكمهم واعلنوا الاستقلال. لكن، بعد اسابيع فقط غزا جيش هايتي سانتو دومينغو، واخضعها لسيطرته وعمل في رقاب سكانها كل انواع البطش والقهر طيلة ٢٢ سنة.

وفي ١٨٤٤، اندلعت ثورة عارمة اطاحت سلطة الهايتيين واعلنت قيام الجمهورية الدومينيكانية. لكن الدولة الفتية عانت المزيد من المصاعب ومن فساد السياسيين والحكام الجدد، واصبحت وكرًا للمؤامرات والدسائس ومسلسل الاغتيال، حتى باتت مهددة من جديد باجتياح الهايتيين. وفي ١٨٦١، أصبح الوضع قلقًا ومعقدًا لدرجة انه دفع بالحكومة إلى اتخاذ قرار باعادة ضم البلاد إلى اسبانيا. لكن الاسبان أُجبروا مرة جديدة على ترك البلاد نهائيًا في ١٨٦٥. وبعد أربع سنوات، طرح مشروع ضم جمهورية الدومينيكان إلى الولايات المتحدة الاميركية. لكن المشروع لم ينفذ، لا بل توقف الكلام عليه بعد وقت قصير.

ديون وتدخل اميركي: في اوائل القرن العشرين، كان على الحكومات الدومينيكانية المتعاقبة ان تواجه المزيد من الديون المستحقة عليها للولايات المتحدة الاميركية وبعض الدول الاوروبية. وفي ١٩٠٥، قررت الولايات المتحدة ان تقوم بنفسها بمهمة جباية الرسوم الجمركية لجمهورية الدومينيكان حتى تضمن حقوقها

المالية. ومذاك، بدأ مسلسل التدخلات الاميركية في شؤون الدومينيكان. ففي ١٩١٦، احتل المارينز (جنود مشاة البحرية الاميركية) البلاد وفرضوا عليها حكومة عسكرية. وبررت الولايات المتحدة عملها هذا بضرورات الحرب العالمية الاولى وخشيتها من احتلال الالمان لكامل الجزيرة. وعلى الرغم من انتهاء الحرب، ومن توقيع الهدنة، استمر الاحتلال الاميركي حتى ١٩٢٤. فشكلت في البلاد حكومة شرعية، وجرت انتخابات حملت إلى الرئاسة الجنرال هوراسيو فاسكيز الذي اطاحه انقلاب عسكري قاده قائد الجيش رافائيل ليونيداس تروخيللو.

عهد تروخيللو: كان تروخيللو ابن موزع بريد في مدينة سانتو كريستوبال الواقعة على بعد ٢٤كلم غربي العاصمة. في بداية العشرينات، دخل في الشرطة، وأصبح قائدًا للجيش بعد ضم الشرطة إلى الجيش. كان دكتاتور الدومينيكان مدة ٣١ سنة، واغتيل في ١٩٦١. لم يرض تروخيللو بأن يكون مجرد دكتاتور عسكري وسياسي بالمعنى المعروف، بل ذهب إلى حد السيطرة الكاملة على جميع مظاهر الحياة العامة في البلاد. غيّر إسم العاصمة وجعلها «مدينة تروخيللو» (استعادت اسمها بعد مقتله) واقام تماثيل له في كل انحاء البلاد، وملأها بشعارات مثل «ا لله وتروخيللو».

أما الوجه الآخر لسياسة تروخيللو فتتمثل ببعض الانجازات، مثل انهاء وصاية الولايات المتحدة على الرسوم الجمركية، وبناء المستشفيات، وشق الطرقات، وتنمية انتاج السكر والموز والبن والكاكاو، وجعل سانتو دومينغو إحدى أحدث مدن الانتيل. لكن كل هذه الانجازات كانت في إطار هدفه الوحيد الرامي إلى امتلاكه (وعائلته) ثروات البلاد.

مسلسل انقلابات: في ١٩٦٢، وبعد أزمة في الحكم دامت نحو سنة، جرت اول انتخابات ديمقراطية في الدومينيكان حملت إلى السلطة خوان بوش، زعيم الحزب الثوري الدومينيكاني. لكن بوش لم يتمكن من الصمود أكثر من سبعة أشهر في وجه خصومه العديدين (الشيوعيون، كبار ملاكي الاراضي، رجال الاعمال، العسكريون)، فأطاحه انقلاب عسكري جاء بمجلس من ثلاثة اعضاء إلى اعلى هرم السلطة. وجاء دور هذا المجلس في مسلسل الطرد من السلطة (الذي اتسمت به مجموع دول اميركا اللاتينية) في نيسان ١٩٦٥، تحت ضغط انتفاضة عامة، اشترك فيها هذه المرة، العسكريون والمدنيون، وتشكلت على أثرها حكومة ثورية. لكن نزاعًا انفجر داخل الجيش (واحيانًا مع المدنيين)، استغلته الولايات المتحدة الاميركية وارسلت ٢٠ ألفا من جنودها (المارينز) بحجة منع سقوط البلاد تحت الحكم الشيوعي. ثم لحقت بالمارينز جيوش منظمة الدول الاميركية بهدف اعادة الامن والسلام إلى البلاد.

كرونولوجيا أهم الاحداث: في ١٩٦٦، جرت انتخابات عامة تحت

إشراف منظمة الدول الاميركية، فاز بالرئاسة على أثرها جواكيم بالاغر، ثم انسحبت القوات الاجنبية في ايلول ١٩٦٦.

أعيد انتخاب بالاغر مرة ثانية في ايار ١٩٧٠. وفي شباط ١٩٧٣، أعلنت حالة الطوارىء في كل البلاد إثر حرب عصابات شنّها رجال الرئيس السابق خوان بوش وحليفه كامانو، فقمعت الحركة وقتل كامانو، وتخلّى بوش عن حزبه «الحزب الثوري الدومينيكاني» وأسس «حزب تحرير الدومينيكان». وفي انتخابات ١٩٧٤، فاز بالاغر مرة جديدة بالرئاسة، وتشكلت جبهة واسعة من المعارضين لمنع بالاغر من تجديد ولايته في ١٩٧٨. ونجحت بذلك، إذ فاز في انتخابات ١٩٧٨، احد مرشحي الوسط (وقد أيّده الحزب الثوري الدومينيكاني) وهو انطونيو غوزمان.

في ٣ ايلول ١٩٧٩، ضرب البلاد اعصار شديد، تسبب في مقتل نحو ١٢٠٠ شخص وتشريد أكثر من ٣٥٠ ألفًا وتخريب نحو ٩٠٪ من المحاصيل الزراعية (نحو ٣٥٠ مليون دولار).

في ايار ١٩٨٢، جرت انتخابات عامة حملت إلى الرئاسة سالفادور خورخي بلانكو (مولود ١٩٢٦)، مرشح الحزب الثوري الدومينيكاني الذي حلّ محل انطونيو غوزمان. وقبل موعد التسلم والتسليم في ١٦ آب، انتحر غوزمان في تموز. وأخطر ما واجهه حكم بلانكو اضطرابات نيسان ١٩٨٤، حيث دمرت بعض مراكز الحزب الحاكم اثناء اضراب دعت إليه الاتحادات النقابية الرئيسية الخمسة احتجاجًا على رفع اسعار السلع الاساسية والادوية. وعلى صعيد آخر، دعا البابا (إبان زيارة له إلى البلاد في تشرين الاول ١٩٨٤) إلى «التحرير الاجتماعي» في معرض انتقاده للعناصر الماركسية في اللاهوت، وللفلسفة المادية الغربية.

في انتخابات ١٦ ايار ١٩٨٦، عاد جواكيم بالاغر وفاز بالرئاسة على منافسه جاكوبو ماجلوتا مرشح الحزب الثوري.

وفي شباط ١٩٨٨، عادت الاضطرابات والمظاهرات تعم البلاد بسبب غلاء المعيشة. وصدر حكم على الرئيس السابق، بلانكو، الذي لجأ إلى الولايات المتحدة بسجنه ٢٠ عامًا بتهمة الفساد وسرقة اموال الدولة.

في آب ١٩٩٠، اضراب عام شل البلاد. والعام ١٩٩٢ كان عام المئوية الخامسة لاكتشاف القارة الاميركية، حيث ابرز ما احتفلت به العاصمة كان تدشين بناء منارة عملاقة دعيت «منارة كولومبوس»

مدن ومعالم

*** سانتو دومينغو Santo Domingo:** عاصمة الدومينيكان، وأهم مدينة فيها، وأهم مرفأ ومركز تجاري. تعد نحو ١،٦ مليون نسمة. اول مدينة بناها الاوروبيون في العالم الجديد. لا تزال تحتفظ بمبان شُيّدت في النصف الاول من القرن السادس عشر، أي في الفترة التي كانت تشكل هذه المدينة فيها مركز الحياة الاسبانية في اميركا.

أهم هذه المباني كاتدرائية سانت ماري لامينور الذي تحتضن، كما يقول بعض المؤرخين، قبرًا يضم رفات كريستوف كولومبوس، عندما كان حاكمًا على جزيرة هيسبانيولا. وجامعة المدينة يعود إنشاؤها إلى العام ١٥٣٩.

*** سانتياغو دو لوس كابالّيروس**

Santiago de los Caballeros: ثاني أكبر وأهم مدينة في الدومينيكان بعد العاصمة. تعد نحو ٣٥٠ ألف نسمة. أسسها برتولوميو كولومبوس في العام ١٥٠٠ في وسط وادي سيباو Cibao. وهي لا تزال تحتفظ بكامل طابعها الاسباني الاستعماري. وموقعها في وسط منطقة خصبة جعلها مركزًا تجاريًا نشطًا.

زعماء ورجال دولة

*** بالاغر، جواكيم Balaguer,J.**
(١٩٠٧-): راجع النبذة التاريخية.

*** بلانكو، خورخي Blanco,Jorge**
(١٩٢٦-): راجع النبذة ا لتاريخية.

*** بوش، خوان Bosch,J.** (١٩٠٩-): رئيس جمهورية الدومينيكان (١٩٦٣). ديمقراطي اشتراكي عاش في المنفى من ١٩٣٧ إلى ١٩٦١. أزيح بانقلاب عسكري في العام نفسه الذي انتخب فيه، واضطر إلى العيش في المنفى مرة أخرى (راجع النبذة التاريخية).

*** تروخيللو، رافائيل Truchillo,R.**
(١٨٩١-١٩٦١): دكتاتور الدومينيكان المطلق من ١٩٣٠ وحتى وفاته في ١٩٦١. تولى رئاسة الجمهورية رسميًا في السنوات ١٩٣٠-١٩٣٨، و١٩٤٢-١٩٥٢. اتسم حكمه بالتسلط والتخلف والارهاب والفساد. قتل، بالتواطؤ مع نظيره رئيس جمهورية هايتي، أكثر من ١٠ آلاف من الهايتيين (راجع ا لنبذة التاريخية).

*** غوزمان، انطونيو Guzman,A.**
(١٩١١-١٩٨٢): سياسي دومينيكاني. رئيس الجمهورية من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢. كان من كبار ملاكي الاراضي. تولى وزارة الزراعة في حكومة خوان بوش الاصلاحية (١٩٦٣). أصبح بعد الانقلاب العسكري الذي اطاح بوش رئيسًا للحزب الثوري الدومينيكاني (المقرب من الاممية الاشتراكية). بعد الانزال الاميركي في الجزيرة (١٩٦٥)، اختار غوزمان ان يحافظ على علاقات جيدة مع الولايات المتحدة، وكان احد اعضاء اللجنة التي كلفت التحضير لانتخابات ١٩٦٦. ولكنه هزم في هذه الانتخابات امام جواكيم بالاغر، أحد وزراء الدكتاتور ترخيللو السابقين. وهزم مرة ثانية، امام بالاغر، في الانتخابات التالية. وأخيرًا فاز في انتخابات ١٩٧٨ بفضل دعم الولايات المتحدة التي حذرت الجيش من اعاقة عملية الاقتراع. عمد غوزمان أثناء رئاسته إلى التخفيف من وطأة الاجراءات القمعية، فألغى الرقابة على الصحف واطلق حرية الفكر رغم انه واجه محاولة انقلابية في ١٩٧٩. ورغم المساعدة الاميركية، لم يستطع ان يخفف من حدة الازمة الاقتصادية (راجع النبذة التاريخية).

الرأس الأخضر، جزر

نبذة عامة

الموقع: تقع جمهورية الرأس الأخضر في المحيط الاطلسي على بعد نحو ٤٥٥ كلم من عاصمة السنغال داكار. تشكل ارخبيلاً من مجموعتين من الجزر: مجموعة من عشر جزر كبيرة، وأخرى من خمس جزر صغيرة غير مأهولة. والجزر الكبيرة تنقسم بدورها إلى مجموعتين: بارلافنتو (امام الريح)، وسوتافنتو (ظل الريح). وأهم الجزر: ساوفيسنت، سانتو أنتو، ساو نيقولا، وسانتا لوسيا.

المساحة: ٤٠٣٣ كلم م..

العاصمة: برايا Praia الواقعة في جزيرة ساوتياغو، وتعد نحو ٦٥ ألف نسمة. والمدينة الثانية من حيث الأهمية هي ميندلو الواقعة في جزيرة ساوفيسنت وتعد نحو ٢٥ ألف نسمة.

اللغة: البرتغالية (رسمية). وهناك بعض اللغات الافريقية المحلية.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو مليون نسمة. حوالي ٦٥٪ من الخلاسيين (مستيكوس Mesticos في البرتغالية: خليط برتغالي-افريقي)، وهو العنصر المسيطر في كل الجزر ما عدا جزيرة ساوتياغو، و١٪ من البيض، و٣٤٪ من السود. وهناك جاليات كبيرة من سكان الرأس الأخضر: في الولايات المتحدة نحو ٦٠٠ ألف، في السنغال نحو ٣٥٠ ألفًا، في البرتغال نحو ٤٠ ألفًا، في أنغولا نحو ٣٠ ألفًا، في هولندا نحو ١٠ آلاف، في بلدان اميركا اللاتينية نحو ١٠ آلاف، في ايطاليا ٨ آلاف، في فرنسا ٧ آلاف. نحو ٩٠٪ من السكان كاثوليك، ونحو ٣٪ بروتستانت.

الحكم والاحزاب: نظام جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ٧ ايلول ١٩٨٠، معدّل في ايلول ١٩٩٠. البرلمان من ٨٣ عضوًا، ينتخب منهم بالاقتراع العام والشامل ٧٩ عضوًا لولاية نيابية من ٥ اعوام. رئيس الجمهورية، منذ ١٩٩١، هو انطونيو ماسكارنهاس مونتيرو (مولود ١٩٤٤).

كان هناك عدد من الاحزاب السياسية العاملة قبل الاستقلال، إلا ان حزبًا واحدًا قد اشترك في الانتخابات التي جرت في ٣٠ حزيران ١٩٧٥ وهو الحزب «الافريقي من اجل استقلال غينيا والرأس الأخضر» الذي تأسس في ١٩٥٦ على يد أميلكار كابرال وآخرين من الذين قاوموا الاستعمار البرتغالي في جزر الرأس الأخضر وغينيا-بيساو، وعملوا من اجل وحدة الاقليمين. كانت كوناكري (عاصمة غينيا) مركز الحزب الأساسي عندما بدأ ناشطوه بعملياتهم العسكرية في غينيا-بيساو في ١٩٦٣. وبعد اغتيال أميلكار كابرال في ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٣ خلفه على زعامة الحزب شقيقه لويس كابرال وأريستيدس ماريا بيريرا، الاول رئيس غينيا-بيساو ونائب أمين عام الحزب، والثاني رئيس جمهورية جزر الرأس الأخضر وأمين عام الحزب (اواسط ١٩٧٩). في ١٩ كانون الثاني ١٩٨١، تأسس الحزب الافريقي لاستقلال الرأس الأخضر. وفي ايار ١٩٩٠، تأسس حزب الحركة من اجل الديمقراطية.

الاقتصاد: لا تتجاوز مساحة الاراضي المزروعة نحو ١٠٪ من المساحة العامة (يضاف إليها المراعي ٩٪، والغابات ٠،٣٪)، ومع ذلك فإن اقتصاد جزر الرأس الأخضر يرتكز على القطاع الزراعي، وأغلب السكان

(٦٠٪) هـم فلاحـون يؤمنـون المنتوجـات الزراعيـة للاستهلاك المحلي، كالذرة والبطاطا الحلوة وقصب السكر. وهناك ثروة محلية تتمثل في بيع البزولان (Pouzzolane: نوع من الصخور البركانية الأصل الضاربة إلى الحمرة) الذي يستخدم في صنع بعض انواع الاسمنت. ومن أهم النشاطات الاقتصادية، غير الزراعة، العمل في مرفأ ميندلو في جزيرة ساوفيسنت، وهو نشاط قديم لوقوع الجزر بين افريقيا واميركا الجنوبية، ولكون المرفأ مركزًا لتموين سفن شحن المحروقات. وصيد الاسماك (نحو ٧ آلاف طن سنويًا). والسياحة (نحو ٢٠ ألف سائح سنويًا). للمداخيل الواردة من المهاجرين لعائلاتهم أهمية كبيرة في التعويض عن فقر البلاد.

نبذة تاريخية: اكتشف الملاحون البرتغاليون (يرجح ان أولهم هو كادا موستا، من البندقية وكان في خدمة البلاط البرتغالي) جزر الرأس الأخضر في ١٤٥٦. وبعد سنوات، بدأ المستوطنون البرتغاليون، وبعض الانكليز والاسبان والايطاليين، يقيمون فيها. وعرفت الجزر، خلال قرون ثلاثة لاحقة، الامن والاستقرار. إلا ان فترة من الجفاف والمجاعة ضربت الاهالي هناك في اواخر القرن التاسع عشر.

ولكن الجزر استعادت أهميتها وازدهارها في القرن العشرين بسبب النشاط التجاري البحري الذي دار بين افريقيا واوروبا واميركا الجنوبية. واليوم، تشكل هذه الجزر محطة مهمة جدًا لعمليات التموين على الطرق التجارية المحيطية.

ابتداء من ١٩٧٠، ظهر «الحزب الافريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر» الذي كان يطالب باستقلال الرأس الأخضر وغينيا–بيساو ثم قيام اتحاد بينهما. في حين ظهرت حركات أخرى تطالب بالاستقلال دون الانضمام إلى غينيا–بيساو (راجع «الحكم والاحزاب» اعلاه).

في ٣٠ كانون الاول ١٩٧٤، وقعت البرتغال اتفاقًا بمنح الرأس الأخضر استقلاله في ٥ تموز ١٩٧٥. وقد قام هذا الاستقلال بالفعل في موعده. وبعد الانتخابات التي جرت في العام نفسه، انتخب زعيم الحزب الافريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر، أريستيلس بيريرا، رئيسًا للجمهورية. وفي ١٩٧٦، اقامت الرأس الأخضر علاقات دبلوماسية مع الصين الشعبية ومنغوليا. وفي نيسان ١٩٧٦، أعلن عن توقيع بروتوكول قضائي بين غينيا–بيساو والرأس الأخضر كمقدمة للاتحاد السياسي بينهما. وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩٨٠ قام انقلاب عسكري في غينيا–بيساو أسفر عن وضع نهاية لكل حديث عن الحزب المشترك وعن الوحدة بين البلدين: الرأس الأخضر وغينيا–بيساو. قام بيريرا بمساع حميدة، في اواخر ١٩٨٢، بين جمهورية جنوب افريقيا وأنغولا، واسفرت عن لقاء وفدي البلدين في جزر الرأس الأخضر حيث بحثا في مشكلة ناميبيا.

في ٢٨ ايلول ١٩٩٠، صدر تشريع يجيز تعدد الاحزاب في البلاد. وفي ١٣ كانون الثاني ١٩٩١، جرت انتخابات تشريعية، ففاز حزب الحركة من اجل الديمقراطية بـ٥٦ مقعدًا، والحزب الافريقي لاستقلال الرأس الأخضر بـ٢٣ مقعدًا. وبعد نحو اسبوعين صدر قرار بحل الشرطة السياسية. فتخلى الحزب الافريقي للاستقلال عن السلطة لمصلحة الحركة من اجل الديمقراطية بعد ١٨ سنة من حصره السلطة بنفسه وفي اطار اول انتخابات تشريعية تعددية منذ الاستقلال في ١٩٧٥.

في ١٩٩٣، أكد رئيس الوزراء كارلوس فيغا على «وجوب تحويل الحركة من اجل الديمقراطية إلى حزب السلطة». واعتبر زعيم الحزب الافريقي لاستقلال الرأس الأخضر (رئيس الوزراء السابق) بدرو بيريس ان في البلاد تململاً عامًا لأن «وعودًا كثيرة أعطيت ولم ينفذ إلا القليل»، واتهم الحركة من اجل الديمقراطية بالتنكر لتاريخ الرأس الأخضر ومحاولتها محو آثار النضال من اجل الاستقلال بتغييرها العلم الوطني والنشيد الوطني وكذلك نصب وأسماء الشوارع الدالة على الزعماء التي قادت البلاد إلى الاستقلال .

رواندا

بطاقة تعريف

الموقع: تقع روانـدا في وسـط القـارة الافريقيـة. تحيـط بهـا أوغنـدا، تنزانيـا، بورونـدي وزائـير. ارضها كناية عن سلسلة جبلية تفصل بين بلـدان حوض الكونغو والنيـل، ويتـراوح ارتفاعهـا بـين ١٢٠٠ و١٨٠٠م. وسميت رواندا «بلـد الألـف تلة». وهذه الميزة (ارتفاع اراضيهـا) يخفـف مـن المناخ الاسـتوائي فيهـا، ويجعلهـا متمتعـة بأربعـة فصول في السنة: جاف (اواسط كـانون الاول-كانون الثاني)، ممطر (شـباط-حزيـران)، جـاف (حزيران-ايلول) وممطر (اواسـط ايلول.اواسـط كانون الاول).

المساحة: ٢٦ ألفًا و٣٣٨كلم م..

العاصمة: كيغالي Kigali، تعد نحـو ٤٠٠ ألـف نسمة وتقع في وسط البلاد. وأهم المـدن: بوتـار Butare، نحو ٥٠ ألف نسـمة وتبعـد ١٣٦كلـم عن العاصمة. روهنغري Ruhengeri، نحو ٤٠ ألـف نسـمة. جـيزينيي Jisenyi، نحـو ٢٥ ألـف نسمة، وتبعد ١٧٩كلم عن العاصمة.

اللغات: كينيـارواندي (لغـة محليـة اصليـة) هـي اللغة الرسميـة الوحيـدة. الفرنسـية، وتسـتعمل في التجارة والدبلوماسية. ويتكلمها نحـو ١٢٪ مـن السكان. والانكليزية على نطاق ضيـق. ولكنهـا آخذة في الانتشار.

السكان: تشير التقديـرات الحاليـة (١٩٩٦) إلى ان تعدادهم يبلغ نحـو ٦،٥ ملايين نسـمة. تبلـغ الكثافة السكانية نحـو ٢٦٠ نسـمة في الكلـم م. الواحد، وهي أعلى نسبة في افريقيـا. نحو ٩٥٪ منهم يسكنون الاريـاف. نحو ٥٠٪ كـاثوليك، و٣٠٪ يدينون بمعتقدات دينية إحيائيـة (ديانـات افريقية محلية) و١٢٪ بروتستانت و٨٪ مسلمين. وينقسـم سـكان روانـدا إلى ثـلاث مجموعـات عرقية: الهوتو (نحو ٩٠٪ من مجموع السكان)،

التوتسي (نحو ٩٪)، وكانوا يشكلون نحو ١٦٪ في العام ١٩٥٩ قبل المذابح التي حلت بهم، والتوا (أقل من ١٪)، وهذه المجموعات العرقية الثلاث تتكلم لغة واحدة، هي لغة البلاد الرسمية أي الكينياروااندي.

الحكم والاحزاب: نظام الحكم جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ١٠ حزيران ١٩٩١. مجلس النواب من ٧٠ عضوًا منتخبًا لمدة خمسة اعوام.

منع انقلاب ١٩٧٣ جميع التنظيمات السياسية من العمل. كان هناك، حتى هذا التاريخ، حزب واحد هو «الحركة الديمقراطية الرواندية» الذي انبثق عن «حركة موهوتو الاجتماعية» (أسسها غريغوار كايباندا في ١٩٥٧) وعن حزب «حركة تحرر الهوتو».

أما حزب «الحركة الثورية القومية من اجل التنمية» الذي تأسس في ٥ تموز ١٩٧٥ (يضم اعضاء مدنيين وعسكريين) وتزعمه رئيس الجمهورية هابيار يمانا، فكان الحزب الوحيد والحاكم حتى ١٩٩١. وفي هذا العام تأسس حزب الحركة الديمقراطية الجمهورية، والحزب الديمقراطي المسيحي، والحزب الليبرالي، والحزب الاشتراكي الديمقراطي، والجبهة الوطنية الرواندية.

الاقتصاد: رواندا بلاد زراعية اساسًا، تعتبرها الامم المتحدة في عداد الدول الـ٢٥ الأكثر فقرًا وتخلفًا في العالم. هناك نحو ٩٠٪ من السكان يعيشون من الزراعة. لا تمثل الاراضي الصالحة للزراعة سوى ٣٥٪ من إجمالي مساحة البلاد، وزراعة الفاصوليا بمفردها تحتل ٢١،٥٪ من هذه الاراضي، ويبلغ معدل إنتاجها السنوي نحو ١٦٥ ألف طن (رواندا البلد الثاني في انتاج الفاصوليا في افريقيا)، ثم زراعة الذرة البيضاء التي تحتل ١٥٪ من الاراضي الصالحة للزراعة. ورواندا هي البلد الحادي عشر في العالم في زراعة البطاطا الحلوة. أما زراعة البن فلا تشغل سوى ٣٪ من مساحة الاراضي الصالحة للزراعة ولكنه يشكل اول سلعة تصديرية (نحو ١٢٪ من الدخل القومي)، ويأتي الشاي في المرتبة الثانية من المواد المصدرة.

ثروات رواندا المنجمية متواضعة. تمتاز البلاد بانتاج القصدير (تحتل رواندا المرتبة ١٤ في العالم بانتاجه)، ويشكل نحو ٦٪ من مجموع المواد المصدرة. كينيا أول بلد مستورد من رواندا (تستورد نحو ٨٠٪ من مجموع صادرات رواندا). أما بلجيكا فأول بلد مصدّر لها. وتتلقى رواندا مساعدات مهمة من المجموعة الاوروبية.

نبذة تاريخية

قبل قدوم الاوروبيين: إن أول الذين سكنوا رواندا كانوا من «الباتو» (قبائل الباتو). والباتو معروفون بقصر قامتهم، وبحياتهم في الغابات حيث يعيشون على الصيد. وما يزال عدد كبير منهم يعيش في سلسلة جبال فيرونغا.

بعد قرون، جاءت قبائل الهوتو التي عرفت الحياة الزراعية بالاضافة إلى الصيد. وفي القرن السادس عشر، غزت البلاد قبائل التوتسي القادمة من الشمال، وكانت تعيش على رعي الماشية، وعرفت بنزعتها الحربية

العدوانية. و لم يتمكن الهوتو من الصمود في وجه الغزاة الجدد، فرضي كل فرد منهم بأن يكون خادمًا لسيده من التوتسي الذين استمروا اسياد البلاد حتى قدوم الاوروبيين.

إبان الاستعمار الاوروبي: بدأ المستكشفون الاوروبيون بالوصول إلى رواندا في القرن التاسع عشر، وكان من أبرزهم الانكليزي جون سبيك الذي وصل في ١٨٥٨، ثم الالماني غ.أ. فون غوتزن الذي وصل حتى ضفاف بحيرة كيفو في ١٨٩٤. وفي نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت رواندا، وكذلك جارتها الجنوبية، بوروندي، جزءًا من المستعمرات الالمانية في افريقيا الشرقية.

عند قدوم الاوروبيين كانت المجموعات الاتنية (الهوتو والتوتسي) متميزة عن بعضها بشكل واضح: فالتوتسي طوال القامة (متوسطها ١،٧٦م) وسنحتهم مختلفة عن السود الافريقيين، وكانوا من الرعاة القادمين من الشمال، ومن المؤكد انهم جاءوا إلى البلاد قبل غزوات شعوب النيل التي توقفت في أوغندا. والهوتو قصار القامة (متوسطها ١،٦٧م)، ومزارعون. أما التوا (متوسط قامتهم ١،٥٢م) فكانوا يعيشون من الصيد في الغابات، ويعتبرهم الهوتو والتوتسي «عنصرًا» أدنى منهم.

في ١٨٩٠، ضمت برلين رواندا إلى اراضيها الالمانية في افريقيا. وهذا الوجود الالماني كان بطيئًا في تثبيت وضعه، ولكنه كان مقبولاً من ملك (موامي) رواندا موزنغا.

بعد الحرب العالمية الاولى، وبعد مباحثات دبلوماسية مختلفة وضعت عصبة الامم، في ١٩٢٢، «رواندا-بوروندي» تحت الانتداب البلجيكي. وبدأت بلجيكا ممارسة مهماتها كدولة منتدبة في ١٩٢٤. وبعد عام واحد اصدرت قانونًا ضمت بموجبه البلاد، اداريًا، إلى الكونغو البلجيكي.

اوضاع داخلية وسياسة الانتداب البلجيكي: تميزت الفترة بين ١٩١٦ و١٩٣١ بحصول عدة مجاعات، وانتهت باطاحة الملك (موامي) موزنغا والمجيء بإبنه براد هيغوا موتارا الثالث. وفي السنوات التي تلت عام ١٩٣١، كانت السلطات البلجيكية تتعهد امام عصبة الامم، ثم هيئة الامم، بتحضير كوادر محليين (من التوتسي) وتهيئة رواندا-بوروندي للحكم الذاتي، ثم الاستقلال كما ينص عليه ميثاق سان فرنسيسكو.

في اواسط الخمسينات، بدأ الجو السياسي يتغير تدريجيًا في رواندا. فالهوتو بدأوا يتذمرون من الاجحاف اللاحق بهم، ومن وضعهم الدوني بالنسبة إلى التوتسي. فأوجدوا حزبين: «أبرو زوما» (رابطة ترقية الجماهير الاجتماعية)، و«برميهوتو» (حزب حركة تحرير الهوتو). واخذ التوتسي بدورهم يتحركون. وكانت وتيرة التوتر القبلي تتصاعد يومًا بعد يوم. كما بدأ الموظفون البلجيكيون ورجال الكنيسة الكاثوليكية يبتعدون عن موقعهم المؤيد للتوتسي باتجاه نصرة الهوتو.

في ٢٥ تموز ١٩٥٩، مات الملك موتارا، واستطاعت الاوساط المقرّبة منه، والتي كانت تعمل لسياسة التشدد، ان تأتي بالملك كيغيلي الخامس، وان تفرض ارادتها عليه. فاندلعت ثورة تشرين الثاني ١٩٥٩. وكانت السلطات البلجيكية أقرب إلى الهوتو ومنعت جيش كيغيلي من قمع ثورتهم، وباشرت باجراء انتخابات عامة وباحلال السلطات المحلية تدريجيًا بين أيدي وجهاء من الهوتو. وقد شهد عاما ١٩٦٠ و١٩٦١ مجازر قبلية (بين التوتسي والهوتو) وعمليات نزوح كبيرة من التوتسي إلى البلدان المجاورة خوفًا من التعرض للابادة.

قيام الجمهورية والاستقلال: في ٢٦ تشرين الاول ١٩٦٠، تألفت أول حكومة كان على رأسها غريغوار كايباندا. وعندما حاولت الحكومة البلجيكية ان تتنكر لوعدها باجراء انتخابات عامة في البلاد في ٢٨ كانون الثاني ١٩٦١، سارع ممثلو القرى (وعددهم بالآلاف) إلى عقد اجتماع في اليوم ذاته واعلنوا سقوط الملك (موامي) كيغيلي الخامس والملكية، وقيام الجمهورية الدستورية وانتخاب رئيس للدولة وتعيين حكومة.

وفي ايلول ١٩٦١، جرت انتخابات عامة تحت اشراف الامم المتحدة، تمّ على أثرها إلغاء الملكية وقيام الجمهورية التي اوصلت البلاد إلى الاستقلال في اول تموز ١٩٦٢. وفي هذا التاريخ انفصلت بوروندي عن رواندا، وحصلت بوروندي بدورها على الاستقلال.

فترة من الازدهار: بدأ رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، كايباندا، منذ ذلك الحين يعمل على تدعيم المؤسسات الديمقراطية والنهوض باقتصاد البلاد باللجوء إلى طلب المساعدات الدولية. وعرفت البلاد فترة من الازدهار لم يعكر صفوها سوى الغارات الانتقامية التي عاود التوتسي شنها انطلاقًا من البلدان المجاورة، وخاصة بوروندي، والتي تسببت بوقوع ضحايا عديدة. إلا ان هذه الغارات فشلت في الوصول إلى اهدافها، وعملت المفوضية العليا للاجئين في الامم المتحدة على تثبيت بضع مئات من الآلاف من التوتسي في بوروندي وزائير وأوغندا وتنزانيا.

في ١٩٦٩، أعيد انتخاب كايباندا للمرة الثالثة. لكن في ٥ تموز ١٩٧٣، اطاحه انقلاب عسكري قاده الجنرال جوفنال هابياريمانا الذي تسلم مقاليد السلطة في البلاد. فبادر إلى العمل على تهدئة الصراع بين الهوتو والتوتسي، ونجح في إبعاد شبح الحرب الأهلية، مؤقتا، عن البلاد.

في حزيران ١٩٧٦، زار رئيس بوروندي ميكومبيرو رواندا لمدة اربعة ايام واتفق مع الرئيس هابياريمانا على العمل على تصفية الخلافات الاتنية بين التوتسي والهوتو، وعقدا عدة اتفاقات تجارية وثقافية واقتصادية. وفي الشهر التالي، واجهت رواندا مشاكل حادة بسبب النقص في المحروقات، وذلك على اثر إقدام فرق من الجيش الأوغندي على الاستيلاء على المحروقات المرسلة من كينيا إلى رواندا. ولم

تنفع الزيارة التي قام بها الرئيس هابياريمانا إلى كمبالا في اقناع الرئيس عيدي أمين بتليين موقفه، فعاد يجري مفاوضات جديدة مع السلطات الكينية للاتفاق على طرق بديلة لنقل المحروقات.

وقعت رواندا على اتفاقية لومي (١٩٧٥). وعرف هابياريمانا بدعمه لحركات تحرر بلدان جنوبي افريقيا. وبالاضافة إلى رئاسته الدولة، أسس حزب «الحركة الثورية القومية من اجل التنمية» في ٥ تموز ١٩٧٥. وغداة صدور دستور جديد في ١٧ كانون الاول ١٩٧٨، أعلن العسكريون عن نيتهم نقل الحكم إلى المدنيين.

كرونولوجيا أهم الاحداث

(١٩٧٩-١٩٩٦): كان النزاع بين أوغندا (في اواخر عهد عيدي أمين) والبلدان المجاورة (كينيا وتنزانيا) بمثابة كارثة على رواندا، إذ انقطعت مواصلاتها. وازداد الوضع سوءًا في الأشهر الاولى من ١٩٧٩ مع تصاعد العمليات العسكرية بين أوغندا وتنزانيا، ما حدا برواندا لأن تطلب مساعدات غذائية وضرورية من عدد من الدول (خاصة بلجيكا وفرنسا). زارها الرئيس الفرنسي، فرنسوا ميتران، والتقى رئيسها هابياريمانا في ٧ تشرين الثاني ١٩٨٢.

في آب ١٩٨٨، لجأ إلى رواندا

الآلاف من البوروندين الهاربين من مجازر قبلية. في ٩ تموز ١٩٩٠، زار البابا يوحنا بولس الثاني رواندا. وفي ٣٠ ايلول-اول تشرين الاول ١٩٩٠، غزا نحو ٢٥٠٠ رجل من الجبهة الوطنية الرواندية (تشكلت في مخيمات التوتسي البوروندين اللاجئين إلى أوغندا وتزعمهم فريد رويغييما) العاصمة كيغالي، وقتل في المعارك رويغييما. وفرنسا ارسلت ٣٠٠ جندي، وبلجيكا ٤٠٠، وزائير ٥٠٠ لوضع حد للمعارك؛ لكن البلجيكيين ما لبثوا ان غادروا البلاد؛ وتواصلت المعارك القبلية (الهوتو-التوتسي)، وانسحب الفرنسيون في ٧ آذار ١٩٩٣ بعد اتفاق لوقف النار لم يصمد طويلاً. وكانت القوات الفرنسية متهمة (ونفت الحكومة الفرنسية ذلك) بأنها شاركت في القتال الدائر بين الحكومة والثوار (الجبهة الوطنية) إلى جانب قوات الرئيس هابياريمانا التي تمثل قبائل الهوتو الحاكمة.

في اوائل آذار ١٩٩٤، عقدت الحكومة والثوار (الجبهة الوطنية، التوتسي) محادثات سلام في دار السلام (تنزانيا) واتفقا على وقف للنار ومعاودة مفاوضات السلام بينهما في أروشا (في تنزانيا كذلك). ويذكر ان حركة الثوار (الجبهة الوطنية) تتألف في مجموعها من افراد من قبيلة التوتسي طردتهم قبيلة الهوتو التي تشكل الغالبية من السلطة ودفعتهم إلى المنفى خلال المواجهات القبلية الدامية في الستينات. ويذكر ايضًا انه في تشرين الاول ١٩٩٠ عاد الثوار إلى حمل السلاح لقلب نظام الرئيس هابياريمانا.

لكن الاتفاق فشل، والازمة راوحت مكانها، والمجازر استمرت وعمليات التطهير العرقي ما زالت على أشدها. وفي اوائل نيسان (١٩٩٤) أعلنت بلجيكا انها ستسحب قواتها من رواندا مما شكل مزيدًا من الصعوبات امام القوات الدولية التي انقسم اعضاء مجلس الامن حول مستقبلها في رواندا. وفي ٦ نيسان (١٩٩٤)، قتل الرئيسان، الرواندي الجنرال جوفينال هابياريمانا، والبوروندي سيبريان تارياسيرا (كلاهما من قبيلة الهوتو المسيطرة على الحكم في البلدين) إثر تحطم الطائرة التي كانت تقلهما من تنزانيا، في مطار كيغالي. وقالت السلطات البوروندية ان الطائرة سقطت بسبب عطل فني في حين قالت رواندا ان الطائرة اسقطت بصاروخ اطلقته «عناصر مجهولة الهوية». وبعد يومين، أودت أعمال العنف بحياة رئيسة الوزراء الرواندية وافراد عائلتها وعدد من وزرائها وشخصيات حكومية أخرى، كما أدت إلى مقتل ١١ جنديًا بلجيكيًا من العاملين في عداد القوة الدولية و١٢ كاهنا وراهبة. ووسط هذه الاجواء كانت النداءات الرسمية للدول، خاصة فرنسا، تدعو إلى وقف الاشتباكات واستئناف المفاوضات على قاعدة تطبيق اتفاقية السلام التي وقعت في أروشا بين حكومة رواندا (الهوتو) والجبهة الوطنية الرواندية (التوتسي). وينص هذا الاتفاق الذي وقع في آب ١٩٩٣ على وضع حد للنزاع المسلح الدائر في البلاد منذ تشرين الاول ١٩٩٠، وعلى تشكيل حكومة موسعة وجمعية وطنية لتولي شؤون البلاد خلال فترة انتقالية مدتها عامان تؤدي

إلى انتخابات عامة خلال ١٩٩٥.

وفي نيسان ١٩٩٤، أعلنت الجبهة الوطنية (التوتسي) عزمها على اجتياح العاصمة كيغالي وبسط سيطرتها عليها في وقت ارسلت فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة قوات إلى هناك لاجلاء رعاياها. وبالفعل، وصلت قبائل التوتسي إلى ضواحي العاصمة، واندلعت معارك عنيفة (ووقعت مجازر قبلية أودت بحياة عشرات الآف القتلى من الهوتو والتوتسي)، وتسلل مسلحو التوتسي إلى العاصمة كيغالي وسيطروا على التلال المحيطة بها، وكل ذلك في غضون ايام قليلة. وتناقلت وسائل الاعلام العالمية رقمًا مريعًا عن عدد القتلى الذين سقطوا في وقت لا يزيد عن شهر واحد، وهو ٢٠٠ ألف ضحية، أي منذ مقتل الرئيس هابياريمانا (٦ نيسان ١٩٩٤) إلى اوائل ايار ١٩٩٤.

في ١٧ ايار ١٩٩٤، وافق مجلس الامن الدولي على تعزيز قوات الامم المتحدة في رواندا (نحو ٥٥٠٠ جندي)، وفرض حظرًا على شحن الاسلحة إلى هذا البلد. وكان التوتسي رفضوا خطة دولية لارسال قوة سلام افريقية إلى رواندا، وهم يواجهون صعوبات للسيطرة على كيغالي. وفي ٢٣ ايار (١٩٩٤)، أعلنت الامم المتحدة ان القوات الحكومية والجبهة الوطنية الرواندية التزمتا هدنة في مناسبة زيارة مبعوث للامم المتحدة هدفه الاعداد لوصول آلاف من الجنود الدوليين إلى رواندا. وتناقلت الانباء ان آلاف الجثث تطفو في بحيرة فكتوريا، وأوغندا أعلنتها منطقة منكوبة. لكن بعد ايام قليلة، عادت المعارك إلى العاصمة التي كانت لا تزال محاصرة من الجبهة الوطنية. والوضع الكارثي الذي كانت البلاد قد آلت إليه في آخر ايار ١٩٩٤ وصفه وزير الخدمات الانسانية الفرنسي السابق برنار كوشنير الذي كان يقوم بمهمة انسانية لمعاينة فظائع الحرب على الارض بالشكل التالي: «في إحدى القرى مشينا على جثث الاطفال الممزقة إربًا، اعتقد ان العدد يصل إلى ألفي جثة... إن ٦٠ ألف جثة سحبت فقط من شوارع العاصمة كيغالي و٢٥ ألف جثة أخرى استقرت في بحيرة فكتوريا، أما عدد القتلى الاجمالي فلا يمكن حصره بدقة والارقام هنا تقدر بمئات الآلاف وبما يصل إلى نحو ٥٠٠ ألف قتيل ناهيك عن الجرحى الذين يقل عددهم لأن القتل المتعمد هو السائد... والميليشيات المسلحة بالسكاكين الطويلة والفراعات والقنابل لا تكتفي بالقتل وإنما ترغب في زرع الرعب في صفوف خصومها حيث تعمد إلى قطع ايدي أو ارجل الاطفال الذين تلتقيهم في طريقها...».

في اواسط حزيران ١٩٩٤، تجددت المجازر على رغم تعهد الطرفين وقف النار امام القمة الافريقية في تونس؛ وأفظع هذه المجازر خطف الهوتو لستين طفلاً كانوا يجتمعون في كنيسة تقع في منطقة تسيطر عليها القوات الحكومية في كيغالي وذبحتهم في حفرة كبيرة بالقرب من الكنيسة (والمعروف ان الطرفين: الهوتو والتوتسي من الكاثوليك). وتعهد وقف النار قطعته الحكومة الانتقالية الرواندية امام قمة افريقية

احدى الرونديات من التوتسي المعتصمات امام السفارة الفرنسية في بروكسيل احتجاجاً على التدخل الفرنسي في بلادهن (٢٣ حزيران ١٩٩٤).

مصغرة حول رواندا شارك فيها خمسة رؤساء دول وعقدت على هامش قمة منظمة الوحدة الافريقية؛ وضمت القمة المصغرة الوسيط الزائيري موبوتو سيسي سيكو، ورؤساء بوروندي وتنزانيا وأوغندا ونائب رئيس كينيا.

في ٢٠ حزيران، تقدمت فرنسا بمشروع خطة لتدخلها العسكري من جانب واحد في رواندا، ودعمت واشنطن المشروع بقوة. وفي اليوم التالي، بدأت طلائع القوات الفرنسية بالوصول إلى جنوب غربي رواندا قادمة من زائير بدعم من مجلس الامن الدولي وعلى رغم معارضة التوتسي الشديدة. ودعيت العملية بعملية «توركواز». وبدأ الفرنسيون بتجريد الهوتو من اسلحتهم ليثبتوا انهم ليسوا طرفًا في المعركة، ذلك ان فرنسا كانت متهمة بالوقوف إلى جانب الحكم الذي تسيطر عليه الهوتو.

لكن هذا الامر قوّى من ساعد التوتسي وجعلهم يستمرون في عملياتهم العسكرية حتى تمكنوا في الأخير (تموز ١٩٩٤) من السيطرة على العاصمة كيغالي، فأعلنت جبهتهم «الجبهة الوطنية الرواندية» عن عزمها على تشكيل حكومة وحدة وطنية طبقًا لاتفاق السلام الموقع في أروشا في آب ١٩٩٣، يعهد برئاستها إلى فوستين تواغيرا مونغو وهو من الهوتو المعتدلين ويرأس الحركة الديمقراطية، وكان تمّ اختياره رئيسًا في اتفاق أروشا (في تنزانيا) بين التوتسي والقوات الحكومية بدعم من بلجيكا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة. في هذه الاثناء كانت فرنسا تنشىء منطقة آمنة وتدعو الدول لمساعدتها في مبادرتها (عملية «توركواز» أو الفيروز) نتيجة تعثرها فيها.

في ١٥ تموز ١٩٩٤، سيطرت الجبهة الوطنية الرواندية على مقر الحكومة المؤقتة

التي فرّ أعضاؤها إلى المنطقة الآمنة التي تقيمها فرنسا في جنوب غربي البلاد، وتدفق مئات الآلاف من الهوتو على زائير، ورحّبت واشنطن بانتصار التوتسي واعتبرته «الاشارة الوحيدة التي تبعث على التفاؤل في مأساة رواندا». وبين اللاجئين في مخيمات في زائير لاقى الآلاف مصرعهم بداء الكوليرا. وتركزت الجهود الدولية على اعادة اللاجئين الروانديين إلى بلادهم.

في اواخر تموز ١٩٩٤، اختارت الجبهة الوطنية باستور بيزيمونغو لرئاسة الجمهورية (وهو من الهوتو المعتدلين)، وكذلك جاءت بمعتدل آخر من الهوتو لرئاسة الوزراء، فبرهنت الجبهة بذلك (وهي من التوتسي) عن اعتدال كبير ورؤية سياسية ووطنية بعيدة، فكسبت دعم العالم والدول الافريقية، واضطرت باريس إلى تغيير طبيعة مهمة قواتها في رواندا، فباتت تؤكد ان وجودها موقت، وفتحت حوارًا مع الحكام الجدد، واعلنت براءتها من مرتكبي المجازر وقادت التحرك الدولي للانقاذ. وركزت الجبهة الوطنية على المصالحة الوطنية واعلنت عن استعدادها لاستقبال قوات اجنبية تطمئن العائدين. وأعلن الرئيس الرواندي، باستور بيزيمونغو، في محاولة لحث اللاجئين على العودة إلى ديارهم (بعد لقائه والرئيس الزائيري والبحث معه في تسهيل هذه العودة) «إن معاقبة من ارتكبوا عمليات إبادة هو الطريق الوحيد لتعزيز المصالحة بين أبناء الشعب».

وفي ما تنتمي غالبية اللاجئين الجدد (أي خلال شهر تموز ١٩٩٤، وجرى تقدير عددهم بأكثر من مليوني نسمة) إلى الهوتو بدأ آلاف من ابناء التوتسي العودة إلى رواندا بعد ان عاشوا عشرات السنين في المنفى في دول مجاورة مثل بوروندي وأوغندا، وكانوا قد فرّوا من امام ثورات الهوتو في الخمسينات والستينات.

وفي ٢٠ آب ١٩٩٤، اعلنت فرنسا انسحاب قواتها من رواندا مع موعد انتهاء التفويض (٢٢ آب ١٩٩٤) الذي منحتها إياه الامم المتحدة في إطار عملية «توركواز» (فيروز) الانسانية لاغاثة منكوبي الحرب القبلية هناك. وجاء ذلك على رغم طلب الامين العام للامم المتحدة بطرس غالي إلى فرنسا والولايات المتحدة ابقاء قواتهما في المنطقة تحسبًا لتكرار مأساة مماثلة في بوروندي المجاورة. وبذلك انتهت مهمة القوات الفرنسية من دون تحقيق تقدم في هذه المنطقة التي كانت لا تزال مركزًا لأعمال العنف.

في ٦ تشرين الاول ١٩٩٤، وفي خطاب امام الجمعية العامة للامم المتحدة، دعا الرئيس الرواندي باستور بيزيمونغو الامم المتحدة إلى محاكمة المسؤولين عن «المذابح التي راح ضحيتها بين ٥٠٠ ألف ومليون قتيل منذ نيسان الماضي» (أي في غضون نحو خمسة أشهر)؛ وقال «إن إنشاء محكمة دولية امر أكثر من ملح»، وطلب من مجلس الامن اصدار قرار يسمح بـ«اعتقال ومحاكمة» المسؤولين عن المذابح الموجودين في مخيمات اللاجئين في زائير. وكان مجلس الامن قبل ايام قليلة أعلن موافقته على إنشاء محكمة دولية لمحاكمة مرتكبي المذابح في رواندا

تكون على شكل المحكمة الخاصة بيوغوسلافيا السابقة.

في ١٩٩٥ (وتحديدًا في نيسان)، أجمعت تقارير مبعوث الامم المتحدة، والقوات الدولية، ومبعوثي الصليب الاحمر الدولي، وفرق المنظمات الانسانية الحكومية وغير الحكومية، ومراسلي وكالات الانباء في العاصمة الرواندية، على ان وحدات عسكرية من «الجيش الوطني الرواندي»، أي الجناح العسكري للجبهة الوطنية الرواندية (التوتسي) الحاكمة في البلاد تقوم بعمليات ثأر وتقتيل في مخيمات الهوتو، خاصة على الحدود مع بوروندي. وفي بعض التحليلات التي صاحبت أنباء ممارسات التوتسي لسلطتهم بعد استيلائهم على العاصمة (تموز ١٩٩٤) انهم يدركون، قبل غيرهم، ان معركة كيغالي حسمت موقتا لمصلحتهم في ما تظل حرب رواندا مفتوحة على المجهول؛ ذلك ان ١٠٪ من سكان أي بلد لا يمكنهم فرض قانونهم إلى ما لا نهاية على ٩٠٪ من المواطنين، خصوصًا في مجتمع محكوم بالاحقاد التاريخية. لذلك تحاول القيادة السياسية والعسكرية التوتسية الهرب إلى الامام بفتح معارك خاسرة سياسيًا وإنسانيًا بعمليات قتل أو إجهاض أية معارضة هوتية، مستغلة بروز بوادر نشاط بعض الوجوه السياسية الهوتية داخل البلاد أو خارجها (راجع «زائير» في هذا الجزء).

وفي بوروندي (راجع «بوروندي»، ج ٥، ص ٣٤٥-٣٥٢): في ١٩٩٦، اخذت بوروندي تضيق على اللاجئين الهوتو من رواندا لحملهم على العودة، ورحّلت الآلاف منهم. وكان هؤلاء قد قاموا بعدة عمليات إبادة ضد التوتسي في بوروندي التي عرفت هي الأخرى، في الوقت نفسه حربًا قبلية (الهوتو-التوتسي) في صراع على السلطة فيها، حيث يهيمن التوتسي على الجيش البوروندي. ونقلت الأنباء (في تموز ١٩٩٦) ان تصعيد العنف في بوروندي بين ثوار الهوتو والجيش يدل على عزم الطرفين على إحباط جهود الوساطة الدولية التي تهدف إلى نشر قوات من أوغندا وتنزانيا وأثيوبيا لحفظ السلام في بوروندي.

وفي ٢٤ تموز ١٩٩٦، لجأ رئيس جمهورية بوروندي سيلفستر نتيبا تونغانيا إلى السفارة الاميركية في العاصمة بعد هجوم غاضب شنه التوتسي (وينتمي الرئيس إلى الهوتو، ومن المعروف ان رئيسين سابقين للبلاد، من الهوتو كذلك، قتلا على ايدي مسلحين من التوتسي)، بعد ان اتهم زعيمهم تشارلز موكاسي الرئيس بالخيانة العظمى. فعاد شبح المجازر بين الطرفين إلى الاذهان. وأعلن الجيش تسلمه السلطة في البلاد، ونصب الرئيس العسكري السابق المايجور بيار بويويا رئيسًا للحكومة العسكرية.

وأعلن الرئيس العسكري الجديد، بيار بويويا، انتهاجه خطًا معتدلاً، في محاولة منه لمواجهة الادانة الدولية لاستيلائه على السلطة والحديث عن تدخل عسكري اجنبي، وذلك عشية قمة افريقية لمناقشة الوضع في بوروندي (٣٠ تموز ١٩٩٦).

وفي القمة (في تنزانيا)، اتفق زعماء دول وسط وشرقي افريقيا على فرض حظر شامل ولكن غير محدد على بوروندي لارغام الحاكم العسكري على اعادة البلاد إلى الحكم المدني. وفي ٢٦ آب ١٩٩٦، طلب بويويا من الوسيط الافريقي الرئيس التنزاني السابق يوليوس نيريري الترتيب لعقد قمة اقليمية للبحث في الوضع في بوروندي، وذلك في اجتماع بينهما، في تنزانيا، للبحث في سبل احتواء العنف القبلي في البلاد.

وعقدت القمة، بالفعل، في تنزانيا (أروشا) في ١٢ تشرين الاول ١٩٩٦، ولكنها أبقت على الحصار الذي تضربه على بوروندي بسبب انقلاب ٢٥ تموز ١٩٩٦، وأعطت مهلة للهوتو والتوتسي لبدء مفاوضات للسلام. وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٦، اعاد الامين العام لمنظمة الوحدة الافريقية سالم أحمد سالم التأكيد على مقاطعة النظام العسكري في بوروندي، بقوله: «موقفنا من النظام العسكري هناك لم يتغير وهو المقاطعة والعزلة حتى يستجيب إلى الشروط التي وضعها رؤساء دول الاقليم في أروشا، وأهمها التفاوض المعلن من دون قيد أو شرط مع كل المعارضين داخل البلاد وخارجها».

معالم تاريخية

□ **إتفاق أروشا (في تنزانيا):** بعد حرب أهلية طويلة استمرت لسنوات عديدة بين جيش «الحركة الثورية الوطنية للتنمية»، أي حزب قبائل الهوتو بزعامة رئيس الجمهورية الرواندية جوفينال هابياريمانا، و«الجبهة الوطنية الرواندية»، أي المعارضة العسكرية التوتسية برئاسة الكسي كانيا رنغو، ابرم الطرفان (في أروشا، آب ١٩٩٣) اتفاقية سلام بعد مساعي دبلوماسية بذلها كل من الامين العام لمنظمة الوحدة الافريقية سليم احمد سليم والرئيس الأوغندي يويري موسيفيني والرئيس التنزاني علي حسن مونيه، وبمشاركة الدول الغربية، الولايات المتحدة وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا. واتفق الطرفان الرونديان على الآتي: وقف إطلاق النار، حل الخلافات بالحوار، عدم الاحتكام إلى السلاح وتنظيم عودة اللاجئين من الدول المجاورة. وقد تأكد في ما بعد ان «الحرس الجمهوري» لم يقبل ابدًا تلك الاتفاقية لجملة اسباب ابرزها الحاجة إلى احتكار السلطة وابعاد قبائل التوتسي عن مراكز القرار. وبعد نحو ٧ أشهر على هذا الاتفاق انفجرت الحرب الاهلية من جديد وبصورة لم يسبق لها مثيل إثر مقتل الرئيسين الرواندي والبوروندي.

□ **التدخلات العسكرية الفرنسية في افريقيا وصولاً إلى عملية «توركواز» في رواندا:**

- في ١٩٦٢، تدخلت فرنسا في ا لسنغال لانقاذ الرئيس ليوبولد سيدار سنغور من محاولة انقلاب.
- في ١٩٦٤، انقذت رئيس الغابون ليون مابا من تمرد كاد يطيح نظامه.
- في ١٩٦٨، أتت وحدات إلى تشاد لمساعدة نظام الرئيس فرنسوا تومبالباي ومجابهة المعارضة المسلحة في شمالي البلاد.
- في ١٩٧٧، قدمت دعمًا فنيًا لنظام الرئيس الزائيري ضد التمرد في الجنوب (إقليم شابا).

– في ١٩٧٨، تدخلت في زائير لموازرة الرئيس موبوتو لاحتواء العناصر المسلحة التي تغلغلت إلى كولوزي انطلاقًا من أنغولا.

– في ١٩٧٩، وعقب الاطاحة بالامبراطور بوكاسا في افريقيا الوسطى، بادرت فرنسا بارسال قوات لتعزيز السلطة الجديدة برئاسة أندريه كولينبا.

– في ١٩٨٣، نفذت فرنسا عملية «مانتا» في تشاد لصد الهجوم الذي قامت به القوات الموالية للرئيس التشادي غوكوني عويداي.

– في ١٩٨٦، انقذت وحدات المظليين الفرنسيين نظام الرئيس أياديما من انقلاب عسكري.

– في ١٩٨٩، بعد اغتيال عبد الله رئيس جزر القمر، ارسلت باريس وحدات عسكرية لحماية رعاياها ولمساعدة السلطة.

– في ١٩٩٠، وعلى اثر اجتياح موجة الديمقراطية دول غربي افريقيا، تدخلت القوات الفرنسية لانقاذ نظام الرئيس العاجي فليكس هفويت بوانييه، والرئيس الغابوني عمر بونغو. وتدخلت للدفاع عن نظام الرئيس أدريس ديبي في ليبيا. وكذلك، تدخلت في رواندا لانقاذ نظام الرئيس هابياريمانا وقطع طريق العاصمة كيغالي على الجبهة الوطنية الروائدية.

– في ١٩٩٢، تدخلت في الحرب الاهلية الجيبوتية للحؤول دون تقدم المعارضة المسلحة إلى مدينة جيبوتي.

– في ١٩٩٣، تدخلت من جديد في رواندا لمساعدة هابياريمانا.

– في ١٩٩٤، تدخلت في رواندا لاجلاء الرعايا الفرنسيين والاجانب، ثم أطلقت عملية «توركواز» (الفيروز) لانقاذ التوتسي من الهوتو في رواندا.

□ **حادث مقتل الرئيسين:** في ٦ نيسان ١٩٩٤، قتل الرئيسان، الرواندي جوفينال هابياريمانا، والبوروندي سيبريان تتارياسيرا، وكلاهما من قبيلة الهوتو التي كانت مسيطرة على الحكم في البلدين، في تحطم الطائرة التي كانت تقلهما في مطار كيغالي، في طريق عودتهما من تنزانيا بعد مشاركتهما في مؤتمر مصالحة عقد في دار السلام. والملفت ان أي طرف من الاطراف المعنية، وتحديدًا الحكومات الرواندية والبوروندية والفرنسية (باعتبار ان طاقم الطائرة الفرنسي قضى في الحادث) لم يبادر إلى تشكيل لجنة تقصي الحقائق لمعرفة الجهة المسؤولة عن الحادث. وفي اوائل تموز ١٩٩٤، كلفت اسرة الرئيس الرواندي هابيرايمانا النقيب الفرنسي المتقاعد بول باريل، اشهر رجال الكوماندوس الفرنسي الذي عمل في خلية تابعة لقصر الاليزيه برعاية الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، بمهمة جمع المعلومات حول ملابسات الحادث الذي أغرق البلاد في حرب أهلية ذهبت بارواح مئات الآلاف في غضون أشهر قليلة. فعاد باريل إلى باريس قادمًا من كيغالي ومعه العلبة السوداء التي تختزن كل المعلومات والمكالمات. وحصل ايضًا على ثلاثة انابيب اشرطة في قاعدة المراقبة الجوية قبل وبعد اسقاط الطائرة الرئاسية. وافادت المعلومات الاولية ان حادث التفجير لم يكن وليد الصدفة بدليل ان آخر فقرات المكالمات الهاتفية تقول: «كل شيء على ما يرام».

وإذا كانت اصابع الاتهام اتجهت في الوهلة الاولى إلى «الحرس الجمهوري» لاعتراضه على اتفاقية أروشا وإلى عناصر غير منضبطة في الجبهة الوطنية الرواندية التوتسية المناوئة لسلطة الهوتو فإن الانباء تواترت لمدة أشهر بعد الحادث افادت عن عدم استبعاد تورط فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة في الحادث، بعدما تأكد بصورة غير قاطعة بأن جنديين (من البيض) اطلقا الصاروخين على الطائرة، وان عسكريين فرنسيين وجدا مقتولين بعد الحادث في ظروف غامضة. ونفت الحكومة الفرنسية بشدة تورطها في الحادث ردًا على

معلومات نشرتها صحيفة «لوسوار» البلجيكية. ونشرت «لوموند» في عددها الصادر في ٢٨ حزيران ١٩٩٤ خبرًا جاء فيه: «خلال شهر ايار الماضي اشارت اجهزة الاستخبارات الخارجية الفرنسية، إلى قيام مؤسسة اميركية تعمل في افريقيا الوسطى، بتجنيد مرتزقة بيض قبل ان تزج بهم إلى روانـدا عبر الاراضي الأوغندية بحجة مساعدة المعارضة العسكرية التوتسية بالتنسيق مع جهات بلجيكية مسؤولة». وبقيت أسرة الرئيس الرواندي هابياريمانا على عزمها تسليم كل ما لديها من وثائق إلى جهة قانونية دولية كي تأخذ العدالة مجراها في خاتمة المطاف.

لكن، هل بامكان عائلة رواندية (ولو رئاسية) صون وثائق خطيرة تدين بصورة واضحة واشنطن، أو باريس أو بروكسيل؟ وإذا أمكنها ذلك، فهل يمكنها تقديم هذه الوثائق إلى جهة قضائية وضمان حسن سير التحقيق وعدالته والاعلان عنه؟.

□ **الحركة الاجتماعية للتحرير:** راجع «كايبندا، غريغوار» في زعماء ورجال دولة.

□ **دور المستعمر واول انتفاضة جاءت من الهوتو:** وجد الاوروبيون الذين اكتشفوا رواندا منذ نحو قرن بلادًا يحكمها مالكو ماشية من التوتسي المعروفين بطول قامتهم ورشاقتهم تحت زعامة ملك منهم، بينما تولى المزارعون من الهوتو، ذوي الاجسام القصيرة القوية والبشرة الأكثر اسمرارًا، العناية بالارض وتوفير الغذاء والملبس للتوتسي. كانوا يعيشون في انسجام تكافلي، وكانت خلافاتهم العابرة الناجمة عن الحياة المشتركة تحل دائمًا في اطار مجلس القبائل.

وفي ايام المستعمر البلجيكي (بعد الحرب العالمية الاولى)، كانت السلطة، عند اقل خلاف ناشب، تقف إلى جانب التوتسي وتدعمهم وتؤطر منهم نخبة لتحتل معظم المرافق الحساسة في الدولة. فتولدت لدى التوتسي مع مرور الزمن عقدة التفوق العرقي على الهوتو. فادت سنوات السيطرة الاستعمارية إلى تدمير البنى الاجتماعية والسياسية التي كانت حافظت على السلام القبلي على امتداد قرون.

لكن السياسة البلجيكية اخذت، قبل سنوات قليلة من استقلال رواندا في ١٩٦٢، تتحرك بصورة حثيثة، ومعاكسة لما درجت عليه، لتسليم مقاليد السلطة لقادة قبائل الهوتو التي لا تملك قوة سياسية، ولا نخبة ثقافية، ولا كوادر إدارية وفنية، ولا وحدات عسكرية وجهًا لوجه امام قبائل التوتسي المتفوقة على الهوتو في كل شيء ما عدا الوزن العددي (٩ من الهوتو مقابل ١ من التوتسي).

قبل حلول موعد الاستقلال، تحركت قبائل الهوتو وانتفضت في ١٩٥٩ وتمردت على الحكم القائم. وفي بعض القرى هاجمت عصابات تلوح بالسواطير افرادًا من التوتسي وقطعت اقدامهم لتقلّص من طول قامتهم. وبعد ان أجّج البلجيكيون مشاعر النقمة وسط الهوتو تجاه النخبة الحاكمة من التوتسي تركوا الاقلية (التوتسي) تحت رحمة الاضطراب، وفرّ الالوف من التوتسي إلى المنفى في أوغندا ومكثوا ٣٠ عامًا في انتظار الفرصة لاستعادة سلطتهم.

وبمجرد وصول الهوتو إلى السلطة اداروا ظهرهم لبروكسيل وابرموا اتفاقيات عسكرية واقتصادية وسياسية مع فرنسا نالت بموجبها حكومة الهوتو دعم باريس. واقامت فرنسا قاعدة عسكرية لها في كيغالي ودربت «الحرس الجمهوري» وانقذت مرتين حكومة جوفينال هابياريمانا من السقوط، الاول في ١٩٩٠، والثانية في ١٩٩٣. وبالمقابل، سمحت بلجيكا للجبهة الوطنية الرواندية (التوتسي) القيام بنشاط دبلوماسي مكثف في بروكسيل.

ولئن انتهت الثورة الهوتية على الفور بالاستقلال واعلان الجمهورية بدلاً من الملكية (التوتسية) في ١ تموز ١٩٦٢، فقد تمخضت ايضًا عن ذبح عدة آلاف من التوتسيين وعن تهجير ٢٠٠ ألف منهم إلى أوغندا وزائير، وخاصة إلى بوروندي التي نالت استقلالها في اليوم نفسه ولكن الحكم بقي فيها بأيدي التوتسيين. ومنذئذ صار الثأر المتبادل هو اللعبة الحاكمة للعلاقات بين الدولتين المتجاورتين والمتماثلتين في بنيتهما الديمغرافية.

□ **زحف التوتسي على العاصمة:** تجمع عشرات الآلاف من ابناء قبيلة التوتسي في أوغندا (بصورة خاصة) بعد هجراتهم المتعددة وتوزعهم في أوغندا في الشمال، وتنزانيا في الشرق، وزائير في الغرب وبوروندي في الجنوب إثر حركات الاضطهاد التي لحقت بهم. وانجب اللاجئون التوتسي (خاصة في أوغندا) اجيالاً في مخيمات اللاجئين، كان من بين هذه الاجيال بول كاغيم الذي أسس الجبهة الوطنية الرواندية واقام لها ميليشيا مسلحة. فعقدت الجبهة العزم على إرجاع توتسيي الشتات إلى رواندا و«تحرير» هذه الاخيرة من دكتاتورية رئيسها هابياريمانا الذي كان استولى على السلطة بانقلاب عسكري في ١٩٧٣، ثم اعاد انتخاب نفسه مثنى وثلاث بغالبية ٩٩٪. وقد بدأت حرب «التحرير» بالفعل في تشرين الاول ١٩٩٠ بهجوم شنه رجال الجبهة الوطنية الرواندية من ا لحدود الاوغندية. وكان الرد في كيغالي العاصمة موجة من الاعتقالات شملت ١٠ آلاف مواطن توتسي ومعارض سياسي هوتي ومذبحة طالت المئات من التوتسيين من مدينة كيبيليرا. وطردًا مع تطور العمليات الحربية على الحدود كانت السلطة المركزية الهوتية في رواندا تطوّر ايديولوجيا حقيقية لإبادة التوتسيين من خلال تجنيد الادارة والاعلام والحزب الحاكم الوحيد والجيش والدرك، وحتى الكنيسة (التي كانت بدأت تميل إلى الهوتو من ايام الانتداب البلجيكي) لكشف «العدو الداخلي»، أي التوتسي، وتصفيته. ولاستئصال شأفة هذا «العدو الداخلي» تمّ تنظيم المدنيين وتسليحهم، وفضلاً عن ذلك شكلت مختلف الاحزاب الرواندية، الهوتية التكوين، ميليشيات خاصة تابعة لها. وكان كل نصر عسكري يحرزه التوتسيون على الحدود يقابل بمذبحة ضد توتسيي الداخل. لكن، إثر مقتل الرئيسين الرواندي والبوروندي في ٦ نيسان ١٩٩٤، بدأت المجزرة الكبرى، و لم تنته بانتزاع التوتسي النصر العسكري ودخولهم العاصمة في ٤ تموز (١٩٩٤).

في نهاية تحقيقه لكتاب كوليت براكمان «رواندا: قصة إبادة جماعية» (فايار، باريس، ١٩٩٤) كتب جورج طرابيشي («الحياة»، العدد ١١٥٩٧، تاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٩٤، ص ٢٠):

إن الارض التي حررها التوتسيون كانت ارضًا محروقة بكل ما في الكلمة من معنى: ارضًا بلا توتسيين، وحتى بلا هوتيين معتدلين. والسؤال اليوم هو: إذا كانت الاقلية التوتسية قد أبيدت باستثناء من كان منها في الشتات، فماذا سيكون مصير الاكثرية الهوتية بعد ان صار الحكم بايدي الميليشيا التوتسية المنتصرة؟ وأي معنى للحديث عن اكثرية ثلثها (مليونان) مهجر في الداخل، وثلثها (مليونان آخران) نزح إلى الخارج بعد انهيار الجيش الرواندي، وهو الآن يصارع الكوليرا والموت جوعًا وعطشًا في المخيمات، وثلثها الباقي في حالة رعب خوفًا من الانتقام كما من جرثومة الايدز التي يسجل حملتها الايجابيون بين الهوتيين أعلى معدل في العالم: ٣٢٪ من سكان المدن؟».

زعماء ورجال دولة

* **بيزيمونغو، باستور:** راجع «كرونولوجيا أهم الاحداث» في النبذة التاريخية.

* **تواغيرا مونغو، فوستين:** راجع «كرونولوجيا أهم الاحداث» في النبذة التاريخية.

* **كاغيم، بول:** راجع «زحف التوتسي على العاصمة» في معالم تاريخية.

* **كايبندا، غريغوار Kayibanda,G.** (١٩٢٤-١٩٧٦): سياسي ورجل دولة رواندي، واول رئيس لجمهورية رواندا. تسلم رئاسة الجمهورية في تشرين الاول ١٩٦١، أي بعد أشهر قليلة من ولادة الجمهورية (٢٨ كانون الثاني ١٩٦١). أقام في العاصمة كيغالي، وبقي على رأس الجمهورية حتى ١٩٧٣ حين أطاحه فريق من الضباط والرتباء المغمورون الذين ألّفوا حكومة ثورية، وكان على رأسهم جوفينال هابياريمانا (وكانوا من قبيلة الهوتو). حُكم على كايبندا بالاعدام، ثم خفضت العقوبة بعد ان أظهر شعب رواندا تعاطفه مع أب الاستقلال ومؤسس الجمهورية (قبله كان النظام ملكيًا يحكمه «موامي»، أي ملك).

ترتبط شخصية كايبندا، كقائد وكملهم للحركة الاجتماعية للتحرير، بشخصية صديق له هو أحد المبشرين الكاثوليك الذي أصبح مطرانًا في ما بعد، وهو بيرّودان. وكان هذا المبشر قد شارك شعب رواندا (وخاصة من قبيلة الهوتو) في نضاله ضد إقطاع قبيلة التوتسي، وفي الوقت نفسه ضد الاستعمار البلجيكي.

انطلقت الحركة الاجتماعية للتحرير في ١٩٥٣، عندما أسس بيرودان وكايبندا (وكان يعمل مدرّسًا) جريدة رعوية تنطق باللغة الكينيا رواندية. وفي ٩ تشرين الاول ١٩٥٩، أعاد كايبندا تنظيمم هذا الحزب وأسماه «حركة تحرير الهوتو» لمواجهة التوتسي. وأعلنت هذه الحركة عن سعيها لتحقيق التحرر الاقتصادي والسياسي والاعداد لقلب النظام الأوتوقراطي القائم. واحرزت الحركة نجاحًا كبيرًا بسبب دعم بلجيكا لها، بينما راح نظام التوتسي ينغلق أكثر فأكثر على نفسه ويمارس القمع. وبعد عامين من الانتفاضات والصدامات الدموية اعتزل الملك (موامي) كيغيلي الخامس واختار المنفى في أوغندا.

نادى كايبندا بأفكار بسيطة تدور جميعها حول العدل والمساواة. وبسبب هذه الافكار، ولخصاله الشخصية فقد حافظ على صورة لا تنسى في ذاكرة شعب رواندا. ولكنه في المقابل فشل في نزع فتيل الحرب الاهلية بين الهوتو والتوتسي (راجع النبذة التاريخية).

* **هابياريمانا، جوفنال Habya Rimana,J.** (١٩٤٠-١٩٩٤): رئيس دولة رواندا منذ تموز ١٩٧٣ وإلى ٦ نيسان ١٩٩٤. أطاح الرئيس كايبندا، واعلن إلغاء الجمعية الوطنية والمنظمات السياسية الأخرى (راجع النبذة التاريخية والمعالم التاريخية).

جورجيا

صالة الموسيقى في تبليسي.

رقص فولكلوري جورجي.

مزارع جورجي.

الخليج العربي
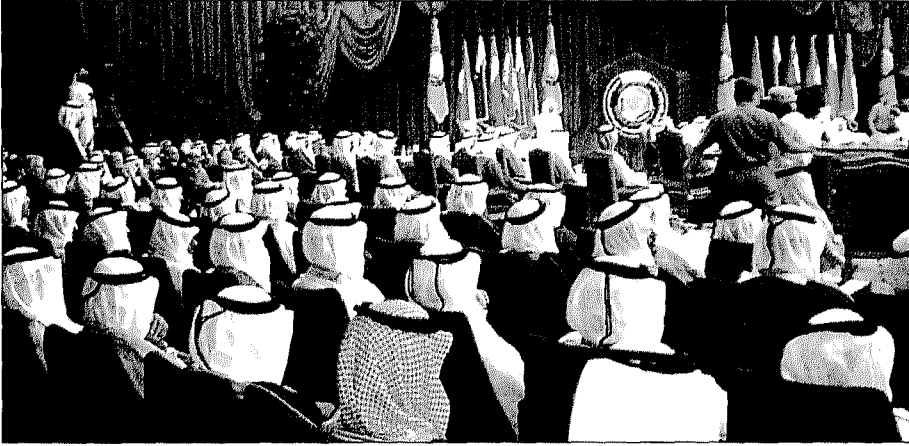
القمة السابعة عشرة لمجلس التعاون الخليجي العربي في الدوحة (كانون الاول ١٩٩٦) التي طغى علي اعمالها النزاع القطري – البحريني.

خريطة البحر الاحمر والخليج العربي ومنطقتهما في آسيا الغربية.
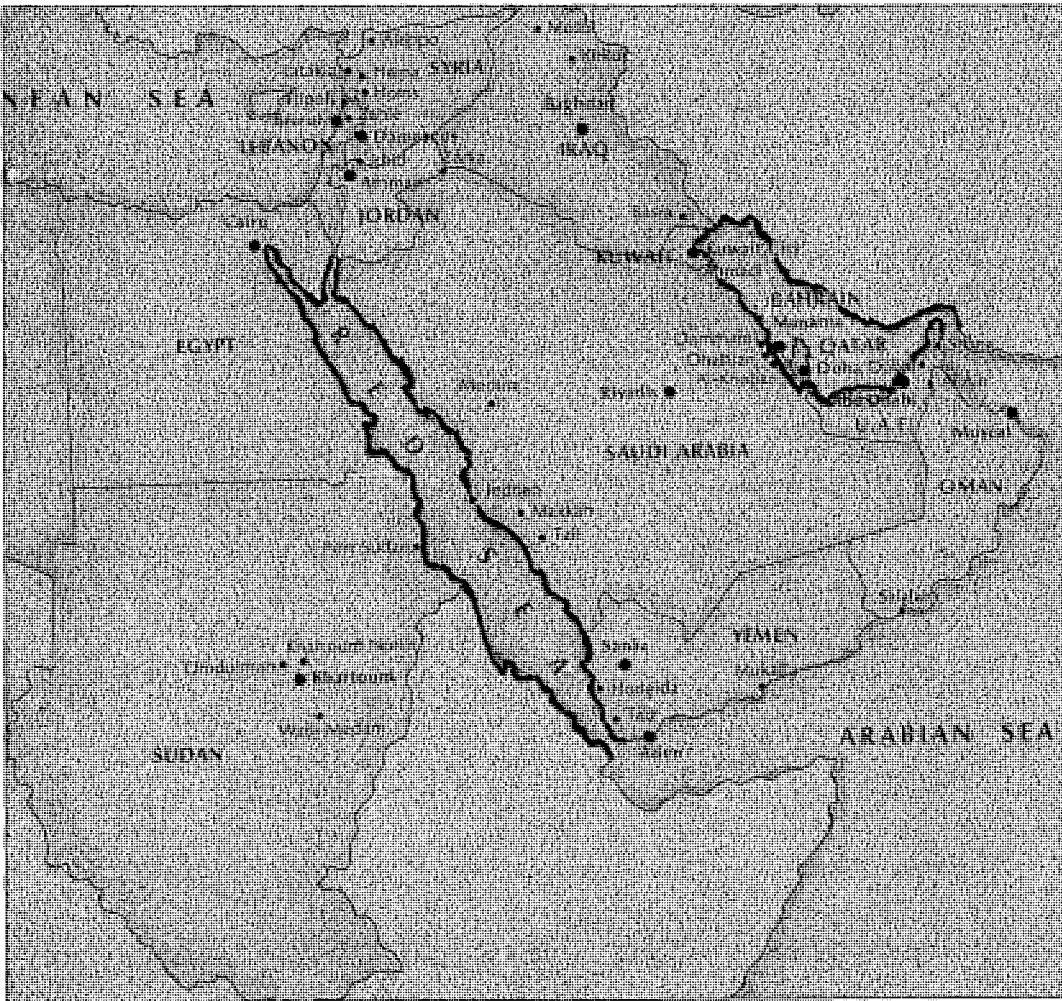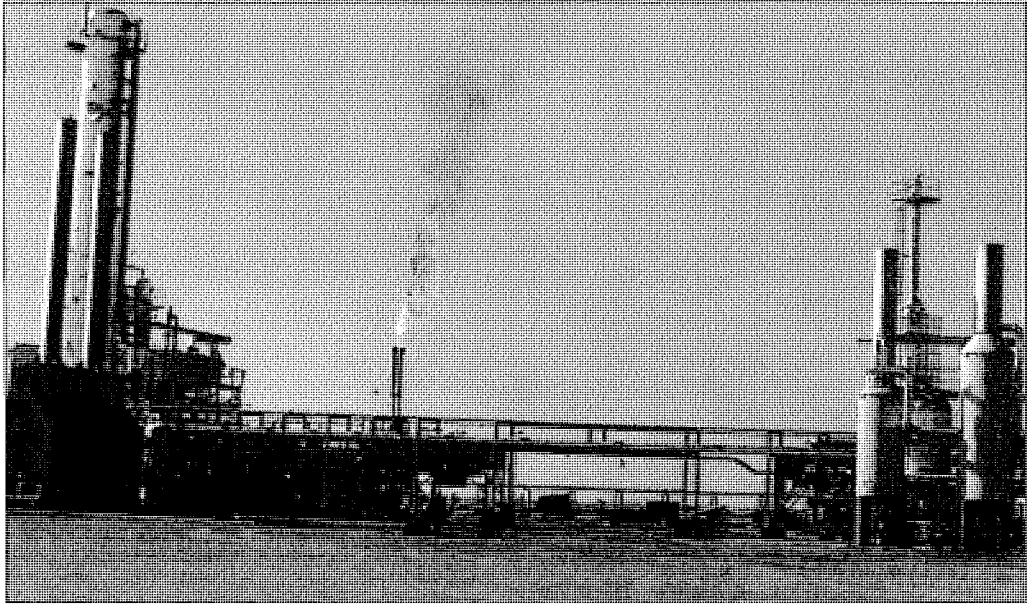
الخليج، آبار نفط، وأعمال ومال، وسياحة ايضاً.
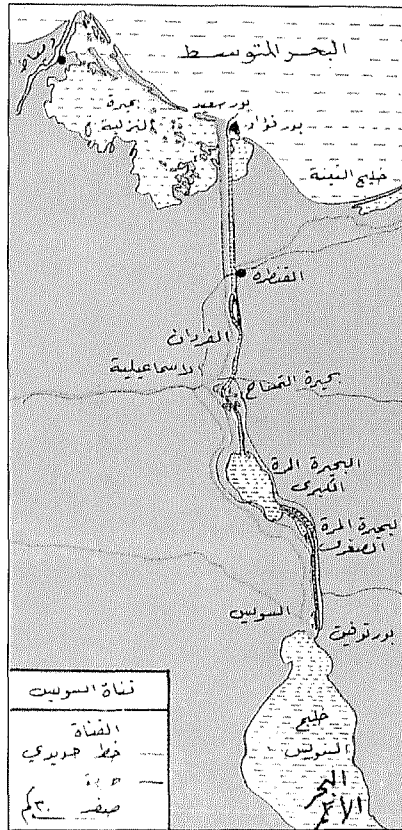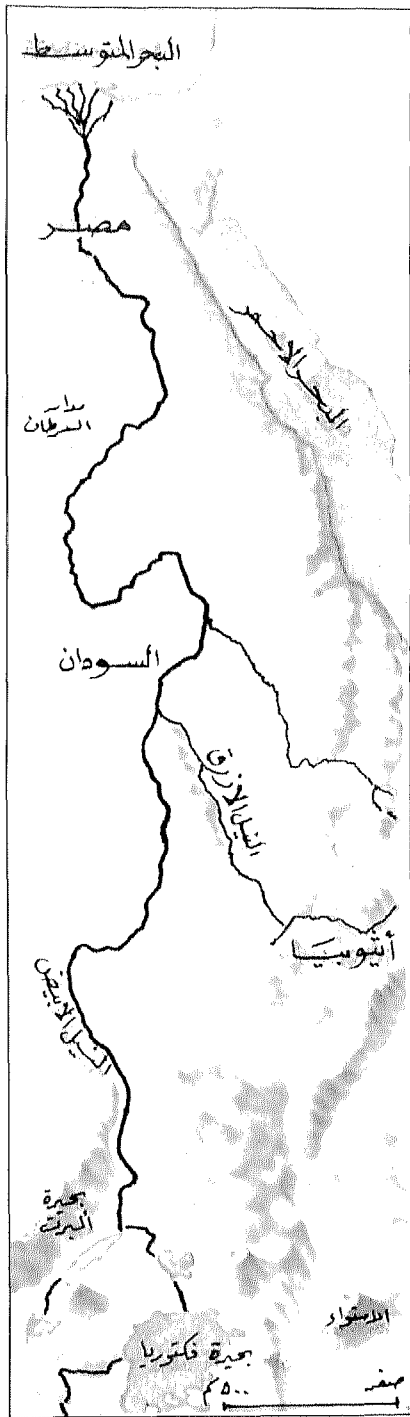
قناة السويس.

حوض النيل.
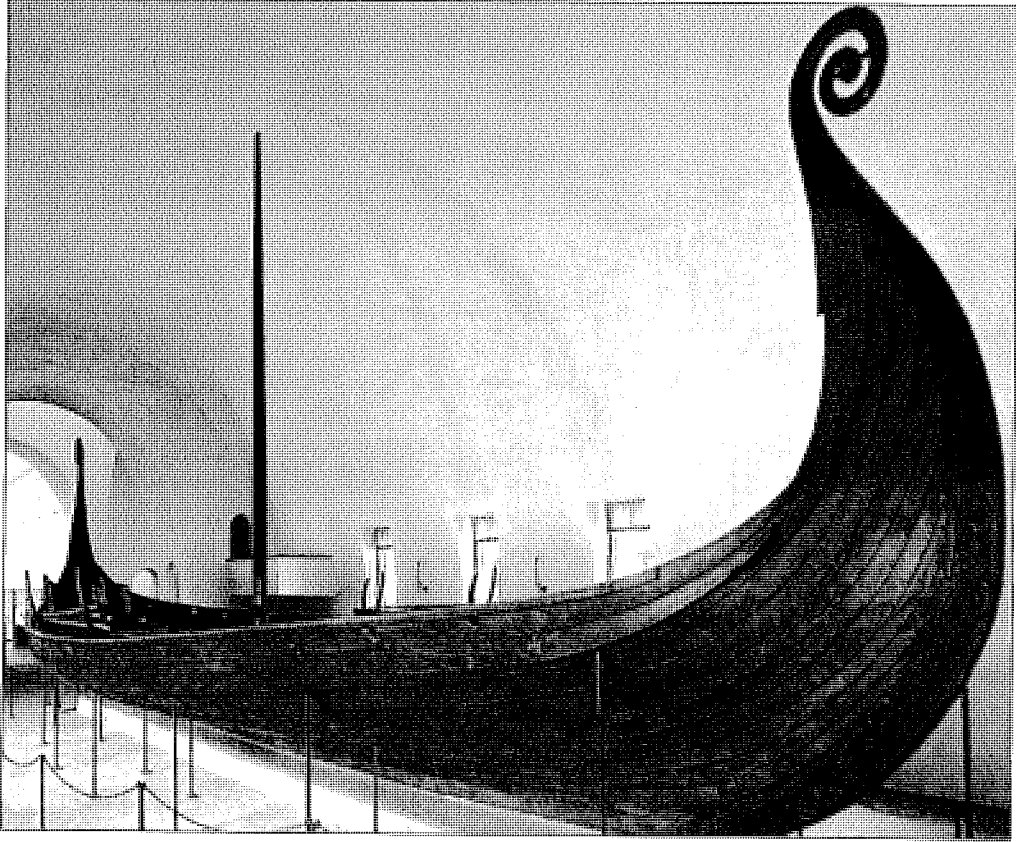
الفايكنغ: «دراكار»، سفينة من خشب السنديان، ومنحوتات خشبية.
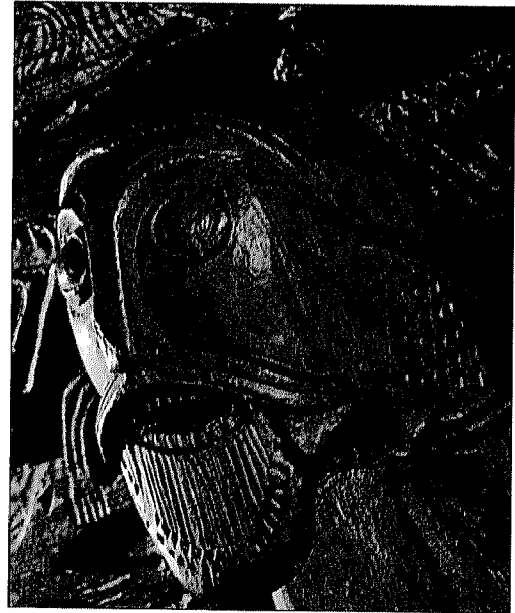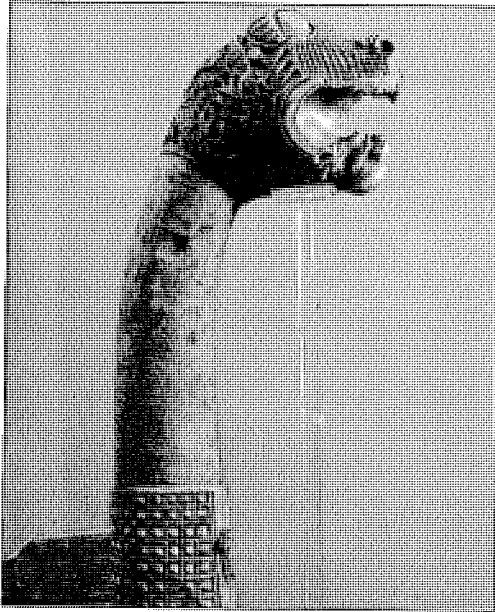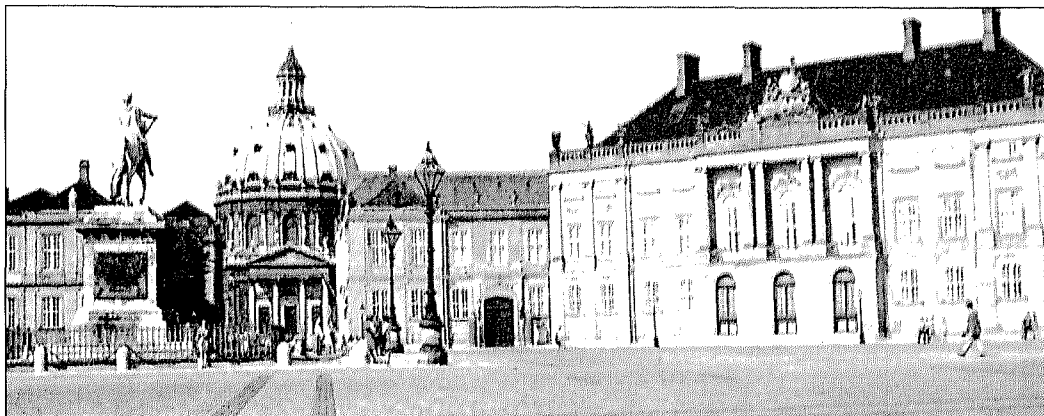
«أمالينبورغ»، القصر الملكي في كوبنهاغن، ويعود بناؤه الى القرن الثامن عشر.

شارع في غودتاب، عاصمة غرونلاند.

رومـانيـا:

أيقونة ارثوذوكسية (في مقاطعة ترانسيلفانيا) تعود الى اوائل القرن التاسع عشر.
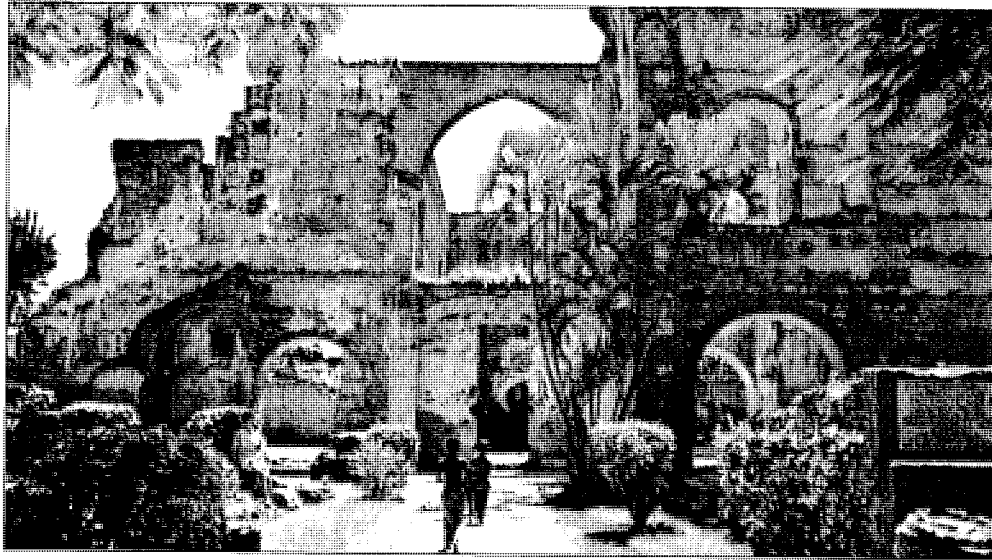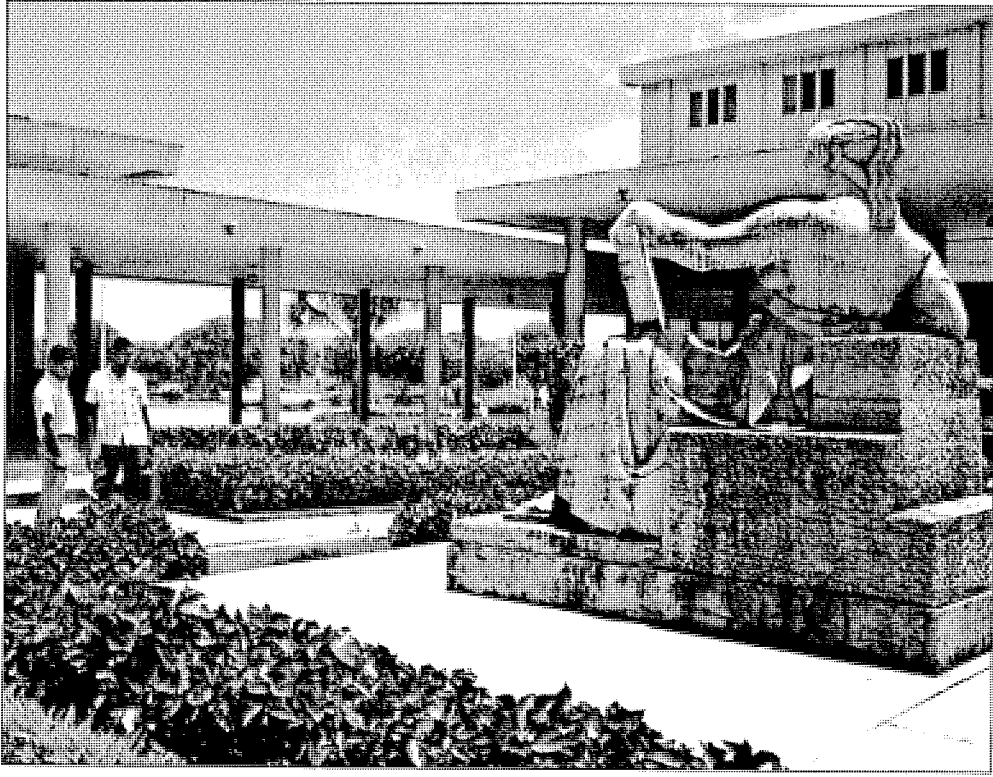
في العاصمة سانتو دومينغو: فوق، جناح حديث من الجامعة. تحت، اطلال بناء يعود الى القرن السادس عشر.

اسرة الدول المستقلة
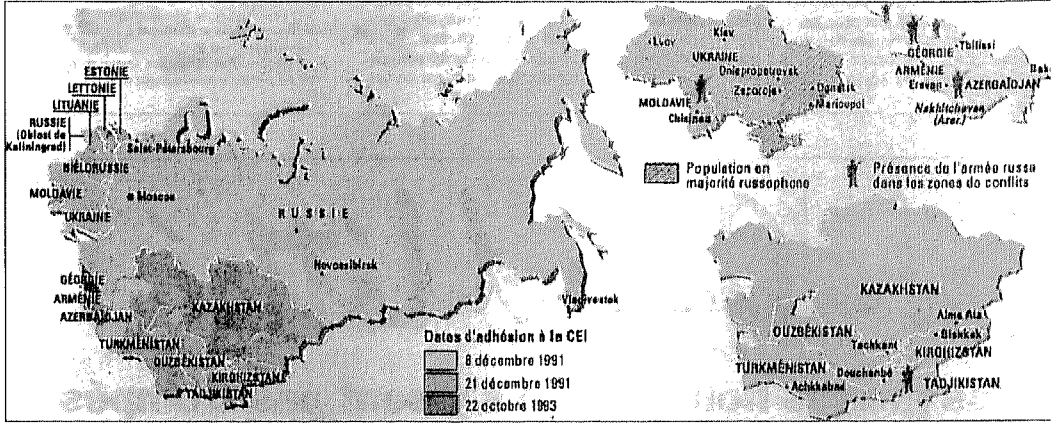
خريطة وصورتان نشرتها «لوموند ديبلوماتيك» (عدد كانون الاول ١٩٩٦)
لتوضيح، بالرقم والرمز، العراقيل التي تعوّق مسار دول الاسرة وقلقها المستقبلي.
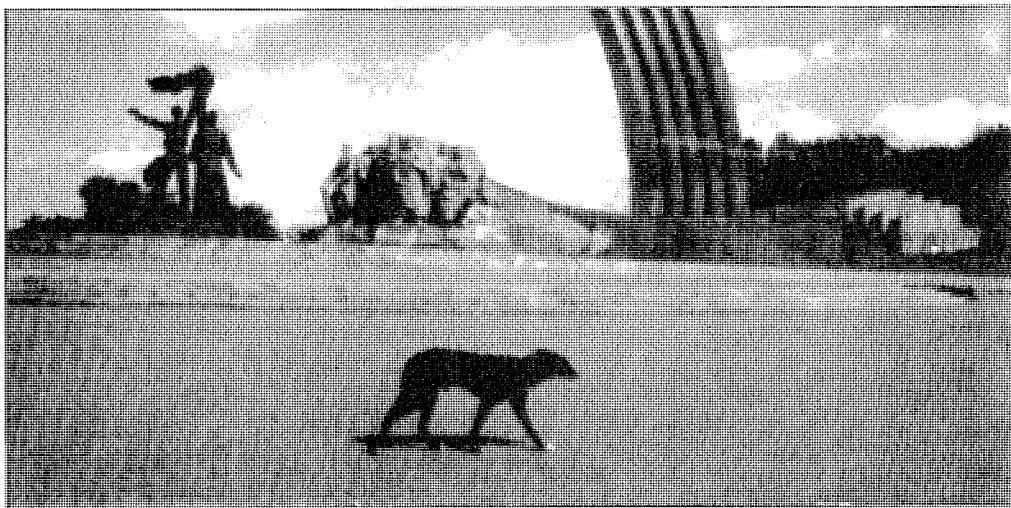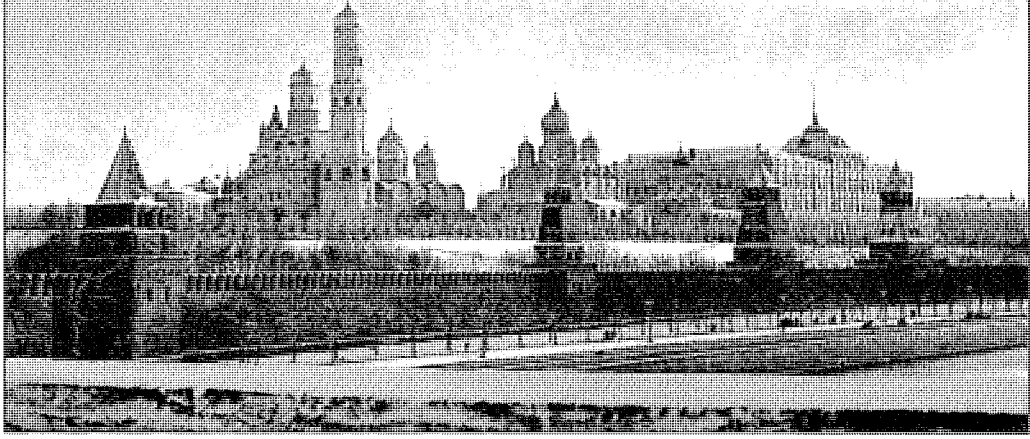
من مباني الكرملين.

ألكسندر نيفسكي، امير نوفغورود (١٢٥٢-١٢٦٣). بفضل قيادته برأي سولجنتسين، كانت الحقبة النقية او الذهبية، وكانت «الديمقراطية النوفغورودية».

ايقونة «شفاعة القديسة العذراء» (مدرسة نوفغورود الدينية) تعود الى اواخر القرن الخامس عشر.
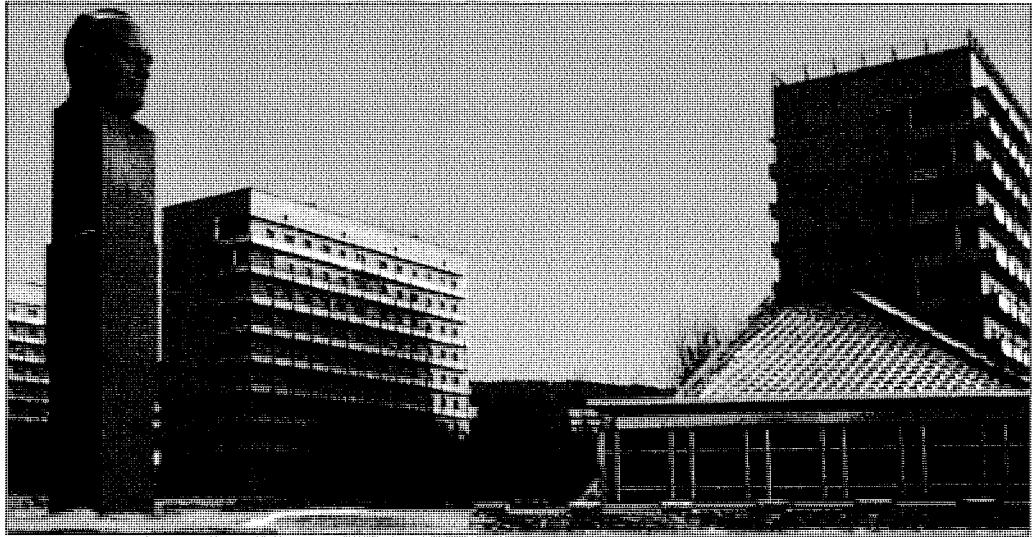
في سيبيريا، مصنع للمياه الصلبة النووية.

ميترو موسكو الشهير بفخامته. دُشن العمل به في ١٩٣٥.
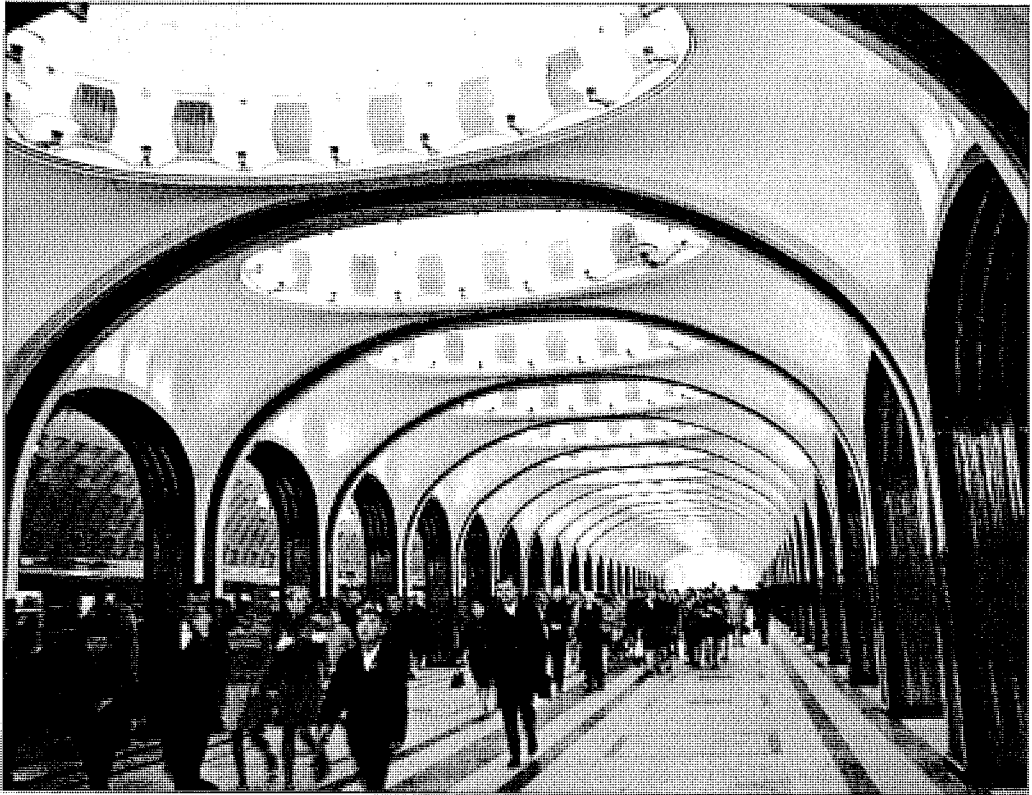
مبنى «البيت الابيض» الروسي خلال المواجهات (تشرين الاول ١٩٩٣).

بطرس الاكبر يقص لحية
أحد البويار في بادرة ترمز الى
تصميمه على فرض نمط الحياة الغربية
على الروس وتثبيت سلطته المطلقة.

لوحة «لقاء مع دائرة حمراء» (١٩٧٣) للرسام جاكوبو بورج، اختارتها «لوموند ديبلوماتيك» (عدد كانون الاول ١٩٩٦، ص ٢٤-٢٥) لتزيّن بها مقالاً كتبه ميشال شوسّودوفسكي، استاذ الاقتصاد في جامعة أوتاوا، بعنوان «الفساد يطبق على الدول. كيف تصيب المافيات الاقتصاد العالمي بمرض الغنغرينة». والضحية الاولى، اليوم، روسيا، دول اوروبا الشرقية (سابقًا)، دول القوقاز وآسيا الوسطى.

زائير
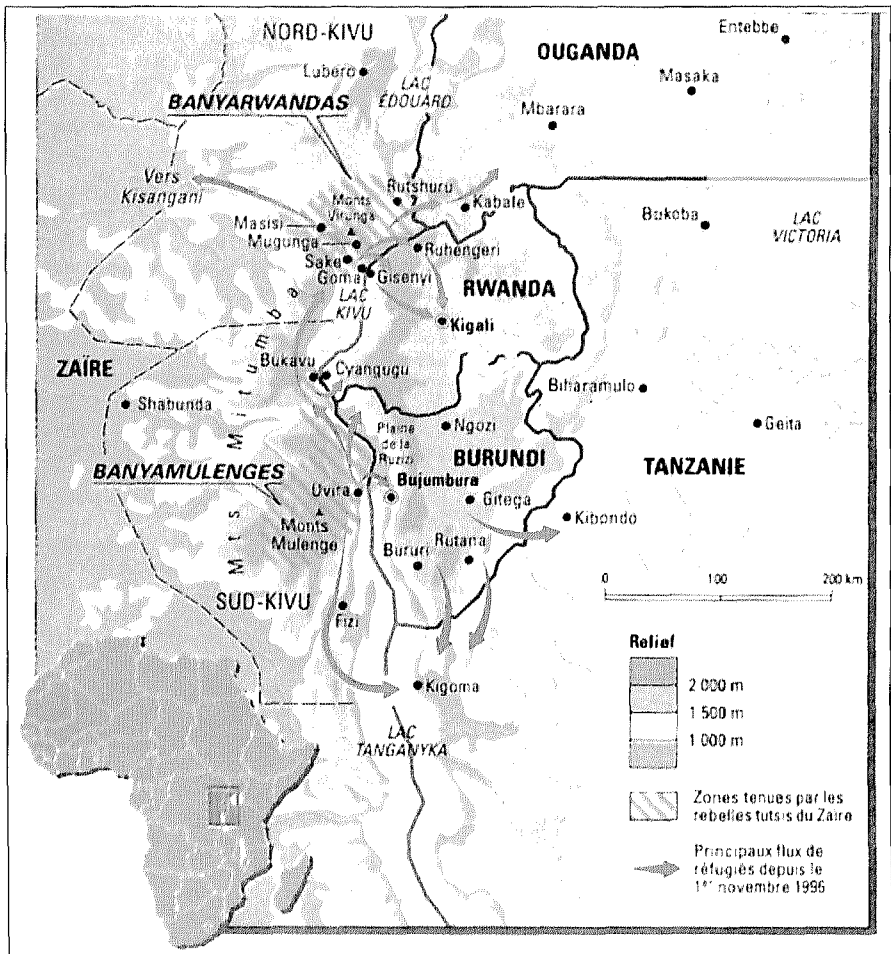
المصدر: المفوضية العليا لشؤون اللاجئين في الامم المتحدة («لوموند ديبلوماتيك»، كانون الاول ١٩٩٦).

جولة من النزوح الاجباري تلو الجولة في منطقة البحيرات الخمس.

هوتو يهيمون على وجوههم.

«انهم (الزائيريون) فنانون بالفطرة. هذا ما لا تملك الا ان تقوله امام هذه الابداعات الفنية. لقد استمد الفنانون الكبار امثال بيكاسو خطوطهم من هذه الاشكال التلقائية التي تجدها في المتاحف فقط ولكن تباع على الارصفة باسعار زهيدة في زائير» («العربي»، العدد ٤٠٨، تشرين الثاني ١٩٩٢، ص ٤٠).

شلالات كيفو على حدود زائير–رواندا.
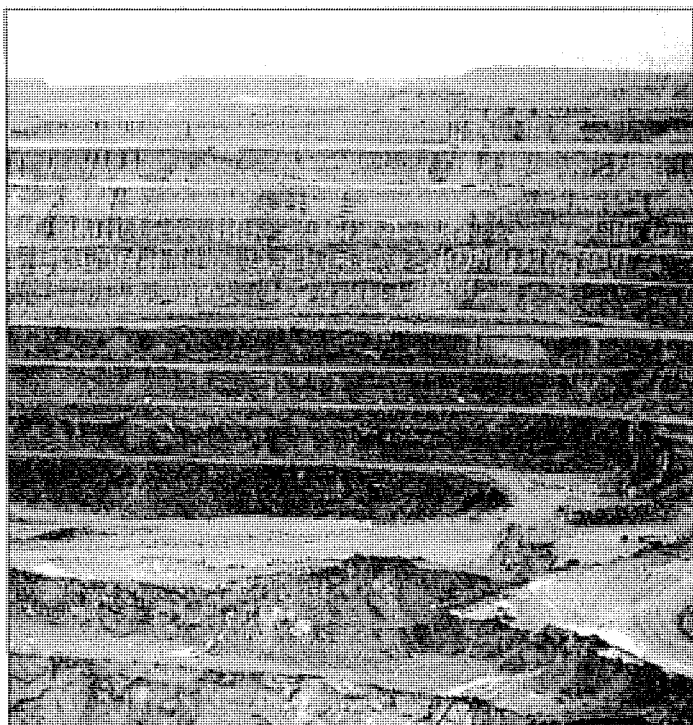
أحد مناجم النحاس في شابا (كاتنغا سابقاً).

روسـيـا

بطاقة تعريف

الاسم: يـأتي إسـم «روسـيا» (أو روسـية) مـن «ريوتسي» أي الاسم الـذي دلّ بـه الفنلنديـون على المناطق التي تشـكل اليـوم اراضـي السـويد، والتي منهـا كـان يـأتي الفـاريغ Varegues (مـن اللغة الشمالية القديمة)، وهو إسم يعني «المجذّفون بمراكبهـم» أو «القـادمون مـع الريـح». ولأن بشرتهم شقراء، فقـد أصبحـت كلمـة «رو» أو «روس» تعـني «الأشـقر» أو «الأصهـب»؛ واسـتمرت عبـارة «فـان رو» (Vents Roux) تعني «الرياح اللافحة».

المساحة: تبلغ مساحة روسيا الاتحادية ١٧ مليونًا و٧٥ ألفًا و٤٠٠ كلم م.، وتغطـي ١١ منطقـة زمنيـة، و٧٦٪ مـن إجمـالي مسـاحة الاتحـاد السوفياتي السابق. وتعادل هذه المساحة المساحة التي كانت عليها بعـد ضمهـا لمنطقـة سيبيريا في القرن السابع عشر. والمناطق التي كـانت روسـية وخسرتها على اثر انهيار الاتحاد السـوفياتي هـي المنـاطق الواقعـة لجهـة الغـرب والـتي ضمـت إلى اوكرانيا وبيلو روسيا.

النشـأة الحاليـة: نشـأت دولـة روسـيا الاتحاديـة الحاليـة في ٢٤ كـانون الاول ١٩٩١: التزامـات دولية، عضويـة دائمـة في مجلس الامـن الـدولي، مسؤولية نووية، انقطاع تام سياسي وايديولوجي مع الاتحاد السوفياتي المنحل السابق.

في ٣١ آذار ١٩٩٢، وقعـت معـاهدة الاتحاد («روسيا الاتحادية») من قبل ٨٦ كيان سياسي: ١٨ جمهورية، ٦ اقاليم (كراي Krai)، ٤٩ منطقـة (أوبلاسـت Oblast)، مدينتـان (موسكو وبطرسبورغ) ١١ كيانًا بحكم ذاتي. ولم توقع على هذه المعـاهدة جمهوريـة الشيشـان (ايتشـكيريا الشيشـانية) وتترسـتان (راجع بـاب «روسيا الاتحادية» الذي يلي مباشرة هذا البـاب «بطاقة تعريف»).

العاصمة وأهم المـدن: موسـكو هـي العاصمـة. وأهم المدن: سان بطرسبورغ، نوفو سيبيرسـك، نيجنينوفغورود (غوركي سابقًا)، سفيردلوفسك، سـاماران، أومسـك، تشـيليا بينسـك، روسـتو-سور-لو-دون، قـازان، بـيرم، أوفـا، فولغوغـراد (تساريتسـين، ومـن ١٩٢٥ إلى ١٩٦١، ستالينغراد سابقًا)، كراسنويارسك، سـاراتوف، فورونيج، سيبميرسك (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: هناك نحو ١٦٢ لغـة سـلافية. الروسية هي اللغـة الرسميـة، ويتكلمهـا نحـو ١٥٤ مليـون نسمة، منهم نحو ١٣٧ مليونًا مـن الـروس و١٦ مليونًـا مـن القوميـات الأخـرى؛ وتعتـبر اللغـة الثانيـة بالنسبة إلى نحـو ٦٣ مليونًـا مـن سـكان روسـيا الاتحاديـة. وبعـد الروسـية تـأتي، في الأهمية، الاوكرانية والبيلوروسية.

السـكان: كـان تعدادهـم في العـام ١٧١٩ نحـو ١٥،٤ مليون نسمة (٩،٩ مليـون مـن الأقنـان، ٣،٥ مليون من الفلاحين الاحـرار، ٠،٦ مليـون بورجوازي)؛ وفي العام ١٨٠٠ نحو ٣٥،٥

مليون نسمة؛ وفي ١٨٥٠ نحو ٦٨،٥ مليون نسمة. أول احصاء وطني جرى في العام ١٨٩٧، وأعطى الارقام التالية: العدد الاجمالي ١٢٦،٤ مليونًا، موزعين على الشكل التالي: ٩٣،٤ مليونًا في روسيا الاوروبية، ٩،٤ ملايين في بولندا، ٩،٣ ملايين في القوقاز، ٧،٧ ملايين في آسيا الوسطى، ٥،٨ ملايين في سيبيريا. وفي إحصاء ١٩١٣: ١٥٩،٢ مليونًا. وفي الاحصاء الاخير ١٩٩٢: ١٤٩،٤ مليونًا موزعين على نحو مئة قومية وإثنية، ٨١،٥٪ منهم من الروس، ٣،٨٪ من التتر، ٣٪ من الاوكرانيين، ١،٢ من التشوفاش. الكثافة السكانية نحو ٨،٨ في الكلم م. الواحد. هناك روسي واحد من كل خمسة روس يعيشون خارج روسيا، أي في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، خاصة في اوكرانيا وكازاخستان. الأكثرية الساحقة من الروس روم أرثوذكس. ومع انهيار الاتحاد السوفياتي والشيوعية وعودة الاديان إلى نشاطها، عادت إلى الوجود ملل دينية كثيرة وبرزت أخرى حديثة لعل أغربها واوسعها واسرعها انتشارًا (قبل منعها في ١٩٩٤) طائفة «أوم سنريكيو» التي ظهرت في اليابان، ثم بدأت تنتشر في روسيا، في ١٩٩١، حيث تمتعت بحرية كاملة وحظيت برعاية ساسة كبار قبل ان يتهم افرادها بتسميم ركاب مترو طوكيو بالغازات. وقد عزا المختصون انتشار نفوذ «أوم سنريكيو» في روسيا إلى الفراغ الفكري وغياب الضوابط الاخلاقية في البلد. وقررت محكمة موسكو، في ربيع ١٩٩٤، وقف نشاط «أوم سنريكيو» إلى أجل غير مسمّى.

وثمة ظاهرة ديمغرافية خطيرة استجدت على الروس بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عنونها الاختصاصيون بعبارة «روسيا تهرم بسرعة»، إذ تتعاظم نسبة الوفيات فيها، ومن المتوقع ان يكون عدد الموتى أكثر بـ١٢ مليونًا من عدد المواليد خلال سنوات ١٩٩٥-٢٠٠٠. فانخفض المعدل المتوسط لحياة السكان، وارتفعت نسبة الوفيات، وانخفضت نسبة الزيجات الجديدة بنسبة ٢٢٪. ويؤكد الخبراء ان هذه الظاهرة تشير إلى تغيرات جذرية في الاوضاع الاجتماعية في مقدمها انخفاض مستوى الحياة ونوعيتها. وقد شكل المنتحرون، في سنوات ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، نحو ثلث العدد الاجمالي لعدد الذين ماتوا ميتة غير طبيعية. واشارت أحدث الدراسات والاحصاءات (١٩٩٥-١٩٩٦) إلى ان ٤٦٪ من شبان الجيل الحالي سيموتون قبل وصولهم إلى سن التقاعد ما يؤكد التقديرات المتشائمة عن «انقراض الامة». والرافد الوحيد الذي يحافظ نسبيًا على عدد السكان في روسيا يتمثل في تدفق مهاجرين من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق حيث يشعر الروس انهم يتعرضون للمضايقات. وبلغ عدد المهاجرين المسجلين رسميًا (في ١٩٩٤) ٦٦٠ ألفًا، ومن المتوقع ان يرتفع إلى ٤-٥ ملايين. لكن هذا الرافد يمكن ان يصبح مشكلة اجتماعية خطيرة أخرى في ظل التدهور الاقتصادي الذي يعاني منه البلد.

الحكم: الدستور المعمول به في روسيا الاتحادية صادر في ١٢ تشرين الاول ١٩٩٠، وقد عُدِّل، حتى اليوم (١٩٩٦) أكثر من ٣٢٠ مرة. رئيس الجمهورية ينتخب بالاقتراع العام والشامل لولاية خمسة اعوام. البرلمان (مؤتمر نواب شعب روسيا): في ١٩٩٠ كان عدد اعضائه ١٠٦٨ عضوًا منتخبًا، منهم ٨٨٩ كانوا موزعين على نحو ١٥ حزبًا، وكان هناك ثمة كتلة نيابية كبيرة من انصار الرئيس الاول لجمهورية روسيا الاتحادية، بوريس يلتسن، ومكونة من تحالف الاصلاحيين السابقين على انهيار الاتحاد

السوفياتي، ومن المطالبين بالقطيعة التامة مع النظام السابق. وهناك كتلة الوسط، والوسط الديمقراطي، واليمين (قوميون، وشيوعيون جدد مناهضون للاصلاحات).

المحكمة الدستورية (مستقلة عن السلطة التنفيذية)، أنشئت في كانون الاول ١٩٩١، ومكونة من ١٣ عضوًا ينتخبهم البرلمان لمدة ١٠ أعوام. رئيسها الحالي فاليري زوركين.

رئيس جمهورية روسيا الاتحادية هو الرئيس الاعلى للجيش، يعين الوزراء وحكام المناطق ورؤساء الادارات وممثليه الشخصيين في المقاطعات. يحكم بموجب مرسوم (أوكهاز Oukhazes)، ويساعده مجلس الامن (أنشيء في آذار ١٩٩٢، ويختص بالسياسة الداخلية والخارجية، وبالمشكلات الاستراتيجية في قضايا الامن الاقتصادي والاجتماعي والعسكري)؛ ويساعده كذلك مجلس رئاسي (هيئة استشارية لتحضير اقتراحات في السياسة الداخلية والخارجية)؛ ويساعده ايضًا مجلس رؤساء الجمهوريات (أنشيء في تشرين الاول ١٩٩٢، ومؤلف من رؤساء برلمانات جمهوريات الاتحاد وعددها ١٨)؛ ومجلس رؤساء إدارات المقاطعات.

البرلمان (مؤتمر نواب الشعب) ينتخب اعضاء المحكمة الدستورية واعضاء المحكمة العليا، ويكفل تعيين رئيس الوزراء والوزراء وحكام المقاطعات، وينتخب بريزيديوم (Praesidium) ومجلس سوفيات أعلى، وجمعية تعقد اجتماعاتها في فترات انقطاع دورات البرلمان المكون من مجلسين: مجلس سوفيات الجمهورية ومجلس القوميات؛ وهذا الاخير مكون من ٧٢ نائبًا لـ٣٢ جمهورية أو منطقة حكم ذاتي، و٦٣ نائبًا لـ٥٧ اقليمًا. وصلاحية البرلمان تشريعية.

احتفظت روسيا بشعار «المطرقة والمنجل».

وكان قد قدّم اقتراح بتبني شعار القياصرة «النسر الثنائي الرأس» وتعلوه ثلاثة تيجان؛ لكن البرلمان رفض الاقتراح بأكثرية ٤٧٩ صوتًا (شيوعيون وممثلو جمهوريات الاتحاد) ضد ٤٦٤ صوتًا.

بالنسبة إلى معاهدة الاتحاد، راجع الباب التالي «روسيا الاتحادية»؛ وبالنسبة إلى الاحزاب، راجع «الاحزاب» في باب «معالم تاريخية».

الاقتصاد: بعض الارقام الحديثة لاعطاء فكرة شاملة وواضحة حول ما آل إليه الاقتصاد الروسي منذ قيام روسيا الاتحادية:

تراجع الانتاج: الصناعي بنسبة نحو ٢٠٪، النفط والفحم نحو ١٢٪، الغاز الطبيعي ٣٪، التجارة الخارجية ٣٠٪، التجارة الداخلية ٤٠٪، قيمة السلع المنتجة اقل من قيمة المواد الاولية إذا بيعت إلى الخارج بالاسعار العالمية.

المرتبة العالمية لروسيا قبيل انهيار الاتحاد السوفياتي (أي في ١٩٨٩): الاولى في البطاطا والشعير والنفط والغاز والحديد والبوتاس واحتياطي الفحم والفولاذ والبوكسيت والقصدير والمنغانيز والنيكل والزنك؛ والثانية في القمح والحليب والماشية والكهرباء والذهب والماس والفوسفات والصناعة الكيميائية والمنشآت الميكانيكية؛ والثالثة في القطن والحنطة والفضة والنحاس؛ والرابعة في الشاي والذرة؛ والخامسة في النبيذ والاحتياطي النفطي.

معطيات نقدية: في تشرين الثاني ١٩٨٩ كان سعر الدولار الواحد يساوي ٦،٢٦ روبل سياحي. في ايار ١٩٩٢ أصبح ٨٠،٢ روبل؛ وفي ايار ١٩٩٣ أصبح ١٠٢٤ روبل.

المساعدات الخارجية: في تشرين الاول ١٩٩١، قدّر ميخائيل غورباتشوف قيمة المساعدات الضرورية بـ١٠٠ مليار دولار. ومع قيام روسيا الاتحادية بدأت المساعدات تأتيها خاصة من

ألمانيا والمجموعة الاوروبية والولايات المتحدة وفرنسا. ولا يزال المسؤولون الروس يطالبون بمساعدات خارجية.

التخصيص (الخصخصة): تخصيص صغير: في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٢، ١٤ ألف متجر صغير (أي نحو ٤٪ من إجمالي المشاريع التجارية)، ١٤ ألف مطعم، و١٢ ألف مشغل. تخصيص متوسط وكبير: نحو ١٤ ألف مشروع تحولت إلى شركات خاصة قبل حلول ١ تشرين الثاني ١٩٩٢. واستمر التخصيص في السنوات اللاحقة.

الاجور الشهرية: الحد الادنى في كانون الثاني ١٩٩٢ كان ٣٤٢ روبلاً، وأصبح ٢٢٥٠ روبلاً في كانون الثاني ١٩٩٣، و٤٥٠٠ في آذار ١٩٩٣. متوسط أجر الاستاذ الجامعي في النصف الاول من ١٩٩٣ نحو ١٥ ألف روبل (١٤ دولارًا)، رجل الشرطة ١٢ ألف روبل.

الزراعة: قبل ١٩٩٢، كان عدد الكولخوزات ٢٦ ألفًا و٢٠٠ إضافة إلى ٤٠٠ كولوخوز صيد سمك، وكان عدد السوفخوزات ٢٢ ألفًا و٦٨٧. وبدءًا من ١٩٩٢، قررت روسيا تفكيك مزارع الكولخوز والسوفخوز وإعادة تنظيمها في شركات مساهمة وتعاونيات.

المناجم: الثروة الباطنية الاساسية موجودة في سيبيريا (أول منتج للذهب والنفط في العالم). البوكسيت في سان بطرسبورغ والأورال وسيبيريا. النحاس في الأورال. القصدير والزنك في الأورال ومناطق القوقاز. المنغانيز في الأورال. وفي الأورال ايضًا الكروم والنيكل والكبريت. يبلغ احتياطي الفحم نحو ٦٧٨٩ مليار طن (٥٨٪ من احتياطي العالم)، واحتياطي الغاز ٤٥ مليار متر مكعب (٤٠،٢٪ من الاحتياطي العالمي)، واحتياطي النفط ١٠ مليار طن (٥،٨٪ من الاحتياطي العالمي)، وهذه الارقام ——— الثلاثة الأخيرة العائدة لاحتياطي الفحم والغاز والنفط تعود إلى الاتحاد السوفياتي في سنواته الأخيرة، وتقدر حصة روسيا منها أكثر من النصف.

المنشآت النووية: مؤسسات تستخدم لأغراض نووية اضطرت إلى وقف نشاطها بسبب المخاطر الناجمة عن انتهاكات التدابير الامنية التي افادت وكالة إيتار تاس الروسية انه تم انتهاكها ٢٠ ألف مرة على الأقل في ١٩٩٣ بسبب رداءة حالة هذه المنشآت وعدم انضباط الموظفين؛ وروسيا هي البلد الوحيد الذي ليس لديه قانون للامن النووي أو أي سياسة لمعالجة النفايات النووية.

ثمن التحول إلى اقتصاد السوق:

١- البطالة: البطالة الظاهرة لا تزال متدنية (نحو ٧٠٠ ألف شخص)، لكن البطالة المستترة تصل إلى نسبة ١٠٪ من القوى العاملة (إحصاءات ١٩٩٤).

٢- العملة: بعد تحرير العملة، اقدمت روسيا، في تموز ١٩٩٣، على خطوة جديدة فقضت فعليًا على منطقة الروبل باعلانها سحب اوراق البنكنوت الروسية الجديدة في الجمهوريات السوفياتية السابقة. وسيكون لزامًا على هذه الدول ان تختار بين التخلي عن الروبل والتعامل بعملات خاصة بها أو اتباع السياسة النقدية الروسية وفرض ضرائب وجمارك موحدة ووضع حد أقصى متفق عليه للائتمانات وتحديد سياسة مالية مشتركة.

٣- الغذاء: تحولت روسيا من بلد مصدر للغذاء (منذ ١٩١٧) إلى بلد مستورد له اليوم. وهذا ما حدا بالمسؤولين إلى تشجيع المزارع الخاصة. ويعمل في الزراعة حاليًا حوالي ١٠ ملايين شخص، في ما يشكل انتاجها السنوي نسبة ٢٠٪ من الناتج القومي الاجمالي.

٤– الفساد: أبرز ظواهره: – وجود نحو ١٥ ألف مليونير تبلغ ثروة كل واحد منهم أكثر من مليون دولار؛ – أكثر من ثلث سكان البلاد يعيشون تحت حد الفقر الذي يبلغ ٨٥٠٠ روبل (٨،٥ دولار شهريًا)؛ بلوغ التضخم مستويات خطيرة، وارتفاع الاسعار يسبق زيادات الاجور مرات عدة؛ – الآلاف يسافرون إلى السويد حيث يخرقون القانون عمدًا من اجل الحصول على فرصة لتناول طعام جيد وكسب عملة صعبة في السجون السويدية؛ – أغرق البحارة في صيف ١٩٩٣ سفينة حربية في ميناء بالتيشيك حتى يسرقوا أجزاءها المعدنية ويبيعوها في السوق السوداء؛ – ارتفاع معدلات الجريمة بدرجة كبيرة؛ – دخول عالم الجريمة والمافيا ميدان التجارة والاعمال اصبح سمة مميزة للاقتصاد الروسي (راجع باب «معالم تاريخية».

الاتحاد الروسي

معاهدة الاتحاد

وقعت هذه المعاهدة في ٣١ آذار ١٩٩٢ من قبل ١٨ جمهورية كانت تتمتع بحكم ذاتي وتحمل إسم «جمهورية» ايام الاتحاد السوفياتي السابق، و٦٨ منطقة وإقليم في الاتحاد، ومدينتين هما موسكو وسان بطرسبورغ. وشكلت معاهدة الاتحاد هذه اساسًا لدستور نيسان ١٩٩٢ الذي رفضه البرلمان الروسي (المؤتمر)، والذي أجريت عليه تعديلات كثيرة في ما بعد. والمعاهدة تعترف لأعضاء الاتحاد الموقعين عليها بحق الاشراف على ثرواتهم الطبيعية، والاستقلال بعلاقاتهم السياسية والاقتصادية الدولية، ولكنها تبقي لموسكو إدارة السياسة الخارجية والدفاعية والنقدية والضرائبية والموازنة. أما تترستان وشيشانيا فرفضتا التوقيع وأعلنتا الاستقلال. في حزيران ١٩٩٣، جرى اعتبار ان روسيا الاتحادية تتضمن ٩٠ «عضوًا»: ٢١ جمهورية تحمل إسم شعب غير روسي (منها شيشانيا التي اعلنت استقلالاً تامًا وناجزًا، وتقاتل من اجله؛ وتترستان التي اعلنت بدورها استقلالاً لا يزال محدودًا)؛ ٦ أقاليم (تطالب باستقلال–أو حكم ذاتي معادل للنظام الذي تتمتع به الجمهوريات)؛ ٤٩ منطقة؛ ١١ محافظة ذات حكم ذاتي؛ ومنطقة بيروبيدجان اليهودية المستقلة بحكمها الذاتي؛ ومدينة موسكو ومدينة سان بطرسبورغ اللتان تتمتعان بنظام سمي «نظام المدينة ذات الاهمية الفدرالية» (راجع: «مناقشة: مسار الاتحاد» في آخر هذا الباب).

مناطق روسية

منطقة موسكو: أول ذكر لموسكو ورد في العام ١١٤٧. بنيت على سبع هضاب يتوسطها الكرملين الذي هو عبارة عن قصر إقطاعي في بداية الأمر، ثم عن قصور وكاتدرائيات تاليًا. شوارعها الرئيسية الملتقية في مركز واحد وسط المدينة متعلقة بوجود اسوارها القديمة. منذ القرن التاسع عشر، أخذت المدينة تكبر وتتسع: باتجاه الشمال والشمال الغربي للسكن؛ باتجاه الجنوب الغربي للسكن والمنشآت الجامعية؛ باتجاه الشرق والجنوب الشرقي للصناعات. حي أو مدينة الكرملين (إضافة إلى ما ذكر بصدده في الجزء

الاول، ص ٦٨) شبّت فيها النيران ١٥ مرة، أكثرها دمارًا في ١٣٣١، ١٦٢٦، ١٧٠١ و١٧٣٧؛ شكلها مثلث غير منتظم بمساحة نحو ٢٧،٥ هكتارًا، تزنّره أسوار بطول ٢٢٣٥م (علو ١٥-٢٠م، وسماكة ٣،٥-٦،٥م)؛ وهناك ٢٠ برجًا (١٤٨٥-١٤٩٥)؛ وفي القرن السابع عشر، بنيت أبراج على شكل خيم (راجع «موسكو» في باب مدن ومعالم).

المناطق الشمالية الغربية، مدينة سان بطرسبورغ St.Petersbourg: المدينة هي الثانية في الأهمية بعد موسكو (راجع «سان بطرسبورغ» في مدن ومعالم). أما المنطقة فهي كناية عن هضاب وسهول ومستنقعات واسعة وبحيرات عديدة تصل ما بين مناطق أعالي الفولغا وبحر البلطيق.

الأورال Oural: جبال قليلة الارتفاع وسهلة الاجتياز. أهم مدنها: سفيردلوفسك، تشيليابينسك، ماغنيتوغورسك (تأسست في ١٩٢٨)، ويسكنها نحو ٦ ملايين نسمة. أهم ثروات الأورال: الفحم قرب سفيردلوفسك؛ والنفط في المناطق الغربية بين برم وأوفا، ودعيت بسبب غناها في النفط «باكو الثانية»؛ والذهب والنحاس والمنغانيز والنيكل والزنك. والمنطقة غنية بصناعاتها، وبعضها يعود إلى ايام بطرس الأكبر (راجع «مناقشة: مسار الاتحاد» في آخر هذا الباب.

في ٢ تموز ١٩٩٣، اتخذ مجلس مقاطعة سفيردلوفسك قرارًا بأعلان «جمهورية الأورال» (المنطقة التي ولد فيها الرئيس الروسي بوريس يلتسن وقاد هناك التنظيم المحلي للحزب الشيوعي). ودافع المجلس لهذا القرار ان سكان المنطقة ينتجون أكثر من نصف الانتاج الصناعي للجمهوريات المنتمية إلى روسيا الاتحادية ولا يتمتعون بحقوق مكافئة للآخرين. ورفض يلتسن هذا القرار.

كامتشاتكا Kamtchatka: تبلغ مساحتها ٣١ ألف كلم م.. عاصمتها بالانا Pallana، مرفأ صغير لصيد السمك على بحر أوخوتسك Okhotsk. اكتشفها، في ١٦٩٧، ستون كوزاكي كانوا يعملون لحساب تاجر فرو يدعى فلاديمير أطلاسوف. في ١٧٠١، ضمها بطرس الأكبر إلى الامبراطورية الروسية. لكن سكانها الأصليين استمروا نحو ٣٠ سنة يقاومون هذا الضم، فبقي منهم على قيد الحياة نحو ٩ آلاف يعيشون من تربية حيوانات الرنة ومن الصيد.

جزيرة سخالين Sakhaline: في المحيط الهادىء. يحيط بها بحر أوخوتسك وبحر اليابان، وعلى شمالها الغربي مضيق التتر. مساحتها ٨٧ ألف كلم م.، وعدد سكانها نحو ٧٢٥ ألف نسمة، معظمهم من أصل روسي؛ وقبل الروس كانت تسكن الجزيرة شعوب تتكلم لغات الباليو الآسيوية. تتبع لها جزر كوريل، مورينون وتيولينن. عاصمتها سخالينسك (١٠٤١٧كلم عن موسكو). فيها ثروات طبيعية وآبار نفطية ومناجم فحم. زراعتها هامشية. صناعتها الخشب والورق وصيد الاسماك.

أول أوروبي جاء الجزيرة كان الملاح الهولندي دي فريز في ١٦٤٣، واعتبرها شبه جزيرة. وأول رحل روسي كان س.بولياكوف. في ١٧٨٢، المستكشف لابيروس اكتشف انها جزيرة. في ١٨٠٦، بدأ الروس يفدون إليها ويقيمون فيها مراكز عسكرية. كانت ملكيتها موضوع نزاع بين روسيا واليابان. وبعد معاهدة ١٨٧٥ اعترف بالسيادة الروسية على كامل الجزيرة (بعد تخلي اليابان عن القسم الجنوبي منها مقابل حصولهم على جزر كوريل). إلا ان معاهدة

بورتسموث، إثر انتصار اليابان على روسيا في ١٩٠٥، اعطت اليابان الجزء الجنوبي من الجزيرة، فحوّلته إلى مركز عسكري وطردت منه الرعايا الروس. واستمر هذا النزاع بعد الثورة الشيوعية في روسيا، حيث عرض القادة الشيوعيون، في ١٩٢٣، على اليابان بيعهم الجزيرة بمبلغ مليار ين (ما كان يعادل موازنة اليابان السنوية). وعلى اثر انتصار الحلفاء على اليابان في الحرب العالمية الثانية، كرّس مؤتمر يالطا لروسيا ملكية الجزيرة.

في ١٩٩٤، ضرب الجزيرة زلزال قوي قتل نحو ٢٥٠٠ شخص، ودمّر بلدة نفتجورسك الواقعة شمالي الجزيرة تدميرًا كليًا تقريبًا.

جزر كوريل الجنوبية Kouriles: ٤ جزر: هابومي وشيكوتان (غير مأهولتين)، إيتوروفو وكوناشيري. ملحقة إداريًا بجزيرة سخالين. لا تزال اليابان تطالب باسترداد جزر كوريل الجنوبية. وقد جاء الاعلان السوفياتي-الياباني في ١٩٥٦ على ذكر جزيرتي هابومي وشيكوتان. في ١٩٩١، عرضت اليابان منح روسيا اعتمادًا بقيمة ٢٥ مليار دولار مقابل استرداد الجزر. في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٢، أصدر الرئيس الروسي، بوريس يلتسن، مرسومًا يقضي بتحويل هذه الجزر إلى «منطقة حرة»، وشجّع المستثمرين الاجانب على استئجار اراضي الجزر لمدة ٩٩ عامًا. إلا ان هذا القرار اعترضت عليه اليابان بشدة. وهناك مشروع يقضي باستغلال الطحالب المتوافرة على سواحل جزر كوريل الجنوبية (تنتج من الادوية بما قيمته السنوية ٢٢،٢ مليار دولار).

في ١٣ تشرين الاول ١٩٩٣، زار الرئيس الروسي، يلتسن، اليابان واعلن بعد اجتماعه برئيس الوزراء الياباني، هوسوكاوا، ان الزيارة نجحت في كسر الجليد الذي استمر منذ الحرب العالمية الثانية في العلاقات بين البلدين، بعدما أبدى الطرفان مواقف مرنة تجاه العقبة الرئيسية امام تطبيع العلاقات، وهي الخلاف على جزر كوريل الاربع. لكن يلتسن لم يحصل على وعود يابانية بتقديم مساعدات اقتصادية جديدة. ومن المعروف ان موسكو (بعد زوال الاتحاد السوفياتي) استمرت تكرر رفضها مطلب اليابان القاضي باستردادها الجزر. وفي اواسط ١٩٩٤، عاد رئيس البرلمان الروسي، إيفان ريبكين، يؤكد تمسك روسيا بـ«جزر كوريل ا لروسية الجميلة».

المناطق الأركتيكية Arctiques: مدنها نادرة: مورمنسك Mourmansk، وتعد نحو ٤٢٥ ألف نسمة؛ أرخنجسك Arkhangelsk، نحو ٤٠٥ آلاف نسمة. مناجمها: النيكل، خاصة في شبه جزيرة كولا في منطقة مورمنسك؛ النيكل والنحاس في نورليسك ودلتا نهر إينيسي؛ المعادن الثمينة في وادي لينا (منطقة لاكوتسك)؛ الحديد (شبه جزيرة كولا)؛ الفحم الحجري (حوض نهر فوركوتا).

سيبيريا Sibérie: مساحتها ١٢ مليون و٨٠٠ ألف كلم م. (٥٧٪ من إجمالي مساحة روسيا). تمتد بمسافة ٨ آلاف كلم من الأورال إلى الباسيفيك، و٣ آلاف كلم من الأركتيك إلى الصين. بلغ عدد سكانها في العام ١٩٢٦ نحو ٦،٥ ملايين نسمة؛ وفي ١٩٥٩ (١٧ مليونًا)؛ وفي ١٩٧٠ (٢٥ مليونًا، أي أكثر من ١٠٪ من مجموع سكان روسيا، وذلك لأول مرة في تاريخ روسيا)؛ وفي ١٩٨٣ (٢٩،٦ مليونًا)؛ وتشير تقديرات ١٩٩٦ إلى ان عدد سكانها نحو ٣١ مليونًا. ثرواتها: ٦٠ إلى ٩٠٪ من إجمالي ثروات روسيا الطبيعية (ونحو نصف الثروات العالمية). وأهم هذه الثروات النفط، الغاز. وهناك اهتمام كبير بالزراعة واستصلاح الاراضي.

في ١٦ و١٧ شباط ١٩٩٣، عقد في تومسك Tomsk مؤتمر اقليمي يمثل أقاليم سيبيريا

(١٩ إقليمًا) طالب بمزيد من الاستقلال الاقتصادي وأدان فساد الوسطاء (راجع: «مناقشة: مسار الاتحاد» في آخر هذا الباب).

مقاطعات ومناطق ذات حكم ذاتي

أغينسكي–بورياتسكي Aguinski-Bouriatski: جزء من منطقة تشيتا. مساحتها ١٩ ألف كلم م.، وعدد سكانها نحو ٧٩ ألف نسمة. عاصمتها أغينسكوي (نحو ٨ آلاف نسمة)، نشأت كمقاطعة (أو إقليم أو محافظة) ذات حكم ذاتي في ٢٦ ايلول ١٩٣٧.

خانتي–مانسيس Khanty-Mansis: واحدة من الـ٤٩ منطقة (أوبلاست) ذات حكم ذاتي. نشأ نظامها هذا في ١٠ كانون الاول ١٩٣٠. مساحتها ٥٢٣ ألفًا و١٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ١،٥ مليون نسمة. عاصمتها خانتي–مانسييسك (نحو ٢٦ ألف نسمة).

أوست–أوردينسكي بورياتسكي Oust-Ordynski Bouriatski: واقعة في منطقة إيركوتسك. نشأت كمقاطعة ذات حكم ذاتي في ٢٦ ايلول ١٩٣٧. مساحتها ٢٢ ألفًا و٤٠٠كلم م. وعدد سكانها نحو ١٤٢ ألف نسمة. عاصمتها أوست–أوردينسكي (نحو ١٢ ألف نسمة).

تيمير Taimyr: واقعة في إقليم كراسنويرسك. نشأت كمحافظة ذات حكم ذاتي في ١٠ كانون الاول ١٩٣٠. مساحتها ٨٦٢ ألفًا و١٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ٥٧ ألف نسمة. عاصمتها دودينكا (نحو ٢١ ألف نسمة).

إيفينكس Evenks: واقعة في أقليم كراسنويرسك. نشأت كمنطقة ذات حكم ذاتي في ١٠ كانون الاول ١٩٣٠. مساحتها ٧٦٧ ألفًا و٦٠٠كلم م.، وتعد نحو ٢٨ ألف نسمة. عاصمتها ثورا (نحو ٥ آلاف نسمة).

كوميس–برمياكس Komis-Permiaks: واقعة في منطقة بيرم Perm. نشأت كمنطقة ذات حكم ذاتي في ٢٦ شباط ١٩٥٢. مساحتها ٣٢ ألفًا و٩٠٠كلم م.. وعدد سكانها نحو ١٧٠ ألف نسمة. عاصمتها كودىمكار (نحو ٢٧ ألف نسمة).

بريموريه: إقليم واقع في الشرق الأقصى قرب الحدود مع اليابان. مساحته ١٦٦ ألف كلم م.، وعدد سكانه نحو ٢،٢ مليون نسمة. غني بالاخشاب، وبسبب موقعه الجغرافي فإنه يمكن ان يقيم صلات واسعة مع اليابان وسائر البلدان المطلة على المحيط الهادىء. في ٨ تموز ١٩٩٣، قرر مجلس الاقليم اعلان «جمهورية» ضمن روسيا الاتحادية وطلب من البرلمان الروسي الموافقة على قراره. وكانت مقاطعتا فولوغدا وسفيردلوفسك اتخذتا قرارًا مماثلاً اثار ردود فعل سلبية في موسكو واعتبر بداية محتملة لانهيار الدولة الروسية.

بيروبيدجان، «الجمهورية اليهودية ذات الحكم الذاتي» Birobidjan: مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي. مساحتها ٣٦ ألف كلم م.. وعدد سكانها نحو ٢٢٠ ألف نسمة (منهم نحو ١٢٨ ألف من الروس، واليهود كان عددهم في ١٩٧٠ نحو ١٥ ألفًا، فهبط إلى نحو ١٠ آلاف في ١٩٨٠؛ وهناك نحو ١٤ ألف أوكراني). نشأت كمقاطعة ذات حكم ذاتي في ٧ أيار ١٩٣٤ واختيرت لها منطقة واقعة في أقصى شرقي الاتحاد السوفياتي لتخدم فكرة «رواد الصهيونية». بين ١٩٣٤ و١٩٣٧، جاء ٢٠ ألف يهودي من المناطق الغربية في الاتحاد السوفياتي واقاموا في بيروبيدجان. في ٢٩ آب ١٩٣٦، صدر مرسوم

خريطة بيروبيدجان.

مجموعة من اليهود الروس من بيروبيدجان لدى وصولهم الى اسرائيل (١٣ ايار١٩٩٦).

يقضي بانشاء «إقليم وطني يهودي» في بيروبيدجان، حيث اللغة اليديشية تحل لغة رسمية وتكون مساوية للغة الروسية. واليديشية هي لغة يهودية تمتزج فيها الالمانية بالعبرية القديمة وبلغات محلية اوروبية أخرى. بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ هاجر إليها عدد من اليهود (على أثر الاضطهادات النازية) فوصل عدد اليهود فيها إلى حده الأقصى أي ٣٠ ألف يهودي). في ١٩٤٨، اتخذ ستالين إجراءات «لا سامية» (منها إلغاء الثقافة اليهودية في بيروبيدجان)، فتناقص عدد اليهود في بيروبيدجان. في ١٩٨٣، بدأت حملة استثارة اليهود العودة إلى بيروبيدجان والاقامة فيها. عاصمتها بيروبيدجان، وتعد نحو ٨٠ ألف نسمة.

ويجدر إضافة شيء من التفصيل حول هذه «المقاطعة-الدولة» الفريدة في نوعها في العالم:

«بيروبيدجان» جمع لاسمي نهرين في منطقة الشرق الاقصى الروسي، نهر بيرا ونهر بيجان (لاحظ الخريطة). وقبل ١٩٢٨، لم يكن في المنطقة مدينة أو مقاطعة اسمها بيروبيدجان، بل كان يوجد مكان المدينة محطة صغيرة للقطارات المتجهة إلى الشرق الاقصى الروسي (السوفياتي في ذلك الوقت-والمقصود المنطقة التي تقع شرقي سيبيريا وصولاً إلى الحدود الصينية واليابانية والمحيط الهادىء). وكان إسمها من قبل «توخونكايا». وكانت المنطقة، وما زالت منطقة اعاصير وغابات ومستنقعات وبعوض ونمور وحيوانات أخرى مفترسة.

أصبحت قرية توخونكايا تعرف باسم بيروبيدجان منذ ١٩٣٠، بل وتحولت (منذ ايار ١٩٣٤) إلى عاصمة مقاطعة بيروبيدجان في إطار اقليم خباروفسك الذي يمثل ربع مساحة الشرق الاقصى السوفياتي. لماذا استحدثت بيروبيدجان كما لو كان يراد منها ان تكون بمثابة «وطن قومي يهودي»، في إطار الاتحاد السوفياتي رغم انها لا تتوافق مع الطروحات النظرية الماركسية حول التكوينات والكيانات القومية؟.

في الادبيات السوفياتية حول هذا الموضوع انه بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، نالت جميع الامم في الاتحاد السوفياتي المساواة والحقوق نفسها. فأصبح يحق لليهود بأن يعيشوا في المكان الذي يختارونه، عكس ما كان زمن القياصرة الذين كانت قوانينهم تحدّد اقامة اليهود في مناطق معينة، عليهم ألا يغادروها، وكان يمنع عليهم العمل في المصانع والحقول. وهكذا توزع اليهود في اماكن عديدة وتعايشوا مع الآخرين بعد قيام الثورة. لكن قسمًا من اليهود فضلوا العيش في مجتمع خاص بهم، فاستجابت لهم الحكومة السوفياتية وتم إنشاء مقاطعة بيروبيدجان. هذا فضلاً ان في الأدبيات السوفياتية ما يفيد ايضًا بأن بيروبيدجان هي الحل الاشتراكي مقابل الحل الصهيوني للمسألة اليهودية.

لقد سيقت مثل هذه التبريرات وأقيمت مقاطعة بيروبيدجان في عهد ستالين رغم ان هذا الأخير يقول في كتابه «الماركسية والمسألة الوطنية»: «إن الأمة هي جامعة أناس ثابتة، تألفت تاريخيًا، ونشأت على اساس اللغة والارض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية التي تتجلى في جامعة الثقافة».

إضافة إلى تردي المستوى الاقتصادي لبعض اليهود الذين كانوا يعيشون في مناطق التوطين (المفروضة من القياصرة) الواقعة على الحدود بين بولندا وروسيا القيصرية، أو في المناطق الداخلية الروسية، واضطهاد الأوكرانيين، على سبيل المثال، لليهود في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والغزو الألماني للاراضي الروسية وتنظيم العديد من المجازر للكثير من شعوب روسيا القيصرية (من بينهم اليهود)، كل ذلك دفع بالكثيرين من اليهود للهجرة إلى المناطق الداخلية، وقد وصل بعضهم إلى اواسط آسيا أو منطقة سيبيريا، وجبال القفقاس، ومنطقة القرم، أو حتى

الهجرة إلى خارج روسيا خاصة إلى الولايات المتحدة الاميركية التي وصلها منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية الحرب العالمية الاولى وما تلاها نحو مليوني يهودي روسي.

وبقيام الثورة على القيصرية (١٩١٧)، فإنها ورثت مشكلة اليهود، خاصة ان الكثيرين منهم قد اصبحوا دون اعمال بعد ان سيطرت الدولة على القطاع التجاري والمصرفي اللذين كانا مجالي عمل لكثير من اليهود، إضافة إلى اعمال هامشية أخرى. ونتيجة لهذه الاسباب وغيرها، فإن الدولة السوفياتية اتبعت خطة تقوم على محاولة تحويل الكثيرين من اليهود للعمل في المصانع والمزارع، وتشجّع اندماجهم الطوعي. لكن مشكلة اليهود بقيت قائمة خاصة ان النظام الجديد قد واجه محاولات الانظمة والقوى الأخرى لتقويضه بالقوة، كما ان اعداء الثورة من الروس الذين سمّوا «الروس البيض» ألفّوا كتائب عسكرية وبدأوا حربهم ضد الثورة ايضًا، فنتج عن ذلك تحطيم الكثير من البنى الاقتصادية والصناعية، والكثير من الموارد والثروات، ما أورث مجاعات وإرباكًا في خطط الدولة.

وما يهم في ذكر هذه الامور، في موضوع اليهود وبيروبيدجان، ان الدولة تلقت مساعدات خارجية، منها مساعدات من بعض المنظمات الاميركية لمواجهة الازمة، وكانت تعكف في الوقت ذاته على اتخاذ إجراءات للتخفيف من الكثافة السكانية في المناطق المركزية تمثلت في استصلاح اراضي الارياف والمناطق النائية ودفع بعض سكان المدن للاقامة فيها. ففي إطار سياق هذين التطورين: مساعدات من بعض المنظمات الاميركية واهتمام السلطة في إنماء المناطق النائية، وجدت منظمات سوفياتية لتوطين اليهود تعاونت مع منظمات اميركية لتحقيق هذا الغرض خاصة في جنوبي اوكرانيا وفي شبه جزيرة القرم وغيرهما. إلا ان تجربة توطين اليهود في هذه المناطق فشلت بفعل مقاومة بعض السكان المحليين، نظرًا لاستغلال الحركة الصهيونية والحركة الدينية اليهودية ونشاطهما بين المستوطنين اليهود في تلك المناطق، وبالتالي تخوف السلطات السوفياتية من وجود كثافة يهودية في منطقة مركزية استراتيجية، خاصة ان نذر الحرب العالمية الثانية قد اخذت تلوح.

في تلك الفترة تمّ التفكير في بيروبيدجان، وأرسلت بعثة استقصائية إليها في ١٩٢٧، عادت بنتائج شجعت السلطات السوفياتية على المضي في إقامة «بيروبيدجان اليهودية». إذ وجدت هذه السلطات بان المشروع سيعيد حياة اليهود في الاتحاد السوفياتي إلى الوضع الطبيعي بجعل اليهود «امة» أو قومية لها جذور اقليمية. فإذا منح اليهود هذا الإقليم (بيروبيدجان) واستطاعوا ان ينشئوا عليه كيانًا خاصًا بهم يكون مركزًا قوميًا وثقافيًا لهم، فإنهم يصبحون «أمة». وهذا الحل كفيل بأن يؤدي، برأي السلطات السوفياتية، إلى تحويل اليهود من طبقة إلى أخرى: من البورجوازية التي تعيش على الاعمال غير الانتاجية، إلى طبقة عاملة منتجة. كما هدف المشروع إلى كسب عطف اليهود في جميع انحاء العالم، وإحباط دعايات العناصر اليهودية المعادية للسوفيات في الخارج، والحصول على التأييد المعنوي والمادي من اليهود في الخارج (الولايات المتحدة بصورة خاصة)، إضافة إلى اعتبارات استراتيجية حتمت اتخاذ هذه الخطوة، فقد كانت الحكومة السوفياتية غير مرتاحة لوجود منطقة حدود خالية من السكان تقريبًا مجاورة لمنشوريا الصينية المزدحمة بالسكان.

ومع تدهور الوضع الدولي، خاصة بعد الغزو الياباني لمنشوريا في ١٩٣١، اخذت الاعتبارات الاستراتيجية لمناطق الشرق الاقصى السوفياتي تظهر بصورة مضاعفة، فكان إقامة كيان يهودي في منطقة الشرق الاقصى السوفياتي يستجيب إلى هدفين عمليين اساسيين: أولهما،

محاولة ايجاد حل للمشكلة اليهودية، وفتح باب الهجرة اليهودية إلى بيروبيدجان ليس امام يهود الاتحاد السوفياتي فقط، بل ليهود العالم ايضًا؛ وفعلاً فإن عائلات عديدة من الارجنتين وانكلترا والمانيا وغيرها وصلت إلى بيروبيدجان. ثانيهما، اعمار منطقة حدود خالية من السكان في مواجهة بلدين كبيرين يعانيان من تخمة في عدد السكان (الصين واليابان).

لكن، على الرغم من اهتمام السلطات السوفياتية بالمشروع وتكثيف الدعايات الاعلامية داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه بغرض تشجيع الهجرة إلى المقاطعة، إلا ان النتائج جاءت غير متوافقة مع حجم الآمال والطموحات (عدد سكان بيروبيدجان لا يتجاوز حاليًا-١٩٩٦-نحو ٢٢٠ ألف نسمة، ٦٥٪ منهم من الروس؛ وهناك أوكرانيون وبيلوروسيون ومولدافيون وغيرهم؛ ولا يشكل اليهود فيها سوى أقلية متوسطة الحجم). فاليهود السوفيات أنفسهم الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة على مختلف الصعد وفي شتى الميادين لم يتحمسوا للانتقال إلى بيروبيدجان. وحتى الذين انتقلوا إليها هاجر الكثيرون منهم إلى اسرائيل لاحقًا أو عادوا إلى مناطق أخرى في الاتحاد السوفياتي. ووفق احصاءات ١٩٨٩، لم يكن اليهود يشكلون أكثر من ٤٪ من سكان المقاطعة.

ومع ذلك، ورغم ضآلة عدد اليهود، جرت تغييرات في وضعها القانوني، في ١٩٩١، لتصبح «الجمهورية اليهودية ذات الحكم الذاتي». ووفقًا للقانون ينبغي ان يكون للجمهورية (خلافًا للمقاطعة) علم وشعار. وأثار تنفيذ هذا الامر جدلاً حادًا خاصة حول عملية التوفيق (في الشعار) بين النسر ذي الرأسين (شعار القياصرة الروس) ونجمة داود (شعار اسرائيل).

إقتصاديًا، تمثل الغابات ثلث مساحة بيروبيدجان، وهي شهيرة بالخشب وبعض الانواع الثمينة منه. وتحتوي ايضًا على ثروة معدنية غنية، منها الفحم والحديد والزئبق والنحاس والصفيح وغيرها من المواد. وتتوزع.صناعتها على صناعات ثقيلة كالحاصدات، وخفيفة كالصناعات الغذائية والملابس وغيرها. وهناك مصانع لتعليب الاسماك النهرية، مثل سمك السلمون الذي يستخرج منه الكافيار الاحمر.

جمهوريات الاتحاد

أوسيتيا الشمالية Ossétie du Nord:

(إضافة إلى ما ورد في «أوسيتيا وإنغوشيا»، ج ٤، ص ٦٤-٦٦):

عاصمتها فلاديقوقاز Vladikavkaz (تعد نحو ٣٠٠ ألف نسمة). وتقع أوسيتيا الشمالية في أول سلسلة جبال القوقاز الكبير وسفوحها الشمالية. وفيها ٦ مدن و٧ بلدات يتراوح عدد سكان الواحدة منها بين ١٠ آلاف و٥٠ ألف نسمة. والأوسيتيون شعب قوقازي تنتمي لغته إلى مجموعة اللغات الايرانية للاسرة الهندو-اوروبية. وهم الشعب القوقازي الوحيد في روسيا الذي تدين غالبيته بالمسيحية.

في ١٧٧٤، ضمت أوسيتيا إلى روسيا. وفي ١٩٢٤، نالت وضع المنطقة ذات الحكم الذاتي. وفي ١٩٣٦، نالت وضع الجمهورية ذات الحكم الذاتي. وفي ١٩٩١، اصبحت للجمهورية تسمية جديدة هي جمهورية أوسيتيا الشمالية الداخلية في إطار روسيا الفدرالية (قبل ذلك كانت تسمى جمهورية أوسيتيا الشمالية الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي). إقتصادها يرتكز أساسًا على صناعة الماكينات والطاقة الكهربائية (بمجموعة من محطات توليد الكهرباء على نهر تيريك)؛ وتنتشر فيها تربية المواشي.

تشغل أوسيتيا الشمالية مركزًا استراتيجيًا مهمًا إذ تقع في وسط شمالي القوقاز. ومن هنا يبدأ الطريق الجورجي الذي هو أكبر أوتوستراد يصل

الجزء الجنوبي من روسيا بكل الجمهوريات القوقازية بما فيها أذربيجان وأرمينيا وجورجيا.

تحدها من الجنوب جمهورية أوسيتيا الجنوبية التي هي كيان ذو حكم ذاتي في إطار جورجيا. من ١٩٩١ وحتى مطلع ١٩٩٤، جرت في أوسيتيا الجنوبية حرب بين الأوسيتيين والجورجيين الذين حاولوا تصفية الحكم الذاتي وإعطاء أوسيتيا الجنوبية وضع وحدة إدارية عادية. فتلقت أوسيتيا الجنوبية الجورجية الدعم بالسلاح والمتطوعين من ابناء جارتها الشماليين الذين أصبحوا جمهورية في دولة روسيا الاتحادية. هدأ النزاع في ١٩٩٤ بعدما أدخلت «قوات حفظ السلام التابعة لاسرة الدول المستقلة» (راجع «الدول المستقلة، أسرة» في هذا الجزء) المؤلفة بغالبيتها من فصائل الجيش الروسي، إلى أوسيتيا الجنوبية.

وحدث ا لنزاع الثاني، ولكن في اراضي أوسيتيا الشمالية نفسها هذه المرة في شتاء ١٩٩٢-١٩٩٣، في ناحية نادتيريتشي المتنازع عليها بين الأوسيتيين والإنغوشيين. وفي خريف ١٩٩٢، تشكلت الجمهورية الانغوشية التي كانت قبل ذلك جزءًا من جمهورية واحدة هي «الجمهورية الشيشانية-الانغوشية الاشتراكية السوفياتية» ذات الحكم الذاتي.

في ١٩٩١، اعلنت شيشانيا انفصالها عن روسيا. لكن الانغوش لم ينضموا إلى الشيشان، وبعدما نالوا جزءًا صغيرًا من اراضيهم من الشيشان وأسسوا دولتهم ارادوا ان يضموا إلى جمهوريتهم ناحية نادتيريتشي التابعة لأوسيتيا الشمالية والتي تقطنها غالبية انغوشية. وانتهى النزاع الذي سقط فيه أكثر من ألف شخص من مختلف القوميات بعد تدخل قوات وزارة الداخلية الروسية. ومن كانون الاول ١٩٩٢ حتى اليوم (١٩٩٦) تخضع نادتيريتشي لحالة الطوارىء والحكم الرئاسي المباشر من موسكو. رئيس المجلس الاعلى (البرلمان) لأوسيتيا الشمالية هو آخساريك غالازوف، الذي يرأس الجمهورية من أكثر من ٦ سنوات أي من ايام وجود الاتحاد السوفياتي.

إنغوشيا Ingouchie: (إضافة إلى ما ورد في «أوسيتيا-إنغوشيا»، ج ٤، ص ٦٤-٦٦):

تشكلت الجمهورية الانغوشية في ١٩٩٢ واعترفت بها موسكو على الرغم من عدم وجود برلمان لديها ولا حدود محدّدة مع شيشانيا؛ غالبية سكانها (حوالي ٣٠٠ ألف نسمة) من الإنغوش وفيها ايضًا روس وشيشان وأوسيتيون وغيرهم من القوميات. تعيش عاصمتها نازران منذ تأسيسها في ظل حال الطوارىء. رئيس الجمهورية روسلان أوشيف، الجنرال السابق في الجيش السوفياتي، كان من المشاركين في الحرب الافغانية، ومُنح فيها أعلى مكافأة سوفياتية وهي لقب «بطل الاتحاد السوفياتي».

الإنغوش قومية قوقازية على قرابة إتنية مع الشيشان، وكان لهم قبل ١٩٩٢ حكم ذاتي مشترك مع الشيشان. في ١٩٩٤، أُبعدوا إلى مناطق آسيا الوسطى السوفياتية. وكانوا انضموا إلى روسيا طوعًا منذ ١٨١٠.

منذ بدء العمليات الحربية في شيشانيا (بعد انهيار الاتحاد السوفياتي) سقط في إنغوشيا حوالي ٣٠ شخصًا وجُرح أكثر من مئة نتيجة الاصطدامات مع فصائل الجيش الروسي وغارات طائراته. وحاول الانغوش في كانون الاول ١٩٩٤ الحيلولة دون تقدم القوات الروسية نحو شيشانيا. ونزح إلى نازران أكثر من ١٠٠ ألف شيشاني، واقيمت في اراضي إنغوشيا مستشفيات ميدانية ومراكز إسعاف. روسلان أوسلاف يرفع باستمرار صوتًا معارضًا عمل السلطات الروسية الحربي في شيشانيا، لكنه لم يكن يؤيد نظام الزعيم الشيشاني الجنرال جوهر دودايف.

كابارديا-بلقاريا Kabardie-Balkarie:

تقع على المنحدرات الشمالية للقوقاز الكبير (جبل البروز هو أعلى قمة في القوقاز، ٥٦٤٢م.)، مساحتها ١٢،٥ ألف كلم م.. سكانها نحو ٧١٥ ألفًا، منهم نحو ٣٠٠ ألف من الكاباردينيين (القبرتاي) و٧٠ ألفًا من البلقارين، و٢٩٠ ألفًا من الروس. نالتشيك Naltchik هي العاصمة (نحو ٢٣٥ ألف نسمة). مصادر الدخل الأساسية: السياحة والمصحات الجبلية واستخراج معدني الولفرام والموليبدنوم. رئيس الجمهورية فاليري كوكوف، انتخب في كانون الثاني ١٩٩٢.

انضمت كاباريا-بلقاريا إلى روسيا طوعًا في ١٥٥٧. في ١٩٢١، تشكلت، في إطار روسيا، المنطقة الكاباردية ذات الحكم الذاتي، وفي ١٩٢٢ المنطقة الكاباردية-البلقارية الموحدة ذات الحكم الذاتي، وفي ١٩٣٦ تحولت إلى جمهورية ذات حكم ذاتي. وفي ١٩٩١، أصبحت جمهورية كاباردیا-بلقاريا. معظم الكاباردين مسلمون. تعرّض البلقاريون، في ١٩٤٤، للاضطهاد على يد السلطات السوفياتية (ستالين) التي أبعدت فريقًا كبيرًا منهم إلى جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية. وبدأ البلقاريون يعودون إلى جمهوريتهم في ١٩٥٧، واضطروا إلى دفع تعويضات لاستعادة بيوتهم وممتلكاتهم. و لم يشهد البلقاريون تحسنًا بعد في ظل روسيا الاتحادية.

آديغيا Adyghées: تقع جنوبي روسيا (شمالي القوقاز السهلي واوله) قرب ساحل البحر الأسود. مساحتها ٧٦٠٠كلم م.. وعدد سكانها نحو ٤٥٠ ألف نسمة، منهم نحو ١٢٥ ألفًا من الشركس، والباقون من الروس. عاصمتها مايكوب Maikop وتعد نحو ١٥٠ ألف نسمة؛ والمدينة الثانية هي توابسي. يعتمد اقتصادها على الزراعة.

أصبحت آديغيا جمهورية ذات استقلال ذاتي في كانون الاول ١٩٩١، وكانت هناك المنطقة الآديغية ذات الحكم الذاتي منذ ١٩٢٢. يحيط بها من كل الجهات إقليم كرسنودار، الوحدة الادارية لروسيا الفدرالية التي لها حقوق أقل بكثير من الجمهوريات الاتحادية الأخرى. رئيس الجمهورية آسلان جاميروف، انتخب في كانون الاول ١٩٩١. تقف الدولة موقفًا مواليًا للسلطات الفدرالية لأن موازنتها تتألف بنسبة ٦٠٪ من مخصصات الموازنة الفدرالية الروسية، وموقفها من النزاع الشيشاني حيادي (هناك نحو ١٠٠ ألف آديغي مسلم).

قرتشايفو-شركسيا Karatchaio-Tcherkessie: تقع في جبال القوقاز الكبير جنوبي روسيا. مساحتها ١٤ ألفًا و١٠٠كلم م.. عدد سكانها نحو ٤٣٠ ألف نسمة، منهم نحو ١٠٠ ألف قرتشاي و٥٠ ألف شركسي، والبقية من الروس. عاصمتها شركسيك (نحو ١١٣ ألف نسمة).

في ١٩٢٢، نال القرتشاي والشركس المسلمون للمرة الاولى منذ القرن الثامن عشر حقًا نسبيًا في الادارة الذاتية، إذ شكلت منطقتهم منطقة ذات حكم ذاتي ضمن إقليم ستافروبول التابع لروسيا الفدرالية. في كانون الاول ١٩٩١، تحولت المنطقة إلى جمهورية قرتشايفو-شركسيا برئاسة الروسي سافيلييف الذي انتخب رئيسًا للمجلس الاعلى (البرلمان). وبما ان الجبليين يشكلون الاقلية في الجمهورية فقد وقفت هذه موقفًا متحفظًا على سياسة الكرملين إزاء حرب انفصال شيشانيا. والسبب الثاني للهدوء السياسي فيها (إضافة إلى وجود الاقلية الجبلية المسلمة) هو تبعيتها الاقتصادية لموسكو، لأنها تعيش على حساب الموازنة الفدرالية.

كلموكيا Kalmoukie: تقع في ما يسمى المنخفض القزويني، على الساحل الشمالي من بحر قزوين. مساحتها ٧٦ ألف كلم م.. وعدد سكانها

نحو ٣٠٠ ألف، منهم نحو ١٤٠ ألف كلموكي، والبقية من الروس. عاصمتها إليستا **Elista** (نحو ٨١ ألف نسمة). يعتمد اقتصادها اساسًا على تربية الضان.

الكلموك هم الشعب الوحيد في القوقاز الذي يعتنق البوذية. وقد حلّوا في هذه الارض قبل ٣٠٠ سنة، وكانوا حتى ١٧٧١ يشكلون الامارة الكملوكية التي ضمت بعد ذلك إلى روسيا. في ١٩٢٠، شكلت المنطقة الكملوكية ذات الحكم الذاتي التي حولت، في ١٩٣٥، إلى جمهورية كلموكيا الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي. وابعد الكملوك ايضًا في ١٩٤٤ وحلّ حكمهم الذاتي حتى ١٩٥٧.

رئيس الجمهورية كيرسان إيلوجينوف (مولود ١٩٦٣) هو أصغر رئيس جمهورية في روسيا الاتحادية، انتخب في ١٩٩٣. رشح نفسه في الحملة الانتخابية عن رجال اعمال الجمهورية ودفع من جيبه لسكان إيليستا اموال دعم الخبز والحليب. وعندما تسلّم السلطة حلّ البرلمان والفرع الجمهوري لوزارة الامن الروسية، له علاقات جيدة مع السلطات الفدرالية الروسية، وأعلن، في ١٩٩٤ ان جمهوريته لا تحتاج إلى استقلال عن روسيا، وألغى الدستور الذي أعلنت الجمهورية بموجبه، في ١٩٩١، سيادتها. وبموجب الدستور الجديد، أصبحت كلموكيا وحدة إدارية عادية في روسيا الاتحادية ليست لها أية امتيازات وتخضع في كل شيء للسلطات الفدرالية. تقف على الحياد في النزاع الشيشاني.

بشكيريا (بشكورتوستان) Bachkirie: تقع في الأورال وتحدها محافظات أورينبورغ وبيرم وتشيليابينسك وسفردلوفسك وجمهورية تتارستان. مساحتها ١٤٣ ألفًا و٦٠٠كلم م.. عدد سكانها نحو ٤ ملايين نسمة، منهم نحو ٢٥٪ من البشكير المسلمين، و٢٥٪ من التتار والاوكرانيين وغيرهم، و٤٠٪ من الروس. عاصمتها أوفا **Oufa** (نحو ١،٢ مليون نسمة). تعد بشكيريا ثالث جمهورية في روسيا من حيث الغنى، واساس اقتصادها استخراج البترول وصناعة الكيميائيات والطاقة. علاقات سلطاتها مع موسكو متزنة ولم يحاول البشكير قط الحصول على وضع متميز في العلاقات مع الكرملين، لكنهم في الوقت نفسه لا يرفضون فكرة السيادة خاصة في موضوع اعادة توزيع ثروات الجمهورية لمصلحتهم. ومن الأسباب الأخرى للاستقرار في هذه الدولة قلة الشعب الذي تحمل الجمهورية اسمه، فالبشكير لا يشكلون إلا ربع عدد السكان.

كان البشكير، في ١٥٥٧، قبلوا طوعًا الجنسية الروسية. وفي ١٩١٩، شكلت الجمهورية البشكيرية الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي؛ وفي ١٩٩١، الجمهورية البشكيرية ذات الحكم الذاتي في إطار الاتحاد الروسي. رئيسها مرتضى رحيموف، رئيس المجلس الأعلى (البرلمان). في ٩ آذار ١٩٩٤، اغتيل رازيل موسين نائب رئيس البرلمان بانفجار لغم في بوابة منزله في مدينة ديورتيولي وكان عين محافظًا لها إضافة إلى منصبه؛ وهو من الشخصيات البارزة في بشكيريا منذ توليه زعامة الحزب الشيوعي في المحافظة. ومن آخر أنباء جمهورية بشكيريا ان وزير الامن البشكيري فلاديمير ناوسوف قرر (في ١٣ ايار ١٩٩٦) طرد أردنيين وثالث لبناني لمخالفتهم التشريعات البشكيرية والروسية بمحاولتهم «التغلغل على نطاق واسع في مختلف ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية». والثلاثة يعملون في هيئة الانقاذ الاسلامية.

ياقوتيا Iakoutie: تقع في سيبيريا الشرقية ويحدها إقليما خباروفسك وكراسنويارسك ومحافظات أركوتسك وآمور وتشيتا، ولها منفذ على المحيط المتجمد الشمالي التي تملك فيه جزر

سيبيريا الجديدة. مساحتها ٣ ملايين و١٠٣ آلاف و٢٠٠ كلم م. (ستة اضعاف مساحة فرنسا أو تسعة أضعاف مساحة ألمانيا). عدد سكانها نحو ١،٢ مليون نسمة، منهم نحو ٣٠٠ ألف من الياقوتيين، والباقون من الروس والاوكرانيين والايفينيك والتشكوكتشيين. عاصمتها ياقوتسك (نحو ١٨٨ ألف نسمة).

يرتكز اقتصادها على اساس الاحتياطات الضخمة من خامات الغاز والذهب والالماس. و لم تتطلع ياقوتيا إلى الانفصال عن روسيا، وما يقال عن الاستقلال دافعه انها تريد هي بنفسها ان تحدد ما يعود إليها من دخل بالعملة الصعبة الناتجة عن بيع الخامات، وما تتركه لموسكو. واقامت ياقوتيا علاقات واسعة مع الشركات الدولية: ٩٠٪ من الالماس يباع لشركة «دي بيرس». وتستطيع السلطات الروسية التأثير في جمهورية ياقوتيا بوسائل الضغط الاقتصادية. فالغاز الياقوتي يصدر عبر انابيب شركة «غازبروم» الروسية، والذهب تستخرجه شركة «ذهب روسيا» التابعة للدولة.

ضمت ياقوتيا إلى روسيا في اواسط القرن السابع عشر. وأسست العاصمة ياقوتسك في ١٦٣٢. وشكلت، في ١٩٢٢، الجمهورية الياقوتية الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي. وفي ١٩٩٠، أعلن المجلس الأعلى (البرلمان) الياقوتي السيادة الوطنية للجمهورية الياقوتية الاشتراكية السوفياتية. وفي ١٩٩١، أعلنت جمهورية ياقوتيا. وفي كانون الاول ١٩٩١، انتخب لرئاستها ميخائيل نيقولايف، وهو مناصر للرئيس الروسي يلتسن، واتخذ موقفًا حياديًا من حرب انفصال شيشانيا.

كومي Komis: تقع بين جبال الاورال والمحيط المتجمد الشمالي. تحدها محافظات ارخانفيلسك وتيومين وبيرم وكيروف. مساحتها ٤١٥ ألفًا و٩٠٠ كلم م.. عدد سكانها نحو ١،٣٥٠ مليون نسمة، منهم نحو ٣٥٠ ألفًا من الكوميين، وأما البقية فروس وأوكرانيون وبشكيريون، وغيرهم. عاصمتها صيكتيفكار Syktyvkar (نحو ٢٣٥ ألف نسمة). من أكثر جمهوريات روسيا رخاء، ويقوم رخاؤها على أساس الاحتياطات الضخمة من البترول والغاز والفحم الحجري، وكذلك على الاستثمارات الاجنبية. فمن أصل خمس شركات نفطية روسية كبرى، ثلاث تعمل في كومي. وبفضل هذا التكامل الشديد لاقتصاد الجمهورية مع الاقتصاد الروسي الفدرالي لا تنشأ مشاكل بين النخبة المحلية والنخب الفدرالية. و لم يصدر أي رد فعل على الازمة الشيشانية عن سلطات كومي.

في ١٤٧٨، ضمت كومي إلى روسيا. في ١٩٢١، شكلت منطقة كومي ذات الحكم الذاتي. في كانون الاول ١٩٩١، أصبحت جمهورية كومي. رئيس الجمهورية هو رئيس المجلس الاعلى (البرلمان) يوري سبيريدونوف، وهو روسي.

ماري ايل Mariil: تحيط بها محافظتا كيروف ونيجني نوفوغورود، وجمهوريتا تشوفاشيا وتتارستان. مساحتها ٢٣ ألفًا و٢٠٠كلم م.. عدد سكانها نحو ٧٥٠ ألف نسمة، منهم نحو ٣٢٠ ألف ماري (أي نحو ٤٥٪ من السكان) وهناك عدد مساو لهم تقريبًا (أي ٣٢٠ ألفًا) من الروس.

ضمت اراضي شعب ماري (المعروفون ايضًا باسم تشيريميس) إلى روسيا في العام ١٥٥٢. وينتمي هذا الشعب إلى مجموعة الشعوب الأوغروفينية. ونشأت المنطقة المارية ذات الحكم الذاتي في ١٩٢٠. ثم صارت، في ١٩٣٦، جمهورية ذات حكم ذاتي. في كانون الاول ١٩٩١، تأسست جمهورية ماري ايل. رئيسها فلاديساف زوتين ماري.

للجمهورية علاقات تبعية بموسكو لأنها

تحصل على المال من الموازنة الفدرالية، وأساس اقتصادها صناعة الآليات ومعالجة المعادن والمصانع الحربية التي تمر الآن (ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي) بازمة شديدة. الحركات القوية في تتارستان المجاورة (السياسية والمطالب الانفصالية) تؤثر في الوضع الداخلي لماري ايل، وإن لم تصل إلى حد النزاعات الجدية على اساس قومي.

كاريليا Carélie: تقع في الشمال، تحدّها شمالاً شبه جزيرة كولا، وتمتد بين محافظتي لينينغراد وأرخانغيلسك الروسيتين وفنلندا. مساحتها ١٧٢ ألفًا و٤٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ٨٠٠ ألف نسمة، يشكل الكاريليون نحو ١١٪ منهم، والباقون روس. عاصمتها بتروزافودسك (نحو ٢٧٥ ألف نسمة).

كانت اراضي كاريليا ضمن الدولة الروسية طيلة الألف سنة الاخيرة، أي تقريبًا منذ ظهور دولة روسيا. قام الحكم الذاتي فيها في ١٩٢٥. في ١٩٩١، قامت جمهورية كاريليا. و«السيادة» بالنسبة إلى السلطات الكاريلية هي قبل كل شيء اداة للحصول من الموازنة الفدرالية على مخصصات وقروض ميسرة لتحويل المصانع الحربية في الجمهورية إلى انتاج مدني. وعلى رغم ارتباط سلطات كاريليا بموسكو، فإن رئيس كاريليا فكتور ستيبانوف كثيرًا ما يجادل الرئيس الروسي، بوريس يلتسن، ولا يوافق على اساليب الاصلاحات الاقتصادية.

موردوفيا Mordovie: تقع بين محافظتي نيجني نوفغورود وأولياتوفسك وبين بنزا وريازان وجمهورية تشوفاشيا (القسم الاوسط من روسيا الاوروبية، منطقة الفولغا). مساحتها ٢٦ ألف و٢٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ١،١ مليون نسمة (٣٦٪ منهم موردوف، و٥٩٪ روس، وفي روسيا عمومًا نحو مليون موردوفي). عاصمتها سارنسك Saransk (نحو ٣٤٩ ألف نسمة).

ضمت موردوفيا إلى روسيا في اواسط القرن السادس عشر بعد سقوط إمارة قازان (تتارستان). ونالت الحكم الذاتي في ١٩٣٠. وفي ١٩٣٦ تأسست الجمهورية الموردوفية الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي. وفي كانون الاول ١٩٩١، أصبح إسمها الجمهورية الموردوفية (في إطار روسيا الفدرالية).

أساس اقتصادها صناعة الآليات والصناعة الكيميائية ومعالجة الاخشاب. ودخلت السلطات الموردوفية مع السلطات الفدرالية، منذ ١٩٩٣، في خلافات دوافعها ايديولوجية. فقد حاولت عزل الرئيس فاسيلي غوسلانيكوف الذي عينته موسكو وتنصيب احد أبنائها نيقولاي بيريوكوف بدلاً منه. وبنتيجة ذلك قام غوسلانيكوف بمهماته كرئيس للجمهورية اسميًا، فيما السلطة الفعلية في يد بيريكوف رئيس المجلس الاعلى (البرلمان). ولم يكن لهذا النزاع طابع قومي، وإنما انحصرت المسألة بتوجهات غوسلانيكوف «الديمقراطية» في حين ان نده يعتبر نفسه «وطنيًا قوميًا».

هاكاسيا Khakassie: تقع بين محافظة كيميريوفو وإقليم كراسنويارسك وجمهورية توفا (جنوب شرقي سيبيريا). مساحتها ٦١ ألف و٩٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ٦٠٠ ألف نسمة، منهم نحو ٧٠ ألف هاكاسي فقط، وهم من الشعوب الأويغورية. عاصمتها آباكان Abakan (نحو ١٥٥ ألف نسمة).

ضمت هاكاسيا إلى روسيا في اواسط القرن السابع عشر. نالت الحكم الذاتي في ١٩٣٠ عندما تشكلت المنطقة الهاكاسية ذات الحكم الذاتي ضمن إقليم كراسنويارسك الروسي. في ١٩٩١، قامت جمهورية هاكاسيا ضمن روسيا الفدرالية.

اساس اقتصادها صناعة استخراج الفحم

الحجري والحديد والمعادن. رئيس الجمهورية رئيس المجلس الاعلى (البرلمان) وهو يفغيني سميرنوف. وكالكثير من الشعوب الصغيرة الاخرى في سيبيريا والشرق الاقصى انصهر الهاكاسيون عمليًا مع السكان الروس.

توفا Touva: تقع جنوبي سيبيريا الشرقية، وتحدها منغوليا ومحافظة أركتوسك وإقليما كراسنويارك وآلتاي وجمهورية بورياتيا. مساحتها ١٧٠ ألفًا و٥٠٠كلم م.، وسكانها نحو ٣١٠ آلاف نسمة (٦٠٪ توفي، و٣٦٪ روسي؛ وهناك نحو ٣٠ ألف توفي في منغوليا). عاصمتها قيزيل Kyzyl وعدد سكانها نحو ٧٦ ألف نسمة.

كانت توفا محمية روسية لسنتين فقط (١٩١٢-١٩١٤). وأعيدت مجددًا إلى روسيا في ١٩٤٤، وكانت قبلاً تابعة لمنغوليا. نشأت فيها مصانع لاستخراج الاسبستوس والكوبالت والفحم. في ١٩٩١، أصبحت جمهورية توفا. وفي السنوات الاخيرة طالبت الحركات القومية بالانفصال عن روسيا؛ لكن هذه الحركات لم تستطع ان تحدد للسكان كيف سيعيشون إذا ما نالوا الاستقلال التام. إذ إن الجمهورية تحصل على معونة مالية من الموازنة الفدرالية تشكل ٨٠٪ من نفقاتها.

آلتاي الجبلية: مساحتها ٩٣ ألف كلم م.. سكانها نحو ١٨٠ ألفًا. قامت في ١٩٢٢ كمنطقة حكم ذاتي أوبروتية (باسم شعب المنطقة «أوبروت» الذي جاء إلى روسيا من الصين الغربية، ويمت بصلة قرابة شديدة إلى شعب الكملوك). وانصهر الأوبروت تمامًا في الوقت الحاضر مع الروس. العاصمة غورنو ألتايسك.

نشأت جمهورية آلتاي الجبلية في كانون الاول ١٩٩١. يقوم اساس اقتصادها على صناعة الاخشاب وتربية المواشي.

تشوفاشيا Tchouvachie: تحدها محافظتا نيجني نوفغورود وأوليانوفسك وجمهوريات تتارستان وماري ايل وموردوفيا. مساحتها ١٨ ألفًا و٣٠٠كلم م.، عدد سكانها نحو ١،٤ مليون نسمة (٧٠٪ تشوفاش، و٢٠٪ روس، ويعيش نحو مليون تشوفاشي خارج حدود جمهوريتهم، في اراضي روسيا الأخرى). العاصمة تشيبوكساري Tcheboksary (نحو ٥٦٠ ألف نسمة). اساس اقتصادها صناعة الآليات والكيميائيات، وتتلقى معونة مالية من الموازنة الفدرالية.

في ١٥٥١، انضمت تشوفاشيا إلى روسيا طوعًا، وتحولت في ١٩٢٠ إلى منطقة حكم ذاتي، ثم جمهورية ذات حكم ذاتي في ١٩٢٥. في ١٩٩١، اصبحت الجمهورية التشوفاشية ضمن روسيا الفدرالية. انتخب وزير العدل السابق لروسيا، نيقولاي فيودوروف، رئيسًا لها في ١٩٩٤.

لم تحدث خلافات بينها وبين الكرملين على اساس قومي، بل وقعت نزاعات مع السلطات المركزية حول تطبيق الاصلاحات الاقتصادية في روسيا. ويعد رئيس تشوفاشيا من انشط زعماء الجمهوريات في روسيا الاتحادية (الفدرالية)، وعقد بمبادرة منه اجتماع في العاصمة (تشيبوكساري) لرؤساء الجمهوريات أبدى فيه أكثر من عشرة زعماء اقليميين في روسيا معارضتهم سياسة السلطات الفدرالية في شيشانيا.

أودمورتيا Oudmourtie: تقع شرقي القسم الاوروبي من روسيا. مساحتها ٤٢ ألفا و١٠٠كلم م.. سكانها نحو ١،٧ مليون نسمة. منهم ٥٥٠ ألف أودمورتي (مجموع الأودمورتيين في اراضي روسيا نحو ٨٠٠ ألف)، والباقون روس (٥٨٪) وتتار وغيرهم. عاصمتها إيجيفسك Ijevsk، وتعد نحو ٦٧٥ ألف نسمة.

اساس اقتصادها صناعة الآليات. فيها

الامام شامل، ملهم حركات التحرر في القوقاز (راجع جزء ٤، ص ١١٨). يبدو في الصورة وهو يتوسط ابناءه وممثلين للسلطات الروسية.

الرئيس جوهر دودايف يوم اعلان الاستقلال في اول ايلول ١٩٩٤.

مصانع المجمع الصناعي الحربي. وفي عاصمتها مصنع من أكبر مصانع الاسلحة النارية وينتج بندقية كلاشنيكوف الشهيرة. وعلاقات الجمهورية بالسلطات الفدرالية جيدة وصافية، فالجمهورية تعيش على معونات الموازنة الفدرالية، ولا تستطيع المصانع الحربية الموجودة فيها ان تحصل على طلبات إلا من وزارة الدفاع الروسية.

ضمت أودمورتيا إلى روسيا في اواخر القرن الخامس عشر. أصبحت، في ١٩٢٠، منطقة حكم ذاتي، وفي ١٩٣٤ جمهورية ذات حكم ذاتي، وفي ١٩٩١ الجمهورية الاودمورتية. والأودمورتيون شعب من مجموعة الشعوب الأوغرفينية، وانصهروا عمليًا مع الروس ويدينون بالمسيحية.

بورياتيا Bouriatie: تقع على الضفة الشرقية لبحيرة بايكال الشهيرة جنوبي سيبيريا الشرقية بين محافظتي أركوتسك وتشيتا الروسيتين وتحدها من الجنوب منغوليا. مساحتها ٣٦٢ ألفًا و٤٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ١،٢ مليون نسمة (البوريات ٢٣٪، والروس ٧٢٪)، عاصمتها أولان-أوده Ulan-Udé وتعد نحو ٣٦٠ ألف نسمة.

دخلت بورياتيا ضمن روسيا في اواسط القرن السابع عشر، وذلك بموجب معاهدة نرشينسكي (١٦٨٩)، ثم معاهدة كياكتا (١٧٢٧) حيث تخلت عنها الصين لروسيا. في ١٩٢٣، أصبحت جمهورية ذات حكم ذاتي. في ١٩٩١، أصبح اسمها جمهورية بورياتيا. يقوم اقتصادها على اساس صناعة الاستخراج وصناعة الآليات. علاقاتها مع السلطات المركزية عادية، وتتلقى معونات من الموازنة الفدرالية. رئيس الجمهورية رئيس المجلس الأعلى (البرلمان) وهو ليونيد بوتابوف.

تتارستان Tatarstan: راجع ج ٦، ص ١٧١-١٧٩؛ و«مناقشة: مسار الاتحاد» في آخر هذا الباب.

داغستان Daghestan: (إضافة إلى ما ورد في مادة «إيتشكيريا الشيشانية»، ج ٤، ص ١٠٧-١٢٣):

تقع داغستان على الساحل الغربي لبحر قزوين من الجانب الشمالي لسلسلة جبال القوقاز. وتحدها من الجنوب إذربيجان. وعلى طرفي حدودها يعيش الليزغينيون الذين يشكلون إحدى قوميات القوقاز الجبلية التي تدين بالاسلام وعددهم ١٨٠ ألفًا في داغستان و١٥٨ ألفًا في أذربيجان. ومنذ ١٩٩٣، قامت في داغستان والمناطق الشمالية من أذربيجان حركة اجتماعية تطالب بانشاء دولة جديدة باسم الجمهورية الليزغينية على اساس مناطق سكني الليزغينيين في كلتا الجمهوريتين. لكن كل المحاولات اخفقت، حتى من دون مقاومة السلطات.

إسم «داغستان» يعني «بلاد الجبال». مساحتها ٥٠ ألفًا و٣٠٠كلم م.. عدد سكانها نحو ١،٩ مليون نسمة، وهم خليط من أكثر من ٣٠ إتنية أو شعبًا: أفار ٢٥،٧٪، دارغين ١٥،٢٪، كوميك ١٢،٤، ليزغينيون ١١،٦٪، روس ١١،٦٪. نحو ٨٠٪ منهم من المسلمين. وهناك نحو ٣٠ لغة محكية في البلاد. عاصمتها مدينة محج قلعة Makhatch Kala (نحو ٣١٥ ألف نسمة) الواقعة على ساحل بحر قزوين.

في ١٧٢٣، تخلى الفرس عن داغستان. وفي ١٨١٣، ضمتها روسيا إليها، فخاض الداغستانيون من ١٨١٧ حتى ١٨٦٤ حرب عصابات ضد القوات الروسية. منذ ١٩٩١، أصبحت داغستان جمهورية في إطار روسيا الفدرالية. رئيس جمهورية داغستان محمد علي محمدوف رئيس المجلس الأعلى (البرلمان)، انتخب صيف ١٩٩٠ وهو موال

لموسكو. لكن فريقًا من الداغستانيين المنضمين إلى «مؤتمر شعوب القوقاز» كان يناشد موسكو، إبان حرب الشيشان، الكف عن العمليات الحربية في شيشانيا ويحذر من ان الحرب قد تنقلب إلى «حرب قوقازية ثانية ضد روسيا» (الحرب القوقازية الاولى هي حرب العصابات التي عرفها القرن التاسع عشر). وقام هؤلاء بجمع المتطوعين للدفاع عن العاصمة الشيشانية غروزني.

مع تصاعد حرب انفصال الشيشان، كان قسم كبير من الداغستانيين ينتقدون حكومتهم «الموالية» لموسكو و«المتخاذلة» عن نصرة الشيشان، وتداولوا (في كانون الثاني ١٩٩٥) بيانًا حذّر «أبناء القوقاز الشجعان من ان التاريخ لن يرحمهم إذا تخاذلوا عن نصرة الشيشان»، وذكّرهم بايام «الامام شامل عندما حاربنا معكم- يا ابناء داغستان-ضد القيصر وحان دوركم الآن». وفي الوقت نفسه، كانت البلدة الداغستانية خسافيرود المحطة الاولى لاستقبال آلاف اللاجئين الشيشان من ويلات الحرب.

في كانون الثاني ١٩٩٦، احتجز المسلحون الشيشانيون ألفي رهينة (غالبيتهم العظمى من الروس) في مدينة قزلر الداغستانية التي تبعد ١٥كلم عن الحدود الشيشانية، والتي أنشئت كقلعة عسكرية روسية في القرن الثامن عشر، ويسكنها حاليًا زهاء ٤٠ ألف نسمة ينتمون إلى ٣٢ قومية، وتقع على طريق استراتيجي للقطارات يربط روسيا بالقوقاز. وعقب هذه العملية تصاعدت حدة الحرب بين الروس والشيشان، وخطف الشيشان رهائن آخرين في عاصمتهم غروزني، وكبّدوا الجيش الروسي خسائر كبيرة اضطرت الحكومة الروسية الاعتراف بـ«الاخطاء الفادحة التي ارتكبت في شيشانيا». وفي ١١ آب ١٩٩٦، كلف الرئيس الروسي بوريس يلتسن رئيس مجلس الامن القومي الجنرال ألكسندر ليبيد ملف الازمة الشيشانية. فانتقل هذا لتوه إلى داغستان للطلب من المسؤولين المحليين التوسط لدى المقاومة الشيشانية لاجراء مفاوضات بينها وبين السلطات الروسية (راجع «مناقشة: مسار الاتحاد» في آخر هذا الباب).

شيشانيا Tchétchénie: (إضافة إلى ما ورد في «إيتشكيريا الشيشانية»، ج ٤، ص ١٠٧-١٢٣، وكنا وصلنا في سرد أحداثها، بعد التعريف بها، إلى اوائل ١٩٩٥):

١٩٩٤: في ٦ كانون الاول، اتفق وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف ورئيس جمهورية شيشانيا جوهر دودايف، بعد محادثات بينهما، على ان الخلاف بين موسكو وغروزني لا يحل بالقوة العسكرية. لكن، بعد أقل من اسبوع، اعتبر يلتسن، في مناسبة الذكرى الاولى لاقرار الدستور الروسي، ان استخدام القوة ضد شيشانيا «واجب دستوري». وفي اليوم التالي (أي ١٢ كانون الاول)، اندلعت أولى المعارك الضارية قرب غروزني، وقام الجيش الروسي بمحاصرتها من كل الجهات وبشن غارات عليها وانذار دودايف بالاستسلام ونزع السلاح.

١٩٩٥: في اول كانون الثاني، اقتحمت القوات الروسية غروزني. وبدأت حرب شوارع شرسة (مئات القتلى من الروس، وآلاف من الشيشان)، وأدّى صمود المقاومة الشيشانية إلى إحداث فوضى في صفوف صنّاع القرار الروسي. وجرت مفاوضات لايقاف القتال، لكنها فشلت، واستؤنفت المعارك في ٢٥ ايار. وفي اواسط حزيران، عادت المفاوضات من جديد في غروزني انتهت باعلان رئيس الوزراء الروسي فكتور تشيرنوميردين الموافقة على وقف النار مقابل إطلاق الرهائن (نحو ألف رهينة) الذين احتجزهم مقاومون شيشانيون نجحوا في الوصول إلى بوديونوفسك (في حزيران)، المدينة الروسية المجاورة لجمهورية الشيشان واشتبكوا مع رجال الشرطة

فيها واطلقوا النيران في شوارع المدينة واختطفوا اعدادًا كبيرة من المواطنين وارغموهم على دخول مبنى المستشفى حيث احتجزوا كرهائن. وتزعم المقاومين في هذه العملية احد ابرز القادة الميدانيين في التشكيلات الشيشانية المسلحة، شامل باسايف الذي تمكن من اجبار تشيرنوميردين على مفاوضته حول وقف العمليات العسكرية والقصف المدفعي والجوي في اراضي الشيشان مقابل الافراج عن الرهائن والبدء بالمفاوضات السلمية. لكن النزاع استمر، واستمرت المعارك وعنفت في اواخر ١٩٩٥.

١٩٩٦: القوات الروسية استمرت في احتلالها غروزني وفي تعيينها وحمايتها لحكومة شيشانية موالية لموسكو برئاسة دوكو زافغايف. واستمرت المقاومة الشيشانية (أنصار دودايف) في عملياتها، ومن بينها المزيد من خطف لرهائن روس (في شيشانيا وداغستان، وسفينة في البحر الأسود وعلى متنها نحو ٢٠٠ راكب معظمهم من الروس). وخلال آذار، تمكنت المقاومة من خوض معارك في شوارع غروزني نفسها، في وقت أخذ الرئيس يلتسن، يستعد للانتخابات الرئاسية الروسية. فوقّع، في اول نيسان، مرسومًا أضفى طابعًا قانونيًا على خطته في شأن وقف العمليات العسكرية في شيشانيا وسحب القوات الروسية منها. وبعد نحو ثلاثة اسابيع، وفي مؤتمر صحافي مشترك عقده مع الرئيس الاميركي بيل كلينتون في موسكو، قال ان «خطة السلام تنفذ بحذافيرها»، لكنه أكدّ ان «جمهورية الشيشان يجب ان تكون وستظل جزءًا من روسيا». أما الرئيس الاميركي فعلى رغم دعوته يلتسن إلى إيجاد حل سياسي للازمة الشيشانية، فقد قارن الحرب الروسية على الشيشان بالحرب الاهلية الاميركية (١٨٥٦-١٨٥٧) التي أرست مبدأ «انه لا يمكن للمناطق ان تنفصل ببساطة».

في ٢٤ نيسان، بث التلفزيون الجوال في شيشانيا الذي يسيطر عليه انصار دودايف بيانًا لأحد أبرز القادة الشيشانيين الميدانيين، شامل باسايف، أكد فيه مصرع جوهر دودايف، وذكر ان صلاحياته انتقلت إلى نائبه سليم خان ياندربييف. وأكدّت هذا النبأ مصادر كثيرة، منها بعثة منظمة الامن والتعاون الاوروبي في غروزني. وفي آخر نيسان، عين باسايف قائدًا عامًا للقوات المسلحة الشيشانية.

في ٢٩ ايار، عرضت موسكو مسودة معاهدة ثنائية تنص على ان تكون الجمهورية الشيشانية «دولة ذات سيادة» ضمن روسيا الاتحادية. وجاء ذلك في إطار جولة من المفاوضات بين الروس والشيشان وبعد يومين من توقيع الجانبين على اتفاق لوقف النار (وقعه سليم خان ياندربييف في موسكو، واثر ذلك قام يلتسن بزيارة مفاجئة إلى الاراضي الشيشانية استمرت بضع ساعات).

في ٩ تموز، وبعد هدوء نسبي (إثر توقيع إتفاق وقف النار، وبصورة متزامنة مع الانتخابات الرئاسية الروسية التي فاز بها يلتسن)، انفجر الوضع العسكري في شيشانيا من جديد، وجرت معارك ضارية بين المقاومة والقوات الروسية الفدرالية في بلدة غيخي الجنوبية. وفرض قائد هذه القوات منع التجول في الجمهورية. واستمرت العمليات العسكرية وتوجت بهجوم للمقاومين كاسح على غروزني أثبت عجز القيادة الروسية على حسم الوضع (الاسبوع الاول من آب). وإزاء ذلك، عيّن الرئيس الروسي، يلتسن، الجنرال ألكسندر ليبيد، رئيس مجلس الامن القومي الروسي، ممثلاً له في شيشانيا وفوّضه ملفها، مؤكدًا ان «لا سبيل لانهاء النزاع إلا عبر التفاوض الذي باشرت به موسكو في ٢٧ ايار الماضي» (١٩٩٦). وتوجه ليبيد، لفوره، إلى شيشانيا حيث احتمع مع رئيس الاركان الشيشاني (قائد قوات المقاومة) أصلان مسخادوف واتفق معه على العمل

لوقف النار. وفي مؤتمر صحافي عقده ليبيد في موسكو (١٢ آب)، أشاد برجال المقاومة الشيشانية واعتبرهم «مقاتلين جيدين» يواجهون «جنودًا منحطي المعنويات وغير مبالين ومتعبين».

وتوالت اجتماعات ليبيد مع القادة الشيشان حتى أسفرت، في الساعة الواحدة والنصف بعد ليل ٣١ آب-أول أيلول، وبعد أكثر من سبع ساعات من المفاوضات في مدينة خساويورت على الحدود الداغستانية-الشيشانية، عن توقيع وثائق تؤكد انتهاء الحرب الشيشانية وتحدد مبادىء العلاقات بين موسكو (المركز الفدرالي) والجمهورية الشيشانية، والتي نصت على ان مصيرها سيتقرر نهائيًا قبل انقضاء سنة ٢٠٠١. وقد وقّع «البيان السياسي عن مبادىء تحديد أسس العلاقات بين روسيا الاتحادية والجمهورية الشيشانية» ليبيد ومسخادوف بحضور ممثل منظمة الامن والتعاون الاوروبي. وحملت تسمية هذا «البيان-الوثيقة» مغزى بالغ الأهمية إذ اعترفت موسكو لاول مرة بوجود طرفين متكافئين، الامر الذي كرّس عمليًا الاستقلال الذي اعلنه الشيشان من جانب واحد في ٦ ايلول ١٩٩١ وحاولت روسيا إنهاءه بحرب بدأت اواخر ١٩٩٤، سقط خلالها نحو ٦٠-٧٠ ألف شخص إلى جانب التدمير الكامل للعاصمة غروزني ومدن أخرى وإنهاك الاقتصاد الروسي.

ونص البيان-الوثيقة على ان تشكل في غضون شهر ايلول (١٩٩٦) لجنة من ممثلي هيئات السلطة في روسيا وجمهورية شيشانيا لمراقبة تنفيذ الاتفاقيات وتهيئة مقترحات في شأن انجاز سحب القوات من شيشانيا. وستتولى اللجنة وضع برامج لاعمار الجمهورية واعادة علاقاتها المالية مع روسيا وتشرف على برامج «مكافحة الجريمة والارهاب ومظاهر العداء القومي والديني»؛ وحدد الاتفاق يوم ٣١ كانون الاول عام ٢٠٠١ موعدًا نهائيًا لعقد اتفاقية سياسية تحدد العلاقات النهائية بين الطرفين. ونص الاتفاق على وضع تشريعات لجمهورية شيشانيا تراعي حقوق وحريات المواطنين بصرف النظر عن انتمائهم القومي أو الديني. وبذلك تكون روسيا قد تخلت عن نقطة محورية كانت تتشبث بها سابقًا وتنص على ان تكون التشريعات الفدرالية سارية المفعول في شيشانيا.

بعد نحو شهر ونصف من اعلان انتهاء الحرب الشيشانية، وتحديدًا في ١٧ تشرين الاول، أصدر الرئيس الروسي يلتسن قرارًا يقضي بعزل ألكسندر ليبيد واتهمه بأنه يفتقر إلى روح الفريق وإن له طموحات واضحة في الرئاسة، وعيّن مكانه (لرئاسة مجلس الامن القومي وممثلاً له في شيشانيا) إيفان ريبكين الذي كان رئيسًا لمجلس الدوما في البرلمان الروسي عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥. فسارع ريبكين إلى الاعلان انه يؤيد اتفاق السلام الذي وقعه سلفه ألكسندر ليبيد مع شيشانيا وانه سيبذل كل ما بوسعه لانهاء الازمة. وجاء رئيس الوزراء الشيشاني أصلان مسخادوف (القائد السابق للثوار) متحفظًا، إذ قال: «حكمنا على ريبكين تحدّده أفعاله».

في أول تشرين الثاني، نقلت جريدة «الحياة» (العدد ١٢٣٠٣، ص ١) حديثًا أجرته مع الزعيم الشيشاني سليم خان ياندربييف في احد مقراته الموقتة قرب العاصمة غروزني، اشار فيه إلى ان احتمال استئناف الحرب قائم «ما دامت القوى التي شنتها موجودة في القيادة الروسية»، وشدّد على ان جمهورية شيشانيا دولة مستقلة وتجري حاليًا اتصالات مكثفة مع عدد من الدول الشرقية والغربية للحصول على اعتراف رسمي بها، وهناك «مؤشرات متزايدة» إلى ان الاعترافات باستقلالها يمكن ان تبدأ قريبًا. وأكد ان الدولة الجديدة ستقوم على «القيم والشرائع الاسلامية»، ولكنه رفض ان تصنف في خانة الدول العلمانية أو الدينية.

وفي اليوم التالي، نقلت الجريدة نفسها عن

القائد الميداني المعروف شامل باساييف انه سيرشح نفسه للرئاسة الشيشانية كمنافس للرئيس الحالي سليم خان ياندربييف. وكشف ان مواطنين عربًا شاركوا في عمليات قادها داخل الاراضي الروسية، خاصة العملية التي جرت في بلدة بودويونوفسك، وفي قزلر (في داغستان) في آب ١٩٩٥. وانتقد باساييف اتفاق السلام المعقود مع روسيا مؤكدًا ان موسكو يمكن ان تنقضه في أي وقت. ويعد الشيشانيون شامل باساييف «بطلاً قوميًا» و«الرجل الاسطورة» ويضعونه في مصاف الرئيس الراحل جوهر دودايف، وهو في نظر الروس «الارهابي الاول في العالم». وباساييف مولود سنة ١٩٦٥. قضى سبع سنوات مشاركًا في حروب في أبخازيا وقره باخ وشيشانيا. حائز على وسام «شرف الامة» وهو أعلى مكافأة تمنح للمقاتلين في الجمهورية الشيشانية.

مناقشة: مسار الاتحاد (١٩٩١-١٩٩٦)

برزت مسألة تفكك روسيا للمرة الاولى في ربيع ١٩٩١ عندما أطلق الرئيس بوريس يلتسن الذي كان مرشحًا لرئاسة روسيا عبارته الشهيرة: «خذوا من السيادة قدر ما تستطيعون أخذه»، مخاطبًا زعماء الكيانات ذات الحكم الذاتي في روسيا. و لم ينتظر هؤلاء الزعماء طويلاً. فأعلنت السيادة في كل جمهورية من الجمهوريات ذات الحكم الذاتي (وكان عددها ١٦)، وفي ٤ من المناطق الخمس ذات الحكم الذاتي، بما حقق سلطة النخب الاقليمية وأضر بالمركز الفدرالي، موسكو. و لم ينتبه يلتسن إلى ذلك في حينه لأن همه تركز على نيل تأييد زعماء القوميات في انتخابات ١٩٩١ الرئاسية.

وجاء أول إنذار تفككي في تشرين الاول ١٩٩١ عندما وصل جوهر دودايف إلى الحكم في شيشانيا وإعلانه الاستقلال التام لجمهوريته عن روسيا. ولجوء روسيا إلى العمل العسكري ضد شيشانيا، وفصل هذه الأخيرة عن روسيا بإقامة دولة «عازلة» هي الجمهورية الإنغوشية، ربما أخاف باقي الجمهوريات وفرمل نزعة الانفصال لديها.

حلت مشكلة علاقات المركز بالمناطق صيف ١٩٩٢ عندما وقعت المعاهدة الفدرالية التي دخلت دستور روسيا كجزء لا يتجزأ منه. وبموجب هذه المعاهدة حدّدت وظائف السلطات الفدرالية والجمهورية. فالمركز يأخذ على عاتقه وظائف الدفاع وحفظ النظام والسياسة الخارجية وحماية الحدود والانفاق على المؤسسات التي هي ملك فدرالي للدولة. ونالت الجمهوريات ٧٠٪ من ايرادات الضرائب والحق في ادارة المشاريع الحكومية التابعة لها وإقامة علاقات اقتصادية خارجية وسن القوانين المحلية والضرائب. أما المسائل التي تختلف عليها الهيئات الفدرالية والجمهورية فيجب ان تحل عن طريق المحكمة الدستورية الفدرالية.

وبعد توقيع المعاهدة الفدرالية بقيت امام موسكو مشكلة تتارستان (إضافة إلى مشكلة شيشانيا) التي طلبت علاقات متميزة وتوقيع معاهدة ثنائية بينها وبين روسيا على اساس اعتراف هذه الاخيرة رسميًا بسيادتها على مستوى القانون الدولي. وكانت النتيجة ان موسكو اضطرت، في صيف ١٩٩٣، إلى توقيع المعاهدة. لكن الكرملين توصل إلى اقناع قازان في نهاية المطاف بأن تبقى الشؤون السياسية من صلاحية السلطات الفدرالية.

في سيبيريا والأورال والشرق الأقصى بدأ زعماء المحافظات والاقاليم يتحدثون، من دون التطرق إلى حديث السيادة، عن عدم المساواة داخل روسيا الفدرالية. وظهرت شعارات تنادي بانشاء اتحادات كبيرة من محافظات عدة وتسميتها جمهوريات والحصول نتيجة ذلك على الحقوق نفسها التي للكيانات القومية ذات الحكم الذاتي.

وفي خريف ١٩٩٢، أعلن في مدينة يكاترينبورغ، مسقط رأس الرئيس يلتسن قيام الجمهورية في الاورال الروسية التي تضم أربع محافظات صناعية ضخمة. لكن الجمهورية الأورالية التي اعلنت نفسها حلت بمرسوم أصدره يلتسن وأقيل رئيسها ادوارد روسيل الذي كان في الوقت نفسه حاكمًا لمحافظة سفيردلوفسك.

وحدثت الجولة الجديدة من التناقضات بين السلطات الفدرالية والاقليمية في كانون الاول ١٩٩٤ عندما قرر الكرملين القضاء على نظام دودايف في شيشانيا تحت شعار «إعادة النظام الدستوري وحماية وحدة تراب روسيا». ومن حديد طرح العمل العسكري الذي أوقع خسائر كبيرة لدى القوات الروسية والمدنيين على السواء، احتمالات تفكك روسيا الفدرالية.

حول هذه الاحتمالات، كتب إيغور تيموفييف («الوسط»، العدد ١٥٨، تاريخ ٦ شباط ١٩٩٥، ص ٢٧-٢٩):

يتميز الوضع الحقيقي في روسيا بأن الشعب الذي يحمل الكيان اسمه والذي يشكل العنصر الغالب في هذا الكيان (أكثر من ٥٠٪ من السكان) هو في ٣ جمهوريات فقط من أصل ٢٠، وهي جمهوريات داغستان القوقازية، وبورياتيا السيبيرية وتشوفاشيا الواقعة في منطقة الفولغا. ومن ناحية الاحتمال يمكن ان تصبح داغستان الاسلامية رائدة للحركة الانفصالية. لكن في الواقع لم تنشأ هناك نزاعات على اساس قومي أو ديني طيلة السنوات الاخيرة. وأكثر من ذلك فإن الداغستانيين لم يجرأوا على تأييد الشيشان حتى بشكل سلمي و لم تحدث هناك تظاهرة واحدة أو اجتماع حاشد ضد روسيا.

وليست من بين الجمهوريات القومية الروسية إلا أربع جمهوريات قادرة على كفاية نفسها، أي أنها لا تمول من الموازنة الفدرالية، وهي تتارستان وبشكيريا (بشكورتوستان) وكومي وياقوتيا. ولكن أية جمهورية لن تسير في رغبتها في السيادة حتى النهاية لأن هذا سيؤدي إلى خسائر أكثر مما سيؤدي إلى مكتسبات. فهذه الجمهوريات إذا أصبحت دولاً مستقلة تمامًا ستضطر إلى تحمل نفقات طائلة على مستلزمات نظام الدولة، كالجيش والسياسة الخارجية. وستضطر إلى استثمار اموال طائلة في تنمية النقل والمواصلات. ولكن حتى هذا لن يسمح لتتارستان أو بشكيريا أو كومي أو ياقوتيا-التي ليست لها حدود مع العالم الخارجي-بان تصبح مستقلة كل الاستقلال. فكل المؤسسات والمصانع تقريبًا الموجودة في هذه الجمهوريات، مرتبطة بالشركاء في المحافظات والأقاليم الروسية المجاورة.

إذا تفككت روسيا يومًا فليس إلا لأسباب إقتصادية. فهناك اسباب اقتصادية صرفة قد تؤدي إلى هذا التفكك، وان المبادرة إلى اعلان السيادة ستأتي من بعض المحافظات والأقاليم الروسية وليس من الجمهوريات القومية (أورد إيغور تيموفييف هذا الرأي نقلاً عن احد الخبراء الاقتصاديين الروس الذي يبدو انه تجاهل التجربة الشيشانية). وأول هذه الأسباب الاقتصادية يكمن في نسب الضرائب الواردة من المناطق إلى الموازنة الفدرالية. وليس من المصادفات ان تحدث في ١٩٩٤ محاولة لاعلان السيادة من أربع مناطق أورالية ليست راضية عن عدم المساواة بين وحدات روسيا الفدرالية. ذلك ان للجمهوريات الحق في التصرف بـ٧٠٪ من الضرائب الفدرالية المجموعة في اراضيها، وتحول ٣٠٪ فقط إلى الموازنة الفدرالية. ومن جهة أخرى، لا تستطيع سلطات المحافظات ان تأمل إلا بـ٤٠٪ من الضرائب الفدرالية وبالضرائب المحلية التي لا يدفعها الاشخاص الطبيعيون والاعتباريون إلا على مضض.

والظرف المهم الآخر هو ان قسمًا من المناطق في روسيا، وهي على الأكثر الاقاليم والمحافظات الناطقة بالروسية، تضمن العيش

لـ«المناطق الخاسرة» ومنها ١٦ من اصل ٢٠ جمهورية قومية. ويمكن لمحافظة تيومين الغنية بالبترول ومحافظتي سفيردلوفسك وكيميريفو اللتين تنتجان اسلحة تدر العملة الصعبة ان تعارض اعادة التوزيع عن طريق الموازنة الفدرالية للاموال التي تكسبها هي لفائدة الجمهوريات الخاسرة.

وليس سرًا ان قسمًا من المناطق الروسية معني بالتكامل الواسع مع اقتصاد الجيران الاجانب الذين تأتي منهم استثمارات أكبر، أكثر من ان تكون معنية بابقاء الصلات مع الكرملين الذي يأخذ الكثير ولا يعطي إلا القليل. ومنذ الآن تتجه محافظة كالينينغراد بقوة نحو ألمانيا وبولندا؛ وإلى الشرق يقف اقليم بريموريه متربصًا منتظرًا الاستثمارات الكورية واليابانية؛ ولهذا تتردد بين فترة وفترة اقوال عن إنشاء جمهورية الشرق الاقصى الروسية الأكثر استقلالاً عن موسكو.

لكن، ومهما بدا ذلك غريبًا، فإن الاسباب الاقتصادية نفسها تمنع تفكك روسيا. فالمناطق الغنية بالخامات (البترول والغاز والمعادن النادرة) والألماس والذهب معنية اقتصاديًا ببقاء الدولة الموحدة لأنها، إذا انفصلت عن روسيا، انتهى الازدهار الاقتصادي فيها، إذ ستضطر إلى مد انابيب غاز وبترول جديدة على حسابها، وإلى الانفاق على جيشها وشرطتها والقبول بكثير غير ذلك من النفقات الاضافية. أما المناطق الخاسرة فمعنية ببقاء روسيا الموحدة لأسباب أخرى، فما دامت هناك موازنة فدرالية فإن هناك «مموّلاً» لهذه المناطق. أضف إلى ذلك انه لا تستطيع إلا روسيا الكبيرة ان تصبح بعد انتهاء الازمة الاقتصادية سوقًا لتصريف منتجات الصناعة الخفيفة وصناعة الآلات الخاسرتين الآن «والمدعومتين» في الجمهوريات والمحافظات.

وهناك سبب يدفع وحدات روسيا الفدرالية إلى التزام مسافة معينة من السلطات الفدرالية في موسكو. ففي فترة ١٩٩٠-١٩٩٤، نشأ في روسيا وضع فريد من نوعه تشكلت فيه نخب إقليمية تسلمت مقاليد الحكم في جمهورياتها واقاليمها ومحافظاتها على نحو مستقل عمليًا عن موسكو. وفيما كان أدنى ارتقاء في معارج الوظيفة في عهد الاتحاد السوفياتي يضبطه المركز، اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في موسكو، أوجدت سنوات بيريسترويكا وغلاسنوست (راجع «الاتحاد السوفياتي» في الجزء الاول) والاصلاحات ترتيبات مغايرة تمامًا في تشكيل نخب السلطة في المناطق الروسية.

وليس من المصادفات ان يكون أقوى عمل ضد تدخل الكرملين في شيشانيا لقاء مدينة تشيبوكساري (عاصمة جمهورية تشوفاشيا) بين زعماء خمس جمهوريات قومية في منطقة الفولغا (الجزء الاوروبي من روسيا) وست محافظات أورالية في ٥ كانون الثاني ١٩٩٥، وعلى رغم ان ٩ من هذه المناطق الـ١١ خاسرة وتنال الدعم المالي من الموازنة الفدرالية، فإن سلطاتها تجرأت وأبدت معارضتها للسياسة العدوانية للسلطات الفدرالية. وكان هدف خطوتها، على ما يبدو، ليس تأييد شيشانيا بقدر ما هو تبيان ان سلطات هذه المناطق لن توافق على تغيير قواعد العلاقات بين المركز الفدرالي والمناطق في اتجاه جعل السلطة مركزية. وأدركت المناطق ان التدخل في شيشانيا ليس هدفه معاقبة دودايف فقط بقدر ما هو رسالة إلى كل انصار إزالة مركزية السلطة الآخرين في روسيا مفادها ان الكرملين سيتشدّد مع الطامحين إلى بقاء الاستقلال. وإدراكًا لهذا سيحاول زعماء الجمهوريات والاقاليم والمحافظات (حتى محافظة أرخانغيلسك الشمالية النائية عارضت اطالة أمد العمليات القتالية في القوقاز) عدم اعطاء الكرملين ما نالوه بكل الطرق الممكنة. وليست المسألة هنا مسألة تفكك روسيا. فكما قيل من قبل لا تحتاج المناطق إلى «سيادة» كاملة، وإنما المسألة ستكون تبدل سياسة الكرملين.

نبذة تاريخية

قديمًا ووسيطًا: حوالي العام ٤٠٠٠ق.م. كانت شعوب هندو-اوروبية تعيش في السهوب الجنوبية من روسيا الممتدة من نهر دنيبر حتى اعالي إينيسّي Ienissei، وسُمّيت حضارتها هناك حضارة «كورغان» Kurgan التي تعني في الروسية «الأكمة». فبرزت ارستقراطية عسكرية اقامت على «الأكمات» (الهضاب) وحصّنتها بقلاع، وقربها قرى للمزارعين منتشرة في السهول يعمل سكانها في الزراعة وتربية الخيول.

وحوالي العام ٢٠٠٠ق.م. غزا فرسان هندو-اوروبيون المناطق الواسعة الممتدة من ايران إلى الاطلسي، في حين بقيت السهوب الواقعة شمالي بحر قزوين خاضعة لسيطرة إحدى قبائل هؤلاء الفرسان وتدعى قبيلة السيمريين Cimmériens.

وحوالي العام ١٠٠٠ق.م. غزا السيتيون Scythes، وهم ايضًا من الشعوب الهندو-اوروبية الذين كانوا يقطنون مناطق الفولغا الوسطى، مناطق السيمريين وأنشأوا امبراطورية سيمرية-سيتية استمرت حتى القرن الثالث بعد الميلاد حيث اجهزت عليها قبائل الهون القادمة من سيبيريا الوسطى.

وفي المرحلة نفسها، ظهرت قبائل هندو-اوروبية ايضًا عرفت بـ«سلاف» Slaves (مزارعون) وتميزت عن السلطيين (أو السلتيين) والجرمان وسكنت مناطق جبال الكاربات، ومناطق فيستول وبريست؛ واخذت، على مدى ١٥٠٠ عام، تتقدم ببطء في مناطق حوض دنيبر. وعُرف عن مجموعات هذه القبائل انها عاشت حياة ريفية، وكانت تتوزع اراضيها بحسب نظام زراعي قائم على ان تمتلك كل عائلة قطعة ارض لمدة ٣ اعوام تتركها بعدها إلى عائلة أخرى لتنتقل هي لإمتلاك قطعة اخرى.

بين العام ٢٠٠ والعام ٣٧٥، احتازت قبائل القوط (الغوط Goths)، وهي قبائل جرمانية قادمة من البلطيق، سهوب السيتيين؛ ثم تركتها للقبائل البدوية السيبيرية «الهون»، ومن بعدهم للآفار Avars، ثم للخزر الذين غزوا السهول الممتدة من البحر الأسود حتى الأورال.

من القرن الخامس إلى القرن الثامن، كان السلاف يحتلون الاراضي المعروفة اليوم بأوكرانيا، والسيفريون مناطق اعالي الدونيتز، والرادِمِيتشيون بيلوروسيا، هؤلاء، وغيرهم، هم سلاف ايضًا يقال لهم «سلاف شرقيون». فأسسوا المدن، وعلى رأسها مدينة كييف، بيلوزيرو، نوفغورود، لادوغا، بولوتسك، سمولنسك. وفي القرن التاسع، خضعت نوفغورود وكييف لنظام الامارة العسكرية التي أنشأها الفاريغ Varegue القادمون من السويد. وأشهر الامراء، كان روريك الاول (٨٠٠-٨٧٤)، وابنه إيغور، وأوليغ الاول وهو جرماني ومن اقرباء روريك الاول، وأوليغ الثاني الذي توصل إلى توحيد الامارتين، وإلى انشاء طريق تجاري يربط البلطيق

وبيزنطية عبر نهر دنيبر، وإلى إخضاع بيزنطية في ٩٠٧، ثم عقد اتفاقًا تجاريًا معها في ٩١١.

في ٩٤٠-٩٤٤، وقعت حروب جديدة بين أمراء كييف وبيزنطية. في ٩٤٥، اعتلى الامارة سيفاتوسلاف الاول (٩٣٦-٩٧٢)، واعتنقت أرملته، أولغا، الدين المسيحي في ٩٥٧ (كرّست قديسة بعد وفاتها). في ٩٨٠، اعتلى الامارة فلاديمير الاول الكبير الملقب بـ«الشمس المضطرمة» (توفي ١٠١٥، وكرّس قديسًا في ١٢٠٣)، واتخذ مدينة نوفغورود مركزًا لامارته، وأصبح أمير مقاطعة كييف الكبير بعد ان أعدم اميرها إياروبولك، وفي ٩٨٨ أبعد زوجته روغنيدا وأدخلها الدير، وتزوج آن، شقيقة باسيل الثاني امبراطور بيزنطية.

في القرن الحادي عشر، عرفت الامارة ازدهارًا كبيرًا، وجرى تأسيس نحو ٩٠ مدينة جديدة، كما جرى تأسيس شركة إقطاعية اطلقت عليها تسمية «روسيا الحقيقية»، وسُنّ لها قانون خاص.

في ١٠٩٧، عقد مؤتمر (للامراء والدوق) في مدينة ليوبيك Lyubech الواقعة شمال شرقي كييف، على أثره توزعت البلاد إلى عدة دول-مدن إقطاعية، أقواها كانت دولة نوفغورود (في الشمال) وروستوفسوزدال الواقعة في وسط روسيا، والتي وصلت إلى أوجها في عهد إيوري دولغوروكي (١١١٥-١١٥٧) الذي أسس مدينة موسكو في ١١٤٧.

في ١٢٢٣، غزا المغول (المنغول) بقيادة جنكيزخان البلاد وهزموا الروس عند نهر كالكا Kalka. وفي ١٢٤٠، أعادوا الكرة وكانوا بقيادة خان باتو ابن جنكيزخان، فنهبوا فلاديمير، موسكو، كييف. واختفت إمارة كييف (كييفا) وحلت محلها موسكو التي أخذت على عاتقها قيادة الحرب ضد المغول القادمين من الجنوب الغربي، وضد الكاثوليك الرومان القادمين من جهة البلطيق.

في ١٥ تموز ١٢٤٠، انتصر الامير ألكسندر دو نوفغورود على السويديين عند نهر نيفا، ومنه لقبه «الامير نيفسكي». وفي ٥ نيسان ١٢٤٢، انتصر هذا الامير كذلك على الفرسان التوتون (الجرمان) عند البحيرة المتجمدة بيبوس. وفي العام نفسه، أنشأ المغول دولة «هورد الذهبية» القائمة في حوض الفولغا، وفرضوا الضرائب على كل الامراء الروس، وكانوا يطلقون لقب أمير على من يدفع أكثر وبحسب ما يرتأون.

ابتداء من ١٢٥٠، بدأ دور موسكو يتعاظم حتى اصبحت عاصمة ابتداءً من ١٣٠٠، فاكتسب امراؤها، من المغول، لقب «أمير موسكو الكبير». في ٨ ايلول ١٣٨٠، انتصر أميرها ديميتري الرابع دونسكوي (ابن إيفان الثاني) على امبراطور المغول ماماثي في معركة دارت في كوليكوفو. فتوّج خليفته فاسيلي الثاني أميرًا كبيرًا على موسكو من دون انتظار موافقة المغول. وفي ١٤٦٢، توصل الامير إيفان الثالث الكبير إلى توحيد روسيا بالتحالف مع خان بلاد القرم، وإلى إلحاق الهزيمة بدولة «هورد الذهبية» المغولية والاستيلاء على نوفغورود. وفي ١٥٠٥، استبدل لقب «أمير

موسكو الكبير» بلقب «أمير روسيا الكبير» الذي حمله الامير فاسيلي الرابع (١٤٧٩-١٥٣٣) والامير إيفان الرابع الرهيب الذي معه بدأ لقب «القيصر».

القياصرة، إيفان الرابع الرهيب (١٥٣٠-١٥٨٤): خاض حروبًا وسّع بنتيجتها اراضي روسيا وجعل منها امبراطورية مترامية الاطراف. إسمه إيفان فاسيليفيتش Ivan Vassilievitch، اعتلى العرش وهو طفل لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات. بعد وصاية أمه، انتقلت الوصاية عليه إلى البويار (طبقة النبلاء الروس) الذين كانوا يؤلفون طبقة إقطاعية حريصة على امتيازاتها وخائفة على ان يفقدها إياها أي حاكم قوي. تحرّر إيفان من هذه الوصاية إبتداء من عام ١٥٤٧ وتوّج قيصرًا على روسيا، وبدأ بانشاء مؤسسات متفلتة من هيمنة النبلاء. وضع نصوصًا قانونية تنظم عمل خلفائه واجتهد في تنظيم إدارة محلية بمشاركة الشعب. وبدءًا من ١٥٥٢، انتهج سياسة توسعية، ووصل جنوبًا إلى استراخان وبحر قزوين، وشرقًا اجتازت جيوشه الأورال. وبين ١٥٥٨ و١٥٨٣، خاض حربًا طويلة بهدف السيطرة على البلطيق فواجه بولندا والسويد. قمع بقوة وعنف الاقطاعيين وقتل العديدين منهم، فلقب بـ«الرهيب»؛ وبثورة غضب قتل ا بنه البكر. فشله في مواجهة بولندا والسويد جعله يفكر بالتخلي عن العرش. بعد وفاته، عاشت روسيا ثلاث عقود من اضطرابات داخلية انتهت بوصول أسرة رومانوف إلى العرش القيصري. خلال هذه الفترة تعاقب سبعة قياصرة، ومن أهم احداثها: سيطرة البولنديين على موسكو (١٦١٠)، وقيام انتفاضات شعبية متكررة، أبرزها الثورة التي قادها المارشال مين Mine والامير بوجارسكي Pojarski والتي أدت إلى تحرير البلاد وتحرير موسكو في ٢٧ تشرين الاول ١٦١٢.

أسرة رومانوف (١٦١٣-١٩١٧): بدأت مع القيصر ميخائيل الثالث رومانوف (١٥٩٦-١٦٤٥) ابن البطريرك فيلاريت أحد أحفاد القيصرة اناستازيا زوجة إيفان الرابع الرهيب. انتخبه النبلاء قيصرًا. ورثه ابنه ألكسي الذي عرف عهده توسعًا احرزته أوكرانيا على حساب بولندا؛ وفي ايامه تمّ طبع أول كتاب باللغة الروسية. وبعده جاء إبنه فيدور الثالث، ثم شقيق فيدور هذا ويدعى إيفان الخامس (١٦٨٢) الذي ازاحه، في السنة نفسها، أخوه غير الشقيق بطرس الاول الأكبر.

بطرس الاول الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥): في سن العاشرة كان يشارك أخيه غير الشقيق إيفان الخامس العرش، لكن اخته غير الشقيقة صوفيا التي كانت وصية أبعدته عن القصر. فأخذ يتردد على ضاحية في موسكو يسكنها ألمان، وأمضى سني شبابه يخالط الاجانب، فصادق خاصة فرنسيس لوفور (من جنوى) وباتريك غوردون (من اسكوتلندا) اللذين لقّناه فنون القتال (كان ضخم البنية وطول قامته متران). في

١٦٨٨، ازاح صوفيا (واحتجزها في دير) وإيفان، واستلم السلطة. وضع نصب عينيه العمل على زيادة القوة الاقتصادية والعسكرية لروسيا باعتماد الوسائل والطرائق ا لغربية، واستعمال هذه القوة لتوسيع الاراضي الروسية. فقام بأول رحلة له إلى أوروبا في ١٦٩٧-١٦٩٨ ليتدرب شخصيًا على بعض المهن الحديثة. فعمل في حرفة النجارة في احواض أمستردام لبناء السفن؛ ثم قصد لندن حيث تدرب على بعض الاعمال في مختبراتها، وزار أكاديميات ومتاحف انكلترا وهولندا وألمانيا. وفي فيينا، حاول اقناع الامبراطور ليوبولد خوض حرب صليبية ضد الاتراك. في ١٦٩٨، بدأ يزيح من أمامه كل هيئة وكل شخص يعارض الاصلاح، واتخذ اجراءات صارمة ضد التقليديين المحافظين، وفرض التقويم الغريغوري الغربي، وألغى البطريركية، ووضع ممتلكات الكنيسة تحت إدارة موظفين علمانيين. فناصبه رجال الدين العداء دون هوادة. في ١٧٠٣، وضع حجر الاساس لمدينة سان بطرسبورغ. في ١٧١١، أنشأ مجلس الشيوخ ليحل محل مجلس الدوما الذي كان يتألف من البويار (النبلاء الروس)، ووضع قوانين لحماية التجار، وأتاح للطبقة البورجوازية ان ترقى إلى طبقة النبلاء، وأصبح هؤلاء غير معفيين من الخدمة العسكرية ومن شغل وظائف في الدولة.

بين ١٧٠١ و١٧٢١، خاض معارك دائمة على الجبهتين الداخلية (ضد الثوار الدينيين والتقليديين)، والخارجية (حرب الشمال ضد السويد، والحرب ضد الاتراك)، وكان يخوض بنفسه هذه المعارك كجندي عادي تحت إمرة جنرالاته. في ١٧١١، كاد أن يقع أسيرًا في يد الاتراك لولا ان زوجته (كاترين الاولى) لم تنجح في رشوة الباب العالي. في ١٧١٦-١٧١٧، قام بجولة زيارات رسمية إلى اوروبا الغربية، من بينها زيارته للملك الفرنسي لويس الخامس عشر (وكان لا يزال طفلاً) في فرساي. في ١٧١٨، أمر بتعذيب إبنه ألكسي حتى الموت بعد ان تأكد انه يتزعم المعارضة الدينية والتقليدية. في ١٧٢١، منحه مجلس الشيوخ لقب امبراطور. في ١٧٢٥، أنشأ أكاديمية سان بطرسبورغ للعلوم، وبعد ايام قليلة توفي، وكان مستسلمًا في الأشهر الأخيرة لحياة الفسق والمجون.

بعد بطرس الأكبر، اعتلت العرش زوجته كاترين الاولى (وكان إسمها مارتا سكافرونسكايا، إبنة فلاح ليتواني، حتى اعتناقها المذهب الأرثوذكسي). وبعدها، بطرس الثاني ابن ألكسي وحفيد بطرس الأكبر. وبعده القيصرة آن إبنة إيفان الخامس، اعادت مقاطعات قزوين إلى الاتراك وضمت الاسكا (١٧٣٢)، وسيطرت على أوكرانيا (١٧٣٤). وبعدها، إيفان السادس (١٧٤٠) الذي أطيح به في ٦ كانون الاول ١٧٤١، وسجن في ١٧٥٦، ثم أقدم ضابطان مواليان للقيصرة اليزابت على خنقه. وكانت هذه اعتلت العرش في ١٧٤١، وبادرت إلى إجراء مفاوضات مع السويد، وفي ١٧٤٣ ضمت

إليها جزءًا من فنلندا، وفي ١٧٥٥ أنشأت اول جامعة في روسيا، وخاضت بين ١٧٥٦ و١٧٦٣ حرب السنوات السبع ضد بروسيا واحتلت برلين. وبعدها، اعتلى العرش ابن آنا اخت اليزابت وزوج كاترين الثانية. وقّع الصلح مع ملك بروسيا فريدريك الثاني وأعاد له مقاطعة بوميرانيا ومناطق بروسيا الشرقية، وتحالف معه ضد النمسا. وعرف عنه اعتناقه المذهب اللوثري واضطهاده للكنيسة الارثوذكسية، ما أدّى إلى انتفاضات فلاحية. اطاحته زوجته كاترين بمساعدة الحرس القيصري، وأقدم أحد ضباط هذا الحرس، ويدعى أورلوف (وهو عشيق كاترين) على خنقه في ١٧ تموز ١٧٦٢.

كاترين الثانية الكبيرة (١٧٢٩-١٧٩٦): ابنة كريستيان أوغست أمير أنهالت-زربست وجان Jeanne دوهولشتاين. إسمها بالولادة صوفيا أوغستا فريدريك دو أنهالت-زربست، وأعطيت إسم كاترين لدى عمادها على المذهب الارثوذكسي في ١٧٤٤. والدها كان اميرًا في خدمة البلاط البروسي، وتربت على الطريقة الفرنسية وعلى يد بروتستانت فرنسيين. اختارتها القيصرة (الامبراطورة) إليزابت لتكون خطيبة ابنها بطرس وريث العرش. تعلمت الروسية واصبحت مدافعة عن المذهب الارثوذكسي. اتخذت لها عددًا من العشاق.

وُصف حكمها بحكم «المستبد المستنير». حمت الفلاسفة الفرنسيين وقرّبت منها فولتير وديدرو. منذ ١٧٦٣، جلبت إلى روسيا ٢٧ ألف ألماني، واعفتهم من دفع الضرائب والخدمة العسكرية؛ وأقامت صناعات صغيرة في الأورال وموسكو وسان بطرسبورغ. في ١٧٦٤، صادرت ممتلكات الكنيسة (مليونا فلاح أصبحوا يعملون كرقيق لدى الدولة). وبين ١٧٦٨ و١٧٧٤، خاضت حروبًا ضد الاتراك، ضمت بنتيجتها بلاد القرم إليها. وفي ١٧٧٢، جرى أول تقسيم لبولندا. وعرفت سنوات ١٧٧٣-١٧٧٥ انتفاضة قادها بوغاتشيف (كوزاك الدون الذي سار وراءه الفلاحون الرقيق، وتمّ اعدامه في ٢١ كانون الثاني ١٧٧٥). في ١٧٧٥، جرى التقسيم الثاني لبولندا. في ١٧٩٠، وقفت كاترين ضد الثورة الفرنسية، وانتهجت سياسة محافظة واعدمت الكاتب الليبرالي راديشتشيف. وفي ١٧٩٥، جرى التقسيم الثالث لبولندا، فكان اختفاء هذه الدولة عن خريطة اوروبا لسنوات طويلة (راجع «بولندا» في الجزء السادس).

بول الاول (١٧٥٤-١٨٠١): أبن بطرس الثالث وكاترين الثانية. اعتلى العرش في ١٧٩٦. سارع إلى طرد المقربين من كاترين، والدته، من القصر، واوقف الحرب ضد ايران، وعمل على ان يكون قريبًا من الشعب ومدعومًا منه. دخل في حلف ضد فرنسا. في ١٨٠٠، تزعم حلفًا للدول المحايدة ضد انكلترا، وعاشت البلاد اثناء ذلك ازمة اقتصادية. في ١٨٠١، اغتيل بمؤامرة حاكها بعض الضباط بالاتفاق مع

ابنه ألكسندر الاول الذي حاول ان يُكتفى بابعاده من دون قتله، و لم يفلح.

ألكسندر الاول (١٧٧٧-١٨٢٥):
ابن بول الاول، تربّى تربية فرنسية على يد ضابط سويسري يدعى لاهارب، فأخذ بالافكار الليبرالية، فأعطى مجلس الشيوخ حق توجيه خطاب إلى الملك لتنبيهه حول بعض المسائل والقضايا الكبرى في الدولة، وسمح بتحرير ا لرقيق. بين ١٨٠٤ و١٨١٣، خاض حروبًا متلاحقة ضد ايران انتهت بتوقيع معاهدة غوليستان حيث ضمت أذربيجان الشمالية وداغستان إلى روسيا. بين ١٨٠٥ و١٨٠٧، تحالف مع النمسا، ثم مع بروسيا ضد نابوليون بونابرت. وفي ١٨٠٨-١٨٠٩، تحالف مع فرنسا ضد انكلترا والسويد، فاقتطع فنلندا من السويد. في ٢٨ ايار ١٨١٢، وُقعت معاهدة بوخارست التي تخلى فيها الاتراك عن تحالفهم مع نابوليون؛ وبعد أقل من شهر واحد، اجتاز جيش نابوليون (٦٠٠ ألف رجل) نهر نيمن Niémen, ونشبت معركة بورودينو (على بعد ١٢٤كلم عن موسكو) التي سقط فيها ٢٨ ألفًا من الجيش الفرنسي وأكثر من ٤٥ ألفًا من الروس. وبعد أشهر قليلة، دخل الفرنسيون موسكو، لكنهم ما لبثوا أن هُزموا في معركة بيريزينا Bérézina. في ١٨١٤، وقع ألكسندر الاول تحت تأثير امرأة روحانية تدعى بربارة جوليان فون فيتلينغوف، بارونة مقاطعة كرودنر، فاعتنق الميثودية (جمعية بيبلية اصلاحية قادها في أوكسفورد، في ١٧٢٩، تشارلز وجون ويزلي في محاولة لإحياء كنيسة انكلترا). في ١٨١٨، حرّر رقيق مقاطعات البلطيق. لكنه في ١٨٢٠، عاد عن افكاره واجراءاته التحررية، فأبعد اعدادًا كبيرة من الرقيق إلى سيبيريا. وفي ١٨٢٥، أوفد معاونه الجنرال الكونت ميشو دو بوريتور إلى البابا ليون الثاني عشر يعلمه عن رغبته التخلص من المذهب الارثوذكسي وإدخال كنيسة روسيا في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. في اول كانون الاول ١٨٢٥، مات أثناء رحلة له في بلاد القرم (ثمة رواية تقول ان قبره فُتح في ١٨٦٦ ووجد فارغًا، وانه كان قد انسحب من الحياة العامة وعاش ناسكًا متخذًا إسم فيدور كوسميستش وتوفي في كانون الثاني ١٨٦٤).

نقولا الاول (١٧٩٦-١٨٥٥):
شقيق ألكسندر الاول. قمع ثورة «ضباط حركة كانون الاول» في السنة نفسها التي اعتلى فيها العرش (١٨٢٥). في ١٨٢٩، وقع معاهدة مع تركيا حول الملاحة في المضائق وتحرير اليونان. وفي ١٨٣١، قمع انتفاضة في بولندا. شجع الصناعة، وعمل على تحديث صناعة الاقمشة (٢٠٠ ألف عامل منهم ٩٠ ألفًا في الصناعة القطنية)، وأنشأ صناعة السكر في أوكرانيا؛ لكن صناعة استخراج المعادن وتنقيتها عرفت كسادًا (أقل من فرنسا بمرتين ونصف، ومن بريطانيا بعشر مرات). بين ١٨٣٤ و١٨٥٩، انشغل الجيش الروسي بقتال المتمردين الداغستانيين الذين كان يقودهم

الامـام شـامل. في كـانون الاول ١٨٤٥، اقـامت روسـيا علاقـات دبلوماسـية مـع الكرسـي الرسـولي في رومـا. في ١٨٤٨، سـاعدت روسـيا النمسـا في حربهـا ضـد هنغاريا. وفي ١٨٥٤ بدأت حرب القرم.

حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٥): هي الحرب التي واجهت فيها روسيا حلفـا ضـم تركيـا وبريطانيـا وفرنسـا وسـردينيا، والـتي انتهـت بهزيمـة الـروس وبمعـاهدة بـاريس في ١٨٥٦. فالتنـافس الانكليزي-الروسـي في الشـرق، والخلاف الناشـب بـين نـابوليون الثالث والقيصر نقـولا الثـاني حـول ملكيـة الاراضي المقدسة، إضافة إلى ما عُرف وقتها بـ«المسألة الشرقية»، كلها اسباب دفعت إلى هذا النزاع بين الدول المذكورة. وإزاء رفض السـلطان عبـد الحميـد الاعـتراف بحمايـة القيصر للرعايا الارثوذكس في الامبراطوريـة العثمانيـة احتـل الـروس إمـارات مولدافيـا وفالاكيـا (رومانيـا) وحطمـوا الاسـطول التركي في سينوب (١٨٥٣). فوقفت فرنسا وانكلترا إلى جانب تركيا، فتدخلتـا في بـلاد القرم حيـث نزلـت جيوشـهما في أوباتوريـا (مدينـة ومرفـأ علـى السـاحل الغربـي مـن القـرم) في ١٤ ايلـول ١٨٥٤، وهزمـت الجيش الروسي الذي كان يقوده منشيكوف عنـد ضفـتي نهـر ألمـا، وحـاصرت مدينـة سيباستوبول التي تمكـن الـروس مـن الدفـاع عنهـا لمـدة سنة. وفي الوقـت نفسـه كـان الاسـطول الفرنسـي-الانكليزي يـدكّ قلعـة بومارسـوند في البلطيـق ويقصـف أوديسـا. سـاهمت هـذه الحـرب في دعـم نظـام الامبراطورية الثانية في فرنسا، كما أدّت إلى إجراء سلسلة مـن الاصلاحـات الاجتماعيـة في روسيا ارتبطت باسـم القيصـر ألكسـندر الثاني الذي اعتلى العرش في ١٨٥٥.

ألكسندر الثـاني (١٨١٨-١٨٨١): ابن نقولا الثاني وخليفتـه بـدءًا مـن ١٨٥٥ وكـانت حـرب القـرم لم تنتـه بعـد. في ٣٠ آذار ١٨٥٦، انتهـت هـذه الحـرب بتوقيـع معاهدة باريس. في ١٩ شباط ١٨٦١، ألغي نظام العبودية، وقد قام ديمتري ألكسـيفيتش، كونت ميليوتين، بدور رائد في هـذا المجال. وأنشئت مجـالس اقليميـة («زمسـتفوس» بالروسية)، ووزعت قطع صغيرة من الارض على الأقنـان الذيـن تمّ اعتـاقهم؛ لكـن هـذا الاصـلاح الزراعـي جـرى تطبيقـه بشـكل مبتـور وسـيء، إذ القطـع الموزعـة كـانت صغيـرة المسـاحة ومرتفعـة الثمـن. فاسـتمر المعتقـون معتقـين إسميًـا ورقيقـًا فعليًـا. في ١٨٦٣، قامت انتفاضة وطنية في بولندا. في ١٨٦٦، إصلاح طال ١٨ مليونًا من الرقيـق المعتقين أدخل على قانون ١٨٦١ الزراعـي. في ١٨٦٧، باعت روسيا الولايات المتحـدة آلاسـكا بقيمـة ٧،٢ مليـون دولار. في ١٨٦٩، شـهدت مدينـة سـان بطرسـبورغ ولادة أول «حلقـة ثوريـة». في ١٨٧٤، أصبحت الخدمة العسكرية شاملة الفلاحـين والدخلاء علـى البـلاد. في ١٨٧٥، ضمـت روسـيا جزيـرة سـخالين. في ١٨٧٦، تأسست رابطـة تتوسـل العمـل السياسـي العنفي باسـم «زمليـا إي فوليـا» (Zemlia I Volia). في ٣ آذار ١٨٧٨، وقعت روسـيا

مع تركيا معاهدة سان ستيفانو، ثم في ١٣ تموز ١٨٧٨ معاهدة برلين مع الدول الاوروبية التي اعترفت بموجبها بنفوذ روسيا في القوقاز وتركستان؛ وبعدها ضمت روسيا إليها كار، باتوم وبساربيا؛ وفي السنة نفسها، وضع ميخائيل تاريبلوفيتش تاينوف (وكان وزيرًا ليبراليًا) خطة اصلاحية. في ١٣ آذار ١٨٨١، اغتيل ألكسندر الثاني، وعلى أثر هذه الحادثة أنشئت «الأوخرانا» (Okhrana، أي «الدفاع») وهي الشرطة السياسية القيصرية. فورثه ابنه ألكسندر الثالث (١٨٤٥-١٨٩٤) الذي عمل على اصلاح النظام الاوتوقراطي (الاستبدادي)، ووقع معاهدة تجارية مع فرنسا، وبدأ في ١٨٩١ بشق الطريق العابر سيبيريا (انتهى العمل به في ١٩١٧).

نقولا الثاني (١٨٦٨-١٩١٨): ابن ألكسندر الثالث. تزوج من ألكسندرا فيدوروفنا، أميرة أليكس دو هيس والرين، ولهما أربع بنات: أولغا، تاتيانا، ماري وأناستازيا، وابن واحد هو الغراندوق ألكسي الذي كان معروفًا بعدم توازنه النفسي، بنزقه وبمرضه بـ«النزف الوراثي». أعدموا جميعهم ليلة ١٦-١٧ تموز ١٩١٨ في بيت إيباتيف Ipatief في مقاطعة إيكاترينبورغ Iekaterinbourg (وهي اليوم سفيردلوفسك). في ١٩٧٧، الرئيس الروسي الحالي بوريس يلتسن، وكان وقتها السكرتير الاول للحزب الشيوعي في سفيردلوفسك، أمر بهدم البيت. في ١٩٧٨، عثر احد الجيولوجيين على بقايا رفاتهم، وصدر أمر بتركها حيث هي. في ١٩٩١، أمر يلتسن باخراج بقايا الرفات واجراء دراسات عليها ومقارنتها برفات اشخاص مؤكدين من العائلة القيصرية، فجاءت النتيجة مؤكدة، وهامش الخطأ لم يتجاوز ١٪. رفاتتان فقط من الاحدى عشرة المدفونة لم تكونا موجودتين: رفات الابن الغراندوق ألكسي، ورفات احدى البنات الاربع، والاعتقاد الغالب انها لأناستازيا. لكن السيدة أندرسن أدعت انها هي اناستازيا؛ وكانت قد تزوجت في ١٩٦٩ من الدكتور ماناهان، وتوفيت في ١٢ شباط ١٩٨٤. البعض قال إنه تعرّف إليها، وقد قدّمت هي دعوى بخصوص هويتها كابنة القيصر نقولا الثاني، ولكنها لم تتمكن من ربح الدعوى، (الدعوى الاولى في ١٩٣٨، الثانية في ١٩٥٧ في هامبورغ، الثالثة في ١٩٦٧، والرابعة في ١٨ شباط ١٩٦٩ لدى المحكمة الفدرالية في كارلسروهي)، إذ اعتقد القضاة ان الابنة الثانية للقيصر، تاتيانا، كانت قد انقذت من الاعدام، وانها لاقت في ما بعد مصرعها في ايرلندا وبصورة سرية.

تثقف نقولا الثاني وتربى تربية فرنسية على يد غوستاف لانسون. عرف عنه ضعفه وسيطرة زوجته عليه والتي سيطر عليها راهب ادعى القوة الروحية الخارقة، راسبوتين.

وراسبوتين هذا اسمه الحقيقي غريغوار يفيموفيتش Yefimovitch (١٨٧٢-١٩١٦)، ولقب بـ«القديس» (Starets)، وهو فلاح سيبيري، اعتبر راهبًا ينتمي إلى

إحدى البدع الروحية التي تكاثرت في روسيا في تلك السنوات. ادعى (واستطاع ان يثبت للقيصرة) انه يمتلك قوة مغناطسية- روحية خارقة وانه تمكن من شفاء ابنها مرتين كان فيهما مشرفًا على الموت. ورغم فسقه ومجونه، استطاع ان يؤثر ايضًا على القيصر ويترك بصماته على القرارات السياسية ويتدخل في الادارة الحكومية. عارض حرب ١٩١٤ معتبرًا انها ستجر الويلات على روسيا القيصرية، واتهم بعمالته لألمانيا ووقوفه وراء عدد من المؤامرات على البلاط القيصري. في ١٩١٦، أوصى القيصر باكثار ظهوره امام الشعب، والاستعداد للسلام، واقرار اصلاح زراعي لمصلحة الفلاحين، وبالتسامح إزاء اليهود ومختلف الاقليات القومية (خاصة التتار) والمسلمين. أثار غيظ الروس وسخطهم عليه، ما ساهم إلى حد كبير في ازالة ثقة الشعب بالعائلة القيصرية. في ٣٠ كانون الاول ١٩١٦، أطلق عليه الامير يوسوبوف، متعاونًا مع الغراندوق بافلوفيتش والنائب اليميني المتطرف بوريشكيفيتش، رصاصات قاتلة من مسدسه؛ وألقيت جثته في نهر نيفا، ولم يعثر عليها إلا بعد ثلاثة ايام. لجأ يوسوبوف إلى فرنسا في ١٩١٩، وعاش فيها ومات في ٢٧ ايلول ١٩٦٧.

بين ١٨٩٢ و١٩٠٣، عمل وزير القيصر الكونت سرج ويت على إنماء الاقتصاد. في ١٩٠٠، أصدر لينين، سريًا، جريدة «إيسكرا» (الشرارة) الماركسية. وفي شباط ١٩٠٤، اندلعت الحرب الروسية- اليابانية؛ وفي تموز اغتيل رئيس الوزراء فياتشيسلاف بلهفي. وطالب المثقفون الروس باقامة مؤسسات على النمط الغربي، وطالب العمال بملكية جماعية للمصانع، والفلاحون بتقسيم الاراضي. وفي تشرين الثاني ١٩٠٤، سمح القيصر نقولا الثاني بانعقاد مؤتمر للمجالس الاقليمية (زمستفوس) حيث تمثل فيها الاسياد والفلاحون.

الحرب الروسية-اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥): نشبت بين البلدين بسبب النزاع على كوريا ومنشوريا في الشرق الاقصى، وأدّت إلى انتصار اليابان التي كانت أول قوة آسيوية تتمكن من انزال هزيمة بقوة اوروبية في العصر الحديث. وكانت اليابان، مع مطلع القرن العشرين، تعدّ لخوض حرب محدودة في كوريا ومنشوريا بهدف سحق النفوذ الروسي المتنامي هناك، وللثأر من التدخل الروسي في اعقاب الحرب الصينية- اليابانية (١٨٩٤-١٨٩٥)، ولضمان الهيمنة اليابانية على كوريا. ولقد كان حشد القوات اليابانية وامدادها على البر الآسيوي يعتمد على سيطرة اليابان على البحار. ولذا خطط اليابانيون من اجل تدمير اسطول الشرق الاقصى الروسي، والاستيلاء على بورت آرثر، قاعدته التي تقع على طرف شبه جزيرة لياوتونغ المنشورية.

بدأت الحرب في ٨ شباط ١٩٠٤ بهجوم مفاجىء شنه اليابانيون على بورت آرثر دون اعلان الحرب، وذلك بعد ان رفضت روسيا تنفيذ اتفاقية تقضي بسحب

القيصر نقولا الثاني ألكسندروفيتش (الصورة تعود الى ٤ تشرين الاول ١٨٩٦).

صورة كاريكاتورية تمثل راسبوتين محتضنا، بقوة وبسلطوية، القيصر وزوجته.

متظاهرون روس مؤيدون للملكية يحيون في الساحة الحمراء (في موسكو في ١٧ تموز ١٩٩٣)، الذكرى الـ٧٥ لمقتل القيصر نقولا الثاني على ايدي الثوار البلاشفة.

قواتها من منشوريا. وعلى الرغم من ان روسيا كانت قد انهت بناء خط سكة حديد عبر سيبيريا، فإنها كانت تفتقد إلى تسهيلات النقل الضرورية لتعزيز قواتها المحدودة في منشوريا بقوات ومعدات كافية. ولذا منيت القوات الروسية بسلسلة من الهزائم كان عدم كفاءة القيادة العسكرية من أبرز اسبابها. وتوجت تلك الهزائم بسقوط بورت آرثر (٢ كانون الثاني ١٩٠٥). وتلا ذلك الهزيمة الروسية في معركة فوكون التي انتهت في ١٠ آذار ١٩٠٥، وكانت آخر معركة برية في الحرب.

كان الروس قد أرسلوا منذ ١٥ تشرين الاول ١٩٠٤ اسطول البلطيق الروسي بقيادة الاميرال روجويسفنسكي في رحلة طويلة إلى الشرق الاقصى بهدف فك الحصار على بورت آرثر. وتوجه الاسطول نحو فلاديفوستوك، وعند وصوله إلى مضيق تسوشيما اصطدم بالاسطول الياباني بقيادة الاميرال توغو، ونشبت معركة تسوشيما البحرية في ٢٧ ايار ١٩٠٥، وأدت إلى تدمير الاسطول الروسي، وكانت من أكثر المعارك حسمًا في التاريخ. إذ أدت، إضافة إلى مناخ التأجج الثوري الذي كان سائدًا داخل روسيا، إلى دفع القيصر نقولا الثاني إلى المفاوضات. وكانت اليابان مكتفية بما حققته من انتصارات في حربها المحدودة الاهداف. وتم عقد مؤتمر سلام في بورتسموث (الولايات المتحدة) باشراف الرئيس الاميركي تيودور روزفلت. واستمر المؤتمر من ٩ آب إلى ٥ ايلول ١٩٠٥، وأسفر عن اتفاقية بورتسموث التي سيطرت اليابان بموجبها على شبه جزيرة لياتونغ والخط الحديدي المنشوري الذي يصل إلى بورت آرثر ونصف جزيرة سخالين. غير ان روسيا بقيت القوة المهيمنة في شمالي منشوريا.

كان الانتصار الياباني في هذه الحرب بمثابة نقطة تحول في تاريخ اليابان والشرق الاقصى. إذ خرجت اليابان منها بقوة مهمة مقدرًا لها ان تلعب دورًا أكبر في صناعة الاحداث العالمية. ومن جهة ثانية، فقد كانت ضربة لروسيا القيصرية، ساهمت في إنهاكها وتمهيد الطريق امام إزالتها.

ثورة ١٩٠٥: استفحل التذمر في صفوف الشعب الروسي نتيجة هزائم روسيا في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥، وعمت البلاد موجة من الاضرابات والمظاهرات والاضطرابات، وبدأ تحرك العمال وتبعهم الفلاحون وكثرت الاحزاب المعارضة وكان ابرزها حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي وحزب الحرس الأحمر وحزب المناشفة الاممين بقيادة ليون تروتسكي.

بدأت الثورة باضراب عمال مصانع سان بطرسبورغ (لينينغراد في ما بعد) بقيادة الأب جيورجي غابون في ٨ كانون الثاني ١٩٠٥ وتوقفت أكثر المؤسسات عن العمل وكذلك الصحف وحمل أكثر من ١٥٠ ألف عامل مع عائلاتهم عريضة حددوا فيها مطالبهم إلى المقر الدائم للقيصر في سان بطرسبورغ، وكانت الحكومة على علم مسبق بالتظاهرة. فضرب الجنود المتظاهرين

بالمدافع والرشاشات الثقيلة، فقتل في هذه المجزرة أكثر من ألف متظاهر وجرح خمسة آلاف وعرف هذا اليوم بيوم الأحد الدامي. فأثارت هذه المجزرة سخط الشعب والجيش معًا، فهب العمال إلى السلاح ودعوا إلى الثورة. وفي كانون الثاني ١٩٠٥ قامت في موسكو إضرابات رافقتها مظاهرات سياسية تأييدًا للعمال. وجرت في مدن عديدة اشتباكات عنيفة مع الشرطة العسكرية. وامتدت موجة الاضرابات إلى جميع انحاء البلاد.

وفي شباط ١٩٠٥، انفجرت الانتفاضات الفلاحية في مختلف مناطق روسيا. كما اعلن اضراب عمال الحياكة الذي استمر حتى تموز واشترك فيه ٣٠ ألف عامل. وفي هذه الاثناء أنشئت أول منظمة للعمال في روسيا في سان بطرسبورغ، وكانت مهمتها تنظيم الاضرابات المختلفة وقيادتها.

في صيف ١٩٠٥، هاجم الفلاحون اراضي الملاكين العقاريين (الأسياد) وأحرقوها، وأنشأوا أول اتحاد سياسي لهم هو «اتحاد الفلاحين» كما أنشئت ميليشيا للمحافظة على الأمن وصد الشرطة. وانتشرت الافكار الثورية بين الجنود والبحارة. وكانت انتفاضة البارجة المتمردة «بوتمكين» حدثًا ثوريًا كبيرًا برفض الجنود اوامر الضباط وانضمامهم إلى الثورة (البارجة تابعة للاسطول الروسي في البحر الاسود). وفي ايلول ١٩٠٥، جرى اضراب جماهيري شامل قام به العمال بقيادة البلاشفة، وفي تشرين الاول اضرب عمال سكة الحديد في موسكو وكان اضرابًا ضخمًا لم يشهده أي بلد حتى ذلك الحين. وفي نهاية ١٩٠٥، اندلعت انتفاضة البحارة في سيباستوبول لكن المدفعية القيصرية قصفت السفن الثائرة واعدمت بحارتها.

وفي ٧ كانون الاول ١٩٠٥، بدأ اضراب سياسي عام تلبية لنداء مجلس السوفيات، وتوقف عن العمل أكثر من ١٠٠ ألف شخص، لكن الشرطة فرّقت المتظاهرين وتحول الاضراب إلى انتفاضة مسلحة أقيمت فيها المتاريس وبدأت حرب الشوارع واستمرت المعارك عشرة ايام سقط خلالها مئات الضحايا. ونتيجة لهذه الثورة، وقع القيصر نقولا الثاني في ٣٠ تشرين الاول ١٩٠٦ بيانًا عرف ببيان (أو ميثاق) أكتوبر منح بموجبه البلاد مجلسًا نيابيًا.

وكانت لثورة ١٩٠٥، رغم فشلها وعدم وصول القوى المشتركة فيها إلى السلطة، مقدمة لتفجير ثورة ١٩١٧، كما كان لها أثر كبير على الحركات الثورية خارج روسيا.

الحالة السياسية لروسيا قبل ١٩١٤: أعضاء مجلس الدوما (Douma: كلمة استعملت منذ القرون الوسطى ودلّت على «مجلس الاسياد»، وتعني حرفيًا: «الفكرة») ينتخبون باقتراع محصور بفئة، أو فئات معينة. والهيئة الناخبة هنا يمكن تحديدها وإجراء تعديل عليها بموجب مرسوم قيصري. والقيصر يبقى هو السيد المطلق، ويحكم بواسطة سلك من الموظفين

يُدعـون «تشـنوفنيكي» (tchinovniki، أي رجـال «تشـين». وتشـين تعـني اللوحـة أو الجدول الذي يبين ترتيـب الموظفـين بحسـب تراتبيتهم الهرمية).

وأهم المجموعات السياسية: «البونـد» Bund، حـزب اجتمـاعي ديمقراطي عمـالي يهـودي؛ «المئـة أسـود» Cents-Noirs (تعبـير كوزاكي)، مجموعة عسكرية يمينية متطرفـة؛ الدسـتوريون الديمقراطيـون؛ نـارودنيكي (نـارود:الشـعب)؛ أوكتوبريـون، معتدلـون ينـاصرون شـرعة أكتوبـر ١٩٠٥؛ الاشـتراكيون الديمقراطيـون (حـزب عمـالي اشتراكي ديمقراطي روسي)، وقـد انقسـموا إلى بولشفيك ومنشفيك ابتداء مـن ١٩٠٣؛ الاشتراكيون الثوريون؛ «زمليـا إي فوليـا»، مجموعـة ارهابيـة منشـقة عـن نـارودنيكي (الشعبيين). وأهم المجموعـات الاجتماعيـة-الريفيـة: بارتـاك، تجمـع عمـالي زراعـي؛ بيدنيـاك، فلاحـي فقير؛ كـولاك، فلاحـي ثـري؛ سـريدناك، مستثمر زراعـي متوسـط الحال. وأهم المجموعات الاجتماعية-المدنية: كوبـي، تـاجر غـني؛ كوسـتار، مهـني؛ ميشتشانن، وسيط تجاري ومهني.

ماليًا، كانت لروسيا ثلاث موازنات: العادية الـتي تنشـر بصـورة رسميـة لاسـتمالة الدائنين الاجانب، ولكن لا تطبق ولا يؤخذ بهـا؛ والاسـتثنائية (١٢٪ منهـا للنفقـات الانتاجية على ٧ مليـارات سنويًا) وكـانت بعجز دائم منذ العام ١٨٨٠، وقد بلغ الدين الوطـني في العـام ١٩١١ تسـعة مليـارات روبـل؛ والموازنـة الثالثـة «إداريـة» تغذيهـا قروض مبرمة مع فرنسا، وتستخدم للنفقات على البلاط القيصري وعلى قضايا الأمن في البلاد.

وكان للحلف الروسي-الفرنسي دور أساسه وعد روسيا بوضـع الجيـش الروسـي بتصـرف فرنسـا في حـال نشـوب حـرب فرنسـية-المانيـة (هدفهـا إستعادة الالـزاس-اللورين)، وحصلت روسيا مقابل ذلك على حق اقتراض المبـالغ الماليـة الـتي تحتـاج إليهـا لموازنتها «الادارية». وكان الذهب الفرنسي يغـذي النفقـات العسـكرية الروسـية والبنـى التحتيـة الاسـتراتيجية (خـط سـكة حديـد بيلوروسيا وبولندا).

السياسـة الخارجيـة (١٨١٥-١٩١٧): في القرن الثـامن عشـر، وتحديـدًا بالنسبة إلى بطرس الأكبر وكاترين الكبـيرة، كان على الامبراطورية الروسية ان تستمر في التوسع إذا ما ارادت لنفسها بقاء امبراطوريًا دون تقهقـر. وخـلال القـرن التاسـع عشـر، وضعت روسيا نصب عينيها تحقيق الاهداف التالية:

- الوصـول إلى القسـطنطينية والمضـائق: (كـان الـروس يطلقـون علـى القسطنطينية إسـم «تسـاريغراد» Tsarigrad، أي مدينة القياصرة).
- في اوروبـا الشـرقية: إقامـة اتحـاد مزدوج يكون تحت الحماية الروسية؛ الاتحاد الاول هو اتحاد الدول السلافية ومكون مـن البولنديـين (كـاثوليك) والتشـيك (بروتسـتانت) والبلغـار والصـرب (أرثوذكـس) والبشـناق أو ا لبوسـنيين (مسلمون) والكروات (كاثوليك) وغيرهم.

والاتحاد الثاني يتكون بمجمله من دول أرثوذكسية ويمتد حتى اليونان ويضم مختلف الاتنيات البلقانية ويصل حتى كنائس الشرق الاوسط الأرثوذكسية (الكنائس العربية).

– في مناطق بحر قزوين: منذ معاهدة تركمانتشايا (٢٢ شباط ١٨٢٨)، تقدم الروس وضموا جورجيا، أرمينيا، أذربيجان حتى جبال أراكس. و لم يبق امامهم إلا إيران أو أفغانستان ليصلوا إلى الخليج العربي.

– في آسيا الوسطى: توسعت روسيا على حساب مناطقها التي أغلب سكانها من البدو (راجع دول آسيا الوسطى، تركمانستان، أوزبكستان...).

– في الشرق الاقصى: طمحت روسيا في مناطق مشرفة على البحار ولا تكسوها الثلوج على مدار السنة، إي النفاذ إلى الباسيفيك.

أما علاقات روسية الدولية بين ١٨١٥ و١٩١٧ فتميزت بالتالي:

١– مع انكلترا: اعتبرها نقولا الثاني خصمًا رئيسيًا لأسباب دينية وسياسية (كانت الافكار التي تحكم انكلترا افكار البروتستانتية والليبرالية، وكان نقولا الثاني ميالاً لليبرالية الفرنسية). ومنذ ١٨٤١، وقفت انكلترا بعناد في وجه التوسع الروسي باتجاه البحر المتوسط والمياه الدافئة في آسيا؛ فكانت تعمل على منع تفكك السلطنة العثمانية حتى لا تقع القسطنطينية، ولا الاسطول التركي، في قبضة الروس، وعلى ابعاد الروس عن بلاد فارس وأفغانستان خشية ان يصبح بمقدورهم قطع طريق انكلترا عن الهند. و لم تحارب انكلترا روسيا إلا مرة واحدة، وذلك إبان حرب القرم، ولكنها كانت تناهضها دائمًا وبكل الوسائل حتى ١٩١٤. في ١٨٩٥، استطاعت انكلترا ان تفرض على روسيا القبول بحدود تؤمن لأفغانستان شريطًا بعرض ٢٠كلم على طول نهر أوكسوس (هكذا تأمّن عدم قيام حدود روسية–هندية مشتركة). في ١٨٩٦، حصل الروس على امتياز إنشاء خط حديد في إيران من بحر قزوين إلى الخليج العربي. كما أنشأوا «البنك الفارسي للقروض» الذي ضمن لهم سيطرة مالية على دولة إيران؛ في حين التف الانكليز عليهم من الجهة المقابلة من الخليج بحصولهم على حقوق التحصيل الجمركي في مرافىء الخليج. أما بالنسبة إلى قضية الطريق العابر الصين، فقد نشط نقولا الثاني لاقامة شبكة خطوط حديدية من موكدن Moukaden وبورت آرثر تؤمن له السيطرة على التجارة الصينية، وأسس لهذا الهدف شركة روسية–فرنسية، ثم روسية–بلجيكية. وناهضت انكلترا هذا الامتياز–المشروع حتى تمكنت من تحويله إلى الاميركيين. وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٠٢، عقدت انكلترا تحالفًا مع اليابان. وفي الحرب الروسية–اليابانية (١٩٠٤–١٩٠٥) سعت انكلترا ما في وسعها لضمان انتصار اليابان، فسارعت في ٨ آب ١٩٠٤ إلى توقيع اتفاق بحري مع فرنسا، وضمنت بذلك وقوف فرنسا على الحياد في هذه الحرب. لكن أمر هذه العلاقات العدائية بين الدولتين اختلف عن السابق عندما تعلق هذه المرة بالنظرة إلى

المانيا، إذ لم تتردد انكلترا من توقيع اتفاق بحري انكليزي-روسي (٣١ آب ١٩٠٧) يقضي بأن تدعم انكلترا روسيا ضد ألمانيا التي كان امبراطورها غيوم الثاني يعمل على بناء اسطول بحري قوي. وبعد ثلاثة اسابيع (أي في ٢٤ ايلول ١٩٠٧) اتفقت الدولتان (روسيا وانكلترا) حول عدد من القضايا في إيران وأفغانستان والتيبت. وفي آب ١٩١٤، سمحت انكلترا للبارجتين الألمانيتين «غوبن» و«برسلو» الانتقال إلى البحر الاسود ودعم الاسطول التركي. في ١٩١٥، اشتركت انكلترا وفرنسا في حملة الدردنيل بهدف احتلال القسطنطينية وإعادة التفاوض عليها مع روسيا، ثم تخلت انكلترا عن مواصلة الحملة علمًا ان المقاومة التركية كانت خائرة القوى بسبب فقدان الذخائر. في ١٩١٦، قدمت انكلترا وعدًا لروسيا بالاعتراف بحقها في ضم القسطنطينية.

٢- مع فرنسا: كان نقولا الاول حليفًا للملك الفرنسي شارل العاشر، وقاما بعمليات عسكرية مشتركة ضد تركيا (١٨٢٧-١٨٣٠)، وعارض لويس فيليب معتبرًا إياه قائدًا ثوريًا، وكان لظهور العلم الفرنسي المثلث الألوان على سفارة فرنسا في فرصوفيا ان اطلق الانتفاضة البولندية في ١٨٣٠-١٨٣١. وحال نقولا الاول دون تمكين لويس فيليب من ضم بلجيكا في ١٨٣٢. ولدى وفاة شارل العاشر (١٨٣٦)، أعلن نقولا الاول الحداد في كامل روسيا لمدة ٢١ يومًا. فبين ١٨٣٠-١٨٤٩ كانت فرنسا عدوة لروسيا في ظل حكم لويس فيليب، ثم في ظل الحكم الجمهوري (١٨٤٨-١٨٤٩). بين ١٨٤٩ و١٨٥٤، عادت فرنسا، مع نابوليون الثالث، لتكون دولة محافظة وليجري نقولا الاول معها علاقات ودية. لكن في ١٨٥٤-١٨٥٥ تحالف نابوليون الثالث مع انكلترا وتركيا في حرب القرم. في ١٨٧٠-١٨٧١، غضّ القيصر ألكسندر الثاني الطرف عن بروسيا وهو يرى جيشها يسحق الجيش الفرنسي ويدخل باريس. وبدءًا من ١٨٨١، اعتبر القيصر ان التحالف مع فرنسا ضروري لأسباب داخلية مالية، كما اعتبر الفرنسيون ان هذا التحالف ضروري لتمكينهم من استعادة الالزاس واللورين (في ١٩١٧، رفض الثوار الروس اعادة الاموال والقروض الفرنسية معتبرين ان فرنسا كانت تدعم حكمًا قيصريًا معاديًا للشعب الروسي). في كانون الاول ١٩١١، وبعد ان ساعد القيصر نقولا الثاني فرنسا على تثبيت اقدامها في مراكش، طالب الفرنسيين باعلان موقف صريح من رغبة روسيا احتلال البوسفور والدردنيل. لكن فرنسا في هذه المسألة كانت تخشى انكلترا وتنسّق معها.

٣- مع النمسا: كانت روسيا حليفة مميزة للنمسا، فهي التي انقذت بتدخلها العسكري، فرنسوا جوزف (في ١٨٤٨-١٨٤٩) من انتفاضة الناطقين بالالمانية والقوميين المجريين، وفرضت العودة إلى الوضع الذي كان قائمًا منذ ١٨١٥ (مؤتمر ميونيخ). لكن في ١٨٥٤، عارضت النمسا الاجراءات الروسية الآيلة إلى ضم الامارات

الرومانية، لأنها كانت تريد اكتساب حوض الدانوب حتى البحر الاسود، فرأت نفسها في وضع المواجهة مع الروس الذين كانوا يعملون على محور يمتد من أوديسا في الشمال إلى بحر إيجه في الجنوب (من هذه المواجهة السياسية تولدت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨). وفي ٢٠ نيسان ١٨٥٤، تحالفت النمسا مع بروسيا، فأعلنت روسيا تخليها عن ضم الامارات الرومانية. وفي حزيران (اوائل حرب القرم) سمحت تركيا للنمسا باحتلال هذه الامارات موقتًا ريثما تنتهي الحرب التي بقيت النمسا خلالها على الحياد رغم الضغوطات التي تعرضت لها من جانب الانكليز والفرنسيين لدخول الحرب إلى جانبهم ضد روسيا. وما إن انتهت حرب القرم حتى اخذت روسيا تدعم الرعايا السلاف والارثوذكس في تمردهم المتواصل. وفي مؤتمر باريس (١٨٥٦)، ناهضت النمسا دمج الامارتين الرومانيتين في دولة واحدة، وكانت روسيا تطالب بهذا الدمج. وفي مؤتمر برلين (١٨٧٨)، تحالفت النمسا مع انكلترا، فكسبت ضم البوسنة-الهرسك (عدوة صربيا المتحالفة مع روسيا)، وأصبحت بذلك دولة بلقانية، وسببًا مباشرًا في اندلاع حرب ١٩١٤. وابتداء من ١٨٨٠، أخذ دعاة الجرمانية النمساويون ينتهجون سياسة توسعية، مثلهم مثل الالمان حلفاء الهنغار، وهي سياسة معادية للروس والرومان والصرب، ولم يعد هناك أي مجال لاتفاق ممكن بين النمسا وروسيا. في ١٩١٤، تعرضت النمسا لأشد الضربات من الجيش الروسي (١،٣٢٨ مليون معتقل نمساوي خلال ٣ سنوات).

٤- مع بروسيا: تميزت علاقات روسيا معها بلامبالاة وحياد طالما انها (بروسيا) كانت غير مهتمة بالمسألة الشرقية. تدخل نقولا الاول، في ١٨٤٨، وانقذ الملكية البروسية من السقوط، إذ كان يعتقد انها ملكية محافظة كسواها في اوروبا، في حين انها كانت بروتستانتية معادية للكثلكة ومصمّمة على ان تقود بروسيا في طريق ان تصبح امبراطورية مجدّدة وقادرة على الوقوف في وجه كل تحالف تقوم عليه الدول الملكية المحافظة. في ١٨٧٥، حذر القيصر ألكسندر الثالث بيسمارك من تهديد فرنسا. وفي مؤتمر برلين (١٨٧٨) تقرب بيسمارك من انكلترا بعد الانتصارات الروسية على تركيا، وألغى معاهدة سان ستيفانو التي كانت لمصلحة الروس. في ١٨٧٩، وبعد ان اطمأن بيسمارك إلى انتصاراته على الجبهة الغربية، بدأ يلعب الورقة النمساوية القائمة على فكرة «التوسع الجرماني» باتجاه الدانوب الأسفل وتركيا. ومنذ ١٨٨١، بدأت روسيا تتأكد من قوة ألمانيا المتصاعدة ومن تحولها إلى دولة قوية معادية لها (علمًا ان ما بين القيصر نقولا الثاني والامبراطور الألماني غيوم الثاني صلة قرابة دموية وعلاقات صداقة شخصية)، ما دفع بروسيا إلى زيادة وتمتين علاقاتها بفرنسا. ومع ذلك، تمكن غيوم الثاني، في ٢٤ تموز ١٩٠٥، من انتزاع معاهدة تحالف دفاعي مع روسيا تباعد ما بين هذه الاخيرة وبين فرنسا؛ لكن الوزير الروسي

لانسدورف ألغى هذه المعاهدة. وفي هذه الفترة، كان انصار «النزعة الجرمانية» في المانيا يدعون إلى انتزاع حقول القمح من روسيا، وهي حقول موجودة في أوكرانيا، وقد اشتهروا بعبارة كانوا يردّدونها: Drang nach Osten، أي «سر باتجاه الشرق».

٥- مع تركيا: من المعروف تاريخيًا السعي الروسي الدؤوب باتجاه القسطنطينية والمضائق (منفذ على البحر المتوسط). ففي ١٦٧٦ كانت الحروب الاولى لهذا الغرض. وبين ١٦٨٧ و١٧٩٢، توالت الحروب وتقدمت روسيا إلى الدونيتز والدنيستر والقوقاز. بين ١٧٩٨ و١٨٠٦، جرى تحالف (وهو التحالف الوحيد في تاريخ العلاقات بين الدولتين) بين روسيا وتركيا، مكّن الاسطول الروسي من عبور المضائق وغزو القواعد الفرنسية في البحر الأدرياتيكي. بين ١٨٠٦، و١٨١٢، نشبت الحرب الثامنة بين الدولتين (روسيا وتركيا) ووصلت روسيا إلى الدانوب وضمت بسارابيا (١٨١٢)، لكنها خسرت الادرياتيكي. في ١٨٢٨-١٨٢٩، شنت روسيا حملة على البلقان، وفازت بنتيجتها بأدرنة وأرضروم. في ١٤ تموز ١٨٢٩، وقعت معاهدة أدرنة ضمت روسيا بموجبها مناطق على الدانوب وعلى الساحل الشرقي للبحر الاسود تمتد حتى خليج سان نقولا. في ٨ تموز ١٨٣٣، وقعت الدولتان معاهدة سرية (معاهدة أونكيار-سكيليسي) تنص على تحالف دفاعي وهجومي لمدة ثمانية اعوام، تقفل تركيا بموجبها الدردنيل في وجه كل سفينة حربية أجنبية. في ٣١ تموز ١٨٤١، تدخلت انكلترا لتحل معاهدة لندن محل معاهدة أونكيار-سكيليسي، وحلت الضمانة الدولية محل الحماية الروسية، إذ أصبحت المضائق محايدة ومحظورة على كل سفينة حربية. في ١٨٥٣-١٨٥٦، أعلن منتشيكوف الحماية ا لروسية للرعايا الأرثوذكس في السلطنة العثمانية (نحو ١٠ ملايين)؛ ووجد السلطان، لمواجهة هذا الاعلان، دعمًا من انكلترا وفرنسا (التي كانت تتمتع بحماية المسيحيين في الاراضي المقدسة منذ ١٧٤٠). في ٤ تشرين الثاني ١٨٥٣، اعلنت تركيا الحرب على روسيا، وخرجت من هذه الحرب بأقل الخسائر الممكنة، وذلك بفضل الانتصار الذي حققه الحلف الفرنسي-الانكليزي في سيباستوبول: الامارات الرومانية وضعت تحت الحماية الاوروبية، والبحر الاسود جرّد من السلاح (وكانت هذه نقطة لمصلحة تركيا). في ١٨٧٧-١٨٧٨، اندلعت حرب أخرى اعلنتها روسيا نتيجة لحملات القمع التي جرّدتها تركيا ضد ارثوذكس البلقان (البلغار، الصرب، وسكان الجبل الاسود)، فوقعت في قبضة الروس بلغاريا وتراقيا، ثم سان ستيفانو بالقرب من القسطنطينية؛ وجاء تدخل الاسطول البحري الانكليزي في بحر مرمره لينقذ القسطنطينية. وفي آذار ١٨٧٨، وقعت معاهدة سان ستيفانو التي بموجبها نشأت «بلغاريا الكبرى» كمحمية روسية قادرة على تهديد القسطنطينية. لكن مؤتمر برلين (والمعاهدة المنبثقة عنه، آب ١٨٧٨) حرم الروس من انتصارهم ولكنه

أرضى حلفاءهم الرومان والبلغار والصرب وسكان الجبل الاسود. واستطاع هؤلاء البلقانيون، في حرب ١٩١٢، من طرد الاتراك من البلقان. لكن الروس تنبهوا للقوة المتصاعدة لحلفائهم البلقانيين وكانوا يذكّرونهم دائمًا بأن القسطنطينية «مجال محجوز للقياصرة الروس». بعد ١٩١٣، كانت المناورات، التي قامت بها روسيا واعلنت انها تهدف لانتزاع القسطنطينية، موجهة في الواقع ضد النمسا، إذ كان القيصر يعلم حق العلم انه لا يستطيع الفوز بالقسطنطينية إلا عبر حرب تشترك فيها إلى جانبه الدول الاوروبية. في الحرب العالمية الاولى، وبين ١٩١٤ و١٩١٦، نالت روسيا من الانكليز والفرنسيين وعدًا بالتخلي لها عن القسطنطينية، ذلك ان الانكليز كانوا يخشون ان ترتد روسيا عليهم في حال عدم حصولها على هذا الوعد. لكن هزيمة روسيا في معارك ١٩١٧-١٩١٨ (إضافة إلى ثورة البلاشفة) حالت دون تحقيق هذا الحلم القيصري (لا بد، هنا، من ملاحظة أن «القسطنطينية»- التي لا يزال أغلب المؤرخين يستعملون هذه المفردة-هي نفسها «إستنبول». راجع بصددها «تركيا»، ج ٦، وخاصة ص ٢٨٥-٢٩٢).

٦- مع إثيوبيا: اهتمت روسيا باثيوبيا باعتبار ان الاقباط الاثيوبيين أرثوذكس. ففي ١٨٨٩، حاول مغامر روسي، يدعى أشينوف، ان يغزو اثيوبيا على رأس متطوعين. لكن الحملة فشلت، إلا ان عددًا من المبشرين بقوا وعاشوا هناك. في ١٨٩٣، وقعت الكنائس الارثوذكسية في روسيا واثيوبيا إتفاقات تعاون. وبموجب هذه الاتفاقات يعين، في ١٩٠٠، الجنرال الروسي ليونتيوف، حاكمًا عامًا للممتلكات في اثيوبيا. تعاون روس اثيوبيا مع فرنسيي السودان؛ لكن فرنسا تراجعت اثناء الحرب هناك وروسيا ما عادت تلح في مطلب أومكسب.

نهاية القيصرية الروسية وقيام الاتحاد السوفياتي (١٩١٧-١٩٩١): راجع «الاتحاد السوفياتي»، ج ١، ص ٣١-٨٩.

كرونولوجيا أهم احداث ١٩٩٢-١٩٩٦

١٩٩٢: في أول كانون الثاني، بدأ تطبيق «التخصيص (الخصخصة) المتسارع» للمشاريع التي كانت في عهدة الدولة والبلديات. في ٣١ كانون الثاني، خلفت روسيا الاتحاد السوفياتي في مجلس الامن الدولي. في ٥-٦ شباط، زار يلتسن فرنسا وسمع العالم، لاول مرة منذ ١٩١٧، النشيد القيصري الروسي يعزف له عند استقباله. في ١٦ آذار، عين يلتسن نفسه وزيرًا للدفاع بصفة «انتقالية» وقرّر إنشاء جيش وطني. في ١٩ نيسان، سارت تظاهرات تأييد ليلتسن في موسكو. في ٧ ايار، صدر مرسوم يقضي بانشاء «جيش روسي». في حزيران، زار يلتسن واشنطن. في ١٥ حزيران، عين ايغور غيدار Egor Gaidar رئيسًا للحكومة الروسية. في ٢١ تشرين الاول، صدر مرسوم يقضي بوضع محطة الاذاعة والتلفزيون في سان بطرسبورغ (وكان يديرهما «المحافظون». وقد استعملت هذه المفردة «المحافظون» للدلالة على الشيوعيين) تحت إشراف السلطات الفدرالية. في ٢٨ تشرين الاول، أصدر يلتسن قرارًا يحرم فيه البرلمان من صلاحية الاشراف على الحرس البرلماني (٨ آلاف رجل). في ٧ تشرين الثاني، مُنع الشيوعيون والقوميون من حرية التجمع في الساحة الحمراء احتفالاً بالذكرى السنوية لثورة أكتوبر. في أول كانون الاول، افتتح المؤتمر السابع لنواب الشعب (برلمان موسّع)، ويلتسن صرف النظر عن مطلبه القاضي بتمديد صلاحياته الخاصة في الموضوع الاقتصادي، لكنه طالب بأن يكون من صلاحياته منفردًا تعيين الوزراء في ما عدا رئيس الوزراء؛ في حين رأى البرلمان ان يكون تعيين الوزراء من صلاحية مجلس السوفيات الاعلى وان يكون الوزراء مسؤولين إزاء هذه المجلس. في ١٠ كانون الاول، صوّت النواب ضد تعيين غيدار رئيسًا للوزراء، فدعا يلتسن إلى إجراء استفتاء حدّد موعده في ٢٤ كانون الثاني (١٩٩٣)، وإلى انتخابات تشريعية في نيسان للفصل بينه وبين الكونغرس (البرلمان الموسع). وفي ١٢ كانون الاول، توصل الطرفان، المؤتمر ويلتسن، إلى تسوية تقضي باجراء استفتاء عام في ١١ نيسان (١٩٩٣) حول دستور جديد.

١٩٩٣، صراع يلتسن-البرلمان: تميز هذا العام بالصراع بين مؤتمر نواب الشعب (البرلمان الموسّع) وبين الرئيس يلتسن، وانتهى في تشرين الاول بانتصار يلتسن وترسيخ اقدامه في السلطة.

كان الصراع بلغ ذروته اواخر العام ١٩٩٢ حين وجّه الرئيس يلتسن نداء إلى الشعب قال فيه ان البرلمان «المحافظ» هو سبب تعثر الاصلاحات التي لم تسفر عن نتائج طيلة ١٤ شهرًا (أي منذ قيام روسيا الاتحادية على انقاض الاتحاد السوفياتي)، ودعا إلى استفتاء عام للاحتكام إلى رأي الشعب. وكانت الازمة الاقتصادية محورًا رئيسيًا للصراع بين يلتسن الذي نادى بمبدأ العلاج بالصدمة وحصل على صلاحيات استثنائية لاجراء الاصلاحات وعزز تحالفه مع الراديكاليين الموالين للغرب من جهة، وبين الهيئة الاشتراعية التي يشكل خصومه فيها غالبية طالبت بتعديل السياسة الاقتصادية وتشكيل حكومة ائتلافية قوية وتجريد يلتسن من الصلاحيات الاستثنائية من جهة أخرى.

ولم تعمّر التسوية التي عقدها الطرفان اواخر ١٩٩٢ طويلاً. فدعي المؤتمر (المؤتمر الثامن) إلى الانعقاد في دورة استثنائية في ١٠ آذار ١٩٩٣ تحت شعار: «احترام رئيس الدولة للدستور» وبهدف ايجاد مخرج من الازمة. ورفض المؤتمر كل المقترحات الرئاسية ونقض الاتفاق السابق بينه وبين الرئيس واتخذ قرارًا يخوّل البرلمان فرض الفيتو على مراسيم الرئيس ويعطل صلاحياته في حال

إقدامه على حل الهيئات وإيقاف عملهـا. ووصف مؤيدو يلتسن مـا حصـل في المؤتمـر بأنه «انقـلاب بلشفي» و«ردة شيوعية»، فيما قال رئيس البرلمـان رسلان حسبولاتوف ان المؤتمـر يعني انهـاء الفـترة الاستثنائية والعـودة إلى الدستور، وانتقـد بشـدة الدول الغربية التي اعلنت تأييدها ليلتسن في صراعه مـع البرلمـان، وقـال إن «الرئيسـين الامـيركيين السابقين رونالد ريغان وجورج بوش قدمـا وعـودًا كثيرة إلى ميخـائيل غورباتشـوف في مقـابل انهـاء حلف وارسو وتفكيك الاتحـاد السـوفياتي لكنهمـا لم يقدما سنتًا واحدًا».

بعد يومين من انتهاء جلسـة المؤتمـر، أي في ١٦ آذار زار الرئيـس الفرنسـي فرنسـوا ميـتران روسـيا. وفي ٢٠ آذار أعلـن يلتسـن إقامـة نظـام «الادارة المباشـرة» في البـلاد تسـتمر حتـى اجـراء الاستفتاء، فاعتـبر النـواب هـذا الاجـراء بمثابـة «انقـلاب عسـكري» ودعـوا المحكمـة الدسـتورية للنظـر فيـه، وسـارت مظـاهرات (بعضهـا مؤيـد والبعـض الآخـر معـارض) في موسـكو وسـان بطرسبورغ والقرم. وفي ٢٣ آذار أصدرت المحكمة الدستورية حكمهـا باعتبـار قـرار يلتسـن غـير دستوري، وان بامكانه الدعـوة إلى استفتاء شعبي عادي لا يطرح مسـألة الاصلاح الدستوري. وفي ٢٩ آذار، وافق المؤتمر علـى إجـراء استفتاء حـول الثقة بالرئيس يلتسن. وجرى هذا الاستفتاء في ٢٥ نيسان (قبله بثلاثة اسـابيع، عقـدت قمـة روسـية- اميركية في فانكوفر)، وكـان عـدد النـاخبين ١٠٧ ملايين و٣١١ ألفًا، صوّت منهم ٦٤،٥٪ ومـن هـؤلاء ٥٨،٧٪ منحـوا ثقتهـم ليلتسـن. وفي اول ايار، اندلعت اضطرابـات في موسـكو جـرح فيهـا نحو ٥٠٠ شـخص وقتـل شـرطي واحـد. وفي ١٨ ايـار، بـدأت محاكمـة الـ١٢ المتهمـين بـانقلاب ١٩٩١. وفي تموز، أعلنـت منطقـة سفيردلوفسـك نفسها «جمهورية الأورال».

في ٢١ ايلـول، أعلـن يلتسـن حـل البرلمـان ومؤتمر نواب الشعب الروسي وإجراء انتخابات في ١١ و١٢ كانون الاول من السنة نفسها (١٩٩٣) لـ«جمعية فدرالية» ستكون أعلـى هيئـة للسـلطة في البـلاد، وحظـر عقـد أي جلسـات لمؤتمـر نـواب الشعب ورفع الحصانة عن النواب تحسبًا لاحتمـال ان يدعـو إلى ذلـك رئيـس البرلمـان رسـلان حسبولاتوف. لكنـه أبقـى في الوقـت نفسـه علـى سلطات البرلمانات المحليـة في المقاطعـات في محاولـة لكسـب دعمهـا. وأعتـبر ألكسـندر روتسـكوي، نائب الرئيس، قرار يلتسن بمثابة «انقـلاب» وقـال إنه انتهك الشرعية، لذا فإنه (أي روتسكوي) قـرر اعتبـار نفسـه رئيسًـا لروسـيا. بينمـا دعـا رسـلان حسبولاتوف إلى التمـرد وعـزل يلتسـن واتهمـه بالقيام بـ«انقلاب على الهواء» أي عبر التلفزيون.

وعلـى الفـور، عقـد البرلمـان جلسـة ليليـة طارئة اعتبر فيها مرسوم يلتسن «انقلابًـا»، وتقـرر اعتماد نص الفقرة السادسـة مـن المـادة ١٢١ مـن الدسـتور الـتي تشـير إلى ان صلاحيـات الرئيـس تتعطـل تلقائيًـا إذا قـرر حـل الهيئـات الاشـتراعية. ووفقًا للمادة دستورية ثانية حولت صلاحيات يلتسن إلى نائبه ألكسندر روتسـكوي الـذي أدّى اليمـين امـام البرلمـان ودعـا القـوات المسلحة إلى الامتثـال لاوامره، كما أجرى تعديلات وزارية وسلّم حقيبة وزيـر الدفـاع إلى الجـنرال فلاديسـلاف أتشـالوف الذي كـان اتهـم بـالتواطؤ مـع قـادة انقـلاب آب ١٩٩١، فيما أعلن بافل غراتشـوف وزيـر الدفـاع (في حكومـة يلتسـن) ان القـوات المسـلحة ترفـض الاعتراف بشرعية روتسكوي وقراراتـه. وقـد أتـى هذا التصعيد وسط دعم غربي شامل ليلتسـن قـاده الرئيس الاميركي بيل كلينتون.

وفي ٢٣ ايلـول، أعلـن يلتسـن عـن اجـراء انتخابات رئاسية مبكرة الصيف المقبـل (١٩٩٤)، أي قبل سنتين مـن انتهـاء ولايتـه ردًا على اتهامـه بفرض الدكتاتورية، فيما دعـاه البرلمـان إلى تسـليم نفسـه إلى «السـلطة الشـرعية» أو الرحيـل عـن

روسيا. أما جمهوريات الاتحاد والمقاطعات فانقسمت هيئاتها التنفيذية والمنتخبة على نفسها، فايدت الاولى يلتسن فيما عارضته نسبة كبيرة من مجالس السوفيات المحلية. وفي اليوم نفسه، اعتبر ميخائيل غورباتشوف (آخر رئيس للاتحاد السوفياتي) الذي كان موجودًا في باريس ان قيام يلتسن بحل البرلمان مخالف للدستور، واعرب عن دهشته لعدم إثارة هذا الامر ردود فعل في العالم، وتساءل: «لماذا ينبغي، في الديمقراطيات الغربية، ان يحترم الدستور في أدق تفاصيله وألا يكون الامر كذلك في روسيا؟».

وفي اليوم التالي (أي في ٢٤ ايلول)، تصاعد الموقف، وبدأ يشير إلى انه يتوجه نحو الحسم العسكري عقب انتشار قوات مكافحة الشغب حول مبنى البرلمان في موسكو تنفيذًا لاوامر يلتسن الذي وجه انذارًا بأن يسلّم المدافعون عن مبنى البرلمان اسلحتهم. وعقد في الوقت نفسه اجتماع قمة، في موسكو، لاسرة الدول المستقلة

الكسندر روتسكوي
حاملاً رشاشه داخل مبنى البرلمان
(تشرين الاول ١٩٩٣).

(الكومنولث) اعتبر تأييدًا ليلتسن في مواجهة البرلمان.

في ٢٦ ايلول، سارت تظاهرتان في ساحة موسكو وعلى مقربة من مبنى البرلمان الذي يعتصم في داخله النواب، واحدة مؤيدة ليلتسن ورددت هتافات مثل «تسقط الشيوعية» و«حاكموا البرلمان»، والأخرى سارت تأييدًا للبرلمان ورددت هتافات معادية ليلتسن، ولوّحت بالاعلام الحمر للاتحاد السوفياتي السابق الذي دعا روتسكوي إلى إحيائه. وفي غضون ذلك عقد في سان بطرسبورغ (ثاني أكبر المدن الروسية) اجتماع لزعماء ٤٦ مقاطعة للبحث في محاولة لانهاء الازمة، وقد عارض الزعماء بمعظمهم قرار يلتسن حل البرلمان. وقد طوقت وحدة خاصة من شرطة مكافحة الشغب الموالية ليلتسن المنطقة التي يقع فيها مكان الاجتماع مما جعل الوصول إليه متعذرًا. وفي اليوم نفسه ايضًا (٢٦ ايلول) خرج نحو ٥٠٠ نائب وانصارهم ورجل دين من مبنى البرلمان في «مسيرة من اجل الطعام»، دارت حول المبنى وطالب المشاركون فيها بالطعام والوقود للنواب وحماة البرلمان. وكانت السلطات قطعت المؤن والكهرباء عن المبنى الذي طوقّته قوات تابعة لوزارة الداخلية الموالية ليلتسن.

في ٢٧ ايلول، بحث النواب المجتمعون في «البيت الابيض» (مبنى البرلمان) الروسي في موسكو اقتراح إجتماع سان بطرسبورغ (رؤساء ٣٩ من مجموع ٨٨ مجلسًا للسوفيات في روسيا الفدرالية) باجراء انتخابات رئاسية وبرلمانية في آن حلاً وسطًا لانهاء الازمة الدستورية في البلاد. وفي واشنطن، اعلنت الولايات المتحدة وبقية الدول الصناعية (سبع دول، وهي إضافة إلى الولايات المتحدة، اليابان والمانيا وبريطانيا وفرنسا وكندا وايطاليا) دعمها ليلتسن، وقالت إنها قد تقدم مساعدات إضافية لروسيا لدفعها نحو اقتصاد السوق.

في ٢٨ ايلول، احكمت قوات الشرطة ووحدات مكافحة الشغب حصار «البيت الابيض» (مبنى البرلمان). وبدأ نواب يشقون الصف ويفاوضون يلتسن بشأن مستقبلهم السياسي.

في ٢٩ ايلول، وجهت الحكومة الروسية انذارًا إلى البرلمان طلبت فيه إخلاء البيت الابيض، وأكدت أنها تضمن لكل من ينسحب طوعًا السلامة الشخصية وحرية التحرك والنشاط السياسي، لكنها حذرت من «عواقب وخيمة» في حال رفض الامتثال للأوامر، وحمّلت حسبولاتوف وروتسكوي المسؤولية. وردّ النواب المعتصمون داخل المبنى المحاصر انهم سيطلقون النار على أي وحدة حكومية تقترب منه.

في ٣٠ ايلول، بدأت الكنيسة الروسية وساطة بين الطرفين وتزايدت الضغوط على يلتسن لحمله على الموافقة على اجراء انتخابات رئاسية وبرلمانية متزامنة. وابدى المدافعون عن البرلمان استعدادًا لالقاء سلاحهم مقابل رفع الحصار عنهم. وفي اليوم التالي (أول تشرين الاول)، جدّد يلتسن مطالبة النواب بالاستسلام، في حين تلقى دفعة جديدة من الدعم السياسي والمالي من الرئيس الاميركي، كلينتون، الذي عمد إلى نشر القانون (المتعلق بالمساعدات الاميركية) بعد بضع ساعات فقط على تبنيه من ا لكونغرس الاميركي، وخصص ٢،٥ بليون دولار لروسيا، وقال: «آمل ان ترى روسيا القانون كعلامة قوية من الكونغرس على اننا نؤيد الديمقراطية... وتوجه روسيا نحو اقتصاد السوق».

في ٢ تشرين الاول، وفيما كان البطريرك أليكسي الثاني يصف المفاوضات الجارية برعايته لحل الازمة بأنها «تسير ببطء ولكن نحو الامام»، انفجر الوضع في الشوارع المحيطة بمقر «البيت الابيض» الروسي في موسكو بين رجال الشرطة من جهة ومتظاهرين مؤيدين للنواب المعارضين

شيوعيون اقاموا متراسا قرب «البيت الابيض» في موسكو دفاعا عنه ورفعوا العلم السوفياتي في مواجهة مع رجال الامن (تشرين الاول ١٩٩٣).

جلهم من الشيوعيين من جهة أخرى، ووقع عدد من الجرحى. وظهرت بوادر انقسام بين العسكريين، وتحصّن يلتسن في الكرملين، وأعلن الرئيس الاميركي تأييده الكامل ليلتسن وحمّل القوى المؤيدة لروتسكوي وحسبولاتوف مسؤولية اندلاع العنف في موسكو.

في ٤ تشرين الاول، قصف الجيش مقر البرلمان وحسم المعركة لمصلحة يلتسن، واستسلم روتسكوي وحسبولاتوف، واعتقلت بقية القياديين معهما، من بينهم وزير الدفاع الذي كان البرلمان قد نصبه فلاديسلاف أتشالوف، ووزير الأمن فكتور بارانيكوف، والداخلية اندريه دونايف والجنرال ألبرت ماكاشوف الذي قاد هجوم انصار البرلمان على مبنى التلفزيون في موسكو. واقتيد روتسكوي وحسبولاتوف والمجموعة القيادية إلى سجن ليوفرتوفو في موسكو. واعتبرت احداث ٣ و٤ تشرين الاول (١٩٩٣) في موسكو الأخطر منذ الثورة البلشفية في ١٩١٧، وشهدت المدينة قصفًا مدفعيًا للمرة الاولى منذ ١٩٤١ عندما وصلت مدفعية الالمان إلى مشارفها. وتركزت انظار العالم على هذه الاحداث واستمرت العواصم الغربية، الهلعة من فكرة وإمكانية عودة الشيوعية، في تأكيد تأييدها ليلتسن وتفهمها لموقفه استعمال القوة.

وفي ٥ تشرين الاول، شرع يلتسن بالعمل على استثمار انتصاره بسرعة وشلّ حركة المعارضة بالكامل وتهيئة الظروف لفوز انصاره في الانتخابات النيابية التي كان أعلن عن اجرائها في كانون الاول (١٩٩٣). فحلّ المحكمة الدستورية ومجالس مدينة موسكو وألغى اجتماع لمجلس الفدرالية، وأصدر مرسومًا لتعزيز إجراءات الطوارىء، وعطّل سبعة احزاب وحركات بينها حزب العمال الشيوعي الروسي (نحو ١٠٠ ألف عضو)، وجبهة الانقاذ الوطني وهي تجمع

لتنظيمات شيوعية وقومية روسية وكان قادتها ابرز اقطاب المعارضة البرلمانية، و«اتحاد الضباط» الذي شارك عدد من اعضائه في الدفاع عن مقر البرلمان، كما عطّل صحفًا عدة. و لم يُعلن بصورة رسمية عن عدد ضحايا يومي الاقتتال، لكن الصحافة العالمية نقلت عن مصادر روسية ان جنود وضباط القوات الداخلية جمعوا طوال ايام عدة من طوابق مبنى البرلمان نحو ٨٠٠ جثة محترقة أو ممزقة بقذائف الدبابات، وقامت ثماني شاحنات خصصت لهذا الغرض بنقلها تحت جنح الظلام إلى مكان مجهول.

و لم يمض شهر واحد على انتهاء هذه الاحداث حتى قامت في روسيا ظاهرة جديدة لم تعرفها من قبل، ظاهرة شركات تعرض تنظيم الحملات الانتخابية ووعد بضمان المقعد البرلماني مقابل ٤٥ ألف دولار، وشركات أخرى لتنظيم دورات ومحاضرات للمرشحين يقوم «اساتذتها» من علماء النفس وخبراء العلاقات العامة بتعليم المرشحين كيف يتحدثون ويقدمون أنفسهم ويؤثّرون في الناخبين...

في ١٢ كانون الاول، جرى استفتاء على الدستور، وبصورة متزامنة وموازية، جرت انتخابات نيابية. فأسفرت نتائج الاستفتاء على الدستور الجديد بأنه حظي بتأييد ٦٠٪ من الناخبين المشاركين في الاقتراع (٥٣،٢٪ من المواطنين الناخبين)، وهذا الدستور يمنح يلتسن صلاحيات واسعة. أما الانتخابات النيابية فأسفرت عن مفاجأة كبرى بحصول الحزب الديمقراطي الليبرالي «المتطرف» والحزب الشيوعي على نسبة عالية من الاصوات. فقد حصل الاول (وهو بزعامة فلاديمير جيرينوفسكي) على ٢٦،٦٪ في الجزء الاوروبي الشمالي من روسيا و١٨،٣٪ في جنوبيه و١٥،١٪ في سيبيريا والأورال، فيما تقاسمت كتلة «خيار روسيا» الاصلاحية الموقعين الثاني والثالث مع الشيوعيين. فتكون النسب الاولى العامة: ٢٦٪ لحزب جيرينوفسكي، ١٣٪ للشيوعيين، و١٢٪ لأنصار يلتسن «خيار روسيا».

وجاءت التفسيرات والتحليلات لحصول جيرينوفسكي على أعلى نسبة من الاصوات لتجمع على انه حصل على هذه النسبة بفضل طرحه شعارات ديماغوجية واستيعاب حالة عدم الرضى، منها ما يتعلق بحل المشاكل الاقتصادية في غضون ايام، والقضاء على الاجرام فورًا، واعادة بناء الامبراطورية الروسية في حدودها القديمة التي تشمل جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق وكلاً من فنلندا وبولندا، إضافة إلى ان الطموحات الشخصية لمنافسيه قادة الكتل الاصلاحية أدت إلى تبعثر اصوات الناخبين المؤيدين لها، إلى جانب ان السياسة الاقتصادية أدت إلى تولد استياء واسع حوّل لجيرينوفسكي اصوات فئات غير ضئيلة لا تؤيد تطرفه القومي ولكنها ترفض الاصلاح الراديكالي.

١٩٩٤: في أول موقف خارجي، بعد أحداث ١٩٩٤ الداخلية والانتخابات النيابية، تصعيد موسكو (في ٦ كانون الثاني) معارضتها توسيع حلف الاطلسي مهدّدة بأنها ستضطر إلى التفكير باقامة كتلة عسكرية سياسية خاصة بها إذا قبل الحلف في عضويته دولاً من البلطيق واوروبا الشرقية. وجاء هذا التصعيد عشية انعقاد اجتماع القمة للدول الاعضاء في الاطلسي في بروكسيل، وكذلك في سياق دعوات في الخارجية الاميركية تحذر من اتخاذ أي خطوة يمكنها ان تستفز موسكو في وقت تواجه قيادة يلتسن تحديًا من جانب الزعيم القومي المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي الذي تحول حزبه نتيجة للانتخابات النيابية قوة معارضة رئيسية. والموقف الذي تبنته الولايات المتحدة وغالبية الدول الغربية (منذ انهيار الاتحاد السوفياتي حتى تاريخه، كانون الثاني ١٩٩٤) إزاء دول حلف وارسو المنحل هو الموقف الداعي إلى التعاون العسكري بين الحلف وبين هذه الدول في

إطار خطة «الشراكة من اجل السلام» بدل منحها العضوية الكاملة في الحلف الاطلسي.

في ١٣ كانون الثاني، زار الرئيس الاميركي، بيل كلينتون، موسكو قادمًا من كييف (عاصمة أوكرانيا). وخلال الزيارة وقع اتفاق ثلاثي (روسيا والولايات المتحدة وأوكرانيا) وإتفاق ثنائي (روسيا والولايات المتحدة).

ففي قمة ثلاثية وقع يلتسن وكلينتون والرئيس الاوكراني ليونيد كرافتشوك اتفاقًا لسحب الاسلحة النووية في اوكرانيا وصف بأنه «خطوة تاريخية» على طريق نزع السلاح. والتزمت اوكرانيا في الاتفاق ان تكون دولة غير نووية، وتعهدت بالتخلي عن ١٥٠٠ رأس نووي و١٧٦ صاروخًا من طراز «سي.سي-٢٤» في مقابل حصولها على ضمانات أمنية ومساعدات مالية من الولايات المتحدة وروسيا (هكذا بقيت روسيا الدولة النووية الوحيدة في اراضي الاتحاد السوفياتي السابق).

وفي قمة ثنائية (خلال الزيارة نفسها) وقعت روسيا والولايات المتحدة اتفاقًا ينص على قيام روسيا باستخلاص اليورانيوم المخصّب من ٢٠ ألف رأس نووي وتحويله إلى وقود للمحطات النووية وتسليم الولايات المتحدة ٥٠٠ طن متري منه مقابل ١٢ بليون دولار ستدفع على مدى ٢٠ سنة.

وإلى جانب اتفاقات حظر انتشار اسلحة الدمار الشامل والتعاون في مجال الطيران والطب ودراسة تأثير الاشعاع في البيئة، وقّع الرئيسان «بيان موسكو» الذي اشار إلى ان البلدين دخلا «مرحلة الشراكة الاستراتيجية القائمة على التكافؤ واعتراف كل طرف بمصالح الآخر».

وبالنسبة إلى الحلف الاطلسي، أيدت موسكو برنامج «الشراكة من اجل السلام» الذي صاغه رؤساء دول الحلف في قمة بروكسيل.

وغادر كلينتون إلى مينسك (عاصمة بيلوروسيا)، بعد كييف وموسكو، وعقد محادثات مع رئيس بيلوروسيا فياتشيسلاف شوشكيفيتش، ووقع معه معاهدة لتشجيع الاستثمارات وحمايتها، وأعلن منح بيلوروسيا ٢٥ مليون دولار إضافية لتغطية نفقات سحب الصواريخ الاستراتيجية من اراضيها (وكانت بيلوروسيا أول جمهورية سوفياتية سابقة تعلن تنازلها عن السلاح النووي الموجود في اراضيها).

أجواء موسكو، أثناء زيارة كلينتون لها وبعيد مغادرته، هي أجواء تأليف حكومة جديدة بعد إعلان رئيس الوزراء إيغور غايدار استقالته ورفضه الاشتراك في الوزارة الجديدة. وبرز نجم تشيرنوميردين وألف حكومة جديدة، ولخص برنامجه بالاشارة إلى «نهاية رومانطيقية اقتصاد السوق» وضرورة العودة إلى واقعية «الاقتصاد المشترك»، ما فسّره مناصرو يلتسن (الذي بدا واضحًا انه اضطر للتعاون مع تشيرنوميردين) انه سيؤدي إلى تراجع المساعدات الغربية.

في ٢٣ شباط، قرر مجلس الدوما الروسي (البرلمان) العفو عن المشاركين في محاولة الانقلاب الفاشلة في ١٩٩١ واحداث البرلمان في خريف ١٩٩٣ ومن بينهم ألكسندر روتسكوي ورسلان حسبولاتوف. ووصف قادة كتلة «خيار روسيا» (التي تضم أنصار يلتسن الذين يطلق عليهم ايضًا «الاصلاحيون»، وهي التسمية التي تطلق عادة على انصار «الغرب» و«المساعدات الغربية» و«اقتصاد السوق») بأن هذا القرار هو «بداية الحرب الأهلية». وفي الولايات المتحدة، أعلن وزير خارجيتها وارن كريستوفر ان الاحداث في الأسابيع القليلة الماضية «أيقظت مخاوفنا من المستقبل».

في ٢ آذار، وبعد ايام من مغادرتهما (حسبولاتوف وروتسكوي) السجن، دعا روتسكوي إلى المصالحة الوطنية، وأكد انه لن يعمل لزعزعة الاستقرار. وحظي حسبولاتوف

باستقبال حافل في غروزني (عاصمة شيشانيا)، واشار في حديث صحافي إلى ان مرتزقة تابعين لمنظمة «بيطار» اليهودية شاركوا في اقتحام مقر البرلمان (أحداث خريف ١٩٩٣). واللافت انه في اليوم نفسه (٢ آذار) وجّه رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين انتقادًا ضمنيًا للدور الذي تحاول روسيا ان تلعبه في الشرق الاوسط لا سيما بعد مجزرة الخليل معتبرًا ان محاولتها تبنّي سياسة خارجية مستقلة يمكن ان تعقّد عملية السلام في الشرق الاوسط.

في ١٥ نيسان، عقدت روسيا صفقة لتقاسم اسطول البحر الاسود المتنازع عليه بينها وبين أوكرانيا والذي ورثتاه عن الاتحاد السوفياتي السابق. وتوصل يلتسن إلى اتفاق في شأن الاسطول مع الرئيس الاوكراني ليونيد كرافتشوك اثر محادثات اجرياها في موسكو في نهاية مؤتمر قمة الدول الاعضاء في اسرة الدول المستقلة.

وفي ٢٥ نيسان، زار اسحق رابين موسكو ووقع ستة اتفاقات مع الزعماء الروس، في شأن التعاون العلمي والاقتصادي والزراعي والصحي والثقافي والسياحي إلى جانب اتفاق عن تفادي ازدواجية الضرائب، فيما أكد رئيس الوزراء الروسي فكتور تشيرنوميردين استعداد بلاده لدور «أكثر فاعلية في الشرق الاوسط»، وأشار إلى «آفاق التعاون العسكري مع اسرائيل». ورابين أول رئيس وزراء اسرائيلي يزور العاصمة الروسية. وفي الوقت نفسه الذي استقبلت فيه موسكو رابين كان نائب رئيس مجلس الوزراء الروسي أوليغ سوشكوفتش في زيارة رسمية لدمشق بحث خلالها في العلاقات الاقتصادية والسياسية خصوصًا لجهة الانتهاء من ملف الديون الذي شكل عقبة امام تطوير العلاقات الثنائية.

في ٩ ايار، سارت تظاهرة في شوارع موسكو ضمت عشرات الآلاف وهم يهتفون «روتسكوي رئيسًا» لمناسبة الذكرى الـ٤٩ للانتصار السوفياتي على المانيا النازية، تقدمها ألكسندر روتسكوي وشاركت فيها كل شخصيات المعارضة الرئيسية ومن بينها رئيس الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف ومنفذو انقلاب آب ١٩٩١ وأناتولي لوكيانوف الرئيس السابق لمجلس السوفيات الاعلى وأوليغ شينين رئيس اتحاد الاحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفياتي السابق، إضافة إلى ابرز المشاركين في تمرد تشرين الاول ١٩٩٣ الذين تمّ الافراج عنهم في شباط (١٩٩٤) بموجب عفو صوّت عليه مجلس النواب. وفي ٢٨ ايار، افتتح اول «مجلس وطني» للتحالف القومي–الشيوعي المعارض للرئيس يلتسن اعماله في موسكو في حضور روتسكوي (تغيب حسبولاتوف شريك روتسكوي في تمرد ١٩٩٣، وفاليري زوركين الرئيس السابق للمحكمة الدستورية) ومشاركة نحو ٣٠٠ من القادة السياسيين الذين رفضوا التوقيع في نهاية آذار (١٩٩٤) على وثيقة الوفاق الوطني التي اقترحها يلتسن. وحضّ روتسكوي كل قوى المعارضة على توحيد صفوفها سعيًا لاقامة «الدولة الروسية الكبرى ضمن حدود الاتحاد السوفياتي». ووصف الوضع السياسي الحالي بانه صراع بين تيارين: «حركة المعارضة الوطنية» من جهة، و«حركة الخيانة الوطنية» (الحكومة والاحزاب الاصلاحية) من جهة أخرى. وأشار إلى «انهيار الاقتصاد»، وقال «إن روسيا تضم حاليًا نسبة ٣٪ من الاغنياء و٧٪ من متوسطي الدخل و٥٠٪ من الفقراء و٤٠٪ من ا لبؤساء».

في تموز، طغى حديث خطة الشراكة مع الحلف الاطلسي على الحياة السياسية في روسيا. وقد ركّز هذا الحديث على ان الحوار مع الغرب سيستمر من احل التوصل إلى صياغة وثيقة تعترف بوضع روسيا الخاص كدولة نووية وعضو دائم في مجلس الامن. وكانت موسكو طالبت بوضع خاص في إطار الشراكة وقدم وزير دفاعها، بافل

غراتشوف، شروط بلاده التي تتلخص في ٤ نقاط هي: منح مجلس الامن والتعاون الاوروبي أولوية على حلف اناتو (الاطلسي) في قضايا الامن، وجعل الحلف والاتحاد الاوروبي الغربي تابعين للمجلس الذي تكون له اولوية على مجلس التعاون الاطلسي الذي يضم إلى جانب بلدان الناتو دول اوروبا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق التي وقعت الخطة، واستحداث آلية فاعلة للمشاورات بين روسيا وحلف الناتو من اجل التعامل مع حالات الطوارىء. وطالبت موسكو بتوقيع بروتوكول ملحق بالشراكة ينص على تنسيق العلاقات بين الناتو والقوات المسلحة الروسية. وقال يلتسن ان الجيش الروسي الذي يضم ثلاثة ملايين عنصر لا يمكن ان ينسق مع الجيوش الأخرى إلا ضمن إطار اتفاق خاص، ولكنه أكّد ان موسكو «ستوقع الشراكة على أي حال وإن كان ذلك من دون البروتوكول». وعارضت قوى نافذة في البرلمان اتفاقية الشراكة هذه، وانضم إلى هذه القوى ميخائيل غورباتشوف الذي اعتبر ان حلف الناتو انشىء اصلاً لشن الحرب الباردة ورغم انتهائها يصر الغرب على توسيعه مواصلاً بذلك فرض منطق التوسع على الاطراف الاخرى.

«في ٢٢ حزيران ١٩٩٤، اتخذ الاتحاد الروسي والحلف (الاطلسي) خطوة مهمة نحو تعزيز شركتهما ونحو اقامة مقاربات جديدة لتشجيع الامن والاستقرار الاوروبيين. لقد اطلقنا عملية بلورة برنامج التعاون الكامل بين روسيا وحلف شمالي الاطلسي. والمقترحات التي وضعها الجانب الروسي توفر اساسًا لهذا العمل. ومن خلال مناقشاتي للابعاد السياسية للبرنامج مع اعضاء مجلس حلف شمالي الاطلسي، توصلنا إلى موقف مشترك مفاده ان البرنامج سيكون برنامجًا مماثلاً لحجم روسيا...» (أندريه كوزيريف، وزير خارجية الاتحاد الروسي، من مقال له نشرته «النهار»، العدد ١٨٩٠٩، تاريخ ١٧ آب ١٩٩٤، ص ١).

وفي ٢٩ تموز، وافقت روسيا على إزالة مفاعلين نووين قرب تالين (عاصمة استونيا) بحلول ايلول ١٩٩٥. وكان الرئيس يلتسن والرئيس الاستوني لينارت ميري قد اتفقا، قبل ايام قليلة، على سحب الجنود الروس الباقين في استونيا وعددهم ٢٠٠٠ جندي بحلول ٣١ آب (أي بعد نحو شهر واحد من اتفاقهما)، لكن ذلك تأجل بسبب خلافات بشأن مدة اقامة الخبراء الروس الذين سيقومون بازالة المنشأة من استونيا. ويوجد المفاعلان اللذان يستخدمان لاغراض التدريب في قاعدة بحرية في بلاديسكي على بعد ٤٠كلم غربي تالين.

في ١٩ آب، اعلنت موسكو ان مئات من قوى المعارضة الطاجيكية «بمشاركة أفغان عرب» عبرت الحدود من الاراضي الأفغانية وهاجمت مواقع القوات الروسية المنتشرة على حدود طاجيكستان. والمعروف عن «الأفغان العرب» انهم تبنوا قضية الجهاد الطاجيكي في اعقاب استيلاء الشيوعيين على السلطة في دوشانبه (عاصمة طاجيكستان) بمساعدة موسكو في كانون الاول ١٩٩٣. وتواصلت العمليات العسكرية للمعارضة الطاجيكية المدعومة من الأفغان العرب ضد قوات السلطة التي تدعمها الوحدات الروسية المتمركزة في جنوبي البلاد.

في اول ايلول، بدأت مناورات روسية- اميركية مشتركة في جنوبي الاورال والهدف المعلن لها «التنسيق في اطار عمليات حفظ السلام في مختلف مناطق العالم». واثارت المناورات، وموقع اجرائها، احتجاجات شديدة في اوساط الساسة والرأي العام في روسيا. واصدر مجلس الدوما (البرلمان) قرارًا يوصي الرئيس يلتسن بالغاء التدريبات، فيما نظمت المعارضة تظاهرات احتجاج وارسلت اربعين من انصارها إلى ميدان

توتسك حيث ستجري التدريبات في محاولة لوقفها. وكان ميدان توتسك العسكري اشتهر في ١٩٥٤ حينما اجريت فيه اول تدريبات عسكرية استخدمت خلالها الاسلحة النووية.

في ٣ ايلول، دشّن الرئيسان، الروسي يلتسن والصيني جيانغ زيمين، مرحلة جديدة في العلاقات الثنائية خلال الزيارة التي قام بها الرئيس الصيني إلى روسيا وهي الاولى من نوعها منذ زيارة الزعيم الصيني ماوتسي تونغ لروسيا عام ١٩٥٧. وأصدر الرئيسان اعلانًا مشتركًا اعتبر بديلاً من معاهدة الصداقة المبرمة بين الصين والاتحاد السوفياتي السابق. وينص الاعلان على قيام «علاقات جديدة للشراكة البنّاءة» بين روسيا التي تعد أكبر دولة في العالم جغرافيًا والصين التي تحتل المرتبة الاولى من حيث تعداد السكان. وأكد الاعلان ان علاقات التكافؤ والصداقة والمنفعة المتبادلة «ليست ذات طابع تحالفي وغير موجهة ضد بلدان أخرى». وأكد الجانبان عزمهما على الرقي بعلاقاتهما على ابواب القرن الواحد والعشرين إلى «مستوى جديد نوعيًا» في الميادين كافة مع تقليص عدد الجنود المرابطين على الحدود بينهما إلى أدنى حد. وأعلن الجانبان ان صواريخ أي منهما لن تكون موجهة بعد الآن نحو اراضي الآخر، والتزم كل منهما إلا يكون البادىء في استخدام السلاح النووي ضد الآخر. ووقع وزيرا الخارجية الروسي والصيني، أندريه كوزيريف وكيان كيتشين، اتفاقًا على تسوية النزاع الحدودي الذي كان سببًا لحرب خطيرة بين بلديهما عام ١٩٦٨. وأكد الرئيس يلتسن ان الخلافات المتبقية في شأن السيادة على جزيرتين سوف تُسوّى في إطار لجنة مشتركة اتفق الزعيمان على تحفيز دورها.

في ٢٧ ايلول، زار يلتسن واشنطن وعقد اجتماع قمة مع الرئيس الاميركي كلينتون تناولت مواضيع الخلاف بين واشنطن وموسكو، مثل مصير البوسنة، ووتيرة الاصلاح الاقتصادي في روسيا وطبيعته، وسياسة روسيا القائمة على التدخل القوي في اراضي الاتحاد السوفياتي السابق، أو ما تسميه موسكو «الخارج القريب»، والعمل معًا لانهاء الصراع في عدد من المناطق منها الشرق الاوسط.

في ٧ تشرين الثاني، جرت في مختلف انحاء روسيا تظاهرات واجتماعات في مناسبة الذكرى الـ٧٧ للثورة البلشفية رغم ان روسيا لم تعد تحتفل رسميًا بهذه الذكرى. وكان أكبر التجمعات في موسكو حيث قدر عدد المشاركين في التظاهرات بعشرات الآلاف، طالبوا باستقالة الحكومة وانتخابات رئاسية مبكرة، ورفعوا شعارًا يطالب بمحاكمة «الخائن والسارق» بوريس يلتسن ملوحين بصور لينين وستالين، ومطالبين باحياء الاتحاد السوفياتي والنظام الاشتراكي. ودعا غينادي زيوغانوف زعيم الحزب الشيوعي إلى تشكيل حكومة «إنقاذ وطني»، وندّد بـ«الانفلات الامني» الذي هو السبب الاساسي في مصرع النائب الشيوعي فالنتين مارتيميانوف الذي كان توفي بسبب ارتجاج في الدماغ بعد تعرضه (قبل اسبوع) للضرب من مجهولين امام منزله (وهذا ثاني نائب روسي يقتل بعد النائب اندرياس ايزديرغيس).

وفي اليوم نفسه (٧ تشرين الثاني)، نُشر تقرير لمجلس الامن الروسي وصف انهيار الروبل، قبل شهر، بانه «حدث استثنائي وخطير على امن الدولة»، وأكد «عدم الاهلية وغياب المسؤولية» لدى عدد من رجال الدولة، ولجوء عدد من البنوك الاهلية إلى رفع سعر الدولار لشراء السيولة والانتفاع من الفرق إثر الهبوط.

١٩٩٥: تميز هذا العام بحركة سياسية نشطة لروسيا باتجاه العراق وايران و«النظام الامني الشرق اوسطي» كما سيتبين من خلال كرونولوجيا أهم احداث هذا العام:

جنود روس في لباس الحرب العالمية الثانية حاملين اعلاما سوفياتية
يسيرون في العرض العسكري الضخم الذي اقيم في الساحة الحمراء في موسكو (٩ ايار ١٩٩٥).

في أول كانون الثاني، أعلنت موسكو عن قلقها من الاوضاع الانسانية في العراق، ولمحت إلى اتصالات على مستويات عليا مع بغداد، واعترفت بوجود خلافات بينها وبين واشنطن ولندن حيال التعاطي مع الموضوع العراقي.

في ٥ ايار، وقبل ايام قليلة من موعد القمة الروسية-الاميركية وفي سياق ضغوط اميركية على موسكو لمنعها من السير قدمًا في اتفاقاتها مع ايران خصوصًا في موضوع التعاون النووي لأهداف سلمية، اعلنت موسكو انها ستنجز قريبًا الاعمال التمهيدية لبناء محطة بوشهر النووية في ايران، وأكدت نيتها توقيع عقود جديدة مع ايران لبناء ثلاث وحدات إضافية في محطة بوشهر. وعقدت القمة، ولكنها فشلت في دفع موسكو إلى التخلي عن تعاونها النووي مع ايران، ما اثار تحليلات كثيرة ملأت الصحافة العالمية حول توجه ايران وروسيا إلى إقامة تحالف حقيقي لمواجهة الهيمنة الاميركية. وأجرى مساعد وزير الخارجية الايراني محمود واعظي محادثات مع موسكو ركزت على التعاون الثنائي في منطقة بحر قزوين لمواجهة الكونسرتيوم النفطي (خاصة الأذري) الذي تهيمن عليه الشركات الاميركية على رغم مشاركة روسيا فيه بنسبة ١٠٪. واقترح واعظي على الروس التمسك باتفاقية العام ١٩٢٤ بين ايران والاتحاد السوفياتي السابق باعتبار ثروات جزر قزوين وقفًا على الدول المطلة عليه. وأيدت موسكو سريان الاتفاقية المذكورة، ما يعني منع أذربيجان من الإنفراد باستثمار النفط في مياه البحر المذكور وقد أضحت تطل على هذا البحر مع ثلاث دول أخرى أثر انهيار الاتحاد السوفياتي.

في آخر ايار، وقعت روسيا على «برنامج فردي» للشراكة مع حلف شمالي الاطلسي، لكنها أكدت، على لسان وزير خارجيتها أندريه كوزيريف، ان البرنامج سيغدو «عديم المعنى» في حال توسيع الحلف شرقًا (اي ان يضم دول اوروبا الشرقية والتي كانت في فلك الاتحاد السوفياتي السابق)، ودعت إلى «اصلاحات» في الحلف وتحويله من تحالف عسكري إلى منظمة سياسية.

في ٢٣ حزيران زار رئيس الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي شيفاه وايس يرافقه رئيس الاركان الاسرائيلي السابق رافائيل إيتان، موسكو. وألقى وايس كلمة في مجلس الدوما اشار فيها إلى «الدور الجديد» لروسيا في عملية السلام في الشرق الاوسط، وذكر ان الاتحاد السوفياتي السابق انقذ مئات الآلاف من اليهود من خطر الابادة. وإثر لقائه رئيس الدوما (البرلمان) الروسي إيفان ريبكين، أعلن وايس انه سيطالب بتعويضات لليهود الذين هاجروا إلى اسرائيل من مناطق كانت تعرضت إلى الاشعاعات نتيجة انفجار المفاعل النووي في تشيرنوبيل في ١٩٨٦ (كان وايس أحد المهاجرين اليهود من أوكرانيا إلى اسرائيل). وكان فلاديمير جيرينوفسكي، ونواب حزبه (الديمقراطي الليبرالي) الـ٥٠ غادروا قاعة البرلمان الروسي أثناء إلقاء وايس كلمته فيه. وكان جيرينوفسكي طالب بانزال العلم الاسرائيلي الذي رفع امام مبنى البرلمان بالمناسبة، وعقد مؤتمرًا صحافيًا قال فيه إن الاميركيين واسرائيل والصهاينة يسعون إلى تقويض الدولة الروسية في إطار سعيهم إلى «الهيمنة على العالم». وبعد نحو اسبوع، ومع عملية «المقايضة» التي نجح فيها الرئيس يلتسن بانهاء الازمة السياسية مع تراجع البرلمان الروسي عن قراره حجب الثقة عن الحكومة اثر اعلان يلتسن إقصاء وزيرين وإجراء تعديلات وزارية، عاد جيرينوفسكي ليعلن ان ما يجري في روسيا «مؤامرة» تمت وفق بروتوكولات سرية وقّعها الرئيس السوفياتي السابق ميخائيل غورباتشوف في ١٩٩٠ ثم يلتسن في ١٩٩٢ وتقف وراءها «اميركا واسرائيل» وهدفها هدم الدولة السوفياتية ثم الروسية.

النصف الثاني من تشرين الاول شغلته الصحافة العالمية بنقل أنباء (وكتابة تحليلات)

عن نيات اسرائيلية لضرب المفاعلات النووية في محطة بوشهر الايرانية متسربة خاصة من تل أبيب وواشنطن. ومن الصحف الروسية ما طالب موسكو بأنه إذا «اقتربت الخطة من التنفيذ» عليها استنفار قواتها الاستراتيجية، وفي حال ضرب المفاعلات يكون على روسيا اتخاذ إجراءات لـ«اتلاف» المشاريع النووية في صحراء النقب. وفي هذه الاجواء، تزايدت لقاءات المسؤولين الروس والايرانيين.

في الاسبوع الاول من تشرين الثاني، استأنفت روسيا وايران خطًا بحريًا تجاريًا في بحر قزوين بعد توقفه قرنًا كاملاً، فيما كانت ايران تخضع لحظر اقتصادي وتجاري فرضته عليها الولايات المتحدة. وقبل استئناف الخط بايام قليلة كانت ايران وروسيا أعربتا في إعلان مشترك (في طهران) عن «معارضتهما أي تحرك من جانب واحد» من قبل الدول المطلة على بحر قزوين في ما يتعلق بـ«التنقيب عن ثروات هذا البحر أو استغلالها». ويطعن البلدان (روسيا وايران) في شرعية عقد بقيمة ٧،٥ بلايين دولار وقعته أذربيجان مع كونسورتيوم دولي تطغى عليه الشركات الاميركية.

وكانت أذربيجان عرضت في مرحلة أولى على ايران المشاركة في هذا العقد لكنها سحبت عرضها في وقت لاحق بضغط من الولايات المتحدة، ما أدّى إلى زيادة التقارب بين روسيا وايران.

في ٣ كانون الاول، زار وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف اسرائيل، وقال إن موسكو تتبع سياسة متوازنة في الشرق الاوسط بالحفاظ على علاقات عسكرية مع الدول العربية ومع اسرائيل، ووقّع اتفاقًا للتعاون العسكري مع رئيس الوزراء الاسرائيلي شمعون (شيمون) بيريز. وانتقدت مصر هذا الاتفاق، وأعلن وزير خارجيتها، عمرو موسى «ان أي تصور أمني في الشرق الاوسط لا يأخذ عناصر السلام في الاعتبار قاصر عن الوفاء بالمتطلبات السلمية للمنطقة»؛ واثار الاتفاق تساؤلات في العالم العربي وروسيا نفسها، ما جعل غراتشيف يتراجع عن الفكرة التي طرحها في اسرائيل حول «إنشاء نظام للأمن الاقليمي في الشرق الاوسط». أما اتفاق التعاون العسكري الذي اطلق عليه رسميًا إسم «مذكرة تفاهم» فقد تضمن بنودًا وملاحق سرية (كما أكدّت المصادر الدبلوماسية التي تابعت محادثات الجنرال غراتشيف مع المسؤولين في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية) تتعلق بتطوير الاسلحة الجديدة والدخول في برامج انتاج مشتركة إلى جانب تحديث الاسلحة الروسية (والسوفياتية) العاملة حاليًا في روسيا ودول أخرى. وكانت المحاولات التي بذلها المسؤولون الروس للتخفيف من وقع الاتفاق على الاطراف العربية من باب المعالجة الدبلوماسية. وكان مثل هذا التوجه واضحًا من خلال التصريحات التي أدلى بها في كل من دمشق وبيروت نائب وزير الخارجية الروسي لشؤون الشرق الاوسط فكتور بوسوفاليوك الذي كان يقوم بجولة في المنطقة شملت سورية ولبنان وتزامنت مع زيارة غراتشيف لاسرائيل، إذ شدّد بوسوفاليوك على ان الاتفاق مع اسرائيل («مذكرة تفاهم») «لا يشكل تحولاً في سياسة روسيا حيال الشرق الاوسط»، وانه مجرد «خطوة روتينية وتقليدية» من شأنها «تدعيم وجود روسيا في المنطقة وتعزيز دورها كراعية مع الولايات المتحدة لعملية السلام».
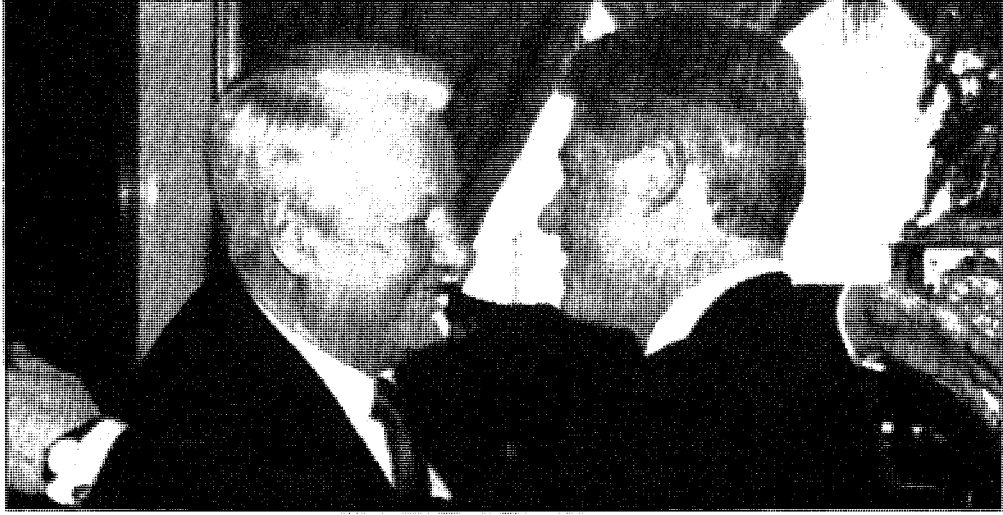
عناق الرئيسين كلينتون ويلتسن عشية قمة الامن النووي (نيسان ١٩٩٦).

في ١٧ كانون الاول، جرت الانتخابات البرلمانية، ونال الشيوعيون فيها ٢٢٪ من الاصوات واحتلوا المرتبة الاولى؛ فسارع زعيمهم غينادي زيوغانوف إلى تهدئة خواطر أهل الحكم الحاليين بقوله: «لسنا بحاجة إلى تحول حاد إلى اليسار»؛ واحتل المرتبة الثانية الحزب الليبرالي الديمقراطي (القومي المتطرف بزعامة جيرينوفسكي) بنيله ١١٪ من الاصوات، وكان في انتخابات ١٩٩٣ نال ٢٣٪؛ وبعده جاء حزب السلطة كما تسمّى كتلة فكتور تشيرنوميردين «بيتنا هو روسيا» الذي نال ١٠٪. واضطر الديمقراطيون الروس الذين خاضوا معركة الانتخابات مشتتين إلى التنحي وإخلاء المكان لغيرهم. فإنجازاتهم متواضعة جدًا على رغم النجاح النسبي الذي حققته كتلة «يابلوكو» الانتخابية برئاسة غريغوري يافلينسكي الاقتصادي المعروف وواضع برنامج الـ«٥٠٠» للتغلب على الازمة، إذ نالت ٩٪ من الاصوات. وبعدها جاء الشيوعيون المتطرفون، «روسيا العاملة»، بقيادة فكتور آنبيلوف، الذين كادوا ان يبلغوا عتبة الـ٥٪ وحصدوا من الاصوات أكثر مما حصدت كتلة «خيار روسيا» التي يتزعمها إيغور غايدار رئيس الوزراء بالنيابة سابقًا. وعمومًا فقد اقترع لاحزاب اليسار زهاء ٤٠٪ من الناخبين.

١٩٩٦: في ٩ كانون الثاني، عُين يفغيني بريماكوف وزيرًا للخارجية خلفًا لأندريه كوزيريف الذي استقال قبل اسبوع ليتفرغ لمهماته كنائب في مجلس الدوما. ورأى خبراء ان تعيين بريماكوف قد يؤدي إلى تنشيط سياسة الكرملين في الشرق الاوسط. في ١٢ كانون الثاني، وفي جو من الود، اطلق الاميركيون والروس في توزلا (شمال شرقي البوسنة) اشارة البدء بأول عملية عسكرية مشتركة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (بموجب اتفاق دايتون الذي انهى الحرب في البوسنة). وفي ١٩ كانون الثاني، انتخب البرلمان الروسي غينادي سيليزنيوف، عضو الحزب الشيوعي رئيسًا له لمدة اربع سنوات، كما انتخب خمسة نواب له بينهم الشيوعية سفيتلان غورياتشيفا والداغستاني رمضان عبد اللطيفوف. في ٢٩ كانون الثاني، ومع افتتاح محادثات في أشخباد (عاصمة تركمانستان) بين وفدي الحكومة والمعارضة الاسلامية في طاجيكستان، أكدت موسكو ان وجودها العسكري في طاجيكستان ضروري لضمان الاستقرار في خاصرة روسيا.

في شباط، وقّع الرئيسان، الروسي يلتسن والبيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو، بيانًا مشتركًا واتفاقًا ماليًا اعتبراه بداية تكامل بين الدولتين

السلافيتين، وأكدا ان معاهدة ستعقد بينهما وتنضم إليها كازاخستان وقيرغيزستان لتحقيق تقارب بين عدد من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق. وينص الاتفاق على تنازل متبادل عن الديون. وفي ٢٨ شباط، انضمت روسيا رسميًا إلى مجلس اوروبا لتصير العضو التاسع والثلاثين في هذه المنظمة الاوروبية التي تعنى خصوصًا بالشؤون الدفاعية والديمقراطية وبحقوق الانسان. وسلّم وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف وثائق عضوية موسكو إلى الامين العام للمجلس دانيال تارشيس في احتفال أقيم في مقره في ستراسبورغ في شرقي فرنسا.

في ١٥ آذار، اتخذت الهيئة التشريعية العليا في روسيا (الدوما) التي يشغل الشيوعيون وحلفاؤهم غالبية مقاعدها قرارًا يقضي بالغاء «قرار مجلس السوفيات الاعلى في روسيا الاتحادية المؤرخ في ١٢ كانون الاول ١٩٩١ والقاضي بفسخ معاهدة تأسيس الاتحاد السوفياتي» لأن اتفاقية تشكيل رابطة (أسرة) الدول المستقلة «ما كان ولا يمكن ان يكون لها مفعول حقوقي في جانبها المتعلق بالغاء وجود الاتحاد السوفياتي». وأشار هذا القرار الخاص إلى ان المسؤولين في روسيا الاتحادية الذين اعدوا اتفاقية حلّ الاتحاد السوفياتي ووقّعوها «تنكروا بفظاظة لارادة شعوب روسيا القاضية ببقاء الاتحاد السوفياتي والتي اعربت عنها تلك الشعوب في استفتاء ١٧ آذار ١٩٩١». ودعمًا لهذا القرار اتخذ النواب قرارًا آخر يتعلق بـ«تعميق التكامل بين الشعوب التي ضمّها الاتحاد السوفياتي»، ويوصي الرئيس يلتسن بأن يعكف على توحيد الشعوب التي كانت منضمة إلى الاتحاد السوفياتي في حينه. واتخذ القراران بغالبية ساحقة (صوّت لهما ٢٥٠ نائبًا وعارضهما ٩٨ نائبًا). وأعاد هذان القراران إلى الاذهان أن الشيوعيين أنفسهم كانوا متحمسين لقرار حلّ الاتحاد السوفياتي في ١٢ كانون الاول ١٩٩١ (امتنع منهم شخص واحد عن التصويت)، ما اعطى خصوم الشيوعيين حجة لتقريعهم بل واتهامهم بتقويض اركان البلد. فأعلن السياسي الروسي الديمقراطي غريغوري يافلينسكي ان الشيوعيين أقدموا الآن على ثالث محاولة لتغيير أسس نظام الدولة الروسية بعد محاولتهم الاولى في ١٩١٧، ومحاولتهم الثانية في ١٩٩١. وأشارت الاصداء الاولى على قرار البرلمان الروسي إحياء الاتحاد السوفياتي إلى إبداء بيلوروسيا وكازاخستان استعدادًا للتقارب مع روسيا، في حين ان بلدانًا أخرى مثل أوكرانيا وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا وأوزبكستان وتركمانستان، ناهيك عن اقطار البلطيق الثلاثة، فجاء رد فعلها صاخبًا على القرار. فقال الرئيس الاذربيجاني حيدر علييف: «السيادة هي أعزّ ما نملك، ولن نتنازل عنها قيد أنملة»، ودعا رئيس جورجيا شيفاردنادزه إلى «اجراءات عاجلة» لمواجهة هذا القرار، وقال رئيس جمهورية أرمينيا ليفون تيربتروسيان ان القرار المذكور يهدف إلى تقويض أسرة الدول المستقلة، فيما أعلنت الاحزاب اليمينية في أوكرانيا ان هذا البلد يجب إلا يعتبر نفسه عضوًا في رابطة لم يعد لها وجود. وكرد فعل على هذا القرار «الاستفزازي» كما وصفه معارضوه تزايدت فرص دعاة توسيع حلف الناتو (الاطلسي) في الاقطار الاوروبية، سواء الغربية أو الشرقية. وسعى الرئيس الروسي إلى تبديد القلق الدولي من هذا القرار، وكلف وزير خارجيته بريماكوف الاتصال بدول العالم للتشديد على ان القرار «لا يمس وضع الفدرالية الروسية بصفتها مشمولة بالقانون الدولي ولا يؤثر في حقوقها والتزاماتها الدولية». واعتبر يلتسن قرار الدوما «متناقضًا مع دستور روسيا» و«لن يسمح بتمرير أي محاولات لتخريب أسس كيان الدولة الروسية».

في ٢٩ آذار، وقعت في موسكو معاهدة رباعية للتكامل بين روسيا وبيلوروسيا

وكازاخستان وقيرغيزستان شكل بموجبها مجلس أعلى لقيادة الكيان الجديد ولجنة تنفيذية لادارته. ووصف الرئيس الروسي المعاهدة بـ«الحدث التاريخي الذي يكفل اتحادًا وثيقًا بين الدول الاعضاء من دون ان يلغي استقلالها»، واقترح الرئيس الكازاخي تسميته «الاتحاد الاوروبي-الآسيوي». والمجلس الأعلى الذي تنص عليه المعاهدة يضم رؤساء الدول والحكومات يتعاقب على رئاسته قادة الدول الاعضاء حسب الترتيب الابجدي. وتم الاتفاق على ان يتولى المنصب في السنة الاولى رئيس جمهورية بيلوروسيا ألكسندر لوكاشينكو، على ان يرأس اللجنة التنفيذية مندوب من كازاخستان. وتنص المعاهدة على قيام اتحاد جمركي موحد، وانشاء سوق مشتركة للبضائع والخدمات ورؤوس الاموال والايدي العاملة وضمان حقوق متكافئة للملكية وتسهيلات في الحصول على الجنسية لمواطني الدول الاعضاء، وتشكيل اتحادات للمواصلات والطاقة والمالية (المصارف) والمدفوعات. وشدّد الرؤساء على ان المعاهدة لا تلغي اسرة الدول المستقلة التي شكلت اثر انهيار الاتحاد السوفياتي، ولكنها «خطوة متقدمة» عن الأسرة.

في ٢ نيسان، وقعت روسيا وبيلوروسيا معاهدة لإنشاء كيان كونفدرالي جديد قد تنضم إليه لاحقًا دول أخرى، ويكون له مجلس أعلى يضم رؤساء الدول والحكومات والبرلمانات مع احتفاظ البلدان الاعضاء بالاستقلال والسيادة. والتسمية التي اعتمدت هي «رابطة الجمهوريات ذات السيادة» ومختصرها باللغة الروسية CCP وهي الكتابة التي تذكّر بالاتحاد السوفياتي. وتقرر ان يكون الثاني من نيسان عطلة رسمية في البلدين وفي كل دولة تنضم لاحقًا إلى المعاهدة التي جرت إثر توقيعها احتفالات واسعة في الكرملين بحضور مئات من المواطنين التي نقلتهم قطارات خاصة من العاصمة البيلوروسية مينسك. ويشار إلى ان تظاهرات سارت في شوارع مينسك احتجاجًا على خطة الاتحاد مع روسيا قبل نحو اسبوع من توقيع المعاهدة، ما جعل الرئيس الروسي يؤكد ان المعاهدة لن تؤدي إلى دمج بيلوروسيا وروسيا.

في ٢٠ نيسان، بدأت في موسكو أعمال «قمة الامن النووي» التي تضم الدول الصناعية السبع الكبرى. وكان موضوع الامن النووي بحث في قمة أوتاوا (كندا) اواخر ١٩٩٥ وتقرر عقد قمة ثانية في موسكو لتتزامن مع الذكرى العاشرة لكارثة محطة تشيرنوبيل النووية، و«دعمًا للرئيس الروسي يلتسن، قبيل الانتخابات الرئاسية، الذي يواجه منافسة قوية من المرشح الشيوعي غينادي زيوغانوف». وفي اليوم التالي، أصدرت القمة ثلاث وثائق عن سلامة المشاريع النووية وتداول المواد المشعة وخطر التجارب العسكرية النووية. وبحثت قضايا دولية في مقدمها الشأن اللبناني (أحداث جنوبي لبنان وعملية «عناقيد الغضب» الاسرائيلية). وتم بحث تحويل «النادي السباعي» للدول الصناعية الكبرى (اليابان وبريطانيا والمانيا والولايات المتحدة وايطاليا وفرنسا وكندا) إلى «ثماني» تشارك فيه روسيا على قدم المساواة مع الدول السبع.

في ٢٥ نيسان، وقع الرئيسان الصيني جيانغ زيمين والروسي بوريس يلتسن، في بكين، وثيقة تنص على اقامة «شراكة استراتيجية» بين بلديهما، إضافة إلى توقيع ١٤ اتفاقًا للتعاون الثنائي وإلى اعلان مشترك روسي-صيني، قال بصددها يلتسن: «وصلنا إلى مستوى جديد لم تشهده علاقاتنا من قبل يتمثل باقامة شراكة استراتيجية للقرن الواحد والعشرين». وسيوضع خط هاتفي خاص بين الحكومتين لتعزيز الاتصالات على أعلى المستويات على غرار «الهاتف الاحمر» بين موسكو وواشنطن، وهي المرة الاولى التي تعتمد الصين مثل هذا الخط الهاتفي. وفي اليوم التالي، وقعت الصين وروسيا وثلاث دول سوفياتية سابقًا من آسيا

وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف (الى اليمين) يسلم وثائق انضمام بلاده الى مجلس اوروبا الى الامين العام للمجلس دانيال تارشيس (٢٨ شباط ١٩٩٦).
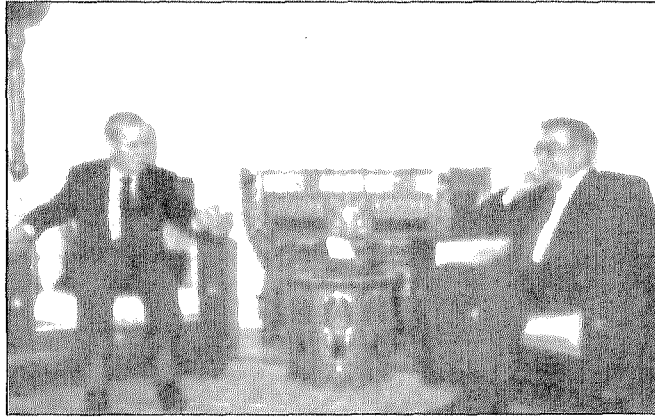
الرئيس السوري حافظ الاسد مستقبلا وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف في دمشق.
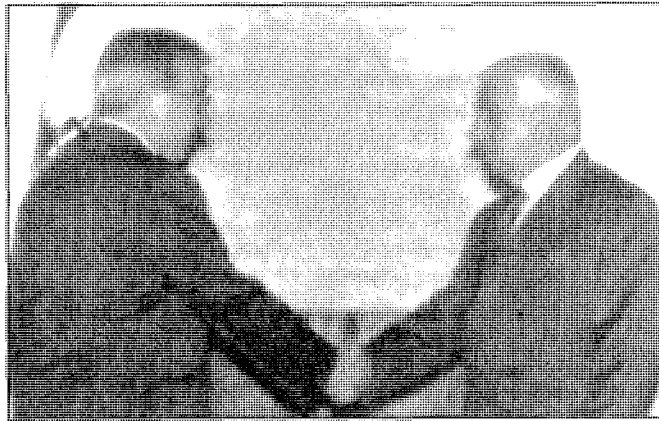
الرئيس اللبناني الياس الهراوي (الى يمين الصورة) مستقبلا الوزير الروسي يفغيني بريماكوف في بيروت.

الوسطى معاهدة تتعلق بالامن الاقليمي. والدول الثلاث التي وقع رؤساؤها المعاهدة هي: كازاخستان (الرئيس نور سلطان نزار باييف)، طاجيكستان (إيمومالي رحمانوف) وقيرغيزستان (عسكر أكاييف). وتنص المعاهدة على «تدابير للامن العسكري» على جانبي الحدود التي تفصل الصين عن روسيا وعن هذه الدول الثلاث تمتد على مسافة ٧٦٤٠كلم، ولا يمكن للدول الموقعة على الاتفاق تحريك قوات فيها إلا بعد ابلاغ الدول الاخرى، كما يجب اطلاع هذه الدول جميعًا على الاسلحة والمدرعات الاساسية في هذه المنطقة. وكان توقيع المعاهدة التي ضمت الدول الخمس في شأن بناء الثقة ذروة زيارة يلتسن للصين.

في ٩ ايار، احتفلت روسيا بذكرى الانتصار في الحرب العالمية الثانية تحت راية «النصر الحمراء» التي اعاد يلتسن الاعتبار إليها في محاولة لكسب اصوات المحاربين القدماء في الانتخابات الرئاسية التي باتت وشيكة، فيما نظم خصومه اليساريون مسيرة شارك فيها عشرات الآلاف من المتظاهرين الذين رفعوا صورة المرشح الشيوعي غينادي زيوغانوف.

وفي الشهر نفسه (ايار)، وفي إطار جولات مكوكية لتسوية النزاع الأرمني-الأذربيجاني أعلن وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف ان وقف الصراع يقتضي ضمان وحدة اراضي أذربيجان ومنح قره باخ «حقوقًا خاصة»، وتمكن من اقناع الطرفين بالافراج عن الأسرى والمحتجزين وفق مبدأ «الكل مقابل الكل». ومنذ تعيينه وزيرًا أكد بريماكوف ان العلاقات مع الجمهوريات السوفياتية السابقة ستكون لها أولوية في السياسة الخارجية الروسية. وقال انه يسعى لاقناع الرئيسين الأذربيجاني والأرمني بتوقيع بيان بتمديد اتفاق وقف النار الذي كان عقد العام الماضي (١٩٩٥) وتسريع المفاوضات السياسية بهدف تحقيق تسوية شاملة.

في ٣ حزيران، عقدت قمة «السلام في القوقاز» في مدينة كيسلوفودسك الروسية، وحضرها رؤساء روسيا وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا الذين وقعوا بيان «الوفاق القومي والسلام والتعاون» في المنطقة. لكن الرؤساء لم يقدموا تصورات عن سبل معالجة الازمات الكثيرة في القوقاز كالنزاع في قره باخ وأبخازيا وأرمينيا، ولكنهم دعوا إلى «جهود مكثفة مشتركة» لاخماد بؤر التوتر.

وجاءت نتائج الانتخابات الرئاسية (حزيران) لتظهر ان يلتسن حصل على نحو ٥٤٪ من الاصوات فيما حصل زيوغانوف على ٤٠٪. واقبلت على الانتخابات نسبة لا تقل عن ٦٧٪ من الناخبين. واستقبل السياسيون في العواصم الغربية نبأ فوز يلتسن بارتياح وترحيب. لكن الوضع الصحي للرئيس الروسي استمر مصدر قلق.

وفي ٤ تموز، استهل يلتسن ولايته الثانية (مدتها أربع سنوات) بتكليف رئيس الوزراء فكتور تشيرنوميردين تشكيل حكومة جديدة، وقال ان هناك «مكانًا للجميع في الفريق الحكومي الجديد». وفي واشنطن، هنأ الرئيس الاميركي بيل كلينتون الروس «لانتصار الديمقراطية» في بلادهم؛ وقال في بيان وزعه البيت الابيض انه «بوسع الشعب الروسي ان يفخر لهذا الانجاز العظيم». وحذا كل قادة الدول الغربية حذو كلينتون. وأجمعت التحليلات والتعليقات التي تناولت الانتخابات الرئاسية الروسية ان يلتسن فاز في الجولة الثانية بفضل أصوات مؤيدي الكسندر ليبيد الذي جاء ترتيبه الثالث في الجولة الاولى. وكسب يلتسن هذه الاصوات بترقية ليبيد، وهو قائد متقاعد في سلاح المظليين، إلى أهم منصب أمني في الكرملين.

بعد يوم من تشكيل الحكومة الجديدة، طلب الجنرال ألكسندر ليبيد الامين العام لمجلس

سليم خان ياندربييف يستعد لمغادرة موسكو بعد انتهاء محادثاته مع يلتسن (٢٧ ايار ١٩٩٦).
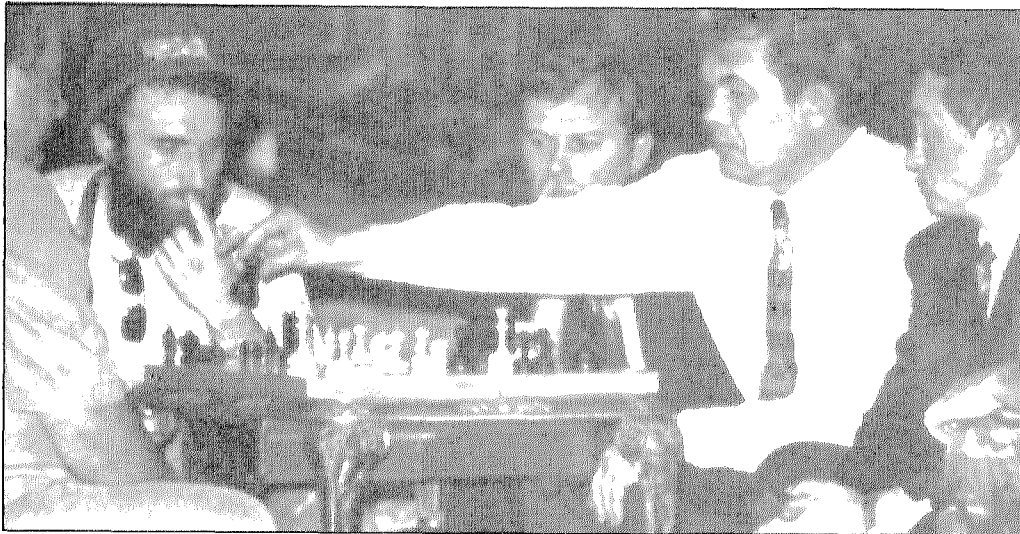
باسايف يلعب الشطرنج مع ليبيد خلال استراحة من المفاوضات بين موسكو وغروزني (آب ١٩٩٦).

من اليمين رئيس مجلس الامن القومي الروسي الجنرال المتقاعد الكسندر ليبيد، ورئيس اركان القوات الانفصالية الجنرال اصلان مسخادوف، يعلنان انتهاء الحرب في شيشانيا (اول ايلول ١٩٩٦).

إمرأة شيشانية تحمل طفلها وتهرب من غروزني (آب ١٩٩٦).
واخرى تحمل رشاشها ووراءها صورة كبيرة للزعيم الشيشاني جوهر دودايف.

الامن القومي الروسي اقالة وزير الداخلية أناتولي كوليكوف بعدما حمّله مسؤولية استمرار الحرب في شيشانيا. وعرض ليبيد علنًا على يلتسن اما ان يختاره أو ان يختار كوليكوف. وكان تأكد لليبيد من خلال محادثاته مع قادة المقاومة الشيشانية ان أوامره لا تأخذ طريقها إلى التنفيذ، وان الوحدات الروسية كانت لا تزال تأتمر بأمرة وزير الداخلية كوليكوف.

وفي اوائل ايلول، حصل ليبيد على دعم كامل من يلتسن لخطته في شيشانيا، ومنحه صلاحيات واسعة. وفيما كان يلتسن يستعد لجراحة في القلب، فإن البدلاء الثلاثة الرئيسيين الذين كانوا يديرون الكرملين هم: رئيس الوزراء فكتور تشيرنوميردين ومدير ادارة الرئاسة أناتولي تشوبايس ورئيس الامن القومي الكسندر ليبيد. لكن مرض يلتسن اثار تساؤلات بشأن شرعية من يقوم بمهمام يلتسن. ويعطي الدستور سلطات كبيرة للرئيس ولا ينص على البدائل الموقتة بخلاف رئيس الوزراء. ووفقًا للدستور، اذا أصبح الرئيس عاجزًا عن القيام بواجباته فإن رئيس الوزراء ينوب عنه، وإذا أصبح الرئيس غير قادر على العمل لفترة طويلة لاسباب صحية يجب اجراء انتخابات جديدة خلال ثلاثة اشهر من اللحظة التي يتوقف فيها عن القيام بمهامه.

في ٣ تشرين الاول، رفض يلتسن استقالة امين عام مجلس الامن القومي ألكسندر ليبيد الذي احتج على إجراء تعديلات في قيادة القوات المسلحة من دون استشارته. واجرى يلتسن حركة تنقلات واسعة في قيادة القوات المسلحة في اجواء تفاقم الصراع في قمة هرم السلطة والحديث عن احتمال تمرد في القوات المسلحة واستفحال المشاكل الاقتصادية والخلافات العنيفة في شأن اتفاق السلام مع الشيشانيين الذي توصل إليه ليبيد، والذي قال عنه وزير الداخلية أناتولي كوليكوف بأنه «صك استسلام وخيانة».

في ٥ تشرين الاول، وفي اجواء احداث «طالبان» الافغانية (وأفغانستان على حدود مشتركة بينها وبين دول سوفياتية سابقة، هي: طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان) وتحذيرها روسيا وأسرة الدول المستقلة من التدخل لمصلحة الجنرال أحمد شاه مسعود، عقد رؤساء أوزبكستان وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان ورئيس الوزراء الروسي فكتور تشيرنوميردين اجتماعًا في العاصمة الكازاخية ألما أتا دعوا فيه الاطراف المتحاربة في أفغانستان إلى وقف القتال والتفاوض لحل المشاكل القائمة، وأكدوا انهم «سيتخذون إجراءات لضمان أمن الحدود الجنوبية لأسرة الدول المستقلة». وحذر بيان صدر في اعقاب الاجتماع من ان الاسرة «تحتفظ بحق اتخاذ إجراءات متكافئة» في حال انتقال الصراع إلى اراضي الجمهوريات السوفياتية السابقة أو إذا اتضح انه «يشكل مساسًا بها». ولمح وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف إلى احتمال نقل قوات روسية لتعزيز المناطق الحدودية في طاجيكستان.

في ٧ تشرين الاول، وأثناء زيارة ليبيد لمقر الحلف الاطلسي في بروكسيل حيث اعلنت المصادر الاطلسية ان الجنرال ليبيد يتفهم انه ليس بوسع روسيا ابداء «معارضة عملية» لتوسيع عضوية الاطلسي شرقًا (ليضم هنغاريا وبولندا وتشيكيا)، رفض يلتسن فكرة استقلال جمهورية شيشانيا، وأكد تمسكه بمبدأ وحدة الاراضي الروسية، فيما شنّ وزير الداخلية أناتولي كوليكوف هجومًا عنيفًا على اتفاقات السلام مع الشيشان (وهذه الاتفاقات كان ليبيد توصل إليها ويعتبر مسؤولاً عنها).

في ١٠ تشرين الاول، أعلن العلماء (اتحاد العلماء الروس) اضرابًا احتجاجًا على ما وصفه بيان اكاديمية العلوم بـ«الكارثة المعيشية» التي يعانون منها، في وقت اصبح «القبضايات

تظاهرة نظمها اتحاد العلماء الروس في موسكو احتجاجا على عدم دفع مرتباتهم.

المرافقون» يمتلكون فيلات في موسكو.

في ١٥ تشرين الاول، استقبل يلتسن، في مصحه بالقرب من موسكو، نظيره التركماني صفر مراد نيازوف، وبحثا، بحضور رئيس الوزراء الروسي تشيرنوميردين، الوضع في أفغانستان. وفي حين رأى الجانب الروسي ضرورة «بذل كل الجهود لتفادي تفاقم الوضع»، شدّد نيازوف على ان النزاع الافغاني «شأن داخلي».

في ١٧ تشرين الاول، أعلن يلتسن عزل رئيس مجلس الامن القومي الجنرال ألكسندر ليبيد من منصبه، وقال وهو يوقّع مرسوم الاقالة: «أبلغت ليبيد ان عليه ان يتعلم العمل مع هيئات أخرى وزعماء آخرين في الدولة، لكنه لم يتعلم الدرس وارتكب في الآونة الاخيرة اخطاء عدة تمّس مصالح الدولة». وسادت حال من التوتر صفوف القوات المسلحة كما قال رئيس الوزراء فكتور تشيرنوميردين الذي طلب تعزيز الامن في محيط المنشآت الحيوية. وذكر ان الاتهامات التي وجهها وزير الداخلية أناتولي كوليكوف إلى ليبيد «صحيحة جزئيًا»، لكنه نفى وجود «تمرد أو عصيان». وانفجرت المعركة بين ليبيد وكوليكوف إثر اعلان الاخير ان رئيس مجلس الامن القومي يعد لانشاء «فيلق روسي» قوامه ٥٠ ألف عنصر من مهماته تصفية قادة المنظمات السياسية والانفصالية. وفي الوقت نفسه، شدّد رئيس الوزراء على تمسك الحكومة الروسية باتفاق السلام في شيشانيا وأكد انه «ليس ورقة في اللعبة السياسية» الدائرة في كواليس السلطة. وقامت وحدات تابعة لهيئة الامن باغلاق مكاتب رئيس مجلس الامن وسحبت القوة المكلفة حراسته. وسخر ليبيد، في مؤتمر صحافي (١٧ تشرين الاول) من هذه الاجراءات وقال إن محاولات كثيرة جرت لاغتياله سابقًا. وأضاف ان روسيا في وضعها الحالي غدت «سيركًا جوالاً» مؤكدًا انه مصمم على الانتقال بها إلى الحضارة قبل السنة ١٩٩٩، وانه سيمارس السياسة ضمن اطر شرعية دستورية. وفي ١٩ تشرين الاول، عين يلتسن الرئيس السابق للبرلمان إيفان ريبكين خلفًا للجنرال ليبيد أمينًا عامًا لمجلس

سكرتير مجلس الامن القومي الروسي ايفان ريبكين (٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٦).

الامن القومي مفوضًا في شيشانيا. وفي أول تصريح صحافي أكد ريبكين ضرورة مواصلة التسوية السلمية في شيشانيا وحذر من «أي مراجعة أو تحريف» لاتفاق السلام. وتزايد التوتر في غروزني (عاصمة شيشانيا) منذ إقالة ليبيد. وبعث تشيرنوميردين برسالة إلى رئيس الحكومة الشيشانية المعينة حديثًا أصلان مسخادوف أكد فيها أن السلطة الفدرالية «لن تستخدم القوة» لمعالجة الوضع في شيشانيا، وطلب «الامتناع عن أية خطوة متسرعة أو تصريح شديد اللهجة»، كما أكد استعداده لـ«حوار بناء» مع رئيس الحكومة الشيشانية، في أول اعتراف ضمني من موسكو بشرعية هياكل السلطة التي أنشأتها المقاومة في شيشانيا.

في ٢١ تشرين الاول، اعلنت نتائج الاقتراع في عدد من المقاطعات التي انتخب محافظون لها سيشغلون بحكم وظائفهم مقاعد في مجلس الفدرالية (الشيوخ) في الدوما (البرلمان الاتحادي)، فحقق «الاتحاد الشعبي للقوى الوطنية» الذي يقوده الشيوعيون أهم نجاح في مقاطعة كورسك التي فاز فيها ألكسندر روتسكوي الذي صوّت له زهاء ٨٠٪ من الناخبين. وفي اليوم نفسه، كشف وزير الدفاع إيغور روديونوف (استلم مهامه قبل نحو ثلاثة أشهر) عن مسألة أثارت الخوف في قلوب الروس من مستقبل بلادهم، مفادها وجود «قوات موازية» تفوق في تعدادها القوات المسلحة ومصادر تمويلها «غير معروفة»، وان تعداد هذه القوات الموازية يتزايد في حين ان القدرة الدفاعية للبلد «في وضع يثير القلق». وأتى هذا الاعلان من وزير الدفاع في وقت سادت تكهنات حول تمرد داخل الجيش الذي يعاني من نقص في التمويل وضعف في التوجيه السياسي في ظل «حرب الجنرالات» التي حمي وطيسها في أعقاب إقالة ألكسندر ليبيد. وإضافة إلى ما كشفه روديونوف، كشف نيكولاي يغوروف (الذي كان أعفي منذ حزيران من منصبه كمدير للديوان الرئاسي) عن نفوذ إبنة بوريس يلتسن تاتيانا وتحالفها مع مدير الديوان الحالي أناتولي تشوبايس ورئيس المؤتمر اليهودي الروسي فلاديمير غوسينسكين وعن سيطرة مجموعة «موست» المالية، التي يملكها رئيس المؤتمر اليهودي، على الكرملين.

في ٢٢ تشرين الاول، أعلنت موسكو ونيودلهي معارضتهما أي تدخل اجنبي في أفغانستان خلال زيارة قام بها وزير الدفاع الروسي إيغور روديونوف إلى الهند. وعبّر البلدان ايضًا عن معارضتهما للقوى الاصولية المتطرفة في المنطقة.

في ٢٤ تشرين الاول، اتفق الرئيسان الروسي والأوكراني (يلتسن وكوتشما) على تسوية مشكلة اسطول البحر الاسود وتوقيع معاهدة شاملة بين البلدين، فيما أصر البرلمان الروسي على رفضه تقسيم الاسطول واعتبر قاعدة سواستبول الواقعة في اوكرانيا جزءًا من الاراضي الروسية.

في ٢٨ تشرين الاول، بدأ وزير الخارجية، يفغيني بريماكوف في دمشق جولة في الشرق الاوسط تستهدف تحريك مفاوضات السلام في المنطقة؛ وموسكو هي أحد راعيي عملية السلام منذ مؤتمر مدريد (١٩٩٢). وحول هذه الزيارة أعيد التذكير بفشل الوزير الروسي، في نيسان (١٩٩٦) في المساهمة بشكل مباشر في التوصل إلى اتفاق وقف النار بين «حزب الله» واسرائيل، كما ان بلاده ليست عضوًا في مجموعة مراقبة الاتفاق، وبأن جولة الرئيس الفرنسي جاك شيراك (التي سبقت بأيام قليلة جولة بريماكوف) في الشرق الاوسط شجعت بريماكوف على القيام بجولته خصوصًا وان ثمة اشارات إلى ان باريس تسعى إلى الحلول مكان موسكو في المنطقة إذ انها (باريس) تشارك في مجموعة مراقبة اتفاق نيسان ويلقى دورها ترحيبًا قويًا من الدول العربية. وفي دمشق، قال بريماكوف إن انطلاق جولته من العاصمة السورية «له أهمية كبيرة جدًا نظرًا لمكانة سورية ولدورها الحيوي والسياسي الكبير الذي يقوم به الرئيس الأسد». وبعد إجرائه محادثات مع الرئيس الاسد ووزير الخارجية السوري فاروق الشرع قال بريماكوف: «لا يجوز ان تستأنف المفاوضات من الورقة البيضاء، ولا بد من تنفيذ الالتزامات التي تعهدت بها الاطراف»، فيما شدّد الوزير الشرع على ضرورة معاودة التفاوض «من النقطة التي وصلت إليها المفاوضات... وان متطلبات السلام واضحة وهناك مرجعية مؤتمر مدريد وأسسه المبنية على قرارات مجلس الامن ومبدأ الارض مقابل السلام». وناقش الوزير الروسي العلاقات بين موسكو ودمشق بما فيها العلاقات الاقتصادية-التجارية. وغادر بريماكوف دمشق إلى بيروت، وأجرى محادثات مع رئيس الجمهورية اللبنانية الياس الهراوي، ورئيس الحكومة رفيق الحريري ووزير الخارجية فارس بويز، مشدّدًا على وجوب «استمرار عملية التسوية بل استمرار النتائج والاتفاقات التي تم التوصل إليها». ومن بيروت غادر إلى مصر (٣٠ تشرين الاول) حيث التقى في مدينة شرم الشيخ الرئيس حسني مبارك بحضور وزير خارجيته عمرو موسى. وأكد مبارك عقب اللقاء ان بامكان روسيا القيام بدور في عملية السلام من خلال مساندة استمرار هذه العملية بالتنسيق مع واشنطن. ومن مصر، انتقل بريماكوف إلى اسرائيل (٣١ تشرين الاول)، وبعد محادثات اجراها مع وزير الخارجية الاسرائيلي ديفيد ليفي، قال هذا الاخير ان «معلومات مهمة جدًا حملها بريماكوف من دول مجاورة»، في حين قال بريماكوف: «لقد لمست خلال محادثاتي التزامًا اسرائيليًا باحترام الاتفاقات التي وقعت في السابق»، مشدّدًا ان مسعى روسيا لدور في عملية السلام لا يعني انها «تحاول اخذ مكان الولايات المتحدة»، لكنه اضاف انه «من الافضل وجود أكثر من وسيط واحد». ومن اسرائيل انتقل إلى غزة-أريحا حيث التقى رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، ثم التقى بعده، في العقبة، الملك حسين ملك الاردن.

في اوائل تشرين الثاني، انفجرت فضيحة سياسية هزت الوسط السياسي في روسيا عقب مطالبة رئيس البرلمان الرئيس يلتسن (الذي يتهيأ لاجراء عملية جراحية) بضرورة إقالة رئيس الادارة الرئاسية أناتولي تشوبايس وإلغاء مرسوم رئاسي يقضي بتعيين بوريس بريزوفسكي في منصب نائب سكرتير مجلس الامن. وبريزوفسكي هذا «رجل نفّذ انقلابًا اعلاميًا مناهضًا لروسيا في قناة

التلفزيون الاولى ويسعى حاليًا إلى التسلل إلى مجال أمن الدولة البالغ الحساسية». واعتبر زعيم الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف و«القوى الوطنية اليسارية» تعيين بريزوفسكي «صفعة لروسيا» وكرر مطالب رئيس البرلمان إقالته. ويسيطر بريزوفسكي (مولود ١٩٤٦) على مؤسسة «لوغافاز» أكبر مجمع لصناعة السيارات في روسيا. كما يملك أكبر حصة من الاسهم في «الشركة العامة للتلفزيون الروسي». وذكرت الصحف ان بريزوفسكي يحمل الجنسية الاسرائيلية إضافة إلى الروسية. وإضافة إلى بريزوفسكي، هناك ايضًا فلاديمير غوسينسكي الذي يملك قناة تلفزيونية ومصرف «موست بنك» ويعتبر أحد كبار رجال المال الروس، ويرأس مؤتمر الجاليات اليهودي في روسيا، والثروة الهائلة التي يملكها، وبريزوفسكي، جزء من «الرأسمال اليهودي» الذي لا يمثل «سوى الجزء الظاهر من القدرات المالية المناهضة لروسيا».

في ٥ تشرين الثاني، أجريت عملية جراحية في قلب الرئيس يلتسن استغرقت سبع ساعات أعلن بعدها الاطباء انها كانت ناجحة. وقبل دخوله غرفة العمليات، وقّع يلتسن مرسومًا قضى بتسليم رئيس الوزراء فكتور تشيرنوميردين صلاحياته بما في ذلك «الحقيبة النووية». وينص الدستور الروسي على ان رئيس الوزراء يتولى مهمات الرئيس في حال عجزه عن أدائها إلى حين استئناف الاخير عمله. وفي حال حصول عجز دائم أو وفاة يتعين إجراء انتخابات رئاسية خلال ٣ أشهر.

في ١٢ تشرين ا لثاني، حذر وزير الدفاع إيغور روديونوف من «عواقب كارثية» بسبب الاوضاع في القوات المسلحة وغياب الاستقرار السياسي والاقتصادي في البلد، فيما طلب الرئيس يلتسن دفع المرتبات المستحقة إلى عناصر «وزارات القوة». وفي الوقت نفسه، وصل إلى غروزني سكرتير مجلس الامن القومي إيفان ريبكين لنقل خطة للتسوية السلمية وموافقة موسكو على إجراء انتخابات رئاسية وبرلمانية في الشيشان (حدّد موعدها مبدئيًا في ٢٧ كانون الثاني ١٩٩٧). ويعني ذلك ان المركز الفدرالي (أي موسكو) ألغى عمليًا صفة «الشرعية» عن دوكو زافغايف الذي كان انتخب رئيسًا لشيشانيا، وكذلك عن البرلمان الموالي له والمدعوم من موسكو. وبذلك تكون موسكو قد تخلت عن موقفها السابق المتمثل في اجراء الانتخابات في شيشانيا بعد نزع سلاح المقاومة. وأعلن ريبكين ان «التشكيلات المسلحة لن تحل إلا بعد معالجة مشكلة توفير فرص العمل» في الجمهورية.

في ١٣ تشرين الثاني، وفي خطاب في «الدوما» (البرلمان) الروسي، أعلن رئيس بيلوروسيا ألكسندر لوكاشينكو انه قد يوقف تفكيك الاسلحة النووية إذا لم يقدم حلف الاطلسي ضمانات بعدم وضع اسلحة مماثلة في دول اوروبا الشرقية التي تنوي الانضمام إليه (وفي حال إقدام مينسك، عاصمة بيلوروسيا، على هذه الخطوة فإنها تكون بذلك انتهكت معاهدات تصفية السلاح النووي في اوروبا). ووقف النواب الروس المعارضون تحية للرئيس البيلوروسي فيما انسحب من قاعة البرلمان زهاء ٧٠ نائبًا يمثلون التيارات الليبرالية. ويوجد في اراضي بيلوروسيا، أكثر من عشرة صواريخ من طراز «س س ٢٠» كانت المعاهدات نصت على نقلها إلى اراضي روسيا قبل نهاية العام الحالي (١٩٩٦).

في ١٤ تشرين الثاني، اعترف نائب سكرتير مجلس الامن القومي بوريس بريزوفسكي بحصوله على الجنسية الاسرائيلية: «انا يهودي (...) ولكل يهودي في روسيا جنسيتان (...) ويمكن في كل لحظة ان أصبح مواطنًا اسرائيليًا». وجرى اعتقاد واسع ان هذا التصريح الاول من نوعه قد يكون مؤشرًا إلى تعاظم نفوذ اللوبي اليهودي في روسيا. وكان بريزوفسكي اشار في

بوريس بريزوفسكي.

حديث صحافي إلى ان «مفاتيح ادارة البلد (روسيا) في يد سبعة من المصرفيين وكبار رجال الاعمال» الذين يسيطرون على ٥٠٪ من الاقتصاد الروسي والجزء الاكبر من وسائل الاعلام. وذكر انه شخصيًا واحد من «السبعة الكبار» إلى جانب رئيس المؤتمر اليهودي الروسي فلاديمير غوسيفسكي وخمسة آخرين منهم واحد فقط روسي والبقية يهود. واشارت صحيفة «أوبشايا غازيتا» إلى ان «السباعي» تجاوز خلافات داخلية واتفق على اتخاذ «قرارات سياسية موحدة» على ان يتولى تنفيذها أناتولي تشوبايس الذي عين بعد الانتخابات الرئاسية مديرًا للديوان الرئاسي وأصبح الحاكم الفعلي (إبان مرض يلتسن) مستغلاً علاقته الحميمة بابنة الرئيس يلتسن الصغرى تاتيانا.

في ٢٣ تشرين الثاني، وقع الرئيس بوريس يلتسن (وكان استعاد صلاحياته بعد يوم واحد من اجرائه العملية الجراحية في قلبه) مرسومًا يقضي بانسحاب جميع القوات الروسية من شيشانيا، فيما وقّع رئيس الوزراء فكتور تشرنوميردين مع الزعيم الشيشاني أصلان مسخادوف اتفاقًا لتنظيم العلاقات بين البلدين. واعتبر زعيم الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف هذا الاتفاق «غير دستوري ويفكك روسيا»، وشبهه باتفاق «بيلوفيسكايا بوشتشا» الذي فكك، في كانون الاول ١٩٩١، الاتحاد السوفياتي. ولوّح برلمانيون شيوعيون بأنهم قد يحاولون عزل الرئيس بسبب هذا المرسوم.

في ٢٨ تشرين الثاني، حذرت وزارة الخارجية الروسية من انها ستقطع العلاقات الدبلوماسية مع أي بلد يسمح بفتح «سفارة شيشانية». واصدرت الوزارة بيانًا علقت فيه على تصريحات رئيس الوزراء الشيشاني أصلان مسخادوف اشار فيها إلى احتمال تحويل الممثليات والمراكز الموجودة في عدد من البلدان إلى سفارات، وسمّى تحديدًا الاردن وتركيا ودول البلطيق. وأكدت الوزارة ان قبول الاطراف المعنية فتح سفارات سوف يعد «خطوة غير ودية» حيال روسيا.

في ٢٩ تشرين الثاني دعا رئيس الوزراء تشيرنوميردين إلى «وقف التوسع الاجرامي»، وذكر ان «المافيا تسيطر على حوالي ٥٠٪ من اقتصاد بلادنا...»، في ما أكد وزير الداخلية أناتولي كوليكوف ان روسيا «أصبحت في طليعة بلدان العالم في نسبة جرائم القتل...».

معالم تاريخية

□ **الاحزاب**:قد تكون روسيا متقدمة على البلدان الاخرى جميعًا من حيث عدد الاحزاب، إذ إن المسجل منها أكثر من ١٥٠٠ منظمة وحركة، شارك منها، في الانتخابات التشريعية (١٩٩٥) أكثر من ٢٥٩ حزبًا. وكانت أهم الكتل والتنظيمات والاحزاب التي شكلت الخريطة الحزبية عشية انتخابات ١٧ كانون الاول ١٩٩٥ (١٠٦ ملايين ناخب على لوائح الشطب لـ ٤٥٠ نائبًا لمجلس الدوما بينهم ٢٢٥ في دوائر فردية و٢٢٥ على قوائم حزبية، وامكانية الوصول إلى البرلمان تقتضي توفير نيف و٥ ملايين صوت أي ٥٪ من العدد الاجمالي):

«بيتنا روسيا»: شكلت هذه الحركة حديثًا واسندت قيادتها إلى رئيس الحكومة فكتور تشيرنوميردين، فسميت حزب السلطة، وتدعو إلى الدولة القوية و«الرأسمالية الوطنية».

«كتلة يسار الوسط»: شكلها إيفان ريبكين وتضم زهاء ٥٠ تنظيمًا صغيرًا. فشلت في استمالة النقابات أو الحزب الزراعي الذي كان ريبكين عضوًا في قيادته قبل إقصائه عنه بسبب مجاهرته بدعمه ليلتسن. وتدعو هذه الكتلة إلى تعزيز «التوجه الاجتماعي».

«الخيار الديمقراطي»: بقيادة إيغور غايدار الذي كان رئيسًا للحكومة الراديكالية الاولى واطلق السياسة الاصلاحية. ولكن حزبه فشل عمليًا في الانتخابات النيابية السابقة رغم دعم يلتسن المباشر له. وحاول غايدار استعادة شعبيته بسبب التدهور الاقتصادي من خلال معارضته الشديدة للحرب الشيشانية. وحقق فعلاً مكاسب في المرحلة الاولى من الحرب، بيد ان انحيازه الواضح إلى الشيشان أدّى إلى نتائج عكسية زادت من عزلته في الشارع الروسي.

«يابلوكو» (التفاحة): زعيم هذه الكتلة غريغوري يافلينسكي، أحد أمهر السياسيين الشبان المنتسبين إلى الجناح الاصلاحي. وهو اقتصادي معروف وضع لغورباتشوف خطة لتطوير وتحديث الكيان الاقتصادي في ٥٠٠ يوم. ظل متمسكًا بافكاره الليبرالية، و لم يتورط في الحكم وظل ينتقد سياسة غايدار على التلكؤ في تطبيق الاصلاحات اولاً، وإهمال الجانب الاجتماعي ثانيًا. ويقدم يافلينسكي نفسه كممثل للطبقة الوسطى التي يدعو إلى توسيعها ويشير إلى انه إذا شكل حكومة في روسيا سيعمل على تعزيز الملكية الخاصة وتوفير الحرية السياسية. وفي مؤتمر الكتلة الانتخابي اشار إلى ان الدولة حينما تكون قادرة على خوض حرب في الشيشان وتعجز عن طبع الكتب إنما «تقود إلى الانهيار».

في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٦، عقدت «يابلوكو» مؤتمرًا تقرر فيه تحويل الحركة إلى تنظيم باسم «الحزب المدني الفدرالي».

وأيد زعيم الكتلة (التي أصبحت «الحزب المدني الفدرالي»)، يافلينسكي، اتفاقية السلام التي عقدتها الحكومة مع شيشانيا. لكنه انتقد «دولة الأوليغارشيا» التي قال إن السلطة التي تحكمها «لا تعتنق أي مبادىء وليس لها أي برنامج ايديولوجي»؛ واعتبر ان الفساد المستشري في القيادات بلغ حدًا جعل السلطة عاجزة عن تنفيذ أي برنامج اقتصادي. ودعا إلى توحيد المعارضة غير الشيوعية لمجابهة «نظام المجرمين أو النظام شبه الفاشي الذي يمكن ان يخلفه». وشارك في مؤتمر «يابلوكو» الرئيس السوفياتي السابق ميخائيل غورباتشوف وعدد من قادة الاحزاب الاصلاحية المعتدلة.

الشيوعيون: بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، انفرطت الحركة الشيوعية وشكلت تياراتها المختلفة أكثر من عشر تنظيمات أهمها الحزب الشيوعي لروسيا الاتحادية بقيادة غينادي

زيوغانوف وحزب العمال الشيوعي الروسي. معظم انصار الحزب الشيوعي الذي يقوده غينادي من المتقدمين في السن والمراهنين على انه «منقذ روسيا»، ويوافقهم على ذلك كثيرون من العاملين في مصانع الدفاع وقسم من ضباط الجيش واجهزة الامن والموظفون الحزبيون السابقون، وذلك أملاً في إحياء الدولة العظمى (الاتحاد السوفياتي). لكن زيوغانوف حمل بشدة على «شيوعيي الكهوف» مؤكدًا انه لن يتراجع عن «تحولات السوق» في حال استلامه السلطة.

«إلى الامام روسيا»: كتلة يتزعمها بوريس تيودروف النائب السابق لرئيس الوزراء السابق غايدار وحليفه في «خيار روسيا». ثمة قواسم مشتركة تجمع بينه وبين زعيم «يابلوكو» في الدعوة إلى اقتصاد السوق. تحوله عن أفكاره باعد بينه وبين غايدار، إذ إنه احذ يدعو إلى دولة روسية قوية.

الزراعيون: الحزب الاقرب إلى الشيوعيين وسندهم في الريف. وقد اتفق الحزبان على التنسيق في الدوائر الفردية. ويطرح الزراعيون برنامجًا مماثلاً للشيوعيين في دعوتهم إلى تدخل الدولة في تنظيم الاسعار واعادة بناء «سلطة الكادحين» والغاء اتفاقية بيلوفيجسك التي انهت وجود الاتحاد السوفياتي. ويصف الشيوعيون والزراعيون النظام الحالي بأنه «حزب الخيانة الوطنية» ويطالبون بتغيير جذري بيد انهم لا يرفضون الملكية الخاصة كواحد من أسس النظام الاقتصادي.

«السلطة للشعب»: يتزعم هذه الكتلة نيقولاي ريجكوف رئيس الحكومة السوفياتية الذي عُزل في عهد غورباتشوف واتهم بـ«اعاقة الاصلاحات». ريجكوف قريب من الشيوعيين والزراعيين. ويركز على ضرورة الجمع بين التخطيط المركزي وتدخل الدولة في الاقتصاد من جهة، واطلاق المبادرة من جهة أخرى. وتستند الكتلة تنظيميًا إلى «الاتحاد الوطني الروسي» الذي أسسه النائب سيرغي بابورين المعروف بافكاره القومية.

«مؤتمر الجاليات الروسية»: شكلت هذه المنظمة، بداية، للدفاع عن ٢٥ مليون روسي يسكنون الجمهوريات السوفياتية السابقة؛ بيد انها تحولت تدريجيًا إلى قاعدة لحركة سياسية قادها يوري سكوكوف سكرتير مجلس الامن القومي سابقًا وأحد أقرب مساعدي يلتسن. وتعززت الحركة بعد ان انضم إليها الجنرال ألكسندر ليبيد الذي أقصي عن قيادة الجيش الرابع عشر إثر حملاته العنيفة ضد وزير الدفاع بافل غراتشوف. وزاد من أهمية الكتلة انضمام سيرغي غلازييف رئيس لجنة الشوون الاقتصادية في البرلمان وأحد أبرز المرشحين لرئاسة حكومة قادمة. وطرح سكوكوف فكرة «الجمع بين المثل الروسية والمنجزات التكنولوجية الحديثة» في دعوة صريحة إلى العودة إلى الفكرة القومية في اسلوب جديد.

«الحزب الديمقراطي الليبرالي»: يتزعمه فلاديمير جيرينوفسكي، قومي متطرف. حقق انتصارًا كاسحًا في انتخابات ١٩٩٣، وتراجع بشكل كبير في انتخابات ١٧ كانون الاول ١٩٩٥.

«ديرجافا» (الدولة العظمى): تنظيم شكله ألكسندر روتسكوي. غدا المنافس الأكبر لحزب جيرينوفسكي برفعه شعار «إحياء روسيا العظمى في حدودها الطبيعية»، أي العودة إلى الاتحاد السوفياتي والامبراطورية القيصرية. حمل روتسكوي بشدة على «زعماء الصالونات» الذين قال انهم شقوا وحدة المعارضة. اكتسب هالة كبرى عندما صمد في مبنى البرلمان اثناء قصفه بالقنابل في خريف ١٩٩٣.

«الحزب الاشتراكي الديمقراطي»: انشق، بقيادة فاسيلي ليبيتسكي، عن «ديرجافا» وروتسكوي. متحالف مع المارشال شابوشنيكوف وزعيم حركة الاصلاح الديمقراطي غافرييل بوبوف

بطروحات اشتراكية فضفاضة.

«**حزب الصناعيين**»: يضم كبار مدراء المصانع ويقوده فلاديمير شيرباكوف نائب رئيس الوزراء السوفياتي واركادي فولسكي رجل المهمات الصعبة في قره باخ والشيشان. نجح هذا الحزب في استمالة «اتحاد النقابات» في انتخابات ١٧ كانون الاول ١٩٩٥ حيث شكلت التنظيمات كتلة انتخابية موحدة.

«**نساء روسيا**»: تجمع متقارب مع كتل الوسط، رفض الانضمام إلى حزب السلطة رغم ان زعيمته في البرلمان كاترينا لاخوف كانت من أشد انصار يلتسن.

«**الوطن**»: تنظيم يتزعمه جنرال المخابرات ألكسندر ستيرليفون التي انضمت إليها جمعية ضباط عموم روسيا بقيادة الجنرال فلاديسلاف اتشالوف وزير الدفاع في «حكومة البرلمان» التي شكلت اثناء المجابهة مع الرئيس في ١٩٩٣.

«**اتحاد مسلمي روسيا**»: أنشيء حديثًا، وبهدف انتخابي كمرحلة اولى. اعترض عليه أليكسي الثاني بطريرك موسكو وعموم روسيا وحذّر من اقحام الدين في السياسة واعرب عن مخاوفه من احتمالات مجابهة بين أكبر طائفتين في روسيا وهما الارثوذكسية والاسلام.

□ **الأشراف الروس**: طبقة اجتماعية يقال لها بالروسية دفوريانستفو Dvorianstvo، وتعني «طبقة الأشراف المالكين للارض». وافراد هذه الطبقة متحدرون من رفاق وانصار الامراء الفاريغ Varegues الذين هم من اصل نورماندي قدموا إلى البلاد في القرن التاسع، ومن القادة العسكريين القادمين من بولندا وليتوانيا وهنغاريا والمانيا وايطاليا، ومن البكاوات التتار الذين هزمهم الروس فاصبحوا في خدمة البلاط في موسكو، وكذلك من بعض الروس الانقياء من تجار وحرفيين ومزارعين.

وكان الاشراف Dvorianes يستلمون اراضيهم Pomestias من الأمير. بعض العائلات الاقطاعية تمكنت من تشكيل طبقة أوليغارشية حاكمة من حول العرش. وقد أطلق على افراد هذه العائلات إسم بويار Boyard. وكان كبار الامراء، ثم القياصرة، يختارون زوجاتهم من طبقة البويار أو الدوفوريان. كان بطرس الاكبر يجنّد من الدفوريان غالبية الشباب الذين كان يرسلهم إلى الخارج (وآخر امراء البويار، الامير إيفان تروبتزكوي، مات في ١٧٥٠). وشكل من حوله طبقة من الذين قدموا خدمات جليلة للدولة، ولمكافأة البعض منهم منحهم ألقابًا اجنبية (مثل: بارون، كونت، امير) بعد ان طلب إجازة باستعمال هذه الالقاب من الامبراطور الالماني.

وكان التشريع الخاص بطبقة الاشراف يخضع لتعديلات مع كل عهد قيصري. والنظام الذي وضعته كاترين الثانية في ٢١ نيسان ١٧٨٥ استمر معمولاً به حتى الثورة البلشفية في ١٩١٧. فكان الاشراف، بموجب هذا التنظيم، مقسمين إلى ست مجموعات، وكل مجموعة مسجلة في سجل نسبها الشريف في كل مقاطعة روسية وتحت سلطة مارشال المجموعة الشريفة يعاونه ٦ نواب في المقاطعة. المجموعة الاولى هي طبقة الاشراف الحديثة التي منحت اللقب بموجب شهادات براءة أو مراسيم قيصرية. المجموعة الثانية هي طبقة الاشراف العسكرية. المجموعة الثالثة، اكتسبت لقبها بفضل خدمات مدنية. المجموعة الرابعة هي طبقة الاشراف الاجنبية. المجموعة الخامسة هي التي يحمل افرادها لقب امير أو كونت أو بارون، وهذه الالقاب صدرت بموجب شهادات براءة. المجموعة السادسة هي طبقة الاشراف القديمة المؤلفة من النبلاء الذين يمكنهم إثبات انتسابهم إلى هذه الطبقة قبل ١٦٨٥، أي ان تكون اسماء أجدادهم مسجلة على قطعة مخملية بدأ بالعمل بها إيفان الثالث واستمرت مع إيفان الرابع (من ١٤٦٢ إلى ١٥٣٣).

في العـام ١٧٦٢، كـان تعـداد طبقـة الاشراف (أو النبلاء) ٥٦٠ ألفًا من مجموع نحو ٢١ مليون نسمة. وفي العام ١٧٩٥، اصبح العدد ٦٠٠ ألف وكان يضم عددًا من النبلاء البولنديين بعد تقسيم بولندا الثالث. وفي العام ١٩١٧، أصبح العدد نحو مليون و٩٠٠ ألف.

أبطلت الثورة البلشفية جميع القاب هذه الطبقة ابتداء من ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٧. واستمر شخص روسي واحد يحمل لقب «كونت» ويناديه به الجميع حتى جوزف ستالين وهو الاديب المعروف، تولستوي (١٨٨٣-١٩٤٥). وفي خارج الاتحاد السوفياتي، منح بعض الفارين من العائلة القيصرية وطبقة النبلاء لقب «غراندوق».

□ **ألمان الفولغا:** هم الألمان الذين استقدمتهم كاترين الثانية (وهي اميرة المانية، زوجة القيصر بطرس الثالث) بين ١٧٦٤ و١٧٧٣ وأسكنتهم مناطق الفولغا الواطئة. في ١٩٢١، هاجر منهم نحو ٧٥ ألفًا إلى الولايات المتحدة الاميركية. في ١٩٢٤، شكلوا جمهورية في إطار الاتحاد السوفياتي، عاصمتها بوكروفسك Pokrowsk (وكانت تدعى قبلاً إنغلز)، ومساحتها ٢٨ ألفًا و٢١٢كلم م.، وعدد سكانها نحو ٥٨٨ ألفًا، منهم ٦٦،٥٪ من الألمان، و٢٠،٤٪ من الروس، و١١،٩٪ من الاوكرانيين. في ١٩٤١، تم تهجير نحو ٤٧٪ منهم إلى كازاخستان، وحلّت جمهوريتهم. في ٢٩ آب ١٩٦٤، صدر مرسوم يقضي برد الاعتبار إليهم. في ١٩٨٧، هاجر نحو ١١ ألفًا إلى المانيا الاتحادية، ثم هاجر، حتى آخر ١٩٩١، نحو ٢٥٠ ألفًا آخرين؛ كما هاجر ٥ آلاف إلى كونيغسبرغ Konigsberg (وهي جيب روسي مساحته ١٥ ألف كلم م. ويقع بين بولندا وليتوانيا، وكان قد أصبح سوفياتيًا ابتداء من ٤ تموز ١٩٤٦). وثمة اقتراح بانشاء جمهورية بلطيقية رابعة في هذا الجيب تحمل إسم كانتغراد (الفيلسوف الالماني كانت Kant ولد هناك في ١٧٢٤).

□ **الجيش الروسي:** بعد انهيار الاتحاد السوفياتي اضطرت روسيا إلى مراجعة كل نظرياتها العسكرية لاسباب عدة من أبرزها اختلال هيكلية القوات المسلحة. فقد كانت في الدولة الموحدة ١٦ منطقة عسكرية تبقى منها ٨ في روسيا، علمًا ان خيرة القطعات ظلت في الدولة المستقلة حديثا (روسيا) والتي كانت على حدود الدولة. وفقدت موسكو ١٣ جيشًا وفيلقًا للمشاة و٤ جيوش مدرعة وجيشين من قوات الصواريخ و٣ جيوش للدفاع الجوي و٥ جيوش جوية وكميات هائلة من احتياط السلاح والذخيرة. وظلت لدى روسيا قوات «الخط الثاني» اساسًا والتي تحولت إلى خط امامي حدودي. ونقلت قواعد الاحتياط الاستراتيجي إلى الاورال وحوض الفولغا.

ويدور الآن (١٩٩٦) نقاش عن العدد الامثل للقوات ويطالب عدد من القيادات العسكرية بأن يكون تعداد الجيش ٢،٢ مليون فيما يقول المعارضون ان على روسيا في وضعها الحالي الاكتفاء بمليون عنصر (العدد الحالي زهاء ١،٩ مليون).

وثمة خلاف على مدى جاهزية القوات المسلحة. وذكر الجنرال ألكسندر ليبيد (ايار ١٩٩٦) ان الجاهزية «بلغت حدّ الخطر» وأشار إلى انه لا توجد وحدات مستعدة فعلاً بين قوات المشاة، اما الاسطول فانه «يتفسخ واقفًا» والطائرات لا تحلق بسبب شحة الوقود ولا تصل معدات جديدة إلى الجيش. وهو يعزو اسباب ذلك إلى الازمة الاقتصادية الناجمة عن اصلاحات غير مدروسة وإلى «خيانة المصالح الوطنية والتحطيم المتعمد» للمعنويات في القوات المسلحة.

أما الجنرال بوريس غروموف قائد القوات السوفياتية في أفغانستان ونائب وزير الدفاع سابقًا، فقد أكد في حديث إلى صحيفة «موسكوفسكي كموسمولتس» ان الجيش «تمكن من المحافظة على نفسه كهيكل فقط»، وحمّل القيادة العسكرية المسؤولية بوصفها «غير مؤهلة»، وتحدث ايضًا عن نقص التمويل.

ويشير المراقبون والاعلاميون إلى ان الجيش مصاب بكل امراض المجتمع الروسي. ومنها الفساد. فقد ذكرت صحيفة «برافدا» المعارضة ان ٢٥٠ فيلا شيدت في ضواحي موسكو لقيادات الجيش. وكانت كلفة كل منها ٦٥٠-٧٠٠ ألف دولار في حين ان الجنرال يتقاضى شهريًا زهاء ٣٠٠ دولار. وأصبحت سرقة الممتلكات وحتى الاسلحة وبيعها ظاهرة شائعة ووسيلة يلجأ إليها الضباط احيانًا للـ«تعويض» عن الرواتب الضئيلة.

ويذكر ان النفقات العسكرية في روسيا تبلغ ما يعادل ١٧ بليون دولار في حين ان الرقم يصل، في الولايات المتحدة، إلى ٢٥٠ بليونًا، وفي فرنسا إلى ٤٣، ويبلغ في بريطانيا ٣٤ بليونًا.

ويرى الخبراء ان مشاكل تمويل القوات المسلحة واصلاحها من بين أهم القضايا التي تواجهها روسيا. واشارت مجلة «الفكر العسكري» إلى ان تعداد القوات المسلحة لا يمكن ان يتعدى ٦٠٠-٧٠٠ ألف في حال إنفاق ٥٪ من الناتج الوطني الاجمالي على الاغراض العسكرية، في حين ان مبلغًا مماثلاً يصرف حاليًا لادامة جيش قوامه زهاء مليون عنصر إضافة إلى قرابة ١،٨ مليون عنصر في قوات الامن الداخلي والحدود.

وبسبب تردي الاوضاع الاقتصادية انخفض عدد الطائرات في سلاح الجو من قرابة ١١ ألفًا إلى ٦ آلاف حاليًا بينها ٢٥٠٠ فقط جاهزة للقتال. وثمة معدات كثيرة معطلة بسبب شحة قطع الغيار والوقود. وبفضل نقص البنزين لا يتدرب الطيار الروسي أكثر من ٣٠-٤٠ ساعة سنويًا فيما ينبغي ان تصل ساعات التحليق إلى ١٨٠-٢٤٠ سنويًا.

وفي حديث إلى صحيفة «النجم الاحمر» الناطقة باسم وزارة الدفاع ذكر فياتشيسلاف فوروبيوف كبير مهندسي قوات الدفاع الجوي ان الانفاق الحالي على سلاح الطيران يشكل ١٢-١٥٪ من احتياجاته. واضاف ان استمرار هذا الوضع سيؤدي إلى «فقدان الجاهزية القتالية بالكامل» في افواج «ميغ ٣١»، و«سوخوي ٢٧» قبل حلول السنة ٢٠٠٠.

وفي تصريح إلى صحيفة «نيزافيسيمايا غازيتا» اشار الجنرال فيتالي بافلوف قائد سلاح الجو التابع للقوات البرية إلى ان وحداته كانت في الماضي تحصل على ٦٠-٧٠ طائرة مقاتلة كل عام، اما الآن فإن حاجتها تبلغ ٣٠-٤٠. ولكنها تحصل فقط على ٨ طائرات هليكوبتر للنقل وطائرتي هليكوبتر من طراز «القرش الاسود» تصلحان للقتال في كل سنة.

وثمة صورة مماثلة في القوات البرية التي يقول نائب قائدها العام سيرغي مايف ان معداتها تستهلك بمعدل ٧-٨٪ سنويًا. وهناك نقص نسبته ٤٠-٦٠٪ بالنسبة إلى عدد من الآليات. وقد يكون حال الاسطول هو الأسوأ. ففي السنوات الثلاث الاخيرة تقلص عدد السفن بنسبة ٤٢٪ وطائرات الهليكوبتر التابعة له ٤٥٪ وطائراته ٦١٪ وغواصاته ٥٠٪. وبسبب نقص التمويل لا يجري عمليًا أي تحديث للاسطول وثمة ٤٠-٥٠٪ من السفن بحاجة إلى تصليح (يوري تيسوفسكي، «الحياة»، تاريخ ١٢ ايار ١٩٩٦، ص ١).

وقد يكون أقسى ما اصاب الجيش الروسي من «هزائم ذاتية» (إذا صحّ التعبير)، إضافة إلى ما ذكره المقال السابق لمامًا خلال الأشهر التي تلت كتابته ونشره (ايار ١٩٩٦) حتى اليوم (اواسط تشرين الثاني ١٩٩٦) هو ما بدأت الصحافة الروسية والعالمية تتناوله حول «القوات المسلحة الموازية» التي تفوق في تعدادها الجيش والاسطول

ولا «يعرف احد مصادر تمويلها التي تقتطع من ابواب خفية في الموازنة أو خارجها... وهذه الهياكل شبه السرية كانت وراء قيام طائرات مجهولة الهوية بقصف مدن شيشانية، كما ان كيانات مثيلة لها موجودة في الحواضر الروسية ذاتها تحت يافطات مختلفة ابتداء من جهاز الحماية الرئاسي الذي يضم ٣٩ ألف عنصر وانتهاء بحراس رئيس مؤسسة «موست» المالية فلاديمير غوسينسكي الذي يتوقف المرور عند عبوره بسرعة في شوارع العاصمة...».

□ **الديكابريون:** راجع «سان بطرسبورغ» في باب مدن ومعالم.

□ **فساد وإفساد وأوضاع اجتماعية:** كمّ هائل من الانباء والتعليقات والتحقيقات، موثّق اغلبه ومستند إلى استصراح مسؤولين وإلى تقارير واحصاءات رسمية، بدأت تنقله وتتناقله وسائل الاعلام الروسية والعالمية بعد أشهر قليلة من انهيار الاتحاد السوفياتي، احتلت منه المافيات الروسية الحيز الأكبر. نكتفي بايراد عناوين دالّة:

– منذ اواخر ١٩٩٢: كان زعماء عصابات الجريمة السرية يفضلون البقاء في الظل. اما اليوم، فلم يعودوا يجدون حرجًا في الظهور علنا برفقة حراسهم المسلحين. يعرفهم البوليس. لكن عندما يحاول المحققون إقامة دعوى جنائية ضد احدهم سرعان ما تظهر في طريقهم عوائق غير متوقعة وتنهار الدعوى لعدم كفاية الأدلة.

– كان جيل الروس الذي تزامن شبابه مع الستينات لا يعلم شيئًا عن المخدرات، وكان عدد المدمنين ضئيلاً جدًا. لكن منذ بدء البيريسترويكا (١٩٨٥) أخذ عدد المدمنين في التنامي المطرد. وبعد أن ألغى البرلمان الروسي في ١٩٩١ المادة التي تنص على العقوبة الجنائية لقاء تعاطي المخدرات قفز عدد المدمنين ليبلغ ١،٥ مليون شخص. وفي اواخر ١٩٩٢، وصل هذا الرقم إلى ٧ ملايين، وتتحدث احصاءات هذا العام (١٩٩٦) عن عشرات الملايين.

– إن أربعة أخماس مجمل الهيروين الذي يستهلك اليوم (اوائل ١٩٩٣) في الدول الاوروبية تصل إليها من اراضي الاتحاد السوفياتي السابق.

– أقيمت مئات من المختبرات السرية في كل انحاء البلاد، وينجذب للعمل فيها اختصاصيون كيماويون وجدوا انفسهم بعد موجة التسريح على حافة الفقر، وطلبة من كليات الكيمياء يخافون البطالة.

– يتحدر أكثر من ٨٠٪ من تجار المخدرات في روسيا من اصول قوقازية، وتتشكل مجموعاتهم (التي قسمت مجالات النفوذ بينها) على اساس الانتماءات القومية. ومن بين عدد كبير من عصابات المخدرات اثنتان كبيرتان: شيشانية وجورجية. بيد ان المافيا الأذربيجانية تعتبر الأكثر تشعبًا وقوة، إذ تضم ١٠–١٥ ألف مجرم، يصلون إلى موسكو بشكل مجموعات صغيرة.

– بعد ان اصبح موضوع غسل «الاموال القذرة» المتأتية من المخدرات محل اهتمام بالغ في الولايات المتحدة، وتألفت في ١٩٨٢ لجنة خاصة بدراسته برئاسة نائب الرئيس جورج بوش، وأمسى في الغرب عملية صعبة بعد فضائح صاخبة، جاء تحرير الاقتصاد الروسي الذي جرى في جو من الفوضى القانونية وفساد السلطات ليوفر ظروفًا مثالية لاكساب الشرعية بسرعة فائقة على المداخيل غير الشرعية المتأتية من تداول المخدرات (هذه الظروف كانت وراء موجة من اغتيالات طالت اصحاب البنوك في موسكو وسان بطرسبورغ وغيرهما من المدن الروسية في ١٩٩٣).

– جاء في تقرير لوزارة الداخلية الروسية (أذيع في ١٢ آذار ١٩٩٤) ان الاجرام المنظم يسيطر على أكثر من ٣٥٪ من حجم الاعمال

التجارية في روسيا، وان جماعات المافيا زادت بمقدار الثلث في ١٩٩٣ بالمقارنة مع ١٩٩٢، وان نحو ١٥٠ منظمة اجرامية تسيطر على نحو ٦ آلاف جماعة صغيرة في روسيا، وان قوات الامن نجحت في اعتقال ١١٤٠٠ مسؤول وعضو في منظمات اجرامية.

– في كل ١٨ دقيقة ترتكب في روسيا جريمة قتل أو محاولة قتل (إحصاءات وضعت في ١٩٩٤). «هذا من عمل المافيا»، عبارة جديدة أصبحت أكثر العبارات ترديدًا على ألسنة الروس. في آب ١٩٩٤، أشارت تقارير الشرطة إلى انه ارتكبت ضد الاجانب في موسكو ١٤٢٠ جريمة، منها ١٦ جريمة قتل، ووضعت وزارة الداخلية مفكرة خاصة للاجانب تحذرهم من الخدمات العارضة وعدم عقد صفقات تجارية مع رجال اعمال روس غير معروفين كثيرًا وتجهيز سياراتهم باشارات إنذار وغير ذلك... ويستأجر عدد من الاجانب في موسكو حراسًا شخصيين لحمايتهم وغالبًا ما يستخدمون لهذا الغرض ضباطًا سابقين من المديرية التاسعة (جهاز الحماية) في وزارة أمن الدولة (كي.جي.بي. سابقًا).

– في آذار ١٩٩٥، اشار غينادي ميليكان وزير العمل إلى ان ٢٢ مليون مواطن (٢١٪ من السكان) يعيشون دون حد الفقر (وكان العدد ٤٧ مليونًا في ١٩٩٣). أما العاملون فالكثير منهم لا يتقاضون أجورهم لأشهر عدة أحيانًا، والديون المترتبة على الدولة في ٣٧ ألف مؤسسة زادت على ٥٥٠٠ بليون روبل في شهر شباط ١٩٩٥، أي أكثر بـ٢٤٪ عما في الشهر السابق. وقدر الخبراء ان عدد العاطلين عن العمل نحو ١٠ ملايين. وأجرى معهد دراسة الرأي العام في روسيا استطلاعًا اعطى النتائج التالية: ٨٣٪ وضعوا ارتفاع الاسعار في طليعة الهموم والمخاوف، فيما احتلت الجريمة المرتبة الثانية ٥٨٪، وبعدها هبوط الانتاج ٥٠٪، ولم يعرب سوى ١٢٪ عن اهتمامهم بالقضايا السياسية.

– أكثر الاوضاع الاجتماعية التي تعيشها روسيا مأساة هي تلك المتصلة بالاطفال. ففي اواسط ١٩٩٣، أعلن ان ١٥٠٠ امرأة روسية يقتلن وليدهن كل سنة، وان مثل هذه الجرائم بدأ يتزايد منذ ١٩٨٦، وارتفعت نسبة ما يكشف منها ٢٠٠٪؛ وعجز الام القاتلة عن إعالة الطفل يشكل أهم بواعث الاقدام على هذه الجريمة. وثمة ظاهرة أخرى لم يكن لها وجود في ايام الاتحاد السوفياتي، وهي ظاهرة عمل الصغار والمراهقين، إذ افادت احصاءات ان ٧٠٪ من تلاميذ المدارس لديهم دخل دائم مصدره عملهم (غسل السيارات، بيع العلكة، العمل في المتاجر...)، لكن مصدره لدى ٣٩٪ منهم هو السرقة وعمليات النصب والسطو. وتضطر الاسرة المتوسطة إلى انفاق نحو ١٠٠ ألف روبل لتحضير الطفل لدخول المدرسة علمًا ان المعدل الشهري للاجور هو ٣٢ ألف روبل. وكان في دور الايتام (في ١٩٩٥) ٢٩٣ ألف طفل ما زال آباء ٩٥٪ منهم وامهاتهم احياء لكنهم رفضوا رعايتهم لاسباب مختلفة، أهمها العجز عن الاعالة. وتتحدث الصحف احيانًا عن مافيات لبيع الاطفال.

– في المقابل، نمت طبقة من الاثرياء الجدد بسرعة مذهلة جعلت من موسكو منافسة لكبريات العواصم العالمية لجهة عدد السيارات الفخمة (رولز رويس ومرسيدس ٦٠٠ التي تذكر الصحف ان عدد ما بيع منها في روسيا زاد على العدد الاجمالي للمبيعات في اوروبا الغربية كلها) ومبيعات الجواهر من ذهب والماس والتحف ومختلف الكماليات... وبناء الفيلات... إضافة إلى شراء العقارات خارج روسيا وبصورة خاصة في لندن (في ١٩٩٤، اشترى الأثرياء الروس عقارات في لندن وحدها بمبلغ ٥٠ مليون جنيه)... كل ذلك فيما يبلغ الدخل الشهري المتوسط للمواطن الروسي ٧٧ دولارًا.

□ **قوانين ١٨٨٢**: هي القوانين التي أصدرتها الحكومة الروسية (بصفة قوانين مؤقتة) في ايار ١٨٨٢ وخاصة باليهود بعد فشل محاولات دمجهم اقتصاديًا وحضاريًا في المجتمع الروسي. وبمقتضى هذه القوانين حظر على اليهود ان يعيشوا في المدن الرئيسية أو يمتلكوا أي عقار إلا في منطقة الاستيطان اليهودي في روسيا (راجع «بيروبيدجان» في باب روسيا الاتحادية). وقد زادت هذه القوانين من هجرة اليهود الروس إلى الولايات المتحدة. وشجعت الافكار الصهيونية بشكل كبير ودفعت باليهود إلى بداية الهجرة إلى فلسطين. وقد ظلت قوانين ايار ١٨٨٢ (المؤقتة) نافذة المفعول حتى ١٩١٥ حين علق العمل بها، وتمّ إلغاؤها رسميًا في ١٩١٧ على اثر قيام الثورة البلشفية.

□ **كلاشنيكوف Kalashnikov**: هو إسم جندي روسي اشترك في القتال الذي دار على الجبهة السوفياتية-الالمانية في ١٩٤١ وجرح أثناءه، وعزا مع كثيرين من الجنود الروس، الهزائم التي منيت بها بلادهم في المرحلة الاولى من القتال إلى (من بين اسباب عدة) سوء التسلح إذ ان الروس كانوا يحملون بنادق مقابل رشاشات لدى الالمان. و«كلاشنيكوف» هو إسم الرشاش الذي وضع تصميمه ونفذه الجندي كلاشنيكوف، وهو الاسم الذي بات معروفًا عالميًا، خاصة في الستينات والسبعينات والثمانينات بسبب استعمال «الثوار» لهذا السلاح، و«جيوش التحرير» واحيانًا «الجيوش النظامية» في كثير من البلدان، خاصة في العالم الثالث.

بدأ كلاشنيكوف، وهو يعالج في المستشفى (١٩٤١) يرسم مخططًا لرشاش على رغم انه لم يكن قد عمل سابقًا في تصميم السلاح أو انتاجه. وأثناء منحه إجازة نقاهة لمدة شهر عاد إلى عنابر السكك الحديد التي كان يعمل فيها قبل الحرب ميكانيكيًا. ووافق مدير الورشة على صنع رشاش نقله كلاشنيكوف إلى العاصمة الكازاخية ألما أتا حيث عرضه على خبراء في السلاح وجدوا فيه نواقص عدة ولكنهم نصحوا بمواصلة العمل. وانتقل كلاشنيكوف إلى معهد سري متخصص بصنع السلاح قرب موسكو حيث اطلع على اسرار المهنة وعرف تفاصيلها. وفي ١٩٤٣، بدأ تصميم رشاش AK٤٧ الذي عرف باسمه في ما بعد. لكن السلاح لم ينجز إلا بعد اربع سنوات. وبدأ الاتحاد السوفياتي بصنعه. وقد أنتج منه حتى ١٩٩٤ نحو ٧٥ مليون قطعة.

زار كلاشنيكوف الولايات المتحدة في ١٩٩٠ حيث استقبل كنجم شهير ووزعت قمصان عليها صورته ونماذج مصغرة من رشاشه، والتقى بزميله الاميركي ستونير مصمم البندقية الآلية MK. في تشرين الثاني ١٩٩٤، زاره الرئيس الروسي بوريس يلتسن في إيجيفسك في الاورال حيث يقيم، وهنأه بعيد ميلاده الخامس والسبعين.

□ **كولاك Koulak**: كلمة روسية تعني «القبضة» وتطلق على طبقة المزارعين المترفين الذين يمتلكون الارض بقبضتهم. ذلك ان القطاع الزراعي في روسيا القيصرية كان ملكًا لثلاث طبقات: طبقة الملاك العقاريين التي كانت تملك مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية. ففي اواخر عهد القيصر نقولا الثاني كان حوالي ٣٠ الفًا فقط من الملاك العقاريين يملكون حوالي ١٠ ملايين هكتار بينما كان ١٠ ملايين مزارع يملكون ٧٥ مليون هكتار. ويُسمى هذا القسم الأخير من الاراضي بـ«مير» Mir. ويملك الكولاك أي المزارعون المتوسطون والمترفون الذين يمثلون اقلية ضمن طبقة المزارعين أكثر من نصف الاراضي المذكورة أي حوالي ٤٠ مليون هكتار.

وعندما عين ستوليبتين Stolyptine رئيسًا للوزراء اراد الاعتماد على طبقة الكولاك لتدعيم

قاعدة حكمه من خلال السيطرة على الدوما (مجلس الشعب). فأحدث اصلاحًا زراعيًا ضمن القانون (Oukase) الصادر في ١٩٠٦، بحيث انسلخ الكولاك بموجب ذلك القانون عن نظام «مير» واصبحوا مستقلين بمزارعهم ويمثلون القاعدة المادية للحكم القيصري.

لم تتأثر طبقة الكولاك كثيرًا من جراء الثورة البلشفية (١٩١٧) في بداية الامر، بل ان السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP) التي وضعها لينين في ١٩٢٢ في محاولة للخروج من الازمة الخانقة وفك الحصار الاقتصادي الذي ضربته الدول والشركات الرأسمالية على الثورة أدت في الواقع إلى تقوية طبقة الكولاك.

و لم تبدأ اوضاع تلك الطبقة في التدهور إلا بعد ان أقر المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي السوفياتي في ١٩٢٧ سياسة تعميم المزارع الجماعية. وفي ١٩٢٩-١٩٣٠، ذهب ستالين إلى ابعد حد في تطبيق تلك السياسة وأعلن: «ان الوقت قد حان للقضاء على طبقة الكولاك». وفعلاً شنت قوى الثورة الشيوعية حملة تصفية واسعة النطاق على تلك الطبقة فاعتقل ونفي الملايين من العائلات إلى سيبيريا الشرقية، وتمّ بذلك القضاء عمليًا على تلك الطبقة.

وأصبح تعبير الكولاك لا يدل فقط في الاستعمال السوفياتي الرسمي على طبقة محددة من المزارعين المعارضين للجماعية في الزراعة بل ايضًا على كل قوى المعارضة للايديولوجية الشيوعية. فجسّد الكولاك في الدعاية الرسمية في المرحلة الستالينية كبش المحرقة والمسؤول الاول عن كل الصعوبات التي اعترضت السياسة الزراعية السوفياتية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الاتحاد السوفياتي وصور على انه «المخرّب الاول والمضارب والداعية المباشر لعودة الرأسمالية في الارياف» (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ج ٥، ط ٢، ص ٢٣٩).

□ **مسلمو روسيا:** تقديرات عدد المسلمين في روسيا تتفاوت بين رقمين متباعدين جدًا، أي بين ٩ و٢١ مليون نسمة. وهذا ما لم يستطع الخروج منه برقم محدد مؤتمر علماء الاستشراق الذي عقد في موسكو، في شباط ١٩٩٦، تحت عنوان «المسلمون في روسيا: مواجهة أم صداقة بين الشعوب». والمقصود بهذا التقدير (بين ٩ و٢١ مليون نسمة) «المسلمون الاثنيون» المقيمون في روسيا الاتحادية وهم التتار والبشكير والشيشان وابناء القوميات الأخرى التي تدين تقليديًا بالاسلام. ويتوزع المسلمون الذين يقطنون روسيا على أكثر من ستين اتنية ويقيمون على ضفاف الفولغا (في شمالي القوقاز وسيبيريا الغربية إضافة إلى جمهوريتي التتار وبشكيريا).

وسبب هذا الفارق العددي الكبير في التقديرات هو ان تعداد السكان حسب دياناتهم غير متبع في روسيا كدولة «ديمقراطية علمانية». فبخلاف ما كان عليه الامر في السنوات الماضية لا تهتم السلطات الحالية بمعتقدات المواطنين الدينية تاركة لهم الحرية في اختيار الدين الذي يشاءون. لذلك ثمة بين الروس انفسهم من دخلوا الاسلام. والسبب الآخر لاختلاف الارقام صعوبة تحديد دين الاطفال المولودين من ابوين مختلفين في الدين كما لم يختاروا هم انفسهم انتماءهم فيما بعد، وكثيرًا ما يكون هذا الخيار شخصيًا ولا يذاع عادة. هذا إضافة إلى ان الالحاد كان على مدى ثلاثة ارباع القرن أبرز «عقيدة رسمية» في البلاد.

وهناك إشكاليات تواجه مسلمي روسيا انطلاقًا من واقع ان المسيحية الارثوذكسية (دين الاكثرية) تترك بصماتها في عدد من دوائر الدولة ومؤسساتها ومنها الجيش رغم ان الدولة علمانية وتعلن المساواة بين جميع المواطنين. فالحرب في شيشانيا تطرح امام المسلمين السؤال حول كيفية الجمع بين إحدى نواهي شهر رمضان وهي عدم القتال وبين الحياة الواقعية. فمن جهة الشيشان

المسلمون انهم يناضلون بالسلاح من اجل استقلالهم، ومن جهة أخرى يخدم كثيرون من المسلمين في القوات الاتحادية العاملة لاستعادة النظام الدستوري في البلد المتمرد.

حول هذا الوضع «أوضح المفتي راويل عين الدين ان الخدمة في القوات المسلحة تفترض الخضوع لليمين العسكرية والقادة العسكريين، وهذا ما يجبر المسلمين العاملين في الجيش الروسي على حمل السلاح حتى في شهر رمضان المبارك. إن دولتنا علمانية ولا يحق للمسلم ان يقول انه لن يحارب إذا نهى الاسلام عن ذلك. ولهذا فإن رجال الدين الاسلامي يرون، من اجل بقاء نظام الدولة الروسي، ان لا داعي لاثارة مسألة الوضع المتميز للعسكريين المسلمين في أثناء العمليات الحربية. ونرى ان تطور روسيا الاتحادية الثابت وسلامة الدولة مرتبطان بالعلاقات المتساوية بين كل الاديان. وعندها فقط نستطيع ان نحقق السلام والوفاق في مجتمعنا» («الحياة»، العدد ١٢٠٥٢، تاريخ ٢٣ شباط ١٩٩٦، ص ١٦).

وفي محاولة لتوحيد المسلمين الروس، أنشىء في حزيران ١٩٩٥ «اتحاد مسلمي روسيا» وعقد مؤتمره الاول في ١-٣ كانون الاول ١٩٩٥، وحضره ٢٥٦ مندوبًا جاءوا من ٦٢ منطقة روسية، فحدّدوا هيكلية الاتحاد واعتمدوا قائمة المرشحين للانتخابات الاشتراعية (كانون الاول ١٩٩٥)؛ وكل ما انبثق عن هذا المؤتمر كان إدانة واضحة للمقاومين الشيشانيين ولكل مسلم يدعو إلى المواجهة. لكن الاتحاد نفسه، ومعه المنظمات الاسلامية الروسية كافة، الذي أيد الرئيس يلتسن في الانتخابات الرئاسية (حزيران ١٩٩٦)، ذكر

جامع موسكو الكبير.

على لسان عضو امانته العامة المفتي نافع الله أشيروف (في تموز ١٩٩٦) ان مسلمي روسيا يتعرضون الملاحقة في وطنهم، خصوصًا في موسكو. وقال إنه على غرار ما كان يقوله العنصريون الاميركيون «ان الهندي الاحمر الجيد هو الميت» فإن المعادلة تطبق حاليًا على الشيشانيين من قبل بعض الاوساط الروسية؛ وحذر من معاداة الاسلام، مذكرًا بان روسيا تختلف عن الدول الاوروبية نظرًا إلى وجود ٢٠ مليون روسي مسلم فيها إضافة إلى كونها مجاورة للدول الاسلامية ولها حدود مشتركة معها. وقال إن المسلمين يرون ان الامور ما زالت قابلة للاصلاح «وبخلاف ذلك سيعيدون التفكير في ما إذا كانت روسيا دولتهم». أما رئيس اللجنة التنفيذية لاتحاد مسلمي روسيا، عبد الواحد نيازوف، فاشار إلى ظاهرة «كره المسلمين»؛ واتهم اجهزة الاعلام الروسية، وخصوصًا التلفزيون، باعتماد «الاسلوب الغربي» في التعامل مع كل مسلم بوصفه «متطرفًا اصوليًا».

ولهذا الاتهام ما يبرّره دون شك من تعامل السلطة، أو بعضها، إزاء المسلمين الروس، بدليل ما يرد من انتقادات على لسان مسؤولين روس انفسهم. وخير مثال على ذلك ما كتبه نيقولاي فيدوروف، مستشار الدولة في شؤون العدل في روسيا الاتحادية، في صحيفة «نيزافيسيما غازيتا» العدد ٥٨ تاريخ ٣٠ آذار ١٩٩٣، تحت عنوان «الاسلام هو مصيرنا ونصيبنا نحن ايضًا (ونشرته «الحياة»، عدد ٧ نيسان ١٩٩٣)، وهذه مقتطفات منه:

«... يعتبر من الاهمية الحيوية في ممارسة السياسة القومية في روسيا التغلب على التصور المنتشر على نطاق واسع عن ان الاسلام تعليم مبتذل متوجه نحو الماضي يبرر التعصب والكراهية الدينية.

«لا يجوز ان ينطلق اليوم سياسي محترف متحرر من الجهل الشيوعي في عمله من تلك التصورات البائدة البالية التي تقول إن الاسلام لا مستقبل له لأن الاسلام، حسب الزعم، لا يستطيع البقاء والاحتفاظ بمواقعه إلا حيثما تسود مخلفات القرون الوسطى والتقاليد المندثرة.

«... أما الآن، ويا للأسف، يظل معنى الاسلام في روسيا، في فهم بعض العناصر الرسمية والكثير من غير المسلمين، بل حتى بالنسبة إلى قسم ملحوظ من المسلمين انفسهم، مجرد «العامل الاسلامي» في السياسة، وليس أحد أهم عناصر الحضارة ونمط الحياة والمشاعر والمصائر للملايين من ابناء روسيا وشرطًا من شروط توازنهم النفسي ومحورًا لعالمهم الداخلي ومقياسًا لاخلاقيتهم وحقهم.

«... مما له دلالته الواضحة قرار مجلس السوفيات الاعلى في جمهورية روسيا السوفياتية الاشتراكية الاتحادية الصادر في ٢٧ كانون الاول ١٩٩٠ حول اعلان يوم ٧ كانون الثاني (ميلاد المسيح) يوم إجازة. فمن ناحية يبين هذا الواقع تحول السلطات إلى احترام التقاليد الدينية ومشاعر النصارى المتدينين.

ويمكن اعتباره ايجابيًا من هذه الناحية لأنه يشهد على ان استراتيجية السياسة القومية بدأت تتشكل بمراعاة تلك الظاهرة المهمة مثل الحاجات والتقاليد والمشاعر الدينية للشعب. ومن ناحية اخرى من الواضح تمامًا ان الاكتفاء بمثل هذا القرار وحده سيعني على اقل تقدير عدم احترام الدولة للمشاعر والتقاليد الدينية للمنتسبين إلى الديانات الاخرى في روسيا.

«... إذا انطلقنا من مقاييس الايمان والعدالة والاحترام فلممثلي الديانات الاخرى ايضًا الحق في ان تعترف الدولة رسميًا بحقهم في الاحتفال بالعيد الاساسي في عقيدتهم بما في ذلك حقهم في يوم الاجازة.

«... وإذا كان الاسلام ومؤسساته في

الغرب عبارة عن عناصر في السياسة الخارجية أو مسألة تحديد الموقف من ا لمهاجرين من الدول الاسلامية، فإنه بالنسبة إلينا جزء من التاريخ الروسي والحضارة الروسية الاصلية وجانب عضوي لنمط حياة الملايين العديدة للمسلمين في روسيا تعاقبت احيالهم في روسيا منذ قرون وتحولت روسيا بالنسبة إليهم من ا لملجأ المؤقت إلى بيتهم العزيز...

«... روسيا ستسير في المستقبل بطريقها الخاص، لكن هذا الطريق يجب ان يستفيد من منجزات ليس الحضارة الغربية وحدها بل من منجزات الحضارة الشرقية والاسلامية منها بالدرجة الاولى».

□ **ناروديكي**: راجع «سان بطرسبورغ» في باب مدن ومعالم .

مدن ومعالم

* **أوليانوفسك Oulianovsk**: راجع «سيمبيرسك في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **أوفا Oufa**: مدينة روسية. عاصمة جمهورية بشكيريا. واقعة على الضفة اليمنى لنهر بيلييا. تعد نحو ١،١ مليون نسمة (تقديرات ١٩٩٦). مركز ثقافي. جامعة تأسست في ١٩٥٧. صناعات نفطية، كيميائية، ميكانيكية غذائية وخشبية. مسقط رأس الكاتب الروسي سيرغي تيموفيفيتش اكساكوف (١٧٩١-١٨٥٩) الذي اشتهر بوصفه للطبيعة ولمختلف جوانب حياة ملاكي الاراضي. أشهر أعماله «سجل العائلة» (١٨٥٢).

* **أومسك Omsk**: مدينة روسية. قاعدة منطقة تحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحتها ١٣٩ ألفًا و٥٠٠ كلم م.. وتعد مدينة أومسك نحو ١،٥ مليون نسمة. تقع في سيبيريا الغربية. مرفأ نهري. محطة حرارية. صناعات ميكانيكية (آلات زراعية)، كيمياتية، أقمشة (اصواف)، غذائية، جلدية وخشبية. مصفاة نفطية مهمة. عقدة مواصلات نهرية عابرة سيبيريا.

تاريخيًا، تأسست أومسك في ١٧١٦ بجوار قلعة عسكرية؛ وأصبحت المدينة، منذ اواسط القرن التاسع عشر، أهم مركز تجاري واداري وعسكري في سيبيريا الغربية (دوستويفسكي نفي إليها). في الحرب الأهلية بين البلشفيك (الجيش الاحمر) والملكيين (الجيش الابيض)، اتخذها الاميرال ألكسندر فاسيليفيتش كولتشاك عاصمة له (١٩١٨-١٩١٩) بعد ان تم له سحق الاشتراكيين المعتدلين. لكن الجيش الاحمر (البلشفيك) سرعان ما استردها في تشرين الثاني ١٩١٩. كانت عاصمة سيبيريا قبل مدينة نوفوسيبيرسك.

والاميرال كولتشاك (١٨٧٤-١٩٢٠) عسكري وسياسي روسي. قائد اسطول البحر الأسود في ١٩١٦. استقال من منصبه هذا بعد ثورة شباط ١٩١٧. فقصد الولايات المتحدة، ومن هناك عاد إلى سيبيريا ليصبح قائد القوات المعادية للثورة البلشفية وليفرض نظامًا دكتاتوريًا عسكريًا.

دعمه الحلفاء، فتمكنت قواته من احتلال سيبيريا والاورال ومنطقة الفولغا (١٩١٩). لكن البلشفيك هزموه (ايار ١٩١٩-كانون الثاني ١٩٢٠) وحكموا عليه بالاعدام، ونفذوا الحكم في ٧ شباط ١٩٢٠.

* **إيركوتسك Irkutsk**: مدينة روسية. قاعدة منطقة تحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحتها ٧٦٧ ألفًا و٩٠٠كلم م.، واقعة في سيبيريا الشرقية على نهر أنغارا جنوب غربي بحيرة بيكال. تعد المدينة نحو ٦٣٠ ألف نسمة. مركز ثقافي. جامعة تأسست في ١٩١٨. صناعات ميكانيكية وغذائية وخشبية. بالقرب منها، محطة هيدروكهربائية ضخمة على نهر أنغارا. في شمال غربي المدينة منطقة غنية جدًا بالفحم الحجري (مساحتها ٣٧ ألفًا و٥٠٠ كلم م.، احتياطيها من الفحم الحجري نحو ٩٠ مليار طن في ١٩٥٦). تأسست إيركوتسك في العام ١٦٥٢.

* **بتروغراد Petrograd**: راجع «سان بطرسبورغ» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **بيرم Perm**: مدينة روسية، كان إسمها «مولوتوف» بين ١٩٤٠ و١٩٥٧. قاعدة منطقة تحمل الاسم نفسه «بيرم» وتبلغ مساحتها ١٦٠ ألفًا و٧٠٠كلم م.. في منطقة الاورال على نهر كاما. تعد المدينة نحو ١،٢ مليون نسمة. مركز ثقافي. جامعة تأسست في ١٩١٦. صناعات ميكانيكية (محركات، تجهيزات منجمية)، كيميائية ونفطية. حوض لبناء السفن. محطة هيدروكهربائية. عقدة مواصلات نهرية.

* **تشيليابنسكي Tcheliabinski**: مدينة روسية. قاعدة المنطقة. واقعة في الاورال على نهر مياس (٦٥٨كلم). تعد نحو ١،٣٥٠ مليون نسمة. مركز ثقافي. صناعات ميكانيكية (تركتورات)، كيميائية وغذائية. عقدة مواصلات نهرية مهمة.

* **توغلياتيغراد Togliattigrad**: سمّيت ستافروبول Stavropol حتى ١٩٦٤. مدينة ومرفأ روسي. واقعة على سد سامارا. تعد نحو ٧٠٠ ألف نسمة. صناعات ميكانيكية وبتروكيميائية (كاوتشوك). مصنع سيارات (بالاتفاق مع شركة فيات الايطالية). احواض لإصلاح السفن.

* **روستوف بود دونوم Rostov Pod Donom**: بالفرنسية Rostov sur-Le-Don. مدينة روسية. قاعدة المنطقة، واقعة على بعد ٤٠كلم من مصب نهر دون في بحر آزوف. تعد نحو ١،٢ مليون نسمة. جامعة. مركز مواصلات مهم. مرفأ نهري. مطار. حوض لبناء السفن. صناعات ميكانيكية (آلات زراعية)، كيميائية وغذائية. تبغ. أحذية. تاريخيًا، تأسست في ١٧٦١، وسرعان ما أصبحت مركزًا تجاريًا نشطًا، خاصة جراء اتصالها بمنطقة القوقاز وبالمنطقة الوسطى من اوكرانيا. تضررت كثيرًا خلال الحربين العالميتين، لكنها كانت تستعيد عافيتها بسرعة، وعرفت نهضة كبرى بعد انجاز بناء قناة فولغا-دون (١٩٥٢) التي تصل بحر آزوف ببحر قزوين.

* **ساراتوف Saratov**: مدينة روسية. قاعدة المنطقة. أحد أكبر المرافىء النهرية على المجرى الأسفل للفولغا. نحو مليون نسمة. بيوت جميلة تعود إلى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. كاتدرائية ذات طراز باروكي تعود إلى ١٦٩٧. متحف الفنون الجميلة (لوحات روسية تعود إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وأعمال لمدارس فنية في اوروبا الغربية). متحف مخصص للفيلسوف تشيرنيشفسكي. متحف التاريخ الاقليمي (عهود التتار). جامعة تأسست في

١٩٠٩. صناعات ميكانيكية (آلات زراعية)، نسيجية، غذائية، نفطية وخشبية. غاز طبيعي (انبوب لنقل الغاز بين ساراتوف وموسكو). عقدة مواصلات نهرية. تاريخيًّا، تأسست ساراتوف في ١٥٩٠. تحالفت المدينة مع الثورة التي قادها ستنكا رازين في ١٦٧٠. ورازين زعيم قوزاقي تزعم حركة الفلاحين الفارين من نظام العبودية، والذين عاشوا ضمن ظروف اجتماعية بالغة الصعوبة في منطقة الدون (نهر دون). وتمكن من السيطرة على تساريتزين واستراخان وساراتوف، حيث قام الفلاحون بذبح العديدين من ملاكي الاراضي. لكن رازين هزم في آخر المطاف في سيمبيرسك في حين كان قد توصل إلى تهديد موسكو. كان زعيمًا شعبيًا ومحبوبًا جدًا، ولا تزال ذكراه وذكرى ثورته تلقى الاعجاب والتقدير من الروس. في ١٧٧٤، سيطر عليها قائد قوزاقي آخر هو ليمليان إيفانوفيتش بوغاتشيف.

*** سامارا Samara:** هي كويبيشيف بين ١٩٣٥ و١٩٩١. مدينة روسية؛ قاعدة المنطقة، وتقع عند ملتقى نهري فولغا وسامارا. تعد نحو ١،٤ مليون نسمة. صناعات ميكانيكية (آلات زراعية، تجهيزات للصناعة النفطية)، مصفاة نفطية، صناعات غذائية، ومواد بناء. بالقرب منها محطة هيدروكهربائية على نهر الفولغا. لجأت الحكومة السوفياتية إليها أثناء معارك ١٩٤١-١٩٤٢، إذ كانت موسكو مهددة بالسقوط جرّاء الحصار الالماني.

*** سان بطرسبورغ Saint Petersbourg:** دعيت بتروغراد من ١٩١٤ إلى ١٩٢٤، ولينينغراد من ١٩٢٤ إلى ١٩٩١. مدينة روسية. قاعدة مقاطعة لينينغراد. تقع عند مصب نهر نيفا Neva على ضفاف خليج فنلندا. تعد نحو ٥ ملايين نسمة، ونحو ٥،٨ ملايين مع ضواحيها. تمتد حاليًا على مساحة ٢٠٠كلم م.. هي عاصمة ثقافية. فيها جامعة يعود تاريخ تأسيسها إلى ١٨١٩. عدد كبير من المتاحف والمكتبات العامة. أكاديمية للفنون الجميلة. أول مرفأ بحري ونهري في البلاد (وذلك منذ إنشاء القناة البحرية التي ربطت المدينة بكروشتادت اواخر القرن التاسع عشر). قاعدة بحرية. مركز صناعي مهم. صناعات الاسلحة، صناعات تحويلية، تجهيزات نهرية، وادوات تستعمل في استثمار الغابات وفي الزراعة. مصفاة للبترول المستورد. صناعات بتروكيميائية، وأخرى لصنع ادوات تستعمل في المناجم، ومحركات كهربائية. صناعات نسيجية، غذائية. احواض لبناء السفن (كاسحة الجليد الذرية، «لينين»، بنيت في احواضها). أربعة خطوط للميترو وضعت قيد الاستعمال منذ ١٩٥٥. عقدة مواصلات نهرية، وهناك نظام اتصالات عبر قنوات تصل المدينة بالفولغا وبالبحر الابيض. خط انبوب لنقل الغاز يصل المدينة بـ كوختلا-يارف، وآخر يتصل بخط انبوب ستافروبول-موسكو. محطات هيدروكهربائية، ومحطات حرارية ومجمّع نووي لتغذية المنطقة بالطاقة.

تاريخيًّا، أسس بطرس الأكبر سان بطرسبورغ في ١٧٠٣ معتبرًا إياها «نافذة روسيا على اوروبا». وأهم واضعي مخطط تنفيذها كان المهندس الفرنسي ألكسندر لوبلون (Leblond). وأصبحت المدينة عاصمة للامبراطورية الروسية منذ ١٧١٥. عرفت نهضتها الاولى في عهد أنّا إيفانوفا (١٧٣٠-١٧٤٠)، وفي عهد اليزابت بتروفنا (١٧٤١-١٧٦٢). ساهم عدة مهندسين اجانب في تشييد عماراتها وفق النمط الباروكي (متعلق أو متسم باسلوب فني ساد بخاصة في القرن السابع عشر وتميز بالزخارف والحركية والحرية في الشكل). والكلاسيكي: مثل قصر الاميرالية (مركز القيادة البحرية)، قصر انيتشكوف، قصر فورونتسوف، قصر الشتاء، القصر المرمري،

وكاتدرائيات القديس بطرس وبولس، والقديس ألكسندر نيفسكي ونوتردام قازان (وجميعها بنيت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر). تطلق علىا لمدينة، حاليًا، تسمية «بندقية الشمال» بسبب قنواتها العديدة ووجود ٥٠٠ جسر، والمدينة إحدى أهم المراكز السياحية في روسيا. وبطرس الأكبر أسس فيها (١٧٢٥) أول أكاديمية للعلوم (نقلت إلى موسكو في ١٩٣٤). في ١٨٢٥، كانت مسرحًا لثورة الديكابريين (نسبة إلى شهر «ديكابر» في الروسية، وهو شهر ديسمبر، كانون الاول)، وهم مجموعة من الاشراف والضباط الروس الذين حاولوا القيام بثورة مسلحة ضد القيصرية، وكانوا اعضاء في جمعيات سرية ويأملون باجراء اصلاحات دستورية. فبعد الموت المفاجىء للقيصر الكسندر الاول، تمكن الديكابريون من دفع البعض من الفرق العسكرية في سان بطرسبورغ إلى اعلان الثورة (٢٦ كانون الاول ١٨٢٥)، فدخلوا باحة مجلس الشيوخ ورفضوا اداء القسم الولاء للقيصر نقولا الاول المعروف بافكاره الداعية إلى السلطة المطلقة. قمعت المدفعية هذه الثورة، وأعدم خمسة من قادتها، وتوزع ١٢٠ بين السجن في قلعة شلوسلبورغ أو النفي إلى سيبيريا. وبعد حركة التصنيع السريع الذي شهدته المدينة إثر تحرير الاقنان (١٨٦١)، أصبحت المدينة مسرحًا لاضطرابات جديدة قام بها «النارودنيكي» (Narod: «شعب») وأدت إلى اغتيال ألكسندر الثاني (١٨٨١). والنارودنيكي هم اعضاء في حركة سياسية تدعى «نارودنيتشيستفو»، أول حركة اشتراكية ثورية في روسيا في القرن التاسع عشر. هدفت إلى حض الفلاحين، الذين كانوا لا يزالون غير راضيين على وضعهم رغم إلغاء ألكسندر الثاني للعبودية والقنانة (١٨٦١)، على الثورة وقلب النظام القيصري وإقامة نظام جماعي زراعي. وحلّ اعضاء هذه الجمعية من المثقفين الذين انتشروا في الارياف لاعادة تثقيف الفلاحين وتلقينهم حقوقهم في الارض والانتاج. لكن «هذه المسيرة نحو الشعب» (على حد تعبير تورغنييف، وهو أحد الذين ارّخوا لهذه الحركة) لاقت الفشل. وفي مؤتمر عقدته في فورون (١٨٧٩) انقسمت الحركة إلى جناحين: المعتدلون (وأحد زعمائهم بليخانوف) اتخذوا جانب العمل السياسي، والمتطرفون تجمعوا في حركة دعيت نارودنايا فوليا («ارادة الشعب») التي توصلت إلى القيام بعملية اغتيال ألكسندر الثاني (أحد اعضائها، ويدعى غرينيفيتسكي، رمى القيصر بقنبلة يدوية في أول آذار ١٨٨١). وألقي القبض على زعمائها، فأعدم بعضهم وسجن البعض الآخر في قلعة شلوسلبورغ. بين ١٨٨٠ و١٨٩٠، أصبح الاتجاه الليبرالي (بزعامة ميخائيلوفسكي) هو الاتجاه الغالب في الحركة وأخذ ينتهج خط المساومة مع النظام القيصري. انتقد لينين افكار هذه الجمعية (نارودنيكي) واعتبرها انها تؤسس لـ«جمهورية فلاحية في روسيا» ولا تعطي البروليتاريا حق قدرها.

في اوائل القرن العشرين، لعبت سان بطرسبورغ دورًا مهمًا أثناء ثورة ١٩٠٥، ثم أثناء ثورة ١٩١٧. في كانون ا لثاني ١٩١٨، أعيد مقر الحكومة من سان بطرسبورغ إلى موسكو التي عادت من جديد عاصمة للدولة. وفي ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٤، أي بعد خمسة ايام من وفاة لينين، أطلق إسم لينينغراد على المدينة التي كانت تسمّى بتروغراد. في ١٩٣٤، اغتيل فيها كيروف، ما اتاح الفرصة لستالين كي يبدأ حملات التطهير والمحاكمات في موسكو. خلال الحرب العالمية الثانية، حاصرتها الجيوش الالمانية والفنلندية من كل الجهات تقريبًا وقطعت عنها الموارد طيلة ٩٠٠ يوم (آب ١٩٤١-كانون الثاني ١٩٤٤، نحو ٦٠٠ ألف قتيل ومليون مفقود)، وهدمت احياؤها الواقعة على الاطراف و لم ينج سوى

وسطها. بعد الحرب، عيّن عليها حاكم يدعى أناتولي سوبتشاك، فحاولت المدينة في عهده ان تنهض منتهجة خطًا تحديثيًا غربيًا. أعادت اسمها الأساسي، «سان بطرسبورغ»، على اثر استفتاء عام جرى لهذه الغاية في ايلول ١٩٩١.

* **ستالينغراد Stalingrad**: راجع «فولغوغراد» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **ستافروبول Stavropol**: راجع «توغلياتيغراد» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **سفردلوفسك Sverdlovsk**: راجع «يكاتيرنبورغ» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **سيمبيرسك Simbirsk**: كانت تسمّى أوليانوفسك Oulianovsk من ١٩٢٤ إلى ١٩٩١. مدينة روسية. قاعدة المنطقة. واقعة على الفولغا. تعد نحو ٧٢٥ ألف نسمة. صناعات ميكانيكية، غذائية وجلدية. تاريخيًا، تأسست في ١٦٤٨. كانت مركز الانتفاضة التي قادها ستنكا رازين (راجع «ساراتوف» في هذا الباب، مدن ومعالم) الذي هزم أخيرًا في موقعة جرت بالقرب منها. اتخذت إسم أوليانوفسك تخليدًا لذكرى لينين الذي ولد فيها.

* **غوركي Gorki**: راجع «نيجني-نوفغورود» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **فورونيج Voronej**: مدينة روسية. قاعدة المنطقة. تقع على نهر فورونيج (٣٤٢كلم)، وعلى بعد نحو ١٨كلم من التقائه بنهر دون، وفي قلب منطقة زراعية (اراضي سوداء). تعد نحو ٩٧٥ ألف نسمة. مركز ثقافي (جامعة تأسست في ١٩١٨). صناعات ميكانيكية، كيميائية (كاوتشوك) وغذائية. عقدة مواصلات نهرية. وبالقرب منها محطة نووية (في نوفورونيج). تاريخيًا، تأسست المدينة في ١٥٨٦ على ارض كانت تقوم عليها مدينة خزرية في القرن الحادي عشر. وكان الهدف من إنشاء هذه المدينة هو حماية دولة موسكوفيا من هجمات بدو السهوب، ثم أصبحت أحد أهم مراكز التجارة مع المناطق الجنوبية. أقام بطرس الاكبر فيها احواض بناء سفن كان يعمل لاستخدامها للوصول إلى بحر آزوف من خلال نهر دون. أثناء الحرب العالمية الثانية كانت فورونيج نقطة انطلاق الهجوم السوفياتي المضاد ضد الالمان في ١٩٤٢-١٩٤٣.

* **فولغوغراد Volgograd**: كانت تسمّى تساريتسين، ثم أصبحت تسمى ستالينغراد من ١٩٢٥ وإلى ١٩٦١. مدينة روسية. قاعدة المنطقة. مرفأ نهري على مجرى فولغا الاسفل. تعد نحو ١،٢ مليون نسمة. مركز ثقافي. صناعات حديدية (فولاذ) وميكانيكية (سيارات، تراكتورات) وغذائية. مصافي نفطية. مواد بناء. حوض لبناء السفن. عقدة مواصلات نهرية. بالقرب منها محطة هيدروكهربائية. تاريخيًا، في القرن الثالث عشر كان التتار يحتلون المنطقة. وبعد غزوهم قازان (١٥٥٢) وأستراخان (١٥٥٦)، أسس الروس مدينة محصنة في جزيرة قريبة من ملتقى فولغا بنهر صغير يدعى تساريتسا (من هنا إسم المدينة القديم «تساريتسين»). وبعد ان هوجمت المدينة عدة مرات كما في ١٦٦٩ وفي ١٧٧٤، فقدت المدينة أهميتها الاستراتيجية في القرن التاسع عشر وأصبحت مركزًا تجاريًا. بعد ثورة أكتوبر (١٩١٧)، أقيم فيها نظام سوفياتي. وأثناء الحرب الاهلية، قاد حركة الدفاع عنها فوروتشيلوف وستالين ضد «الجيش الابيض» الذي كان بقيادة كراسنوف (١٩١٨) ودنيكين (صيف ١٩١٩). في ١٩٢٥، اطلق عليها إسم

ستالينغراد تيمنًا باسم ستالين. اثناء الحرب العالمية الثانية كانت مسرحًا لمعركة شهيرة (معركة ستالينغراد) توقف عندها إلى حد كبير تقرير مصير هذه الحرب. ففي آب ١٩٤٢، هاجمت وحدات الجيش الألماني بقيادة الفيلد مارشال فون بوك ستالينغراد. وفي ايلول، نجح الجيش السادس الالماني بقيادة باولوس في اختراق ضواحي المدينة. فخاض السوفيات، خاصة الجيش الثاني والستون بقيادة الجنرال تشويتوف، مقاومة شرسة ومنعوا الالمان (وقد توصلوا إلى احتلال القسم الاكبر من المدينة) من احتياز نهر الفولغا. وقام القائد السوفياتي جوكوف بهجوم مضاد تمكن على اثره من محاصرة وحدات باولوس (٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٢). وقام القائد الالماني بهجوم آخر لانقاذ باولوس من الحصار (١٢-١٦ كانون الاول ١٩٤٢)، لكنه فشل. وفي كانون الثاني ١٩٤٣، اخذ السوفيات يستعيدون أحياء ستالينغراد المدمرة واحدًا بعد الآخر في حرب شوارع ضارية. وفي ٢ شباط ١٩٤٣، وقّع باولوس وثيقة استسلامه. واعتبرت هزيمة ألمانيا في ستالينغراد إحدى العلامات المميزة على طريق انتصار الحلفاء على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

*** كراسنودار Krasnodar**: دعيت «يكاترينودار» حتى ١٩٢٠، أي على إسم مؤسستها في ١٧٩٢ القيصرة كاترين الثانية الكبيرة. الحكم الشيوعي غيرّ إسمها إلى كراسنودار. ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي، هناك اتجاه إلى اعادة أسماء المدن إلى ما كانت عليه قبل الثورة الشيوعية. وقد اعاد الحكم الحالي، بالفعل، عددًا من اسماء المدن (الاحياء، الشوارع، المعالم...) القديمة.

وكراسنودار (يكاترينودار) مدينة روسية. قاعدة المنطقة التي تحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحتها ٨٣ ألفًا و٦٠٠كلم م.، وواقعة على نهر كوبان. تعد المدينة نحو ٦٥٠ ألف نسمة. صناعات ميكانيكية (آلات زراعية)، نفطية، كيميائية وغذائية. عقدة مواصلات نهرية. محطة حرارية. بعد تأسيسها بعقود قليلة أصبحت مركزًا لاقامة قوزاق منطقة كوبان.

*** كراسنويارسك Krasnoiarsk**: مدينة روسية. قاعدة الاقليم الذي يحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحته مليونان و٤٠١ ألف و٦٠٠كلم م.. تقع المدينة على نهر ينسّي في سيبيريا الشرقية، وتعد نحو ٨٥٠ ألف نسمة. مركز ثقافي وصناعي. حوض لبناء السفن. محطة هيدروكهربائية على بعد ٣٥كلم من المدينة.

*** كويبيشيف Kouibychev**: راجع «سامارا» في هذا الباب، مدن ومعالم.

*** لينينغراد Leningrad**: راجع «سان بطرسبورغ» في هذا الباب، مدن ومعالم.

*** موسكو Moscou**: في الروسية Moskva. عاصمة روسيا الاتحادية منذ ١٩٩١ (وقبل ذلك عاصمة الاتحاد السوفياتي منذ اعلانه عقب نجاح الثورة البلشفية). وهي قاعدة منطقة تحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحتها ٤٧ ألف كلم م.، وتعد نحو ٢٠ مليون نسمة. أما موسكو المدينة فتعد نحو ٩ ملايين نسمة (تقديرات ١٩٩٦). تقع على جانبي نهر موسكوفا الذي يبلغ طوله ٥٠٢كلم من منبعه في هضبة فالداي حتى مصبه. في آب ١٩٦٠، صدر قرار من البريزيديوم الأعلى قضى بأن تدمج في موسكو المدن المجاورة لها، وهي بابوشكين، كونتسيفو، ليوبلينو، بيروفو وتوشينو. وموسكو العاصمة مقسمة إلى ١٧ دائرة، وتمتد على مساحة ٧٨ ألفًا و٥٠٠هكتار. وموسكو أهم مركز ثقافي وعلمي في البلاد، وأهم معالمها (إضافة إلى الكرملين): أكاديمية العلوم، وجامعتان: جامعة

لومونوسوف التي أسسها الكاتب والعالم الروسي ميخائيل فاسيليفيتش لوموندسوف في العام ١٧٥٥ (وزيد عليها بين ١٩٤٩ و١٩٥٣ مجمّع من المباني على مساحة ٢٠٠ هكتار)؛ وجامعة «الصداقة» (جامعة باتريس لومومبا) المخصصة لطلاب العالم الثالث، تأسست في ١٩٦٠. وهناك مكتبة لينين التي تأسست في ١٩٢٥، ومعتبرة واحدة من اكبر ثلاث مكتبات في العالم. ومتحف بوشكين للفنون ومتحف الكرملين، ومتحف لينين المركزي، ومعرض تريتياكوف. والمسرح الكبير (بولشوي) الذي بني في ١٨٢٤، والمسرح الصغير (مالبي)، وغيرها. وموسكو غنية بآثارها التاريخية، خاصة الكرملين بمبانيه وقلعته والواقع عند الضفة اليسرى من نهر موسكوفا، وتحف به الساحة الحمراء حيث نصب لينين الشهير. وحيث حدائق ومنتزهات للثقافة والاستراحة. (راجع «الاتحاد اسوفياتي»، ج١، ص ٦٨) وموسكو شهيرة بالمترو (١٩٣٠-١٩٣٥) المميز بفخامته وباحتوائه لـ٥٣ محطة. وبوليفار موسكو الدائري (١٠٩ كلم) انجز العمل فيه العام ١٩٦٢. وموسكو عقدة مواصلات بواسطة قناة موسكو والفولغا؛ أما مرافقها النهرية الثلاثة فتصلها بخمسة بحار: الابيض، البلطيق، قزوين، الاسود وآزوف. وفي موسكو اربعة مطارات دولية. صناعاتها: خفيفة وغذائية، مركز كبير لصناعة الاقمشة (الاصواف والقطنيات)، منشآت ميكانيكية، تجهيزات كهربائية والكترونية، كيميائيات، ثلاثة أنابيب لنقل الغاز تربط موسكو بساراتوف، داشافا (اوكرانيا الغربية) وستافروبول. ولموسكو محطاتها الحرارية الخاصة. وموسكو مسقط رأس ألكسندر الثاني، اليكسي الاول، اليكسي بيتروفيتش، غاران، دوستويفسكي، فونفيزين، إيفان الثالث، ناتاليا غونتشاروفا، هرتزن، جاكوبسون، جوكوف، كاندينسكي، كارير، ليرمونتوف، ماسّين، ميليوكوف، باسترناك، بطرس الأكبر، بوشكين، سكريابين، صوفيا ألكسيفنا، سوفوروي، نيكولاي تروبتسكوي.

تاريخيًا، ذكر المؤرخون الروس «موسكو» لاول مرة في ١١٤٧. لكن المعطيات الاركيولوجية المتوافرة دلت على ان ثمة تجمع سكني للصيادين كان موجودًا على ارضها في ا لعصر النيوليتي (عصر الحجر المصقول). امير سوزدال، ويدعى دولغوروكي، أقام على ارضها اول «كرملين من خشب» في ١١٥٦. غزاها امير ريازان ودمّرها في ١١٧٦؛ ولاقت المصير نفسه على يد مغول باتو خان في ١٢٣٧. أصبحت عاصمة امارة إبان حكم دانيال نيفيسكي في ١٢٦٣. وحصل إبنه إيفان الاول، من خان الاوزبك، على لقب الامير الأكبر وحق جباية الضرائب من الامارات الروسية لمصلحة إمارته التي سمّيت امارة موسكوفيا حتى القرن السابع عشر (وعاصمتها موسكو). ففرض إيفان الاول بذلك سيادته على إمارة تفير Tver، ريازان وسوزدال. وفي ١٣٢٦، نقل الميتروبوليت تيوغنوست مركزه من فلاديمير إلى موسكو التي أصبحت، بذلك، المركز الديني في البلاد. وتابع الاميران سيميون الرائع وإيفان الثاني إيفانوفيتش سياسة والدهما إيفان الاول. وفي اواخر القرن الرابع عشر اصطفت المدن المجاورة وراء راية موسكوفيا للقتال ضد النير المغولي. وانتصر الروس، تحت قيادة ديميتري دونسكوي، في معركة كورليكوفو (١٣٨٠)؛ لكن في ١٣٨٢، اعاد المغول سيطرتهم على موسكوفيا، واعادوا اقتطاعها إلى أمراء من بينهم فاسيلي الاول وفاسيلي الثاني. وفي عهد إيفان الثالث الكبير (١٤٦٢-١٥٠٥) نجحت موسكو في ضم أكثر الامارات المجاورة (امارة باروسلافل في ١٤٦٣، وإمارة بيرم في ١٤٧٢، وروستوف في ١٤٧٤، ونوفغورود في ١٤٧٨، وتفير في ١٤٨٥، وفياتكا في ١٤٨٩). ثم نجح

إبنه وخليفته فاسيلي الثالث في ضم بسكوف (١٥١٠)، وريازان (١٥٢١)، وسمولنسك (١٥٢٢). وبعد عملية «ضم الاراضي الروسية هذه» لم تبق خارج سيطرة موسكو سوى بيلوروسيا (مينسك) وروسيا الصغيرة (كييف). فهاتان المنطقتان استمرتا تابعتين لبولندا حتى نهاية القرن السابع عشر حيث تخلت بولندا عنهما لروسيا بموجب معاهدة موسكو (٦ آذار ١٦٨٦). أما خانات قازان واستراخان فقد اخضعهما إيفان الرهيب، لكن تتار شبه جزيرة القرم تمكنوا من احتلال موسكو وإحراقها في ١٥٧١، ولم تنجُ من الحريق سوى مباني الكرملين التي كانت مشادة بالحجر منذ ١٣٦٧. اعتبر الروس عاصمتهم «موسكو» بمثابة «روما الثالثة» بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣)، وخاصة بعد إنشاء بطريركية موسكو (١٥٨٩)، وبالأخص عندما تمكن البولنديون من احتلالها في ١٦١١ وكانوا بقيادة لاديسلاف الرابع. لكن «روما الثالثة» هذه سرعان ما تمكنت من تحرير نفسها، بفعل ثورات وانتفاضات ابنائها وردت البولنديين عنها في ١٦١٢.

في ١٧١٥، نقل بطرس الأكبر عاصمته إلى سان بطرسبورغ، واستمرت موسكو عاصمة دينية للامبراطورية الروسية ومكان تنصيب القياصرة على العرش. تراجع عنها القائد الروسي كوتوزوف، تكتيكيًا، فدخلتها جيوش نابوليون الاول (١٤ ايلول ١٨١٢)، وبعد ساعات فقط اندلعت النيران في جميع انحاء موسكو بناء، على ما يرجّح المؤرخون، على اوامر حاكمها العسكري الروسي روستوفين. فتراجعت الجيوش الفرنسية عنها بعد خمسة ايام فقط من احتلالها لها. شهد الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بداية بزوغ لحركة عمالية متنامية وانتشار الافكار الماركسية في موسكو، كما بدأت تظهر «الحلقات» الماركسية بين اوساط العمال. وبعد موجة من الاضرابات (١٩٠٢)، لعبت البروليتاريا الموسكوفية دورًا مهمًا أثناء ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ (انتفاضة مسلحة في كانون الاول ١٩٠٥). قام النظام السوفياتي، بعد خمسة ايام من المعارك، في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧. وفي ١١ آذار ١٩١٨، نقلت الحكومة السوفياتية مقرها من بتروغراد إلى موسكو التي عادت لتصبح عاصمة روسيا، ثم مقر الاممية الثالثة (ابتداء من ١٩١٩)، ثم عاصمة للاتحاد السوفياتي ابتداء من ٣٠ كانون الاول ١٩٢٢. بين ١٩٣٦-١٩٣٨، شهدت المدينة محاكمات (واعدامات) معارضي ستالين الشهيرة.

في ٢٣ آب ١٩٣٩، وقع في موسكو الحلف الالماني-السوفياتي، وفي ١٢ آذار ١٩٤٠، وقعت المعاهدة التي وضعت نهاية للحرب الروسية- الفنلندية (تخلت فنلندا، بموجب هذه المعاهدة، للاتحاد السوفياتي عن برزخ كاريليا، وفيبورغ، وكاريليا الشرقية). واثناء الحرب العالمية الثانية، هاجم الالمان موسكو واعلنوا الحرب على روسيا في ٣٠ ايلول ١٩٤١، واحتلوا كالينين في ١٥ تشرين الاول ١٩٤١ وباتوا يهددون موسكو، وتمكنوا من فرض الحصار عليها بعد ايام قليلة. لكن السوفيات خاضوا معارك ضارية وتمكنوا من ايقاف الالمان في منطقة تولا (على بعد ١٠٠كلم غربي موسكو). وبعد ١٥ تشرين الثاني، عاود الالمان حملتهم العسكرية وتوصلوا هذه المرة إلى احتلال كلين، ثم التقدم باتجاه موسكو حتى وصلوا إلى مسافة ٢٥كلم منها. في ٦ كانون الاول ١٩٤١، قام الجيش السوفياتي بهجوم مضاد وسحق الفرق الالمانية في شمالي المدينة وجنوبيها (٢٧ كانون الاول ١٩٤١). وبين كانون ا لثاني ونيسان ١٩٤٢،

اجبر السوفيات الالمان إلى التراجع حتى اصبحوا على مسافة ٣٥٠كلم غربي موسكو. في ١٠ كانون الاول ١٩٤٤، وقعت في موسكو معاهدة فرنسية-سوفياتية بموجبها تتعهد الدولتان بمنع أي اعتداء ألماني جديد.

*** نوفوسيبيرسك Novossibirsk:**
مدينة روسية، كان اسمها حتى ١٩٢٥ نوفوني-كوليبفسك. قاعدة منطقة تحمل الاسم نفسه وتبلغ مساحتها ١٧٨ ألفًا و٢٠٠كلم م.. تقع المدينة في سيبيريا الغربية على نهر أوب. تعد نحو مليوني نسمة. مركز ثقافي. جامعة تأسست في ١٩٥٩. صناعات ميكانيكية، كيميائية وغذائية. محطة هيدروكهربائية على نهر أوب.

*** نيجني-نوفغورود Nijini-Novogorod:** هي «غوركي» Gorki من ١٩٣٢ إلى ١٩٩٠. مدينة روسية، قاعدة المنطقة، ومرفأ نهري كبير عند التقاء نهري فولغا وأوكا.

تعد نحو ١،٥٥٠ مليون نسمة. مركز ثقافي (جامعة تأسست في ١٩١٨) وفني. فيها مبان (تسمى ايضًا «كرملين») يعود بناؤها إلى ١٥٠٠-١٥٠٥، ودير قديم، «دير البشارة» (١٣٦٥)، وكاتدرائية استمر بناؤها من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨، وكاتدرائية ثانية بنيت بين ١٧٨٦ و١٨٥٨. صناعات ميكانيكية (سيارات)، نفطية، غذائية، زجاجية وخشبية. عقدة مواصلات نهرية. وبالقرب من المدينة محطة هيدروكهربائية.

تاريخيًا، تأسست المدينة في ١٢٢١ على يد امير سوزدال-فلاديمير، ودمجت في موسكوفيا في ١٣٩٢، وسرعان ما أصبحت إحدى أكثر المدن الموسكوفية ازدهارًا. في ١٦١١-١٦١٢، قاد قوزما مينين والامير بوجارسكي ثورة في نيجني-نوفغورود ضد الغزو البولندي. بين ١٨١٧ و١٩١٧، كانت المدينة تقيم اسواقًا سنوية هي الأهم تجاريًا في روسيا.

*** يكاترينبورغ Iekaterinbourg:**
سميت سفردلوفسك من ١٩٢٤ إلى ١٩٩١. مدينة روسية. قاعدة منطقة سفردلوفسك Sverdlovsk وواقعة شرقي الاورال في وادي إيسيت Isset. تعد نحو ١،٤ مليون نسمة. مركز ثقافي (جامعة). صناعات حديدية مهمة، ميكانيكية، كيميائية وغذائية. غنية بثرواتها المنجمية. عقدة مواصلات نهرية. تأسست في ١٧٢٣ في عهد بطرس الأكبر. قتل البلشفيك القيصر نقولا الثاني وافراد اسرته فيها (١٩١٨)

زعماء ورجال دولة

(إضافة إلى ما ورد في هذا الباب في «الاتحاد السوفياتي»، ج ١، ص ٧٠-٨٩):

* **بريماكوف، يفغيني** (١٩٣٠-): سياسي ودبلوماسي روسي، ووزير خارجية روسيا حاليًا (١٩٩٦).

ولد يفغيني مكسيموفيتش بريماكوف في تبيليسي (عاصمة جورجيا). تزوج من فتاة جورجية إسمها لورا (في السبعينات منحه شيفاردنادزه الذي كان الامين الاول للحزب الشيوعي السوفياتي في جورجيا لقب «مواطن فخري» لتبيليسي). انتقل إلى موسكو حيث دخل معهد اللغات الشرقية (القسم العربي) وانهى دراسته بنجاح وحصل على شهادة الماجستير في العلوم التاريخية، ثم الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، وأصبح خبيرًا في الشؤون الاقتصادية للشرق الاوسط والشرق الادنى، خصوصًا في اقتصاد البلدان العربية.

عيّن بريماكوف بعدئذ نائبًا لمدير معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية ا لتابع لاكاديمية العلوم السوفياتية، وأصبح في وقت لاحق مدير المعهد وعضوًا في الاكاديمية، وهي أعلى مرتبة ودرجة علمية في روسيا. يحظى بمكانة كبيرة لدى مختلف الشخصيات الروسية التي رحبت بتعيينه وزيرًا للخارجية خلفًا لأندريه كوزيريف في ٩ كانون الثاني ١٩٩٦، وكان قبل هذا التعيين مباشرة رئيس جهاز الاستخبارات الخارجية منذ ان عينه غورباتشوف في هذا المنصب بعد تفكك جهاز الاستخبارات السوفياتية السابق (كي.جي.بي) اثر محاولة الانقلاب الفاشلة في آب ١٩٩١.

وقبل منصبه في هذا الجهاز، كان

يفغيني بريماكوف.

بريماكوف صحافيًا واكاديميًا وسياسيًا ومفكرًا واداريًا ناجحًا، تشهد على ذلك إدارته لمعهد الاستشراق الذي رأسه بين ١٩٧٧ و١٩٨٥، ثم لمعهد العلاقات الدولية والاقتصاد العالمي حتى ١٩٨٩، وهو العام الذي «رصده» فيه غورباتشوف بفضل سلسلة من المقالات الاستراتيجية التي عززها أهم كتاب صدر له قبل ذلك بفترة قصيرة بعنوان «تشريح ازمة الشرق الاوسط». وفي العام نفسه (١٩٨٩) انتخب، مدعومًا من غورباتشوف، عضوًا في مجلس السوفيات الاعلى، ثم في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ثم مرشحًا لعضوية مكتبه السياسي. وفي ١٩٩٠، تولى رئاسة مجلس السوفيات الاعلى في فترة الصراع بين غورباتشوف ويلتسن. وبعد تعيينه رئيسًا لجهاز الاستخبارات، مدّ بريماكوف جسورًا سرية مع يلتسن ما ساعده لاحقًا في الاحتفاظ بمنصبه والبقاء فيه حتى تعيينه

وزيرًا للخارجية في كانون الثاني ١٩٩٦. وعلى اثر تعيينه، قال عنه غورباتشوف إنه «رجل جدي لمنصب جدي»، مضيفًا انه، في أي حال، لن يستطيع تغيير السياسة الخارجية الروسية.. وهذا ما اعترف به بريماكوف نفسه في اول مؤتمر صحافي عقده بعد تعيينه وزيرًا للخارجية بتشديده على ان روسيا لن تستطيع ان تتصرف في سياستها الخارجية كدولة عظمى (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

«لا يكاد ينشر خبر عن بريماكوف إلا وتقفز إلى الذهن صورة صداقته للرئيس العراقي صدام حسين. إذ كان سعى، بصفته مبعوثًا خاصًا للرئيس السوفياتي السابق ميخائيل غورباتشوف في أثناء حرب الخليج، إلى انقاذ صدّام عبر مفاوضته للانسحاب من الكويت بشروط تحقق مكاسب للرئيس العراقي ولموسكو على السواء. وعلاقة التعارف بين الرجلين تعود إلى نهاية ١٩٦٩ عندما وصل بريماكوف إلى بغداد بصفته مراسلاً لصحيفة برافدا الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفياتي. لكن مهمته الحقيقية لم تكن لها أي علاقة بمهنته الصحافية. فهو حمل معه رسالة من القيادة السوفياتية إلى القيادة البعثية العراقية تعرض فيها موسكو وساطتها لوقف القتال بين الجيش العراقي والحركة الكردية المسلحة بقيادة مصطفى بارزاني. وأحد اهداف التدخل السوفياتي كان يكمن في تطلع موسكو إلى تعزيز تحالفها مع قيادة العراق الجديدة الذي استبشر الكرملين خيرًا بخطواتها المناهضة لـ«الامبريالية» وانفتاحها على «القوى التقدمية» خصوصًا الحزب ا لشيوعي العراقي المتحالف مع السوفيات. وقد أوضح السوفيات ان شروط الوساطة كلها متوافرة فيهم كونهم اصدقاء لبغداد ويعرفون الملا مصطفى بارزاني منذ ١٩٤٦ عندما لجأ هو ومقاتلوه إلى الاتحاد السوفياتي عبر الحدود الايرانية، وبقي فيه حتى عودته إلى العراق اثر الانقلاب العسكري لعبد الكريم قاسم في ١٤ تموز ١٩٥٨.

ولقي العرض السوفياتي اذنًا صاغية من جانب القيادة البعثية حيث كان القتال مع الاكراد يستنزف القدرات العسكرية الضعيفة للعراق. ولأن التعامل مع «العصاة» الأكراد، بتعبير ذلك الزمان، كان في عهدة صدام حسين، النجم الصاعد في القيادة البعثية، تحتّم على بريماكوف ان يتصل به في شأن مهمته. هكذا تمّ التعارف بينهما. وسرعان ما وجد بريماكوف نفسه في جبال كردستان التي كانت تغطيها الثلوج (روى السفير الفرنسي السابق إريك رولو الذي كان آنذاك مراسلاً لصحيفة لوموند الفرنسية انه زار في الوقت نفسه كردستان العراق التي وصل إليها عبر إيران، وكان مرة يتنقل من مكان إلى آخر راكبًا بغلاً عندما التقى مصادفة بريماكوف الذي كان ايضًا راكبًا بغلاً وهو متجه في طريق معاكس).

مهمة بريماكوف الكردية انتهت بنجاح بعدما دبّر لقاء بين بارزاني وصدام الذي سافر سرًّا إلى منطقة كلاله قرب الحدود مع إيران واجتمع مع الزعيم الكردي الثائر. وفي ١١ آذار (١٩٧٠) وقع الطرفان اتفاقًا نص على منح الاكراد حكمًا ذاتيًا. هكذا تعززت أكثر سمعة بريماكوف في الكرملين بأنه «صحافي المهمات الخاصة». وهو اضاف صدام إلى قائمة الزعماء العرب، وكان في مقدمهم الرئيس جمال عبد الناصر، الذي ارتبط بهم بعلاقات شخصية تجاوزت في معظم الاحوال العلاقة بين زعماء وصحافي. وكان يتباهى امام اصدقاء بساعة يد أهداها له الملك حسين نقشت عليها صورة العاهل الاردني.

وإذا كانت الظروف مهيأة لنجاح مهمة بريماكوف مع الشاب صدام، نائبًا للرئيس العراقي (أحمد حسن البكر) في ١٩٦٩-١٩٧٠، فإن تعامله معه بعدما أصبح الأخير زعيمًا أوحد للعراق في ١٩٩١ باء بفشل ذريع. فلا بريماكوف استمع لنصائح كثيرين بألا يورط نفسه مع صدام ولا هذا

استمع إلى نصائح صديقه القديم بالانسحاب من الكويت.

بريماكوف لم يتخل عن فكرة استغلال ضعف نظام صدام حتى بهد هزيمة الأخير في الكويت. فحين طلبت القيادة الكردية، عبر طرف ثالث، رأي بريماكوف في عرض تلقته في النصف الاول من نيسان ١٩٩١ من صدام لاجراء مفاوضات، فإنه لم يحضها على قبول العرض فحسب، بل ابدى استعداده لأن يقوم بدور وسيط سوفياتي ضامن بينها وبين بغداد شرط ان يطلب ذلك منه الطرفان، الكردي والعراقي. لكن بغداد رفضت الفكرة بعصبية عندما فاتحها بالأمر أحد الاطراف الكردية المشاركة في المفاوضات.

نجح بريماكوف في المحاولة الاولى لأنه ذهب إلى بغداد في ١٩٦٩ ممثلاً لدولة نافذة كانت القوة العظمى الثانية في عالم تسوده حرب باردة. بينما كانت هذه الحرب وضعت أوزارها في ١٩٩١ بهزيمة الشيوعية الدولية والاتحاد السوفياتي على وشك الانهيار. وهو ذهب إلى بغداد في المرة الثانية ممثلاً لدولة كان نجمها في الطريق نحو الأفول النهائي ومواقعها ضعفت إلى حد ان بريماكوف كان يأمل ان يستجيب صدام نداءه علّ ذلك يعيد لموسكو ولو قليلاً من نفوذها المتلاشي في المنطقة العربية وعلى الصعيد الدولي عمومًا» (كامران قره داغي، «الحياة»، تيارات، تاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٩٦).

وفي آخر ما رشح من علاقات بين بريماكوف (وهو الآن وزير خارجية روسيا) والنظام العراقي الذي يتزعمه صدام حسين زيارة نائب الوزراء العراقي طارق عزيز موسكو، في ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٦، وإجراؤه محادثات مع بريماكوف الذي أكد ان موسكو تريد تطبيق القرار ٩٨٦ (النفط للغذاء) وان طارق عزيز ابلغ رغبة العراق في «تطبيع» العلاقات مع الكويت والتفاوض مع جميع الاطراف الكردية، وانه من حق العراقيين ان يطالبوا بوضع حدود زمنية واضحة لمهمة لجنة نزع الاسلحة المحظورة (برئاسة رالف أكيوس)، وقال إن موسكو «مرتاحة إلى استعداد العراقيين لتنظيم لقاء في بغداد بين ممثلي زعيمي التنظيمين الكرديين المتصارعين طالباني وبارزاني».

* **بيسميرتنيخ، ألكسندر** (١٩٣٣-): سياسي روسي. كان سفيرًا لبلاده في واشنطن، ثم نائبًا لوزير الخارجية السوفياتي، ثم وزيرًا للخارجية. وبعد استقالته من هذا المنصب الاخير في آب ١٩٩١، ترأس مركز التحليل السياسي، ثم انتخب رئيسًا لرابطة السياسة الخارجية، وأصبح في ١٩٩٣ رئيسًا للمجلس العالمي لوزراء الخارجية السابقين.

من أهم ما نقل عنه، اخيرًا، جاء في حديث لجريدة «الحياة» (العدد ١٢٠٥٥، تاريخ ٢٦

الكسندر بيسميرتنيخ.

شباط ١٩٩٦، ص ١٨) حيث استعرض العلاقات التاريخية بين موسكو والعالم العربي. فقال إن أهم احداثها اقامة العلاقات الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية في ١٩٢٦، وان الاتحاد السوفياتي كان اول بلد غير عربي يعترف بالمملكة وسبق في ذلك حتى بريطانيا التي كانت آنذاك قوة متنفذة في شبه الجزيرة العربية. وقال إن المستشرقين الروس أسسوا مدرسة رصينة تضاهي أو تفوق المدرسة البريطانية وتمتاز بالموقف الودي من العالم العربي، وهو ما ورثه الاتحاد السوفياتي.

وتابع ان «الظلال الايديولوجية» لعبت في ما بعد دورها واخذت موسكو تختار كحلفاء وشركاء لها الدول التي نادت بـ«الاشتراكية العربية» و«طريق التطور اللارأسمالي». وقال انه حينما كان سفيرًا لبلاده أجرى عدة لقاءات مع السفير السعودي الامير بندر بن سلطان واثمرت عن سابقة فريدة في الممارسات الدبلوماسية حين وصل إلى موسكو لبحث استئناف العلاقات سفير السعودية في واشنطن. وأكد ان تلك الزيارة أصبحت ممكنة بفضل «الجسر» الذي اقيم في واشنطن واعقبتها زيارة إلى موسكو قام بها وزير الخارجية السعودي الامير سعود الفيصل حيث تمّ الاتفاق رسميًا على استئناف كامل العلاقات. وقال إنه زار السعودية في ايار ١٩٩١ بصفته وزيرًا لخارجية الاتحاد السوفياتي وقابل الملك فهد بن عبد العزيز، فكان الحوار «بالغ الاهمية وشاملاً»، وحصلت القناعة بضرورة العلاقات «المباشرة والمتينة» بين البلدين.

وعن المحور الشرق اوسطي، رأى بيسميرتنيخ ان دور موسكو في المنطقة بدأ ينحسر قبل تسلم أندريه كوزيريف مهمة وزير الخارجية. وقال إنه بوصفه وزيرًا لخارجية الاتحاد السوفياتي كان اثناء التحضير لمؤتمر مدريد (١٩٩٢) اتفق مع نظيره الاميركي جيمس بايكر على ان يكون البلدان رئيسين للمؤتمر. ففوجيء، بعد استقالته، بان الحديث بدأ عن «راعيين». والمفهومان يختلفان تمامًا؛ فالرئاسة تعني دورًا وامكانات معينة لا يتضمنها اطلاقًا مفهوم الرعاية الذي يقول بيسميرتنيخ انه لا ينطوي على أي صلاحيات حقوقية بل يعني ان الدولتين تلعبان دور «الدفع» ليس أكثر. وقال إنه كان تحدث تحديدًا عن «الرئاسة المتناوبة» اثناء مفاوضاته مع الرئيسين المصري حسني مبارك والسوري حافظ الاسد والملك حسين (الاردن) ورئيس منظمة التحرير ياسر عرفات ورئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير. وذكر انهم جميعًا «وافقوا على طرحي».

وأسف بيسميرتنيخ لأن السياسة الروسية في الشرق الاوسط أخذت تكتسب في ما بعد «طابعًا طقوسيًا إجرائيًا» صرفًا، وان الشرق الاوسط لم يعد ضمن الاولويات في سياسة موسكو. فروسيا حتى وان اعتبرت دولة اقليمية وليست عالمية لا يمكن ان تنتصل عن منطقة قريبة من حدودها ولها أهمية استراتيجية كبرى للدول الاخرى وبالتالي لروسيا ايضًا. فمن غير «اللائق بروسيا ان تقف موقف من لا عمل له». وأكد بيسميرتنيخ انه سمع آراء مماثلة من ساسة وشخصيات عرب كثيرين يعربون عن «حنينهم» إلى دور موسكو «الموازن» في عملية التسوية في المنطقة.

*** تشـــيرنوميردين، فكتـــور**

Tchernomyrdine. V.: سياسي روسي ورئيس الوزراء الحالي (١٩٩٦). بدأ حياته، بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، عاملاً في مدينة صغيرة جنوبي روسيا. صعد السلم الاداري والسياسي أسوة بالكثيرين من المسؤولين في الاتحاد السوفياتي السابق، بدءًا من «الادارة الاقتصادية» أي الاشراف على وسائل الانتاج (مصانع أو ورش بناء...) وبانتهاج التشدّد. تولى ادارة أكبر منشآت الغاز في أورينبورغ على الحدود الروسية-

فكتور تشيرنوميردين.

الكازاخية. ومن هناك، ارتقى تشيرنوميردين ويلتسن السلّم فأسندت إليهما حقائب وزارية في الحكومة السوفياتية وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بيد ان الاختلاف المبدئي بين الرجلين يكمن في ان يلتسن ركب موجة البيريسترويكا ووصل بها إلى قمة الهرم السياسي، فيما ظل تشيرنوميردين «اداريًا» حتى بعد تكليفه رئاسة الحكومة. وكان يحرص على ان يكون «وراء الرئيس»، بل انه آثر احيانًا دفع إيغور غايدار إلى مقدمة المسرح كما حصل اثناء الازمة الخريفية مع البرلمان (١٩٩٣).

إبان هذه الازمة بالذات بدأ نجم السياسي تشيرنوميردين يلمع. فظهر نفوذه واضحًا، إذ ان انحيازه إلى يلتسن لعب دورًا كبيرًا في انهاء تردد الكثيرين من رؤساء المقاطعات. وفي ليلة الهجوم على «البيت الابيض» (البرلمان»)، حينما كانت القيادات العسكرية ترفض التحرك، توجه تشيرنوميردين إلى وزارة الدفاع، والقى خطبة كان لها مفعول شديد.

أصبح رئيسًا للوزراء في كانون الاول ١٩٩٢، في فترة الصراع العنيف في توجه روسيا (الاقتصادي خاصة). فقد وقف مؤتمر نواب الشعب ضد سياسة «العلاج بالصدمة» التي اتبعها سلفه إيغور غايدار وطالب بتنحيته، ووافق على تنصيب تشيرنوميردين بدلاً منه. وبدأ عمله في مقر مجلس الوزراء بمنع الموظفات من الدخول بالسراويل أو التنورات القصيرة، بعد ان كان غايدار ليبراليًا يمنح الحرية حتى للوزراء بأن يعملوا في مكاتبهم بسراويل الجينز والكنزات. وعمل على تغيير الجهاز الحكومي، وبدأ باقصاء فلاديمير غولوفكوف مدير ديوان الحكومة، وعين بدلاً منه صديقه وزميله القديم ألكسندر كفاسوف الذي عمد إلى توسيع الجهاز ليصل عدد موظفيه إلى ٣ آلاف بعد ان كان لا يتعدى الألف في ايام غايدار الذي ذكر، عند استقالته، ان القرارات لا يصدرها الوزراء بل العاملون في الجهاز ومستشارو رئيس الحكومة.

ووجه انتقادات عنيفة إلى تشيرنوميردين أكبر مستشارين أجنبيين لدى الحكومة الروسية، وهما الاميركي جفري ساكس والسويدي أندريس أوسلوند، وأعلنا استقالتهما، ورد رئيس الوزراء بأنه لم يكن يعرف بوجودهما. ومن انتقادات المستشارين الذكورين ان رئيس الحكومة اختار نائبين له من «بين أدنى الناس كفاءة» (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

*** جيرينوفسكي، فلاديمير Jirinovski,V.** (١٩٤٦-): سياسي روسي قومي متطرف، وزعيم الحزب الليبرالي الديمقراطي، برز من وراء كواليس السياسة الروسية محققًا نجاحات هزت الكرملين والدوائر السياسية العالمية، خاصة الغربية نتيجة المرتبة الاولى التي حققها في انتخابات

جيرونوفسكي يتحدث الى احد اليهود الارثوذوكس اثر مغادرته مبنى المجلس الاوروبي في ستراسبورغ (نيسان ١٩٩٤).

١٩٩٣. وقد اعتبر نجاحه هذا على أساس الشعارات القومية المتطرفة تجسيدًا لما يمكن ان تكون عليه ردود الفعل لدى الشعوب ولطغيان المشاعر المتطرفة في وقت من الاوقات وفي إطار ظروف معينة. والوقت هذا كثيرًا ما يكون قصيرًا. وبالفعل، فقد شهدت الانتخابات التي جرت بعد ١٩٩٣ تراجعًا كبيرًا في شعبية جيرينوفسكي.

ولد فلاديمير جيرينوفسكي في ٢٥ نيسان ١٩٤٦ في الما أتا عاصمة كازاخستان. توفي والده وهو طفل وعاش طفولة صعبة جدًا مع أم تزوجت ثانيًا ثم ترمّلت فاتخذت، كما يقول هو، عشيقًا سكيرًا يصغرها بخمسة عشر عامًا. عندما كتب جيرينوفسكي قصة حياته تحدث عن هذه المرحلة بـ«صراحة» متناهية: المكان ضيق، الروائح الكريهة، الطوابير امام الحمامات، انعدام العطف، انهيار العائلة، غياب الرعاية... وقد أدى ذلك إلى إصابته بنوع من الميل إلى العزلة مصحوبة بالرغبة في إثارة الانتباه... تعرّض، كما يقول، لاضطهاد الاكبر سنًا منه وعاش حرمانًا عاطفيًا جعل علاقاته النسائية مضطربة جدًا عندما لا تكون معدومة.

عندما أصبح عضوًا في الكوموسمول (الشبيبة الشيوعية) بقيت صلته بالفتيات محكومة بطفولته وتبحث عن تعويض لها في مظاهر تركز على اعتماد لغة فضائحية ملأى بالايحاءات الجنسية.

انضم، في ١٩٦٤، إلى مدرسة اللغات الشرقية حيث أتقن، إلى جانب الروسية، الفرنسية والانكليزية والالمانية والتركية، وبرز في دروس التاريخ؛ وذلك قبل ان يتلقى مبادىء الماركسية ويتوجه إلى العمل في تركيا. سجن هناك ثم أبعد ليعود إلى بلاده ويؤدي الخدمة العسكرية. تابع دراسة الحقوق في المساء حتى ١٩٧٧ ثم أصبح عضوًا نشيطًا في «لجان السلام». أمضى الثمانينات في الظل باستثناء ما أثير حول طلبه الهجرة إلى اسرائيل وعمله في منظمة «شالوم»، ويروي عارفوه انهم اشتبهوا دائمًا بعلاقة تشده إلى «الاجهزة».

في ٣١ آذار ١٩٩١ بادر إلى طلب الترخيص لحزبه «الليبرالي الديمقراطي»، وهو أول حزب غير شيوعي في الاتحاد السوفياتي، وذلك

بعد اسبوعين فقط من السماح بتعدد الاحزاب. ترشح ضد بوريس يلتسن في معركة الرئاسة الروسية قبل ان يؤيد الانقلاب الذي انتهى باطاحة ميخائيل غورباتشوف. انسحب بعدها قليلاً حيث تحوّل في الخارج وقام بزيارة إلى فرنسا قابل في خلالها الزعيم اليميني المتطرف جان ماري لوبن، وذلك بواسطة من كاتب روسي منشق لا يخفي ميوله الفاشية: ادوارد ليمونوف. والمرجح انه ارتبط في هذه الفترة باقطاب اليمين الاوروبي المتطرف في المانيا والنمسا وبلجيكا.

أربعة شعارات تمحورت حولها افكاره في انتخابات ١٩٩٣ النيابية: - مكافحة الجريمة من دون رحمة بما فيها إقامة محاكم فورية لتصفية زعماء العصابات. - العودة إلى روسيا العظمى التي تشمل مناطق مستقلة حديثا في البلطيق وآسيا الوسطى وأوكرانيا. - الثروة للجميع. - والتعددية الحزبية. وعشية هذه الانتخابات، اصدر كتابه «القفزة الاخيرة نحو الجنوب». ويلخص الكتاب بافكاره في اقامة دولة روسية عظمى «تحدّها البحار». ويدعو إلى تجهيز حملة اخيرة «لكي يتوقف (الجيش الروسي) إلى الابد عند ساحل المحيط الهندي ويكون له في الجنوب جاران هما حليفان استراتيجيان: الهند والعراق». وفي رأيه ان من مصلحة غالبية البشر «ان يكون العالم الاسلامي منقسمًا على نفسه»، والعالم الآخر الذي يجب تقسيمه هو «الناطق بالتركية» والداعي إلى الطورانية.

شهد شهر نيسان ١٩٩٤ موجة من تصريحات استفزازية أدلى بها جيرينوفسكي، وكانت مضت شهور قليلة على فوزه الانتخابي الكاسح، أبرزها تهديده، في حديث أدلى به إلى صحيفة «ويلت ام شونتاغ» الالمانية، ألمانيا التي رفضت منحه تأشيرة دخول إلى اراضيها بشن «حرب عالمية ثالثة» وتدميرها «تدميرًا كاملاً» في حال تسلمه السلطة في موسكو. وفي خطاب سياسي القاه في موسكو، أعلن عن تشكيل «جيش سلافي» جديد للدفاع عن روسيا ضد ثقافة «العنف والمال» الغربية. وفي فرنسا، وإبان وجوده مع زملاء له من النواب الروس في ستراسبورغ (اعمال دورة البرلمان الاوروبي) لم يتردد في الاقدام على استفزازات عدة اربكت الجانب الفرنسي الذي وافق على اعطائه تأشيرة دخول. وكان رئيس مجلس الفدرالية الروسي فلاديمير شوميكو حرص في كلمة القاها في افتتاح اعمال الدورة على تأكيد «رغبة روسيا الصادقة» بالانضمام إلى المجلس الاوروبي المكون من ٣٢ عضوًا ويحتل الروس فيه مقعد «ضيف خاص» منذ كانون الثاني ١٩٩٢. وعقب ذلك، طلب جيرينوفسكي الكلام فشن هجومًا عنيفًا على المجلس الاوروبي وسط شجب واستنكار النواب الحاضرين. وفي ١٠ شباط ١٩٩٦، عقد مؤتمرًا صحافيًا مشتركًا، في موسكو، مع زعيم «الجبهة الوطنية» في فرنسا جان ماري لوبن تحدثا خلاله عن اتفاقهما على تشكيل منظمة للقوى اليمينية في اوروبا. وفي المؤتمر شبّه جيرينوفسكي حزبه بـ«عذراء في ثياب بيضاء سيركض وراءها ٤٠ مليون فحل».

في نيسان ١٩٩٤، اثار تقرير بثته وكالة «أسوشيتد برس» وشبكة التلفزيون الاميركية «سي.إن.إن.» ونشرت عنه «الحياة» (تاريخ ٥ نيسان ١٩٩٤) عن عثور احد مراسليها على سجلات رسمية في ألما أتا (كازاخستان) تؤكد الأصل ا ليهودي لفلاديمير جيرينوفسكي. وجاء في التقرير: رغم ان السجلات التي عثر عليها في ألما أتا لا تكشف هوية والد جيرينوفسكي فان لقبه مدرج في سجل الولادة تحت إسم «ايدلشتاين». وتظهر الوثائق انه قدم طلبًا لتغيير إسمه من ايدلشتاين إلى جيرينوفسكي وحصل على اذن بذلك في حزيران ١٩٦٤ قبل انتقاله من كازاخستان إلى موسكو لمواصلة تعليمه العالي. ومعروف ان النسب المحددة لابناء القوميات في

الجامعات كانت تحول دون قبول الكثير من الطلبة اليهود أو الذين يحملون القابًا يهودية. وتمكن جيرينوفسكي من الحصول على مقعد في «معهد اللغات الشرقية» الذائع الصيت في العهد السوفياتي والتابع لجامعة موسكو. كما تشير الوثائق إلى ان زوج امه الاول أندريه فاسيليفيتش جيرينوفسكي مات بالسل في آب ١٩٤٤، قبل ١٨ شهرًا من ولادة فلاديمير جيرينوفسكي في ٢٥ نيسان ١٩٤٦، الذي يقول في سيرته الذاتية ان امه التي توفيت في ١٩٨٥ كانت لديها خمسة اولاد من زوجها الاول، ولا يذكر إسمه اطلاقًا. ويكشف السجل كذلك انه قبل ولادته بخمسة اشهر تزوجت امه ولف ايساكوفيتش ايدلشتاين المسجل رسميًا كيهودي، وأصبح اسمها ألكساندرا بافلوفنا ايدلشتاين وسجل انتماؤها القومي كروسية. وكانت اليهودية في الاتحاد السوفياتي السابق تسجل بوصفها قومية متميزة. وكان نشطاء يهود ذكروا ان جيرينوفسكي عمل في صفوف منظمة «شالوم» اليهودية في موسكو اواخر الثمانينات، إلا انه نفى أي علاقة له بالمنظمة. كما تلقى دعوة للهجرة إلى اسرائيل في ١٩٨٣ رغم انه لم يقدم طلبًا لهذا الغرض.

*** حسبولاتوف، رسلان Khasboulatov, Rouslan** (١٩٤٢-): مولود في شيشانيا وسليل العائلة الارستقراطية الشيشانية المعروفة. انضم إلى الشبيبة الشيوعية، ثم إلى الحزب الشيوعي. كان من بين الذين وُجهت إليهم تهمة الفساد في اواخر ايام الاتحاد السوفياتي. في ١٩٩٠ أصبح نائبًا، واعتبر من الشيوعيين الجدد المحافظين ومن المعارضين الأساسيين لمجلس الوزراء. أصبح رئيسًا للبرلمان الروسي في ٢٩ تشرين الاول ١٩٩١، واستمر في هذا المنصب حتى خريف ١٩٩٣، فقاد (مع حليفه ألكسندر روتسكوي) البرلمانيين في حملة الحد من صلاحيات الرئيس الروسي وعرقلة

رُسلان حسبولاتوف.

إصلاحاته، لكنه فشل (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

بروفيسور ويحمل دكتوراه في الاقتصاد. كان من اوائل الداعين إلى اقتصاد السوق، واثارت مقالاته اهتمام اوساط المثقفين في حركة «روسيا الديمقراطية» التي ساندته في معركته الانتخابية (١٩٩٠). وبعد انتخاب يلتسن رئيسًا للبرلمان صيف ١٩٩٠، بدأ البحث عن مرشح يشغل منصب النائب الاول، والذي ينص العرف المتبع على ان يكون من قومية غير روسية تأكيدًا للتعدد والتآلف بين القوميات، ووقع الاختيار عليه. فتولى الادارة الفعلية للبرلمان الذي تفرّغ رئيسه (يلتسن) للمعركة السياسية مع ميخائيل غورباتشوف، حتى اذا انتخب يلتسن رئيسًا لروسيا الاتحادية ورث حسبولاتوف كرسيه البرلماني وخرج من دائرة الظل ليصبح الرجل الثاني في هرمية السلطة. لكن خلافاته مع يلتسن لم تظهر إلى العلن إلا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتكليف إيغور غايدار تطبيق

الاصلاحات الراديكالية.

طالب حسبولاتوف بتقديم برنامج واضح وليس «خطوطًا عامة»، إلا انه وافق في البداية على منح الرئيس يلتسن صلاحيات استثنائية لتنفيذ الخطة الاصلاحية على رغم اعتراضه على ما وصفه بـ«الانسياق لمطالب صندوق النقد الدولي»، والذي قال إنه يتعامل مع روسيا وكأنها واحد من بلدان العالم الثالث.

وشنت الصحف الموالية ليلتسن والمصنفة «ديمقراطية» حملة عنيفة عليه وهو في منصب رئيس البرلمان، واقتبست عن الصحافة الشيوعية اتهامات كانت وجهت إلى حسبولاتوف اثناء تحالفه مع يلتسن، ومنها العداء للروس والارتباط بالمافيا الشيشانية. وردًا على هذه الاتهامات قال رمضان عبد اللطيفوف، النائب الداغستاني ورئيس مجلس القوميات في البرلمان، ان حسبولاتوف «أدى لروسيا خدمات أكثر من روس كثيرين»، فيما لم يقدم خصوم حسبولاتوف أي قرينة على صلاته بالمافيا (المرجع الرئيسي: «الحياة»، تيارات العدد ٢٧، تاريخ ٩ تشرين الاول ١٩٩٣).

وحينما اعلن يلتسن في آذار ١٩٩٣ نيته فرض الحكم الرئاسي، تصدى له حسبولاتوف وروتسكوي، وانضم إليهما فاليري زوركين، رئيس المحكمة الدستورية. واضطر يلتسن إلى التراجع ليعاود الكرة مجددًا في ٢١ ايلول (١٩٩٣) حينما حلّ البرلمان وحاصر مبناه، سادًا كل المنافذ التي كان يمكن ان يستخدمها خصومه لايصال رأيهم عبر الاذاعة والتلفزيون (الذي يسيطر عليه انصار يلتسن) إلى الشعب (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

*** روتسكوي، ألكسندر Routskoi,A.** (١٩٤٨-): عسكري وسياسي روسي. ظهر على المسرح السياسي في روسيا في ١٩٨٩ حينما جرت اول انتخابات حرة لعضوية البرلمان السوفياتي، ووقع عليه اختيار الحزب الشيوعي ونشرت صحيفة «برافدا» الناطقة باسم الحزب مقالات تشيد ببطولات الطيار السابق ألكسندر روتسكوي الذي قاتل في افغانستان وأسر في باكستان، وشارك رئيس جهاز المخابرات (كي.جي.بي) فلاديمير كريوتشكوف شخصيًا في مساع للافراج عنه. وفي حملته الانتخابية، دعا روتسكوي إلى تعزيز القوات المسلحة «ليبقى الاتحاد السوفياتي دولة جبارة»، فيما قال عن الأكاديمي الراحل أندريه زاخاروف، زعيم الحركة الديمقراطية في حينه، ان «فضله الوحيد هو صنعه القنبلة الذرية». وكان طرح مثل هذه الآراء إبان المدّ الديمقراطي طريقًا سريعًا إلى الفشل. ففشل روتسكوي وفاز منافسه في الدائرة الانتخابية الصحافي فالنتين لوغونوف، حليف يلتسن آنذاك وأقرب مساعدي حسبولاتوف فيما بعد.

ومن دروس الفشل، تعلم روتسكوي، فخاض حملة الانتخابات في ١٩٩٠ بشعارات جديدة تدعو إلى الاشتراكية الديمقراطية على الرغم من انه ترشح، هذه المرة ايضًا، عن الحزب الشيوعي. وبعد أشهر على فوزه بدأ ينتقد الجمود العقائدي في الحزب، كما تزعم كتلة برلمانية باسم «الشيوعيون في سبيل الديمقراطية». لكنه كان فيها مجرد واجهة استثمرها ليبراليو القيادات الحزبية ممن حاولوا بث روح جديدة في الكيان القديم.

وعلى رغم ان القوى الديمقراطية لم تلغ تحفظاتها ومخاوفها، فإنها أيدت يلتسن، حينما اختار روتسكوي نائبًا له في اول انتخابات رئاسية في روسيا، وكان أوحى بهذا الاختيار غينادي بوربوليس «العراب الفكري» ليلتسن. اما الهدف فكان ترضية العسكر اولاً، وضمان اصوات «الشيوعيين الليبراليين» ثانيًا، وتطمين المجمّع العسكري الصناعي الذي اعتبر روتسكوي خلفًا محتملاً ليلتسن.

بدأ روتسكوي، وهو نائب الرئيس،

محاولات للتأثير في عمل الحكومة، ما ألّب ضده غينادي بوربوليس. وكلف روتسكوي الاشراف على الزراعة، وهو منصب كان يعتبر تقليديًا طريقًا نحو الهاوية ولكل سياسي مغضوب عليه. وأثر فشله في تحقيق أي نتائج ملموسة، كُلف رئاسة لجنة مكافحة الفساد والرشوة والاجرام، واستغل هذا المنصب لاثارة فضائح ضد خصومه السياسيين من اقرب مستشاري يلتسن وقادة الحكومة من الجناح الراديكالي.

وفي محاولة لاختراق الفريق الرئاسي، تحالف روتسكوي مع سيرغي ستانكيفيتش، مستشار يلتسن للشؤون السياسية ومنافس بوربوليس. واجتمع الرجلان على فكرة التصدي لانهيار روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وسانده الروس المقيمون في الجمهوريات المستقلة (المرجع الرئيسي: «الحياة»، تيارات العدد ٢٧، تاريخ ٩ تشرين الاول ١٩٩٣).

بلغت الخلافات بين الرئيس يلتسن ونائبه روتسكوي ذروتها مع بدء حكومة إيغور غايدار، في مطلع ١٩٩٢، تطبيق سياسة «العلاج بالصدمة» والانتقال إلى الاقتصاد الحر. وعلى ارضية الانتقاد لهذا البرنامج تحالف روتسكوي مع رسلان حسبولاتوف (راجع «حسبولاتوف، رسلان» في هذا الباب «زعماء ورجال دولة»؛ وراجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

*** زيوغانوف، غينادي (١٩٤٤-):**
سياسي روسي وزعيم الحزب الشيوعي الروسي ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. ولد في محافظة أريول التي غدت اليوم جزءًا من «الحزام الاحمر» الذي يطوق موسكو العاصمة.

كان والد غينادي زيوغانوف وجده معلمين قرويين. وعندما انهى غينادي المدرسة بقي في القرية ايضًا ومارس المهنة نفسها قبل الالتحاق بكلية محلية لدراسة الرياضيات. ثم امضى خدمته العسكرية لمدة ثلاث سنوات في وحدة خاصة في الاستخبارات العسكرية كانت مهمتها تدريب اعضائها على مقاومة الاضرار الناجمة عن الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية. وبعد تسريحه من الجيش انتقل للتفرغ في منظمة الشبيبة الشيوعية والحزب الشيوعي، ثم انتقل بعد ذلك إلى موسكو.

يصفه زميله بكينين الذي امضى معه عشر سنوات في اللجنة المركزية بأنه «كان فوق المعدل، حسن التنظيم، جادًا، كئيبًا، مع انه كان يحتفظ بعلاقات جيدة مع الجميع. وكان مخلصًا وموضع ثقة».

أصبح زيوغانوف سكرتيرًا لمنظمة الحزب في منطقة أوريول، جنوبي موسكو، قبل العودة إلى اللجنة المركزية في ١٩٨٣. وعلى خلاف العديد من الموظفين، لم يكن موظفًا مشدودًا إلى طاولته، بل كان يتنقل بين المناطق السوفياتية. وبالتدريج اصبح زيوغانوف من منتقدي سياسة غورباتشوف، وتوصل إلى قناعة بأن البيريسترويكا اصبحت مرادفًا لتدمير الحزب الشيوعي والنظام

غينادي زيوغانوف.

السوفياتي. ولم يكن هذا موقفًا نادرًا، لكن موقفه الشجاع في الافصاح عن آرائه لم يكن امرًا مألوفًا في الحزب.

في ايام البيريسترويكا (التي بدأت في ١٩٨٥)، بدأ زيوغانوف يتردد على مقر ألكسندر بروخاروف، محرر جريدة «اليوم» المناوئة لغورباتشوف. وأقنع هذا الصحافي الذي لا تربطه صلة بالشيوعيين باصدار بيان وطني من شأنه ان يستقطب العناصر المناوئة لغورباتشوف. وصدر هذا البيان في تموز ١٩٩١ قبل الانقلاب الفاشل على غورباتشوف، وجاء في مستهله: «ايها الروس الاعزاء، يا ابناء الاتحاد السوفياتي، ايها المواطنون الاعزاء، إن وطننا يتعرض إلى مؤامرة كبرى لا مثيل لها. ان بلادنا، ووطننا، وامتنا العظيمة، التي وهبنا إياها التاريخ، والطبيعة، واجدادنا المظفرون، تفنى، وتتمزق، وتغور في غياهب الظلام والعدم...».

وكان ثلاثة من موقعي هذا البيان الاثني عشر ممن اشتركوا مع الوزراء الذين لعبوا دورا بارزًا في اعتقال غورباتشوف في دارة الاستراحة في القرم (آب ١٩٩١) بعد صدور البيان بشهر. وليس ثمة أي دليل على ضلوع زيوغانوف بهذا الأمر. فهو كان يتمتع باجازته في شمالي القفقاس خلال تلك الاحداث. أما بعد ذلك، فقد وصف زيوغانوف هذه المحاولة بأنها «أوبريت» خُدع فيها دعاة البقاء على صيغة الاتحاد السوفياتي المحافظون، وهي في جوهرها «مؤامرة» استفاد منها يلتسن لالغاء الحزب الشيوعي وفرض نظام السوق على طريقة العلاج بالصدمات. ويؤكد زيوغانوف ان تمزيق الاتحاد السوفياتي تمّ بمباركة الغرب: «ما كان بوسعهم ان يحققوا نتائج افضل لو جعلوا رئيس الاستخبارات الاميركية سكرتيرًا عامًّا للحزب الشيوعي. لقد استخدمت الولايات المتحدة صندوق النقد الدولي للاجهاز على الصناعة الروسية والتخلص من منافس».

وبعد «المؤامرة» (الانقلاب على غورباتشوف)، استقال عشرات الالوف من الموظفين الشيوعيين أو انحازوا إلى جانب يلتسن. اما زيوغانوف فكان واحدًا من بضع مئات ممن آثروا مواصلة الكفاح. وفي ١٩٩٢، عندما اشتدت سياسة يلتسن الرأسمالية حدة، ظهرت منظمات مختلفة تحمل اسماء وطنية مثل: اتحاد جماهير عموم روسيا، حزب الوطن الام، الجمعية الوطنية الروسية، مجلس التجمعات الوطنية الشعبية، وكان زيوغانوف حاضرًا فيها جميعًا. وتعلم الكثير من الآخرين، أي انه لم يكن منغلق الذهن.

كان زيوغانوف من ابرز المدافعين عن شرعية الحزب في المحكمة الدستورية التي صدر قرارها بالغاء الحظر عنه، وعمل على لملمة ا لشتات في الاقاليم والمحافظات وصارع من اجل توحيد المجموعات المتشرذمة.

بيد ان الحزب الشيوعي «الجديد نوعيًا» على حد تعبير زيوغانوف، كان بحاجة إلى افكار تبرئة من آثام التنظيم القديم دون ان تنسلخ عنه شرائح واسعة من المتقاعدين والمسنين الذين اصبحوا ركيزته الأساسية. وأخذ زيوغانوف يروّج تدريجًا لفكرة «الأوراسية» متحدثًا عن كيان روسي لا ينتمي إلى أي من ا لقارتين (آسيا أو أوروبا) بل إلى القارتين معًا، أي انه يجمع بينهما. ولم يعد مصطلح «الاممية» لازمة تتكرر في منشورات الحزب. وأخذ زعيمه، زيوغانوف، يتحدث عن «تاريخ موحد عمره ألف سنة» يجمع النظام القيصري والحكم البلشفي في آن واحد. بيد انه رفض القومية بمفهومها الشائع وتحدث عن «وحدة اتنية معقدة» قوامها الشعوب السلافية وتتعايش فيها الديانتان المسيحية (الارثوذكسية) والاسلام، دون اشارة إلى اليهودية. وليس مستغربًا حصول الشيوعيين (في انتخابات ١٩٩٥) على زهاء ٥٠٪ من الاصوات في داغستان ومناطق اسلامية اخرى، إذ إن الشعوب الصغيرة أرعبتها

الحرب الشيشانية من جهة، وحديث القومي المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي عن «النقاء العرقي» من جهة أخرى. وسجلت لصالح زيوغانوف تحذيراته من محاولات دفع روسيا إلى مجابهة مع العالم الاسلامي وتأكيده الروابط الجيوسياسية والروحية بين الارثوذكسية والاسلام. وإثر صراعات طويلة مع الجناح المتشدد بزعامة أوليغ شوينيين تمكن زيوغانوف من استبعاد صياغات مثل «دكتاتورية البروليتاريا»، وثبت في برنامج الحزب التعددية البرلمانية كأساس للحياة السياسية. وعلى الصعيد الاقتصادي صاغ الشيوعيون برنامجًا توليفيًا اقتبس من اليسار غير الماركسي مذهب «التنمية المستقرة» كنقيض للمجتمع الاستهلاكي وبشّر بـ«الروح الجماعية» كتقليد متوارث في الاقتصاد الروسي والسوفياتي في ما بعد.

وكان الاقرار بـ«تعددية الانماط» صيغة صغيرة للاعتراف بالملكية الخاصة، ما يعني شطب أهم بند في الماركسية التقليدية وقطع خطوة مهمة نحو الاشتراكية الديمقراطية على النمط السويدي مثلاً. وإثر استكمال العدة الايديولوجية، بدأ التكتيك السياسي، بالغاء حظر الحزب اولاً، ثم بقيادة كتلته القوية في مجلس السوفيات الاعلى (البرلمان). ولم يكن زيوغانوف نائبًا (قبل انتخابات ١٩٩٥)، إلا انه كان يواظب على حضور جلسات البرلمان «متفرجًا» من الشرفة مع الضيوف والصحافيين. وغالبًا ما شوهد وهو يكتب سريعًا على قصاصات ينقلها مراسلون إلى النواب داخل القاعة ليصوّت الشيوعيون على هوى زعيمهم أو ليختلوا به في حديث رواقي هامس.

وأثناء المجابهة بين يلتسن والبرلمان في ١٩٩٣، دعا زيوغانوف إلى «مقاومة سلمية» وسحب عمليًا انصاره من بين المجموعات المسلحة التي رابطت في مبنى الهيئة الاشتراعية وتحدث مرتين في التلفزيون الحكومي داعيًا جميع الاطراف إلى «عدم الانجرار إلى الاستفزاز والامتناع عن استخدام القوة». وبفضل هذه المناورة نجا وانصاره من الاعتقال. وبعد حظر لم يستمر طويلاً سمح لحزبه بالمشاركة في الانتخابات التي اعقبت احداث البرلمان، حيث أخذ زيوغانوف رسميًا يقود كتلة حزبه التي حصلت على ١٣٪ من مقاعد البرلمان. وخلال ١٩٩٤ و١٩٩٥ عزز الحزب مقاعده، وحصل الشيوعيون على أكثر من ثلث مقاعد البرلمان (هلال الماشطة، «الحياة»، العدد ١٢٠٦٨، تاريخ ١٠ آذار ١٩٩٦؛ وعلي الشوك، «الحياة»، العدد ١٢١٢٣، تاريخ ٥ ايار ١٩٩٦). وفي انتخابات حزيران ١٩٩٦، كان زيوغانوف المنافس الرئيسي ليلتسن (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

* **سخاروف، أندريه** (إضافة إلى ما ورد في ج١، ص ٧٦-٧٨): فاز في انتخابات ٢٦ آذار ١٩٨٩ النيابية، وأسس مع يلتسن، «مجموعة موسكو البرلمانية»، وكان زعيمًا لحركة الحقوق المدنية. توفي اواخر ١٩٨٩.

* **سولجنتسين، ألكسندر Soljenitsyne, A.** (إضافة إلى ما ورد في «الاتحاد السوفياتي» ج١، ص ٦٣-٦٤ وص٧٩): عاد الكاتب الروسي الكسندر سولجنتسين إلى روسيا من بوابتها الشرقية. أي من فلاديفوستوك التي شهدت هبوط طائرته في ماغالدان مركز سجن «ارخبيل غولاغ» في ٢٧ ايار ١٩٩٤ وسط حشد من مئات الصحافيين الاجانب والروس لم تشهد المدينة له مثيلاً. ومن فلاديفوستوك امضى ٥٥ يومًا من الطواف في ربوع روسيا قبل ان يصل إلى موسكو حيث خصصت السلطات له فيها منزلاً لاقامته. وفي اثناء طوافه، كان يردّد ان روسيا «في مصيبة كبرى وصرخات الالم تتعالى من كل جنب فيها».

الكسندر سولجنتسين
مع زوجته ناتاليا..

وفي اول خطاب له على ارض موسكو صاغ سولجنتسين افكاره الاساسية، ومحورها ان «الخروج من الشيوعية رافقته آلام كثيرة... وان المحاولتين اللتين جرتا سنة ١٩٨٥ (محاولة غورباتشوف) وسنة ١٩٩١ (محاولة يلتسن) رافقتهما أخطاء فادحة وافضت كل منهما إلى درب وعر». وحمل الاديب بشدة على السلطة الحالية التي قال انها لا تنفذ التزاماتها حيال المواطنين، وان الشلل الاقتصادي في الصناعة يحرم قطاعات واسعة من الضمانات فيما الفلاحون «يعملون بالمجان وينتفع الوسطاء فقط والشعب كله يعاني من موجة الاجرام التي تهدد بخنق المجتمع، وهو ليس سيّد مصيره». وأثار خطابه هذا (وتصريحاته في ما بعد) استياءات واسعة لدى السياسيين الراديكاليين الروس ذوي التوجهات الغربية. وكانت قد اثارت استياءهم كذلك (وهم اصحاب النهج الغربي) الطريقة التي عاد بها إلى بلاده.

فقد وصفت صحيفة «نيزافيسيمايا غازيتا» رجوعه من منفاه عبر شرقي روسيا الاقصى بأنها تأكيد ان «الشمس تطلع على روسيا من الشرق». اضف إلى ذلك ان الاديب العائد كان، قبل وصوله إلى موسكو، يعقد لقاءات في كل مدينة ينزل فيها باستثناء بيروبيدجان، عاصمة مقاطعة («جمهورية») بيروبيدجان اليهودية، التي تعالت فيها، نتيجة عدم زيارته لها، أصوات تتحدث عن «عداء السامية». وكان في طوافه يقول لمستقبليه انه سينقل «صوت الشعب إلى أسماع من يملك السلطة والنفوذ»، وان فوز المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي في الانتخابات النيابية كان سببه ان الحكام «لم يشعروا بمصيبة الشعب وتصرفوا في صورة هوجاء دون عقل». واتهم الاصلاحيين بانهم اختاروا أسخف اسلوب لعلاج روسيا من الشيوعيين، وهو اسلوب تحول إلى نهب للشعب. ومنذ الايام الاولى لعودة سولجنتسين أخذت القوى السياسية المتصارعة في روسيا تبذل محاولات لكسبه إلى جانبها، وهو الاديب الذي قال عنه سيرغي زاليغين، احد كبار الادباء الروس المعاصرين، انه «خاتم الادب الكلاسيكي الروسي» الذي كان ليف تولستوي رمزه الأكبر.

في منفاه في الولايات المتحدة، سكن سولجنتسين في بلدة كافنديش (في فيرمونت التي تكسوها الثلوج معظم اوقات السنة) التي تعد نحو ١٣٠٠ نسمة أظهروا تعاونًا مع ضيفهم الروسي، فلم يدعوا احدًا يضايقه، بل احتفوا بأبنائه الثلاثة في مدرستهم: ستيفان،البكر الذي درس في هارفرد، بينما شقيقاه يرمولاي وإغنات كانا ما زالا في مدرسة البلدة عندما قرّر الوالد العودة إلى وطنه. والثلاثة تأمركوا تمامًا، كذلك وافقت والدتهم على حيازة الجنسية الاميركية، أما سولجنتسين فلم يقبل بها. يقول ابنه ستيفان: «لم يغادر روسيا إلا جسديًا. واختار تلك المنطقة في فيرمونت لاحتشادها باشجار البتولا وشتائها الثلجي الطويل».

عن سيرته الذاتية، كتب جاد الحاج («الحياة»، ٢٩ ايار ١٩٩٤):

في مطلع شتاء عام ١٩١٨، ولد ألكسندر سولجنتسين في كيسلوفودج من أب وأم قوقازيين مثقفين، وترعرع في كنف أمه إذ توفي والده في حادث قبل ولادته. درس الرياضيات في جامعة روستوف وأخذ دروسًا بالمراسلة مع جامعة موسكو في مادة الآداب. شارك في الحرب العالمية الثانية برتبة كابتن مدفعي، لكنه أوقف في ١٩٤٥ لأنه كتب رسالة تنقد ستالين فأمضى ثماني سنوات في السجن مع الأشغال الشاقة ضمن نظام المعتقلات السيبيرية، كان عليه بعدها ان يمضي ثلاث سنوات أخرى في الاقامة الجبرية. و لم يسمح له بالسكن في أي مكان يختاره بل تعيّن عليه الاستقرار عام ١٩٥٦ في ريازان في اواسط روسيا والعمل كمدرّس رياضيات. لكنه هناك بدأ الكتابة في صورة جدّية.

في بداية الستينات كان المناخ السياسي متجهًا نحو محو آثار الستالينية. وعام ١٩٦٢، ارسل سولجنتسين روايته الاولى «يوم في حياة ايفان دنيسوفيتش» إلى المجلة الادبية «نوفي مير» التي نشرتها في سرعة ولقيت رواجًا واسعًا ما دفع باسم كاتبها إلى مقدم الطليعة في الادب الروسي المعاصر. والرواية مستمدة من تجربة الكاتب في معسكرات الاعتقال السيبيرية خلال الحكم الستاليني. لغتها البسيطة المكثفة من دون فصاحة أو تزويق وقوة الشهادة فيها مشفوعة بكلف علموي دقيق بالتفاصيل وضعتها في مصاف الروايات العالمية الكبرى خلال فترة وجيزة. فترجمت إلى معظم اللغات الحية قبل بداية السبعينات.

إلا ان انقشاع الجو السياسي لم يدم طويلاً، وبالتالي ما إن سقط خروتشيف عام ١٩٦٤ حتى عاد التضييق على الابداع وعاد سولجنتسين إلى رفع صوت المعارضة والنقد. والواقع انه بعدما نشرت له مجموعة قصص صغيرة عام ١٩٦٣ منع إنتاجه من النشر الرسمي. لكن السنوات التالية عرفت صدورها سرًا وتسريبها إلى الغرب، حيث ترجمت وعرفت رواجًا منقطع النظير. ففي ١٩٦٨، صدرت «المدار الاول» التي يعتبرها معظم النقاد أكثر اعماله فنية وتوازنًا ربما لأنها تجمع بين الادب والرياضيات وتعكس تجربة الأسر من زاوية رمزية غير مباشرة، وتروي قصة علماء يشتغلون لحساب الاستخبارات ويخوضون صراع الضمير والواجب. إذا تواطأوا مع السلطة يسمح لهم بالبقاء في مختبر البحوث التابع للسجن وإذا رفضوا يعادون إلى صلف العيش في المعتقلات.

العام ١٩٦٨ صدرت «جناح السرطان» التي استمدها سولجنتسين من تجربته الشخصية ايضًا بعدما أصيب بالسرطان وعولج بنجاح في اواسط الخمسينات حين كان منفيًا في كازاخستان. وبطل الرواية، مثل مؤلفها، سجين اطلق سراحه حديثًا. انتقل بعدها إلى الرواية التاريخية فصدرت له العام ١٩٧١ رواية «آب ١٩١٤» التي وصف فيها سولجنتسين معركة

تاننبيرغ من خلال شخصيات عسكرية في الفيلق الروسي الاول خصوصًا الجنرال سامسونوف. وسبرت الرواية اغوار الهوان والتفكك في روسيا القيصرية إلا ان احدًا من النقاد والقراء على السواء لم يستطع ان يدعي كونها سلسة المطالعة على رغم سطوتها في المعلومات والدسامة الوصفية.

صدر الجزء الاول من «أرخبيل الغولاغ» في باريس ١٩٧٣ بعدما استولت الـ«كي.جي.بي» على إحدى النسخ الاصلية التي كانت ستوزع سرًا في روسيا على غرار الروايات السابقة. وفي الرواية وصف تفصيلي مجهري الدقة لمعسكرات الاعتقال التي تأسست بعد الثورة البلشفية وشهدت انتشارًا وتطورًا مركزيًا وتنظيميًا هائلاً خلال العهد الستاليني. وتجمع هذه الرواية بين الوقائع التاريخية وشهادات مئات الاسرى والهيكلية القانونية ناهيك عن التجربة الشخصية لسولجنتسين المعروف انه يتمتع بذاكرة فوتوغرافية مذهلة.

وعلى أثر صدور الجزء الاول من ذلك الارخبيل هاجمت الصحافة السوفياتية سولجنتسين بعنف ووجهت إليه تهمة الخيانة العظمى في ١٢ شباط ١٩٧٤، وصدر القرار بنفيه في اليوم التالي.

في المنفى-سويسرا اولاً لبضعة أشهر، ثم فيرمونت في الولايات المتحدة-كتب سولجنتسين كمًا هائلاً من الصفحات. فبالاضافة إلى كتابه التسجيلي «لينين في زوريخ: مقاطع» الذي صدر في ١٩٧٦، نشرت له مؤلفات نقدية تناول بعضها الحياة الثقافية في الاتحاد ا لسوفياتي كما في كتابه «السنديانة والعجل» الذي صدر في ١٩٨٠، و«الخطر المميت» الذي احتوى تحليلاً لسوء الفهم الاميركي تجاه بلاده. إلا ان العمل الضخم الذي حققه سولجنتسين في منفاه الاميركي يبقى خمسة آلاف صفحة من التاريخ الموثق للثورة الروسية بعنوان «العجلة الحمراء» استغرقه انجازها معظم سنوات اقامته في الولايات المتحدة (إلى هنا انتهى ما جاء بقلم جاد الحاج).

أما عن آخر ما صدر لسولجنتسين وحمل تفكيره وآراءه حول روسيا، تاريخيًا وراهنًا وتوقعًا مستقبليًا، فهو في كتاب له بعنوان «المشكلة الروسية في نهاية القرن العشرين» (الصادر عن فايار، باريس، ١٩٩٤، ١٦٨ صفحة)، والذي تناول مضمونه الكاتب والمترجم المعروف جورج طرابيشي في مقال نشرته «الحياة» (العدد ١١٥٦٩، تاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩٩٤، ص ٢٠)، ومنه هذه الفقرات المختارة:

– الحقبة النقية أو الذهبية، برأي سولجنتسين، هي الحقبة النوفغورودية، نسبة إلى نوفغورود، المدينة الروسية الوحيدة التي صمدت في القرن الثالث عشر للغزو المغولي بفضل قيادة ألكسندر نيفسكي، والتي كانت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مهد تلك الاسطورة التي يعتمدها سولجنتسين، مع بلاطونوف كبير مؤرخي تلك الحقبة، باسم «الديمقراطية النوفغورودية».

– «الكارثة» هي تلك التي تبدأ زمنيًا عندما آل عرش روسيا للقياصرة من آل رومانوف الذين كان اولهم ميخائيل الثالث (١٦١٣-١٦٤٥) وآخرهم نقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧)، وتمثلت بالسقوط في مدار الحضارة الغربية ومحاولة محاكاتها. وهذه «الجريمة» بلغت ذروتها مع بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) الذي كان أول قيصر روسي يطأ ارض اوروبا، وينصب نفسه «خادمًا للتقدم» دون ان يدرك ان الحضارة لا تحاكى، وان حاجة روسيا إلى اللحاق تقنيًا بالغرب لا ينبغي ان تُلبى على حساب روحها وتاريخها وإيمانها وكنيستها.

– «جريمة» بطرس الأكبر تبقى جنحة بالقياس إلى جناية البلاشفة، فهؤلاء باعوا روسيا روحًا وامة وارضًا في المزاد العلني. وهم لم يزوّروا

هوية الشعب الروسي فحسب، بل عملوا على تدميره بالمعنى المادي: في الحرب العالمية الثانية، في المجاعات، في معسكرات التعذيب، في التصفيات... باتت الصحافة تتحدث عن ٦٦ مليون ضحية... ولكن هذه الابادة المادية، على هولها، ليست في نظر سولجنتسين اعلى «تجلية» للسلطة السوفياتية. فلينين، ومن بعده ستالين وبريجنيف، قد جعلوا في رأس اهدافهم «لغم الشعب الروسي وإفراغه من قواه» و«تدمير روسيا المركزية»، وتلك هي في نظر سولجنتسين قصة «الامبراطورية السوفياتية». فتمامًا كما ان قياصرة الاسرة الرومانوفية قد هدروا قوى روسيا الداخلية في حروب خارجية، كذلك فإن قياصرة الاسرة البلشفية استنزفوا دم المركز الروسي ليحقنوا به شرايين جمهوريات الاطراف. وفي الوقت الذي جعل لينين من روسيا نفسها دولة اتحادية وهو ما لم تكنه قط في تاريخها، فإنه حوّل سائر الجمهوريات السوفياتية والمستقلة ذاتيًا إلى طفيليات نهمة لا وظيفة لها سوى انهاك الجسم الروسي المركزي واخضاعه لاستنزاف اقتصادي مستديم. ولم يفرط البلاشفة بميزانية روسيا فحسب، بل كذلك بحدودها. ومن ثم فإن المصيبة ليست، في نظر سولجنتسين، فرط عقد الاتحاد السوفياتي بعد فشل غورباتشوف في اصلاح النظام من داخله، بل كون تفكك الاتحاد قد تمّ وفق الحدود «المغلوطة» التي رسمها لينين. فثمة اقاليم بكاملها قد انتزعت من روسيا، وبين عشية وضحاها في صيف ١٩٩١ فقدت روسيا ٢٥ مليون نسمة من سكانها، ممن ينتمون إلى الاتنية الروسية، وقد وجدوا أنفسهم يتوزعون شتاتًا ما بين اوكرانيا وبيلوروسيا وكازاخستان.

– وفي الوقت الذي يلّوح فيه سولجنتسين بفزاعة الخطر الطوراني على روسيا فانه يدعو الغرب، بشقيه الاميركي والاوروبي، إلى التوقف عن انتهاج سياسة إضعاف روسيا وتجزئتها، وإلى وعي طبيعة التغيرات الجيوبوليتيكية التي سيحملها القرن الحادي والعشرون والتي ستشهد معها بالضرورة حاجة الولايات المتحدة واوروبا إلى حليف روسي قوي وموحد.

– اصحاب العقول المخاتلة، يؤكد سولجنتسين، هم وحدهم الذين يستطيعون ان يطلقوا على النظام القائم في روسيا منذ آب ١٩٩١ إسم «الديمقراطية». فالشعب في روسيا ليس سيّد قدره بل لعبته، و«ابناء الذوات» من ا لطبقة الحاكمة القديمة أو من مقاولي الحضارة الغربية هم وحدهم الذين ينفردون بمائدة الديمقراطية.

– «إننا امة في طريقها إلى الانقراض»، يقول سولجنتسين، وهذا ما أدت إليه السوق المستوردة المحاكية ببغائيًا للسوق الغربية، والتي أغرقت الشعب في بؤس لا قاع له، والمنقطعة الصلة بكل انتاج: لم تعد الجماهير الشعبية المعدمة تملك إلا ان تسلس قيادها لذعر شبيه بذاك الذي يعتري الطريدة عندما لا يبقى امامها من مساحة تتحرك فيها سوى تلك التي تفصل بين قبضة الوحش وأنيابه. وهذا الذعر يترجم بيولوجيًا في ارتفاع هائل في نسبة الوفيات ونقص هائل ايضًا في معدل الولادات. فمن كل ألف نسمة أحصي ١٤،٦ ميتًا في ١٩٩٣، أي بزيادة ٢٠٪ عن ١٩٩٢، و٩،٢ مواليد جدد أي بنقص ١٥٪ عن معدلات ١٩٩٢. وإجمالاً فاق عدد الوفيات عدد الولادات في ١٩٩٣ بأكثر من ٨٠٠ ألف. وفي الوقت نفسه ضربت روسيا الرقم القياسي في عدد الانتحارات في العالم. وبعد ان كانت خصوبة المرأة ٧ اطفال في ١٨٧٥، و٣ اطفال في ١٩٣٩، و٢،١٧ في ١٩٨٨، انخفضت بعد عامين من «الاصلاح» الاقتصادي على اساس نظام السوق إلى ١،٤ فقط.

– «الانحطاط» هو جوهر «المشكلة الروسية في نهاية القرن ا لعشرين». الانحطاط الديمغرافي، الاقتصادي، الاخلاقي... في زمن

طردت فيه ايديولوجيا «الربح» كل ايديولوجيا اخرى. «ان المشكلة الروسية في نهاية القرن العشرين تطرح نفسها بلا التباس من خلال هذا السؤال: يكون شعبنا أو لا يكون. فالارض بأسرها تجتاحها موجة من التسوية المسطحة والتافهة بين الثقافات والتقاليد والقوميات. وكثيرون هم من يتلقون الصدمة دون ان يترنحوا، هذا ان لم يتلقوها بعزة نفس وكبرياء. ولكننا لسنا جزءًا من هؤلاء. وإذا ما استمرت الحال على منوالها، فلنا ان نخشى من ان تشطب من المعاجم، خلال القرن القادم، كلمة روسي».

*** غوركي، مكسيم .Gorky,M**

(١٨٦٨-١٩٣٦): كاتب وروائي وسياسي (من حيث كونه أحد أعمدة الواقعية الاشتراكية الاجتماعية، وانتسابه إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي) روسي. ولد في مدينة ينجني- نوفغورود (سميت في ما بعد على إسمه «غوركي») من عائلة فقيرة، وكان اسمه الاصلي ألكسي ماكسيموفيتش بيشكوف. مات والده ولما يتجاوز الخامسة من عمره. وبعد زواج امه من رجل آخر، عانى غوركي من سوء معاملة زوج امه فكان يلجأ إلى عطف جدته التي كان يسميها «بابوشكا» فكانت هي الجانب المضيء الوحيد في طفولته. وقد اضطر لترك مدرسته في سن الثامنة لكي يعمل ويبحث عن قوته في فترة صعبة من التاريخ الروسي، فعمل في مهن مختلفة كإسكافي ودهّان، وتابع المطالعة في اوقات فراغه القليلة فثقّف نفسه بنفسه. ثم ترك مدينته وارتحل إلى قازان فعمل فيها حمّالاً في المرفأ ثم حارسًا ليليًا. ولسبب لم يفصح عنه طوال حياته حاول الانتحار عند بلوغه الحادية والعشرين. وقد عاش متشردًا منبوذًا وعاشر اللصوص والخارجين عن القانون، وقد كتب عن هذه الفترة في كتابه «العالم ا لسفلي» (١٩٠٢). وأبطاله، في اعماله الروائية، متمردون على المجتمع الفاسد وغير العادل.

انتسب غوركي إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، وعاش في موسكو حيث وضع أغزر وأهم أعماله. وعند انقسام الحزب في ١٩٠٣، وقف إلى جانب البلاشفة ضد المناشفة، لكنه عارض لينين في كثير من المواقف فقد كان يبحث دائمًا عن مجتمع بسيط ومثالي يقوم على اساس العدالة والحب والدين.

اعتقل غوركي بعد كتابته لمقال تحريضي ضد القيصر، لكنه لم يبق طويلاً في السجن إذ اطلق سراحه لاصابته بداء السل، وارسل إلى القرم للعلاج. شارك في ثورة ١٩٠٥، وبعد فشلها هاجر إلى الولايات المتحدة بسبب ملاحقة النظام القيصري له، واقام في كابري منذ ١٩٠٦، وهناك نشر مذكراته. واستمرت حياته ممزقة بين اخلاصه للبلاشفة وبين آرائه كمفكر يدافع عن حرية الخلق والابداع. واقام في سورنتو من ١٩٢١ إلى ١٩٢٨؛ ثم عاد إلى الاتحاد السوفياتي حيث عيّن

مكسيم غوركي.

اول رئيس لاتحاد الكتاب السوفيات، فكان دوره غامضًا في ادارة هذا الاتحاد إلا ان المصادر الرسمية اظهرته دائمًا كفنان مبدع التزم بالستالينية ودافع عن الواقعية الاشتراكية.

اثناء متابعته للعلاج (١٩٣٦) مات غوركي بشكل غامض فراجت بعد موته شائعات عممتها المصادر الرسمية تقول بانه اغتيل بالسم على يد عملاء تروتسكيين بينما كانت شائعات اخرى تقول انه قد صُفّي بامر من ستالين (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٤، ط٢، ١٩٩٠، ص ٣٧٦).

* **كورجاكوف** (١٩٥٠-): عسكري وسياسي روسي. اعتبر في السنتين الاخيرتين ١٩٩٥-١٩٩٦ الرجل الثالث في هرمية السلطة بعد رئيس الدولة (يلتسن) ورئيس مجلس الوزراء (تشيرنوميردين) من خلال منصبه كمسؤول جهاز حماية الرئيس الروسي. لكنه فقد منصبه بعد الجولة الاولى من الانتخابات الرئاسية (حزيران ١٩٩٦) وكان آخر عمل أقدم عليه قبل فقده لمنصبه اعتقاله شخصين حاولا تهريب نصف مليون دولار من مقر الحكومة، وعرف في ما بعد انهما من «رجال» أناتولي تشوبايس ممول حملة يلتسن الانتخابية الذي اصبح في ما بعد مديرًا لديوان

ألكسندر كورجاكوف.

الرئاسة. وبعد ازاحته من منصبه بدأ يعلن جهارًا انه سيدخل عالم السياسة وسينتقم بعد ان كان موضع ثقة يلتسن و«صديقه المفضل» طوال أحد عشر عامًا تولى فيها رئاسة الحرس الرئاسي.

فاز بدعم الجنرال ألكسندر ليبيد في الانتخابات الفرعية في مدينة تولا (تشرين الاول ١٩٩٦). ودافع ليبيد عن كورجاكوف في وجه كل التهم التي اثارتها الصحف حول العديد من الفضائح المالية. ومن الاتهامات الموجهة إلى كورجاكوف عداؤه للسامية. فردّ هو مؤكدًا ان هناك محاولات لاغتياله وعائلته وراءها فلاديمير غوسينسكي صاحب مؤسسة «موست» المالية الكبرى ومالك القناة التلفزيونية «إن.تي.في» ورئيس المؤتمر اليهودي الروسي، بالتعاون مع بوريس بيريزوفسكي (يهودي الاصل) صاحب مؤسسة «لوغافاز» لانتاج السيارات ومالك «أو.آر.تي» وهي الأكبر في روسيا.

* **كوزيريف، أندريه** (١٩٥١-): سياسي ودبلوماسي روسي (وزير خارجية ١٩٩١-١٩٩٥).

ولد أندريه فلاديميروفيتش كوزيريف في بروكسيل (والده كان دبلوماسيًا سوفياتيًا). ينتمي إلى القومية الروسية، كما يذكر عادة في الوثائق الرسمية. لكنه حرص على ان يشير في سيرته الذاتية، التي نشرها في ١٩٩٣ (مع انه ما زال شابًا ولا تستحق سيرته الذاتية ان تروى بعد، ولكنه فعل ذلك انجرارًا وراء تقليد أخذ يتبعه السياسيون الروس لدوافع ليس آخرها بيع حقوق النشر في الخارج بالعملات الصعبة) إلى ان امه يهودية.

في ١٩٦٩، انضم إلى معهد العلاقات الدولية، المؤسسة النخبوية التي كانت تخرج الدبلوماسيين. وتشير سيرته إلى انه عمل بين ١٩٦٨ و١٩٦٩، أي مباشرة قبل انضمامه إلى

المعهد، ميكانيكيًا في مصنع «كومونار». واللافت هنا ان السير الذاتية لأبناء الميسورين من الشيوعيين تظهر انهم جميعًا عملوا نحو ستة أشهر في هذا المصنع أو ذاك، الامر الذي كان يمنحهم «شرف» الانتماء إلى البروليتاريا. تعلم كوزيريف اثناء دراسته الانكليزية والبرتغالية، وتخرج في ١٩٧٤ ليعين فورًا في قسم المنظمات الدولية في وزارة الخارجية. ونال، من المعهد الذي درس فيه، درجة الدكتوراه في ١٩٧٧ على اطروحة موضوعها «دور الامم المتحدة في ظروف الوفاق الدولي».

وفّرت له وظيفته في قسم المنظمات الدولية فرصة السفر مرات عدة إلى نيويورك ضمن الوفود السوفياتية المشاركة في جلسات المنظمة الدولية. وظل في هذا القسم حتى اصبح مديره في ١٩٨٩. واعتبر دبلوماسيًا ليبراليًا منذ ١٩٧٨ رغم ان البريجينيفية كانت في ذروتها. ولعله بهذه الصفة (الليبرالية) انضم إلى فريق يلتسن منذ انتخاب هذا الاخير رئيسًا لروسيا الاتحادية وبدأ صراعه مع غورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفياتي. وفي ١٩٩٠، عينه يلتسن وزيرًا لخارجية روسيا ولعب دورًا بارزًا في التحضير لمعاهدة مينسك بين الجمهوريات السلافية الثلاث، روسيا واوكرانيا وبيلوروسيا، التي دقت المسمار الاخير في نعش الامبراطورية السوفياتية.

خلال الفترة التي امضاها كوزيريف وزيرًا للخارجية حتى عزله في مطلع كانون الثاني ١٩٩٦ تغير موقفه بالكامل من سياسي موالٍ للغرب إلى مؤيد لاتباع سياسة موالية للشرق. وهناك سببان كامنان وراء هذا التحول. الاول، انه اصيب بخيبة امل من الغرب الذي وعد بتقديم الكثير للاصلاحات الديمقراطية في روسيا و لم يفعل في الواقع إلا القليل. والثاني، هو الانتقادات القوية التي وجهها في البرلمان لنهجه الموالي للغرب الشيوعيون بزعامة غينادي زيوغانوف والديمقراطيون الليبراليون بزعامة جيرينوفسكي. ولكي يحافظ كوزيريف على مستقبله السياسي بدأ يتجه أكثر فأكثر إلى اتباع «سياسة شرقية»، أي اقامة تعاون اوثق بين روسيا والعالم الثالث. واثار هذا التحول امتعاض الغرب، ووجد ذلك تعبيره في تصريحات ومواقف عدة شملت يوغوسلافيا السابقة وتوسيع نطاق الحلف الاطلسي إلى اوروبا الشرقية وغير ذلك.

في هذا الوضع، استجاب الرئيس يلتسن لـ«امتعاض» الغرب من كوزيريف، واعلن قرار عزل وزيره مباشرة قبل سفره لاجراء مفاوضات في باريس ونيويورك في تشرين الاول ١٩٩٥، وعاد في اليوم التالي في مطار موسكو ليلمح بشكل ساخر إلى انه غيّر رأيه وعدل عن عزل كوزيريف «في الوقت الحاضر على الأقل». وكانت خطوة مهينة، ومع ذلك تحملها كوزيريف و لم يقدم استقالته، إلى ان عزل في مطلع ١٩٩٦ ليحل محله يفغيني بريماكوف. وتفرغ كوزيريف لمهماته كنائب في مجلس الدوما، إذ كان قد شارك في الانتخابات الاشتراعية كمرشح مستقل عن مدينة مومانسك في اقصى شمالي البلاد في شبه جزيرة كولا.

* **كولتشاك، ألكسندر Koltchak, A.** (١٨٧٤–١٩٢٠): راجع «أومسك» في باب مدن ومعالم.

الكسندر كولتشاك.

*** لبيد، ألكسندر** (١٩٥٠-): عسكري وسياسي روسي. ولد في مدينة نوفوتشركاسك الروسية الجنوبية التي لم تكن المياه تصلها بانتظام بعد، مع ان فيها عشرات الالوف من العمال الساعين وراء آلاتهم إلى «انتصار الشيوعية الكامل». وتحفل سيرة حياته بالمصادفات. ففي الثانية عشرة من عمره شاهد، وهو على شجرة تفاح، اطلاق النار على تظاهرة للعمال من ابناء بلده المطالبين بالخبز. وبقي الصبي باعجوبة على قيد الحياة بعد ان استطاع النزول من الشجرة في الوقت نفسه الذي انطلقت الرشقات الاولى من بندقية كلاشنيكوف. ولأمر ما لم يكره الجيش السوفياتي بسبب اطلاق النار ذاك، والتحق وهو في السابعة عشرة بالمدرسة الحربية وخاض غمار الحرب الافغانية مع بافل غراتشوف الذي أصبح وزيرًا للدفاع في روسيا (من إيغور تيموفييف، «الوسط»، العدد ٢٠١، تاريخ ٤ كانون الاول ١٩٩٥، ص ٣٣).

عندما أصبح بوريس يلتسن، في ١٢ حزيران ١٩٩١، أول رئيس لروسيا كان ليبيد قائدًا لفرقة النخبة المظلية في مدينة تولا الروسية. وفي ١٩ آب من العام نفسه ايام محاولة الانقلاب الشيوعي، قاد مظلييه إلى البيت الابيض (مبنى مجلس السوفيات الاعلى لجمهورية روسيا)، واعتقد انصار يلتسن ان ليبيد جاء لنصرة الشيوعيين واستعدوا لمواجهته. لكن لشد ما دهشوا عندما عرفوا ان العقيد «القبضاي» جاء ليحميهم ويقف معهم في اعلانهم تنحية الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف. وكان يمكن لليبيد ان يغدو «بطل الديمقراطية»، إلا انه اشاح بوجهه عن «الديمقراطيين المنتصرين» (يلتسن) وقال انه نفذ اوامر قائده الجنرال بافل غراتشوف قائد قوات المظليين حينئذ قبل ان يصبح وزير الدفاع. وبدا في حينه ان الرجلين (غراتشوف وليبيد) ارتبطا بعلاقات وثيقة منذ الحرب الافغانية ويمكن ان يشكلا ثنائيًا يلعب دورًا مهمًا في القوات المسلحة وفي الحياة السياسية الروسية. وبفضل غراتشوف منح ليبيد رتبة جنرال وعين قائدًا للجيش الرابع عشر الذي تمكن من ضبط الاوضاع بعد القتال المرير بين المولدافيين والروس، الذين يشكلون الاغلبية الساحقة من منطقة بريدنيستروفيه، وهي جيب في مولدافيا أعلن استقلاله الفعلي عن هذه الجمهورية.

ولكن ليبيد سرعان ما انقلب على غراتشوف واتهمه بـ«الأحمق» الذي يدير الحرب الشيشانية بـ«غباء»، وسخر منه عندما اعلن (غراتشوف) انه قادر على احتلال غروزني بكتيبة مظليين واحدة في غضون ساعتين. وجاء رد وزير الدفاع (غراتشوف) سريعًا، فأمر بحل قيادة الجيش الرابع عشر وعرض على ليبيد منصبًا في موقع عسكري وراء بحيرة البايكال في سيبيريا. وفي ربيع ١٩٩٥، سرّح ليبيد من الجيش، وكان يبدي اعتراضات متكررة على رئيس الدولة، يلتسن، الذي اتهمه ليبيد بانهيار الجيش وقلة ذكاء الاصلاح العسكري وخيانة مصالح السكان الناطقين بالروسية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة. وأعلن، يوم تسريحه من الجيش، رغبته في دخول السياسة. وبعد ايام، قدم إلى موسكو وحضر احد اجتماعات «مؤتمر الجمعيات الروسية»، المنظمة الاجتماعية-السياسية التي جعلت هدفها الدفاع عن مصالح الروس في مساحة الاتحاد السوفياتي السابق ابتداء من الذين اسقطت عنهم الجنسية والحقوق في دول البلطيق وانتهاء بالذين فقدوا المأوى بسبب الحرب الشيشانية. وخلافًا لوزير الدفاع (غراتشوف) الذي نفذ الارادة السياسية للكرملين فإن الجنرال ليبيد عبّر عن رأي قطاعات واسعة من القيادات العسكرية التي اتهمت الساسة بـ«التخاذل» في مواجهة خطط الحلف الاطلسي للتوسع شرقًا.

ترشح ليبيد للانتخابات الرئاسية (حزيران

١٩٩٦)، ونال نحو ١٥ مليون صوت في الجولة الاولى، ولم يشارك في الجولة الثانية التي انحصرت بين المتنافسين الاولين، يلتسن وزيوغانوف. وقبل الجولة الثانية عينه يلتسن رئيسًا لمجلس الامن القومي (حزيران ١٩٩٦) وسلّمه ملف حل الحرب الشيشانية التي نجح في وضع حد لها. وبعد نحو ثلاثة أشهر، أعفي من منصبه هذا (راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث»).

*** نقولا (نيكولاي) الثاني (١٨٦٨-١٩١٨)**: ولد في سيلو Selo (بوشكين حاليًا)، ولقي حتفه في يكاترينبورغ Iékaterimbourg (سفردلوفسك حاليًا). آخر قياصرة روسيا فحكم من ١٨٩٤ إلى ١٩١٧. ابن القيصر الاسكندر (الكسندر) الثالث، خلفه في اول تشرين الثاني ١٨٩٤، وتوّج في موسكو في ايار ١٨٩٥. وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٨٩٤، تزوج من الاميرة أليس Alice، ابنة غراندوق هسّ دارمشتدت لويس الرابع (اتخذت إسم ألكسندرا فيدوروفنا في روسيا).

ارتكزت سياسته، داخليًا، على ضمان حقوقه الاوتوقراطية معتبرًا ذلك بمثابة واجب اخلاقي وديني. وخارجيًا، تابع السياسة الاوروبية التي كان ينتهجها والده. فعمل على تثبيت الوفاق الفرنسي-الروسي وزار فرنسا في ١٨٩٦، واستقبل الرئيس الفرنسي فيليكس فور في روسيا في ١٨٩٧. بعث بمذكرة إلى الدول يقترح فيها عليها حدًا في التسلح، وإقامة محكمة دولية مهمتها النظر بالنزاعات بين الدول (أول مؤتمر عالمي للسلام عقد في لاهاي في ١٨٩٩). ورغم سياسته السلمية هذه، زجّ بلاده في الحرب الروسية-اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥)، فكانت هزيمة روسيا التي شكلت سببًا اساسيًا في ثورة ١٩٠٥. وإبان الثورة اطلق نقولا الثاني وعدًا بدعوة البرلمان (دوما) التشريعي للانعقاد (١٧ تشرين الاول ١٩٠٥). وأثناء احداث ١٩٠٦-١٩٠٧، قمع المتمردين بعنف بالغ، ولقب القيصر على أثره بـ«نقولا الدموي» Nicolai Krovavyi، وأعيد هذا اللقب في نيسان ١٩١٢ على اثر مجزرة طالت حياة ٢٧٠ مضربًا من عمال المناجم في مدينة لينا في سيبيريا.

جاء ضم الامبراطورية النمساوية-الهنغارية للبوسنة والهرسك في ١٩٠٨ ليخلق تململاً شعبيًا كبيرًا لدى الروس، خاصة وان نقولا الثاني تراجع امام التهديد الألماني وتخلى عن صربيا. بعد اعلان النمسا الحرب على صربيا، أعلن نقولا الثاني الاستنفار العام (٣٠ آب ١٩١٤)، وفي اول آب بدأت الحرب العالمية الاولى.

وقع القيصر تحت تأثير القيصرة وراسبوتين (راجع باب «معالم تاريخية»). أجبر على التنازل عن العرش بعد ثورة شباط ١٩١٧. وقررت الحكومة الموقتة اعتقال جميع افراد العائلة المالكة. فنقل نقولا الثاني إلى توبولسك، ثم إلى يكاترينبورغ حيث تم إعدامه، وافراد اسرته، ابنتيه وولي العهد والطبيب الشخصي وعدد من الخدم، في ١٧ تموز ١٩١٨. بعض المراجع يقول ان هذا الاعدام جاء بناء على أمر أصدره لينين نفسه، وبعضها (موسوعة «لو روبير» على سبيل المثال) يذكر انه تم بناء على أمر أصدره مجلس السوفيات الاقليمي في الأورال. وبدأت حرب أهلية استمرت اربع سنوات في روسيا.

كانت قوات الجيش الابيض الملكية دخلت مدينة يكاترينبورغ بعد ايام من الاعدام وشكلت لجنة تحقيق كشفت ان البلاشفة نقلوا جثث القيصر وافراد اسرته إلى غابة في ضواحي المدينة لكنهم عادوا فنبشوا مقابرهم ونقلوا الجثث إلى منجم تحت الارض بعد سكب الحامض على الجثث لاخفاء معالمها. وتوقف التحقيق بعد استعادة الجيش الاحمر السيطرة على المدينة. ومنذ ذلك الحين منعت السلطات السوفياتية نشر أي

خبر عن الموضوع.

في السبعينات قرر المكتب السياسي للحزب الشيوعي هدم «دار إيباتيف» الذي نفذت الاعدامات في سراديبه، وتولى الاشراف على تنفيذ القرار الرئيس الحالي لروسيا بوريس يلتسن الذي كان المسؤول الحزبي في المدينة آنذاك. مع البيريسترويكا التي أطلقها غورباتشوف، أعيد فتح الملف، واجريت عمليات تنقيب في ضواحي يكاترينبورغ حيث عثر على عظام اعتبر كثيرون من الخبراء الروس والاجانب انها عائدة إلى افراد العائلة الحاكمة، لكن التأكيد الرسمي لم يصدر إلا في ١٥ آذار ١٩٩٤. وكانت الكنيسة الارثوذكسية صنّفت القيصر نقولا الثاني بين القديسين وشكلت لجنة لتخليد اسمه وإقامة تمثال له. ويحمّل الكثيرون في روسيا الحكومة البريطانية (آنذاك) جزءًا من المسؤولية عن مقتل القيصر بسبب رفضها استقباله بعد تخليه عن العرش رغم انه كان ابن خالة الملك جورج الخامس. وكانت العائلة المالكة البريطانية ترفض زيارة موسكو بسبب اعدام القيصر.

في تشرين الاول ١٩٩٥، وبعد بحث دام أربع سنوات، اعلنت اللجنة الحكومية المكلفة التحقيق في ملابسات مقتل الاسرة الامبراطورية الروسية ان الرميم الذي عثر عليه عام ١٩٩١ يعود فعلاً إلى افراد الاسرة المالكة. وذكر أندريه سيبينتسوف السكرتير المسؤول للجنة ان اجهزة الليزر والكومبيوتر واحدث الدراسات الانتروبولوجية اعتمدت للتأكد من ان العظام التي اكتشفت هي للقيصر نقولا الثاني وزوجته واطفالهما الثلاثة. بيد ان هناك صفحات ما زالت غامضة، إذ اشارت صحيفة أزفستيا إلى ان الخبير المعروف فلاديمير سوكولوف أقصي عن اللجان بعد ان طلب مهلة اضافية لكشف المزيد من الحقائق. ورأى مراقبون ان هناك ملابسات كثيرة يمكن ان تستخدم لاغراض سياسية. لكن النيابة العامة الروسية ارتأت الاقتصار على التأكد من نسبة العظام فقط وإهمال الجوانب الأخرى. وكان شارك في التحقيق علماء من معهد الباتولوجيا التابع للقوات المسلحة الاميركية ودرسوا نماذج من عظام الامير جورج الشقيق الاصغر لنقولا الثاني والذي توفي قبله وقارنوها بالرفات المفترض للقيصر، ووجدوا تماثلاً في صفات وراثية كانت لدى آل رومانوف منذ عهد القيصر بطرس الثالث. وفي آخر ما جرى من كلام حول هذا الموضوع ان ورثة عائلة رومانوف الحاليين شككوا في نتائج عمل اللجنة وقالوا ان الجمجمة التي أكدت اللجنة انها لنقولا الثاني لم تحمل اثر ضربة سيف كان تلقاها القيصر اثناء طفولته. وذكر بيوتر كولتيبين رئيس «هيئة الخبراء الروسية في الخارج» ان حكومة موسكو تحاول «اغلاق الموضوع» بأسرع ما يمكن لتحاشي الرد على اسئلة محرجة. وإثر ظهور نتائج اللجنة الرسمية، اقترح أناتولي سوبتشاك محافظ مدينة سان بطرسبورغ ان تجري مراسم دفن الرفات في كنيسة بطرس وبولس حيث كان دفن سائر آل رومانوف، على ان تجري المراسم وفق التقاليد التي كانت متبعة اثناء حكم العائلة القيصرية. ولم تأخذ حكومة موسكو بهذا الاقتراح بعد.

* **يافلينسكي، غريغوري**: راجع «الاحزاب» في باب معالم تاريخية.

* **يلتسن، بوريس نيكولايفيتش** **Yeltsin,B.N.** (١٩٣١-): سياسي ورجل دولة روسي. ولد في قرية بوتكو في حي تاليتسكي في اقليم سفردلوفسك لعائلة فلاحية مؤلفة من ثلاثة اولاد: بوريس وهو الابن الاكبر، وميخائيل الذي لم يكمل تعليمه، وفتاة تعيش في سيبيريا. والدته من عائلة ستاريجين تدعى كلاوديا عملت خياطة في احد مصانع الدولة. وعندما حصلت على آلة

خياطة في ١٩٤٠ صارت تعمل في البيت. وحتى بعد ان صار يلتسن شخصية مرموقة في موسكو استمرت والدته في العيش في سفردلوفسك براتب ٥٨ روبلاً في الشهر، وتوفيت في ٢١ آذار ١٩٩٣.

عاش يلتسن وعائلته في بيت صغير قبل ان ينتقل والده إلى العمل في قطاع البناء في بلدة برزنيكي حيث سكنت العائلة في كوخ خشبي غير مزود بأية شروط صحية، ما ترك في نفس يلتسن كرهًا دائمًا للاكواخ وللأحياء الخشبية التي عاش فيها عشر سنوات وكانت طفولته قاسية ووالده فظًا يلجأ إلى السوط عند أقل هفوة. وكان المنزل دائم الشجار بين الوالد والوالدة بسبب اسلوب التربية. بترت له إصبعان حينما كان يلهو بقنبلة انفجرت في يده، وكان سرقها من احد مستودعات الجيش. أغرم في مراهقته بكرة الطائرة، وصار لاعبًا ممتازًا في فريق مدينته، ما اتاح له فرصة اللعب مع فرق اخرى، ومكنه ذلك من زيارة مدن سوفياتية متعددة. درس الهندسة المدنية في معهد الأورال التقني. تزوج من نايينا جوزيبلوفنا وتدعى ايضًا نايا، واسمها الاصلي أنستازيا (من «موسوعة السياسة» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٧، ط١، ص ٤٢٢).

انضم بوريس يلتسن إلى الحزب الشيوعي في ١٩٦١. في ١٩٧٦، أصبح السكرتير الاول للجنة سفردلوفسك الاقليمية. في ١٩٨١، عضو اللجنة المركزية. في كانون الاول ١٩٨٥، عضو لجنة الحزب في موسكو. من تموز ١٩٨٥ إلى شباط ١٩٨٦، عضو رديف في المكتب السياسي. في ١٩٨٧، نائب وزير البناء، وفي تشرين الثاني خسر منصبه كسكرتير اول للحزب في موسكو بعد تعرضه لهجوم من رئيس الوزراء نيكولاي ريجكوف ووزير الخارجية ادوارد شيفاردنادزه. أبعد عن عضوية المكتب السياسي للحزب في ١٧ شباط ١٩٨٨، وفي ٢٣ ايار ١٩٨٨ أعفي ايضًا من منصبه الحكومي.

في انتخابات ٢٦ آذار ١٩٨٩، وهي الانتخابات التشريعية الاولى من نوعها في الاتحاد السوفياتي من حيث الجديد الذي حملته وتمثل في وجود منافسة حقيقية بين مرشحين متنوعي المشارب والمذاهب ويصرّح أكثر من نصفهم بعدائه المطلق لـ«التجربة الاشتراكية» ككل وتوقه إلى تحول الاتحاد السوفياتي إلى بلد ذي اقتصاد حر وذي انتاج استهلاكي منفتح على الغرب وباحث عن آفاق جديدة. في هذه الانتخابات، كان يلتسن زعيمًا للتيار الذي كان يسير في اطار هذا التوجه. وتوجه السوفياتيون إلى صناديق الاقتراع بكثافة لم يسبق لها مثيل لانتخاب مجلس النواب، وكان ذلك المجلس قد جرى تأسيسه قبل شهور فقط ليكون مجلسًا تأسيسيًا يضع دستورًا جديدًا للبلاد، وكان قانون تأسيسه ينص على ان يكون عدد اعضائه ٢٢٥٠ نائبًا، ينتخب منهم ١٥٠٠ عن طريق الاقتراع المباشر في ١٥ جمهورية سوفياتية هي جمهوريات الاتحاد السوفياتي. وحقق الذين اطلقت عليهم الصحافة إسم «المرشحون الاصلاحيون» فوزًا باهرًا في وجه منافسيهم ا لشيوعيين الذي أطلقت عليهم الصحافة إسم «المحافظون». وكان بوريس يلتسن، الذي راح عند ذاك يتناسى، ويدفع الناس إلى تناسي ماضيه كزعيم شيوعي ناشط، في طليعة المرشحين المناصرين للتغييرات التي وصفت بـ«الاصلاحية الديمقراطية». وكان إسمه قد بدأ يبرز قبل هذه الانتخابات بأشهر قليلة، أولاً كحليف لغورباتشوف مؤيد لسياسة «الشفافية» و«المكاشفة»، ثم كخصم عنيد له حيث ان تصريحاته التي حملت قدرًا كبيرًا من المزايدة في ذلك الجو الصاخب، جرت عليه وابلاً من انتقادات اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. والطريف ان يلتسن كان المستفيد الاول من كل تلك الانتقادات لأنه بقدر ما كان عرضة لغضب الشيوعيين كانت شعبيته ترتفع

بشكل مذهل وسريع. فنال في مدينة موسكو ٨٥٪ من اصوات الناخبين في مواجهة منافسه الأساسي ليف زياكوف «المحافظ» المعروف بتشدده في شيوعيته والذي كان يشغل منصب سكرتير الحزب الشيوعي في موسكو.

زار الولايات المتحدة في ١٩٨٩ فرحبت به الاوساط السياسية والاقتصادية والاعلامية الاميركية باعتباره «رجل روسيا المقبل».

انتخب في ٥ آذار ١٩٩٠ نائبًا في برلمان روسيا عن مدينة سفردلوفسك بنحو ٩٠٪ من الاصوات. وفي ٢٩ ايار ١٩٩٠ انتخب رئيسًا لمجلس السوفيات الاعلى في جمهورية روسيا. استقال من الحزب الشيوعي السوفياتي في تموز ١٩٩٠.

تمكن من حشد ١٥٠ ألفًا من المتظاهرين ساروا في شوارع موسكو يوم ٢٤ شباط ١٩٩١ تأييدًا له وردًا على تظاهرة كانت سارت في موسكو ايضًا مطالبة باستقالته متهمة إياه بخدمة الصهيونية والخيانة.

أعلن في ١٠ آذار ١٩٩١ انفصاله عن سياسة غورباتشوف وطالب بتوحيد المعارضة ضد غورباتشوف لأن «الديمقراطية في خطر».

انتخب رئيسًا لجمهورية روسيا الاتحادية في ١٣ حزيران ١٩٩١ بنحو ٥٥٪ من اصوات المقترعين، وكان منافسه نيكولاي ريجكوف رئيس الوزراء السوفياتي السابق. وقام، بعد خمسة ايام، بزيارة للولايات المتحدة. نصب رسميًا في الكرملين في ١٠ تموز ١٩٩١، وبعد عشرة ايام فقط وقع مرسومًا يحظر فيه نشاط الاحزاب السياسية والحركات الاجتماعية في الاجهزة والمؤسسات الحكومية والجيش، في إجراء يهدف إلى إلغاء سيطرت الحزب الشيوعي على الادارات الحكومية.

بعد وقوع الانقلاب العسكري ضد غورباتشوف في ١٩ آب ١٩٩١، تمكن يلتسن من ان يصبح الشخصية الاولى في البرلمان، وكان لمواقفه الأثر الاول في إفشال الانقلاب (للسنوات التالية حتى اواخر ١٩٩٦، راجع باب «كرونولوجيا أهم الاحداث». وراجع «الاتحاد السوفياتي» في ج١).

اشتهر يلتسن بكثرة إدمانه على الخمر، ويصف نفسه بأنه رجل خشن وصارم وذو طبيعة حادة ومتفجرة ورثها عن والده. ومن صفاته الشخصية التي ساعدت على إكسابه شعبية كبيرة استمراره في العيش حياة متواضعة في شقة مؤلفة من اربع غرف ويعمل ١٤ ساعة يوميًا بمعاش ٨٠٠ روبل شهريًا ويملك سيارة موسكوفيتش ولا يملك مدخرات.

نشر كتابًا، في ١٩٨١، بعنوان «الأورال الأوسط... مراحل الخليقة»؛ وفي ١٩٩١، نشر مذكراته باللغة الانكليزية .

Formation de la Grande Roumanie, 1918-1920

رومانيا

بطاقة تعريف

الاسم واللغة: بعد انتهاء حرب القرم (١٨٥٦) بانتصار الفرنسيين والانكليز على الروس اتحدت إمارتا مولدافيا وفالاكيا وشكلتا ما بات يعرف لأول مرة في التاريخ باسم «رومانيا». ولم يكن اختيار الامارتين المتحدتين في دولة واحدة هذا الاسم من قبيل الصدفة. فرغم ان الشعب الروماني ينتمي في جزء منه إلى العرق السلافي، وفي غالبيته إلى الديانة الارثوذكسية، فانه يتفرد، دون سائر الشعوب السلافية والارثوذكسية بالنطق بلغة لاتينية. ولئن كانت الرومانية تكتب حتى منتصف القرن التاسع بالابجدية الكيريلية (أو السيريلية)، أي ابجدية اللغة الروسية، فقد جرى استبدالها مع قيام الدولة الرومانية بالابجدية اللاتينية وذلك توكيدًا للهوية المميزة لرومانيا عن محيطها السلافي ولانتمائها في الموروث التاريخي إلى الامبراطورية الرومانية التي كان امبراطورها تراجان (تراجانوس) قد غزا داقيا (داسيا، داكيا)، وهو الاسم القديم لرومانيا، منذ مطلع القرن الثاني للميلاد، وجلب إليها سكانًا رومانيين تمكنوا من فرض لغتهم إلى اليوم رغم ذوبانهم في القرون التالية في امواج سكانية متلاحقة من الجرمانيين والسلافيين والطورانيين.

الموقع: في جنوب شرقي اوروبا. يحيط بها البحر الاسود (وطول شاطئها عليه ٢٣٤كلم)، وأوكرانيا (وطول حدودها معها ٦٣٩،٤كلم)، ومولدافيا (٦٨١،٣كلم)، وهنغاريا (٤٤٤،٨كلم)، وصربيا «يوغوسلافيا» (٥٤٤،٣كلم)، وبلغاريا (٦٣١،٣كلم)، فيكون إجمالي طول حدودها مع هذه الدول ٣١٨١،٧كلم.

المساحة: ٢٣٧ ألفًا و٥٠٠كلم م.. أبعد نقطتين طوليًا (شرق-غرب) ٧٢٠كلم، وأبعد نقطتين عرضيًا (جنوب-شمال) ٥١٥كلم.

اللغات: الرومانية (رسمية)، وهي لغة متحدرة من اللاتينية المحكية في مقاطعة داقيا ومقاطعة ميسيا في رومانيا. وهي متفرعة من اللهجات اللاتينية المحكية في الارياف الايطالية (راجع «الاسم واللغة» أعلاه). وهناك الهنغارية والالمانية (الأقليتان).

العاصمة واهم المدن: بوخارست (العاصمة)، كوستنتا، إياسي، تيميسوارا، كلوج نابوكا، وغيرها (راجع «مدن ومعالم»).

السكان: في ١٨٥٩ (أي مع قيام الدولة باتحاد الامارتين، وعلى مساحة ١٣٠ ألف كلم م.) كان تعدادهم ٣،٩ ملايين نسمة، في حين ان تعدادهم على المساحة الحالية كان في العام نفسه (أي ١٨٥٩) ٨،٦ مليون نسمة. أصبح تعدادهم ١١،١ مليون نسمة في العام ١٩٠٠، و٢٠،٣ مليون نسمة في العام ١٩٧٥، ويبلغ تعدادهم حاليًا (تقديرات ١٩٩٦) نحو ٢٤ مليون نسمة.

اشار إحصاء ١٩٣٠ إلى : عدد السكان الاجمالي ١٨ مليونًا، منهم ٧١،٩٪ من الرومانيين، ٧،٩٪ من الهنغاريين، ٤،١٪ من الالمان، ٤٪ من اليهود، ٣،٢٪ من الاوكرانيين، ٢،٣٪ من الروس، ٢٪ من البلغار، ١،٥٪ من الغجر، ١٪ من الاتراك والتتر، ٠،٣٪ من البولنديين، ٠،٣٪ من الصرب والكرواتيين.

واشار احصاء ١٩٩٢ إلى وجود نحو مليون و٦٢١ ألف هنغاري (خاصة في ترانسيلفانيا)، ونحو ١٢٠ ألف ألماني (كانوا ٨٠٠ ألف في العام ١٩٤٤ ونحو ٣٦٠ ألفًا في ١٩٧٧، خاصة في ترانسيلفانيا)، ونحو ٦٧ ألف أوكراني، ونحو ٤١٠ آلاف غجري، ونحو ٣٩ ألف روسي، ونحو ١٤٦ ألفًا من اتنيات مختلفة.

كما اشار الاحصاء نفسه (في ١٩٩٢) إلى ان ٨٦،٨٪ من الرومانيين هم أرثوذكس (كان هناك ٣٦٥ كنيسة في بوخارست وحدها، هدم نظام تشاوشيسكو ١٣٠ كنيسة منها، وحوّل ٧٠ إلى امكنة اثرية)، و٥٪ كاثوليك رومان، و١٪ روم كاثوليك، و٣،٥٪ بروتستانت، و٢،٧٪ من معتقدات مختلفة، منهم اليهود الذين كانوا يعدون ٩٠٠ ألف في العام ١٩٣٩، واصبحوا نحو ١٠ آلاف في العام ١٩٩٢، ويرتكز سكنهم في العاصمة بوخارست. اما التتر والاتراك (نحو ١،٥٪) فجميعهم مسلمون ويقيمون في شرقي البلاد على ضفاف البحر الاسود (راجع باب «معالم تاريخية»).

قبل العام ١٩٩٠، تميزت السياسة الرومانية إزاء الاقليات بالوقائع التالية: هاجر نحو ٣٥٠-٤٠٠ ألف يهودي إلى اسرائيل وكانت كل تأشيرة تكلف ٥-٧ آلاف دولار. في ١٩٥٧، جرى اتفاق مع المانيا الفدرالية يسمح لـ٢٠ ألف الماني بمغادرة رومانيا خلال ١٠ اعوام؛ وفي ١٩٧٨، اتفاق آخر يسمح لـ١٠آلاف، ثم لـ١٥ ألفًا، وتراوحت كلفة التأشيرة الواحدة (لكل شخص) بين ٣-٥ آلاف دولار؛ وفي ١٩٨٨ غادر نحو ١٢ ألف الماني. بالنسبة إلى الغجر، كان على كل واحد منهم ان يدفع ٧ آلاف لاي (الوحدة النقدية) ليتمكن من عبور الحدود.

الحكم: قبل ١٩٩٠، جمهورية اشتراكية، والدستور الذي كان معمولاً به يعود إلى ٢١ آب ١٩٦٥، ودخل عليه تعديل في آذار

١٩٧٤، وفي تشرين الاول ١٩٨٦ الـذي سمح باجراء استفتاءات شعبية، فكان الدستور الوحيد في دول اوروبا الشرقية الـذي اجاز مثل هـذا الامر. وكانت الجمعية العمومية الموسعة (٣٦٩ عضـوًا منتخبًا لمدة ٥ اعـوام) تنتخـب مجلـس الدولـة، ومجلـس الـوزراء ورئيـس الجمهوريـة. وكانت البلاد، بموجب هـذا الدسـتور، مقسـمة إلى ٤٠ محافظـة، إضافـة إلى بلديـة بوخارسـت، وإلى ٢٣٧ مدينـة (أصبحـت ٢٦٠ مدينـة في ١٩٩٣)، و٢٧٠٥ كومونـة (٢٦٨٨ في ١٩٩٣)، و١٣١٢٣ بلدة وقرية.

منذ ١٩٩٠، ألغيت تسمية «اشتراكية» واصبـح الاسم الرسمـي المعتمـد «الجمهوريـة الرومانيـة»، والدستور المعمول به صادر في ٢١ تشرين الثاني ١٩٩١ ومصادق عليه بموجب استفتاء ٨ كانون الاول ١٩٩١ (بموافقـة ٧٧،٣٪ مـن اصـوات المقترعين). ينتخب رئيـس الجمهوريـة بالاقـتراع العـام والمباشـر لولايـة ٤ اعـوام. يتـألف مجلـس الشيـوخ مـن ١٤٣ عضوًا، والمجلـس التمثيلـي (النواب) من ٣٢٨ عضوًا.

أهم الاحزاب: الحزب الديمقراطـي،وهـو الاسـم الذي اعتمدته «جبهة السلامة الوطنيـة» ابتـداء مـن ٢٩ ايـار ١٩٩٣؛ وكـانت الجبهـة قـد تأسست في كانون الاول ١٩٨٩، ويرأسها بيـتر رومان (مولـود ١٩٤٦)، واصبحـت تضـم نحـو نصف مليون عضو.

الحزب الاجتماعي الديمقراطي الذي يعود تـاريخ تأسيسـه إلى العـام ١٨٩٣، ويرأسـه سـرجيو كونيسكو.

الحـزب الوطـني الليـبرالي، يعـود تأسيسـه إلى ١٨٧٥، ويرأسـه ميرسـيا إيونيسـكو كينتـوس (مولود ١٩١٥).

الحـزب الوطـني الفلاحـي، تأسـس في ١٩٢٦ عقب دمج حزب الفلاحين الذي كان تأسس في ١٩١٨ بالحزب الوطني الروماني في ترانسيلفانيا؛ يرأسه كورنيليـو كوبوسـو (مولـود ١٩١٦).

حزب ا لمجريين الديمقراطي في رومانيا، تأسس في ١٩٩٠، يرأسه ماركو بيـلا منـذ كـانون الثـاني ١٩٩٣، ويضم نحو ٦٠٠ ألف عضو.

حـزب العمـل الاشـتراكي (الحـزب الشـيوعي الرومـاني سـابقًا)، تأسـس في ٨ ايـار ١٩٢١، واصبح يضم في ١٩٨٧ نحو ٣،٨ مليون عضـو، واتخذ إسمـه الحـالي (اعـادة تأسيس) في تشـرين الثاني ١٩٩٠، ويرأسه إيلي فردت، ويضم حاليًا نحو ٤٠٠ ألف عضو.

الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروماني، تأسـس في ١٠ تموز ١٩٩٣.

الجبهة الديمقراطية للسلامة الوطنية، تأسسـت في ٣٠ نيسان ١٩٩٢ على يد منشقين من «جبهـة السلامة الوطنية»، ويرأسها إيون إيليسكو.

حـزب رومانيـا الكـبرى، «رومانيـا مـاري» Roumania Mare، تأسس في ١٩٩١، ويرأسـه كورنيليو فاديم تودور منذ ٧ آذار ١٩٩٣.

حزب الوحدة الوطنية الرومانية، يرأسه غيورغـي فونار.

المؤتمر الديمقراطي، تحالف يضم ١٨ حزبًا وجمعية معارضة، تأسس في ١٩٩٢ لخوض الانتخابـات التشريعية.

حزب المزارعين الرومانيين الديمقراطـي، وحـزب الخضر (الايكولوجي) الرومانيين.

اقتصاد: في ١٩٨٩، كانت حصة القطاع العـام (قطاع الدولة) مـن الصناعـة ٩٩،٧٪، الغابـات ١٠٠٪، الزراعة ٩٠،٧٪، المواصـلات ١٠٠٪، التجارة الخارجيـة والمصـارف والتـأمين ١٠٠٪.

في ١٩٩١، بـدأ التخصيـص (في الزراعـة والخدمـات)، وانخفضـت الاسـتثمارات بنسـبة ٢٦٪، والانتاجيـة بنسـبة ١٣،٣٪، وذكـرت بعض الدراسات ان هجـرة الادمغـة وصلـت إلى ٢٠ ألفًا من مجموع الذين غادروا البلاد.

منذ سقوط تشاوشيسكو في ١٩٨٩، عاشت البلاد مرحلة تميزت بالتردد في اعتماد نظام سياسي-اقتصادي محدّد، فبرزت تيارات ثلاث: الاول، يقول بتحول وجهة مصير رومانيا نهائيًا نحو الغرب و«العودة إلى اوروبا» مع كل ما يعنيه ذلك من استكمال للثورة الديمقراطية الليبرالية التعددية. الثاني، يدعو إلى ابقاء رومانيا في «شرق» الحضارة الغربية على اساس ان مرحلة ما بعد الشيوعية يجب ان تكون اقرب إلى «الديمقراطية الاجتماعية» منها إلى الديمقراطية الليبرالية الغربية. الثالث، يقول به منظرو اليسار الذين يرون ان رومانيا ليس امامها من مصير آخر سوى مصير الجنوب، أي مصير الهامش والتبعية العالمثالثية للرأسمالية الغربية المركزية إذا سارت في طريق الديمقراطية الليبرالية الغربية ورأسمالية السوق إلى نهايته. فمحاكاة الغرب لن تؤدي في نهاية المطاف إلا إلى تغريب رومانيا عن الغرب وزجّها في مدار العالم الثالث. وعلامات هذا التحول الانحطاطي بارزة في الافقار المعمّم والتضخم الهائل وسيادة الفساد والرشوة وهيمنة المافيا وتجارة الجنس والمخدرات وصعود الرأسمال اللامشروع.

لكن، اصحاب التيار الاول بدا انهم كسبوا الشوط المرحلي بفوز المرشح اليميني اميل كونستنتينشكو في الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية (١٦ تشرين الثاني ١٩٩٦) على منافسه رئيس الجمهورية ايون إيليسكو (الشيوعي السابق).

يعمل في الزراعة نحو ٥٠٪ من السكان العاملين. اهم المزروعات: الذرة (أول بلد اوروبي في انتاجه) والقمح. وأهم ثرواتها المنجمية: الفحم والليينيت. اما النفط والغاز ففي اساس الثروات الرومانية. لم تصل رومانيا بعد إلى مصاف الدول الصناعية (كانت سياسة الكوميكون تعير أهمية خاصة للزراعة في رومانيا على حساب الصناعة)؛ وأهم قطاعاتها الصناعية: الكيميائيات والصناعة الميكانيكية والتعدين، ويعمل فيها نحو ٢٥٪ من مجموع العاملين. السياحة: نحو ٥،٥ مليون سائح سنويًا، وأهم المناطق السياحية، بوخارست، البحر الاسود، أودية براهوفا، الاديرة المشيّدة في شمالي مولدافيا، دلتا الدانوب، وغيرها.

نبذة تاريخية

خاصية تاريخية: ان أول ما يسترعي الانتباه «الاختلاف» و«التنوع» اللذان يميزان رومانيا عن محيطها. فرومانيا ملتقى ثقافي يربطها بالبلقان من حيث التأثير الديني والفني الذي تلقته (مثلها مثل البلقان) من البيزنطيين ومن بعدهم العثمانيين؛ كما يربطها من ناحية ثانية بالتأثير القادم عليها من جبال الكاربات ونهر الدانوب، أي انفتاحها على العالم الجرماني والهنغاري ومن خلاله الحضارة الغربية بما تعنيه من كاثوليكية وعصر اصلاح وحركة تنوّر.

وصمدت وحدة البلاد التي كان يمكن لميزة «الاختلاف» ان تفجرها. فاللاتينية التي اتى

بها الامبراطور الروماني تراجان تركت بصماتها القوية جدًا، فكانت العامل الاساسي على صمود وحدة الرومانيين في وجه هجمة سلافية احاطت بالبلاد من كل الجهات. ولعب وعي الهوية اللاتينية دوره في اللحظات الحاسمة من تاريخ رومانيا: ١٨٤٨، ١٨٥٦-١٨٥٩، ١٩١٦-١٩١٨، مع انجذاب ملحوظ ناحية فرنسا التي دعّمت الوحدة الوطنية الرومانية وعملت على دمج امارات ترانسيلفانيا ومولدافيا وفالاكيا التي كانت متفرقة لقرون عديدة.

داقيا الرومانية: السكان الاوائل للاقليم الذي يشكل رومانيا الحالية كانوا الـ«جيت» (Getes) أو الـ«داق» (Daces). وهؤلاء شعب هندو-اوروبي يمت بصلة قربى بالـ«تراق» (Thraces)، عمل بالزراعة وتربية الخيول وعرف صناعة الحديد وأخذ عن حضارة السلطيين والسيطيين والمستعمرات الاغريقية التي كانت منتشرة على ضفاف البحر الاسود، مثل مستعمرة «تومس» (مدينة كوستنتا الرومانية الحالية). ويقول المؤرخون ان شكلاً اوليًا لدولة «داقيا» ارتسم في القرن الاول ق.م. على يد زعيم داقي يدعى بيروبيستا Burebista الذيث تمكن من جمع القبائل في نوع من اتحاد فدرالي تحت قيادته. وما لبثت هذه «الدولة» ان اصبحت ذات شأن في القرن التالي بحيث أثارت شهية روما التي كانت مسيطرة على شبه الجزيرة حتى مجرى الدانوب، خاصة وان داقيا كانت غنية بالملح والحديد والذهب. وقاد الامبراطور الروماني تراجان حملاته عليها في ١٠١، ثم في ١٠٦ حتى اخضعها واصبحت من الممتلكات الرومانية. ونعمت داقيا بـ«السلام الروماني»، فشقت فيها الطرقات، وبنيت الجسور، وأقيمت المباني... لكن الأثر الأهم والابقى كان في امتزاج الجنود والموظفين والمستوطنين الرومان بالسكان الداقيين، وكانت الغلبة الحضارية في هذا الامتزاج للغة الرومان اللاتينية التي تركت طابعها على الشعب الداقي-الروماني والتي لا تزال حتى اليوم تميّز الرومانيين عن محيطهم السلافي.

استمر هذا الوضع الامتزاجي المتمتع بـ«السلام الروماني» حتى العام ٢٧١. ففي هذا العام، رأى الامبراطور الروماني أورليان انه من الافضل تضييق حدود امبراطوريته المترامية كي يتمكن من الدفاع عنها، وقرّر سحب فرقه العسكرية من جنوبي الدانوب والانسحاب من داقيا. هنا، وفي هذا العام بالذات (٢٧١)، بدأت مرحلة في تاريخ داقيا امتدت إلى عشرة قرون وأثارت فرضيات متناقضة. فبعض المؤرخين يقولون ان الانسحاب الروماني في العام ٢٧١ كان تامًا وشاملاً، وان غزوات قبائل القوط والهونز والأفار تمكنت من محو كل أثر روماني في البلاد، وان المتحدرين من الاجداد الداقيين-الرومانيين الذين لجأوا إلى مناطق مختلفة جنوبي الدانوب، لم يعودوا إلى مناطق داقيا الداخلية (أي ترانسيلفانيا الحالية) إلا في حوالي القرن الثاني عشر. أما البعض الآخر من المؤرخين (ويبدو ان الاعتقاد السائد يميل اليهم) فيؤكد انه لم

يكن هناك من انقطاع تاريخي بين الشعب الروماني الحالي وأجداده الداقيين- الرومانيين، لأن انسحاب ا لرومان في العام ٢٧١ لم يكن انسحابًا شاملاً ولأن غزوات القبائل المذكورة (القوط، الهونز، الأفار) طالت المدن واجبرت السكان على الهرب إلى الغابات الكثيفة حيث مارسوا الرعي واحتفظوا بموروثهم الداقي- الروماني.
منذ القرن السادس توالت غزوات السلاف على البلاد، ودخلت عبر القرون التالية مفردات سلافية كثيرة على قاموس اللغة الرومانية، لكن من دون ان يغير ذلك في بنيتها. وبخضوع داقيا للامبراطورية البلغارية في ايام القيصر سيميون، فإنها دخلت في إطار العصر الثقافي البيزنطي، وانتشرت المسيحية فيها بدءًا من اواخر القرن التاسع، وارتبطت بالاسقفيات البلغارية، وتبنت الكنيسة الرومانية الطقس الكنسي السلافي، ونمت المسيحية جنبًا إلى جنب مع نمو اجتماعي يعتمد التنظيم الاقطاعي للمجتمع لمصلحة الكنيسة وطبقة البويار (الاقطاع الزراعي) الارستقراطية.

هذا البزوغ الثقافي والسياسي للشعب الروماني عرقلت تطوره، من جديد، غزوات شنتها قبائل البتشنيغ Petchnegues والكومان Coumans والتتار Tatars، من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر، وسيطرت على ممرات الدانوب. فوجد الرومانيون انفسهم معزولين داخل ترانسيلفانيا. وترانسيلفانيا نفسها بدأ الهنغاريون بغزوها في القرن الحادي عشر، وكان على سكانها ان يقبلوا بأن يجاورهم مستوطنون اتراك ومجر (ماغيار) استقدمتهم هنغاريا واسكنتهم مواقع متقدمة لجهة الجنوب الشرقي من القوس الكارباتي للدفاع عن الحدود، كما ان يقبلوا بمستوطنين جرمان استقدمهم ملوك هنغاريا لاستغلال الثروات المنجمية في جبال الألب الترانسيلفانية. وهؤلاء هم الذين اعطوا الاسم الالماني، (ترانسيلفانيا)، للمنطقة. وحملت السيطرة الهنغارية على ترانسيلفانيا تأثيرًا غربيًا تمثل في الطراز القوطي التي حملته بعض الكاتدرائيات والمنشآت التي بنيت في القرن الثالث عشر، وكذلك في إدخال نظام اقطاعي استعبد طبقة الفلاحين الرومانيين لمصلحة الاشراف المجريين والمتعاونين معهم.

انطلاقة الامارات الرومانية: في القرن الثالث عشر، ازداد ضغط السلطة الهنغارية على ترانسيلفانيا وتزامن ذلك مع ارتداد القبائل التتارية عن سهول الدانوب، ما وفّر لقسم من سكان ترانسيلفانيا الرومانيين فرصة الانتقال إلى مناطق قريبة من الدانوب ومن البحر الاسود. وهناك تجمعوا حول زعمائهم (فويفود Voévodes) وأقاموا إمارة فالاكيا وإمارة مولدافيا اللتين تمكنتا من إعلان استقلالهما في اواخر القرن الرابع عشر ومن البدء بتنظيم دولة حول امرائهما (كان يقال للأمير الروماني «دومن» domn) وحول جمعياتهما التمثيلية (إقطاع زراعي-بويار-رجال الكنيسة، واحيانًا تجار وفلاحون احرار).
لكن هذا الامر لم يدم طويلاً، إذ

سقطت فالاكيا في يد العثمانيين في ١٤١١، ثم سقطت بيدهم مولدافيا بعد نحو قرن واحد. ويجمع المؤرخون الرومانيون، والغربيون عمومًا، ان السلطة العثمانية على هاتين الامارتين الرومانيتين تميزت، خلافًا عن باقي المناطق البلقانية، بالتسامح الديني وبترك الشؤون السياسية الداخلية بين ايدي امرائهما. فلم يكن هناك من تغييرات ديمغرافية، ولا أسلحة... وسارت الامارتان على طريق النمو والازدهار، فتأسست المدن، وبنيت الكنائس والاديرة، وأكدت الكنيسة الرومانية استقلاليتها، وفتحت المدارس، وأنشئت أكاديمية بوخارست (١٦٩٤)، وأقيمت المطابع... وبعد هزيمة الهنغاريين في معركة موهاك (١٥٢٦) اصبحت ترانسيلفانيا (التي كانت خاضعة لهم) تابعة كذلك للسلطان العثماني، فسارعت بدورها على طريق التفتح الثقافي والازدهار مثلها مثل فالاكيا ومولدافيا مع فارق ان حياتها الثقافية والدينية كانت متجهة ناحية الغرب، فتأثرت بحركة الاصلاح وبالكالفينية واللوثرية، مع إبقاء حياتها السياسية متأثرة ومتفاعلة بالامارتين الرومانيتين. وهذا ما سهّل امام امير فالاكيا ميهيل فيتيزول (ميشال الشجاع ١٥٩٣–١٦٠١) بأن يوحّد الامارات الرومانية الثلاث لبعض السنوات.

حاول امراء فالاكيا ومولدافيا التحرر من السلطة العثمانية، وكان قيصر روسيا بطرس الاكبر يمدهم بالدعم. لكن هذه المحاولات أثارت غيظ العثمانيين. فاحتلوا الامارتين احتلالاً مباشرًا في ١٧١١، وألغوا النظام السابق، وأحلوا محل الامراء الوطنيين حكامًا (أسبودار) يعينهم السلطان لمدة ثلاثة اعوام ويختارهم من بين العائلات البيزنطية الثرية التي كانت تسكن حي الفنار في القسطنطينية (استنبول). من هنا جاءت تسمية «النظام الفناري» على الحقبة التي حكم فيها الأسبودارات فالاكيا ومولدافيا.

أما ترانسيلفانيا، فقد أدت السياسة التي اتبعها اميرها غيورغي الثاني، بتحالفه مع لويس الرابع عشر ضد النمسا، إلى ضم ترانسيلفانيا إلى النمسا (آل هابسبورغ) في ١٦٩١، ثم اصبح هذا الضم نهائيًا في ١٧١١، وأصبح الحكم مرتبطًا مباشرة بفيينا. وعلى الرغم من إلغاء الامبراطور النمساوي جوزف الثاني لنظام العبودية، استمرت طبقة الفلاحين تعاني الاضطهاد والبؤس، ما جعلها تنتظم في عامية ١٧٨٤ التي قادها هوريا **Horea**.

عانت الامارات الثلاث، منذ اواخر القرن الثامن عشر، من تهديدات خارجية مصدرها النمسا، وروسيا خاصة، بعد ان بدأ نجم السلطنة العثمانية بالافول. ففي ١٧٧٥، ضمت النمسا بوكوفين. وقبلها بعام واحد، وصلت روسيا إلى بوغ. وقامت حرب بين النمسا وروسيا لم تتمكن هذه الاخيرة بنتيجتها من إقامة «داقيا» (دولة رومانية) تحت حكم غراندوق روسي، ولكنها تمكنت من توسيع رقعة البلاد حتى وصلت حدودها إلى نهر دنيستر (١٧٩١). وفي ١٨١٢، ضمت روسيا بساربيا التي انتزعتها من إمارة مولدافيا.

يقظة الوعي القومي: شهدت العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر تشكلاً للوعي القومي الروماني. فالثقافة الهلّينية التي كانت تأخذ بها بلاطات الامراء وحاشيتهم والشرائح القيادية في مولدافيا-فالاكيا وضعت النخب الرومانية على إتصال ليس فقط بثقافة الفنار النيو-بيزنطية، بل ايضًا بالافكار الغربية التي حملها معهم إغريق الدياسبورا (الشتات). فبواسطة هؤلاء، وقفت ا لنخب الرومانية على أهمية وأصالة لغتهم التي تعود إلى دولة داقيا الرومانية، وإن كانت بلادهم قد تخلفت عن ركب البلغار والاغريق والصرب في إقامة دولة ذات شأن في القرون الوسطى. فقامت الأكاديميات والمدارس والمكتبات في مدن وبلدات الامارات الثلاث (فالاكيا، مولدافيا، ترانسيلفانيا) تنشر التعليم باللغة الرومانية وتوسع من انتشارها شيئًا فشيئًا، كما انبرى لها رواد من رجال الدين وعلمانيين، خاصة في ترانسيلفانيا. أما محاولة التحرير الوطني والقومي الاولى فجاءت من فالاكيا، وما لبثت ان انتقلت إلى مولدافيا، وسرعان ما اتخذت شكل ثورة اجتماعية-سياسية تهدف إلى التحرر والاستقلال عن الاتراك. وفي ما كان زعيمها، فلاديميريسكو يتهيأ، على غرار الصرب، لمفاوضة الاتراك على استقلال الامارات الثلاث، ألقي القبض عليه ونفذ به حكم الاعدام (ايار ١٨٢١) بتهمة الخيانة.

ومع ذلك استمرت الانتفاضة (إبنة الأثر الاغريقي) وتخللها تدخل روسي أدّى إلى معاهدة أدرنة في ١٨٢٩ التي سُمح لروسيا بموجبها باحتلال الامارات الرومانية التي اصبحت تتمتع بنظام سياسي جديد بعد إلغاء النظام الفناري «العثماني». فنعمت الامارات بحكم ذاتي، وأصبح اميرها يعين لمدى الحياة بالتوافق ما بين القيصر الروسي والسلطان العثماني. وعادت الامارات لتعرف انطلاقة اقتصادية وثقافية من جديد، وليحمل إليها ابناؤها المثقفون الافكار الليبرالية الغربية وصدى ثورات ١٨٤٨ في الدول الاوروبية. فاندلعت الثورة في تلك السنة في الامارات الرومانية، لكنها قمعت بشدة وأدت إلى احتلال عسكري روسي مباشر.

بعد انتهاء حرب القرم، سُمح للنمسا باحتلال الامارات مكافأة لها على حيادها في هذه الحرب. لكن معاهدة باريس (١٨٥٦) ابعدت هذه الدولة وتلك عن التحكم بمصير الامارات، وقضت باقامة نظام حماية جماعي تتوافق عليه الدول المعنية بانتظار تحديد نظام استقلال ذاتي للامارات الرومانية. وفي ١٨٥٨، قرّر المؤتمر الدولي منح الامارات نظام حكم ذاتي (وليس الاستقلال) تستمر بموجبه في دفع الضريبة للسلطان العثماني الذي يستمر في تنصيب الأسبودارات، على كل امارة أسبودار ولكل منها مجلسها التمثيلي المكون من كبار الملاكين العقاريين. وقد روّع هذا الحل أنصار وحدة البلاد، ووجدوا في الامبراطور الفرنسي، نابوليون الثالث، كل دعم لقضيتهم. فتمكنوا من جعل المجلسين المولدافي والفالاكي يقدمان على انتخاب أمير واحد للامارتين (١٨٥٩) هو ألكسندر

إيون كوزا. وقبلت اوروبا هذا الاجراء واعتبرته امرًا واقعًا.

من الحكم الذاتي إلى الاستقلال: بدأ الامير كوزا عهده (١٨٥٩-١٨٦٦) بدمج مجلسي الامارتين، وتوحيد عملتهما، واصدار دستور (١٨٦٤) شبيه بالدستور الفرنسي (ثقافة كوزا فرنسية)، وتشجيع التعليم وجعل الابتدائي منه إجباريًا، وتحويل أكاديميتي إياسا وبوخارست إلى جامعتين، ونزع ممتلكات الكنيسة وجعلها ممتلكات عامة، وتشريع قانون زراعي يفصل بين اراضي البويار واراضي الفلاحين. لكن كوزا اضطر إلى ترك الحكم في ١٨٦٦ تحت ضغط المحافظين الذين ازعجتهم القوانين الزراعية من جهة، والليبراليين الذين رأوا في الدستور حكمًا استبداديًا من الجهة ا لثانية.

وقع الاختيار على الامير شارل دو هوهنزولرن-سيغمارنغن الذي اتخذ اسم كارول دو رومانيا. أصدر دستورًا جديدًا (١٨٦٦) متأثرًا، هذه المرة، بالدستور البروسي، يضمن الحريات المدنية، ويترك صلاحيات واسعة بيد الامير. في الحرب الروسية-التركية التي اندلعت في ١٨٧٦، قرر الامير كارول الاشتراك فيها لقطف ثمار نتائجها. لكن هذه النتائج جاءت مخيبة لآماله، إذ استبعدت رومانيا عن مفاوضات سان ستيفانو وبرلين (١٨٧٨). وعادت روسيا وضمت بساربيا الجنوبية التي كانت معاهدة باريس قد اعادتها لمولدافيا، وعوّض على رومانيا باعطائها منطقة دوبرودجا الشمالية. وفي ١٨٨١، أعلن استقلال رومانيا وأصبح الامير كارول الملك الاول.

عهد كارول الاول وقيام رومانيا الكبرى: استمرت الحياة السياسية في العهد الملكي كما كانت عليه في السابق: تناوب الحكم بين المحافظين (البويار) من جهة، والبورجوازيين والمثقفين والليبراليين من جهة ثانية، في حين استمر الشعب غائبًا عن لعبة السياسة والسلطة. والابرز داخل هذه اللعبة كان الحزب القومي الليبرالي بزعامة إيون براتيانو الذي قاد هذا الحزب بصورة شبه دكتاتورية حتى ١٨٨٨ حين بدأ يحضّر إبنه إيونيل ليحل محله ابتداء من ١٨٩٥. ويختصر برنامج هذا الحزب بالتنمية الاقتصادية والقومية.

جرى اهتمام كبير بالبنية التحتية النهرية والمرفئية (جسر سيرنافودا، وتجهيزات مرفأ كونستنتا). وبدأ استخراج النفط في ١٨٧٠، وبدءًا من ١٨٩٥ تعهدته شركات اجنبية (بلجيكية، هولندية، المانية وانكليزية). في العاصمة وبعض المدن بدأت تتشكل نواة لحركة عمالية، ومنتديات لمثقفين. وفي ١٨٩٣، ظهر الحزب الاجتماعي الديمقراطي لعمال رومانيا. والمشكلة الأهم بقيت المشكلة الزراعية. ففي ١٩٠٧، وتحت تأثير ثورة ١٩٠٥ الروسية، اندلعت انتفاضة فلاحية في مولدافيا قمعت بقسوة، لكن المشكلة الزراعية بقيت قائمة.

اختار الملك كارول الاول، ومعه الاوساط الاقتصادية والليبرالية، سياسة التقرب من النمسا-هنغاريا ريثما يتيح لهم

هذا الأمر ضم ترانسيلفانيا، خاصة وان هذه المقاطعة لم تعرف الهدوء منذ ان جرى ضمها إلى هنغاريا في ١٨٦٧، وقد تأسس فيها حزب قومي روماني في ١٨٨١. لكن ضم ترانسيلفانيا لم يتم إلا على أثر هزيمة النمسا-المجر في الحرب العالمية الاولى (وكان الملك كارول الاول توفي في اواخر ١٩١٤ وخلفه قريبه فرديناند الاول)، بعد ان كان الالمان دخلوا بوخارست وجعلوا من رومانيا (بموجب معاهدة بوخارست في ايار ١٩١٨) مجرد محمية اقتصادية المانية. لكن المعادلة سرعان ما تغيرت بعد الهجوم الذي شنه الجنرال فرنشيت ديسبيريه وهزيمة بلغاريا واستسلام النمسا. فبادر الرومانيون في بوكوفين وترانسيلفانيا إلى تشكيل مجالس قومية أعلنت عن حقوق الاقليات في تقرير مصيرها. وفي حين كان الجيش الروماني يدخل ترانسيلفانيا عقدت في البا إيوليا جمعية عمومية في اول كانون الاول ١٩١٨ أعلنت، في جو حماسي، ضم جميع الاقاليم الرومانية التي كانت خاضعة للامبراطورية النمساوية-الهنغارية إلى رومانيا. وجاءت معاهدات السلام لتثبت حدود «رومانيا الكبرى». فبموجب معاهدة نويلي تخلت بلغاريا عن دوبروجا وسيليسترِيا، وبموجب معاهدة سان جرمان تخلت النمسا عن بوكوفين (أو بوكوفينيا)، وبموجب معاهدة تريانون تخلت هنغاريا عن ترانسيلفانيا. ثم وافق الحلفاء على ضم بساربيا إلى رومانيا. والحصيلة الاجمالية ان مملكة رومانيا (بنتيجة الحرب العالمية الاولى) تضاعفت حجمًا، في المساحة وفي عدد السكان، عما كانت عليه قبلاً (فالاكيا ومولدافيا).

مملكة رومانيا (١٩١٩-١٩٤٤):

بعد ضم المقاطعات المذكورة بدأت رومانيا تعرف مشكلة الاقليات فيها: نحو ١،٣٠٠ مليون هنغاري في الاطراف الغربية من ترانسيلفانيا؛ نحو ٧٠٠ ألف الماني يقيمون منذ القرن الثامن عشر؛ ونحو ٧٠٠ ألف ايضًا من الاوكرانيين والروس في بساربيا الجنوبية وبوكوفينيا الشمالية؛ ونحو ٣٥٠ ألفًا من البلغار في دوبروجا؛ ونحو ٧٥٠ ألفًا من اليهود خاصة في مدن مولدافيا. وقد ضمن مؤتمر ٩ كانون الاول ١٩١٩ لهذه الاقليات المساواة المدنية واحترام الخصوصيات الدينية واللغوية والتعليمية.

بين ١٩١٨ و١٩٢١، صدرت تشريعات زراعية نقلت ممتلكات التاج الروماني إلى الفلاحين، وحصرت حق ملكية الاجانب أو المهاجرين بـ١٠٠ هكتار. وجرت أول انتخابات عامة وشاملة (١٩١٩) اطاحت حكومة براتيانو وجاءت بـ«رابطة الشعب» (يتزعمها الجنرال أفاريسكو) إلى السلطة. وفي ١٩٢٢، عاد الليبراليون إلى السلطة، وبعد سنة صدر دستور ١٩٢٣. وبدأت تطغى على الحياة السياسية المشاحنات والرغبة في استئثار الحظوة والمادة والسلطة. وبعد وفاة الملك فرديناند في ١٩٢٧ (في السنة ذاتها توفي إيونيل براتيانو)، أبعد إبنه كارول عن العرش لمصلحة مجلس وصاية عليه. لكنه عاد واعتلى العرش في ١٩٣٠، فانتهج سياسة

تفكيك النظام البرلماني وزرع بذور الشقاق والخلاف بين الزعماء والاحزاب في البلاد. وجاءت نتائج الازمة الاقتصادية العالمية (في الثلاثينات) لتقضي على آخر حظوظ النظام البرلماني الديمقراطي. فالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة فسحت بالمجال امام صعود الفاشية التي حمل لواءها كورنيليو كودريانو ومنظمة «الحرس الحديدي» التي جاهرت ببرنامج هو مزيج من المسيحية الصليبية والقومية المتطرفة ومعاداة السامية. فكسبت رجال الدين، وأوساطًا بورجوازية، وضباطًا قوميين، ومثقفين يخشون مزاحمة اليهود لهم في الوصول إلى الوظائف العامة، وطلابًا قلقين على مستقبلهم، وكذلك عمالاً وفلاحين (كانت الحركة الشيوعية ما تزال محظورة وخارجة على القانون).

رافق صعود كودريانو وضع سياسي معقد واضطرابات أمنية وحوادث اغتيالات سياسية (اغتيال الوزير الليبرالي إيون دوكا، في ١٩٣٣، الذي كان يطالب بحل الحرس الحديدي). والملك كارول الذي بدا انه استعمل كودريانو، في بادىء الامر، للتخلص من الاحزاب التقليدية، عاد وقرر التخلص منه. فألقي القبض على كودريانو ونفذ به حكم الاعدام في اواخر ١٩٣٨. وأصدر الملك دستورًا جديدًا يلغي الاحزاب السياسية، كما بدأ ينتهج كل سياسة ترضي هتلر في محاولة لتجنيب رومانيا التهديدات النازية.

جاءت اتفاقات آذار ١٩٣٩ (بين رومانيا والمانيا) لتعطي النفط الروماني لالمانيا، لكن مع محاولات بذلتها رومانيا لعدم قطع الجسور مع الغرب، كما في رفضها تقسيم تشيكوسلوفاكيا حيث نالت، مكافأة على ذلك، وعدًا فرنسيًا-انكليزيًا بضمان أمنها في نيسان ١٩٣٩. لكن بعد زوال بولندا وهزيمة فرنسا لم يعد امام رومانيا إلا الوقوف مع دول المحور. ولم ينفعها هذا الموقف بشيء، إذ سرعان ما وجدت نفسها ممزقة من جديد: الانذار السوفياتي (وكان الاتحاد السوفياتي والمانيا النازية قد وقعا ميثاق حلف في ١٩٣٩) في ٢٦ حزيران ١٩٤٠ يفرض على رومانيا اعادة بساربيا إلى روسيا والتخلي عن بوكوفينيا الشمالية. ثم جاء تحكيم فيينا في ٣٠ آب ١٩٤٠ ليقسم ترانسيلفانيا بين رومانيا وهنغاريا. ثم فرضت معاهدة كرايوفا على رومانيا ان تتخلى عن دوبروجا الجنوبية لبغاريا.

وعلى الصعيد الداخلي، عيّن الملك كارول المارشال إيون انطونيشكو رئيسًا للوزراء. فقام هذا باجبار الملك على التخلي عن العرش لابنه ميشال (ايلول ١٩٤٠؛ وأصبحت البلاد كناية عن «إقطاعية» يديرها هوريا سيما الذي ورث كودريانو على زعامة الحزب الفاشي، ففرض (لشهور) نظامًا ارهابيًا ذهب بآلاف الضحايا (منهم المؤرخ ن.إيورغا). وعندما غزت المانيا الاتحاد السوفياتي، انضمت رومانيا إليها طمعًا باستعادة بساربيا، وعبر جيشها نهر دنيستر وضمّ أوديسا. وفي اوائل ١٩٤٣، كانت الفرق الرومانية تخترق مواقع على جبهة ستالينغراد.

رومانيا الاشتراكية: بهزيمتها في الحرب العالمية الثانية، أصبح على رومانيا ان تعيش، بدءًا من ٢٣ آب ١٩٤٤، في وسط جغرافي واقتصادي غير مألوف منها، متخذة لها مؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية منسوخة عن تلك القائمة في الاتحاد السوفياتي، ولكنها دائمًا كانت حريصة على اظهار خصوصيتها اللاتينية في البحر السلافي من خلال إجراءات وتحركات تقف في وجه الهيمنة السوفياتية.

عندما نجح السوفيات في صد الهجوم الالماني وبدأوا هجومًا مضادًا، اتفق زعماء الاحزاب الرومانية، في ربيع ١٩٤٤، لدعوة الغربيين إلى إيجاد مخرج «مشرّف» للحرب، وشكلوا في ما بينهم «الجبهة الوطنية الديمقراطية» التي ضمت، ابتداء من ٢٠ حزيران ١٩٤٤، الحزب الوطني الفلاحي (بزعامة مانيو)، والحزب الوطني الليبرالي (براتيانو)، والحزب الاجتماعي الديمقراطي (بتريشكو)، والحزب الشيوعي (باتراشكانو). وقد دعمت هذه الجبهة انقلاب ٢٣ آب ١٩٤٤، فالقي القبض على الجنرال الدكتاتور أنطونيشكو بناء على امر الملك ميشال، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة الجنرال ساناتشكو وبمشاركة القادة الاساسيين للجبهة. وفي ١٢ ايلول ١٩٤٤، وقعت الهدنة في موسكو، وتخلت رومانيا عن بساربيا وبوكوفينيا الشمالية للاتحاد السوفياتي، ولكنها استرجعت الجزء الذي كانت قد اقتطعته هنغاريا في ١٩٤٠ من ترانسيلفانيا. إضافة إلى ذلك اجبرت رومانيا على دفع ٣٠٠ مليون دولار للاتحاد السوفياتي كتعويض عن الحرب وتحمل نفقات الجيش السوفياتي الموجود على ارضها.

عندما علم الحزب الوطني الفلاحي والحزب الوطني الليبرالي بالبرنامج الذي يحمله الحزب الشيوعي معه إلى السلطة، غادرا الجبهة الوطنية الديمقراطية وتشكلت حكومة جديدة في ٥ كانون الاول ١٩٤٤ برئاسة الجنرال راديشكو الذي لم يتمكن من الحد من اندفاعة الشيوعيين نحو الهيمنة الكاملة على السياسة العامة للبلاد. أضف إلى ذلك ان النوايا السوفياتية بدت واضحة مع وصول أندريو فيشينكي، مساعد وزير الخارجية السوفياتي إلى بوخارست حيث أملى على الملك ميشال النهج الذي يجب اتباعه. وفي ٦ آذار ١٩٤٥، شكل الدكتور بيترو غروزا (رئيس جبهة الفلاحين) حكومة جديدة سارع السوفيات إلى الاعتراف بها، وتسلّم الشيوعيون فيها حقائب الداخلية والعدل والاقتصاد والمواصلات والجيش. وبدأ غروزا اصلاحًا زراعيًا (٢٥ آذار ١٩٤٥) وتطهيرًا في الادارة.

في انتخابات تشرين الثاني ١٩٤٦، فازت كتلة الاحزاب الديمقراطية (الحزب الشيوعي، الاجتماعيون الديمقراطيون، الليبراليون، جبهة الفلاحين...) بأكثرية المقاعد إذ نالت ٧١،٨٪ من اصوات المقترعين. وشكل غروزا حكومة جديدة غالبية اعضائها من الشيوعيين. وشهد العام ١٩٤٧ سلسلة من الاحداث والتوترات أدّت إلى إجبار الملك ميشال على التخلي

عن العرش. وفي اليوم نفسه، أعلن البرلمان قيام «الجمهورية الشعبية الرومانية».

وجاء انتصار الشيوعيين في انتخابات الجمعية الوطنية في ٢٨ آذار ١٩٤٨، وتثبيت هذا الانتصار في الدستور الصادر في ١٣ نيسان ١٩٤٨، ليباشر في جعل رومانيا دولة اشتراكية (راجع «الحزب الشيوعي الروماني» في باب معالم تاريخية، وراجع باب زعماء ورجال دولة).

كرونولوجيا

النظام الشيوعي: في ١٩٥٨، وبعد بيترو غروزا (١٨٨٤-١٩٥٨) الذي كان رئيسًا للجمعية الوطنية الكبرى من ١٩٥٢، انتخب إيون غيورغي موريير (مولود ١٩٠٢) رئيسًا لهذه الجمعية. وفي حزيران ١٩٥٨، تمّ انسحاب الجيش السوفياتي من رومانيا.

في ١٩٦١، انتخب غيورغي غيورغيو-دج (١٩٠١-١٩٦٥) رئيسًا لمجلس الدولة. وفي ١٩٦٢، انتهى العمل بجعل الزراعة خاضعة لمختلف احكام واشكال النظام الاشتراكي. في ١٩٦٤، اعلنت رومانيا انها على استعداد للتعاون مع جميع الدول أيًا كان نظامها السياسي والاقتصادي. في ١٩ آذار ١٩٦٥، مات غيورغيو-دج، وأصبح نيكولاي تشاوشيسكو امينًا لحزب العمال (الذي غيّر إسمه، في تموز، إلى «الحزب الشيوعي»)؛ وانتخب شيفي ستويكا (١٩٠٠-١٩٧٥) رئيسًا لمجلس الدولة.

في ٢٨ آذار ١٩٧٤، بدأ عهد تشاوشيسكو بانتخابه رئيسًا للجمهورية (راجع «زعماء ورجال دولة»). وكان قبل ذلك، أي منذ انتخابه امينًا عامًا للحزب في ١٩٦٥، يمارس نفوذًا كبيرًا في السلطة. ففي ١٧ شباط ١٩٦٨، كان وراء إعادة تنظيم الادارة. ومن ٢٨ آب ١٩٦٨، رفض الاشتراك في تدخل المعسكر الاشتراكي الاوروبي في تشيكوسلوفاكيا. وفي تموز ١٩٦٨، استقبلت رومانيا الرئيس الفرنسي شارل ديغول.

في ١٩٧٤، صدر قانون «تنظيم الاراضي» الذي يشمل ٣٠٠ ألف هكتار من الاراضي المزروعة، والذريعة الرسمية له كانت لكسب مزيد من الاراضي الزراعية؛ اما الذريعة شبه الرسمية فكانت ان هذا القانون يهدف لنقل الاقلية الهنغارية من ترانسيلفانيا. في تموز ١٩٧٥، زار رئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك رومانيا. في ٤ آذار ١٩٧٧، ضرب زلزال ارضي رومانيا وادّى إلى مقتل ١٥٤١ شخصًا. في ٢٤ تموز ١٩٧٨، طلب الجنرال إيون باسيبا اللجوء السياسي من السفارة الاميركية في بون. في آذار ١٩٧٩، زار الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان رومانيا، وزارها كذلك سكرتير الحزب الاشتراكي الفرنسي فرنسوا ميتران، وفي تموز ١٩٨٠، زار تشاوشيسكو فرنسا. ومنذ ١٩٨١، بدأت الدولة تطبيق نظام

غذائي علمي «ترشيدي» حيث حدّدت لكل شخص كمية معينة من المواد الغذائية الاساسية.

جهد تشاوشيسكو في تأكيد شخصية رومانيا بين دول اوروبا الشرقية. وقد انسحبت رومانيا (منذ ١٩٦٢ إلى ١٩٧١) من مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (كوميكون)، حيث افرد لرومانيا دور الدولة الزراعية. وكان هذا الامر من اهم العوامل في توتير العلاقات الرومانية– السوفياتية منذ ١٩٦٢. وفي الدورة الـ ٢٥ للكوميكون في بوخارست (تموز ١٩٧١)، وافقت رومانيا على «البرنامج المتشعب لتعميق وإكمال تعاون وتنمية التكامل الاقتصادي الاشتراكي للدول الاعضاء في الكوميكون». وعليه، وافقت رومانيا على إعادة عضويتها في المجلس، مع استمرار انتقادها لسياسة الهيمنة الروسية، واستمرارها في المطالبة باسترداد مقاطعتي بساربيا وبوكوفينيا الشمالية اللتين ضمهما الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية. وقد لاقت سياستها هذه تأييدًا من الدول الغربية، والصين الشعبية، ومن أكثر الاحزاب الشيوعية الغربية.

وتميزت سياسة رومانيا الشرق اوسطية (في عهد تشاوشيسكو)، عن سياسة باقي دول اوروبا الشرقية، بالوقوف في ا لوسط بين طرفي النزاع الأساسيين في المنطقة، أي الدول العربية واسرائيل. وقد برز هذا الموقف، على وجه الخصوص بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣، حيث جرى الكلام في الاوساط السياسية الدولية (وكذلك في الكتابات التأريخية الغزيرة التي تناولت الموضوع) عن دور الرئيس تشاوشيسكو في التمهيد لزيارة الرئيس المصري انور السادات إلى القدس (تشرين الثاني ١٩٧٧)، وبالتالي، لاتفاقات كامب ديفيد. وجاءت زيارات الرئيس الروماني لبعض الدول العربية، بعد الاتفاقيات المذكورة، ١٩٧٩، لتكون محاولات على طريق إيجاد حلول سلمية للنزاع العربي–الاسرائيلي.

كانت الولايات المتحدة منحت رومانيا وضع الدولة الأكثر رعاية في ١٩٧٥. لكن، في اواخر صيف ١٩٨٢، قال الرئيس الاميركي رونالد ريغان ان هذا الوضع سيتعرض للخطر إذا لم تحسن رومانيا إجراءاتها الخاصة بالهجرة وتزيد من معدل هجرة اليهود. وعرفت رومانيا (في خريف ١٩٨٢) حملة تطهير داخل الحزب الشيوعي الروماني وتعديلات وزارية. وقد ارتبط هذا التغيير بالصعوبات الاقتصادية التي عانتها رومانيا. وفي ٤ آذار ١٩٨٣، نفذ ريغان إنذاره وقرّر إلغاء وضع الدولة الأكثر رعاية التي كانت تتمتع به رومانيا في تجارتها مع الولايات المتحدة. وجاء هذا القرار بعدما فرضت بوخارست قيودًا على الهجرة (كأن تلزم الذين يتقدمون بطلبات هجرة إعادة نفقات تعليمهم قبل الحصول على تأشيرة هجرة). وقد ندّد تشاوشيسكو بسياسة ممارسة العقوبات الاقتصادية لأنها «تشكل خرقًا للقوانين الدولية المعمول بها»؛ وحضّ الاقليات (في اول نيسان ١٩٨٣) على عدم الهجرة، وقصد بالدرجة الاولى الاقلية الالمانية التي كان يبلغ عدد اعضائها نحو ٣٠٠ ألف يرغب معظمهم في الهجرة إلى المانيا الغربية (منذ ١٩٧٧، كان يغادر رومانيا سنويًا نحو ١٢ ألف روماني من اصل الماني). اما اليهود فقد شكلوا الاقلية الثانية الراغبة في الهجرة إلى اسرائيل أو الولايات المتحدة، وقد غادر رومانيا في عام ١٩٨٢ نحو ١٥٠٠ يهودي.

في الثمانينات، استمرت رومانيا على تأكيد دورها كعضو غير ملتزم في الكتلة الشرقية، من ضمن موقفها المستقل وانتقادها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في ما يتعلق بسباق التسلح. من هنا، كانت دعوة تشاوشيسكو (كما في زيارته بلغاريا آخر آذار ١٩٨٤) للدولتين إلى معاودة الحوار في شأن نزع السلاح وضرورة سحب الصواريخ الاميركية في اوروبا الغربية ووقف التدابير السوفياتية المضادة في اوروبا

الشرقية. وفي حزيران ١٩٨٤، زار بولندا، وفي تشرين الاول ١٩٨٤ المانيا الغربية، وكرّر في البلدين دعوته إلى حوار اميركي-سوفياتي. وكان في حزيران ١٩٨٤، قام باول زيارة عمل لموسكو منذ ١٤ عامًا.

في ١٧ آذار ١٩٨٥، جرت انتخابات تشريعية، وفازت الجبهة الحاكمة (جبهة الوحدة والديمقراطية الاشتراكية الرومانية) بـ٩٧،٨٣٪ من الاصوات. في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٨٦، جرى استفتاء عام حول تخفيض (بنسبة ٥٪) النفقات العسكرية، وهو المشروع الذي تقدم به الرئيس تشاوشيسكو، فنال موافقة ٩٩،٩٪ من المقترعين. وفي حزيران ١٩٨٧، بدأ العمل باقامة ستار حديدي على الحدود مع هنغاريا بطول ٣٠٠كلم على ان ينتهي العمل به في حزيران ١٩٨٨. وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٧، سارت تظاهرة في براسوف منددة بتخفيض الاجور وانقطاع المواد الغذائية.

سقوط تشاوشيسكو: مع اوائل ١٩٨٩، بدأت تطفو على السطح معارضة شعبية قوية لنظام تشاوشيسكو، سرعان ما تعاظمت حتى أدت، في نهاية هذا العام، إلى سقوطه. ومجموعة الدول الاوروبية كانت، منذ اواسط العام ١٩٨٨، قد قطعت مفاوضاتها التجارية مع رومانيا.

في آب ١٩٨٩، تأسست «جبهة السلامة الوطنية» على يد بروكان، بيرلادينو، إيليسكو، مازيلو وميليتارو. في ٢٣ تشرين الثاني، اعلن تشاوشيسكو البدء بحملة تطهير واسعة في محاولة لحل مشكلة العجز الاقتصادي، ورفض اتفاقية ١٩٤٠ التي أدت إلى فقدان بساربيا. في ١٦ كانون الاول، اندلعت تظاهرات في مدينة تيميسوارا لمنع خروج رجل الدين لاسزولا توكس، المدافع عن الأقلية الهنغارية في البلاد، والاذاعة الهنغارية تحدثت عن ان الجيش الروماني انهال ضربًا على المتظاهرين. وفي اليوم التالي، عادت التظاهرات من جديد وصاحبتها أعمال عنف (هجوم المتظاهرين على المباني الرسمية وحرق كتب تشاوشيسكو وتحطيم تماثيله). وفي ١٨-٢٠ كانون الاول، زار تشاوشيسكو ايران؛ ونقلت وسائل الاعلام العالمية أخبار «مذابح» يرتكبها الجيش ضد المتظاهرين والمعارضين الرومانيين. في ٢٠ كانون الاول، أعلن تشاوشيسكو من على شاشة التلفزيون ان الجيش يسيطر على تيميسوارا، فقوبل اعلانه بسخرية ابداها المتظاهرون الذين كانوا يستمرون في تظاهراتهم فيما الجيش يطلق النيران عليهم من وقت إلى آخر، وبعضهم مشت عليهم الدبابات. وفي ٢١ كانون الاول، انتفضت العاصمة بوخارست، وجرت فيها مواجهات دموية، واعلنت حالة الطوارىء على جميع الاراضي الرومانية، كما اعلن عن «انتحار» الجنرال فاسيل ميليا وزير الدفاع الذي تأكد في ما بعد ان رجال تشاوشيسكو قتلوه لأنه رفض اطلاق النار على المتظاهرين. وفورًا بعد إعلان هذا النبأ، انضم الجيش إلى المتظاهرين؛ وبعد ساعات اعلنت الاذاعة الرسمية ان تشاوشيسكو تخلى عن السلطة (وهرب بطائرة مروحية من على مبنى الحزب الشيوعي، وقد نظم عملية هربه الجنرال ستانكوليشكو)، واستلمت «جبهة السلامة الوطنية» السلطة، لكن عناصر من «الشرطة السياسية» (سيكوريتيت Securitate) استمرت في اطلاق النار وفي اعمال اغتيالات؛ وفي اليوم نفسه اعلنت الاذاعة عن القبض على تشاوشيسكو في مدينة تيرغوفيست (٧٠كلم عن بوخارست) ومعه زوجته إيلينا، ثم القي القبض على ولديهما: نيكو (مولود في ١٩٥١، وسكرتير الحزب الشيوعي الاقليمي، مدينة بسيبيو)، وفالنتن (مولود ١٩٤٨، باحث في الفيزياء الذرية). وكذلك في اليوم نفسه، اعلنت سويسرا انها جمدت حسابات عائلة تشاوشيسكو (وقد قدرت ثروتها بـ٤٠٠ مليون

دولار ذهبًا)، كما اعلنت جبهة السلامة الوطنية استلامها السلطة برئاسة إيون إيليسكو.

واللجنة التي حكمت، موقتًا، باسم جبهة السلامة الوطنية تألفت من ثلاثة أثلاث: ثلث من المنشقين، وثلث من العسكريين، وثلث من قادة الحزب الشيوعي الذي كان تشاوشيسكو قد فصلهم من الحزب. وقد ترأس اللجنة كورنيليو مانيتشكو (مولود ١٩١٦، ووزير الخارجية من ١٩٦١ إلى ١٩٧٢). أما اعضاؤها الأساسيون: دوينا كورنيا (منشقة، استاذة اللغة الفرنسية في جامعة كلوج-نابوكا، وقد استقالت في ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٠، أي بعد شهر واحد من قبولها المشاركة في السلطة)؛ لاسزولو توكس، ميرسيا دينيتشكو (كاتب)، الجنرال نيكولاي ميليتارو (وزير الدفاع، فصل في ١٩٨٤، وحكم عليه بالاعدام، و لم ينفذ الحكم)، سيلفيو بروكان (استقال في ٤ شباط ١٩٩٠).

في ٢٣ و٢٤ كانون الاول ١٩٨٩ (أي في اليومين التاليين لاستلام اللجنة السلطة)، جرت معارك في شوارع بوخارست. في ٢٥ كانون الاول، بدأت محاكمة تشاوشيسكو وزوجته، ونظّم هذه المحاكمة جيليو فواكان فواكوليتشكو في مدينة تريغوفيست. وقد حكم على الزوجين بالموت بتهم كثيرة، على رأسها: إبادة نحو ٦٠٠ ألف شخص، سرقة الاموال العامة، الهيمنة الشخصية على الاقتصاد، محاولة الهرب لاسترداد الاموال المودعة في المصارف الاجنبية. ونفذ حكم الاعدام بهما في اليوم نفسه (أكّد احد الضباط ان تشاوشيسكو مات بالذبحة القلبية فيما كان يتعرض للتحقيق-مع تعذيب-للحصول على ارقام حساباته المصرفية في الخارج). في اليوم التالي، ٢٦ كانون الاول انتخب ايليسكو رئيسًا لمرحلة انتقالية، وحلّ جهاز «الشرطة السياسية»، وأعلن رسميًا ان عدد ضحايا احداث ٢٢-٢٦ كانون الاول ١٩٨٩ بلغ ١٠٣٣ قتيلاً و٢١٩٨ جريحًا.

كرونولوجيا أهم احداث سنوات ١٩٩٠-١٩٩٦: في كانون الثاني ١٩٩٠، عين بيتر رومان رئيسًا للوزراء. وفي ١٢ كانون الثاني، اندلعت تظاهرات في العاصمة وبعض المدن، وصدرت مراسيم تحظر الحزب الشيوعي (بعد يومين ألغيت هذه المراسيم). وفي ١٨ كانون الثاني، عادت إلى رومانيا ابنتا الملك ميشال مارغريت وصوفيا. وفي ٢٤ كانون الثاني، سارت مظاهرة في بوخارست امام مقر مجلس جبهة السلامة الوطنية ضد قرارها تقديم مرشحين في الانتخابات المقررة. في ٢٧ كانون الثاني، عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة بعض المسؤولين في نظام تشاوشيسكو. وفي نهاية الشهر، أعلن ان من بين ممتلكات تشاوشيسكو ٢١ قصرًا، ٤١ فيلا، ٢٢ مقصورة للصيد؛ ومن ممتلكات الحزب الشيوعي، مشاريع اقتصادية تضم ٤٨ ألف موظف، ورأسمال نقدي قيمته ١٢ مليار فرنك، ٥٥ ألف هكتار من الاراضي المزروعة مجمعة في ٥٤٥ وحدة وتضم ١٨ ألف مستخدم. وكل هذه الممتلكات حُوّلت إلى الدولة.

في اول شباط ١٩٩٠، أنشيء «المجلس الموقت للاتحاد الوطني» من ٢٥٣ عضوًا، منهم ١١١ من جبهة السلامة الوطنية، و١١١ من مختلف الاحزاب، و٢٧ يمثلون الاقليات، ورئيس المجلس هو إيون إيليسكو. في ١٦ شباط، استقال الجنرال نيكولاي ميليتارو وزير الدفاع. في ١٤ آذار ١٩٩٠، عين البابا ١٢ اسقفًا على رومانيا، وبعد ايام قليلة جرت صدامات بين افراد من الاقلية الهنغارية ورومانيين. في ١٢ نيسان، ألغت الحكومة تأشيرة كانت تسمح للملك ميشال بالعودة إلى البلاد. في ٢٩ نيسان، سارت تظاهرات في عدد من المدن ضد إيليسكو. في ١١ ايار، انسحب الحزب الوطني الفلاحي من «المجلس الموقت للاتحاد الوطني». في ٢٠ ايار، جرت انتخابات رئاسية وفاز بها إيون إيليسكو (مولود

١٩٣٠) بأكثرية ٨٥٪ من الاصوات، في حين نال رادو كامبيانو (مولود ١٩٢٢)، مرشح الحزب الوطني الليبرالي) ١٠،٦٤٪، وإيون راتيو (مولود ١٩١٧)، مرشح الحزب الوطني الفلاحي) ٤،٢٩٪. في ١٣ تموز، سارت تظاهرات ضمت عشرات الآلاف من المطالبين باطلاق سراح الزعيم الطلابي ماريان مونتينو الذي كان قد اعتقل في ١٨ حزيران (اطلق سراحه في ٢ آب). في اول تشرين الثاني، جرى تحرير اسعار بعض المنتوجات. في ١٥ تشرين الثاني، تظاهرات ضد الحكومة، واعقبتها (بعد ٤ ايام) تظاهرات في العاصمة ضد إعادة تأسيس الحزب الشيوعي تحت إسم جديد هو «حزب العمل الاشتراكي». في ٢٥ كانون الاول، أعيد الملك ميشال الاول إلى سويسرا بعد ان أمضى بضع ساعات في رومانيا (التأشيرة اعطيت له «خطأ»).

في كانون الثاني ١٩٩١، أعيدت المواطنية للملك ميشال (وفي ٢١ نيسان ١٩٩٢، سُمح له بالعودة إلى رومانيا بمناسبة عيد الفصح الارثوذكسي). في ٢٠ شباط، صدر قانون حول خصخصة الاراضي. في اول نيسان، جرى تحرير أسعار بعض المنتوجات الاساسية (وفي ٤ ايار، منتوجات اساسية اخرى). في ١٢ نيسان، تظاهر نحو مئة ألف شخص في بوخارست مطالبين باستقالة إيليسكو. في ٣٠ نيسان، شكل رومان حكومة جديدة (في ٢٨ ايلول، استقال). في ١٠ ايار، سارت تظاهرات تدعو إلى قيام نظام ملكي. في ١٤ آب، صدر قانون لخصخصة المشاريع التجارية. في ٨ كانون الاول، جرى استفتاء حول الدستور.

في ٢٣ شباط ١٩٩٢، جرت انتخابات بلدية هزمت فيها جبهة السلامة الوطنية. في ٢٠ نيسان، حكم على ٢١ عضوًا في المكتب التنفيذي للحزب الشيوعي بالسجن من ٨ إلى ١٦ سنة بتهمة القمع الذي مارسوه في احداث مدينة تيميسوارا في ١٩٨٩. في ٢٧ ايلول، جرت انتخابات تشريعية، وفي الوقت نفسه انتخابات رئاسية (دورة أولى) وفي ١١ تشرين الاول (جولة ثانية)، ففاز بها الرئيس إيليسكو بنسبة ٦١،٤٣٪ من الاصوات في وجه منافسه اميل كونستانتينشكو (حزب المؤتمر الديمقراطي) الذي نال ٣٨،٥٧٪. وفي ٤ تشرين الثاني، شكل نيكولاي فاكارو (مولود ١٩٤٣) حكومة جديدة.

في ١٩٩٣، استضافت بوخارست سلسلة من الاجتماعات المهمة حول القضية الفلسطينية، شارك الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في بعض منها.

في ٧ تشرين الاول ١٩٩٤، وصل إلى مطار بوخارست الملك السابق ميشال «ميخائيل» (مولود ١٩٢٠) ترافقه زوجته آن وعدد من مساعديه إضافة إلى مجموعة من المحاربين القدماء انصاره. لكن الحكومة عادت ورفضت دخولهم، واعادتهم إلى باريس. وأصدر الملك بيانًا قال فيه إنه لا يرغب في الدخول في مواجهة مع حكومة إيون إيليسكو، وانه يسعى إلى المصالحة الوطنية بين انصاره والحكم الحالي.

في تشرين الثاني ١٩٩٤، دعا إيليسكو، خلال زيارته لندن، إلى تعديل نظام الاتحاد الاوروبي ليتسنى لرومانيا مجال الانضمام إلى الاتحاد كعضو فاعل وشريك في كل مجالات التعاون والدفاع عن استقرار القارة الاوروبية. وشارك إيليسكو في قمّة الدار البيضاء، وكانت رومانيا الدولة الوحيدة في المنطقة التي دعاها ملك المغرب الحسن الثاني إلى هذه القمة. كما استقبل إيليسكو، في الشهر ذاته، رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، فبحثا في مشروع إعمار لبنان ومدينة بيروت على وجه الخصوص.

في ١٦ ايلول ١٩٩٦، وقعت رومانيا وهنغاريا معاهدة تاريخية أنهت نزاعات مستمرة منذ مئات السنين، مما سيدعم فرصهما في

هكذا احتفلوا بسقوط الشيوعية في بوخارست (١٧ تشرين الثاني ١٩٩٦).

الانضمام لحلف شمالي الاطلسي والاتحاد الاوروبي. ووقع المعاهدة رئيسا وزراء البلدين، نيكولاي فاكارو (الروماني) وجيولات هورن (الهنغاري) في مدينة تيميسوارا الغربية على الحدود الرومانية مع صربيا (يوغوسلافيا) وهنغاريا في حضور الرئيس الروماني إيليسكو. وتنص المعاهدة على عدم جواز انتهاك الحدود وضمان حقوق الاقليات الهنغارية في رومانيا البالغ تعدادهم نحو ١،٦ مليون نسمة. وقاطع زعماء الاقلية الهنغارية في رومانيا مراسم التوقيع؛ واسقطت الحكومة الرومانية مطلب إعطاء الاقلية الهنغارية حكمًا ذاتيًا الذي كان يثير المخاوف في رومانيا من ان يكون هذا الانفصال على الطريقة اليوغوسلافية، واستبدل ذلك باعطاء الاقلية ضمانات لحقوقها.

في ٣ تشرين الثاني ١٩٩٦، فتحت مراكز الاقتراع في شتى انحاء رومانيا ليختار الناخبون رئيسًا للدولة وبرلمانًا في ثالث انتخابات تشهدها رومانيا في عهد ما بعد انهيار الشيوعية، علمًا انها كانت الدولة الوحيدة في شرقي اوروبا التي لم تصل فيها المعارضة بعد إلى السلطة، إذ حكمها الشيوعيون السابقون منذ ١٩٨٩. ويبلغ عدد الناخبين ١٧ مليونًا، وعدد اعضاء مجلس النواب ٣٤١، ومجلس الشيوخ ١٤٣.

وفي ١٦ تشرين الثاني، جاءت نتائج الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية لتؤكد فوز إميل كونستانتينشكو، زعيم الحزب المسيحي الديمقراطي على منافسه الرئيس إيون إيليسكو. واعتبر هذا الفوز التحول الاول من نوعه في البلاد باتجاه الرأسمالية بعد مرحلة انتقالية تلت سقوط تشاوشيسكو وتميزت بالتردد في اعتماد إصلاحات جذرية.

مناقشة: «الرومانيون اختاروا التغيير»:
تحت هذا العنوان، كتبت مهى نعمه في «النهار» (٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٦):

طوت رومانيا صفحة جديدة من تاريخها الحديث وقالت وداعًا كبيرة للشيوعية والنيوشيوعية وما بين الوضعين من مرحلة انتقالية طالت حتى كادت تطمس «زهوة» الانتصار على ما عرف بـ«حكم تشاوشيسكو». فالحرس القديم الذي ودع مقاليد السلطة ظل في كواليسها موجودًا وغير مسؤول، الامر الذي حرم الرومانيين مما يعتبرونه نشوة الدخول في عهد جديد ونظام جديد سبقتهم إلى سلوكه دول اوروبا الشرقية.

وعندما نزل الرومانيون إلى الشوارع بمئات الآلاف يحتفلون بانتصار «الاستاذ» عميد جامعة بوخارست إميل كونستانتينشكو وفوزه بمنصب رئاسة الجمهورية، إنما كانوا يحتفلون بانتصار الثورة التي أعلنوها قبل سبعة اعوام وها هم ينزلون إلى الشوارع احتفالاً باستردادها من النيوشيوعية.

الاحتفال بالانتصار في المكان الذي استشهد فيه كثيرون من اجل الحرية «هنا في بلادنا» جاء يتوج انتصارًا سابقًا سجله يمين الوسط الذي يضم ائتلاف المؤتمر الديمقراطي بزعامة الرئيس الجديد، والاتحاد الاجتماعي الديمقراطي بزعامة رئيس حكومة رومانيا السابق بيتر رومان في الانتخابات النيابية في ٣ تشرين الثاني (١٩٩٦).

إن انتصار الرئيس الروماني يرتكز إلى مجموعة من الثوابت في مقدمها:

١- الهالة التي اكتسبها نتيجة تحويله شرفة الجامعة التي يرئسها منبرًا حرًا أدارا منه حركة المعارضة.

٢- الهالة التي اكتسبها نتيجة تبني الشخصية الوطنية الرومانية كورنيليو كوبوشو له ودفعه إلى دروب السياسة قبل أربعة اعوام فقط، عندما استطاع ان يسجل نسبة تأييد جيدة من اصوات الناخبين (٢٧٪) كمرشح للرئاسة في العام ١٩٩٢.

٣- اعتماده على العامل الديني. ففي خطابه الانتخابي أكد المرشح على اظهار إيمانه وتعلقه بكنيسته الارثوذكسية، بل هو مضى إلى مطالبة انصاره ليلة الاحتفال بفوزه بالرئاسة تلاوة صلاة شكر ترفع إلى الله (ابانا الذي...) لأن إليه يعود «الفضل في الانتصار على الشيوعية».

٤- استفاد كونستانتينشكو من الثقل الكبير الذي تمثله الخصوصية الفلاحية في رومانيا حيث يشكل القطاع الزراعي الثروة الاساسية، كواقع وكحاجة للعودة إلى الارض وإلى الجذور، في عملية الانهاض السياسية والاجتماعية المطلوبة، وهذا الواقع كان في أساس مسارعة الرئيس السابق إيليسكو إلى الاقدام على خطوة كبيرة في اعادة ٨٠٪ من الاراضي إلى الفلاحين.

إن هذه الثوابت التي ألقت نتائج التطورات السياسية والاجتماعية الضوء عليها لا تغفل التركيز على بضعة امور منها:

١- إن رغبة الرومانيين في حياة افضل كانت وراء رغبتهم في التغيير، وهي رغبة لا تتناول الاشخاص بمقدار ما تتناول المرحلة برمتها.

٢- لقد جاء رفض الرومانيين الواقع الحاضر يؤكد رغبتهم في وضع حد لهذه الديمقراطية الفريدة أو «الطريق الثالثة» التي انتهجها الرئيس السابق إيليسكو بين الرأسمالية والشيوعية، ورفضهم عمليات التجميل التي لجأ إليها لتحسين صورته في الداخل والخارج. ففي الداخل فشلت الدعوات إلى إقامة حكومة وطنية، ولم تشفع خطوات الخارج الايجابية، ومنها منح الولايات المتحدة رومانيا صفة الدولة الأكثر رعاية، وانضمام بوخارست إلى «الشركة من اجل السلام» ولا حتى اتفاق الصداقة مع المجر الدولة التي لديها أكبر جالية في رومانيا في ثني الرومانيين عن رغبتهم في التغيير، بل هم وجدوا إيليسكو طريفًا ومسليًا

عندما كان يسعى إلى اقناع الرومانيين بخطاب انتخابي يركز على محاسن انضمام رومانيا إلى الحلف الاطلسي.

ذلك ان الشيوعي السابق الذي سارع إلى توقيع معاهدة تعاون وصداقة مع غورباتشوف قبل الانهيار النهائي للاتحاد السوفياتي باسابيع، بدا أقرب إلى التهريج منه إلى المسؤول الذي يحاول الدفاع عن القناعات التي يؤمن بها.

٣- اصرار الرومانيين في خياراتهم النيابية ثم الرئاسية على التغيير في النهج والمفهوم من طريق ادخال أكبر نسبة من الضوء والشفافية إلى ادارات الدولة حيث أخذ الفساد مداه واستشرت امراض البيروقراطية على انواعها مما دفع الرئيس السابق إلى وصفها بـ«الوباء الوطني».

إن تولي الرئيس ا لروماني السلطة على اصداء الصرخات المرددة Spe zautza (الامل) لا يخفي مجموعة استحقاقات سيكون على الفريق الروماني الجديد، فور تشكيل الحكومة، وحظوظ بيتر رومان كبيرة في ترؤسها كونه ينتمي إلى الائتلاف الفائز، مواجهتها:

- تفكيك المجموعات الصناعية الكبرى التي توظف ربع القوة العاملة في البلاد، وذلك بهدف تنشيط الاقتصاد وانهاضه من كبوته.

- مواجهة مشكلة البطالة التي ستمضي تفاقمًا مع اعتماد الحكومة الجديدة سياسة التخصصية ونهج اقتصاد السوق.

- انهيار القوة الشرائية للعملة الرومانية ورزوح أكثر من ثلث ا لسكان تحت عتبة الفقر، والمعاناة تصيب في الدرجة الاولى الاطفاب إذ تقدم رومانيا الارقام الاعلى في نسبة الوفيات لصغار السن.

- إنها الخطوات غير الشعبية إلا انها ضرورية، وهي إذ ستضع النظام الجديد امام التجربة فإنها لا تملك البديل، بديل «ربط رومانيا بعجلة الغرب» وتسريع عملية انضمامها إلى الاتحاد الاوروبي.

إلا انها الخطوات التي لا بد منها كي تلحق رومانيا بركب دول اوروبا الشرقية التي سجلت عليها تقدمًا عمره سبعة اعوام.

معالم تاريخية

□ **الحرس ا لحديدي:** الاسم الذي اطلقه على نفسه الحزب الفاشي الروماني الذي كان يرتكز في دعايته على معاداة السامية، وبعد ١٩٣٣، على الفكر النازي. تأسس على يد نقيب شاب في الجيش يدعى كودريانو (راجع باب زعماء ورجال دولة) الذي ما لبث ان انفصل عن «الرابطة المسيحية» التي كانت تمثل حركة قومية محافظة بزعامة استاذ جامعي يدعى كوزا. وكان كودريانو يدّعي العمل من اجل قيم افتقدتها الحياة السياسية في رومانيا منذ تحقيق الوحدة الوطنية. وكانت الحكومة تظهر ضعفًا في تعاملها مع ظاهرة هذا الفاشي الذي كان يطرح نفسه منقذًا قوميًا. ومع ازدياد اعمال العنف، وبعد تحول الحرس الحديدي إلى جيش مقاتل حقيقي، وجد رئيس الحكومة، الليبرالي دوكا، نفسه مضطرًا إلى اصدار اوامره بحل الحرس الحديدي وملاحقة اعضائه. إلا ان جواب الحرس الحديدي على هذه الاوامر جاء

سـريعًا، عندمـا اغتـال دوكـا في كـانون الاول ١٩٣٣. ولمواجهة حمـلات الحـرس الحديـدي الـتي عجز النظام البرلماني عن التعامل معها بفعالية، كان لا بـد مـن اقامـة نظـام الملكيـة الدكتاتوريـة الـذي اعتقد انه قادر على سد الطريق امام المذابح الاهلية التي كان يهيء لها هذا التنظيم. فصـدرت ١٩٣٨ شـرعة دسـتورية تضـع السـلطة بـين يـدي الملـك ووزرائه. وبعد احالة قـادة الحـرس الحديـدي علـى المحاكم صدر حكم علـى كودريـانو بالسـجن لمـدة تسع سنوات، ثـم قتـل في اواخـر ١٩٣٨. فثـأر الحرس الحديدي لزعيمه بأن قتل في ١٩٣٩ رئيـس الحكومة كالينسكو، وبلغ ثأرهم منتهاه في ١٩٤٠ عندما وصل إلى السلطة المارشال إيون أنطونيسـكو الذي أجبر الملك على الاستقالة. وعقـد حلفًا مـع ألمانيـا، وانتهـج سياسـة داخليـة وخارجيـة شـبيهة بالسياسـة النازيـة (مـن «موسـوعة السياسـة»)، المؤسسة العربية للدراسات والنشـر، بـيروت، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص ٢٢٠).

□ **الحزب الشيوعي الروماني:** تأسـس في ١٩٢١، وسرعان مـا حظـر في ١٩٢٤, فلجـأ إلى السرية حتـى ١٩٤٤, ولا شـك في ان تركيـب الحزب القومي (إذ كان معظـم اعضـاء الحـزب في البداية من الاقليات القومية غير الرومانيـة كـالمجر-الهنغـاريين-والاوكرانيـين واليهـود)، وسياسـته المعارضة لمشـروع «رومانيـا الكـبرى» الـتي املتهـا عليه الاممية الاشـتراكية (الكومنـترن) كـانت وراء الدور الهامشي الذي لعبه الحزب في تلك الفترة.

شاركت رومانيا في الحـرب العالميـة الثانيـة إلى جانب المانيا، ولكنها هزمـت علـى يـد الجيـش الاحمر السوفياتي الذي احتـل اراضيهـا، واسـتطاع دفـع الحـزب الشـيوعي إلى الواجهـة. وقـد تحـالف الشيوعيون مع بقية الاحزاب الديمقراطية وخـاضوا اول انتخابـات نيابيـة في خريــف ١٩٤٦ ففــازوا بـ٧١،٨٪ من الاصوات، فتشكلت على أثر ذلـك حكومة جديدة استلم الشيوعيون اغلبيـة حقائبهـا. وفي ١٩٤٧، وقعت اضطرابات سياسية واجتماعية في البـلاد اضطـر علـى اثرهـا الملـك ميشـال إلى الاسـتقالة في ٣٠ كـانون الاول ١٩٤٧، فـاغتنم البرلمـان هـذه المناسبة لاعـلان رومانيـا «جمهوريـة شعبية».

في شباط ١٩٤٨، توحد الحزب الشـيوعي الروماني مع الحزب الاشتراكي واطلق على الحزب الجديد إسم «حزب العمال الرومـاني»، ثـم رجـع الحـزب إلى إسمه القديم في ١٩٦٥. وقـد انعقـد المؤتمـر الاول للحـزب في ذلـك العـام وانتخـب جورجيو-دج امينًا له.

ابتداء مـن ١٩٥٢، اخـذت قيـادة الحـزب تصفـي معظـم العنـاصر الشـيوعية القياديـة غـير الرومانيـة مثـل آنـا بوكـر اليهوديـة، وفاسـيل لوقـا المجري. وهكذا برز جورجيو-دج كالزعيم الاوحد للحـزب، خاصـة بعـد اعـدام الزعيـم الشـيوعي الروماني بتراسكانو في ١٩٥٤ (أعيد له الاعتبار في ١٩٦٨). رافـق هـذه التصفيـات الداخليـة الـتي تناولت القيـادات غـير الرومانيـة والمواليـة لموسـكو ولاء مطلقًا، ابتعاد تدريجي عن السياسة السوفياتية، تمثـل في وقـوف رومانيـا موقفـا محايدًا في الصـراع الصيني السوفياتي ورفضها الدخول في الكوميكـون (١٩٦٢) ثم إلغاء قرار اعتبـار اللغـة الروسية لغـة إلزامية في المدارس.

تـوفي جورجيـو-دج في ١٩٦٠، فخلفـه نيكولاي تشاوشيسكو الذي تبنى الخط الاستقلالي ذاتـه، خاصـة في السياسـة الخارجيـة، إذ اعـاد العلاقات الدبلوماسـية مـع المانيـا الغربيـة، ورفـض قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بعد حـرب ١٩٦٧، وطور علاقاته مع الصـين والبانيـا، وأكـد حق كل حزب شيوعي في انتهاج الخط الخاص به. ووقـف الحـزب الشـيوعي الرومـاني موقفًـا مؤيـدًا للتغيرات الـتي حدثـت في بـراغ في ربيـع ١٩٦٨، وزار تشاوشيسكو براغ قبـل التدخـل ا لسـوفياتي

بعدة ايام، فاستقبل استقبالاً حماسيًا. وعندما حدث التدخل ادانه بحذر لتجنب حدوث تدخل مماثل في رومانيا ذاتها. وفي حزيران ١٩٦٩، وقّع على الوثيقة النهائية لمؤتمر الاحزاب الشيوعية في موسكو مع إبداء بعض التحفظات. ولكن ذلك لم يمنعه من المحافظة على خط سياسي مستقل، وتطوير علاقاته الخارجية حسب ما يعتبره لمصلحة رومانيا القومية (راجع «النبذة التاريخية»).

□ **«دراكولا» (فلاد المخوزق):** عرف العالم في القرن الرابع عشر الكثير من الاحداث المرعبة، لكن الذي واجهه السلطان العثماني محمد الثاني في محاولته لتحطيم إحدى المناطق الصغيرة الواقعة إلى الشمال من امبراطوريته فاق تلك الاهوال، إذ كان جيشه يدخل غابة من الجثث المعلقة على صلبان، أكثر من ٢٠ ألف جثة لجنود قتلوا قبل ايام أو اسابيع، معظمهم من الاتراك الذين سقطوا في معارك ليلية وغارات مفاجئة على معسكراتهم. وتراجع محمد الثاني، وكانت أقسى هزيمة لحقت به في تاريخه. وكان ذلك في ١٤٦٢، والامير الروماني المنتصر هو الكونت «دراكولا» الذي كان اميرًا على فالاكيا (١٤٥٦-١٤٦٢).

في التاريخ الروماني، يطلق إسم فلاد المخوزق على دراكولا. وكما هو واضح، الاسم مأخوذ من الطريقة المفضلة للعقاب التي كان يمارسها فلاد وهي الخوزقة. أما إسم دراكولا فهو عائد لأبيه الذي كان أحد قادة مقاطعة فالاكيا وحصل من ملك هنغاريا على ارفع الالقاب مكافأة على إنجازاته في مواجهة الاتراك، ومنها «أخوية التنين». ودراكولا تعني بالرومانية التنين. وهكذا حمل إبنه اللقب من بعده. لكن الإسم يعني الشيطان. وهكذا تضافرت التسميات لتعطي شخصية الامير فلاد مواصفات الهول والرعب. ويظهر ان فلاد كان يعاني من اضطرابات عقلية ونفسية عميقة. وتقول الروايات انه امر بقتل ما

الامير فلاد، «دراكولا».

يتراوح بين ٤٠ و١٠٠ ألف شخص. وتضمنت وسائل التعذيب عنده سلخ الاحياء وتقطيع الاعضاء التناسلية والخوزقة، وكان يصر دائمًا على حضور عمليات الاعدام. وعرفت فترة إمارته على فالاكيا (١٤٥٦-١٤٦٢) كل اصناف الارهاب على جميع الناس من الفلاحين والعامة إلى الطبقات العليا. والواقع ان اساليبه لم تكن لتختلف كثيرًا عن تلك التي مارسها السلاطين الاتراك. وفلاد نفسه نشأ وتربى في البلاط العثماني إذ جرت العادة ان يلتحق ابناء الاعيان من المناطق ا لمحتلة بمركز الحكم في استنبول كنوع من الرهائن لمنع الاهل من العصيان والتمرد.

□ **الغجر:** (حول تعدادهم راجع «بطاقة تعريف»): تختلف الروايات في اصولهم وكيفية وصولهم إلى رومانيا واستقرارهم فيها. فبعض المصادر التاريخية يقول ان الغجر هم من اصول تتارية وفدوا إلى البلاد إثر قيام دولة المغول وتوسعها على حساب دولة التتار في القرن الثالث

عشر مثلهم في ذلك مثل الاقلية المسلمة في بولندا. وتنصرت غالبيتهم نتيجة ضغوط مختلفة وحافظت اقلية منهم على ديانتها الاسلامية وهي التي توجد في رومانيا حاليًا. وتقول مصادر تاريخية اخرى ان الغجر من اصول سلافية انتشروا تاريخيًا في وسط اوروبا خصوصًا في رومانيا وهنغاريا وسلوفاكيا وتشيكيا وبلغاريا. ومن هذه المنطقة كانوا يجوبون البلدان الواقعة على حوض البحر الاسود، إذ انهم قبائل متنقلة لا يعرفون الاستقرار ويزاولون الحرف اليدوية المختلفة، وكانوا دائمًا يرفضون الانتساب إلا لجنسهم الغجري. ولم يعرفوا الاستيطان في اوروبا الشرقية إلا في العهود الشيوعية التي فرضت عليهم عدم التنقل وانحصرت ابواب رزقهم بمصادر الدولة والعمل في مؤسساتها.

□ **«قطار الشرق السريع» الروماني:** ما كاد الملك كارول الاول، اول ملوك رومانيا المستقلة، يتسنم عرش الامارة الرومانية الناجمة عن اتحاد إمارتي فالاكيا ومولدافيا حتى اعلن انه لن يقوم بأية رحلة إلى خارج البلاد إلا على متن قطار روماني، في إشارة واضحة إلى انه سينتهج سياسة تحديثية. فلم تمض ثلاث سنوات على اعلانه حتى كان اول خط للسكة الحديدية قد مدّ بين العاصمة بوخارست وبين المدينة المرفأية على نهر الدانوب، جيورجيو. وعلى هذا النحو امكن له في ٢٦ آب ١٨٦٩ ان يدشّن اول قطار روماني وان يستقله قاصدًا بلاد فيينا.

تعزز الطابع القومي للقطار في رومانيا من خلال الاولوية التي أعطيت لمد خط للسكة الحديدية يربط بين بوخارست كبرى مدن فالاكيا، وإيازي كبرى مدن مولدافيا، وفي وقت لاحق كوستنتا، كبرى مدن إمارة دوبروجا على البحر الاسود، وهي الامارة «البلغارية» التي ضمت إلى رومانيا في ١٨٧٨.

وعلى امتداد المئة عام التالية ظلت «ملحمة» بناء هذا الخط الحديدي القومي تهيمن على المخيلة الرومانية وتدرّس تفاصيلها لتلاميذ المدارس حتى في العهد الشيوعي، ولا سيما منها ما يتصل ببناء جسر كرنافودا الذي كان يعد في حينه معجزة تقنية اتاحت لاول مرة في تاريخ الحداثة لقطار شحن ثقيل ان يعبر نهرًا بمثل اتساع الدانوب.

ولئن لعبة السكة الحديدية دورًا في خلق الامة الرومانية في القرن التاسع عشر، فقد لعبت دورًا أكبر في بناء وحدتها واستكمالها في القرن العشرين. فقد اقتضى الدمج القومي لفالاكيا ومولدافيا توسيع الشبكة الحديدية وتحديثها، وعلى الاخص اعادة تحويل خطوطها نحو بوخارست بدلاً من بودابست وفيينا وأوديسا.

ومع الانتقال من نظام الملكية الرومانية إلى الجمهورية الشعبية ثم الاشتراكية، في ١٩٤٧، تغيرّ كل شيء في رومانيا إلا العلاقة بين الامة وسكتها الحديدية. فدور هذه الاخيرة في صعود الحزب الشيوعي ما كان يقل اهمية عن دورها في تاريخ الملكية الرومانية. فلولا عمال السكك الحديدية، وكذلك عمال النفط، لما كان الحزب الشيوعي الروماني أفلح في فرض نفسه فاعلاً رئيسيًا من فعلة السياسة الرومانية في فترة ما بين الحربين. فرئيس الحزب نفسه جيورجيو-دج كان عاملاً في سكة الحديد، وقد قاد في ١٩٣٣ حركة الاضراب الكبرى لعمال السكك الحديدية، وهو الاضراب الذي خرّج العديد من قادة الحركة النقابية وزعماء النظام الشيوعي، بمن فيهم جورج جيورجيو-دج الذي سيصير رئيسًا لأول جمهورية شعبية واشتراكية في رومانيا.

وقد أوكلت إلى السكة الحديدية في العهد الشيوعي ثلاث مهام كبرى عكست طبيعة النظام نفسه.

فبعد ان كانت رومانيا ترتبط بعاصمة الغرب اللاتيني، باريس، منذ ١٨٨١ بواسطة «قطار الشرق السريع» بات مطلوبًا فكّ ارتباطها باوروبا الغربية، واعادة توجيه الشبكة الحديدية نحو عواصم المعسكر

الاشتراكي وبناء عدد وفير من محطات الحدود و«جسور الصداقة» باتجاه «البلدان الشقيقة» في اوروبا الشرقية. وتضامناً مع الايديولوجيا الانتاجية للمذهب الشيوعي، تمّ تطوير قطارات الشحن والبضائع على حساب قطارات الركاب التي آلت إلى إهمال وبوار. وأخيرًا أخضعت الشبكة الحديدية مثلها مثل سائر شبكات الاقتصاد، لسياسة الاستكفاء الذاتي، ما تسبب في قطيعة مع الثورة التكنولوجية في الغرب، وحول السكة الحديدية الرومانية من مخفر متقدم للحداثة إلى خندق متأخر للمحافظة.

وأصيبت الشبكة الحديدية في رومانيا بترهل شديد أوصلها إلى حدّ الانتاجية السالبة: عندما سقط النظام الشيوعي مع سقوط تشاوشيسكو في نهاية ١٩٨٩ كان عدد العاملين في الشبكة الحديدية يتعدى ٢٠٠ ألف عامل يسيّرون ١١٤٠٠كلم من الخطوط، علمًا بأن شبكة بمثل هذا الحجم لا تحتاج لتسييرها في ظروف الانتاجية السوية إلى أكثر من ٤٠ ألف عامل. ويقترن هذا التضخم العددي بتضخم نسبي في الاجور. فالعامل في السكك الحديدية يتقاضى وسطيًا ٦٠٪ أكثر مما يتقاضاه العمال الرومانيون في القطاعات الأخرى. وهذا ما يشكل امتيازًا نسبيًا (والامتياز دومًا من طبيعة محافظة، فأقصى ما يسعى إليه هو معاودة إنتاج نفسه)؛ وهذا ما فسّر بادرة الاضراب الشامل الذي هدّدت به نقابة عمال السكك الحديدية في اواسط ١٩٩٥ عندما تنوقلت شائعات عن تفكير الادارة بتحديث الخطوط وتحسين الانتاجية والاستغناء بالتالي عن خدمات عشرات الالوف من العمال الذين لا عمل لهم في الواقع.

□ **المسلمون في رومانيا:** مما كتبه سيباستيان أشر من بوخارست، ونشرته «الحياة» (في عدديها ١٢ و١٣ ايار ١٩٩٣) هذه

من المساجد الباقية في رومانيا.

المقتطفات:

كانت هناك جزيرة صغيرة توجد في دلتا نهر الدانوب قرب دوبروجا (دوبرويا)، احتلها الرومانيون اولاً خلال الحرب العالمية الثانية، ثم اعطيت لهم بعد انتهاء الحرب. إسم الجزيرة أداكال، وسكانها من الاتراك المسلمين. وكان فيها مسجد وسوق وعادات ومأكولات تركية. امتلكت الجزيرة طابعًا خاصًا جعلها منتجعًا سياحيًا مقصودًا. وشكل موقعها الجغرافي نقطة اهتمام اخرى، إذ إنها كانت الطرف الاوروبي الأبعد قبل ان يبدأ الاتحاد السوفياتي باتساعه الضخم على الجانب الثاني من حوض الدانوب. وفي الخمسينات والستينات بدأت رومانيا بتقليد الاتحاد السوفياتي من خلال إقامة مشاريعها الصناعية والهندسية الضخمة. ومن هذه المشاريع بناء سد لتوليد الطاقة في مشروع «البوابة الجديدة» الذي كان الأكبر في نوعه في اوروبا. وفي ١٩٦٨، جرى اغراق جزيرة أداكال في إطار السد، اما سكان الجزيرة فقد نقلوا جميعًا إلى انحاء اخرى من البلاد، ثم هاجروا جماعيًا إلى تركيا. وهكذا اختفت من خريطة رومانيا المنطقة الوحيدة التي كان المسلمون يشكلون فيها الاكثرية، لكن ذلك لم يكن نهاية ا لوجود الاسلامي في تلك البلاد.

في مدينة كونستنتا ومحيطها على البحر الاسود شواهد على الوجود الاسلامي (راجع «كونستنتا» في باب مدن ومعالم). ولم يكن العثمانيون اول من اتى بالاسلام إلى المنطقة، فقد سبقهم إلى ذلك مجموعات تركية اخرى منها الكابيجاك بقيادة بركات خان حفيد جنكيزخان. وعندما احتلها العثمانيون اقاموا مجموعة من التحصينات لحماية الجناح الشرقي لبلغاريا ورومانيا وفي الوقت نفسه تأمين خطوط امدادات حلفائهم التتار. وخلال تلك العملية، تم احتلال مدن قديمة وانشاء اخرى جديدة: مانغاليا، كونستنتا، باباداغ، مدجيديا، بريلا وتولستا. ولم يبق من المساجد التي بنيت هناك سوى القليل، إذ معظمها دمّر او انهار خلال القرون.

في ١٨٧٨، أعلن ضم دوبروجا إلى الدولة الرومانية. وكان عدد السكان محدودًا ويقدر بنحو ١٥٠ ألف نسمة نصفهم تقريبًا من المسلمين يتكلمون التتارية أو التركية أكثر من تكلمهم الرومانية. لكن الهجرة المستمرة إلى تركيا غيّرت التركيبة الديمغرافية، وبحلول ١٩١٣ كان عدد المسلمين المقيمين في دوبروجا قد تراجع إلى ٣٦ ألفًا، أي ٥١٪ من عدد السكان. ذلك ان الحكومة الرومانية عمدت إلى اعطاء الاراضي التي تركها المهاجرون المسلمون إلى المستوطنين الرومانيين الجدد. وعلى الرغم من تناقص اعدادهم، حافظ المسلمون حتى ذلك الوقت على متحد احتماعي متماسك، تمثل في انتخاب ممثليهم إلى البرلمان وقيام محكمتين شرعيتين واستمرار الدروس الدينية الرسمية لتخريج العلماء في مدجيديا، وصحافة اسلامية وتركية. غير ان نهاية الحرب العالمية الاولى في ١٩١٩ شهدت قفزة ملحوظة في عدد السكان المسلمين، وذلك على اثر الاحتلال الروماني لجنوبي دوبروجا التي كانت في السابق جزءًا من بلغاريا. فقد أصبح هناك ١٧٠ ألف مسلم في دوبروجا كلها يشكلون ربع عدد السكان، يخدمهم مفتيان ومحاكم شرعية عدة.

ومع ذلك استمرت الهجرة إلى تركيا. وعندما وقفت رومانيا إلى جانب دول المحور في الحرب العالمية الثانية، عادت وخسرت جنوبي دوبروجا لصالح بلغاريا. ويذكر انه كان يوجد في دوبروجا في ١٩٤٠ حوالي ٤١٩ مسجدًا مستخدمًا، معظمها تمّ بناؤه بين الحربين، لكن هزيمة رومانيا في الحرب وصعود الشيوعيين إلى سدة الحكم في ١٩٤٤ وضعا حدًا للتحرك الاسلامي الفاعل، وصار الهم الاساسي للمسلمين هو مجرد البقاء في ظل تلك الاوضاع الصعبة.

لم يحدث عمليًا قهر للمسلمين الذين ظلوا تحت الحكم الشيوعي في رومانيا. إذ لم يحدث ان دمرت المساجد أو اغلقت عشوائيًا. اما تلك التي هدمت فعلاً فقد قالت السلطات انها فعلت ذلك في إطار مشاريع صناعية أو زراعية أو مدنية واسعة. ومن الصعب الحصول على ارقام دقيقة في رومانيا، لكن التقديرات تشير إلى وجود حوالي ٧٠-١٠٠ ألف مسلم ٩٠٪ منهم يعيشون في دوبروجا.

في مقابلة أجرتها «الحياة» (العدد ١١٥٩٥، تاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٩٤، ص٧) مع الرئيس الروماني إيليسكو، قال ان «عدد المسلمين في رومانيا قليل وهم يتحدرون من اصول تتارية وتركية.

ولكل فئة من هؤلاء نائب في مجلس النواب، وهم يتمتعون بكامل الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، ولهم مساجدهم وأنديتهم ومجلاتهم الثقافية الخاصة بهم».

مدن ومعالم

* **أراد Arad**: مدينة في غربي رومانيا قرب الحدود مع هنغاريا، وتبعد عن العاصمة الرومانية بوخارست ٥٤٦ كلم. وتعد نحو ١٩٣ ألف نسمة. قاعدة القضاء. مركز صناعي وتجاري.

* **أوراديا Oradea**: تدعى في الالمانية Grosswardein، وفي الهنغارية Nagyvarad. مدينة رومانية، قرب الحدود مع هنغاريا، قاعدة قضاء بيهور. تبعد عن العاصمة ٥٨٥ كلم. وتعد نحو ٢٢٥ ألف نسمة. فيها كاتدرائية تعود إلى القرن الثامن عشر، وقصر هو مقر الاسقفية. مركز صناعي: آلات وصناعات كيميائية وغذائية ونسيجية. كانت كناية عن قلعة هنغارية هدمها التتار في ١٢٤١، واعيد بناء المدينة في القرن الرابع عشر، واحتلها الاتراك حتى القرن الثامن عشر حيث ضمت إلى الامبراطورية النمساوية-الهنغارية. في ١٩١٩، أعطيت لرومانيا، ثم لهنغاريا في ١٩٤٠، ثم عادت إلى رومانيا في ١٩٤٥.

* **إياسي Iasi**: مدينة رومانية، في مقاطعة مولدافيا. قاعدة القضاء. واقعة على نهر باهلوي، وتبعد ٤١١ كلم عن العاصمة، وتعد نحو ٣٥٠ ألف نسمة. غنية بآثارها الدينية التي تعود معظمها إلى القرن الخامس عشر. صناعاتها: العقاقير، الأنسجة، المواد الغذائية، الميكانيكية والالكترونية. أول ذكر لها يعود إلى العام ١٤٠٨، وكانت عاصمة مولدافيا حتى اتحاد هذه الاخيرة بفالاكيا في ١٨٥٩. وقعت فيها «معاهدة إياسي» (أو جاسي كما يدعوها الفرنسيون)، في ١٧٩٢، التي انهت الحرب التركية-الروسية (١٧٨٧-١٧٩٢) والتي أعطت القرم وساحل البحر الاسود الممتد حتى نهر دنيستر لروسيا. اتخذتها الحكومة الرومانية مقرًا لها اثناء وقوع بوخارست تحت الاحتلال الالماني (١٩١٧-١٩١٨).

* **باكاو Bacau**: مدينة رومانية في مولدافيا. عاصمة القضاء. تبعد ٢٨٧ كلم عن العاصمة. تعد نحو ٢٠٨ آلاف نسمة. مركز صناعي حيوي. صناعات طيرانية، الكتروميكانيك، أدوات وآلات، اقمشة.

* **بايا ماري Baie Mare**: وتعني «المنجم الكبير». مدينة في شمالي رومانيا. قاعدة قضاء مارامور في حوض نهر سومس. تبعد ٥٩٤كلم عن العاصمة. تعد نحو ١٥٢ ألف نسمة. مركز صناعي حديدي وكيميائي. بالقرب منها مناجم ذهب وفضة وقصدير وزنك.

* **براسوف Brasov**: كان إسمها أوراسول ستالين بين ١٩٥٠ و١٩٦٠. مدينة في وسط رومانيا. قاعدة القضاء، في الجزء الشمالي الشرقي من جبال الألب في ترانسيلفانيا. تبعد ١٧١كلم عن العاصمة. تعد نحو ٣٢٩ ألف نسمة. فندق المدينة يعود إلى القرن الخامس عشر، والكنيسة السوداء إلى القرن السادس عشر، وكنائس أخرى أثرية، وأطلال قلعة (القرن الخامس عشر). تقيم المدينة مهرجانًا سنويًا عالميًا للموسيقى. مركز صناعي: معدات بناء، سيارات، الكتروميكانيك، كيميائيات، أقمشة، مواد غذائية. تأسست المدينة في القرن الثالث عشر على يد الفرسان التوتون (الجرمان)، واصبحت مركز الاصلاح الديني في ترانسيلفانيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. على ارضها هزم الالمان الرومانيين في تشرين الاول ١٩١٦.

* **بريلا Braila**: مدينة في جنوبي رومانيا. قاعدة القضاء، في وسط سهل موتينيا، تبعد ٢١٦كلم عن العاصمة، وتعد نحو ٢٣٨ ألف نسمة. مرفأ نهري مهم على الدانوب الأسفل. مركز صناعي: صناعات حديدية ومنشآت للملاحة النهرية.

* **بلوايستي Ploiesti**: مدينة في جنوبي رومانيا، على نهر تيليجن. قاعدة قضاء براهوفا. تبعد ٦٠كلم عن العاصمة. تعد نحو ٢٥٧ ألف نسمة. المنطقة المحيطة بها أقدم منطقة نفطية. تعرضت لقصف الدول الحليفة في الحرب العالمية الثانية حتى كادت ان تهدّم بالكامل. مركز صناعي بتروكيميائي مهم.

* **بوتوساني Botosani**: مدينة رومانية، في مولدافيا الشمالية. قاعدة القضاء. تبعد ٤٧٥كلم عن العاصمة بوخارست. تعد نحو ١٣٠ ألف نسمة. كنيسة تعود إلى القرن الخامس عشر. مركز تجاري وصناعي: الالكترونيات، الاقمشة، الآلات الزراعية والكاوتشوك.

* **بوخارست Bucarest**: في الرومانية Bucuresti. عاصمة رومانيا. تقع في وسط سهل فالاكيا، على الضفة اليمنى من نهر ديمبوفينا، أحد الروافد السفلى لنهر الدانوب. إضافة إلى كونها عاصمة البلاد، فهي ايضًا قاعدة القضاء. تعد نحو ٢،٢٥٠ مليون نسمة. مركز ثقافي، جامعي وديني. مدينة حديثة بشكل عام، ولكنها لا تزال تحتفظ بآثار مهمة من ماضيها: كنائس من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، أديرة من القرن السادس عشر، ومتحف للفنون الدينية، وللفن الفرنسي في القرن التاسع عشر، ومتحف فولكلوري «من القرية» جمعت معروضاته من كل انحاء البلاد. وجاءت سياسة «الاشغال الكبرى» التي انتهجها نيكولاي تشاوشيسكو من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٩ (آخر ايامه) لتؤدي إلى هدم جزء من الموروث التاريخي والفني للمدينة.

التطور الأهم الذي انجزته المدينة بدأ بعد الحرب العالمية الثانية. أصبحت أهم مركز صناعي في رومانيا بتأمينها لنحو ١٥٪ من الانتاج الصناعي القومي: صناعات حديدية، ميكانيكية (آلات زراعية، سيارات)، صناعات دقيقة، نسيجية، كيميائية وجلدية.

في اواخر القرن السابع عشر، أصبحت عاصمة فالاكيا، فحلت بذلك محل مدينة

تيرغوفيستا. احتلها الروس، ثم النمساويون، مستردينها في كل مرة من العثمانيين، وذلك حتى قيام وحدة الامارات الرومانية في ١٨٦١ وانتخاب ألكسندر جان كوزا. أصبحت عاصمة مملكة رومانيا في ١٨٨١.

وقعت فيها (وحملت إسمها) عدة معاهدات: معاهدة ٢٨ ايار ١٨١٢، الموقعة بين روسيا وتركيا، حيث كسبت روسيا بساربيا وجزءًا من مولدافيا واستردت اقاليم في آسيا. معاهدة ١٠ آب ١٩١٣ التي أنهت الحرب البلقانية الثانية، والتي تخلت بلغاريا بموجبها لصربيا ولليونان عن جزء من مقدونيا مع منفذ على بحر إيجه، ولتركيا عن أدرنة، ولرومانيا عن سيليستريا. وبعد السلام الذي نصت عليه معاهدة بريست-ليتوفسك (راجع الاتحاد السوفياتي في الجزء الاول)، رأت رومانيا نفسها معزولة، فاضطرت على توقيع معاهدة بوخارست (٧ ايار ١٩١٨) مع دول اوروبا الوسطى، فتخلت عن منطقة واقعة في الكاربات للنمسا-هنغاريا، وعن دوبروجا لبلغاريا، وارتبطت اقتصاديًا بالمانيا، واحتفظت بحق استعمال مرفأ كونستنتا، وضمت بساربيا التي كسبتها من اوكرانيا. لكن لم يُعمل ابدًا على التصديق على هذه المعاهدة، واعتبرت باطلة اثناء هدنة ريثوند، ثم في معاهدة باريس.

* **بوزاو Buzau**: مدينة رومانية واقعة عند اقدام هضاب الكاربات في مقاطعة فالاكيا وعلى بعد ١١٣كلم من العاصمة بوخارست. تعد نحو ١٥٢ ألف نسمة، وهي قاعدة القضاء. فيها كاتدرائية تعود إلى القرن السادس عشر والسابع عشر. عقدة مواصلات نهرية. مركز زراعي وتجاري وصناعي: الكتروتقنيات، مواد بناء. آبار نفطية.

* **بياترا نيمت Piatra Neamt**: مدينة رومانية في مقاطعة مولدافيا، على الضفة اليسرى من نهر بيستريتا، على بعد ٣٤٥كلم من العاصمة، قاعدة قضاء نيمنت، وتعد نحو ١٢٥ ألف نسمة. على بعد ٨كلم منها لجهة الغرب، يقوم دير بيستريت الذي أسسه الامير ألكسندر في اوائل القرن السادس عشر، وأعيد بناؤه في ١٥٥٤. صناعات كيميائية وغذائية وخشبية.

* **بيتستي Pitesti**: مدينة في جنوبي رومانيا. قاعدة قضاء آرج في منطقة موتينيا، على بعد ١١٤كلم من العاصمة، وتعد نحو ١٨٢ ألف نسمة. شهيرة بنبيذها. مركز نفطي. صناعة كيميائية، نسيجية، سيارات.

* **تيرغوفيستا Tirgoviste**: مدينة في جنوبي رومانيا في منطقة مونتينيا. قاعدة قضاء ديمبوفيتا، على نهر إيالوميتا. تبعد ٧٥كلم عن العاصمة، وتعد نحو مئة ألف نسمة. كنيسة «الامير» (القرن السادس عشر-السابع عشر) ذات الطراز البيزنطي. متاحف. مركز صناعي الكتروتقني، آلات، كيميائيات. بالقرب منها دير دييلو (القرن الخامس عشر-السادس عشر). مستعمرة رومانية قديمة وعاصمة فالاكيا من ١٣٨٥ إلى ١٥٥٩.

* **تيرغو مور Tirgu Mures**: وتعني «المعرض على المور». والمور هو نهر تقع عليه هذه المدينة في ترانسيلفانيا، وسط رومانيا. قاعدة قضاء المور. تبعد عن العاصمة ٣٤٧كلم، وتعد نحو ١٦٦ ألف نسمة. مركز جامعي وثقافي (مكتبة ومتاحف). صناعات الكتروتقنية، نسيجية وغذائية. بالقرب من المدينة آبار غاز طبيعي.

* **تيميسوارا Timisoara ومنطقة بانا Banat**: مدينة في غربي رومانيا. عاصمة منطقة

بانا (أو بانات Banat)، وقاعدة قضاء تيميس على نهر بيغا. تبعد عن العاصمة ٥٧١ كلم، وتعد نحو ٣٣٨ ألف نسمة. قصر يعود إلى القرن الرابع عشر. كنائس ذات طراز باروكي (القرن الثامن عشر). مركز صناعي مهم: الكترونيات، الكتروتقنيات، آلات، أقمشة ومواد غذائية. كانت مسرحًا لبداية انتفاضة كانون الاول ١٩٨٩ التي أدت إلى سقوط تشاوشيسكو.

أما منطقة بانا Banat فهي منطقة تاريخية في اوروبا الوسطى مقسمة، منذ ١٩١٩، بين هنغاريا وصربيا ورومانيا. تحدها من الشرق ترانسيلفانيا وفالاكيا، ومن الغرب تيسزا، ومن الشمال نهر المور ومن الجنوب نهر الدانوب. الجزء الاصغر منها تابع لهنغاريا، والجزء الصربي غني بالمزروعات، والجزء الروماني يبلغ مساحته ٢١٨٠٠ كلم م.، ويعد نحو ١،٧٠٠ مليون نسمة وعاصمته تيميسوارا، وأهم مدنه أراد، ريسيتا، لوغو. وهو، الجزء الروماني، كثير الخصوبة (حنطة، بطاطا، فاكهة)، وتحتضن جباله مناجم الفحم والحديد والمنغانيز والكروم والنحاس والمرمر. احتل العثمانيون بانا بعد ١٥٢٦ (معركة موهاكس)، وبعد الانتصارات التي حققها الامير أوجين على الاتراك، عادت بانا إلى آل هابسبورغ (معاهدة بسّاروفيتز، ١٧١٨). وبعد ان كانت منطقة عسكرية، ضمت إلى هنغاريا في ١٧٧٩. قسمت بين هنغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا بموجب معاهدة تريانون ١٩٢٠.

* **ريسيتا Resita**: مدينة في غربي رومانيا. قاعدة قضاء كاراس-سيفيرن. تبعد ٥٠٢ كلم عن العاصمة، وتعد نحو مئة ألف نسمة. تأسست في ١٧٦٨. إحدى أكثر المراكز الصناعية قدمًا في رومانيا، حيث مجمع ضخم للصناعات الحديدية القائمة بجوار مناجم الحديد والفحم.

* **ساتو ماري Satu Mare**: مدينة في شمالي رومانيا. قاعدة القضاء، قرب الحدود مع هنغاريا، وعلى الضفة اليمنى من نهر سومس في منطقة مارامور. تبعد ٦٥٠ كلم عن العاصمة، وتعد نحو ١٣٤ ألف نسمة. مركز تجاري وصناعي. عقدة مواصلات نهرية متصلة باوروبا الوسطى واوكرانيا.

* **سوكييفا Suceava**: مدينة في شمال شرقي رومانيا في مقاطعة مولدافيا. قاعدة القضاء. تقع على نهر سوكييفا، على بعد ٤٣٢ كلم عن العاصمة، وتعد نحو ١١٦ ألف نسمة. بقايا قلعة تعود إلى القرن الرابع عشر، وكنائس من القرنين الخامس عشر والسادس عشر. صناعات نسيجية وغذائية وكيميائية وخشبية. كانت عاصمة مولدافيا مرتين: بين ١٣٧٠ و١٣٨٠، وبين ١٥٦٤ و١٥٦٨.

* **سيبيو Sibiu**: مدينة رومانية، في ترانسيلفانيا الجنوبية. قاعدة القضاء. على بعد ٢٧٢ كلم عن العاصمة. تعد نحو ١٧٤ ألف نسمة. كنيسة من القرن الرابع عشر، بيوت من القرن الخامس عشر. متحف بني في ١٨١٧. مركز تجاري وصناعي: الجلد والخشب ومواد البناء، وصناعات نسيجية وإلكتروتقنية. كانت مستعمرة رومانية، وأصبحت في القرن الثاني عشر مستعمرة المانية قبل غزو التتار لها وهدمها (١٢٤١). أصبحت مركزًا تجاريًا حيويًا بدءًا من القرن الرابع عشر. ضمّها آل هابسبورغ في ١٦٩٩.

* **غالاتي Galati**: مدينة في جنوب شرقي رومانيا، على الضفة اليسرى من نهر الدانوب عند ملتقى الرافدين سيريت وبروت. قاعدة القضاء. تبعد ٢٤٦ كلم عن العاصمة. تعد نحو ٣٣٠ ألف نسمة. مقر «لجنة الدانوب الاوروبية» بصفتها

مرفأ نهري وبحري مهم. مركز صناعي وفيها أحد أكبر المجمعات الاوروبية للصناعة الحديدية (انتهى العمل به في ١٩٧٠) احواض لبناء السفن، وصناعات كيميائية ونسيجية وغذائية. أسس الغالاتيون هذه المدينة في القرن ا لثالث ق.م.

*** كرايوفا Craiova**: مدينة في جنوبي رومانيا في مقاطعة فالاكيا، على الضفة اليسرى من نهر فيو. قاعدة قضاء دولج. تبعد ٢٩٩كلم عن العاصمة. تعد نحو ٣٠٧ آلاف نسمة. ميتروبول ارثوذكسي. مركز جامعي، إداري وصناعي (قطارات، سيارات، طائرات، كيميائيات).

*** كلوج-نابوكا Cluj-Napoca**: مدينة رومانية في مقاطعة ترانسيلفانيا، على نهر سومس ميك (سومس الصغير). قاعدة قضاء كلوج. تبعد ٤٣٣كلم عن العاصمة. تعد نحو ٣٣٥ ألف نسمة. جامعة أسسها إتيان باتوري. كنيسة سان ميشال ذات طراز قوطي الماني (اوائل القرن الخامس عشر). متحف للفنون في قصر بانفي Banffy (القرن الثامن عشر). مركز إداري واقتصادي. منشآت ميكانيكية، منتوجات كيميائية وصناعات غذائية. بقربها آبار للغاز الطبيعي. أسسها الداقيون، وأصبحت مستعمرة رومانية. ازدهرت في القرون ا لوسطى، خاصة ابتداءً من القرن الثالث عشر. أصبحت مدينة حرة في ١٤٠٥. كانت من ممتلكات هنغاريا قبل ١٩١٩، وبين ١٩٤٠ و١٩٤٤.

*** كونستنتا Constanta**: مدينة رومانية، واقعة في الجنوب الشرقي من البلاد في منطقة دوبروجا، وهي قاعدة القضاء، وأهم منفذ بحري لرومانيا على البحر الاسود. تبعد ٢٦٥كلم عن العاصمة بوخارست. تعد نحو ٣٦٠ ألف نسمة. مرفأ تجاري (تصدير القمح، النفط، ٢٣ مليون طن سنويًا). عندها ينتهي الخط النهري دانوب-ران. صيد. مركز صناعي (احواض لبناء السفن، منشآت ميكانيكية، معلبات). منتجعات سياحية. مراكز أركيولوجية (بناء موزاييك، حمّامات رومانية). كانت تدعى قديمًا «توميس» Tomis، أسسها مستوطنون إغريق في القرن السادس ق.م..

تنتشر على ساحل كونستنتا منتجعات سياحية تحمل اسماء رومانية شبيهة بتلك المذكورة في الاساطير الرومانية القديمة، يزورها الناس للعلاج بحمامات الطين أو للتمتع بشواطئها الرملية. وتوجد في المدينة مجموعة من المتاحف التي تضم تماثيل ولوحات موزاييك من العصر الروماني. فالمدينة تحمل تاريخًا عريقًا مميزًا استطاعت الحفاظ على بعض اجزائه. وهناك ايضًا مسجد على الطراز المغربي موجود في احد الاحياء الصغيرة داخل المدينة القديمة المطلة على البحر. ويذكر التاريخ ان في هذا المكان بالذات تمكن العثمانيون من إقامة مستوطناتهم الوحيدة في الاراضي الرومانية.

وعلى مسافة نحو ٣٠كلم من كونستنتا تقع قرية مانغاليا المكونة من عدد صغير من الاكواخ الطينية والمنازل المتداعية. وفي هذه القرية مسجد يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر حيث كانت مانغاليا موقعًا متقدمًا من اراضي السلطنة. عندما زار ابن بطوطة المنطقة في القرن الرابع عشر فإنه لم يجد سوى «الارض الفارغة» وعليها مستوطنات صغيرة من بقايا التتار والبلغار والاتراك الذين ظلوا هناك كشواهد على حملات سابقة.

زعماء ورجال دولة

*** إيليسكو، إيون Iliescu, Ion** (١٩٣٠-): شيوعي سابق. أول رئيس لجمهورية رومانيا بعد انهيار النظام الشيوعي، واستمر رئيسًا حتى خريف ١٩٩٦ عندما خسر امام منافسه إميل كونستنتينشكو (راجع النبذة التاريخية).

*** بوكر، آنا Pauker,A.** (١٨٩٣-١٩٦٠): زعيمة شيوعية رومانية. انتسبت إلى الحزب الشيوعي الروماني منذ تأسيسه في ١٩٢١، وقضت فترة ما بين الحربين العالميتين بين رومانيا وموسكو. أعدم زوجها في موسكو بتهمة التروتسكية ولكنها أبقت على ولائها وصداقتها لستالين. ألقي القبض عليها في رومانيا في ١٩٣٥، وافرج عنها في برنامج تبادل السجناء بين رومانيا والاتحاد السوفياتي في ١٩٤٠. عادت مع الجيش السوفياتي في ١٩٤٤، وتولت مهمة تحويل رومانيا إلى دولة شيوعية باعتبارها احد الزعماء الثلاثة (الهيئة الحاكمة). تولت وزارة الخارجية في الاربعينات. نحّاها جورجيو-دج في ١٩٥٢، وكشف ميولها الصهيونية في ما بعد.

*** تشاوشيسكو، نيكولاي Ceausescu, N.** (١٩١٨-١٩٨٩): رئيس رومانيا. انضم إلى الحزب الشيوعي في ١٩٣٦، وانتخب عضوًا في اللجنة المركزية في ١٩٥٢، وفي المكتب السياسي في ١٩٥٥. خلف جورجيو-دج في منصبه عند وفاته (١٩٦٥) كأمين عام للحزب. وبعد عامين اصبح رئيسًا للدولة. في عهده ازداد تقارب رومانيا مع الغرب. حاول، بالتفاهم مع الولايات المتحدة، القيام بدور خاص في القضية الفلسطينية. فأقام علاقات قوية مع بعض الانظمة العربية وبعض قادة منظمة «فتح» الفلسطينية، وبذل جهدًا لادخال

إيون إيليسكو.

نيكولاي تشاوشيسكو.

العنصر الفلسطيني في التسويات المطروحة لما سمّي بـ«أزمة الشرق الاوسط»، وكان من مؤيدي إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة مقابل اعتراف العرب باسرائيل.

زوجته، إيلينا، أكاديمية وتحمل درجة دكتوراه في الهندسة الكيميائية. عينت في منصب نائب اول لرئيس الوزراء منذ ٢٩ آذار ١٩٨٠ (مولودة في ١٩١٩، وأعدمت مع زوجها في ٢٥ كانون الاول ١٩٨٩). إبنه نيكو Nicu، وزير الشبيبة والسكرتير الاول للحزب في سيبيو، وكان والده يعدّه لخلافته. حكم عليه في ٣ حزيران ١٩٩١، بالسجن لمدة ١٦ سنة. أطلق سراحه في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٩١ لاسباب صحية. أشقاء الرئيس تشاوشيسكو: إيلي، نائب وزير الدفاع؛ إيون، النائب الاول لرئيس لجنة التخطيط؛ مارن، مدير البعثة التجارية في فيينا (انتحر في ٢٨ كانون الاول ١٩٨٩)؛ نيكولاي-اندرتو، جنرال، حكم عليه بالسجن لمدة ١٥ سنة في ٢ نيسان ١٩٩٠؛ صهره نيكولاي أغاشي، انتحر في ٣١ تموز ١٩٩١ (للمزيد حول عهد تشاوشيسكو، راجع «كرونولوجيا»).

* **جورجيو-دج، جورج Georghiu-Dej, G.** (١٩٠١-١٩٦٥): نقابي شيوعي ورئيس دولة رومانيا. انتسب إلى الحزب الشيوعي في ١٩٢٩، وسجن في ١٩٣٣ لتنظيمه إضراب السكك الحديدية (راجع «قطار الشرق السريع» الروماني في باب معالم تاريخية)، وتمكن من الهرب من السجن في ١٩٤٤. أصبح عضوًا في الحكومة الائتلافية (١٩٤٤) وتولى منصب الامين العام للحزب في العام التالي. شارك في ا لحملة الستالينية ضد الزعيم الشيوعي اليوغوسلافي تيتو، وتخلص من خصومه في الخمسينات وأعدم زعيمهم بتراساكانو (١٩٥٧). وبعد ان استتب له الأمر عمل على تقديم نفسه إلىالشعب كقائد وطني وحامي المصالح القومية لرومانيا. أصبح رئيسًا للدولة في ١٩٦١، وبقي في الرئاسة حتى وفاته.

* **رومان، بيتر Roman,P.**: رئيس وزراء

جورج جورجيو-دج.

روماني سابق، ورئيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي (راجع النبذة التاريخية).

* **كودريانو، كورنيلوي Codreanu,C.** (١٨٩٩-١٩٣٨): سياسي فاشي روماني. رئيس تنظيم الحرس الحديدي (راجع باب المعالم التاريخية). والده بولندي وأمه المانية. كان نقيبًا في الجيش الروماني عندما التحق بحركة الاستاذ كوزا Cauza القومية «الرابطة المسيحية». لكنه سرعان ما انفصل عنها. بلغ به تطرفه إلى حد اغتيال حاكم مدينة إياسي في ١٩٢٣، فاعتقل، إلا ان السلطات الرومانية، تحت ضغط الرأي العام، أفرجت عنه فأخذ يركز دعايته ضد الاقلية اليهودية الكبيرة العدد في البلاد (حوالي ٨٠٠ ألف شخص) والتي كان الرأي العام يعتبرها خطرًا على مستقبل رومانيا، بسبب تغلغل اليهود في الاقتصاد وهيمنتهم عليه. وابتداء من ١٩٢٨ اشتد سعير العداء للسامية فحاول زعيم الحرس الحديدي استغلال هذه الظاهرة لزعزعة النظام بغية التمهيد لفرض دكتاتورية فاشية على غرار ما كان سائدًا في ايطاليا. وكان على اليهود، برأي كودريانو، ان يغادروا البلاد كلهم «بعضهم فوق الامواج، والآخرون تحتها». وبالرغم من تحالفه مع الاحزاب

التقليدية لم يتمكن كودريانو من الاستئثار بالسلطة. وفي ١٩٣٨، وخشية حدوث الأسوأ، قرّر الملك الامساك بزمام السلطة فأحل الجنرالات والكولونيلات محل حكام المدن، وسلّم وزارة الداخلية إلى شخصية مرهوبة الجانب هي كالينسكو Callinesco فأحال «الحرس الحديدي» على المحاكم، فحكم على كودريانو هذه المرة بالسجن مدة ٩ أعوام، إلا ان الحكومة تخلصت منه بقتله في تشرين الثاني ١٩٣٨ «اثناء قيامه بمحاولة فرار» (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ج٥، ط٢، ص ١٩٥).

*** كوستنتينشكو، إميل Constantinescu E.** (١٩٣٩-): رئيس رومانيا الحالي. وبانتخابه، في ١٦ تشرين الثاني ١٩٩٦، أنهى الرومانيون سبع سنوات من حكم الشيوعيين السابقين، وكانت رومانيا الدولة الوحيدة في اوروبا الشرقية لم تصل فيها المعارضة إلى الحكم بعد. قاد كونستنتينيشكو جبهة «التجمع الديمقراطي» التي تضم ١٥ حزبًا، وانتخب زعيمًا للمعارضة في ١٩٩٢، وانتصر في عدد من المعارك السياسية. وكان انضم، اثناء ثورة ١٩٨٩، للمتظاهرين. كان شيوعيًا سابقًا.

ويقول في هذا الصدد ان ذلك كان «لا بد منه» من اجل مستقبله، وانه لم «يتواطأ» بأي شكل من الاشكال مع النظام السابق. وهو عالم جيولوجي وحقوقي. اقام حملته الانتخابية على «ارادة التغيير» عند الرومانيين بالاضافة إلى «العودة بالبلاد إلى الجذور الديمقراطية، وقطع أية علاقة مع الماضي الشيوعي».

ريينيون

نبذة عامة

الاسـم: كـانت تدعى جزيرة «بوربون»، نسبة إلى أسرة بوربون المالكة في فرنسا. وحملت هذا الاسم حتى ١٧٩٣ عندما اتخذت إسمها الحالي.

الموقع والمساحة: في المحيط الهندي، شرقي مدغشقر. تبلغ مساحتها ٢٥١٢كلم م.. تبعد ٢٠٠كلم عن جزيرة موريس (موريشيوس)، و ٨٥٠كلم عن مدغشقر، و ١١ ألف كلم عن عاصمة المتروبول باريس.

العاصمة: سان دنيس (نحو ٢٠٠ ألف نسمة). وهناك ايضًا مدينة سان لويس، ومدينة سان بيار.

اللغات: الفرنسية (رسمية). وهناك لغة مطعمة بالفرنسية وبلغات محلية اصلية خاصة لغة قبائل البانتو تدعى لغة الكريول.

السكان: يبلغ عددهم نحو ٧٥٠ ألف نسمة (تقديرات ١٩٩٦). يتحدرون من المستوطنين الفرنسيين الاوائل، ومن الافريقيين والمالاويين والصينيين والهنود: أكثر من ثلثهم من اصل «كافري» أي من المتحدرين من اصل موزمبيقي ومالغاشي الذين كانوا من العبيد؛ والربع من التامول المتحدرين من المعتقين الهنود؛ والثلث من الكريول، واقلية من الصينيين الذين يمسكون بزمام الاقتصاد؛ وعدد قليل من الفرنسيين. أغلبيتهم كاثوليك، وهناك اقلية هندوسية وأخرى مسلمة. لم يعد هناك من اميين تقريبًا بين السكان بسبب نظام التعليم الاجباري والمجاني الذي فرض منذ عقود. فالمدارس والثانويات منتشرة في البلاد، وفي سان دنيس جامعة ومعهد للمعلمين.

الاقتصاد: يرتكز اقتصاد الجزيرة على

الزراعة، وخاصة زراعة قصب السكر التي تغطي ثلثي الاراضي المزروعة. وأهم صناعة هي صناعة السكر ومشروب الروم. وهناك زراعات النباتات العطرية (جيرانيوم)، والتبغ، والشاي، والفانيليا. وتعاني رينيون من التضخم السكاني الذي يقابله ازدياد في نسبة البطالة، وليس لأبنائها من منفذ لهذه المعضلة سوى الهجرة إلى المتروبول الفرنسي.

نبذة تاريخية: اكتشف البرتغاليون جزيرة رينيون في ١٥٢٨. أما استعمارها فبدأ عندما اصبحت الجزيرة من الممتلكات الفرنسية في ١٦٣٨، فأطلق عليها إسم «بوربون». في ١٦٦٤، وضعها الفرنسيون تحت إدارة «شركة الهند». وكان لا بوردونّي حاكمها العام بين ١٧٣٥ و١٧٤٦. وعادت الدولة الفرنسية واشترتها من الشركة في ١٧٦٤، واتخذت اسمها الحالي بدءًا من ١٧٩٣. خضعت لنظام «الأقاليم الفرنسية ما وراء البحار» منذ ١٩٤٦؛ وأصبح لديها، منذ ١٩٨٣، «المجلس الاقليمي» الذي يمسك بالسلطات عليها. ومنها تدار الجزر المتناثرة بقربها والتي هي من الممتلكات الفرنسية ايضًا: خوان دو نوفا، أوروبا، باسا دا إندا، جزر غلوريوز وتروميلن.

بين ١٥ و٢٧ كانون الثاني ١٩٨٠، ضرب الجزيرة إعصار لم تعرف المنطقة مثيلاً له. فطلب نائبها الفرنسي، ميشال دوبريه، من الحكومة الفرنسية اتخاذ إجراءات إستثنائية لمساعدة الاهالي الذين اضحى الآلاف منهم بلا مأوى، فضلاً عن موت العديدين.

ثمة محطات «إستقلالية» في تاريخ الرييونيين المعاصر والآني. ففي ١٩٤٦، توصلوا إلى اقناع باريس بتطبيق نظام

شارع في العاصمة سان دنيس.

المقاطعات الفرنسية ما وراء البحار على رينيونيا (إذ كانت قبلاً من «الممتلكات» الفرنسية)، وتقدموا بهذا الطلب وأصروا عليه تحت تأثير رياح التحرر الذي بدأ يعصف بالشعوب بعد الحرب العالمية الثانية. لكن ابناءهم لم يفلحوا بعد في مطالبهم القاضية باعتراف باريس في حكم ذاتي (السبعينات)، ولا باقرار النظام اللامركزي (الثمانينات)، ولا بالمساواة (أوائل التسعينات). وهم الآن يطالبون بـ«التنمية» اخذاً بالاعتبار للحقائق الاقليمية في إطار الاتحاد الاوروبي الذي صنف جزيرة رينيون في خانة مجموعة المناطق البعيدة جدّا عن المركز. وأهم دافع لهم وراء مطالبهم التنموية مشكلة البطالة التي تطال ٣٧٪ من اليد العاملة، و٥٩٪ من الفئة العمرية ١٥-٢٥ سنة (إحصاءات ١٩٩٦)، وما تستتبعه من مشكلات إجتماعية (حوادث قتل، سرقات...).

في الذكرى الخمسين على مرور بدء تطبيق نظام المقاطعات «الاقاليم الفرنسية ما وراء البحار»، زار الرئيس الفرنسي جاك شيراك (آذار ١٩٩٦) رينيون حيث أكّد انه لم يعد هناك من مجال «لنموذج وحيد وإكراهي» للاقاليم وراء البحار: «لقد ولى زمن التماثل والاستيعاب. فعلى تنميتكم (...) وعلى تفتح هويتكم يجب ان نبذل منذ اليوم جهدنا». ولم يعد أصحاب الاتجاه اليميني في الجزيرة يحذرون من مناقشة الهويات الاتنية، أو الهوية الوطنية لسكانها. فـ«الاتحاد الرينيوني للتجمع من اجل الجمهورية» (RPR)، أي الحزب الذي أنشأه الرئيس شيراك في رينيون، أصبح يدافع عن خصوصية الجزيرة بالنسبة إلى غيرها من الأقاليم ما وراء البحار. ومن الافكار التي اطلقها شيراك في هذا الصدد (بعيد زيارته رينيون): «اللغات والثقافات المحلية لم تعد تشكل تهديدًا للهوية الوطنية».

وتعيش جزيرة رينيون اليوم جدلاً حول المهاجرين الفرنسيين والاوروبيين من الاتحاد الاوروبي الذي تشرع الجزيرة لهم ابوابها في حين انها اصبحت مغلقة امام القادمين من الجزر المجاورة في الجنوب الغربي من المحيط الهندي. والفرنسيون (والاوروبيون) الذين كانوا يشكلون ١،٤٪ من عدد السكان في ١٩٦٧ تضاعف عددهم خمس مرات، فأصبحوا الآن (١٩٩٦) يشكلون ٧٪. أما الوظائف فتكون في انتظارهم (التجارة، التعليم، الصحة، وسائل الاعلام...) علمًا ان البطالة، بين السكان المحليين، آخذة في التفاقم يومًا بعد يوم.

Provinces du Congo-Kinshasa
1/10 000 000

زائير

بطاقة تعريف

الاسم: «زائير» تحريف لـ«نزادي» (nzadi) التي تعني في لغة الكيكونغو المحلية «النهر». وكانت البلاد تسمّى «الكونغو»، الإسم الذي اطلقه البرتغاليون من القرن السادس عشر على النهر ذاته. واستمر هذا الإسم (كونغو) حتى ٢٧ تشرين الاول ١٩٧١، فاستبدل بـ«زائير». وهناك إسم ثالث للنهر هو لولابا.

الموقع: في افريقيا، عند خط الاستواء. يحيط بها السودان، افريقيا الوسطى، الكونغو، انغولا، زامبيا، تنزانيا، بوروندي، روانداء، وأوغندا. يبلغ إجمالي طول حدودها مع هذه البلدان ٩١٦٥كلم، وأقل من ٤٠كلم طول منفذها البحري على الاطلسي، حيث مصب نهر زائير ومرفآن واقعان عليه، هما مرفأ بوما ومرفأ ماتادي. وهذا النهر هو ثاني نهر في العالم من حيث منسوب المياه بعد الامازون.

المساحة: ٢ مليون و٣٤٤ ألفًا و٨٨٥كلم م.. فتكون زائير ثالث بلد افريقي من حيث المساحة بعد السودان والجزائر.

العاصمة: كينشاسا (كانت تدعى ليوبولدفيل) وتعد نحو ٤ ملايين نسمة. أهم المدن: كاننغا، لوبومباشي، مبوجي، كيسنغاني، بوكافو، ليكاسي، كيكويت، ماتادي، مبنداكا (راجع باب مدن ومعالم).

اللغات: الفرنسية (رسمية). وهناك أكثر من ٤٠٠ لغة ولهجة محلية، أهمها: كيكونغو، كينغاوا، لينغالا، سواحيلي، تشيلوبا. أما العربية فتنتشر بين المسلمين الذين يسكنون شرقي البلاد.

السكان: يبلغ تعدادهم حاليًا (تقديرات ١٩٦٦) نحو ٤٢ مليونًا. وتشير التقديرات انهم سيبلغون نحو ٥٣ مليونًا في العام ٢٠٠٠. نحو ٥٠-٦٠ مجموعة إتنية، أهمها البانتو الذين يبلغون لوحدهم نحو ١٨ مليونًا، والنيلوتيون (السودانيون) نحو ٥ ملايين. وهناك كذلك الاقزام (البيغميون) ويبلغ تعدادهم نحو ربع مليون، وما يزالون يعيشون، كما تنقل التحقيقات عنهم احيانًا، كما وصفهم هيرودوت في تاريخه: «هؤلاء الناس الذين لا يزيد طولهم على الذراع وقبضة اليد»؛ وقال إن مكانهم هو «صحراء ليبيا حيث يوجد نهر صاحب مليء بالتماسيح». ولا بد ان المؤرخ الشهير قد شاهدهم حيث يعملون كغلمان في قصور مصر القديمة. وكان الفراعنة يطلقون على هذا النوع من الاقزام إسم «آكا»، وما زال هذا الاسم متداولاً بينهم إلى الآن. يعيش اغلبهم بجانب البحيرات.

تنتشر قبائل البانتو في ثلثي البلاد. أما النيلوتيون (أو السودانيون) فقد قدموا من الشمال، ويكونون الطبقة الارستقراطية.

هناك نحو ٤٨٪ من المجموع كاثوليك، و١٣٪ بروتستانت، والباقون ما يزالون اصحاب ديانات محلية (إحيائية). أقلية قليلة تدين بالاسلام في شرقي البلاد.

الحكم: نظام الحكم جمهوري رئاسي. الدستور المعمول به صادر في ١٩٧٤، ومعدّل في ١٩٧٨، ١٩٨٠، ١٩٩١. رئيس الجمهورية ينتخب لمدة ٧ اعوام، وولايته قابلة للتمديد. وموبوتو، رئيس الجمهورية الحالي وما يزال يشغل هذا المنصب منذ ١٩٦٥. وهناك «المجلس الاعلى للجمهورية»، مؤلف من ٤٥٣ عضوًا، وقد حلّ محل الجمعية العمومية (البرلمان) منذ ٥ كانون الاول ١٩٩٢ التي كانت مؤلفة من ٢١٠ اعضاء منتخبين بالاقتراع العام.

«الحركة الشعبية للثورة» هو الحزب الحاكم الوحيد، تأسس في ١٩٦٧ ويعتبر ان كل زائيري هو عضو حكمي فيه. اما المعارضة فتعتبر نفسها انها «في اتحاد مقدس» ضد نظام موبوتو، وأهم احزابها: اتحاد الفدراليين والجمهوريين المستقلين، تأسس في ١٩٩٠، ورئيسه نغوز كارلي بوند؛ الاتحاد من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي، تأسس في ١٩٨٢، رئيسه إتيان تشيسيكيدي؛ التجمع الديمقراطي من اجل الجمهورية، رئيسه مونغول دياكا؛ الحزب الديمقراطي والاجتماعي (مسيحي)، تأسس في ١٩٩٠، رئيسه جوزف إيليو؛ اتحاد الديمقراطيين المستقلين، تمبوي موامبا؛ جبهة القوميين المشتركة، ورئيس هذا الحزب كامندو وا كامندو.

الاقتصاد: الشريان الحيوي الأهم في الاقتصاد الزائيري هو نهر زائير وروافده. يبلغ طول مجموع الشبكة النهرية الصالحة للملاحة ١٣ ألفًا و٦٠٠كلم. وهناك ميناءان، واحد في ماتادي والآخر في بوما عند مصب نهر زائير في المحيط الاطلسي، ويجري حاليًا العمل على إنشاء ميناء في بانانا. اما شبكة خطوط سكة الحديد فيبلغ إجمالي طولها نحو ١٣٠٠كلم.

ليست زائير بلدًا زراعيًا على الرغم من ان ٧٦٪ من مجموع السكان يعملون في الزراعة التي لا تغطي سوى نحو ١٩٪ من الانتاج القومي العام،

ولا تمثل الاراضي المزروعة سوى ٣٪ من مساحة البلاد. إن أولى الزراعة هي زراعة المنيهوت Manihot (جنس جنيبات يستخرج من جذورها دقيق نشوي) التي تغطي ٢٩٪ من الاراضي المزروعة، ثم زراعة الذرة التي تغطي ١٢٪، ثم الفاصولياء. وهذه الزراعات الثلاث هي في اساس المواد الغذائية لسكان زائير. وهناك نوعان من الزراعة التجارية: زراعة البن، وزراعة الهيفا أو شجر المطاط، وتشكل صادرات البن والكاوتشوك ٨١٪ من مجموع الصادرات الزراعية. وتشكل الغابات ٨٠٪ من مساحة زائير. وتتنوع جباله من الجبال الملتهبة بالبراكين والمعادن المنصهرة، والجبال البادرة القمم التي يطلق عليها «جبال القمر» والتي كتب عنها هيغارد روايته الشهيرة: «كنوز الملك سليمان».
أما الانتاج المنجمي فمهم جدًا في زائير. ويأتي إنتاج النحاس في المرتبة الاولى أهمية. وزائير هي أول بلد منتج للألماس في العالم، وهناك عمليات تهريب ضخمة للألماس لا تدخل في الاحصاءات. وتأتي الثروة الأساسية للبلاد من تصدير النحاس. وتنتج زائير الكوبلت Coblat (عنصر فلزي فضي البياض) بنسبة نحو ٦٠٪ من الانتاج العالمي، ومبيعاتها من الكوبلت تعادل ثلث مبيعاتها من النحاس.
إن الموجودات المنجمية بمجملها تقريبًا تأتي من إقليم شابا (كاتنغا سابقًا) حيث نشبت حوادث ونزاعات عنيفة (منها حوادث كوليزي في ايار ١٩٧٨، راجع النبذة التاريخية). وتمتلك زائير قدرًا قليلاً نسبيًا من مخازن الطاقة، وقد اكتشف النفط فيها في السبعينات من هذا القرن. وترتبط الصناعة في زائير ارتباطًا وثيقًا بالانتاج المنجمي، وهي وقف على عمليات التكرير فقط.
نقلت «لوموند ديبلوماتيك» (تشرين الثاني ١٩٩٥، ص ٢٠) صورة قاتمة جدًا عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي في زائير، وأهم ما جاء فيها:

– تمتلك زائير أكبر طاقة وفرص تنمية، لكنها مع ذلك أفقر بلدان العالم. فالدخل الفردي السنوي فيها لا يتجاوز ١٠٠ دولار في حين ان البنك الدولي حدّد عتبة الفقر بـ٣٧٠ دولارًا. وفي هذه السنة (١٩٩٥)، خلت الموازنة، التي قدمها رئيس الوزراء كنغو وا دوندو من اية خطة اقتصادية، وبلغت قيمتها ٣٠٠ مليون دولار، أي اقل من «المخصصات الرئاسية» التي بلغت في ١٩٩٤ نحو ٣٧٢ مليون دولار.
– نحو ثلث السكان من الفئة العمرية ٦–١٧ سنة يترددون إلى المدارس، وأغلب هؤلاء يضطرون إلى ترك المدرسة بعد تمضية سنوات قليلة فيها. والمدارس المتوافرة هي في حالة مزرية للغاية (بدون سقف، أو أبواب وشبابيك...). وثمة احلام ثلاثة تراود الشبيبة الزائيرية: الصيرفة، تهريب الماس، الهجرة إلى اوروبا أو جنوب افريقيا.
– مدينة الماس، مبوجي–مايي Mbuji-Mayi تعكس المأساة الزائيرية على حقيقتها. فهذه المدينة التي تتم على ارضها مبادلات (ومعاملات) بقيمة ١٥ مليون دولار اسبوعيًا (الانتاج السنوي من الماس: ٢٠ مليون قيراط) لا تزال تعيش عصرًا بدائيًا: لا مياه صالحة للشرب، لا كهرباء، لا هاتف، لا طريق معبدة، لا مدرسة ولا مستشفى.
– وعلى بعد كيلومترات قليلة من هذه المدينة تقع «رئة الاقتصاد الزائيري»، مقاطعة شابا (كاتنغا سابقًا): طاقتها الانتاجية السنوية ٥٠٠ ألف طن من النحاس، ٦٥ ألف طن من الزنك، ١٦ ألف طن من الكوبالت... في العام ١٩٨٧، كان القطاع المنجمي لا يزال يقدم ٧٦٪ من إجمالي الصادرات التي كان النحاس يشكل ٣٧،٣٪ منه. لكن إجمالي قيمة الصادرات هبط من ١٧٦٩ مليون دولار في ١٩٨٨ إلى ٥٦٥ مليونًا في ١٩٩٣. أما انتاج الماس فهبط في العام

١٩٩٤ إلى ٢٩٦ مليــون دولار، أي بنســبة ٤٤٪ عما كان عليه قبل عام واحد. وصـادرات النحـاس (نحـو ٣٣ مليـون طـن) بلغـت قيمتهـا ١٢،٢ مليون دولار في ١٩٩٤، في حين كـانت ٢٠،٨ مليونًا في ١٩٩٣.

– في زائـير، بـات احتقـار العـادات والاخـلاق السوية المعروفـة معادلاً للذكاء، الاستقـامة متطابقة والجبن والرذالة، الخدعة فضيلة، الفساد قاعدة الحياة الاجتماعية، العقود غير ضامنة لأي حق... القائد «الاعلى» (الرئيس موبوتو) مصـر على وجوده الضروري لوجود الأمة: «شـخصي ضمانـة للسلام وللأمـن في البـلاد...». عديـد حرسه الشخصي يبلـغ ٢٥ ألـف رجـل مجهزيـن بـأحدث الاسـلحة وجميعهـم مـن قبيلتـه، «غبـاندي».

نبذة تاريخية

الوجود القديم: تدل الآثار الموجودة عند حوض نهر الكونغـو (نهـر زائـير الـذي يدعى ايضًا نهر لولابـا) علـى وجـود قديـم للانسان فيه يعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ. ففي نيسان ١٩٩٥ نشرت مجلـة «سـاينس» الاميركية ان بحاثة اكتشفوا في زائير ادوات مصنوعة من العظام أكثر قدمًا بـ٧٥ ألـف سنة من أقدم الادوات المكتشفة حتى اليـوم. وكان العلماء يعتقدون ان الانسان الاول في افريقيا لم يكن في حوزته إلا ادوات حجرية أبسط من هذه الادوات العظمية المكتشـفة، وأن تطوره الجسدي والتكنولوجي لم يحصل إلا قبل ٤٠ ألف سنة.

سكان هذه المنطقة (حوض الكونغو) يتحـدرون مـن قبـائل البـانتو Bantou الـتي كـانت تقيـم علـى الهضـاب المسيطرة علـى مجرى نهري النيجر وبنويه، والـتي اضطـرت إلى النزوح جنوبًا.

وبقي تاريخ هذه المنـاطق مجهـولاً، إذ تعـذر الوقـوف علـى تطـور شعوبها حتـى القرن الخامس عشر.

المجتمـع الرعـوي والتجـاري: قبيـل وصول الاوروبيين في القرن الخامس عشـر، عرف عن المجتمع هناك انه كان ينضـوي في مملكة دعاها المؤرخـون «مملكـة الكونغـو»، وقالوا إنها كانت تمثل أقصى مراحـل النمـو في إطار المجتمـع الرعـوي. وكـان اقتصادهـا متكـاملاً يقـوم علـى المقايضـة وبعـض الصناعـات الضرورية مثـل نسـج الاقمشـة بـالطرق البدائية. تقـوم بينهـم وبـين البـلاد المجاورة علاقـات تجاريـة عادلـة في أغلـب الاحيان، ولعل هذا هـو سـر الـدور النشط الذي قام به التجار العرب المسـلمون الذيـن جـابوا القـارة الافريقيـة مـن شـرقيها إلى

غربيها. وعلى طول نهر الكونغو كانت تنتشر عادة «المقايضة الصامتة» وتتم وفق ترتيب لا يتغير. يأتي التجار وهو يحملون بضائعهم ثم يقومون بدق الطبول لاعلام السكان المحليين أنهم قد جاءوا. وكان السكان يعيشون في حفر يعتقد انها التي كانوا يستخرجون منها الذهب. وكانوا يرفضون الخروج في وجود التجار الاجانب. لذا فقد اعتاد التجار ان يرتبوا بضائعهم على حافة النهر ثم يتواروا عن الانظار. وعند ذلك يخرج السكان المحليون ليضعوا كمية من الذهب بجوار كل كومة من السلع ثم ينسحبوا. وإذا ما وجد التجار ان ذلك يرضيهم فإنهم يأخذون الذهب ويدقون الطبول إشارة إلى رحيلهم وانفضاض السوق.

مجيء الاوروبيين: ظل هذا النوع من المقايضة القائمة على التراضي قائمًا حتى جاء الاوروبيون، وبالتحديد حتى عام ١٤٨٧ عندما قابل الملاح البرتغالي دييغو، في ثالث رحلة استكشافية له، ملك الكونغو. و لم تلبث العلاقات بين مملكة الكونغو والبرتغال ان تطورت، فتبادلا السفراء واقاما العلاقات التجارية ودخلت ارساليات برتغالية مسيحية إلى الكونغو. ومع مرور الوقت، شعر ملوك الكونغو بنوايا البرتغال الحقيقية، خاصة بعد تفاقم تجارة العبيد. وفي القرن السابع عشر، رفض ملك الكونغو «أنطونيو الاول» تجديد حقوق استثمار المناجم للبرتغال. إلا انه لم يستطع الصمود امام الجيش البرتغالي، فقتل في معركة أمبيلا التاريخية عام ١٦٦٥، وبدأ عصر انحطاط مملكة الكونغو.

هنري مورتون ستانلي: ملاح انكليزي، يطلق عليه لقب «أعظم مستكشفي افريقيا». كان ابنًا غير شرعي. تبرأت منه أمه وأسرته وألقت به إلى أحد الملاجىء. وتعوّد هو على الهرب، وتعودت أسرته على ان تغلق الباب في وجهه كل مرة. كان يبحث عن مكان يلقي فيه جذوره ولكنه لم يجد. وانعكس ذلك على ولائه لكل الدول التي خدم تحت ظلها سواء كانت انكلترا أو اميركا أو بلجيكا. لم يكن له وطن محدد و لم يصدق انه في يوم من الايام سوف تكون هناك اماكن شاسعة في افريقيا تحمل إسمه وتخلد ذكره.

في اواسط القرن التاسع عشر، كان الاهتمام بالكشوف الجغرافية يشبه إلى حد كبير الاهتمام الحالي بكشوف الفضاء. وكان استكمال صورة افريقيا على الخرائط، وخاصة منابع النيل، مسألة بالغة الاثارة بالنسبة إلى العقل الاوروبي. وفي ١٨٦٥، اختفى الرحال الشهير ليفنغستون، وهو يحاول اكتشاف المنبع الحقيقي للنيل، وأثارت هذه القضية جدلاً طويلاً. وكان ستانلي ايامها يعمل مراسلاً مغمورًا في صحيفة «نيويورك هيرالد» ويبحث عن دور يقوم به، واستطاع ان يقنع اصحاب الصحيفة بتمويل بعثة تقوم بالبحث عن الرحالة يكون هو على رأسها. وكانت هذه هي بداية رحلاته الثلاث إلى افريقيا.

كان سيدًا قاسيًا كما وصفه الجميع.

وصول ستانلي الى قرية كا-بامباري في افريقيا الوسطى.

هنري مورتون ستانلي.

قاد الحمّالين الافارقة آلاف الاميال تحت رحمة السياط. عبر بهم البراري والمستنقعات وفخاخ الموت بلا توقف. واستطاع ان يعثر على ليفنغستون المفقود بالقرب من بحيرة فكتوريا. ووقع الخلاف بينهما على الفور. كل واحد منهما كان يحمل طابعًا متنافرًا عن الآخر. وألف ستانلي كتابه الشهير «كيف وجدت ليفنغستون؟» الذي جعله واحدًا من الابطال.

عاد إلى اوروبا ولكن عدوى الاستكشاف كانت قد انتقلت إليه وعزم هو ايضًا على حل اللغز: من أين ينبع النيل؟ وبدأ على الفور في تمويل رحلته الثانية وغادر انكلترا متوجهًا إلى زنجبار حيث جهز أكبر قافلة شهدتها الكشوف الجغرافية. وغادر زنجبار وفي صحبته ٣٥٦ حمالاً افريقيًا وثلاثة من الانكليز وساروا لمدة ألف يوم دون كلل ودون مبالاة بكل الذين سقطوا موتى خلال الرحلة.

بدأت الرحلة بالدوران فوق سطح بحيرة فكتوريا للبحث عن منبع لنهر كبير وجبار يمكن ان يكون بداية لنهر النيل. لم تكن الرحلة بالسهولة التي تصورها. وأوشكت قواربه على الغرق في هذا البحر الداخلي الازرق. وكان رجال القبائل لا يكفون عن مهاجمته وكان هو يرد عليهم بنفس الدرجة من العنف. حتى عثر على أكبر الانهار التي تنبع من البحيرة فبدأ منه رحلته معتقدًا أنه اخيرًا قد وجد نهر النيل.

ببطء شديد اكتشف ستانلي انه يضع قدميه على بقعة لم تطأها قدم اوروبي من قبل وقاده النهر إلى نهر آخر أكثر غزارة. وكتب يقول في مذكراته: «مهما كان الغموض الذي يحيط بي فإن امامي نهرًا وحشيًا ورائعًا وعليّ ان اتبعه حتى نهايته». ولكنه لم يتمكن من ذلك. كانت الشلالات الصاخبة والشديدة الانحدار تواجهه في كل مرحلة من رحلته. وكان على البعثة ان

تهبط من السفينة كي تسير على الطريق البري.

كان يحمل معه سفينته التي أصبحت شهيرة في ما بعد باسم «مس أليس» وكانت تفك وتركب من جديد. دخل ستانلي عالم الغابة، عبر ارض الاقزام السود. وشاهد صفوف الجماجم والعظام في ارض آكلي لحوم البشر. سار وسط قبائل غاضبة، وأخرى خائفة. ظل يتنقل بين البر والنهر هو وبعثته وهم لا يدرون إلى أي وجهة يقصدون. تساقطوا من الامراض التي تلاحقهم والجروح التي تمزق اقدامهم. عبروا شلالات سبعة ما زالت معروفة حتى الآن باسم «شلالات ستانلي». وكانت هذه أشد مراحل الرحلة رعبًا، فقد كان دوي الرعد الهائل مع كل شلال يجعل الرجال يتمردون ويرفضون التقدم وكان ستانلي يرغمهم في كل مرة على مواصلة الرحيل.

في ١٨٨٧، وصلت البعثة إلى امتداد النهر الاستوائي غير النهائي، إلى المكان الذي سوف تبنى فيه في ما بعد مدينة ستانلي فيل. وظهرت في الخرائط صورة نهر الكونغو العظيم، أو نهر لولابا كما كانوا يطلقون عليه (واسمه أصبح اليوم نهر زائير)، وبدت مملكة الكونغو من الداخل التي طالما سحرت اوروبا بذهبها دون ان تستطيع الوصول إلى اعماقها السوداء كما فعل ستانلي. يقول: «نزلنا نهر لولابا... إننا امام نهر جديد لا يمت للنيل بصلة، وارض غريبة لم يطأها أبيض...». وبعد أربعة اشهر من السير استطاع ستانلي ان يصل إلى نهاية النهر وان يشاهد السفن البرتغالية في ميناء بانانا. وكان قد توصل إلى ارتياد معظم اجزاء الكونغو (زائير) الداخلية فوقف على ما تزخر به البلاد من ثروات هائلة.

الاستعمار البلجيكي: في انكلترا حاول ستانلي المستحيل مع حكومتها حتى تنتهز الفرصة وتقيم خطًا للسكة الحديد يقودها إلى اعماق هذه البقعة الخصبة من افريقيا واستغلال ثرواتها، ولم يلق أذنًا صاغية. فأسرع ليعرض خدماته على الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا الذي لم يتردد في قبول العرض. فانتدب ستانلي ليكون على رأس شركة الكونغو الدولية التي أسسها في ١٨٧٩. فعاد ستانلي إلى افريقيا لكي يقود هذه المرة خطى الاستعمار البلجيكي. واستطاع ان يوقّع أكثر من ٤٠٠ معاهدة مع الزعماء المحليين لمصلحة الشركة، كما استطاع ليوبولد الثاني من جهته ان ينتزع من مؤتمر برلين، ١٨٨٥، اعترافًا بحقه الشخصي في ملكية الكونغو. وبقي مدة تزيد عن عشرين سنة يستثمر مستعمراته الشخصية، فيلاقي احيانًا متاعب مالية واستنزافًا بشريًا، ما دفع بالرأي العام، داخل بلجيكا خاصة، إلى استنكار هذا التصرف الفردي من جانب الملك خاصة وقد بدأت تلوح في الافق مطامع اجنبية في المستعمرة، انكليزية واميركية على وجه الخصوص. فلجأ البرلمان البلجيكي في ٢٠ آب ١٩٠٨ إلى نزع الصيغة الملكية الشخصية عن المستعمرة وضمها فأصبحت تعرف باسم «الكونغو البلجيكي» (زائير).

عرف الكونغو البلجيكي ازدهارًا

الملك ليوبولد الثاني (١٨٣٥-١٩٠٩).

اقتصاديًا طيلة نصف قرن (١٩٠٨-١٩٦٠) نتيجة استثمارات شركات عديدة لثرواته الطائلة (مطاط، قطن، كاكاو، أرز، نحاس، ذهب، الماس، قصدير...) خاصة إبان الحربين العالميتين الاولى والثانية وحرب كوريا. و لم ينتكس هذا الازدهار سوى فترة قصيرة إبان الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩-١٩٣٣).

أقر الاستعمار البلجيكي للبلاد إدارة غير مباشرة. وعلى رغم ذلك، كان هناك حوالي ١٠ آلاف بلجيكي في الوظائف العامة والجيش والقضاء، وحوالي ٧ آلاف رجل دين مسيحي اوروبي، وحوالي ١٠٠ ألف اوروبي كانوا يعيشون في الكونغو في ١٩٦٠. وكانت الكونغو، في نهاية الخمسينات، من البلدان الافريقية التي تتوافر فيها اليد العاملة بكثرة (حوالي ٥٠٠ ألف عامل في الثلاثينات وحوالي مليون في ١٩٥٠). ولكن العمال في الكونغو البلجيكي لم يقوموا، على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن وما كان معروفًا في غالبية البلدان، لم يقوموا بدور كبير في الاستقلال نتيجة لتمتعهم ببعض الامتيازات (وجود عمل مؤمّن وسكن وبعض الضمانات الاجتماعية...) بالمقارنة مع ابناء الريف المعدمين.

ارتسام الاستقلال: عُرف عن القبائل الكونغولية، منذ مشاهدتها الرجل الابيض على ارضها، رفضها له ولحضارته. وقد غذت هذه النزعة لديها معتقدات دينية تدعو إلى المحافظة على التقاليد والعادات.

في القرن السابع عشر، برز داعية كونغولي إسمه فرنسيسكو كسولا ادعى النبوة وبشّر بوجوب طرد الارساليات وانقاذ الثقافة السوداء، واستطاع الهرب والافلات من ملاحقة الشرطة له. واعتقدت سيدة تدعى دونا بياتريس نفسها بأنها مرسلة من الله لانقاذ مملكة الباكانغو من المستعمرين واعمالهم الهدامة، فاعتقلت وأحرقت حية في ١٧٠٦. وقد استمرت السلطات الاستعمارية بمحاربة هذه النزعات التي تعاظمت خاصة في فترة ما بين الحربين العالميتين. فقد أدعى سيمون كيمنغو بأن «الله قد زاره»، وأن عليه ان يبشر بمساواة الناس وانقاذ العرق الاسود من الاستعمار.

فاعتقل عام ١٩٢١ ومات وهو في ا لسجن في ١٩٥١. ولكن رسالته بقيت حية وحمل لواءها عدد كبير من انصاره. وبعد ١٩٣٠ كان لأتباع سيمون مبادي، مؤسس حركة «الكاكية» Kakisme أثر مهم في بث روح الانعتاق ووعي الشخصية ا لسوداء والروح القومية.

في هذه الفترة، كان الموظفون والمدرسون والمهنيون والعاملون في القطاعات الصناعية والزراعية من أكثر فئات الشعب الكونغولي حركة وفعالية في قيادتها لحركة التحرر مستفيدة من مدّ وطني بلغ ذروته ما بين ١٩٥٥ و١٩٥٩.

ففي ١٩٥٥، قام الملك بودوان ملك بلجيكا بأول زيارة ملكية للكونغو علّق عليها الوطنيون آمالاً كبيرة، ولكن هذه الآمال ما لبثت ان تحولت إلى خيبة أمل عميقة في نهاية ١٩٥٥ على أثر العداء الذي أظهره المستعمرون لـ«خطة الثلاثين سنة» التي تقدم بها فان بيلسن، والتي تقضي بتحرر الكونغو تدريجيًا وصولاً إلى الاستقلال بزيادة دور النخب المحلية في ادارة شؤون البلاد بالتعاون الوثيق مع المتروبول البلجيكي. وكنتيجة لذلك نشرت مجموعة «الضمير الافريقي» بقيادة جوزف إيليو والأب جوزف ألبير مالولا في تموز ١٩٥٦ بيانًا طالبت فيه بالاعتراف بالشخصية الافريقية. ثم أخذت المطالب تصبح سياسية بشكل واضح. فعمدت منظمة «أباكو» التي كان يتزعمها جوزف كازافوبو إلى رفض مثالية «الضمير الافريقي» ورفض خطة فان بيلسن، مطالبة بشكل صريح بالحقوق السياسية والحريات الاساسية. و«أباكو» تنظيم قبلي في أساسه ونواته شعب باكانغو الذي يسكن ليوبولدفيل ومناطق مصب النهر.

الاستقلال: الحزب الوطني الحقيقي كان «الحركة الوطنية الكونغولية» التي تزعمها باتريس لومومبا. وقد نشأت هذه الحركة في ١٩٥٨، وطمحت إلى تمثيل كل مناطق البلاد لتقفز فوق الطبقات الاجتماعية والاديان والتناقضات الاتنية. وكان هناك بالاضافة إلى هذه الحركة وإلى أباكو، عدة احزاب نشأت على قواعد اتنية أو اقليمية، منها حزب التضامن الافريقي الذي تزعمه انطوان جيزينغا، وحزب اتحاد الجمعيات الكاتنغية بزعامة موييس تشومبي. وقد فاز حزب أباكو بمقاعد عديدة في الانتخابات البلدية التي جرت في كانون الاول ١٩٥٧ وشملت أكبر سبع مدن، ما دفعه إلى زيادة مطالبه وطرحها بصورة أكثر حدة.

وعرف عام ١٩٥٨ حدثين مهمين شكلا منعطفًا تاريخيًا في الحياة السياسية الكونغولية: الاول، خطاب الجنرال ديغول في برازافيل (على الضفة الاخرى من النهر بمواجهة ليوبولدفيل) في ٢٤ آب عن استقلال المستعمرات الفرنسية. ولم يمض يومان على هذا الخطاب حتى بادر العديد من الزعماء الكونغوليين إلى رفع مذكرة تطالب بالحرية والاستقلال (لأول مرة يطرح «الاستقلال» وبشكل صريح). الثاني، مؤتمر الجامعة الافريقي في أكرا الذي دعا إليه الرئيس الغاني، نكروما، في كانون

الاول حيث مثلت الحركة الوطنية الكونغولية بلادها. وقد عاد باتريس لومومبا من هذا المؤتمر وصرّح بأن الاستقلال هو «حق اساسي للشعب الكونغولي» وليس «هدية» يقدمها المستعمرون.

في اوائل كانون الثاني ١٩٥٩ حدثت اضطرابات كبيرة في العاصمة ذهب ضحيتها ٥٠ قتيلاً وعشرات الجرحى. وبادرت السلطات البلجيكية كرد على ذلك إلى حل حزب أباكو وتوقيف قادته. ووعد الملك بودوان، في خطابه في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٩، على اثر تفاقم الاحداث، بمنح الكونغو الاستقلال.

وتزايد دور الحركة الوطنية الكونغولية في الوقت التي عصفت بها خلافات أدت إلى انشقاقها بين جناح يميني معتدل بزعامة الثلاثي: كالوندجي، إيليو وأدولا، وجناح يساري متصلب بزعامة لومومبا الذي سجن في تشرين الاول ١٩٥٩. واجتاحت الاضطرابات جميع اراضي الكونغو طيلة ١٩٥٩. وعقد اجتماع حول طاولة مستديرة في بروكسيل بين ٢٠ كانون الثاني و٢٠ شباط ١٩٦٠ لمحاولة الخروج من هذا الوضع المتفجر وبحث مشكلة الاستقلال. وضم الاجتماع زعماء الحزبين الاساسين في البلاد (أباكو الذي أعيد السماح له بالعمل، والحركة الوطنية الكونغولية) فضلاً عن بعض قادة الاحزاب الاخرى. وجرى الاتفاق على اعلان الاستقلال يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠، وعلى تحديد الخطوط العريضة للدولة العتيدة. وفي ١٩ آيار ١٩٦٠، صدر القانون الاساسي (الدستور) الذي نص على إنشاء دولة مركزية قوية كما كان يطالب بذلك باتريس لومومبا.

وكشفت نتائج الانتخابات التشريعية (أيار ١٩٦٠) عن وجود تيار انفصالي قوي وإن كانت قد أعطت مقاعد لا بأس بها للحركو الوطنية الكونغولية (٣٣ مقعدًا للحركة و١٢ لحزب أباكو، من أصل ١٣٧ مقعدًا). وهذا ما دفع بالاحزاب الوطنية إلى تشكيل جبهة اتحاد وطني. وفي ٣٠ حزيران ١٩٦٠، أعلن الملك بودوان، في ليوبولدفيل، استقلال الكونغو، وأصبح جوزف كازافوبو رئيسًا للدولة، وباتريس لومومبا رئيسًا للحكومة.

انفصال كاتنغا: لم تكد تمضي خمسة ايام فقط على اعلان الاستقلال حتى انفجرت حرب داخلية مزقت الكونغو مدة ٥ سنوات كاملة ودارت حول نقطة مركزية هي الصراع حول دولة فدرالية أو مركزية موحدة. وقد استطاع لومومبا، وحده، ان يفرض رأيه في دولة موحدة اثناء مناقشات الطاولة المستديرة السابقة الذكر (قبيل اعلان الاستقلال). ولكنه كان اضعف من ان يفرض هذا الحل داخل المجلس التشريعي.

وهكذا، ففي ١١ تموز ١٩٦٠، أعلن مويس تشومبي، بتأييد من بلجيكا، استقلال إقليم كاتنغا (شابا، في ما بعد) واستدعى قوات بلجيكية لحماية هذا الاستقلال، وطلب من بلجيكا ان تتحد معه في «شراكة اقتصادية متينة». واعتبر لومومبا ان بلجيكا

مسؤولة عن هذا الانفصال. فقطع العلاقات الدبلوماسية معها في اواسط تموز (١٩٦٠). وفي ٨ آب، انفصلت ايضًا مقاطعة كاسائي. وفي ٢٥ من الشهر نفسه اعلنت المقاطعتان (كاتنغا وكاسائي) قيام اتحاد بينهما، وبدأتا العمل لاسقاط لومومبا. وكان تشومبي، ومعه ألبير كالونجي، رئيس حكومة كاسائي، يتلقيان الدعم المالي من الشركات المنجمية الكبرى التي كانت، بالاضافة إلى ذلك، تؤمن لهما افواجًا من المرتزقة الاجانب. أما البلدان الغربية وحلفاؤها المحليون، وعلى الرغم من تناقض مصالحهم في كثير من الاحيان، فقد وقفوا صفًا واحدًا ضد لومومبا الذي تقدم بطلب مساعدة من الامم المتحدة ووجه نداء إلى الاتحاد السوفياتي، وللولايات المتحدة، طالبًا منهما الاسراع في دعمه وإنقاذ وحدة البلاد.

وفي كاتنغا، أخذت قوات الامم المتحدة تحل تدريجيًا محل القوات البلجيكية. وتضاعف اعتماد تشومبي على المرتزقة الذين عهد إليهم بتشكيل قوات عرفت باسم «الدرك الكاتنغيين» (راجع معالم تاريخية).

وفي ليوبولدفيل، ساءت العلاقات بين كازافوبو ولومومبا، إذ كان كازافوبو يحمّل لومومبا مسؤوليات تصرفات «الجيش الوطني الكونغولي» في قتاله في كاتنغا وكاسائي. فضلاً عن ان كازافوبو نفسه كان مؤيدًا للنظام الفدرالي، وهو رئيس حزب أباكو الاتحادي.

استفاد رئيس هيئة الاركان في الجيش الكونغولي، الكولونيل موبوتو، من خلافات الرجلين. فاستولى على زمام السلطة لمدة ثلاثة اشهر بادئ الامر واصدر نداء يدعو فيه «تقنيين كونغوليين واختصاصيين اجانب لانقاذ البلاد من الفوضى». وفي الواقع، كان لومومبا وحده المستهدف من هذه الحركة، إذ ما لبث كازافوبو ان عاد إلى مهماته وشكل حكومة برئاسة سيريل أدولا، في حين ألقي القبض على لومومبا. ولكن هذا الاخير تمكن من الهرب من السجن وحاول الانتقال إلى ستانلي فيل (في كاتنغا) حيث كان يسيطر أتباعه بقيادة انطوان جيزينغا. إلا انه ألقي القبض عليه من جديد، ونقل بطريق الجو إلى إليزابت فيل في ١٧ كانون الثاني ١٩٦١، حيث استلمه تشومبي ليلاقي الموت على يده في ظروف غامضة.

من الروايات الأكثر رواجًا، والتي يبدو انها الأكثر صدقية، حول اعتقال لومومبا ومقتله، ان مطاردة محمومة خلفه، بعد فراره من السجن، بدأت قبل ان يتمكن من مغادرة البلاد. وعندما حاول ان يعبر النهر متجهًا إلى زامبيا وجد موبوتو واقفًا في انتظاره كي يقبض عليه ويضعه في السجن. وكان موبوتو وكزافوبو أذكى من ان يقوما معًا بقتل لومومبا. فقررا ان يتخلصا منه بتسليمه إلى عدوه اللدود تشومبي. وهكذا قيد هذا الزعيم الوطني، مغلولاً، إلى منطقة كاتنغا. وتولى تشومبي تعذيبه بنفسه، حتى انه أسمل عينيه قبل ان يطلق عليه الرصاص في النزع الاخير. بعد ذلك أذيع سيناريو (يشبه سيناريوات كثيرة لاوضاع كثيرة) من ان لومومبا حاول الهرب إلى زامبيا وأطلق

عليه احد الحراس الرصاص، وأُظهرت إحدى السيارات المسروقة على انها كانت وسيلة لومومبا للهرب.

وكانت البلاد، وقد مرّت ٦ اشهر فقط على اعلان الاستقلال، ما تزال غارقة في فوضى دموية، وتتوزعها ثلاث سلطات: السلطة المركزية في ليوبولدفيل مدعومة من الامم المتحدة والبلدان الغربية، سلطة حكومية موالية للومومبا برئاسة انطوان جيزينغا في ستانلي فيل والمناطق الشرقية يدعمها الاتحاد السوفياتي والبلدان الافريقية التي كان يقال عنها يومها «ثورية»، وحكومة كاتنغا التي لم تكن تتمتع بأي اعتراف رسمي ولكنها مدعومة من شركات رأسمالية دولية.

حاول الزعماء المحليون التقليديون وضع نهاية لحالة الفوضى في اجتماعات عدة عقدوها بين كانون الثاني وايار ١٩٦١. ولكنهم فشلوا. إزاء ذلك، وجد الرئيس كازافوبو نفسه مضطرًا لأن يقبل بأن تضع الامم المتحدة يدها على الوضع في الكونغو (قرار مجلس الامن في ٢١ شباط ١٩٦١)، وان يشرف امينها العام داغ همرشولد على اعادة تنظيم الجيش والمالية. وفي تموز ١٩٦١، عقد نواب البرلمان المنتخب (المؤلف من مجلسين) قبيل اعلان الاستقلال جلسة اسفرت عن تشكيل حكومة برئاسة سيريل أدولا زعيم الحركة الوطنية الكونغولية-جناح كالونجي السابق، استمرت في الحكم حتى حزيران ١٩٦٤. وفي اثناء ذلك كان الجيش قد اعاد سلطته على ستانلي فيل وأوقف جيزينغا في كانون الثاني ١٩٦٢. أما مويس تشومبي المتمركز في معقله في مقاطعة كاتنغا، فقد قرر ان يقاوم قوات الامم المتحدة، واستطاع، على رأس الدرك الكاتنغيين، ان يصد هجومًا لهذه القوات. وعندما كان همرشولد في طريقه بالجو إلى روديسيا لمفاوضة تشومبي حول وقف اطلاق النار لاقى مصرعه في حادث طائرة. ومضت سنة كاملة كان أدولا ويوثانت (الذي خلف همرشولد) خلالها يفاوضان تشومبي لاعادة كاتنغا إلى الوطن الأم. وفي نهاية كانون الاول ١٩٦٢، قرر يوثانت، مدعومًا من الولايات المتحدة، ان يعيد كاتنغا بالقوة إلى الكونغو بعد ان فشل اسلوب المفاوضات. ولم يستطع تشومبي، بعد ان تخلى عنه «الاتحاد المنجمي لكاتنغا العليا» (مال وشركات)، مقاومة قوات الامم المتحدة التي استطاعت ان تضع حدًا لانفصال كاتنغا في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣.

تشومبي رئيسًا للحكومة: في اثناء ذلك، كان الاضطراب يجتاح البلاد، خاصة وان الاوضاع الاقتصادية كانت تزداد سوءًا. وعلى اثر الاعلان عن اضراب عام، في نهاية تشرين الاول ١٩٦٣، فرضت الحكومة حالة الطوارىء، وانزلت الجيش إلى شوارع ليوبولدفيل وحلّت البرلمان. وظهرت من جديد انتفاضات مناصرة للومومبا، ما لبثت ان امتدت إلى مناطق الشمال والشرق، منطلقة من كونغو برازافيل بزعامة بيار موليلي، ومن بوروندي بقيادة غاستون سوميالو. وكان لقرار الامم

المتحدة بسحب قواتها من الكونغو ان عجّل باستقالة سيريل أدولا من رئاسة الحكومة. وقبل ان يستقيل اتصل، بتأييد من رئيس هيئة اركان الجيش الجنرال موبوتو، بتشومبي الذي كان في منفاه في اسبانيا ودعاه إلى خلافته. فاستلم تشومبي السلطة في آب ١٩٦٤. ولم يستطع الجيش الوطني الكونغولي استرجاع ستانلي فيل إلا بعد تدخل المظليين البلجيكيين بحجة احتجاز الثوار لرهائن اوروبيين. وبعد هذا التدخل، تابع الجيش الكونغولي زحفه وقضى على الثوار وسيطر لأول مرة على كامل الاراضي الكونغولية بدءًا من اواخر كانون الثاني ١٩٦٥. وفي نيسان ١٩٦٥، جرت انتخابات نيابية، أراد تشومبي مواجهتها، إذ لم تأت نتائجها كما كان يشتهي، فأسس «الجمعية الوطنية الكونغولية». وهكذا استمرت الخلافات السياسية بين أهل الحكم.

موبوتو في السلطة: إزاء هذا الوضع، أقدم الرئيس كازافوبو على تنحية تشومبي من رئاسة الحكومة بشكل مفاجىء في ١٣ تشرين الاول ١٩٦٥، وعهد إلى أيفاريست كيمبا بتشكيل حكومة جديدة. وبعد فشل هذا الأخير مرتين متواليتين، تدخل قائد الجيش، موبوتو، فاقال كازافوبو، ودفع البرلمان لانتخابه رئيسًا للجمهورية وعين الكولونيل مولامبا (الذي انتصر على السيمبا-أي فرقة الاسود-في الانتفاضات المناصرة للومومبا) رئيسًا للوزراء؛ ثم علّق الدستور، وحل البرلمان، ومنع الاحزاب وحظر الاضرابات. بعد ذلك، اصدر قرارًا بتقسيم البلاد إلى ٨ محافظات بعد ان كانت ٢١ مقاطعة، واستعان بعسكريين وتقنيين في إدارة شؤون الدولة. وفي ١٩٦٧، اسس «الحركة الشعبية للثورة» فجعلها الحزب الوحيد في الدولة (في نظامها الاساسي ان كل مواطن زائيري هو عضو حكمًا فيها). ثم اعلن، في محاولة منه لكسب التأييد الشعبي، ان لومومبا هو «الشهيد الاول لاستقلالنا الاقتصادي»، وأقام له نصبًا ضخمًا في كينشاسا. وفي ٢٤ آذار ١٩٦٧، أعلن قيام «الجمهورية الكونغولية الثانية» القائمة على اساس دستور رئاسي يحصر السلطة الفعلية بشخص رئيس الجمهورية. وانتخب بموجب هذا الدستور، في تشرين الثاني ١٩٧٠، رئيسًا للجمهورية بنيله ١٠٠٪ من الاصوات. وفي ١٩٧٢، باشر سياسة «العودة إلى الاصالة»، فأطلق إسم «زائير» على الكونغو، وفرض التخلي عن الاسماء المسيحية الاوروبية، وغير إسمه من جوزف ديزيريه إلى موبوتو سيسي سيكو... (راجع «زعماء ورجال دولة»)، وهكذا بالنسبة إلى أسماء المدن.

في المجال الاقتصادي، اظهر موبوتو اعجابه بـ«المعجزة العاجية» (نسبة إلى ساحل العاج)، فأطلق في حزيران ١٩٦٩، قانونًا يشجع الاستثمارات الاجنبية. إلا انه، بعد الهبوط الكبير الذي طرأ على اسعار النحاس منذ الأشهر الاولى من ١٩٧١، وبعد زيارة قام بها إلى الصين في شباط ١٩٧٣، عمد إلى تأميم مشاريع وشركات عدة. فأصبح نحو ٦٠٪ من الاقتصاد تحت

إشـراف الدولـة في اواخـر ١٩٧٤. ولكنـه، بعـد مـرور سـنتين (اي في ١٩٧٦) عـاد وانقلـب علـى سياسـته الاقتصاديـة واعـاد النسبة المؤممة إلى اصحابها، واعلـن المباشـرة بسياسة «موازنة الحرب» لمواجهة المصاعب المالية والاقتصاديـة، الـذي كـان تبذيـره الشخصي (لم ينشر موازنة الدولة، وما تزال هذه الموازنة لا تعلن ولا تنشر حتـى اليـوم-١٩٩٦) السـبب الرئيسـي لهـا، وأبـدل في بدايـة ١٩٧٧، السياسـيين مـن مسـاعديه بتقنيين. وزادت الحرب في أنغولا من تفـاقم هـذا الوضـع، إذ لم يعـد بالامكـان شـحن النحاس إلى مرفـأ لوبيتـو الأنغـولي لتصديـره خاصة وان نظام موبوتو كان قد وقف منـذ البدايـة موقفًـا معاديًـا للحركـة الشـعبية الأنغولية التي استأثرت بالحكم في انغولا.

وفي نيسـان ١٩٧٧، كـان علـى موبوتو ان يواجه ازمة داخلية خطيرة حين استطاع المتمردون (بقايا الدرك الكاتنغيين)، الذيـن قيـل إنهـم كـانوا ينقلـون الدعـم والتدريب من أنغولا، من الدخول إلى شـابا (كاتنغـا سـابقًا). وبفضـل تدخـل فـرق عسكرية مغربية، ونقلها على جناح السـرعة بواسطة طائرات ترانسال الفرنسية، وبفضـل إرسـال عـدد مـن الخـبراء والعسـكريين والطيارين المصريين، توصل موبوتو إلى قمـع الاضطرابـات في تلـك المقاطعـة. وفي ايـار ١٩٧٨، حدث تمرد جديد في هذه المقاطعـة كاد ان يطيح نظـام موبوتـو لـولا ان نزلـت فرق عسكرية فرنسية وبلجيكيـة واسـتردتها من ايـدي المتمرديـن مـن الـدرك الكـاتنغيين السابقين الذين انطلقـوا مـن انغـولا. وعلـى الرغم مـن كـل هـذا الدعـم الاجنبي، بقـي موبوتـو عـاجزًا عـن تهدئـة الاوضـاع في البلاد. وفي شباط ١٩٧٩، ارسلت بلجيكـا ٢٥٠ مظليًا لمساعدة قوات موبوتـو. وفي ٨ شباط ١٩٨٠، تمّ في كينشاسا (في خطـوة داعمة كبرى لنظام موبوتو رغـم مـا كـانت تتناقلـه الاوسـاط السياسـية والاعلاميـة في العالم عن فساد هذا النظام وضعفه) التوقيـع على اتفاقية التعـاون العسـكري والفـني بـين زائـير ومصـر. وتشـمل الاتفاقيـة تبـادل الخبرات وتدريب العسـكريين. وجميـع هـذه الخطـوات الداعمـة جـاءت عقـب محاولـة إنقلابيـة (في كـانون الاول ١٩٧٩) دفعـت موبوتو لاغلاق حدود زائـير واعـدام بعـض العسكريين.

كرونولوجيا أهم أحداث ١٩٨١-١٩٩٦: في ٧ و٨ تشـرين الاول ١٩٨١، أجرى موبوتو تعديلات حكومية مبقيًا علـى رئيـس الحكومـة نسينغا أودجـو. وقدمـت اللجنـة التنفيذيـة للحـزب الوحيـد الحـاكم (حركة الثورة الشعبية) استقالتها عقب قرار اللجنـة المركزيـة للحـزب دمـج صلاحيـات رئيـس الحكومـة وصلاحيـات السـكرتير التنفيذي للحزب.

في ٢٤ ايـار ١٩٨٢، قـررت زائـير اعـادة علاقاتهـا الدبلوماسية مـع اسـرائيل، وكـانت هـذه العلاقـات مقطوعـة منـذ ١٩٧٣. فكانت الدولة الافريقية الاولى الـتي تعيد هذه العلاقات مع اسرائيل. وبعد ايـام، قطعت العربية السعودية علاقاتها بزائير، ثـم تبعتهـا قطـر، ثـم ليبيـا، ثـم الكويـت

والامارات؛ واستدعت الجزائر سفيرها من كينشاسا، وطلب العراق وقف مساعدات الاوبك لها. ووصلت العلاقات بين زائير واسرائيل، وبسرعة (اوائل ١٩٨٣) إلى حد التعاون العسكري والامني.

في نيسان وايلول ١٩٨٤، قام موبوتو بزيارتين لباريس. هدفت الاولى اساسًا إلى زيادة المعونات الفرنسية لدعم اقتصاد البلاد، وكانت الثانية لاجراء محادثات مع الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران حول الاتفاق بين فرنسا وليبيا على سحب قواتهما من التشاد، علمًا انه كان هناك قوات زائيرية في التشاد لدعم حكومة حبري. وفي أول كانون الاول ١٩٨٤، زار ميتران زائير.

في كانون الثاني ١٩٨٩، ألغت زائير «الاتفاقات الجائرة» التي تربطها ببلجيكا، وطلبت إعادة فتح ملف نزاعها القضائي مع بلجيكا. وفي ٢٦ تموز ١٩٨٩، توصل البلدان، زائير وبلجيكا، إلى إلغاء ١١ مليار فرنك بلجيكي من الديون المترتبة على زائير، وإلى إعادة التعاون بينهما.

في ٢٦ نيسان ١٩٩٠، قررت الحكومة الزائيرية إلغاء نظام حكم الحزب الواحد، وسمحت بقيام ثلاثة احزاب جديدة. وكلف لوندا بولولو تأليف حكومة انتقالية. وفي ١١ و١٢ ايار، اغتيل عدد من المعارضين في مدينة لوبومباشي. وفي ٢٢ حزيران، تم طرد ٧٠٠ بلجيكي كانوا يشاركون كمستشارين وموظفين في إدارة البلاد. وفي ١٨ كانون الاول، أعيد النظر في قانون الاحزاب وسُمح بتعددها.

في ٩ نيسان ١٩٩١، عين مولومبا لوكوجي رئيسًا للوزراء، وأعقب ذلك، بعد ايام قليلة، اندلاع تظاهرات في مبوجي مايي (٤٢ قتيلاً)، وفي ايلول، اضطرابات سبقها انعقاد مؤتمر وطني (١١٧ قتيلاً حصيلة هذه الاضطرابات) واعقبها تدخل عسكري فرنسي وبلجيكي. وفي اول تشرين الاول، عين إتيان تشيسيكيدي (مولود ١٩٣٢) رئيسًا للوزراء، وبعد أقل من اسبوعين أقيل وسط اجواء اضطرابات في لولومباشي (١٠ قتلى)، وعين مكانه مونغول دياكا (مولود ١٩٣٣)، وانتقلت الاضطرابات إلى كينشاسا. وفي ٣-٤تشرين ا لثاني، غادرت الفرق العسكرية الفرنسية والبلجيكية البلاد. وفي ٢٥ من الشهر ذاته، تشكلت حكومة جديدة برئاسة نغوز كارل إي بوند.

في كانون الثاني ١٩٩٢، عقد مؤتمر وطني، وفي ٢٢-٢٣ منه جرت محاولة انقلابية. في ١٦ شباط، أطلق الجيش الزائيري النار على المتظاهرين واوقع ١٣ قتيلاً. في ٢١ نيسان، انتخب المؤتمر المونسنيور لوران موسنغوو رئيسًا له. في ١٤ آب، عاد تشيسيكيدي رئيسًا للحكومة، وسط معارك في مقاطعتي شابا وكاسائي امتدت إلى ايلول. وفي كانون الاول، استقال رئيس الحكومة، واعلن المجلس الاعلى للجمهورية (٤٥٣ عضوًا) انه يحل محل البرلمان في رقابته على الرئيس والحكومة، وانتخب المونسينيو موسنغوو رئيسًا له، واندلعت تظاهرات دموية في كينشاسا.

في ١٥ كانون الثاني ١٩٩٣، وجه

المجلس الاعلى للجمهورية اتهامًا بالخيانة العظمى ضد الرئيس موبوتو، واندلعت اضطرابات في كينشاسا حصدت نحو ألف قتيل (وقتل سفير فرنسا فيليب برنار وأحد مساعديه في السفارة)، وأجلي عن البلاد نحو ١٣٠٠ أجنبي. وفي ٥ شباط، عزل تشيسيكيدي، وعين موبوتو مكانه فوستن بيريندوا (مولود ١٩٤٣) رئيسًا للحكومة، لكن المجلس الاعلى رفض أعطاءه الثقة، كل ذلك وسط تصاعد الاضطرابات الدموية (خاصة في كينشاسا وكيفو حيث سقط أكثر من ألفي قتيل) وتزايد الحديث عن فساد النظام (قدرت ثروة موبوتو بنحو ٣،٥ مليار دولار، وبلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة بحثت في إمكان تجميد ارصدته)، ورفض حكومة تشيسيكيدي الاعتراف بحكومة بيريندوا التي عينها موبوتو. وحضّ تشيسيكيدي، رئيس الحكومة الانتقالية وزعيم المعارضة، المجتمع الدولي على ارسال قوات إلى بلاده للحفاظ على الأمن.

في ١٨ شباط ١٩٩٣، جرى اضراب عام شل كل حركة في كينشاسا، ودعا إليه «الاتحاد المقدس» الذي يضم التنظيمات المعارضة الرئيسية. وكان البرلمان الموقت المعروف بـ«المجلس الاعلى للجمهورية» والذي تسيطر عليه المعارضة أعاد اتهامه موبوتو مرة جديدة بالخيانة العظمى. وفي اليوم ذاته، كان موبوتو عاد من زيارة خاصة للمغرب استمرت ثلاثة ايام. وبعد يومين، عاد إلى فرنسا «في زيارة خاصة قصيرة». وكان الجيش (الموالي لموبوتو) بدأ محاصرته، قبل ايام، لمبنى ا لمجلس الاعلى للجمهورية لاجبار النواب على اقرار استخدام اوراق العملة من فئة خمسة ملايين زائير (تساوي الواحدة، أي كل ورقة من فئة خمسة ملايين زائير، أقل من دولارين). وتحت الضغوط الدولية اضطر موبوتو لفك الحصار (٢٧ شباط ١٩٩٣).

في ١٧ آذار ١٩٩٣، أكد موبوتو مرة جديدة قراره إقصاء إتيان تشيسيكيدي من رئاسة الوزراء، وتعين فوستن بيريندوا مكانه. وكرر تشيسيكيدي رفضه هذا التعيين مدعومًا من المعارضة، وأعلن تشكيل حكومة جديدة في ٩ نيسان. وهكذا أصبح لزائير رئيسان متنافسان للوزراء.

بعد بيريندوا، أعيد تعيين نغوز كارل إي بوند، الرجل القوي في شابا، رئيسًا للوزراء، لكن المؤتمر الوطني عزله من منصبه (ايلول ١٩٩٤)، فعمل على قيادة المعارضة في شابا ضد العاصمة كينشاسا.

في آب ١٩٩٥، وما إن خف الهلع من فيروس إيبولا القاتل الذي انطلق من مدينة كيكويت (راجع باب مدن ومعالم)، حتى بدأت مسألة اللاجئين إلى زائير من رواندا وبوروندي، مع ترحيل الجيش الزائيري لنحو ٦٠ ألف لاجيء، تطرح مشكلات أمنية خطيرة وحوادث دموية امتدت طيلة سنة ١٩٩٦، ومعها تزايد الحديث عن واقع انهيار السلطة ا لمركزية في كينشاسا، وفي الوقت نفسه، عن ارتقاب تفكك زائير وارتسام خريطة جديدة في منطقة البحيرات الكبرى (راجع ا لباب التالي: «الصراع الاتني في زائير»).

الصراع الآتي في زائير

مشـكلة اللاجئـين: بـدأت هـذه المشـكلة عقـب اسـتقلال زائـير (١٩٦٠) مباشـرة. إذ توافـد اللاجئـون مـن الـدول المجاورة بسـبب المشـكلات السياسية فيهـا. وكـانت الموجـة الاولى جـاءت مـن أنغـولا بسـبب الصـراع بـين حركـات التحـرر الانغوليـة والقـوات البرتغاليـة. واسـتمرت موجـات اللجوء حتى قدر عـدد الانغوليـين، في ١٩٩٥، بأكثر من مليـون ونصـف. أمـا اللاجئون من رواندا، وهـم سـبب المشـكلة الحاليـة في شـرقي زائـير، فموجتهـم الاولى كانت في ١٩٥٩ عندما قرر البلجيك إجراء انتخابات عامة في رواندا اسفرت عـن فـوز الاغلبيـة السـاحقة مـن الهوتـو وتهميـش التوتسي (راجع «روانـدا» في هـذا الجـزء)؛ وقد ترتب على ذلـك فـرار ١٢٠ ألفًـا مـن التوتسـي مـن روانـدا بـين ١٩٥٩ و١٩٦١ ذهب بعضهم إلى كيفو شرقي زائير المجـاورة فـانضموا إلى آلاف الروانديـين الآخريـن المقيمين في المنطقـة نفسـها منـذ العشـرينات والثلاثينـات حيـث كـانت روانـدا وزائـير تخضـع للمستعمر ذاتـه. وكـان ان وقعـت صدامـات بـين السـكان المحليـين والقـادمين الغرباء خاصة في ظـل نـدرة المـوارد وتلقـي اللاجئين الغرباء معونات المنظمات الانسانية الدولية. وكانت هذه المنظمات شرعت عام ١٩٦٣ في تنفيـذ برنـامج لتنميـة المنـاطق اللاجئين ومناطق السـكان المحليـين. ولكـن هذا البرنامج توقف في ١٩٦٤ بسبب لجـوء بعـض اللاجئـين الروانديـين إلى تسـليح أنفسـهم والاسـتعداد للعـودة إلى روانـدا. وكان هـذا رافـد مهـم مـن روافـد الحركـة الوطنية الرواندية التي استولت علـى السـلطة في كيغالي في ١٩٩٤.

وفي تمـوز ١٩٦٧، احتلـت وحـدة متمردة من الجيش الزائيري منطقـة بوكـافو، ففرّ اللاجئون الروانديون، وتوقف مشـروع التنميـة مـرة أخـرى. وفي ايـار ١٩٧٣، فـرّ ١٧٠ ألفًا من بوروندي بسبب الاحـداث العرقيـة، استقر ٣٠ ألفًـا منهـم في كيفـو (شرقي زائير). وفي ١٩٧٨، عـاد إلى زائـير بعد العفو العام ما يزيد عـن ١٥٠ ألفًـا مـن الزائيريين الفارين إلى الخارج ضمن مشـروع دولي كلفتـه حـوالي بليـون ونصـف بليـون دولار، توجه نصفهم إلى منطقة كيفـو. وفي ١٩٧٩-١٩٨٠ توافـد علـى شمـال شـرقي زائير (في منطقة كيفو ايضًا) نحـو ٥٧ ألـف لاجىء أوغندي بسبب احداث ذلـك العـام في اوغنـدا والصـراع بـين تنزانيـا وأوغنـدا والاطاحة بعيدي أمين.

واضطـرت احـداث ١٩٨٢ في زائـير اعدادًا من لاجئـي روانـدا في شـرقي زائـير، خاصة في محافظة مبارارا، إلى الـنزوح مجـددًا حيـث عـاد منهـم إلى روانـدا نحـو ٤٠ ألفًـا بينما ذهبت اعداد أخـرى إلى أوغنـدا لتبـدأ مرحلـة العـودة الطويلـة قتـالاً في ١٩٩٤ (راجع «رواندا» في هذا الجزء).

موجة اللاجئين الحاليـة: هـي موجـة قبائل الهوتو من بورونـدي الـتي وصلـت إلى المنـطقـة الزائيرية ذاتـهـا (منطقة كيفو

أحد عناوين المأساة الافريقية.

الحدودية) بعد محاولة انقلاب ١٩٩٣ عقب مذابح عرقية مروعة. ثم كانت الموجة الكبرى الثالثة من لاجئي قبائل الهوتو من رواندا إلى كيفو ايضًا حيث وفد أكثر من مليونين بمن فيهم جيش رواندا السابق بعد استيلاء الجبهة الوطنية الرواندية (التوتسي) على السلطة في كيغالي في تموز ١٩٩٤، وهو ما أدّى إلى انعكاسات على بوروندي ونزوح عشرات الآلاف منها إلى شرقي زائير ايضًا.

تجمّع عناصر المشكلة: هكذا تجمعت في شرقي زائير عناصر المشكلة كافة من رواندا وبوروندي: عدد قليل نسبيًا من التوتسي المندمجين والمستقرين في مواجهة أكثر من مليونين من الهوتو من رواندا وبوروندي. فقد أصبح هناك «دولة» كاملة من اللاجئين على ارض اجنبية، نقلت الصراع بين ابنائها من رواندا وبوروندي إلى اقليم كيفو الزائيري المكتظ بالسكان اصلاً. وقد كان من النتائج المباشرة لهذا النزوح الكثيف تدمير المزارع الفردية للسكان المحليين والقضاء على غابة الاقليم، وهي واحدة من اقدم غابات الكرة الارضية؛ وبالاضافة إلى ذلك اختل التوازن السكاني للاقليم الذي، مثله مثل كل منطقة حدودية، كان يضم خليطًا من اقوام واتنيات شتى.

واستمر المجتمع الدولي ينظر إلى مشكلة اللاجئين من منظور إنساني. فاجتهد في توفير مواد الاغاثة والتوطين في منطقة تحولت تدريجيًا، ومنذ مدة، عن سيطرة حكومة كينشاسا، خاصة بعد نشأة مجموعات ثوار الهوتو الذين يقومون بعمليات عسكرية ضد كل من رواندا وبوروندي، ما أساء إلى العلاقات بين زائير وكل منهما.

المجازر تتكرر: هكذا راحت تتكرر في إقليم كيفو الزائيري الحدودي مشاهد «الرعب الافريقي» التي كان شهدها الجانب الآخر من الحدود (في بوروندي ورواندا). وسرعان ما امتدت عمليات الابادة الجماعية إلى الشطر الجنوبي من الاقليم حيث تعيش منذ نهاية القرن الثامن عشر عشائر من الرعيان التوتسي ممن يحوزون الجنسية الزائيرية. ففي آب ١٩٩٦، قدم حاكم إقليم كيفو الجنوبي برفقة عدد من العسكريين إلى «الاراضي العالية» التي يقيم فيها الرعاة التوتسي ليحرّض السكان المحليين على استئصال شأفتهم. لكن هؤلاء الرعاة، الأقوياء بجنسيتهم الزائيرية، نظّموا أنفسهم وواجهوا الجيش الزائيري وكبدوه خسائر ومنعوه من الاستيلاء على اراضيهم التي كان أعلن عن «تأميمها» بهدف اعادتها إلى السكان الزائيريين «القوميين». وما لبثت ان انضمت إليهم كتائب من التوتسي الزائريين الذين كانوا حاربوا في صفوف «الجبهة الوطنية الروائدية» وكسبوا خبرة قتالية عالية. وإزاء الانتصارات التي حققها توتسي الاراضي العالية، دب الرعب، مرة أخرى، في صفوف النازحين الهوتو وشرعوا بمئات الآلاف بالنزوح عن مدينة غوما الواقعة في مرمى المدفعية

الروانديـة في الجـانب الآخـر مـن الحـدود. وأخـذت هـذه الكتلـة البشـرية الهائلـة مـن الهوتو تهيم على غير هـدى بـلا أي مـوارد من طعام أو مـاء وتجـد نفسـها بـين نـارين: قـوات المتمرديـن التوتسـي الذيـن يريـدون طردها في عملية تطهير إتني مضاد، وقـوات الجيش الزائيري النظامي الـذي يريـد صدهـا ومنعها من التقدم إلى داخل البلاد.

أهـم أحـداث الصـراع في تشـرين الاول-كـانون الاول ١٩٩٦: في ١١ تشرين الاول، وبصـورة متزامنـة مـع جولـة افريقيـة لوزيـر الخارجيـة الامـيركي وارن كريستوفر، حذر تقرير اعدته الامم المتحـدة مـن انفجـار العنـف في زائـير في حـال لم تتدخل الاسرة الدولية لوضع حـد للمجـازر بين الاتنيات التي «أوقعت حتـى الآن آلاف القتلى بمشـاركة الـدول وتشـجيع منهـا». وأكد المقرر الخاص للجنـة حقـوق الانسـان في الامم المتحدة، روبيرتو غاروتون في تقرير حول الوضع في شرقي زائير: «في حال أدى الوضع السياسي في زائـير إلى تفجـر العنـف فإن العواقب سـتكون أخطـر ممـا حصـل في روانـدا أو بوروـنـدي». وحمّـل غـاروتون السلطات الزائيرية مسؤولية هـذه الاحـداث «لمشـاركتها المباشـرة في هـذه الانتهاكـات وتشجيعها وعدم بذل جهود كافية لمنعها أو وضع حد لها».

ولم يمض اسبوع واحـد علـى هـذا الاعـلان الـدولي حتـى نشـبت بـين الجنـود الزائيريين وقبائل التوتسي معارك حول قريـة كيليبا الشرقية في زائير. فانتاب الذعر قبـائل الهوتو، فهرب منهم نحو ١٠٠ ألف لاجىء، وكانوا يقيمون في منطقة أوفيرا التي شهدت منذ بداية ايلول (أي قبل نحو شهر ونصـف) اشتباكات بين الجيـش الزائـيري وعصابـات مسلحة مـن التوتسـي. وغـادر الاجـانب المنطقـة. وبعـد يومـين مـن المعـارك، سـيطر التوتسـي علـى أوفـيرا، ورافـق ذلـك أكـبر عمليـة نـزوح للاجئـين مـن المخيمـات الروانديـة حـول مدينـة غومـا عاصمـة اقليـم شمـالي كيفـو. كـل ذلـك في إطـار مسـعى معـروف للتوتسـي الذيـن يهيمنـون علـى الجيش في بوروندي ورواندا وهو الانفصـال في شرقي زائـير مستفيدين مـن المسـاعدة العسكرية التي يقدمها لهم البلدان (بورونـدي ورواندا). وللمرة الاولى، منذ تفجر الحـرب العرقية في شرقي زائير (اوائـل تشـرين الاول ١٩٩٦) تبـادل الجنـود الزائـيريون والروانديـون، في ٣٠ تشـرين الاول، النـار عبر النهر الـذي يفصـل بـين البلديـن لـتزداد حالة الفوضى التي دفعـت، خـلال اقـل مـن شهر واحد، نصف مليون لاجىء من رواندا وبورونـدي إلى النزوح عـن مخيمـات علـى الحدود الزائيرية.

في اول تشرين الثاني سيطر التوتسـي على مطار مدينة غوما وعلى مدينة بوكافـا، ونقـل علـى لسـان دبلوماسـيين ان قـوات رواندية دخلت الاراضي الزائيرية وشوهدت في مدينة غوما. وقام متظاهرون في العاصمة كينشاسـا بتحطيـم ممتلكـات التوتسـي. وحـذرت الولايـات المتحـدة روانـدا مـن اجتيـاح زائـير عسـكريًا، لكنهـا لم تنـف اتهامها بدعم التوتسي عسكريًا، في حين

«مسرح دائري، تراجيدي، عبثي». مكانه منطقة كيفو الزائيرية الحدودية، وزمانه تشرين الاول – تشرين الثاني ١٩٩٦.
مئات الآلاف من «الانسان» يعيشون على «ارض اقتصادية مهمة»
وينزحون يلجأون، يتيهون، يموتون... ومساعدات انسانية تُلقى من الجو على الباقين احياء.

استمرت اوروبا مهتمة باغاثة اللاجئين، مع اقتراح قدمته فرنسا واسبانيا والمانيا وبريطانيا يقضي بانشاء قوة دولية لمعالجة الوضع في شرقي زائير. وأبدت جنوب افريقيا استعدادها للمشاركة في هذه القوة. وقد وافقت زائير على المبادرة الفرنسية لنشر قوة متعددة الجنسيات فوق أرضها.

في ٩ تشرين الثاني، تبنى مجلس الامن قرارًا بالاجماع (رقم ١٠٨٠) دعا فيه الدول الاعضاء في الامم المتحدة التي ترغب في المشاركة في القوة إلى «اعداد الاجراءات اللازمة بسرعة» لضمان عودة المنظمات الانسانية فورًا ونقل المساعدات إلى المدنيين المعرضين للخطر. وطلب المجلس من «الدول الاعضاء المعنية» ان تقدم له «في اقرب وقت ممكن» تقريرًا عن هذه الترتيبات عن طريق الامين العام بطرس غالي «حتى يتاح له السماح بنشر القوة المتعددة الجنسيات». ولم يحدد موعد لانتشار القوات. لكن الجانب الفرنسي اعتبر ان القرار الذي اتخذه المجلس يشكل «مرحلة عملانية من اجل اتخاذ قرار الانتشار». وكانت فرنسا مارست ضغوطًا لاصدار هذا القرار لكن الدول الاربع الاخرى المتمتعة بعضوية دائمة في المجلس (الولايات المتحدة وبريطانيا والصين وروسيا) استمرت في طرح اسئلة والتعبير عن تحفظات على المفهوم الفرنسي للتدخل. وفي ٥ تشرين الثاني، وبعد عشرة ايام من الانتخابات الاميركية، التزم الرئيس الاميركي بيل كلينتون «المشاركة في اعمال الاغاثة في زائير في إطار قوة متعددة الجنسيات»؛ وفي ١٢ تشرين الثاني، أعربت كندا عن رغبتها في قيادة هذه القوات. وفي اليوم التالي، ارسلت واشنطن بعثة عسكرية لتقويم الوضع في المنطقة (شرقي زائير)؛ وفي اليوم نفسه، ركز بطرس غالي في كلمته (في القمة العالمية للاغذية في روما) على الوضع في زائير «حيث يسير مليون شخص في الادغال على غير هدى ودون أي عون».

في ١٦ تشرين الثاني، اجاز مجلس الامن للدول المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات المقرر ارسالها إلى شرقي زائير «استخدام كل الوسائل الضرورية» لبلوغ الاهداف الانسانية المتمثلة في ايصال المعونة للاجئين. وباشر المتمردون التوتسي على الفور بذل ما في وسعهم لتسهيل عودة اللاجئين إلى رواندا وذلك لقطع الطريق على قوة التدخل الدولية. فاستأنف آلاف اللاجئين الروانديين هجرتهم المعاكسة من مخيمات شرقي زائير عائدين إلى رواندا التي بدت غير مقسمة لتسهيل الحل الدولي لهذه المشكلة.

وفي الوقت نفسه، تناقلت وسائل لاعلام أنباء عن ان اسرائيل زودت جيشي رواندا وبوروندي اسلحة من دون مقابل في محاولة لتغلغلها في منطقة البحيرات العظمى القريبة من منابع النيل. وعلى الفور، اعلن (٢٠ تشرين الثاني) القائد العسكري التوتسي، بيتر كسازي، استئناف الهجمات ضد الجيش الزائيري، فيما أخذت مصر تتهم اسرائيل بتحريك الخلافات العرقية والمذهبية وتعتبر ذلك «مساسًا بالامن القومي العربي والمصري»، وتعمل على التنسيق بينها وبين فرنسا والدول الافريقية

من اجل مشاركة مصر في القوات الدولية المقرر ارسالها إلى شرقي زائير.

وبعد احتجاجات، من دول عديدة ومن زائير، على المماطلة في تشكيل القوة الدولية وارسالها إلى شرقي زائير اعلن في ٣٠ تشرين الثاني وفي كندا (أوتاوا) عن تشكيل «القوة الدولية ذات الاهداف الانسانية» بمبادرة من كندا، وتم إقرار الآلية المتعددة الاطراف، وتحديد مقرها العام وهو عنتيبي (في أوغندا) بقيادة الجنرال الكندي موريس باريل. في غضون ذلك اعلن متمردو الهوتو تصعيد حملتهم المسلحة في بوروندي حيث دارت معارك عنيفة في مناطق عدة بينهم وبين اقلية التوتسي الحاكمة. كما اعلن في زائير ان القوات الاوغندية التي دخلت اراضي زائير من مركز كاسيندي الحدودي احتلت (أول كانون الاول) مدينة بيني في منطقة كيفو الشمالية، واحتجت زائير على قرار القوة المتعددة الجنسيات اقامة مقر قيادتها في العاصمة الاوغندية التي تتهمها كينشاسا بمساندة المتمردين الزائيريين من قبائل التوتسي الذين يسيطرون على قسم من مقاطعة كيفو.

في ٤ كانون الاول، حقق المتمردون التوتسي في شرقي زائير انتصارًا سياسيًا كبيرًا منحهم إياه الجنرال الكندي موريس باريل قائد القوات الدولية المفترض ان تتدخل عسكريًا لتأمين عودة اللاجئين الهوتو إلى بلادهم. وتجسد هذا الانتصار في الزيارة التي قام بها باريل إلى غوما للاجتماع مع قادة المتمردين بعد التهديدات التي اطلقها هؤلاء ضد القوات الدولية في حال اقتربت من المواقع التي يسيطرون عليها. وكرّس اعلان الجنرال الكندي عزمه على اشراك المتمردين التوتسي في الخطة المعدة لايصال المساعدات الانسانية إلى اللاجئين، اعترافًا بسلطة هؤلاء في شرقي زائير. فجرى اعتقاد ان ما قام به باريل يأتي في اطار سلسلة الخطوات التي تنفذها سلطات رواندا وبوروندي في بسط سيطرة الاقلية التوتسية الحاكمة في البلدين على جزء من الاراضي الزائيرية، ما يؤدي إلى احكام قبضة التوتسي على زمام الامور في رواندا وبوروندي.

وانقضى النصف الاول من كانون الاول من دون ان تتمكن القوة المتعددة الجنسيات من الانتشار في شرقي زائير، واقتصرت اعمالها على إسقاط الاغذية للاجئين من الجو، فيما كان قادة التوتسي المتمردون في المنطقة (شرقي زائير) يعلنون عن انضمام عسكريين زائيريين إلى قواتهم التي تسعى إلى إطاحة النظام الحاكم في كينشاسا برئاسة موبوتو. وفي ١٤ كانون الاول، أعلن على لسان دبلوماسيين في الامم المتحدة في ختام اجتماع للجنة قيادة القوة المتعددة الجنسيات من اجل التدخل الانساني في شرقي زائير ان مهمة هذه القوة ستلغى آخر هذا الشهر (كانون الاول ١٩٩٦). وكان مجلس الامن الدولي وافق في ١٥ تشرين الثاني (١٩٩٦) على ارسال قوة كان يفترض ان تضم اصلاً عشرة آلاف رجل وان تتابع عمليات المساعدة الانسانية للاجئين شرقي زائير حتى نهاية آذار ١٩٩٧.

في ١٧ كانون الاول ١٩٩٦، وجه زعماء قمة نيروبي، عاصمة كينيا، التي دعا إليها الرئيس الكيني أراب موا وشارك فيها مانديلا (جنوب افريقيا) وموغابي (زيمبابوي) وأفورقي (أريتريا) وبنيامين مكابا (تنزانيا) وباستور بيزيمونغو (رواندا) وفريدريك شيلوبا (زامبيا) ويويري موسيفيني (أوغندا)، نداء دعوا فيه طرفي الصراع، أي قوات الجيش الزائيري وثوار التوتسي الالتزام بمبدأ التفاوض من اجل التوصل إلى تسوية للصراع الدائر في شرقي زائير، كما تكفّلوا اتخاذ المبادرات الكفيلة بحل الازمة في منطقة البحيرات العظمى.

وفي اليوم نفسه (١٧ كانون الاول)، عاد إلى كينشاسا الرئيس موبوتو بعد غياب أربعة أشهر امضاها في اوروبا للعلاج من مرض سرطاني، شهدت البلاد خلالها تمرد التوتسي. وفي اليوم التالي، عيّن موبوتو رئيسًا جديدًا لهيئة اركان الجيش هو الجنرال ماهيل يوكونجو ليكو. وكان ماهيل أحمد تمردًا قام به زعيم الثوار لوران كابيلا في العام ١٩٨٤، وساعد في محاربة التوتسي الذين تحدوا رئيس رواندا الراحل الذي ينتمي إلى الهوتو جوفينال هابياريمانا في ١٩٩٠. وفي ١٩٩٣، عزله موبوتو لأنه كان يحظى بشعبية كبيرة في اوساط الجنود والشعب، ولأنه دعا إلى إجراء تغييرات اثناء مؤتمر بشأن التغيير الديمقراطي. واعتبر تعيينه من جديد، اليوم، مؤشرًا على رغبة موبوتو في اعادة تنظيم الجيش الزائيري وتحضيره لقمع ثورة التوتسي.

مناقشة (١) كيف بدأت الاحداث؟: عبد الله الأشعل، دبلوماسي مصري خبير في شؤون افريقيا، نشرت له «الحياة» (٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٦) مقالاً ذكر فيه ان ليس هناك من خلاف بين المراقبين على تشخيص احداث شرقي زائير (إقليم كيفو) الاخيرة. لكن الخلاف يبدأ فيما بعد ذلك بين المراقبين والدول المعنية على السواء حول كيفية بدء هذه الاحداث. ويمكن ان نسجل، يقول الكاتب، في هذا الصدد ثلاث نظريات:

النظرية الاولى وتذهب إلى ان تحول اللاجئين في شرقي زائير من حياة المخيمات إلى حياة المعسكرات والاجرام قد أدّى إلى اغاراتهم على التوتسي المتوطنين في المنطقة، وعجز السلطات الزائيرية عن ردهم على رغم مطالبات جماعات التوتسي بوصفهم مواطنين من زائير، وعن حمايتهم من بطش اللاجئين. وهذا هو السبب الذي دفع زائير إلى المطالبة في مناسبات متعددة برحيل هؤلاء اللاجئين الذين اقتطعوا بالفعل اقليم شرقي زائير وشلّوا يد السلطات عن ادارته والسيطرة عليه. ووفق هذه النظرية فان اطراف الازمة هم ثوار زائير ضد لاجئي الهوتو ما دام جيش زائير عاجزًا عن ردهم، وما دام المجتمع الدولي يقوم بدعمهم كلاجئين.

النظرية الثانية تؤكد ان لاجئي رواندا المعروفين باسم بانيامولنج Banyamulenge ليس لهم وجود، وان الاسم يعود للمنطقة الواقعة في شرقي زائير، وان سلطات رواندا قامت بتشجيع هؤلاء اللاجئين وتسليحهم

القائد العسكري لمتمردي التوتسي بيتر كسازي لدى وصوله الى غوما عاصمة كيفو (٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٦).

للثورة على محاولات الهوتو الاستقرار في دولة لهم على الحدود بين زائير وكل من رواندا وبوروندي، وان هذه الثورة المفاجئة المدفوعة من رواندا، وربما من بوروندي تحقق للبلدين مصلحة كبرى وهي تشتيت الجماعات المسلحة التي تهدد البلدين، وتبدبد أمل الهوتو في إقامة دولة في زائير ينقضون منها للانتقام من توتسي رواندا وبوروندي. وعند اصحاب هذه النظرية فإن طرفي الازمة هما رواندا وزائير. ولذلك فهي مشكلة دولية ضحيتها اللاجئون الذين يجب ان تتجه اليهم الجهود الدولية لحمايتهم واعادتهم إلى مخيماتهم واستئناف اغاثتهم.

أما النظرية الثالثة فترى ان الصراع اجتماعي سببه تنامي القوى الاجنبية في زائير على حساب السكان المحليين في مواجهة ضعف السلطات المركزية في العاصمة.

ولذلك فالحل يكمن في البحث عن تسوية نهائية لمشكلة زائير نفسها ما دام هذا الصراع أحد اعراض ضعف الدولة في زائير، وذلك حتى تتمكن من السيطرة على كل المقيمين على اراضيها سواء اندمجوا في سكانها، أو ظلوا ضيوفاً تحت رعاية دولية في إطار القانون الدولي للجوء الذي يؤدي الالتزام به إلى صيانة استقلال زائير ووحدة اراضيها.

مناقشة (٢) نزاع فرنسي اميركي حول البحيرات الكبرى: من مقال كتبه محمد بلوط («الوسط»، العدد ٢٥٣، تاريخ ٢ كانون الاول ١٩٩٦، ص ٢٦-٢٩):

عندما راودت تشي غيفارا فكرة زرع بؤرة ثورية في مقاطعة كيفو ا لزائيرية، على حافة الغابات الاستوائية العذراء في

منتصف الستينات، لم يستطع تنفيذ الفكرة فطلقها بعد شهر واحد من مغامرته الافريقية، تحت وطأة «أزمة ربو» (كان غيفارا مريضًا بالربو) شديدة وتشخيص ثوري يائس. فافريقيا، وكيفو التي تشهد اليوم حروب التوتسي والهوتو، فجّة لم تنضج لتثور، ففضل غيفارا عليها الثورة... والموت في بوليفيا.

وتعبير «فج» يصلح اليوم ايضًا لوصف كيفو والمتقاتلين عليها وحولها، التي لم تنضج شروط تدخل دولي فيها على رغم الحاح مآسي اللاجئين وتضافر عناصر كافية لمذابح في رواندا وزائير.

كما يصلح «الفج» لوصف موقف المتدخلين المحتملين في شرقي زائير، أو بالأصح «لا موقفهم» باعتبار ان الفعل الدولي ما يزال يقتصر على التداول في أفضليات حسمها قرار مجلس الامن بالتدخل عسكريًا وانسانيًا كما يتمنى الفرنسيون، لكن الاميركيين ومعهم اللاعب الرواندي (وهو لاعب اساسي في المنطقة) يمارسون لعبة كسب الوقت لتحقيق اهداف عسكرية في شرقي زائير واعادة ترتيب الاوضاع في منطقة البحيرات ا لكبرى.

وكالعادة رجحت وجهة النظر الاميركية وظهرت واشنطن سيدة الموقف في سياسة منطقة كانت تسمّى «حديقة باريس الخلفية» في افريقيا، بعدما تبنت (واشنطن) الاعتراضات الرواندية على أي مشاركة فرنسية في القوة المتعددة الجنسيات بسبب الانحياز الفرنسي إلى اتنية الهوتو.

وللمرة الاولى فقدت باريس المبادرة في افريقيا بسبب الاهتمام الاميركي المستجد بالقارة السمراء لادماجها تحت مظلة النظام العالمي الجديد بعد انتفاء الحاجة إلى الدور ا لفرنسي الضابط لكل النزاعات في القارة اثناء الحرب الباردة التي انتهت محدثة انقلابًا في حركة الاستقطاب داخل القارة. واستطاعت واشنطن منذ انهيار جدار برلين ان تضم إليها اريتريا والكونغو وبنين وأوغندا، ومعظم البلدان الناطقة بالانكليزية، أو الخارجة من حروب تحرير، أو تداعي أنظمة اشتراكية.

أما فرنسا فقد فشلت في تكييف مستعمراتها الافريقية السابقة مع المعطى الجديد لما بعد انهيار جدار برلين، و لم تفعل القمة الفرنسية-الافريقية في مدينة لابول الفرنسية (١٩٨٩) أكثر من تنظيم حملات انتخاب فولكلورية كرّست رؤساء الغابون وساحل العاج وافريقيا الوسطى وزائير وغيرها، على رغم ربط الرئيس ا لفرنسي الراحل فرنسوا ميتران، في ذلك المؤتمر، استمرار تقديم المساعدات الحيوية والقروض لهذه الدول باجراء تحولات ديمقراطية فعلية والانفتاح على المعارضة وإنشاء مؤسسات تستند إلى شرعية الاقتراع العام واطلاق الحريات.

لقد فقدت فرنسا المبادرة في منطقة البحيرات الكبرى بسبب انهيار حليفها الزائيري عسكريًا وسياسيًا أولاً، وبسبب سابقة الانحياز الفرنسي إلى جانب نظام الرئيس الرواندي (من الهوتو) جوفال هابياريمانا، وما آلت إليه عملية «توركواز-٢» عندما ارسلت باريس قوة تدخل لحماية

اللاجئين وإقامة ممـرات انسـانية يحميهـا العسكريون الفرنسـيون، استخدمها جيش الهوتـو ومنفـذو المذابح بحق نصف مليـون توتسي، للانسحاب بامان واعـادة تجميع قواتهم في كيفـو، المقاطعة الزائيرية المحاذية لرواندا، واستخدام مخيمات اللاجئين، وهـم أكثر من مليون، كمراكز للتجمع واحتياطي لتجنيد المقاتلين وتدريبهم بمساعدة زائيرية، وشـن هجمـات انطلاقًا مـن كيفـو، ضـد الاراضـي الرواندية، واغتيـال افـراد الادارة والقيادة التوتسية الرواندية الجديدة، وتصفية بعض شهود المذابح التي تحضر محكمة العدل الدولية لمحاكمة بعض مرتكبيها.

روانــــدا تســـابق التدخــــل الدولي: أصبحـت روانـدا اللاعـب الاقليمي الاول في مـا يخص احداث شرقي زائـير. وذلك بعد ان سيطر التوتسي علـى السلطة في كيغالي منذ ١٩٩٤، وقيامهم ببناء جيش منظـم ومنضبـط، ساعدت جنوب افريقيـا واسرائيل وأوغنـدا علـى تسليحه وتدريبـه، واستفاد مـن خـبرات كادراتـه وضباطـه التوتسـي الذيـن قـاتلوا في الثمانينـات في أوغندا، في صفوف جيش الرئيس الأوغندي (وهو ايضًا من التوتسي) يويري موسوفيني. وأبرز هؤلاء الضبـاط القـائد السـابق لجهـاز الاسـتخبارات الاوغنـدي الجـنرال بـول كاغاميه رجل رواندا القوي ووزيـر دفاعهـا وحـاكمهـا الفعلـي الـذي عمـد إلى تسـليح وتنظيـم ميليشـيات التوتسـي الزائريـين في كيفو والمسيطرين على التـلال المهمـة فيهـا، والذين انضمت إليهم بعض فصائل المعارضة الزائيرية المسـلحة؛ حتـى ان سقوط مدينـتي غومـا (عاصمـة كيفـو) وبوكـافو بيــد الروانديـين تحـول إلى احتفـالات شـعبية بـالتحرير (كـان الجـنرال كاغاميـه زار اسرائيل في ايلول ١٩٩٦ أي قبل قليـل مـن عملية الروانديين في اقليم كيفو الزائيري ودشن نصبًا تذكاريًا لضحايا مذبحة التوتسي داخــل فادياشـــيم المكــرس لضحايــا الهولوكوست النازية من اليهـود، وهـو أول اعتراف اسرائيلي بتماثل مصير شعب آخر كالتوتسي، بمصير اليهـود علـى يـد النـازيين الالمـان. وقـدم الاسـرائيليون لكاغاميـه مساعدات عسكرية في اطار صفقـة اسلحة للجيش الرواندي).

وفيما كانت الاسرة الدولية منشغلة بـدرس اشكال التدخـل المطلـوب، كـان تحـالف التوتسـي الزائـيريين في كيفـو، وبمساعدة من الجيش الرواندي، يتـابع حملة عسـكرية ضـد المـدن الرئيسـية للمقاطعـة، توجـت في ١٦ تشـرين الثـاني ١٩٩٦ بـالهجوم علـى أكـبر مخيمـات اللاجئـين في موغانغا (نصف مليون هوتـو)، مـا أدّى إلى موجـة نـزوح جديـدة باتجـاه روانـدا ولكـن وفق ترتيبات املتها رواندا.

مؤتمر برلـين ثـان: مـن الاستراتيجية الرواندية، التي تعمـل إدارتهـا علـى تنفيذهـا عبر ترتيبات خاصة بعودة اللاجئين الهوتـو، إبعاد ميليشيات الهوتو عن الحدود وحرمانها من احتياطها البشري، وهذا ما حدث حتى الآن ونجح نسبيًا. لكـن العـودة السـريعة للاجئين الهوتـو إلى داخـل روانـدا تحمـل في طياتها مخاطر كثـيرة، أولهـا ان العـائدين، إذا

ما استمر تدفقهم، قد يبلغون مليونًا، وهم يتجهون مباشرة إلى قراهم لاستعادة مزارعهم وحقولهم. لكنهم يجدون ان مليون توتسي تقريبًا عادوا من تنزانيا وأوغندا وزائير، خلال العامين الماضيين (١٩٩٤ و١٩٩٥)، أي منذ استلام التوتسي للسلطة في رواندا) واستولوا على حقول ومنازل عائدي اليوم من الهوتو (اواخر ١٩٩٦) وتقوم مجالس محلية وقروية يسيطر عليها التوتسي بتقرير من يحق له استعادة ارضه وبيته.

ويعرض رجل رواندا القوي، كاغاميه، لحل مشكلة اعادة إسكان اللاجئين بتوزيع ٢٠٪ من اراضي المحميات الطبيعية عليهم. لكن هذا الحل قد لا يكفي في بلاد يعمل ٩٥٪ من اهلها في الزراعة، كما ان نسبة الكثافة السكانية العالية (٢٦٥ نسمة في الكلم م. الواحد) تعزز الاعتقاد بأن الخطوة المقبلة لرواندا، لحل مشكلة ديمغرافية زراعية-غذائية مستعصية، هي المطالبة بالعودة إلى حدودها التاريخية ما قبل مؤتمر برلين في ١٨٨٥ وضم كيفو الزائيرية إليها حيث لا تتعدى الكثافة السكانية ٢١ نسمة في الكلم م. الواحد. ويطالب وزير الخارجية الرواندي أناستاز غاسانا بمؤتمر برلين ثان لاعادة رسم الحدود في منطقة البحيرات.

انهيار زائير («رجل افريقيا المريض»): مثل هذه الدعوات يفتح الباب واسعًا امام احتمالات انهيار زائير التي بات يطلق عليها إسم «رجل افريقيا المريض».

فالجيش الزائيري نفسه لم يعد له وجود عمليًا، إذ إن ٥٠ ألف جندي (هم تعداد هذا الجيش) لم يعودوا يتذكرون تاريخ آخر راتب تلقوه قبل اندلاع معارك تشرين الاول-كانون الاول ١٩٩٦، ويتناول الواحد منهم دولارين في الشهر، ويتصرفون داخل زائير نفسها كجيش احتلال من حيث سلب ونهب ما تطاله ايديهم.

وإذا لم تنجح باريس بارسال قوات عسكرية إلى المنطقة فإنها لن تستطيع بوسائل أخرى منع وصول الاسلحة والذخائر إلى سكان الحزام الامني في كيفو، وانتقالها عبرهم إلى ٢٥٠ مجموعة عرقية تشكل كتلة متنافرة من ٤٤ مليون زائيري، لم يعد يجمع بينها سوى الاسم الجغرافي «زائير» الذي تمتد خريطته في قلب القارة السوداء فوق ٢،٣ مليون كلم م.، ولا تقوم فيه سلطة الدولة، بعد ثلاثة عقود من حكم الرئيس موبوتو إلا على امتار قليلة مربعة لأبنية الوزارات أو ما تبقى منها.

وانقسام زائير بات واقعًا، إذ إن معظم المقاطعات ترتبط اليوم عمليًا بدول الجوار بعيدًا عن سلطة المركز كينشاسا ذلك ان شابا (كاتنغا سابقًا) الغنية بالكوبالت والنحاس والماس تحولت إلى مقاطعة جنوب افريقية بسبب سيطرة شركات جوهانسبورغ على مناجمها التي تحميها جيوش خاصة وفرق مرتزقة، وقامت سلطاتها بابعاد مليون مواطن زائيري في ١٩٩٣ قدموا من مقاطعة كاسائي المجاورة للعمل فيها.

أما مقاطعة كاسائي في الوسط فلم تعد

تستخدم العملة الوطنية في مبادلاتها وتتبع سياسة مالية مستقلة للتخلص من التضخم المالي الذي بلغ ٣٤٠٪ وتعتمد الفرنك الافريقي. وتتوجه زائير السفلى في الجنوب إلى التعامل تجاريًا واقتصاديًا بشكل خاص مع أنغولا؛ أما الشمال فتتركز مبادلاته الاقتصادية مع جمهورية افريقيا الوسطى.

وليس ابلغ دلالة على تمزق زائير أكثر من تنافس ٤٥٠ حزبًا وجماعة سياسية في الانتخابات التشريعية المقررة في ١٩٩٧.

وإذا ما استطاع الروانديون الحفاظ على منطقة الحزام الامني في شرقي زائير وضمها إلى بلادهم لحل مشكلة الكثافة السكانية، والتخلص نهائيًا من الهوتو، فإن السيناريو الذي ينتظر زائير ومنطقة البحيرات الكبرى يتضمن سلسلة طويلة من الحروب الاهلية، والأخطر بنظر فرنسا، وهو وقوع سابقة مراجعة الحدود الموروثة عن الاستعمار وإجراء تعديلات فيها، ما يهدد بنسف التوازنات القائمة وإحياء مطالب التجمعات العرقية باعادة تفصيل الحدود على مقاييسها، ووقف خريطة انتشارها التاريخي، وهو احتمال قائم طالما ان واشنطن ترفض مطالبة فرنسا بعقد مؤتمر دولي حول منطقة البحيرات يكرس التعهد باحترام الحدود القائمة.

عائدون الى مدينة كيغالي
(٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٦).

مدن ومعالم

* **إنجا، سد:** سد أقيم على نهر زائير (نهر الكونغو). بدأت الدراسات حوله منذ ١٨٨٥، أي منذ معاهدة برلين التي قسمت افريقيا بين الدول الاوروبية. لكن الاستعمار البلجيكي كان يعيق البدء بالعمل. وكان بناؤه غاية في الصعوبة سواء من الناحية الفنية أو الطبيعية. ففي تلك المنطقة كانت تنتشر انواع من حشرات النحل تسبب لدغتها للانسان العمى الكامل. وظلت هذه الحشرة تمثل عائقًا ضد أي اقتراب من الموقع. ولكن مع تقدم استخدام المبيدات الحشرية تم تطهير هذه المنطقة، فتحولت إلى خلية نحل بشرية. جاء العمال والمهندسون من كل مكان في العالم، واستخدم ٢٥٠ ألف طن من الديناميت لتحويل مجرى النهر وتمت المرحلة الاولى في ١٩٧٤، وكانت توفر ٣٥٠ ألف كليلووات من الطاقة.

لكن هذا السدّ الآن شبه معطل. فهو يحتوي على ١٢ توربينًا لا يصلح فيها للعمل إلا إثنان فقط. يعمل أحدهما لتغطية حاجة البلاد ويبقى الثاني للاحتياط. وتحول السدّ إلى طاقة معطلة كانت كافية لمد الطاقة إلى دول افريقيا الوسطى وتنزانيا وموزمبيق وأنغولا وزامبيا.

ويجري الكلام احيانًا على «مشروع-حلم» تسعى مصر لتحقيقه بالتعاون مع زائير. إذ إن هذا السدّ واحد من اضخم السدود في العالم. وقد وضع بنك التنمية الافريقي مبلغ ١٠ ملايين دولار لدراسة جدوى المشروع الذي يتمثل في ربط سدّ زائير بالسد العالي في مصر عن طريق خط كهربائي عملاق، فيتوحد أكبر مصدرين للطاقة في افريقيا، ومن خلال ربط شبكة السد العالي باوروبا يصبح بالامكان نقل الطاقة إلى بقية البلاد العربية واوروبا.

* **بوكافو Bukavu:** يعني الإسم «بلاد موارد الماء»، وكان إسمها كوستزمنفيل. مدينة زائيرية تقع على الضفة الجنوبية لبحيرة كيفو. تعد نحو ٢٢٥ ألف نسمة. منطقتها غنية بمناجم القصدير والأتربة النادرة. وهي منطقة بركانية.

* **كيسانغاني Kisangani:** مدينة زائيرية. كانت تدعى ستانليفيل. واقعة على الضفة اليمنى من نهر زائير، وعند نهاية الجزء الصالح للملاحة الذي يبدأ عند العاصمة كينشاسا، وتبعد عن العاصمة ١٧٣٤كلم. تعد نحو ٣٣٠ ألف نسمة. عاصمة مقاطعة زائير العليا.

* **كيكويت Kikwit:** مدينة زائيرية، تبعد ٤٠٠كلم شرقي العاصمة كينشاسا، وتعد نحو ٦٥٠ ألف نسمة. لا تزال المدينة تعيش في حالة من التخلف الشديد، إذ ليس فيها إلا شارع وحيد مرصوف، ومياهها ملوثة وغير كافية والكهرباء قليلة. تناقل العالم، بدءًا من ايار ١٩٩٥، إسم هذه المدينة، بعد ان ظهر فيها فيروس «إيبولا» الذي فتك بالعشرات من ابنائها وانتقل إلى مدن زائيرية أخرى، وتمّ حصره قبل ان يصل إلى العاصمة. وعزا خبراء ظهور هذا الوباء إلى تدهور البيئة في كيكويت وإلى الاهمال البشري، إذ إن الناس هناك «يعيشون في ظروف اجتماعية وصحية سيئة». وقبل هذه المرة، كان فيروس إيبولا قد انتشر في ١٩٧٦ وقضى على نحو ٣٠٠ شخص في زائير وتسرب إلى مناطق في السودان ولم يفلح الاختصاصيون في اكتشاف أي علاج أو لقاح له. وإسم الفيروس «إيبولا» من إسم منطقة نهر إيبولا الزائيرية.

* **كينشاسا Kinshasa:** إسمها حتى ١٩٦٦ ليوبولدفيل. عاصمة زائير. تقع على الضفة اليسرى لنهر ماليبو بول، وتعد نحو ٤،٢٥٠ مليون

نسـمة. جامعة كاثوليكية. صناعات غذائية ونسيجية. أهم شوارعها هو «شارع ٣٠ تموز» ذكرى الاستقلال، ويضم أهم معالم المدينة الحديثة: البنوك والمحلات التجارية ومكاتب الطيران والبنايات الفخمة التي تعود في معظمها إلى ايام الاستعمار. كانت قرية تدعى كينتمبو Kintambo، وعندما وصل إليها المستكشف ستانلي دعاها ليوبولدفيل على إسم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني. أصبحت المدينة عاصمة المستعمرة في ١٩٢٠، ثم عاصمة دولة زائير المستقلة ابتداءً من ١٩٦٠.

في ١٩٩٢، عاشت كينشاسا حالة من الفوضى فريدة. بدأ الامر عندما تأخر دفع مرتبات الشرطة وقطاعات كبيرة من الجيش. فهجم الجيش على المباني عاملاً النهب والسلب (النقود والجواهر والاجهزة الكهربائية) واحيانًا القتل. وكان زمام الأمن قد أفلت تمامًا، وانتشرت الحرائق في كل مكان، ونهبت كل المتاجر الكبرى. وكلما دفعت الحكومة برجال من الأمن انضموا بدورهم للنهابين. فاستعد الرئيس موبوتو للهرب على ظهر يخته، لكن القوات الاجنبية تدخلت، فارسلت بلجيكا وفرنسا فرقتين من رجال المظلات رابضوا وسط الشوارع الرئيسية للعاصمة. ولمدة خمسة عشر يومًا ظلت كينشاسا مدينة أشباح. رماد الحرائق والادخنة. الاسواق متوقفة والشوارع خالية. وتحدث موبوتو كي يؤكد ان هذه «الاحداث قد أثبتت تمسك الشعب به كرئيس مدى الحياة». وأعلن عفوه العام عن كل العسكريين الذين تمردوا، بل وسمح لهم ايضًا ان يبيعوا كل الاشياء التي نهبوها. فتحولت معسكرات الجيش إلى اسواق للبيع والشراء. وأكثر المتضررين من حالة الفوضى هذه التي عاشتها كينشاسا كان افراد الجالية اللبنانية الذين كانوا يشعرون بمناخ الكراهية التي يحيط بهم. والحقيقة ان بعض افراد هذه الجالية قد تسبب في توليد هذا الشعور، إذ قلّدوا البيض الاوروبيين في كل مظاهر الثراء والاستعلاء على الافارقة. كما انهم عانوا من منافسة الاسرائيليين الذين انتشروا في كل ارجاء الحياة التجارية في زائير، وأقاموا العراقيل في وجه كل عربي معتمدين على صلاتهم الوثيقة بالحكومة.

* **لوبومباشي Lubumbashi:** كان إسمها اليزابتفيل. قاعدة منطقة شابا وتقع جنوبيها وعلى بعد ٢٤٠٣كلم عن كينشاسا. خط سكة حديد يربطها بمدينة لوبيتو (أنغولا)، لوساكا (زامبيا)، بولاويو (زيمبابوي) ويصل حتى الكاب في جمهورية جنوب افريقيا. تعد نحو ١،٣٠٠ مليون نسمة. جامعة. مركز إنتاج النحاس والكوبالت.

* **ليكاسي Likasi:** كان إسمها جادوتفيل. مدينة زائيرية. تعد نحو ٢٢٥ ألف نسمة. تنتج النحاس والزنك والكوبالت.

* **ماتادي Matadi:** مدينة زائيرية، تقع عند مصب نهر زائير، وتبعد ٣٦٦كلم عن كينشاسا. تعد نحو ١٧٥ ألف نسمة. أسسها ستانلي في ١٨٧٩.

* **مبانداكا Mbandaka:** كان إسمها (ايام الاستعمار البلجيكي) كوكيلاتفيل. مدينة زائيرية تقع على الضفة اليسرى لنهر زائير. تعد نحو ١٥٠ ألف نسمة. قاعدة المقاطعة الاستوائية ومركز منطقة زراعة البن والكاكاو.

* **مبوجي مايي Mbuji Mayi:** كان إسمها باكوانغا. مدينة زائيرية في مقاطعة كاساي الشرقية. تعد نحو ٥٠٠ ألف نسمة. صناعة الألماس.

نهر زائير : أعلى: طريقة صيد تعود الى قرون ولا تزال متبعة. تحت: صيادون شبان يستعملون تقنيات بدائية تقليدية.

زعماء ورجال دولة

* **أدولا، ســيريل .Adoula,C** (١٩٢٣-١٩٧٨): سياسي زائيري (كونغـو-ليوبولدفيـل سابقًا). شغل منصب نائب رئيس المكتب الموقت للحركة الوطنية الكونغولية، ثـم منصب عضـو في مجلس الشيوخ عن المقاطعـة الاسـتوائية. وزيـر الداخلية في حكومة إيليـو مـن ايلـول ١٩٦٠ إلى شباط ١٩٦١، ووقـع على بروتوكـول الاتفـاق العسكري مـع تشـومبي وكـالونجي. وفي اول آب ١٩٦١، كلفـه الرئيس كـازافوبو تـأليف حكومـة وفاق وطني تضم انصار وأخصام بـاتريس لومومبـا حيث نجح في تصفية قضية كاتنغا إلى حـد كبير. فبقـي رئيسًـا للـوزراء حتـى حزيـران ١٩٦٤. استطاع خلال هذه المدة ان يتخطى ازمات كثيرة بفضل دعم الغربيين له وخاصة الولايـات المتحـدة. ثـم استقال ليفسح المجال امام حكومـة انتقاليـة برئاسة تشـومبي. وعـاد بعـد فـترة إلى الواجهـة السياسية ليشغل منصب سفير لبلاده في بروكسـيل ثم وزير للخارجية في عهـد موبوتـو حتـى كـانون الاول ١٩٧٠. ومنـذ هـذا التـاريخ، تـرك بـلاده وقصد سويسرا وبقي فيها حتى وفاتـه في ٢٤ ايـار ١٩٧٨ في مدينة لوزان.

* **بوند، أنقــوزا كـارل:** مـن إقليـم شـابا. دبلوماسي وسـفير سـابق في الامـم المتحـدة. وزيـر خارجيـة موبوتـو في ١٩٧٢ و١٩٧٧، ورئيـس وزراء ١٩٧٧-١٩٧٩. منـافس لرئيـس الـوزراء الحالي كنقـو وادونـدو. ويبـدو ان الدوائـر الغربيـة تدعمه (الولايات المتحدة والمانيا وبلجيكا). انفصل عن الطاقم السياسي الموبوتي وكوّن حزبه، حـزب الفدراليين الجمهوريين المستقلين.

* **تشــومبي، مويـــس .Tshombe,M** (١٩١٩-١٩٦٩): رئيس الحكومـة الانفصاليـة في حكومة كاتنغا (١٩٦٠). ينتمي إلى اسرة ثرية من قبيلـة لونـدا. لتقـى علومـه في المـدارس التبشـيرية الاميركية. في انتخابات ١٩٦٠، لم يظفر حزبه إلا بثمانية مقاعد من ١٣٧ مقعدًا في الجمعية الوطنيـة، لكنه ظفر بـ٢٥ مقعدًا من بين ٦٠ مقعدًا في مجلس مقاطعة كاتنغا. كان يطالب بانفصال هذه المقاطعة بتأييد من الاستثمارات البلجيكية والغربية والمرتزقة نظرًا للثروات الباطنية الضخمـة الـتي تحتويهـا هـذه المقاطعـة؛ ولكنـه لم ينجـح في ذلـك، وتقــوض في النهايـة حكمـه في كاتنغـا نفسـها. كــان لـه دور أساسي في قتل لومومبا (راجع «النبذة التاريخية»). خطفت طائرة تشـومبي إلى الجزائـر حيـث احتجـز حتى وفاته في ١٩٦٩.

* **تشيســيكيدي، إتيــان .Tshisekedi,E** (١٩٣٢-): أبرز مؤسسي حزب الاتحاد من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتمـاعي في ١٩٨٢ الذيـن كانوا اعضاء في المجلس الوطني. كـان وزيـرًا أكـثر مـن مـرة منـذ حكومـة لومومبـا، ورئيـس وزراء المرحلة الانتقالية حين عزله موبوتو قبل نهاية ولايته في ١٩٩٢ بعد ان انتخبه المؤتمر الوطني الدستوري. يتحدر تشيسيكيدي مـن إقليـم كاسـاي في وسـط زائير والمعروف بغناته بالألماس والاحجار الكريمـة، وبشـهرة قباتلـه بعنـادهم إذ رفضـوا تـداول العملـة الرسمية التي تحمل صورة الرئيس موبوتـو ويحركهـم نزوع كامن نحو الانفصال.

يقود إتيان تشيسيكيدي الجناح المتشـدد في التيار الديمقراطي. وهو واسع الشهرة نسبة لتصديـه للرئيس موبوتو منذ نهايـة الثمانينـات حـين اعتقلـه هـذا الاخـير ونفـاه إلى قريتـه النائيـة في الشـمال بدعوى الجنون لمناداتـه باعـادة التعدديـة في البـلاد. هتفت مظـاهرات العاصمـة كينشاسـا الـتي نظمهـا الطلاب الجامعيون باسمه معتبرة إياه رمز الديمقراطية الزائيرية «الجريحة». يُعـوّل عليـه (خاصـة مـن قبـل

تيار الديمقراطيين وريث تركة لومومبا) على قيادة زائير في مرحلة ما بعد موبوتو المريض.

*** كازافوبو، جوزف Kasavubu,J.**

(١٩١٣-١٩٦٩): سياسي زائيري ووجه بارز من وجوه المرحلة الاستقلالية الاولى ومن أشد خصوم لومومبا. ولد في تشيلا (إقليم ليوبولدفيل، كينشاسا لاحقًا). بعد ان اتم تحصيله العلمي في مدارس ومعاهد الارساليات الكاثوليكية عمل مدرسًا لسنتين، ثم التحق (١٩٤٢) بدائرة المالية التابعة للادارة الاستعمارية البلجيكية.

كانت أولى طموحاته السياسية توحيد شعب الباكونغو الموزع في الكونغو الفرنسي والكونغو البلجيكي (زائير) وأنغولا التي كانت وقتها مستعمرة برتغالية. وقد عبر عن هذا التطلع في دراسة قدمت إلى جمعية ثقافية كونغولية بعنوان «حق الساكن الاول».

في ١٩٥٠، انتخب رئيسًا لـ«جمعية الباكونغو من اجل الوحدة والتطور والدفاع عن لغة الكيكونغو» التي كانت تأسست قبل خمس سنوات. وعلى رأس هذه الجمعية، طالب كازافوبو باستقلال الكونغو وبحق سكانه في تشكيل احزاب سياسية. وحين ادخل البلجيكيون نظام الانتخاب الديمقراطي (١٩٥٧)، انتخب عمدة لبلدة دندال واخذ يطالب من هذا المنبر باطلاق حرية الصحافة وباجراء انتخابات وطنية وبالحكم الذاتي. وقد اخذت المطالبة بالاستقلال تنتشر في الاوساط الشعبية.

في اوائل ١٩٥٩، اعتقل كازافوبو لأشهر مع معظم قادة جمعيته على اثر صدامات وتظاهرات في ليوبولدفيل. وبعد اطلاق سراحه، عمل على اعادة بناء الجمعية تحت إسم «تحالف الباكونغو»، واكتمل بذلك فرز القوى الكونغولية: فمن جهة حركة كازافوبو الانشقاقية ومن جهة أخرى «الحركة الوطنية الكونغولية» المنادية بدولة موحدة بزعامة باتريس لومومبا. وفي اوائل ١٩٦٠، قاد كازافوبو وفد تكتل «أباكو» الذي كان ضم بين اعضائه عددًا من القوى السياسية إلى مؤتمر الحوار المنعقد في بروكسيل حيث طالب بدستور اتحادي للكونغو. لكنه سرعان ما انسحب من المباحثات عندما فشل في إقناع الحكومة البلجيكية بتشكيل جمعية تأسيسية مؤقتة.

وكان من نتائج مؤتمر بروكسيل ظهور باتريس لومومبا بموقع القوة. وقد تجلى نفوذه في الانتخابات العامة (ايار ١٩٦٠) التي فازت بها حركته بـ٣٣ مقعدًا في الجمعية الوطنية مقابل ١٢ لتكتل «أباكو». وتشكلت اثر هذه الانتخابات اول حكومة وطنية كونغولية برئاسة لومومبا في حين انتخب كازافوبو رئيسًا للدولة.

وما إن دخل الكونغو عهد الاستقلال حتى انطلقت شرارة الحرب الاهلية مع بروز الحركة الانشقاقية التي قادها موييس تشومبي في كاتنغا بدعم من ا لبلجيكيين. وقد أدت هذه الحرب إلى تدخل قوات الامم المتحدة لحفظ السلام. وفي هذا الوقت نشب صراع عنيف بين لومومبا وكازافوبو الذي حاول إقالة لومومبا. واستطاع بتحالفه مع الجنرال موبوتو القضاء على خصمه الذي اغتيل في اوائل ١٩٦١. ثم عاد وتحالف مع تشومبي فعينه رئيسًا للحكومة في ١٩٦٤، لكنه اقاله في السنة التالية. وبعد اسابيع قاد موبوتو انقلابًا عسكريًا اطاح كازافوبو الذي ادخل حينها إلى مجلس ا لشيوخ حيث بقي حتى وفاته في ١٩٦٩ (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص ٤٠).

*** لومومبا، باتريس Lumumba,P.**

(١٩٢٥-١٩٦١): زعيم افريقي من الكونغو (زائير) جسّد النزعة القومية الكونغولية في تطلعاتها الوحدوية واهدافها التحررية الأكثر رسوخا.

باتريس لومومبا. قال فيه الشاعر الفرنسي ايمي سيزير: «انه الكلمة» (Le Verbe).

ولد في كاتاكو-كومبيه في مقاطعة سانكورو في منطقة كاساي الزائيرية في اسرة كاثوليكية شديدة التدين. كان والده معلمًا للدين المسيحي في مدرسة ابتدائية وامه عاملة زراعية. تابع باتريس دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة يشرف عليها مبشرون بلجيكيون ثم وظّف برتبة منشيء في شركة منجمية بلجيكية في كيندو في منطقة كيفو. منحته السلطات البلجيكية بعد ذلك منحة دراسية، فالتحق بمعهد البريد والبرق والهاتف في ليوبولدفيل (كينشاسا)، وأصبح، بعد تخرجه، محاسبًا في الصكوك البريدية في ستانليفيل (كيزانغاني). وبعد ان عمل على مدى ١١ عامًا في الادارة الاستعمارية اعتقل ووجهت اليه تهمة الاختلاس. اطلق سراحه في وقت لاحق، فاقام مع اسرته في ليوبولدفيل حيث أصبح، في ١٩٥٧، المدير التجاري لمصنع للجعة.

نشط لومومبا، حتى ١٩٥٧، في سبيل الاندماج والمساواة بين البلجيكيين والكونغوليين. لكن انعطافًا مهمًا وحاسمًا في خط مساره النضالي حصل في تشرين الاول ١٩٥٨ عندما بادر إلى تأسيس «الحركة الوطنية الكونغولية». ولما دعي، في كانون الاول ١٩٥٨، إلى مؤتمر عموم افريقيا المنعقد في آكرا، دافع لومومبا، الذي كان يكن اعجابًا شديدًا لزعيم غانا كوامي نكروما، عن النزعة القومية الكونغولية. وما إن عاد إلى بلاده حتى راح ينظم حملة واسعة من اجل الاستقلال.

بعد اضطرابات ٤ كانون الثاني ١٩٥٩، تسارعت الاحداث في الكونغو. فقد وافق الملك البلجيكي بودوان الاول على مبدأ استقلال الكونغو، بيد ان المدن الكونغولية الكبرى، تحولت، طوال ١٩٥٩، إلى مسرح لأعمال عنف ولاضطرابات خطيرة. وفي تشرين الثاني ١٩٥٩، اعتقل لومومبا. بعد ذلك، بادرت الحكومة البلجيكية للدعوة إلى مؤتمر حول طاولة مستديرة بلجيكية-كونغولية للبحث في مستقبل الكونغو. وقد أثمرت المفاوضات عن تحديد يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠ موعدًا لاعلان استقلال البلاد. وقد اتفق على ان يصبح الكونغو جمهورية برلمانية بحكومة مركزية قوية مدعومة بست حكومات محلية أو اقليمية. وفي انتخابات ايار ١٩٦٠ النيابية، حصل حزب لومومبا على غالبية المقاعد في البرلمان واصبح زعيمه رئيس اول حكومة في جمهورية الكونغو المستقلة (٣٠ حزيران-٦ ايلول ١٩٦٠).

يتلخص مشروع لومومبا الاساسي في ان يجعل الكونغو دولة مستقلة فعلاً، موحّدة، تقدمية ومناهضة للاستعمار. وقد اصطدم هذا المشروع الوطني بالمصالح القبلية الضيقة من جهة، وبالمصالح الغربية من جهة أخرى. وقد كشفت التحقيقات

التي اجرتها لجان برلمانية في الولايات المتحدة، خلال عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦، حول نشاط «وكالة الاستخبارات المركزية»، عن ان التجسس المضاد الاميركي كان قد اتخذ قرارًا سريعًا غداة انتصار لومومبا يقضي بتصفيته جسديًا. وبالفعل، لم ينقض اسبوعان على تبوء لومومبا منصب رئاسة الحكومة حتى كان رجل اميركا في الكونغو، موييس تشومبي، يبادر إلى تفجير وحدة البلاد باعلانه عن انفصال كاتنغا، أغنى مقاطعات البلاد في ١١ تموز ١٩٦٠. فحصل على الفور تمرد خطير وشبه عام داخل صفوف الجيش حال دون نجاح الحكومة في إرسال قوات مسلحة إلى كاتنغا لضرب الانفصاليين. وبعد فترة وجيزة وصلت قوات الامم المتحدة إلى الكونغو، غير أنها رفضت ان تتدخل لصالح لومومبا. فضعف موقفه، مما شجع رئيس الجمهورية، كازافوبو، على إقالته من منصبه. لكن لومومبا رفض الانصياع وصمم على المواجهة. وفي ١٤ ايلول، قام الجنرال موبوتو بانقلاب واعتقله. وقد تمكن لومومبا من الفرار، ولكن ليقع في الاعتقال من جديد، وليسلّم إلى ألد اعدائه في كاتنغا الذين أعدموه في كانون الثاني ١٩٦١ في ظروف لا يزال الغموض يحيط بها (راجع «النبذة التاريخية»).

تحول باتريس لومومبا، بعد اغتياله، إلى رمز للوطنية وللتحرر لا في افريقيا فحسب بل في العالم الثالث برمته. وقد اطلق اسمه في موسكو على الجامعة التي يؤمها الطلبة الآتون من اقطار العالم الثالث كافة توكيدًا على الابعاد العالمثالثية لنضاله. كما اعلنه الجنرال موبوتو، في ١٩٦١، بطلاً وطنيًا من ابطال الكونغو محاولاً بذلك توظيف الرصيد الشعبي الذي يمثله لومومبا لمصلحته. وقد تحولت الدار التي اغتيل فيها في مدينة لوبومباشي (اليزابتفيل سابقًا) إلى محجّ للشباب الافريقي (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص ٥٢١-٥٢٢).

*** موبوتو، سيسي سيكو Mobutu,S.S.** (١٩٣٠-): رئيس زائير منذ ١٩٦٦. إسمه الكامل الذي اتخذه لنفسه في حملته الداعية إلى «الاصالة» والعودة إلى الاسماء والأزياء والتقاليد الافريقية كتعبير عن الشخصية الافريقية المستقلة عن آثار الشخصية الاوروبية الاستعمارية، هو: «موبوتو سيسي سيكو كوكو نغبندو وا زا بنغا» الذي يعني: «الديك الذي يصيح النصر، المحارب الذي ينتقل من غزو إلى غزو دون ان يتمكن أحد من إيقافه عند حد».

الجدير ذكره أن حملة العودة إلى الاصالة هذه التي اطلقها موبوتو في ١٩٧١، كانت شكلية تمامًا. إذ اعتبر موبوتو، حتى من جانب حلفائه الغربيين الذين يدين لهم ببقائه في السلطة، من أكثر رؤساء الدول الافريقية فسادًا واكثرهم غنى وبطشًا.

ولد موبوتو في لبسالا شمال غربي زائير. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس البعثات التبشيرية. التحق بالجيش الكونغولي، كما عمل في الصحافة في الفترة ١٩٤٩-١٩٥٦. تولى رئاسة اركان الجيش الكونغولي في ١٩٦٠، ثم قيادة الجيش في ١٩٦١. استولى على السلطة في تشرين الثاني ١٩٦٦ (راجع «النبذة التاريخية» والابواب الاخرى).

عمل موبوتو على تصفية خصومه، ومنحته سنوات حكمه الطويلة حنكة سياسية وظفها لتحييد الكثيرين منهم. وصفه أحد خصومه بانه السياسي الوحيد الذي يستطيع ان يقود عجلة السياسة إلى الخلف من دون الوقوع.

لعب، بذكاء، على الحبل المشدود بين واشنطن وموسكو في ايام الحرب الباردة، موظفًا فزّاعة الشيوعية وخطرها في افريقيا لاستدرار عطف اميركا، فكان حليفها الاصيل. ساعدته فرنسا وبلجيكا والمغرب في قمع حركة انفصال كاتنغا (شابا لاحقًا)، ورفدته الولايات المتحدة

موبوتو سيسي سيكو.

بالسلاح، بينما انبرت اسرائيل لتدريب جهازه الامني. وصفه برنار كوتشنر، وزير الشؤون الانسانية الفرنسي بانه «عبارة عن حساب مصرفي متحرك بقبعة من جلد الفهد»، إذ وضع خزانة الدولة تحت تصرفه متاجرًا بالماس وثروات بلاده الوافرة ناصحًا شعبه قائلاً «إن الفساد مقبول ولكن عليكم ان تسرقوا قليلاً».

ينص دستور البلاد في المادة ٣٣ على ان الموبوتية هي ايديولوجيا الحزب الحاكم (حزب الحركة ا لشعبية للثورة)، ويجعل منها مادة للدرس في الجامعات، ويحظر مناقشة قرارات الرئيس موبوتو أو المساس بشخصه. ويحرم الدستور كذلك التعددية باعتبارها تناقضًا مع دواعي الوحدة. إلا انه في نيسان ١٩٩٠، وبعد الضغوط التي افرزتها تظاهرات الطلاب والمعارضة الديمقراطية (والدول الغربية الداعمة نظامه) والتردي الاقتصادي المريع، حلّ موبوتو الحزب الوحيد معلنًا إنشاء «الجمهورية الثالثة» وقوامها التعددية الحزبية، وتكوين لجنة لصياغة دستور جديد وإجازته في اقتراع عام. وتمّ الاتفاق على نظام حكم انتقالي يوضع من داخل أروقة المؤتمر الوطني الدستوري الذي يقوده رئيس أساقفة كيسنقاني المونسنيور موسينقي الذي استقال من منصبه احتجاجًا على تلكؤ موبوتو في إجازة قرارات المؤتمر وإجادته للعبة التسويف السياسي حتى دخلت مرحلة الحكم الانتقالي عامها السادس (١٩٩٦). وعلى الرغم من استقالة

موبوتو من رئاسة حزبه المحلول وتركه العاصمة وانتقاله إلى مسقط رأسه في المقاطعة الاستوائية في مدينة بادوليت، إلا انه ظل قابضًا على شؤون الدفاع والامن والسياسة الخارجية.

أهمل موبوتو الجيش الزائيري الوطني، أو انه «نجح» في تصفيته من خلال تصفية كل عقيدة أو قضية وطنية تكون مبررًا لوجوده. فالجيش الزائيري المكون من ٥٠ ألف جندي نظامي والذي ورثه موبوتو من باتريس لومومبا الذي كان يُعوّل على هذا الجيش ويبنيه ليكون جيشًا مدافعًا عن الديمقراطية وعن القضايا الشعبية والوطنية ومتصديًا لمؤامرات الشركات الاجنبية، أصبح يعيش على التهريب والسرقة والنهب، وانحلّ فيه الانضباط والربط ولا يتلقى رواتبه الشهرية بانتظام (توصيف تجمع عليه وسائل الاعلام العالمية في نقلها الأنباء والتعليقات حول احداث مقاطعة كيفو الحدودية في الأشهر الاخيرة من ١٩٩٦).

لكن موبوتو اصطفى له فرقة خاصة به هي «الحرس الرئاسي»، وهي جيدة التسليح والتدريب، ويبلغ تعدادها ١٥ ألف عنصر، استأجرت منهم المفوضية العليا للاجئين ٣ آلاف عنصر لحراسة معسكرات اللاجئين في شرقي زائير (احداث ١٩٩٦). هذه الفرقة الخاصة لا تعرف ولاء غير الولاء للرئيس موبوتو، وعناصرها تتحدر من إقليم المنطقة الاستوائية معقل الرئيس.

خضع موبوتو، منذ آب ١٩٩٦، لعلاج من سرطان البروستات في إحدى مصحات لوزان في سويسرا، وعاد إلى كينشاسا في اواسط كانون الاول ١٩٩٦.

* **موليلي، بيار Mulele,P.** (١٩٢٩-١٩٦٨): سياسي زائيري كان عضوًا في حكومة باتريس لومومبا، وكان أحد مؤسسي حزب التضامن الافريقي في ١٩٥٩. جال في الخارج (خاصة الاتحاد السوفياتي السابق وبلجيكا) مطالبًا بانهاء الاستعمار البلجيكي. في الانتخابات التي سبقت اعلان الاستقلال، جاء حزبه في المرتبة الثانية بعد الحركة الوطنية الكونغولية. وعندما شكل رئيس هذه الحركة، باتريس لومومبا، أول حكومة استقلالية، عين موليلي وزيرًا للتربية. وإثر اغتيال لومومبا، بعد أشهر قليلة، فرّ موليلي إلى مصر، ثم الصين. وفي اواسط ١٩٦٣، عاد إلى الكونغو وقاد انتفاضة، واستطاعت حركته كسب تأييد شعبي واسع. لكن عندما بدأت ترجح كفة الحكومة، اضطر موليلي إلى الفرار فالتجأ إلى الكونغو برازافيل (الفرنسي سابقًا). غير ان الحكومة اعلنت عن عفو عام ودعته إلى العودة. لكنه ما إن عاد إلى بلده في ١٩٦٨ حتى اعلن عن محاكمته واعدامه. وتردد انه اغتيل قبل ان يعلن رسميًا عن اعدامه رميًا بالرصاص.

كان يردّد، زعيمًا للمعارضة، عبارة أكدت الايام في ما بعد مدى صدقيتها: «إن الوطن قد سقط في ايدي قلة تبحث عن الغنى بوسائل فاضحة وعاجلة ضد مصالح شعب يموت من الجوع».

* **وادولدو، كنقو:** رئيس الوزراء الحالي. يتحدر من المنطقة الاستوائية من أب يهودي بولندي وجدة رواندية من التوتسي. صار رئيسًا للوزراء ثلاث مرات. يُعوّل عليه المانحون الغربيون في ادارة التقشف الاقتصادي وإنفاذ اصلاحات صندوق النقد الدولي وشروط البنك الدولي. ليس بوسعه ان يطمح لرئاسة زائير لأن الدستور ينص على ان يكون رئيس البلاد من ام وأب زائيريين. أصبح وضعه حرجًا بعد الاحداث الاخيرة (في إقليم كيفو الحدودي، مشكلة اللاجئين الهوتو) استهدفته مظاهرات الطلاب مطالبة باستقالته. وهو أحد أغنى أغنياء زائير. يمقته السود (الزائيريون الاصليون) ويحملونه مسؤولية فشل إداء الجيش في شرقي زائير (إقليم كيفو)، وكذلك تعارضه بقوة

المعارضة الراديكالية. قال ردًا على سؤال لأحد الدبلوماسيين عما إن كان بوسعه الانتقال بالبلاد إلى مرحلة ما بعد موبوتو: «لا تعولوا عليّ إذا انتهى موبوتو فسأعبر النهر»، يقصد ذهابه إلى الضفة الاخرى من نهر زائير، أي إلى برازافيل.

يناصره المُلوّنون، وبالأخص سينخب يالي (من أب برتغالي) المستشار الخاص لموبوتو والمسؤول عن حساباته الخاصة؛ وسمبا ساولونا رئيس الاتحاد الوطني لرجال الاعمال؛ وآخر هو مسؤول المناجم لا سيما الذهب والالماس.

* **وامبيمبو، موكولو:** وزير سابق للمواصلات والعدل والخارجية والمبعوث السري الخاص للرئيس موبوتو الذي أوكل إليه قيادة عملية الانفتاح نحو التعددية التي انتهت بالفشل وببعثرة الطاقم السياسي المحيط بموبوتو.

* **يوكونجو ليكو، ماهيل:** راجع باب «الصراع الاتي في زائير».

Encyclopédie Historique et Géographique

Continents, Régions, Pays, Nations,
Villes, Sujets, Signes et Monuments

Tome VIII

PAR
Massoud Khawand

تمّ طبع الجزء الثامن

في شباط ١٩٩٧

وتليه الأجزاء الأخرى تباعًا

Ed. Février **1997**